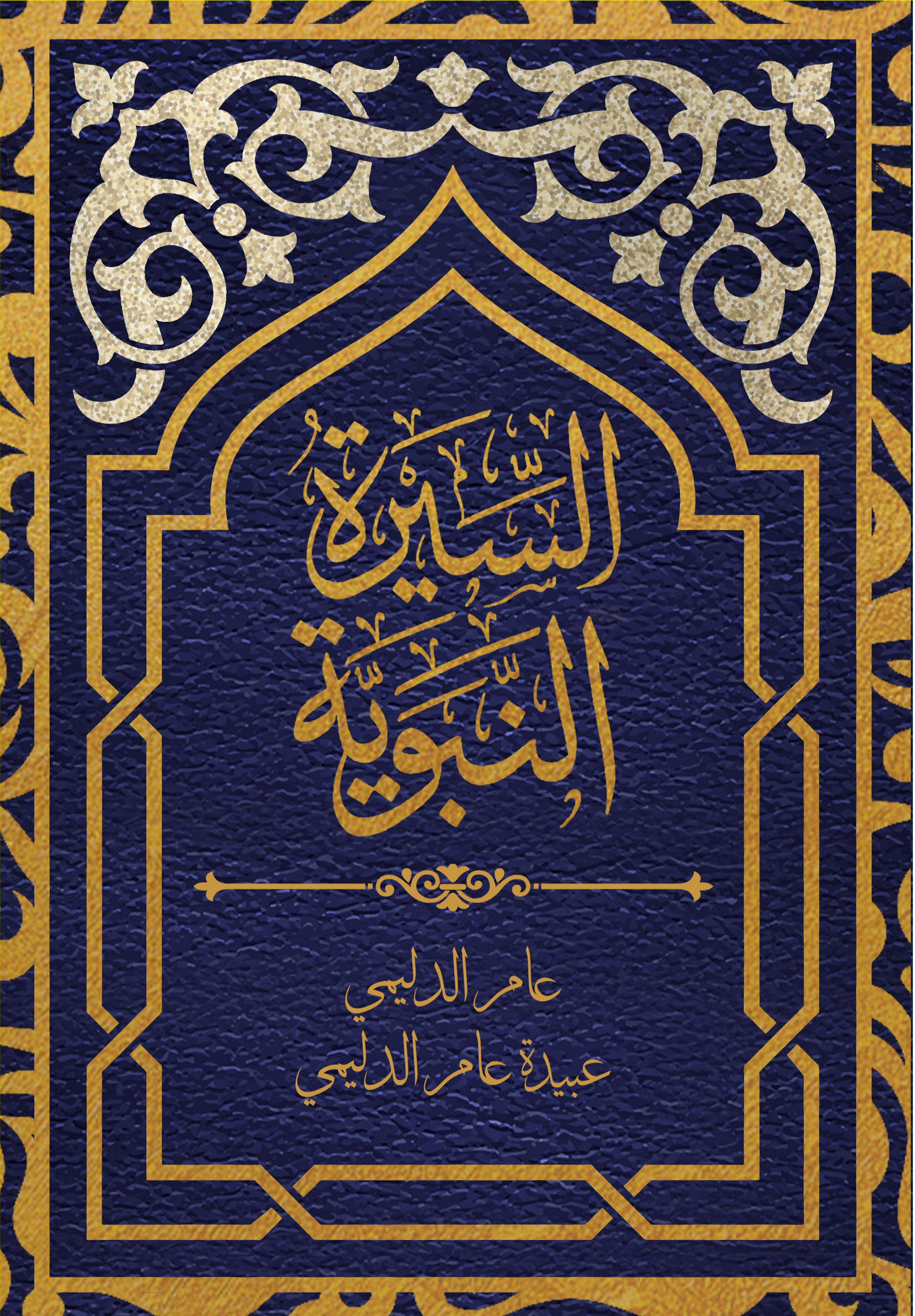
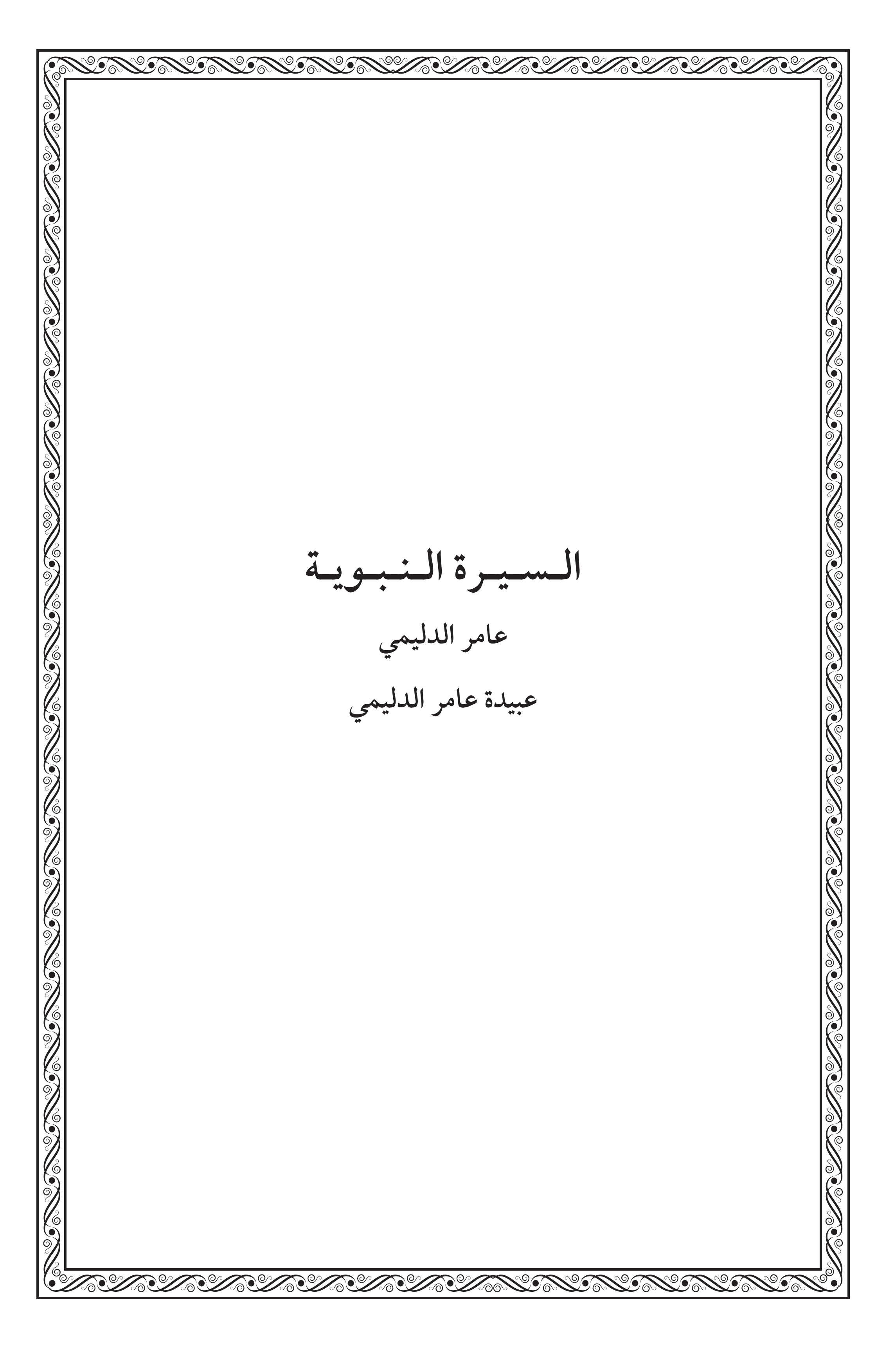
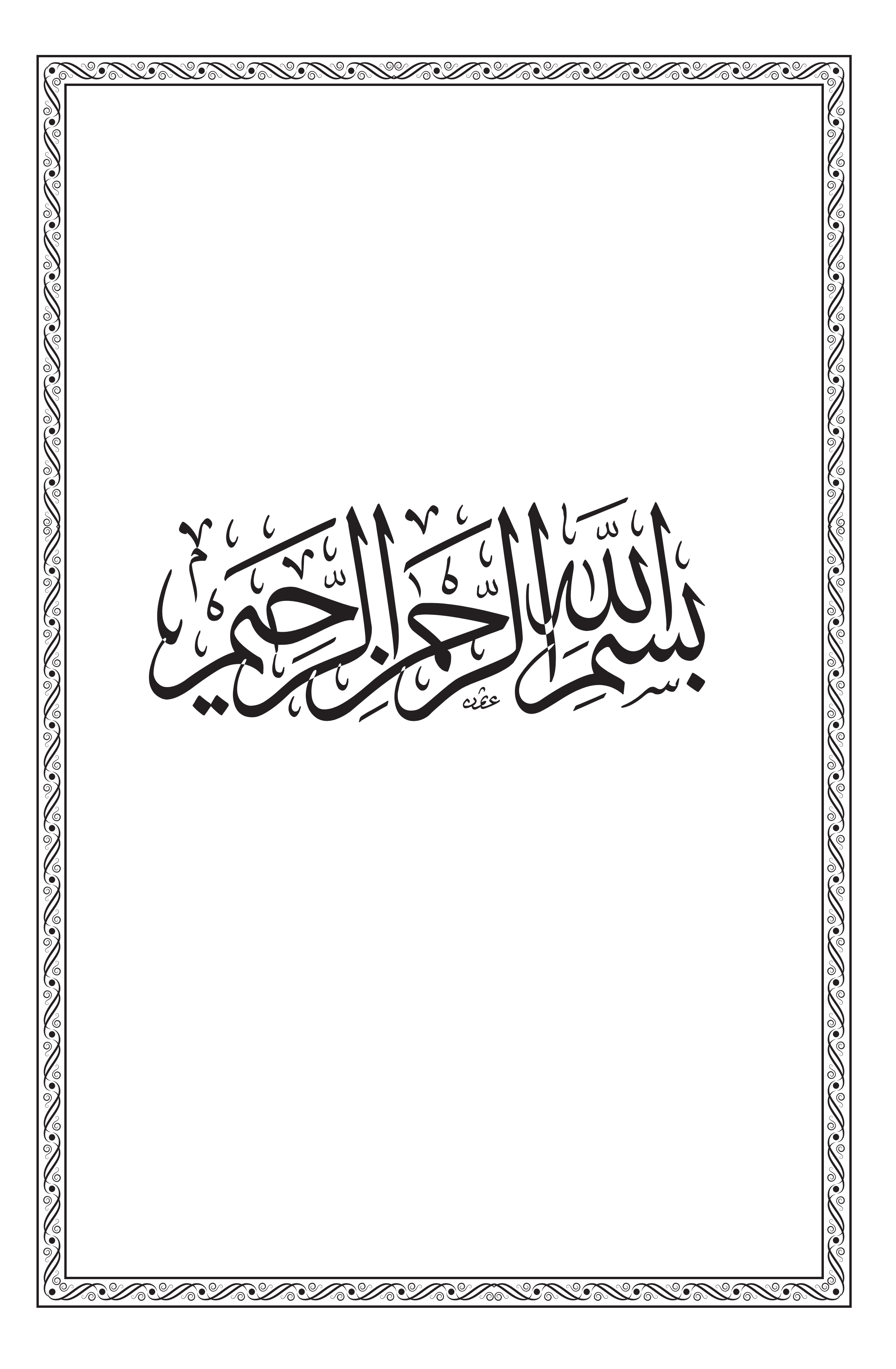

السيرة النبوية
عامر الدليمي
عبيدة عامر الدليمي



السيرة النبوية

عامر الدليمي

عبيدة عامر الدليمي


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الموحدين المجاهدين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أمّا بعد:

فإنَّ القرآن الكريم والسنّة النبوية هما المصدران الرئيسيان للتشريع الإسلامي، ولذلك كان فَهْم الإسلام مبنياً على فهم أساسَيْه: القرآن والسنّة، وبقدر علم المسلم ومعرفته بالقرآن والسنّة يكون علمه ومعرفته بالإسلام، وبقدر ما يجهل منهما يكون جهله بهذا الدين.

ولا ريب أنَّ القرآن والسنّة لم يحضيا بأيِّ عناية لا من قِبَل مدارسنا ولا من قِبَل من يُسمَّون برجال الدين أئمة وخطباء المساجد الذين اتخذوا الدين حرفة ومهنة يعيشون بها لا لها، فلم يكن الدين عندهم يوماً ما عقيدة حارة تدفعهم للعمل من أجله، ولم يحرصوا يوماً على نشر التوحيد بين المسلمين، ولهذا فهم لم يُقدّموا للناس إسلام محمد ﷺ، وإنّما قدّموا لهم الإسلام الذي يُرضي الطغاة الذين يعملون عندهم، أو الإسلام الذي يخدم أحزابهم الضالة، فأشغلوا الناس بالحديث عن نواقض الوضوء وأغفلوا الحديث عن نواقض لا إله إلا الله، فنتج عن ذلك أجيالٌ من المسلمين لا تعرف عن دينها إلّا القليل الذي لا يرسم صورة صحيحة للإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ، فصار الكثير ممّا هو معلوم من الدين بالضرورة وممّا لا يسع المسلمَ جهلُه، وما هو محل إجماع علماء الأمّة سلفاً وخلفاً غريباً على المسلمين، بل وصادماً لهم!!! خاصّة في مسائل التوحيد والولاء والبراء والجهاد.

وقد ظهرت في التأريخ الإسلامي منذ نهاية عهـد عثمان رضي الله عنه فرق كثيرة، وادّعت كل فرقة من هذه الفرق أنَّها على الحق، وأنَّها الفرقة الناجيـة والطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ.

وقد أحدثت هذه الفرق ضرراً هائلاً في الإسلام، حيث شقَّت صفَّ الأمّة، وأوجدت نزاعات داخل الصف المسلم أشغلت الأمّة عن عدوّها الخارجي، وتسبَّبت في توقّف الفتوحات الإسلامية أو التأثير عليها في كثير من الأحيان.

وقد اجتزأ مؤسسو هذه الفرق وشيوخها الإسلام بالطريقة التي تخدم مصالحهم وأهواءهم، فأخذوا من القرآن والسنّة ما شاءوا وما رأوه يتماشى مع تلك المصالح والأهواء، وتركوا ما رأوه يعارض توجهاتهم ومناهجهم الفاسدة، وأوّلوا نصوص الكتاب والسنّة حسب ما يريدون، وأدخلوا على الإسلام من البدع والخرافات ما لم نجده عند رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم.

ولم يبقَ من هذه الفرق الكثيرة إلّا فرقة واحدة، أمّا الفرق الأخرى فقد اندرست وانتهت ولم يبقَ لها وجود بين المسلمين سوى بعض أفكارها وضلالاتها التي أخذت بها الفرق التي ظهرت في عصرنا، وهي كثيرة أيضاً لكنَّ أكبرها وأعظمها تأثيراً وأشدّها خطراً فرق ثلاث.

أمّا الفرقة الأولى فقد استبدلت كتاب الله سبحانه وتعالى وسنّة رسوله ﷺ بكتاب (الأمير) و (حكومة العالم الخفية) و (بروتوكولات حكماء صهيون) وأمثالها من الكتب، وسارت على خطى اليهود في عملها السياسي، فعملت على اختراق الحكومات والوزارات والبرلمانات وسائر مؤسسات الدول ومنها المؤسسات الإعلامية، وتواجد أتباعها في الدول العربية وفي بلدان أفريقيا وأوروبا والأمريكتين وجنوب شرق آسيا وفي كل مكان في العالم، فمدَّت أذرعها الاخطبوطية حتى استطاعت التأثير على صناعة القرار في كل الدول التي تواجدت فيها بدرجات متفاوتة، والوصول إلى سدّة الحكم والسيطرة على القرار بشكل كامل في دول أخرى، بل إنَّها استطاعت أن تخترق حتى المؤسسات الدولية، وأثَّرت في صناعة القرار في العالم.

ورغم أنَّ هذا الأسلوب في العمل حتَّم على هذه الفرقة التنازل عن كل ثوابت

الإسلام، والتورّط في أقوال وأعمال كفرية مخرجة من الملّة، لكنَّها لم تأبه لذلك كله، واعتبرت ذلك ذكاءً وأسلوباً يفرضه الواقع لتحقيق أهدافها النهائية وإرجاع الخلافة الإسلامية كما تزعم!!.

قدَّمت هذه الفرقة العقل على النقل، واجتهدت في مورد النص، ولوت أعناق النصوص بطريقة كارثية، وضربت بثوابت الدين عرض الحائط، واستحلَّت الحرام، بل والكفر أيضاً، وأعلنت إيمانها بالديمقراطية والدولة المدنية، ونادت بما يسمّونه «حقوق المرأة»، وتعاملت بالربا فكانت لها مؤسساتها الربوية الضخمة حول العالم، وزجَّت بالمرأة في مؤسساتها الإعلامية العالمية والمحلية كمذيعة أخبار ومقدّمة برامج وغيرها ولم تتحرّج من ذلك، وسيطرت على واحدة من أكبر الشبكات الإعلامية في العالم والتي تضمُّ عشرات القنوات الرياضية والإخبارية والوثائقية وقنوات لعرض الأفلام والمسلسلات والأغاني وبرامج الأطفال وغيرها.

واستحلَّت هذه الفرقة أيضاً الكذب والنفاق، وإظهار الشيء وإبطان خلافه، واللعب على جميع الحبال، وجمعت بين النقائض بطريقة غير مسبوقة، حيث أفهمت كل مَنْ تعاملت معه دولاً أو مؤسسات أنَّها معهم، لكنَّها في الحقيقة تعمل لصالح مشروعها الخاص، فهي ضد الجميع وتعمل على القضاء على الجميع.

وقد حملت المصلحةُ المتوهّمة التي قدَّمتها هذه الفرقة على الكتاب والسنة والإجماع ولم تقيّدها بأيِّ قيد، على التحالف مع أعداء أهل السنة سواء كانوا صليبيين أو رافضة أو مرتدّين، وكانت لهذه الفرقة تحالفات بعضها طويلة الأمد وبعضها مرحلية مع هؤلاء، حيث دعمتهم إعلامياً ومالياً وفي الإعداد والتموين، بل وقاتلت معهم عسكرياً كما في أفغانستان والصومال والعراق والشام وليبيا واليمن وأماكن أخرى كثيرة، وتعاونت معهم أمنياً، بل إنَّها تعاونت أمنياً واقتصادياً حتى مع اليهود في فلسطين، وقدَّمت نفسها لأمريكا والغرب بعدما سُمّيت بـ «ثورات الربيع العربي» كبديل عن الحكومات العربية.

وبالجملة فلم تلتزم هذه الفرقة بضوابط العمل الإسلامي السياسي والاقتصادي والإعلامي والاجتماعي وغيره، وجعلت نفسها في حل من ذلك كله دون أن تسأل نفسها: مَنْ أعطاها الصلاحية بأن تفعل كل هذا؟ رغم أنَّ هذه الصلاحية لم تُعطَ حتى للأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام!.

وفرقة ثانية اعتبرت نفسها رائدة النهضة العلمية الإسلامية المعاصرة، وافتخرت بنزعتها الاجتهادية ومحاربة التقليد والتمذهب، وإحياء السنن ومحاربة البدع، وربط الأمّة بالحديث، وزعمت أنَّها تصفّي لتربّي!.

اعتبرت هذه الفرقة الطواغيت الحاكمين بغير ما أنزل الله حكّاماً مسلمين تجب طاعتهم ويحرم الخروج عليهم، وغالت في ذلك أشدّ الغلو، ودعمت المؤسسات الأمنية والعسكرية وغيرها للدولة الحاضنة، وألبست خطابها السياسي عباءة الدين، وحرَّضت على الموحّدين المجاهدين وأفتت بسجنهم وقتلهم ومطاردتهم.

ورغم أنَّ الضرر العقدي الذي أحدثته هذه الفرقة كان هو الأكبر والأخطر على الأمّة حيث اعتبرت الطواغيت حكّاماً مسلمين كما قلنا، واجترّت صراعات الماضي العقدية وأعادت تسويقها من جديد، إلّا أنَّها أحدثت ضرراً فقهياً هائلاً أيضاً، حيث تبنّت أقوالاً ضعيفة في المسائل الفقهية، ثمَّ سوّقتها على أنَّها لا خلاف فيها، ومن ذلك مسائل الهدي الظاهر، كمنع الإسبال ومنع الأخذ من اللحية مطلقاً، وتحريم النمص، ووجوب ستر وجه المرأة، وأخرجتها عن كونها مسائل فقهية يسوغ فيها الخلاف إلى مسائل ولاء وبراء وهويّة، وشنّعت على مخالفيها أشدَّ التشنيع.

وفي الوقت الذي حاربت فيه هذه الفرقة التعصّب المذهبي تعصّبت هي لأقوال شيوخها واختياراتهم الفقهية بطريقة فجّة حتى في المسائل التي يسوغ فيها الاختلاف، ثمَّ شيطنت خصومها ورمتهم بالتميّع وقلّة العلم ومخالفة السنّة، وجرّأت عليهم العوام من أتباعها حتى صار أتباع هذه الفرقة يعتقدون أنَّ شيوخهم أعلم وأتقى وأورع من كثير من علماء الأمّة ورموزها السابقين، وأنَّ كثيراً من علماء

الأمّة ورموزها هم من الضالين، فنتج عن ذلك استخفافهم واستهانتهم بأولئك العلماء، والإعراض عن تأصيلاتهم، ثمَّ الحكم على أقوالهم بأنَّها مخالفة لكتاب الله ﷻ وسنّة رسوله ﷺ، حتى صارت قلّة الأدب وسلاطة اللسان والجهل سمة بارزة لأتباع هذه الفرقة، فلا هي صفَّت ولا ربَّت ولا علَّمت!!.

واعتبرت هذه الفرقة فهم علمائها للنص هو النص، وقولهم هو قول السلف، وحاولت إنزال الناس على حكم علمائها!!.

والمتابع لفتاوى شيوخ هذه المدرسة يرى ضعف التأصيل العلمي عندهم، والفتوى ببادي الرأي، وعدم الإحاطة بالأدلّة، والتسوّر على العلم، وقلّة البضاعة خاصّة في أصول الفقه.

واعتمدت هذه الفرقة لتمرير تأصيلاتها التي خالفت فيها جماهير السلف والخلف على رفع شعارات (الأخذ بالقرآن والسنة بفهم السلف الصالح) و (كلٌّ يؤخذ منه ويترك إلّا رسول الله ﷺ) و (لا قول لأحد مع قول رسول الله ﷺ) وهذه بعينها هي طريقة الخوارج الذين روّجوا لباطلهم بالشعارات يحاولون بها استدراج عامّة المسلمين كما في رفعهم لشعار (لا حكم إلّا لله) في حربهم لعلي رضي الله عنه، فردَّ عليهم علي بقوله: (كلمة حق أُريد بها باطل)، حيث اعتبر الخوارج حكمهم هو حكم الله ﷻ، كما اعتبرت هذه الفرقة اختياراتها الفقهية هي الصواب الذي لا شك فيه، وليست ترجيحات قد يخالفها فيها غيرها، واعتبرت فهمها للنّص هو النص كما قلنا.

وانتسبت هذه الفرقة للسلف وللأئمة ابن تيميّة وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب رحمهم الله، رغم أنَّها لم تسر على هديهم ولا على طريقتهم في التأصيل العقدي والفقهي، فهؤلاء الأئمة يكفّرون الحاكم بغير ما أنزل الله ولا يشترطون الاستحلال، بينما اعتبر شيوخ هذه الفرقة الاستحلال شرطاً للتكفير، وجاهد هؤلاء الأئمة بأنفسهم وحملوا سيوفهم وحرّضوا الأمّة على الجهاد، بينما اعتبر شيوخ هذه

الفرقة الجهاد في سبيل الله إرهاباً، ولم يغزو ولم يحدّثوا أنفسهم بالغزو.

والإمام ابن تيميّة رحمه الله لم يشيطن مخالفيه كما فعل هؤلاء، وأصّل أقواله بطريقة علمية رصينة، وقد شهد له ولتلميذه ابن القيم بالعلم وسعة الاطّلاع أعداؤهم قبل أنصارهم.

وحتى في المسائل التي خالف فيها الإمام ابن تيميّة وتلميذه ابن القيم الأئمة الأربعة ومعهم جماهير العلماء كما في مسائل الطلاق مثلاً – ورغم مخالفتنا له رحمه الله – إلّا أنَّ رأيه في هذه المسائل له من الوجاهة ما لا يخفى على محقق منصف.

أمّا هؤلاء فلجأوا في استدلالاتهم على المخالف إلى عمومات الكتاب والسنة، فإذا لم يجدوا فيها ضالّتهم لجأوا إلى شعاراتهم التي ذكرناها يرهبون بها خصومهم ويسوّقون لأقوالهم أمام عامّة المسلمين.

كما أنَّ للإمام ابن تيميّة من العلمية والربّانية – كما نحسبه والله حسيبه ولا نزكي على الله أحداً – ما يؤهّله لأن يجعل نفسه ومَنْ سبقه من العلماء الربّانيين على صعيد، ونفس الكلام يُقال عن تلميذه الإمام ابن القيم رحمه الله، أمّا شيوخ هذه الفرقة، فلم يبلغوا معشار المنزلة العلمية للإمام ابن تيميّة ولا يكادون.

وفرقة ثالثة هي من أقدم الفرق التي ظهرت في التأريخ الإسلامي، اعتبر شيوخها أنفسهم أولياء لله سبحانه وتعالى ورجالاً صالحين، واتخذوا لأنفسهم ما أسموه هم المريدين، وبدأوا يلقّنونهم الإسلام كما أرادوه هم وليس كما أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم، فنشروا البدع وأهملوا السنن، وأقبح من ذلك أنَّ أتباع هؤلاء الشيوخ اعتقدوا في شيوخهم النفع والضر والاطّلاع على بعض الغيب، وربّما اعتقدوا أنَّ بعض شيوخهم أعلم حتى من الأنبياء، واستدلّوا على ذلك بأنَّ الخضر كان أعلم من موسى عليه السلام!!.

فلمّا مات هؤلاء المشايخ الضالّون اتخذ أتباعهم على قبورهم مشاهد على طريقة قوم نوح حين مات رجالهم الصالحون (ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر) فصوّروا لهم صوراً على هيئة تماثيل ثمَّ عبدوهم من دون الله جل جلاله، وهؤلاء بنوا لشيوخهم

أضرحة ومشاهد، وراحوا يزورونها ويطوفون حولها ويعتقدون بالمقبورين النفع والضر، بل وصاروا يقدّمون لها القرابين من الذبائح والأموال.

وهكذا نشر هؤلاء شرك القبور بين المسلمين، ثمَّ أضافوا إليه شرك القصور، فقد أعلن هؤلاء ولاءهم للطواغيت في كل البلدان التي تواجدوا فيها، واعتبروهم حكّاماً مسلمين تجب طاعتهم ويحرم الخروج عليهم!! فجمعوا بذلك الشرك من أطرافه، شرك الحاكمية وشرك القبور، مع نشرهم للبدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.

وهناك فرق أخرى أقل شأناً وضرراً على الأمّة من هذه الفرق الثلاث، وكل فرقة من هذه الفرق تتفق مع إحدى الفرق الثلاث في أكثر أصولها، لكنَّها تختلف معها في التفاصيل.

وهكذا ذهبت هذه الفرق الضالّة بالأمّة بعيداً عن إسلام محمد ﷺ، وقدَّمت إسلاماً مشوّهاً ابتدعه مؤسسو هذه الفرق وشيوخها من عندياتهم، وأوحى إليهم به شياطينهم، إذ ليس هو الإسلام الذي جاء به رسول الله ﷺ، وإنَّما هي أديان جديدة مبنية على الاجتزاء من الإسلام، وتأويل النصوص القاطعة، والاجتهاد في مورد النص، والأخذ بالمتشابه مع وجود المحكم، وبالعام مع وجود المخصِّص، وبالمطلق مع وجود المقيِّد، أو العكس بإبقاء العام على عمومه والمطلق على إطلاقه مع وجود المخصِّص والمقيِّد، فنسفوا بذلك إسلام محمّد ﷺ من القواعد، وطلعوا على الأمّة بدين جديد هو نتاج أفكار مريضة، ومصالح شخصية، وقلّة علم، وغباء فطري، وانعدام تقوى، وجرأة عجيبة على الله ﷻ، صُهِرَت هذه كلها في بوتقة واحدة لتُنتج ديناً مسخاً جديداً زعموا أنَّه الإسلام وما هو بإسلام محمّد ﷺ، إنَّما هو إسلام هؤلاء المسوخ الأوغاد.

لقد أهملت هذه الفرق كلها الكلام عن وجوب الحكم بما أنزل الله، وتكفير الحاكمين المبدّلين لشرع الله، ولم يبيّنوا للنّاس معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ

بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: ٤٥]، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللّهُ فَأُولَـئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) [المائدة: ٤٧]، بل ذهبوا يقيّدون هذه النصوص بقيود من عندياتهم، ضاربين بقواعد علم الأصول عرض الحائط!!.

وأهملوا الكلام عن الولاء والبراء، ولم يتكلموا عن قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ آبَاءكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاء إَنِ اسْتَحَبُّواْ الْكُفْرَ عَلَى الإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَـئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]، وقوله ﷻ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وعن قوله ﷺ: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله والمعاداة في الله، والحب في الله والبغض في الله ﷻ»[1]؟!، وقوله عليه السلام لجرير بن عبدالله البجلي رضي الله عنه حين أتاه ليبايع فقال له: «أبايعك على أن تعبد الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتناصح المسلمين، وتفارق المشركين»[2]، وقوله عليه السلام: «لا يقبل الله ﷻ من مشرك بعدما أسلم عملاً أو يفارق المشركين إلى المسلمين»[3]، وهكذا استبدلوا الولاء والبراء بمصطلحات المواطنة والأخوّة الإنسانية وتقارب الأديان وحوار الحضارات!! وغير ذلك ممّا أجمع علماء الأمّة سلفاً وخلفاً على أنّه كفر مخرج من الملّة.

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه الإمام أحمد والنسائي.
(٣) رواه الإمام أحمد والنسائي، وصحّحه الحاكم ووافقه الذهبي.

وأهملوا الكلام عن الجهاد في سبيل الله، فلم يحدّثوا النّاس عن قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله تعالى: ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١]، وقوله سبحانه ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ تُكَلَّفُ إِلاَّ نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُواْ وَاللّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلاً﴾ [النساء: ٨٤]، وعن قوله ﷺ: «بُعِثتُ بين يدي الساعة بالسَّيف، حتى يُعبَدَ الله تعالى وحده لا شريك له، و جُعل رزقي تحت ظِلِّ رُمْحي، وجُعِلَ الذُّلُّ و الصَّغار على من خالفَ أمري، و من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»[1]، وقوله عليه السلام: «أُمِرْتُ أن أُقاتل النّاس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلّا بحق الإسلام وحسابهم على الله»[2]؟!، بل اعتبر هؤلاء المجرمون الجهاد في سبيل الله إرهاباً، والانبطاح للصليبيين والطواغيت الذين استباحوا دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم حكمة، ودعوا الأمّة إلى الصبر عليهم والتعامل معهم بالتي هي أحسن، واستدلوا لذلك بنصوص من الكتاب والسنّة زعموا!!!.

وأهملوا تحريض المسلمين على طلب الشهادة في سبيل الله، وأهملوا الكلام عن الشهداء ومنازلهم وعن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ۚ بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَا تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤]، وقوله عليه السلام: «للشهيد عند الله ست خصال، يُغفَر له في أول دفعة، ويُرى مقعده من الجنّة، ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفَّع في

(١) رواه الإمام أحمد وصحَّحه الذهبي.

(٢) رواه البخاري.

سبعين من أقاربه» (١) وقوله ﷺ: «ما من عبد يموت له عند الله خير يسرّه أن يرجع إلى الدنيا، وأنَّ له الدنيا وما فيها إلّا الشهيد، لِمَا يرى من فضل الشهادة، فإنّه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرة أخرى»(٢)، بل إنَّهم جعلوا طلب الشهادة في مظانّها والانغماس في العدو سفهاً وإلقاءً بالنفس إلى التهلكة!.

وقد حرص شيوخ هذه الفرق الضالّة وقادتها ومنظّروها على إبراز جانب الرحمة في الإسلام، وأهملوا - عن سبق إصرار وترصّد - الكلام عن الجانب الآخر، جانب الشدّة والغلظة على أعداء الله سبحانه وتعالى، وهكذا ذهبوا يكتبون ويتكلمون في كتبهم وخطبهم ودروسهم عن آيات وأحاديث الرحمة وأهملوا الكلام عن آياتٍ وأحاديث الشدّة والغلظة، فما انفكّوا يحدّثون النّاس عن قوله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنَكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وقوله سبحانه: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤]، وعن زيارته عليه الصلاة والسلام للغلام اليهودي وإطلاقه لبعض الأسرى دون مقابل، وعفوه عن أهل مكّة في الفتح، وغيرها من الحوادث التي تُبيّن رحمته وحرصه على هداية الناس، وخُلُقه العظيم ﷺ، وهذا بلا ريب حق، وجانب مهم من الإسلام، مَنْ أهمله ولم يعمل به فقد أساء إلى الإسلام وإلى نبيه عليه الصلاة والسلام.

لكنَّ هؤلاء الضالّين المضلّين لم يتحدّثوا للنّاس عن الجانب الآخر من سيرته عليه الصلاة والسلام، إنَّهم لا يملّون من الحديث للّناس عن زيارة النبي ﷺ للغلام اليهودي ولكنَّهم لا يحدّثونهم عن إعدامه ﷺ لعشيرة بني قريظة اليهودية!، حيث أعدم عليه الصلاة والسلام كلَّ البالغين من رجالهم، وقد بلغوا ستمائة إلى تسعمائة رجل على اختلاف الروايات، وهجَّر عشيرتي بني قينقاع وبني النضير إلى الشام وخيبر.

ولا يملّون من الحديث عن عفوه عليه الصلاة والسلام عن أبي عزّة الجمحي وإطلاقه له دون مقابل بعد بدر، لكنَّهم لا يتحدّثون عن إعدامه ﷺ له بعد أحد، ولا عن إعدامه

(١) رواه الترمذي وصححه.

(٢) متفق عليه.

للنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط في طريق عودته من بدر إلى المدينة، حيث لم تُجْدِ توسّلات عقبة برسول الله ﷺ حين قال: يا محمد مَنْ للصبية؟، فقال ﷺ: النار، يا عاصم اضرب عُنُقَه، كذلك قتل العُرنيين، بل سمَّل أعينهم وقطَّع أيديهم وأرجلهم، وألقاهم في الحرّة يطلبون الماء فلا يُسقون حتى هلكوا.

والنبي ﷺ الذي قال لأهل مكّة يوم الفتح: اذهبوا فأنتم الطلقاء، هو نفسه الذي توعّدهم قبل ذلك بقوله: تعلمون والله يا معشر قريش، أَمَا والذي نفس محمّد بيده لقد جئتكم بالذبح [(١)]، وهو نفسه الذي كان قد أعلن الحرب عليهم قبل ذلك، على أهله وعشيرته، فقاتلهم في بدر وقتل منهم سبعين رجلاً وأسر سبعين، وقاتلهم في أحد والخندق والفتح، وقطع عليهم طريق التجارة حتى دخلوا في الإسلام، وهو نفسه الذي استثنى تسعة من أهل مكّة في الفتح فقال لأصحابه: اقتلوهم ولو وجدتموهم متعلّقين بأستار الكعبة، وهو الذي قال للأنصار يوم الفتح: «ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم - ثمَّ قال بيديه إحداهما على الأخرى - ثمَّ قال: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا»، ومثلما كان عليه السلام رحمة مهداة، كان هو الضحوك القتّال.

والسؤال المطروح: ماذا فعلت هذه الفرق الضالّة بالأمّة؟ إلى أين أوصلتنا؟ ما هو كشف حسابها الأخير؟!! ألا يحمل الحصادُ المرُّ لهذه الفرق شيوخَها ومنظّريها وأتباعها على مراجعة حساباتهم والاعتراف بخطئهم وإعلان توبتهم إلى الله سبحانه وتعالى والرجوع إلى الحق؟!! فإنَّ الرجوع إلى الحق خيرٌ من التمادي في الباطل.

وهكذا أصبح حالنا كما أخبر رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة، قيل: من هي يا رسول الله؟ قال: من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي» [(٢)].

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند، وحسَّنه الهيثمي في مجمع الزوائد.

(٢) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب.

ورغم ذلك كلّه فقد بقيت الفرقة الناجية والطائفة المنصورة التي ذكرها النبي ﷺ في الحديث الذي رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك [1]، وقد يسّر الله سبحانه وتعالى لهذه الطائفة المنصورة أن تظهر وتعلو رايتها من جديد، فرفعت لواء حاكمية الشريعة، وحاربت الشرك بكل أشكاله وصوره، وأعلنت كفرها بالطواغيت عربهم وعجمهم، وأعادت الدعوة إلى التوحيد، وقدَّمت للنّاس إسلام محمد ﷺ، لا إسلام «الكوادر» و «النُخَب» و «الدكاترة» و «المثقّفين» و الطواغيت و «المشايخ»!!.

وقد رافق التمكين للطائفة المنصورة ظهور مجموعة من الغلاة الجهلة مدّعي العلم الذين كفّروا المسلمين بالجملة وعملوا بقاعدة أنَّ الأصل في الناس الكفر، فاستباحوا دماء المسلمين وأموالهم، وكفّروا حتى المجاهدين في سبيل الله، بل وقسماً كبيراً من علماء الأمّة ورموزها السابقين من السلف ومَنْ جاء بعدهم

وقد دعمت هذه الفرقةَ أجهزةُ المخابرات العالمية والمحلّية وغذَّتها بشكل مباشر وغير مباشر، حيث ألحقت هذه الفرقة ضرراً هائلاً بالموحدين المجاهدين، فشقَّت صفَّهم، وأوقعت الفتنة بينهم، وأشغلتهم عن عدوّهم بنزاعات داخلية ومهاترات فكرية لا فائدة منها، وشوَّهت سمعتهم بين النّاس، كما حدث في الجزائر في تسعينيات القرن الميلادي الماضي حيث كان ظهور الغلاة في صفوف المجاهدين أحد الأسباب الرئيسية لضياع تضحياتهم وفشل مشروعهم.

إنَّ ظهور الغلاة المجرمين وتغلغلهم بين صفوف الموحدين المجاهدين والتساهل معهم والسماح لهم ببثِّ آرائهم الضالّة بين الصفوف سيؤدّي إلى حدوث كارثة ستدفع الطائفة المنصورة ثمنها غالياً، ولذلك كان لا بُدَّ من التعامل مع هذه الفرقة الضالة المجرمة بمنتهى الحزم والحسم، والقضاء عليها ووأد فتنتها في المهد،

(١) رواه مسلم.

واستئصال أتباعها وعدم إحسان الظن بهم، وعدم إعطائهم أي فرصة للتخريب داخل الصف المسلم، فالغلو لا يقلُّ خطراً عن التميّع، والتأريخ الإسلامي يشهد أنَّ الأمّة المسلمة ما عانت في أيِّ فترة من الفترات إلّا حين ظهرت فيها فرق الغلاة أو فرق المتميّعة، والطائفة المنصورة إنَّما تُنصَر بإخلاصها لله ﷻ أوّلاً ثمَّ سيرها على هدي رسول الله ﷺ بعيداً عن إفراط الغلاة وتفريط المتميّعة، وتركها الخوض في مسائل لم يتكلم فيها رسول الله ﷺ ولا صحابته الأبرار ﵃.

وأخيراً نقول: إنَّ اجتزاء الإسلام وطرحه على الناس بالطريقة التي تخدم مصالحنا وأهواءنا هو بلا ريب سلوك يلجأ إليه من لا خلاق له في الآخرة، وقد أخذ الله ﷻ الميثاق على أهل العلم أن يبيّنوه للناس ولا يكتمونه ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

مَنْ أعطى لهؤلاء الحق في اجتزاء الإسلام بهذه الطريقة؟! ومَنْ أذن لهم بهذا؟! ﴿قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾؟!، إنَّه لا أحد يمتلك هذه الصلاحية، فدين الله ﷻ يجب أن يُبلَّغ للنّاس كاملاً كما هو ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: ٦٧]، فإذا جَبُن العالم أو طالب العلم عن ذلك فلا أقلَّ من أن يعتزل - وإنْ كان لا يسعه ذلك - لكنَّه أهون من تغيير دين الله وتبديله.

إنَّه لا بُدَّ لنا أن نبلّغ دين الله ﷻ كاملاً للنّاس، ولا يسعنا غير ذلك إنْ أردنا أن تبرأ ذمّتنا أمام الله ﷻ، لن نُسمِع النّاس ما يحبّون أن يسمعوا، بل ما ينبغي أن يسمعوا، هكذا فعل رسول الله ﷺ، أسْمَعَ قريشاً والعرب والفرس والروم وغيرهم ما يحبّون وما يكرهون، بل إنَّ ما كرهوه منه ﷺ كان أكثر بكثير ممّا أحبّوه، ومع ذلك لم يجتزأ ﵇ ولم يغيّر ولم يبدّل ولم يداهن ولم يحاول أن يلتقي مع أعدائه في منتصف الطريق، وكذا فعل أصحابه ﵃ فأبرأوا ذممهم أمام الله ﷻ وكانت لهم العاقبة في الدنيا والآخرة.

ولو داهن ﷺ وتنازل والتقى مع أعدائه في منتصف الطريق لحقَّق مكاسب سياسية مرحلية كما يسمّيها هؤلاء المتذاكون، ولكنَّ الله تعالى نهاه عن ذلك وأمره ألّا يتنازل قيد شعرة.

وقد كُتبَت في تفسير القرآن الكريم والسيرة النبوية كتبٌ كثيرة جداً من علمائنا المتقدمين رحمهم الله، وممّن يُنسبون إلى العلم من المعاصرين، وكُتُب المتقدمين على ما فيها من علم غزير، وعلى جلالة قدر كاتبيها إلّا أنَّها لا تصلح للدراسة من قبل عامّة المسلمين، ولا من المبتدئين من طلبة العلم، لطولها، ولغرابة بعض ألفاظها، وأمّا كتب المعاصرين فقد تأثرت جُلُّها بأفكار مؤلفيها ومناهجهم الفاسدة، حيث بُنيَت دراساتهم للتفسير والسيرة على الانتقاء من أقوال المفسّرين وروايات السيرة ما يخدم من يعملون لأجله من حكومات أو أحزاب أو فرق ضالّة، حتى أنَّهم فسَّروا بعض نصوص القرآن وحوادث السيرة بطريقة لم يسبقهم إليها أحد، إذ لا تجد أقوالهم هذه عند أحد من السلف أو الخلف!!، فعملهم قائم أصلاً على محاولة تحقيق مكاسب منهجية تخدم الجهات التي يعملون لصالحها من حكومات أو أحزاب، وقد أحدثوا بذلك ضرراً وتشويهاً هائلاً للإسلام، حتى صار إسلام محمد ﷺ غريباً بين المسلمين، فتراهم يركّزون على جوانب مهمّة عند تفسيرهم لبعض الآيات وتعليقهم على بعض حوادث السيرة، ويعطونها مساحات واسعة، بينما يهملون جوانب أخرى أكثر أهمية من سابقتها فلا يذكرونها أصلاً، وإذا ذكروها لم يعلّقوا عليها، وإذا علَّقوا تراهم يلوون أعناق النصوص ويحمّلونها ما لا تحتمل من المعاني تأييداً لمناهجهم الفاسدة وطواغيتهم وأحزابهم الضالة، فإذا أعجزهم التأويل الفاسد شكّكوا في صحّة هذه النصوص - إن كانت في السيرة - رغم أنَّها ثابتة وصحيحة!!!، بينما أصرّوا على تأويلاتهم الفاسدة لبعض آيات القرآن إذ لا مجال لإنكارها!.

وقد رأينا أنْ نكتب للمسلمين كتابَيْن في التفسير والسيرة نتجاوز فيهما تطويل

المتقدمين وفساد مناهج المعاصرين، ونبيّن فيهما دين الله ﷻ كاملاً من غير اجتزاء ولا تبديل ولا تغيير، نتكلم عن التوحيد والولاء والبراء والجهاد مثلما نتكلم عن الصلاة والزكاة والصيام والحج وبر الوالدين وحسن الخُلُق والصدق والوفاء بالعهود وغير ذلك، فهذا هو إسلام محمد ﷺ، وما عداه فليس بإسلام وإنْ أُلبِسَ عباءة الإسلام.

وقد وجدنا في كلام الشهيد سيد قطب رحمه الله في كتابَيْه القيِّمَيْن: في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق، ما أغنانا عن التعليق على كثير من الآيات في التفسير والأحداث في السيرة، وسيجد القارئ أنَّ كلام الشهيد رحمه الله قد رافقنا من أوّل الكتابَيْن إلى آخرهما، إذ سنكثر من النقل عنه لأهمّية كلامه وتعليقاته رحمه الله ولمناسبتها ومعالجتها للواقع الذي نعيش.

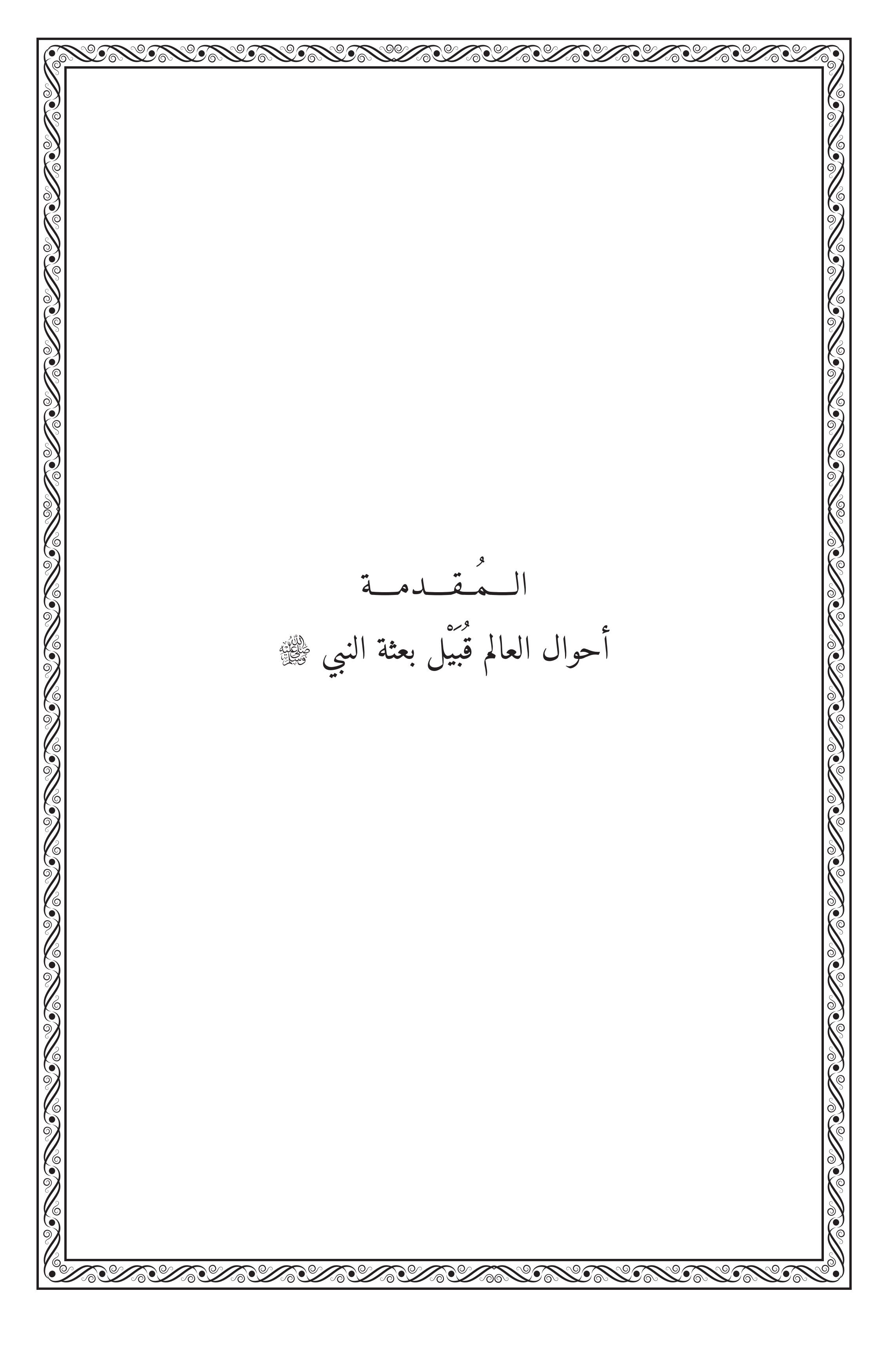
وقد أبدع الشهيد سيد قطب في ذلك بما لا مزيد عليه، وتفرَّد وتميَّز، وجمع بين دقّة الفكرة وروعة الصياغة والبيان، فشخَّص الداء الذي عانت منه الأمّة ووصف لها الدواء، ووضع قدمها على أول الطريق، فكانت كلماته صادقة، وعباراته واثقة، ووافق فعلهُ قوله، فوقف كالطود شامخاً أمام جلّاديه وقاتليه موجّهاً كلمته الأخيرة إلى بلاعمة الحكومات والأحزاب الذين أرسلوا إليه مَن يلقّنه لا إله إلّا الله!!! فقال: «نحن نموت من أجل لا إله إلّا الله وأنتم تأكلون الخبز بها».

فدونك الكتابين (تفسير القرآن العظيم) و (السيرة النبوية)، نسأل الله ﷻ بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن ينفع بهما، وأن يكونا من العلم الذي يُنتفع به، والذي ذكره النبي ﷺ بقوله: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة، إلّا من صدقة جارية، أو علم يُنْتَفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1]، كما نسأله سبحانه أن يكون عملاً خالصاً لوجهه الكريم ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

وصل اللهم على محمّد وعلى آله وصحبه وسلم

---

(١) رواه مسلم.



الـمُـقـدمـة

أحوال العالم قُبَيْل بعثة النبي ﷺ

أولاً: الحالة الجغرافية للعالم

اعلم - يرحمك الله - أنَّ القارات الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا هي فقط ما كان معروفاً من العالم في تلك الفترة، وهي التي تُعرف بالعالم القديم، أمّا العالم الجديد والذي يشمل أيضاً القارات الأربع أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية وأستراليا والقارة القطبية الجنوبية فلم يكن معروفاً في ذلك الزمان، حيث تفصل هذه القارات الأربع عن العالم القديم المحيطات الثلاثة: الأطلسي (بحر الظلمات) والهندي والهادئ، وقد تمَّ اكتشاف العالم الجديد في القرن العاشر الهجري.

وكان العالم القديم يتكوّن من دول كبيرة ودول صغيرة وقبائل متفرقة منتشرة في أجزاء واسعة منه.

وتمثّل الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطية) أعظم دول العالم في ذلك الزمان، أمّا الإمبراطورية الفارسية فتمتد من حدود الصين الحالية - تقريباً - شرقاً إلى وسط سوريا الحالية غرباً لتشمل باكستان وأفغانستان وإيران والعراق والجزء الشرقي من سوريا، ومن بحر الخزر (بحر قزوين) شمالاً إلى الخليج العربي وبحر العرب جنوباً، وكانت حاضرة (عاصمة) هذه الإمبراطورية هي المدائن والتي تقع اليوم في بغداد شرق نهر دجلة.

وأمّا الإمبراطورية الرومانية فتمتد من وسط سوريا شرقاً إلى دولة المغرب الحالية غرباً لتشمل الجزء الغربي من سوريا والأردن ولبنان وفلسطين وسيناء وسواحل مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، بالإضافة إلى الأراضي المصرية الواقعة على جانبي نهر النيل، ومن رومانيا في الشمال إلى السودان في الجنوب لتشمل رومانيا وبلغاريا واليونان وبقية دول البلقان [1] ووسط وجنوب إيطاليا بالإضافة إلى

---

(١) تشمل دول البلقان: ألبانيا، وبلغاريا، ورومانيا، وسلوفينيا، وصربيا، وكرواتيا، ومقدونيا، وكوسوفو، والبوسنة والهرسك، والجبل الأسود، وجزء من تركيا.

الجزر الإيطالية في بحر الروم (البحر المتوسط) وتركيا، وكانت حاضرة (عاصمة) هذه الإمبراطورية هي القسطنطينية (اسطنبول).

ويلي الإمبراطورية الفارسية من جهة الشرق الهند والصين وهما إمبراطورتان مستقلتان أيضاً، لكنهما تكادان تكونان مغلقتين على نفسيهما، ومعزولتين عن العالم عقدياً وسياسياً وغير ذلك، ولذلك كانت الإمبراطورتين الرومانية والفارسية هما صاحبتا التأثير الحقيقي في حياة البشر في ذلك الزمان.

وهناك أيضاً قبائل الأتراك أولاد تتر خان، والمغول أولاد مغل خان، وتتر خان ومغل خان أَخَوان تفرّعت عنهما هذه القبائل الكبيرة، لذلك فالأتراك والمغول أولاد عم، وفي أقصى شرق الأرض توجد إمبراطورية توبا وإمبراطورية هان.

وأمّا العالم من جهة الغرب فتصل حدود الإمبراطورية البيزنطية إلى وسط أوروبا الحالية (إلى حدود النمسا تقريباً) وبعدها تأتي دولة الفرنجة ودولة القوط الغربيين وفي أقصى الشمال بلاد الآفار والصقالبة والسكسون، وهذه الدول كانت قد انفصلت عن الامبراطورية الغربية بعد سقوطها على يد الجرمانيين سنة ٤٧٦م كما سيأتي إن شاء الله.

أمّا العرب فكانوا يستوطنون شبه الجزيرة العربية التي يحدّها من الشرق الخليج العربي وجزء من بلاد العراق، ومن الغرب بحر القلزم (البحر الأحمر) وشبه جزيرة سيناء، ومن الشمال بلاد الشام وجزء من بلاد العراق، ومن الجنوب بحر العرب الذي هو امتداد للمحيط الهندي.

وقد منح الموقع الجغرافي للجزيرة العربية أهمية بالغة لها، فالصحاري الشاسعة والرمال التي تحيطها من كل جانب حصّنتها ضد أي غزو أجنبي، ولذلك بقي سكانها أحراراً مستقلين لا يخضعون لأحد، لا للفرس حيث الامبراطورية الفارسية في الشمال الشرقي للجزيرة العربية، ولا للروم حيث الامبراطورية الرومانية في الشمال الغربي منها.

وقد قسَّم المؤرخون أقوام العرب إلى ثلاثة أقسام:

١- **العرب البائدة:** وهم العرب القدامى مثل عاد وثمود وعملاق وغيرهم، وهؤلاء لا نملك تفاصيل كثيرة عنهم.

٢- **العرب العاربة:** وهم العرب المنحدرون من صلب قحطان، وهم العرب القحطانية، ومهدهم بلاد اليمن، ومن أشهر بطونهم: حِمْيَر وكهلان، ومن بطون كهلان الأوس والخزرج وطيء.

٣- **العرب المستعربة:** وهم العرب المنحدرون من صلب إسماعيل بن إبراهيم ﵉، وهم العرب العدنانية، وإبراهيم ﵇ لم يكن يتكلم العربية، وإنّما تعلمها ابنه إسماعيل ﵇ من قبيلة جرهم اليمانية، وهم من العرب العاربة، وقد سكنوا مكّة بعد أن أَذِنَتْ لهم هاجر أم إسماعيل ﵇، ومنهم تعلّم إسماعيل ﵇ العربية، وتزوج ابنة مضاض بن عمرو سيد جرهم وكبيرها، وقد رزق الله ﷻ إسماعيل ﵇ من ابنة مضاض اثني عشر ذكراً [١]، تشعَّبت منهم اثنا عشر قبيلة أدرجت أحوالهم في غياهب الزمان إلّا اثنين منهم هما نابت وقيدار.

أمّا أولاد نابت فكوّنوا دولة قوية عاصمتها البتراء في الشام، وعُرِفَت بحضارة الأنباط واستمروا كذلك حتى قضى عليهم الرومان، وأمّا قيدار فبقي أبناؤه في مكّة حتى كان منهم عدنان الجد الحادي والعشرون للنبي ﷺ.

وتتكون الجزيرة العربية من:

١- **تِهامَة:** وتقع أقصى غرب الجزيرة العربية، وهي منطقة ساحلية تطل على البحر الأحمر.

٢- **الحِجاز:** ويقع شرق تِهامَة، ويمتد من الشام شمالاً إلى اليمن جنوباً، وتقع فيه مكة والمدينة والطائف.

٣- **نجد:** وتقع شرق الحجاز، وسمّيت نجداً لارتفاع أرضها.

---

(١) (السيرة النبوية / ابن كثير: ج١/ ٥٦)

٤- **الجزء الشرقي** من شبه الجزيرة العربية المُطِل على الخليج العربي، وتقع فيه البحرين وكانت تشمل في ذلك الوقت دولة البحرين الحالية وقطر والأراضي الواقعة أمام الدولتين في شرق الجزيرة العربية، وبالقرب من البحرين تقع اليمامة «قوم مسيلمة الكذاب».

٥- **في أقصى جنوب الجزيرة العربية** تقع اليمن وحضرموت ومهرة وعمان.

٦- **وفي أقصى شمال الجزيرة العربية** تقع دولة المناذرة ودولة الغساسنة، وتجاور هاتين الدولتين قبائل عربية منتشرة في الشمال.



خريطة رقم -١-
العالم القديم

أوروبا الحالية

كانت أوروبا الحالية بقسميها الشرقي «أوروبا الشرقية» والغربي «أوروبا الغربية» إمبراطورية واحدة هي الإمبراطورية الرومانية يحكمها إمبراطور واحد، وتمتد أوروبا الشرقية من تركيا إلى النمسا، بينما تشمل أوروبا الغربية الدول من النمسا إلى

المحيط الأطلسي، وكانت الإمبراطورية الرومانية تضم بالإضافة إلى دول أوروبا الشرقية والغربية الدول الواقعة على سواحل بحر الروم (البحر المتوسط) الشرقية والجنوبية، أي تضمُّ الشام ومصر وليبيا وتونس والجزائر [(١)].

ثمَّ قام الإمبراطور الروماني ثيودوسيوس الأول (ت: ٣٩٥م) بتقسيم الإمبراطورية بين ولديه قبل وفاته بقليل، فصارت إمبراطوريتين:

١- **الإمبراطورية الرومانية الشرقية** «البيزنطية» وعاصمتها القسطنطينية وتمتد من الحدود الشرقية للبوسنة حالياً تقريباً، لتشمل بقية أوروبا الشرقية وتركيا والأجزاء الغربية من سوريا والأردن ولبنان وفلسطين وسيناء وسواحل البحر المتوسط الجنوبية إلى مدينة سرت الليبية حالياً تقريباً.

تمَّ فتح بلاد الشام والسواحل الجنوبية للبحر المتوسط وصولاً إلى المحيط الأطلسي من قِبَل المسلمين في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية «رضي الله عنهم»، حيث وصل المسلمون بقيادة عقبة بن نافع إلى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) في عهد يزيد بن معاوية سنة ٦٢ هـ، ووقف عقبة أمام البحر وقال كلمته الشهيرة: يا رب لولا هذا البحر لمضيت في البلاد مجاهداً في سبيلك [(٢)]، وبنى عقبة مدينة القيروان في تونس في خلافة معاوية «رضي الله عنه» سنة ٥٥ هـ.

ولم تسقط هذه الإمبراطورية بشكل كامل إلّا في عهد العثمانيين حيث دخل السلطان العثماني محمد الفاتح (٨٥٥ - ٨٨٦هـ) القسطنطينية سنة ٨٥٧ هـ وأسقط هذه الإمبراطورية.

٢- **الإمبراطورية الرومانية الغربية وعاصمتها روما،** وتمتد من حدود الإمبراطورية الرومانية الشرقية شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، وقد أسقطتها

---

(١) أي أنَّ الإمبراطورية الرومانية كانت تحيط بالبحر المتوسط من جهاته الأربع ولذلك سُمّي بحر الروم.

(٢) الكامل في التاريخ: ٣/ ٢٠٦.

القبائل الجرمانية البربرية [١] سنة ٤٧٦م [٢]، أي قبل ألف سنة تقريباً من سقوط الإمبراطورية الشرقية.



---

(١) القبائل الجرمانية هي قبائل استوطنت المناطق المحاذية للإمبراطورية الرومانية، ويعود أصلهم إلى أوروبا الشمالية، وأغلبهم من اسكندنافيا ﴿الدول الاسكندنافية تقع في أقصى شمال أوروبا وهي عبارة عن شبه جزيرة تشمل الآن ثلاث دول، وهي: النرويج والسويد والدنمارك، وأحياناً يُضاف لها فنلندا وآيسلندا وجزر فارو، ويُطلق عليها أيضاً مصطلح بلدان الشمال﴾، وقد هاجروا من شمال أوروبا وانتشروا في باقي مناطق أوروبا مشكّلين الأساس المستقبلي لأمم أوروبا الحالية من ألمان وفرنسيين وإنجليز وإسبان وإيطاليين وغيرهم.

(٢) وهذا يعني أنَّ الإمبراطورية الرومانية الغربية لم تستمر إلا إحدى وثمانين سنة تقريباً.

ثانياً: الحالة السياسية وأساليب الحكم في العالم

كانت الإمبراطوريتان الفارسية والرومانية تمثّلان أقوى دول العالم في ذلك الوقت، إلّا أنَّ الإمبراطورية الفارسية كانت أقوى من الرومانية، وكان نظام الحكم في الإمبراطوريتين ملكياً وراثياً، فإذا مات كسرى [1] فارس جاء بعده كسرى آخر، وإذا مات قيصر [2] الروم جاء بعده قيصر آخر، ولكل من الدولتين جيش نظامي يقوم بالدفاع عن الإمبراطورية وإخضاع المجاورين لها، ونقصد بالجيش النظامي أنَّ المقاتلين لا عمل لهم إلّا القتال، ويأخذون أعطيات «رواتب» على عملهم هذا.

أمّا نظام الحكم في الجزيرة العربية فكان ملكياً في اليمن والحيرة والشام، وأمّا مكّة فكان يحكمها أحفاد قصي بن كلاب، ولمّا بُعث النبي ﷺ كان يحكم مكّة سادة قريش، وكان اتخاذ القرار جماعياً إذ لم يكن للقوم رئيس واحد.

ونفس الكلام يُقال عن بقية الحواضر (المدن) في الجزيرة العربية كالمدينة النبوية وخيبر وغيرها، فقد كان يحكم هذه المدن سادة القوم مجتمعين.

ولم يكن هؤلاء يمتلكون جيوشاً نظامية تدافع عنهم، لكنّهم إذا تعرّضوا لخطر خارجي أو أرادوا هم القيام بعمل عسكري نادى مناديهم للقتال فلبّى نداءه كلُ من يقدر على حمل السلاح.

١- المُـلك باليمن

سيطر الأحباش على اليمن سنة ٣٤٠م وظلّوا يحكمونها إلى سنة ٣٧٨م، ثمَّ نالت اليمن استقلالها بعد ذلك، ويفصل الحبشة «أثيوبيا» عن اليمن البحر الأحمر وخليج عدن، وفي سنة ٤٥٠م وقع السيل العرم وتهدَّم سدُّ مأرب، وقد أدّى خراب

---

(١) لقب لملك فارس.

(٢) لقب لملك الروم.

سد مأرب إلى تشتت القبائل التي كانت تسكن اليمن ورحيلها بحثاً عن مواطن جديدة للسكن، وقد ذكر القرآن الكريم قصّة السيل العرم وخراب سد مأرب في سورة سبأ، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ - فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ - ذَلك جَزَيْناهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ - وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ - فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة سبأ: ١٥ - ١٩].

وفي سنة ٥٢٣م أراد ذو نوّاس اليهودي صرف أهل نجران [(١)] عن ديانتهم النصرانية بالقوة، لكنّهم رفضوا، فخدّ لهم الأخاديد وأحرقهم بالنيران، وقد ذكر الله ﷻ قصتهم في سورة البروج فقال ﷻ: ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ - النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ - إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ - وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ - وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ - الَذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ - إِنَ الَذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيق - إِنَ الَذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَالِحَاتِ لَهُمْ جَنَاتٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرِ﴾ [سورة البروج: ٤ - ١١].

ونتيجة لذلك قام الرومان بتحريض الأحباش على اليهود وأمدّوهم بأسطول بحري [(٢)]، فاحتل الأحباش اليمن للمرة الثانية سنة ٥٢٥م، وكانوا بقيادة إرياط الذي ظلّ حاكماً لليمن من قِبَل ملك الحبشة حتى قتله أحد قادة جيشه وهو أبرهة الذي أصبح حاكماً لليمن بعد أن استرضى ملك الحبشة، وأبرهة هذا هو الذي حاول هدم

(١) تقع الآن جنوب غرب بلاد الحرمين على الحدود الحالية مع اليمن وكانت قبل ذلك تابعة لليمن.

(٢) وذلك لأنَّ الرومان كانوا نصارى وكان أهل نجران نصارى أيضاً.

الكعبة، فأهلكه الله ﷻ هو وجيشه، وقد ذكر القرآن العظيم قصتهم في سورة الفيل.

بعد وقعة الفيل قاوم اليمانيون الأحباش واستعانوا بالفرس حتى أجلوا الأحباش عن اليمن سنة ٥٧٥م، وأصبح معد يكرب بن سيف بن ذي يزن الحميري ملكاً على اليمن، وبعد اغتياله جعل كسرى اليمن ولاية فارسية، وظلّت اليمن ولاية فارسية حتى أسلم آخر ولاة الفرس على اليمن وهو باذان، فانتهى نفوذ الفرس على اليمن، وأصبحت اليمن تابعة للدولة الإسلامية.

٢- المُلك بالحيرة

سكن العرب من القحطانيين والعدنانيين المناطق المتاخمة للإمبراطورية الساسانية الفارسية منذ زمن طويل وهي التي تسمى الحيرة [(١)]، وقد خضع أهل الحيرة والأنبار العرب للإمبراطورية الفارسية ومَلِكها أردشير سنة ٢٢٦م الذي رأى أنه يستحيل عليه حكم العرب بشكل مباشر فولّى عليهم رجلاً منهم، وجعله ملكاً عليهم بصفته عاملاً للفرس، وليقف عرب العراق بوجه عرب الشام التابعين للرومان، وكانت تبقى عند ملك الحيرة مجموعة من جنود الفرس (حامية فارسية) يستعين بهم على الخارجين على سلطانه من عرب البادية.

ظلّت الحيرة تابعة للإمبراطورية الفارسية حتى جاء ملكهم النعمان بن المنذر، الذي غضب عليه كسرى بسبب وشاية دُبِّرت ضدّه، فطلب كسرى النعمانَ، فاستجاب النعمانُ للأمر، لكنّه ذهب بمفرده إلى كسرى بعد أن أودع أهله وماله عند سيد آل شيبان هانئ بن مسعود الشيباني.

مات النعمان بن المنذر في سجن كسرى، وأرسل كسرى إلى هانئ يأمره بتسليم ما عنده فأبى هانئ، فوقعت بين العرب والفرس معركة ذي قار الشهيرة في التاريخ، وانتصر فيها بنو شيبان، وكانت تلك المرّة الأولى التي ينتصر فيها العرب على الفرس، وقد حدثت معركة ذي قار بعد غزوة

---

(١) جنوب شرق النجف في العراق حالياً.

بـدر بأشـهر، وهنـاك مـن يـرى أنَّهـا وقعـت بعـد ولادة النبـي ﷺ بقليـل.

وبقيت الحيرة تابعة للفرس حتى فتحها خالد بن الوليد «رضي الله عنه» في خلافة أبي بكر الصديق «رضي الله عنه» سنة ١٢هـ.

٣- المُـلك بالشام

اصطنع الرومانُ العربَ المتاخمين للإمبراطورية الرومانية وولّوا عليهم ملكاً، وكان آخر من حكم من العرب في الشام آلُ غسان ودولتهم دولة الغساسنة، وكانت قاعدتهم «عاصمتهم» دُومة الجندل.

ظلَّ الغساسنة يحكمون الشام بصفتهم عمّالاً لملوك الروم حتى فتح المسلمون الشام سنة ١٣هـ، ودخل آخر ملوك الغساسنة جَبَلَةُ بن الأيهم في الإسلام في خلافة عمر رضي الله عنه.

٤- الحكم بالحجاز

حكم اسماعيل عليه السلام مكة طول حياته، وتوفي وعمره ١٣٧ سنة، ثمَّ تولى الحكم بعده اثنان من أبنائه، ثمَّ انتقل الحكم من أبناء إسماعيل إلى أخوالهم من قبيلة جرهم، ولم يكن لأبناء إسماعيل من الحكم شيءٌ، ومضت على ذلك قرون حتى جاء عدنان وهو الجد الحادي والعشرون للنبي ﷺ الذي أصبحت له مكانة متميزة وكان من أولاده معد الذي تزوج بامرأة من جرهم فولدت له نزار.

بدأ النفور بين العدنانيين والجراهمة يظهر عندما بدأ الجراهمة يظلمون أهل مكة ويسيئون التعامل معهم، فاستغلت قبيلة خزاعة ذلك وساعدت العدنانيين على حرب الجراهمة حتى أجلوهم عن مكة، لكنَّ خزاعة هي التي استولت على حكم مكة بعد ذلك، وحصل العدنانيون المضريون على بعض الإمتيازات الدينية في مكة.

حكمت خزاعة مكة ثلاثة قرون (وقيل خمسة قرون)، وانتشر العدنانيون في وقتهم في نجد وأطراف العراق والبحرين، وبقي في أطراف مكة بعض بطون قريش وليس لهم من أمر مكة شيء، فكل شيء بيد خزاعة، حتى جاء قصي بن كلاب وهو

الجد الخامس للنبي ﷺ الذي تزوج من ابنة والي مكة حليل بن حبشة الخزاعي، فلمّا مات حليل قامت الحروب بين قريش وخزاعة وانتهت بسيطرة قصي على أمر مكة والبيت.

وهكذا انتقل حكم مكة وإدارة الكعبة إلى قصي، ومن بعده إلى قريش حتى جاء الإسلام وهم على ذلك.

استطاع قصي أن يُحكِم سيطرته على مكة، ثم عمد إلى تنظيم أمور مكة بشكل عام، والبيت بشكل خاص، حيث قام بما يلي:

١- **قسّم مكة رباعاً**، أي أنَّه قسمها إلى أحياء سكنية، وأسكن كل بطن من بطون قريش في حي من تلك الأحياء.

٢- **أسَّس دار الندوة**، وجعله المكان الذي يجتمع فيه رؤوس قريش ومَلَؤهم، حيث يتم اتخاذ القرارات المهمّة المتعلقة بمكة، أي أنَّ دار الندوة أصبحت تمثّل مقر حكومة مكة.

وجعل قصي كل الإمتيازات المهمة لنفسه ولأولاده من بعده، ومن هذه الإمتيازات:

١- **رئاسة دار الندوة.**

٢- **الحجابة**: وهي حجابة الكعبة، لا يفتح بابها إلّا هو، وهو الذي يلي أمر خدمتها وسدانتها.

٣- **اللواء**: فلا تُعْقَد راية الحرب إلّا بيده أو بيد أحد أولاده.

٤- **القيادة**: فلا يخرج رَكْبٌ لأهل مكة في تجارة أو غيرها إلّا تحت إمارته أو إمارة أحد أولاده.

٥- **الرفادة**: وهي طعام كان يصنع للحُجّاج على طريقة الضيافة.

٦- **السقاية**: وهي ملئ أحواض من الماء ليشرب منها الناس إذا وردوا مكة.

كان لقصي ثلاثة أولاد: عبد الدار وعبد مناف وعبد العزى، وقد أوصى قصي

لِبكْرِه عبد الدار بدار الندوة والحجابة واللواء والسقاية والرفادة، ولم ينازع عبد مناف وعبد العزى أخاهم عبد الدار على هذه المناصب، فلمّا مات عبد مناف نازع أولاده أبناء عمهم عبد الدار حتى كاد أن يكون بينهم قتال، ثمَّ تصالحوا واقتسموا هذه المناصب، فبقيت دار الندوة والحجابة واللواء عند بني عبد الدار، وصارت الرفادة والسقاية الى بني عبد مناف الذين حكّموا القرعة فيما بينهم فخرجت لهاشم بن عبد مناف، فلمّا مات خلفه أخوه المطلب بن عبد مناف، ثمَّ صارت لعبد المطلب بن هاشم جد رسول الله ﷺ، وبعده لأبنائه، حتى جاء الإسلام وهي للعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

والخلاصة: أنَّ الحكم بالحجاز كان لإسماعيل عليه السلام ولأولاده من بعده لأكثر من قرن من الزمان، ثمَّ حكمت الحجازَ قبيلةُ جرهم عشرين قرناً تقريباً، ثمَّ حكمت قبيلة خزاعة ثلاثة قرون، ثمَّ عاد الحكم لأولاد إسماعيل من جديد على يد قصي حيث حكمت قريش إلى حين ظهور الإسلام.

أمّا الحكم في سائر العرب، فكان للعرب مملكة في الحيرة (المناذرة)، ومملكة في الشام (الغساسنة)، ومملكة في اليمن، وأمّا القبائل العربية التي سكنت بالقرب من الحيرة فكانت تابعة للمناذرة في الحيرة، والتي في بادية الشام كانت تابعة للغساسنة، وأمّا القبائل التي كانت تسكن البوادي داخل الجزيرة العربية فكانت مستقلة لا تخضع لأحد، وكان يحكم كلَّ قبيلة رئيسُها.

بقي أن نشير هنا الى أنَّ النظام القبلي كان سائداً في كل الجزيرة العربية، حتى في الممالك المتحضرة التي ذكرناها، كمملكة اليمن في الجنوب، ومملكتي المناذرة والغساسنة في الشمال الشرقي والشمال الغربي للجزيرة العربية، وكانت الحروب بين هذه القبائل قائمة على قدم وساق، ومن أشهر تلك الحروب داحس والغبراء، وحرب الفِجار في مكة، وحرب بعاث بين الأوس والخزرج في المدينة، وكانت أسباب هذه الحروب إمّا شخصية وإمّا طلباً للغنيمة، إذ كان رزق بعض القبائل في

كثير من الأحيان في حدِّ سيوفهم، ولذلك ما كانت القبيلة تأمن على نفسها من أن تتعرض لهجوم من قبيلة أخرى في ليل أو نهار لتسلب أنعامها وكل ما تملك، بل وحتى لتسبي نساءها وصغارها.

ثالثاً: الحالة الدينية للعالم

كانت الديانات السائدة في العالم حين بُعِثَ النبي ﷺ هي: عبادة الأصنام، واليهودية، والنصرانية، والمجوسية، وكذلك البوذية والبرهمية.

١ - عبادة الأصنام

لمّا أهبط الله ﷻ آدم ﵇ إلى الأرض ظلّت ذريته على التوحيد، وعلى شريعة الحق إلى عهد نوح ﵇ وكان بين آدم ونوح ﵉ عشرة قرون، ثمَّ اختلفوا بعد ذلك، ودخلهم الشرك فبعث الله ﷻ لهم نوحاً ﵇ وهو أوّلَ رسول إلى أهل الأرض.

وكان أول شرك حدث في أهل الأرض هو تعظيمهم للصالحين، وقد ذكر الله ﷻ ذلك في قوله: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [سورة نوح: ٢٣]، قال ابن عباس: كان هؤلاء رجالاً صالحين، فلمّا ماتوا في شهرٍ جزع عليهم أقاربهم فصوّروا صورهم. اهـ.

فلمّا مرّت عليهم الأزمان عظّموهم ثمَّ عبدوهم بعد ذلك، فبعث الله ﷻ إليهم نوحاً ﵇ فدعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام فردّوا دعوته، فأغرقهم الله ﷻ ثمَّ حوّل الماء هذه الأصنام عن أماكنها، وقذفها من أرض إلى أرض حتى استقرّت بجدّة في الجزيرة العربية، فلمّا نضب الماء سفت الريح عليها التراب حتى وارتها[١].

ولمّا بنى إبراهيم وإسماعيل ﵉ البيت وحكم إسماعيل ﵇ مكّة، دعا العرب إلى التوحيد دعوة أبيه إبراهيم ﵇ فاستجابوا له واتبعوه، فظلّ التوحيد سائداً في الجزيرة العربية طيلة فترة حكم إسماعيل ﴿أكثر من قرن﴾ وحُكم جرهم ﴿عشرون قرناً﴾، فلمّا حكمت خزاعة أدخل عمرو بن لحيّ الأصنام إلى الجزيرة العربية.

وكان عمرو بن لحيّ هذا سيد خزاعة معروفاً بالصدقة وبالحرص على أمور الدين، وكان الناس يحبّونه، ثمَّ إنّه سافر إلى الشام فرأى أهل الشام

(١) أي دفنتها.

يعبدون الأوثان [١]، فقَدِمَ بهُبل وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكة إلى عبادته والشرك بالله ﷻ فأجابوه، ثمَّ تبع أهلُ الحجاز أهلَ مكة لأنّهم ولاة البيت وأهل الحرم.

وكان عمرو بن لحيّ كاهناً، فأخبرته الجن بأنَّ أصنام قوم نوح (وداً وسواع ويغوث ويعوق ونسرا) مدفونة بجِدَّة فاستثارها[٢] ثمَّ حملها ووزَّعها على القبائل في موسم الحج، حتى صار لكل قبيلة صنمها، وهكذا انتشرت الأصنام في الجزيرة العربية، ومُلئ بها المسجد الحرام، ولمّا فتح رسول الله ﷺ مكة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنماً فجعل يطعنها ويقول: «جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً»، وهي تتساقط ثمَّ أمر بها فأُخرجت من المسجد وأُحرقت.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رأيت عمرو بن عامر يجرُّ قُصْبَه [٣] في النار، وكان أول من سيّب السوائب وبحَّر البحيرة»، وعمرو بن عامر هو عمرو بن لحي.

قال ابن كثير: واستمرت خزاعة على ولاية البيت نحواً من ثلاثمائة سنة، وقيل خمسمائة سنة، والله أعلم، وكانوا مشؤومين في ولايتهم، وذلك لأنَّ في زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لحيّ لعنه الله، فإنَّه أول من دعاهم إلى ذلك اهـ [٤]

ومن أصنام العرب اللات والعزى وهبل ومناة، وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانت العرب تعبد هذه الاصنام معتقدين أنَّها تشفع لهم وتقربهم إلى الله ﷻ!!! وقد ذكر القرآن العظيم اعتقادهم

(١) حيث كانت الامبراطورية الرومانية التي تحكم الشام في تلك الفترة لم تتنصّر بعد، فقد أصبحت النصرانية الدين الرسمي للامبراطورية في بداية القرن الرابع الميلادي، وقد كانوا قبل ذلك وثنيين كما سيأتي.

(٢) أي حفر المكان الذي توجد فيه الأصنام حتى أخرجها.

(٣) أمعاءه.

(٤) البداية والنهاية: ج١/ ٣٤٧.

الفاسد هذا، فقال ﷻ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلفى﴾ [الزمر: ٣].

ومع أنَّ أكثر العرب في الجزيرة العربية كانوا على الوثنية وعبادة الأصنام، فقد اعتنق بعضهم اليهودية أو النصرانية أو المجوسية.

٢- اليـهـوديـة

أمّا اليهود الذين يزعمون أنَّهم أتباع موسى عليه السلام، فهم أولاد يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ويعقوب هو إسرائيل، وكان يسكن بادية فلسطين، وبعد أن كاد أولاده لأخيهم يوسف وألقوه في الجبّ «البئر» وبيع إلى عزيز مصر[1] مكّن الله له بعد سجنه وأصبح صاحب سلطان في مصر، فأرسل إلى أبيه وأهله، فسكنوا مصر واستوطنوها وعاشوا عيشةً طيبةً طيلة حياة يوسف عليه السلام.

وبعد وفاة يوسف عليه السلام بزمن الله أعلم بطوله تغيّر الحال على بني إسرائيل وانقلب عليهم الأقباط فاستعبدوهم وأذلّوهم، فكانوا يقتلون ذكورهم ويستحيون [2] إناثهم، إلى أن أرسل الله ﷻ موسى عليه السلام وهو من أحفاد إسرائيل يعقوب، فإسرائيل هو الجد الخامس لموسى[3]، فدعا فرعون إلى الإيمان بالله فأبى، واتَّهم فرعون موسى بأنّه ساحر، وجمع له السحرة فهزمهم موسى عليه السلام فآمن السحرة، وأصرَّ فرعون على كفره، وأراد أن يقتل موسى ومن آمن معه، فأغرق الله فرعون ونجّى موسى وبني إسرائيل.

خرج موسى عليه السلام ومعه بنو إسرائيل من مصر فلم يستقيموا مع موسى عليه السلام حتى إذا رأوا قوماً ﴿يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، ولمّا ذهب عليه السلام لميقات ربه رجع

(١) أي كبير وزرائها.
(٢) أي يستبقونهنَّ للخدمة.
(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، ج١: ١٥٤، ذكر قصّة موسى الكليم عليه السلام.

فوجدهم يعبدون عجلاً صوّروه من حليهم ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٨]، وحين دعاهم إلى قتال أعدائهم من الجبابرة ودخول الأرض المقدّسة عصوا أمر نبيهم ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: ٢٤]، فكتب الله ﷻ عليهم التيه أربعين سنة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: ٢٦].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: لقد كانوا بين الصحراء بجدبها وصخورها، والسماء بشواظها ورجومها، فأمّا الحجر فقد أنبع الله لهم منه الماء، وأمّا السماء فأنزل لهم منها المنَّ والسلوى عسلاً وطيراً، ولكن البنية النفسية المفككة، والجبّلة الهابطة المتداعية، أبت على القوم أن يرتفعوا إلى مستوى الغاية التي من أجلها أُخرجوا من مصر، ومن أجلها ضربوا في الصحراء، لقد أخرجهم الله على يدي نبيهم موسى عليه السلام من الذل والهوان ليورثهم الأرض المقدسة، وليرفعهم من المهانة والضعة، وللحرية ثمن، وللعزّة تكاليف، وللأمانة الكبرى التي ناطهم الله بها فدية، ولكنّهم لا يريدون أن يؤدوا الثمن، ولا يريدون أن ينهضوا بالتكاليف، ولا يريدون أن يدفعوا الفدية، حتى بأن يتركوا مألوف حياتهم الرتيبة الهينة، حتى بأن يغيروا مألوف طعامهم وشرابهم، وأن يكيِّفوا أنفسهم بظروف حياتهم الجديدة، في طريقهم إلى العزة والحرية والكرامة، إنّهم يريدون الأطعمة المنوعة التي ألفوها في مصر، يريدون العدس والثوم والبصل والقثاء، وما إليها!. اهـ.[1]

وحين نَكَلَ بنو إسرائيل عن دخول بيت المقدس وقالوا لموسى عليه السلام: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حتى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.

﴿فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ قَالُوا يَا موسى إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا ۖ فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٢ - ٢٤]، لم يبقَ منهم أحد ممّن كان نَكَلَ عن دخول مدينة الجبّارين، ثمَّ مات هارون ومات موسى عليه السلام، والذي عليه الجمهور أنَّ هارون توفي بالتِيه قبل أخيه موسى بنحو سنتين، وبعده مات موسى عليه السلام في التِيه أيضاً، وكان الذي خرج ببني إسرائيل من التِيه وقصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، فاستقر بنو إسرائيل في بيت المقدس مع نبي الله يوشع بن نون يحكم بينهم بكتاب الله تعالى التوراة حتى مات بعد وفاة موسى عليه السلام بسبع وعشرين سنة.

بعد موسى عليه السلام بزمن الله أعلم بِطولِه حكم داود عليه السلام بني إسرائيل، وهو من أبناء إسرائيل (يعقوب)، فيعقوب هو الجد الحادي عشر لداود عليه السلام [١]، وقد ملك داود عليه السلام بعد قتل جالوت، وقد جمع الله سبحانه وتعالى له النبوة والملك، ووهبه صوتاً لم يُعطِه أحداً، فكان إذا ترنّم بقراءة كتابه تُسبّح معه الجبال والطير، قال تعالى ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ﴾ [سبأ: ١٠]، وقد ثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنَّه قال لأبي موسى الأشعري: «لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود» [٢].

وكان داود عليه السلام يأكل من كسبه، فعن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ما أكل أحد طعاماً قط خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده [٣]

وأحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود، فعن عبد الله بن عمرو قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحبُّ الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه. [٤]

---

(١) البداية والنهاية: ج١/ ٢٢٧، قصة داود عليه السلام.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري.

(٤) متفق عليه واللفظ للبخاري.

ولمّا مات داود «عليه السلام» ورثه ابنه سليمان «عليه السلام»، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ ۖ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، ورثه في النبوة والملك وليس وراثة المال لأنَّ الأنبياء لا يورثون وراثة المال، وقد أعطى الله سبحانه وتعالى لسليمان عليه السلام ملكاً لم يُعطه لأحد قبله ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّن بَعْدِي ۖ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٥ - ٣٦].

وعاش سليمان بن داود نيّفاً وخمسين سنة، وفي سنة أربع من ملكه ابتدأ بتجديد بناء بيت المقدس - الذي كان قد بناه يعقوب عليه السلام، ثمَّ ملك بعده ابنه رُحُبْعُم مدة سبع عشرة سنة فيما ذكره ابن جرير، قال: ثمَّ تفرقت بعده مملكة بني إسرائيل.

ثمَّ أرسل الله سبحانه وتعالى جماعة من أنبيائه إلى بني إسرائيل بعد داود وسليمان وقبل زكريا ويحيى عليهما السلام، فلمّا ظهرت في بني إسرائيل المعاصي سلَّط الله سبحانه وتعالى عليهم بُختْ نصَّر العراقي الذي دخل بجيوشه بيت المقدس، ووطئ الشام كلها، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم، ومن ذلك الزمان تفرّقت بنو إسرائيل في البلاد، فنزلت طائفة يثرب، وطائفة وادي القرى، وذهبت شرذمة منهم إلى مصر.

ثمَّ عمرت بيت المقدس بعد خرابها كما ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في كتابه حيث قال: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وقد اعتبر ابن جرير أنَّ هذا المار على بيت المقدس هو أرميا «عليه السلام»، بينما ذهب كثير من السلف والخلف أنّه عزير.

ومن أنبياء بني إسرائيل زكريا وابنه يحيى عليهما السلام وزكريا من أحفاد داود عليه السلام، وداود

هو الجد الثامن عشر لزكريا [1]، وقد ذكر الله ﷻ قصة زكريا ويحيى عليهما السلام بشيء من التفصيل في سورة مريم، وقد اختلفت الروايات، هل مات زكريا «عليه السلام» موتاً أم قُتل قتلاً، على روايتين، فذهب البعض إلى أنَّه نُشِرَ بالمنشار، والبعض إلى أنَّه مات موتاً، وأمّا ابنه يحيى عليه السلام فقُتِلَ، وقد ذكروا في قتله أسباباً كثيرة، فالله أعلم.

حين بُعث عيسى عليه السلام كان الرومان يسيطرون على فلسطين، وبعد رفعه قام اليهود بثورات ضدّ الرومان ففتك بهم الرومان وسُبيت وهُجّرت أعداد كبيرة منهم سنة ٧٠م، وبهذا تشتت اليهود في الأرض، وسلّط الله عليهم الأمم يسومونهم سوء العذاب ببغيهم وفسادهم ﴿وإذ تأذنّ ربك ليبعثنَّ عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وإنه لغفور رحيم﴾ [الأعراف: ١٦٧]

وحين تنصّر الإمبراطور الروماني قسطنطين وأصبحت الإمبراطورية البيزنطية نصرانية بشكل رسمي بداية القرن الرابع الميلادي، ضغط النصارى على اليهود وأهانوهم، وحين تولى قسطنطينوس بعد أبيه سنة ٣٣٧م شرّع قوانين جديدة ضغطت أكثر على اليهود، فظلَّ وضع اليهود يتدهور، فدُمِّرَت معابدهم، وحورب أتباعهم، وأُجبروا في بعض الأحيان على اعتناق النصرانية، فانتقلوا إلى مدينة بابل في العراق، لكنَّ الامبراطورية الفارسية لم تتركهم وشأنهم بل فرضت عليهم قوانين صارمة حملتهم على الهجرة من جديد.

وحين أصبح ذو نوّاس اليهودي ملكاً على اليمن سنة ٥١٧ م حارب النصارى وأبادهم، وقد ذكر القرآن الكريم قصّة إبادة ذي نوّاس اليهودي للنصارى سنة ٥٢٣ م في سورة البروج، لكنَّ النصارى استعانوا بالروم واستطاعوا الانتصار على اليهود سنة ٥٢٥ م كما مرَّ معنا سابقاً عند الكلام عن الملك باليمن.

فلمّا جاء الإسلام كانت ثلاث قبائل من اليهود تسكن في المدينة وهم: بنو قينقاع وبنو النضير وبنو قريظة، كذلك سكن اليهود في خيبر والتي تقع شمال المدينة، وفي تيماء التي تقع شمال خيبر.

---

(١) البداية والنهاية: ج١/ ٢٥٢، قصّة زكريا عليه السلام.

٣- النصرانية

وأمّا الديانة النصرانية، فقد بقي الروم على دينهم الوثني إلى أن جاء المسيح عليه السلام بدين النصرانية، فحرّض اليهود في فلسطين الحاكم الروماني عليه وعلى أتباعه، وسعوا في قتله، فرفعه الله تعالى إليه، فطاردوا أتباعه على مدى أكثر من قرنين من الزمن، وتولى أحبار اليهود خلال هذه الفترة تحريف الدين الجديد.

وظلّ أتباع المسيح وحواريوه مطاردين، وأقام لهم الرومان المذابح، واستمر ذلك إلى أن بلغ أوجه في عصر الإمبراطور دقليديانوس الذي بطش بالنصارى بطشاً شديداً حتى سُمّي عصره في التاريخ المسيحي بعصر الشهداء، وهو الإمبراطور الذي خرج في عصره أصحاب الكهف أواخر القرن الثالث الميلادي - والله أعلم -، وقد ذكر القرآن الكريم البطش الذي تعرض له النصارى في القرن السادس الميلادي في قصة أصحاب الأخدود.

خَلَفَ الإمبراطور دقليديانوس الإمبراطور قسطنطين، والذي لم يلبث أن تنصّر، وزالت الوثنية، لتصبح النصرانية دين الرومان منذ مطلع القرن الرابع الميلادي وإلى اليوم.

وجد قسطنطين أنَّ النصرانية مشتتة على مذاهب كثيرة نتيجة انتشار الحواريين، وسرّية أتباعهم، وخلط الأحبار، فطلب أن تُجمع الأناجيل وتُختصر في كتاب واحد تعتمده الإمبراطورية، فانعقد المجمع النصراني الأول، فوجد الأحبار والرهبان أمامهم زهاء أربعمائة إنجيل مختلفة الروايات يعود أقربها تأريخياً إلى المسيح إلى نحو مائتي سنة بعد رفعه عليه السلام واعتقادهم بصلبه، وذلك نتيجة البطش، وتناقل أحبار النصارى روايات الإنجيل مشافهة خوفاً من كتابتها خشية الرومان، فلمّا كُتبت بعد أكثر من قرنين من رفع المسيح حوت كثيراً من الخلط نتيجة دس الرواة وتقادم العهد، وهذا هو السبب الأساسي في تحريف الإنجيل الذي تتابعت عملية تحريفه من قِبَل رجال الكنيسة زمن الرومان وبعده، وهكذا خرج المَجْمَع الكنسي الأول بأربعة أناجيل معتمدة هي: (لوقا، يوحنا، متّى، مرقص)

كان بطرس أحد كبار أحبار اليهود المعادين لدين المسيح وأتباعه، حيث تولى تعذيب من قدر عليه بالتعاون مع الحاكم الروماني في فلسطين، ثمَّ زعم أنَّه تنصّر وأنَّ لديه تكليفاً ببناء الكنيسة الكبرى على صخرة روما، فذهب إلى هناك وأقام الكنيسة التي تطورت لتكون الفاتيكان، وتصبح مقر باباوات النصارى إلى اليوم، وإلى بطرس هذا يعود تشويه وتحريف كثير من عقائد النصارى، وخاصة في المذهب الكاثوليكي، وهكذا أصبحت مذاهب النصرانية خليطاً من تعاليم المسيح، وأصول اليهودية، وما بقي من أثار الوثنية الرومانية الإغريقية الأصل، حيث سادت عقيدة التثليث والأقانيم الثلاثة (الأب والإبن والروح القدس) كما يُدجّل النصارى ويفترون على الله الكذب، ﷻ عمّا يشركون.

وتبنّى النصارى عقيدة صلب المسيح وأقاموا دينهم على هذه الفرية الكبرى، ثمَّ سيطر المذهب الكاثوليكي الذي تولى أصحابه برئاسة بابا روما ودَعْم إمبراطورها مطاردة باقي المذاهب النصرانية التي لم تؤمن بألوهية المسيح وغير ذلك من الأباطيل، وبطشت بهم بأقسى أساليب البطش وأنهت وجودهم.

الأمر المهم الآخر الذي فعله قسطنطين بعد إدخال النصرانية وتوحيد الأناجيل أنَّه بنى مدينة القسطنطينية، واتخذها عاصمة ثانية للإمبراطورية بعد روما، وكان ذلك بداية انقسام الروم إلى شرقيين وغربيين، وكان انقساماً سياسياً وحتى مذهبياً، حيث اعتمد الروم الشرقيون (القسطنطينية) المذهب الأرثوذكسي، بينما اعتمد الروم الغربيون (روما) المذهب الكاثوليكي، وعندما جاء الإسلام وجد النصارى على هذه العقائد المنحرفة. [١]

وأمّا الجزيرة العربية فقد دخلت النصرانية إلى شمالها عن طريق الغساسنة

---

(١) مذاهب النصارى المعاصرة ثلاثة:
١- المذهب الكاثوليكي: وتدين به أوروبا الغربية من النمسا إلى المحيط الأطلسي عدا بريطانيا.
٢- المذهب الأرثوذكسي: وتدين به أوروبا الشرقية من روسيا إلى النمسا.
٣- المذهب البروتستانتي: وتدين به أمريكا والمملكة المتحدة «بريطانيا» والدنمارك والنرويج والسويد.

الذين تنصّروا تبعاً للروم، فقد كان الغساسنة عمّالاً للروم على الشام، وكذلك تنصّرت بعض القبائل العربية المجاورة للغساسنة، وأمّا في جنوب الجزيرة فقد دخلت النصرانية إلى اليمن عندما احتلها الأحباش للمرّة الأولى ٣٤٠م، وحين عاد الأحباش لاحتلال اليمن مرّة ثانية سنة ٥٢٥ م بدأ أبرهة الحبشي بنشر النصرانية في ربوع اليمن، وبنى كنيسته المشهورة والتي أراد ببنائها أن يصرف العربَ عن الحج إلى الكعبة، وأن يجعلهم يحجون إليها، وانطلق بجيشه ليهدم الكعبة فأخذه الله ﷻ وجيشه أخذ عزيز مقتدر، وقد ذُكرت قصته في سورة الفيل.

٤- المجوسية

كانت المجوسية هي الديانة الرسمية للامبراطورية الفارسية وقد عبد المجوس العناصر الطبيعية، وأعظمها عندهم النار التي قدّسوها ونشروا بيوتها ومعابدها في كل البلاد، وكانوا لا يدعونها تنطفئ، كما لا يدعون المعدن يصدأ، لأنَّ المعادن عندهم مقدّسة أيضاً، وقد دان المجوس بالثنوية، أي اعتقدوا وجود إلهين اثنين، إله النور أو الخير، وإله الظلام أو الشر.

أمّا في الجزيرة العربية فقد وُجدت المجوسية في عُمان وبعض مناطق جنوب اليمن.

وأمّا الهند فقد كان أهلها يدينون بالبوذية والبرهمية وهما ديانتان وثنيتان، وقد نصبوا تماثيل لبوذا في طول البلاد وعرضها.

والخلاصة: أنَّ الجزيرة العربية قبيل بعثة النبي ﷺ كانت فيها أربعة أديان (عبادة الأوثان واليهودية والنصرانية والمجوسية)، فعبادة الأوثان سادت أكثر الجزيرة العربية في الحجاز ونجد واليمامة والبحرين وحضرموت ومهرة، بينما وُجدت النصرانية في الشمال عند الغساسنة وبعض المناذرة والقبائل القريبة من المملكتين، وفي الجنوب في بعض مناطق اليمن، بينما وُجد اليهود في المدينة المنورة وخيبر وتيماء، أمّا المجوس فكان لهم وجود في عُمان وبعض مناطق جنوب اليمن.



أمّا ديانات غير العرب التي كانت سائدة قبيل بعثة النبي ﷺ في العالم فهي النصرانية المُحرّفة التي كانت ديانة الإمبراطورية الرومانية، والمجوسية (عبادة النار) التي كانت ديانة الإمبراطورية الفارسية، والبوذية والبرهمية التي كانت ديانة الهند وآسيا الوسطى.

وبالجملة فقد اختفى التوحيد من على وجه الأرض (عدا أفراد قليلين من الموحدين في الجزيرة العربية كقس بن ساعدة الأيادي وزيد بن عمرو بن نفيل وأميّة بن أبي الصّلت)، ومع ذلك فالعرب كانوا يزعمون أنّهم على دين إبراهيم عليه السلام، واليهود كانوا يزعمون أنّهم على دين موسى عليه السلام، والنصارى كانوا يزعمون أنّهم على دين عيسى عليه السلام، وكلّهم كاذبون في دعواهم، وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام برءاء منهم.

رابعاً: الحالة الاجتماعية للعالم

كان الوضع الاجتماعي والأخلاقي للعالم أيام بعثة النبي ﷺ بشكل عام في أسوأ حالاته، فقد سادت العبودية في كل العالم، وكانت المجتمعات مقسّمة إلى طبقة السادة وطبقة العامة وطبقة العبيد، وهناك دائماً الفقراء المسحوقون والأغنياء المُترفون، وتفشى الجهل والأمّية بين الناس، كذلك انتشر الزنا والرذيلة في أوساط الناس عامة، وانتشر التعامل بالربا، وأكل الأقوياء من الناس ضعفاءهم.

أمّا الإمبراطورية الرومانية فكانت دولة ظالمة مارست كل أنواع الظلم والجور والتعسف على الشعوب التي حكمتها، وأثقلتها بكثرة الضرائب، وكانت حياتهم العامة قائمة على كل أنواع اللهو واللعب والطرب والترف، وجعل البيزنطيون مصر والشام شاةً حلوباً يُحسنون حلبها ويسيئون علفها، واعتمدوا في حكم الناس على القوة والبطش، وكثيراً ما كان الناس يبيعون أبناءهم ليوفوا ما كان عليهم من ديون، وكانت حياة السادة والكبراء مليئة بالمجون والترف والرذائل.

وأمّا الفرس فقد جُعلت موارد البلاد ملكاً لملوكهم يتصرفون بها كما يشاؤون، لا شيء يهمّهم سوى إشباع رغباتهم وشهواتهم، واستغلوا شعوبهم أسوأ استغلال، ممّا اضطر الكثير من الناس إلى ترك أعمالهم ومزارعهم، وكانوا يزجّون بعامّة الناس في حروب طاحنة بينهم وبين الروم.

وأمّا الهند فقد كان القرن السادس الميلادي يمثّل أسوأ فترة زمنية مرّت بها البلاد، ديانة وخُلُقاً واجتماعاً وسياسة، حيث صارت المرأة سلعة تُباع وتُشترى، لا قيمة لها على الإطلاق، حتى أنَّها كانت تُحرق بعد موت زوجها، وانتشرت الخلاعة حتى في المعابد، وصار التفاوت الطبقي الفاحش من سمات المجتمع البارزة، وكان هذا التفاوت محمياً بقانون مدني سياسي ديني وضعه المشرّعون الهنود!!!، وكان المجتمع مقسّماً إلى أربع طبقات: طبقة الكهنة ورجال الدين، وطبقة رجال

الحرب والجندية، وطبقة رجال الفلاحة والتجارة، وطبقة رجال الخدمة، وهم أحطّ الطبقات، وليس لهم إلّا خدمة هذه الطبقات الثلاث وإراحتها.

وأمّا العرب فقد شاعت فيهم كثير من الرذائل التي شاعت في تلك الأمم، فقد كان المجتمع العربي هو الآخر منقسماً إلى طبقات السادة والعامة والعبيد، وكانت المرأة مهضومة الحقوق، وقد انتشرت فيهم عادة وأد البنات خشية العار والإنفاق، وكذلك قتل الأولاد خشية الفقر والإملاق، وقد ذكر الله ﷻ ذلك في القرآن العظيم فقال ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذلكم وصاكم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بالأنثى ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ۝ يتوارى مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ ۚ أَيُمْسِكُهُ عَلَى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير: ٨، ٩]، وكانوا يعددون الزوجات دون حد معروف، حتى حدده الإسلام بأربع، وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجات آبائهم إذا طلقوهنّ أو ماتوا عنهنّ، حتى جاء الإسلام وأبطل ذلك كلّه.

وكانت فاحشة الزنا سائدة في المجتمع العربي الجاهلي لا يُستثنى من ذلك إلّا أفراد قلائل من الرجال والنساء ممن كانوا يستشنعون ذلك ويعتبرونه من أخلاق الإماء، كما قالت هند زوجة أبي سفيان لرسول الله ﷺ متعجبة: يا رسول الله أوَ تزني الحرة؟!!، وكانت الحرائر أحسن حالاً من الإماء، ويبدو أنَّ الأغلبية الساحقة من أهل الجاهلية لم يكونوا يعتبرون الزنا عاراً على الإطلاق، وما كان فيه المجتمع الجاهلي من المجون والسفاح والفاحشة يصوّره الأثر الوارد عن عائشة رضي الله عنها، وقصّة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة إلى رسول الله ﷺ، فأمّا الأثر الوارد عن

عائشة رضي الله عنها فقد روى البخاري عن عروة بن الزبير أنَّ عائشة رضي الله عنها أخبرته: أنَّ النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء، فنكاح منها نكاح الناس اليوم، يخطب الرجل إلى الرجل وليته أو ابنته فيصدقها ثمَّ ينكحها، ونكاح آخر كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه ويعتزلها زوجها، ولا يمسّها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وإنّما يفعل ذلك رغبة في نجابة الولد، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع، ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة فيدخلون على المرأة كلّهم يصيبها، فإذا حملت ووضعت ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، تقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدتُ، فهو ابنك يا فلان، تسمّي من أحبّت باسمه فيُلحق به ولدها لا يستطيع أن يمتنع به الرجل، ونكاح رابع يجتمع الناس الكثير فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممّن جاءها، وهنَّ البغايا، كُنَّ ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها، جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثمَّ ألحقوا ولدها بالذي يرون، فالتاط به ودُعي ابنه، لا يمتنع من ذلك، فلمّا بعث محمد صلى الله عليه وسلم بالحق هدم نكاح الجاهلية كلّه إلا نكاح الناس اليوم.

وأمّا قصّة اختصام سعد بن أبي وقاص وعبد بن زمعة رضي الله عنهما فقد روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان عتبة عَهِد إلى أخيه سعد أنَّ ابن وليدة زمعة منّي فاقبضه إليك، فلمّا كان عام الفتح أخذه سعد فقال: ابن أخي عهد إليَّ فيه، فقام عبد بن زمعة فقال: أخي وابن وليدة أبي، وُلد على فراشه، فتساوقا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال سعد: يا رسول الله، ابن أخي، قد كان عهد إليَّ فيه، فقال عبد بن زمعة: أخي وابن وليدة أبي ولد على فراشه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هو لك يا عبد بن زمعة، الولد للفراش وللعاهر الحَجَر، ثمَّ قال لسودة بنت زمعة: احتجبي منه لِمَا رأى من شبهه بعتبة، فما رآها حتى لقي الله. (١)

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: ودلالة هذه الصورة على هبوط التصور الإنساني وبهيميته لا تحتاج إلى تعليق، ويكفي تصوّر الرجل، وهو يرسل امرأته إلى «فلان» لتأتي له منه بولد نجيب، تماماً كما يرسل ناقته أو فرسه أو بهيمته إلى الفحل النجيب، لتأتي له منه بنتاج جيد!.

ويكفي تصور الرجال – ما دون العشرة! – يدخلون إلى المرأة مجتمعين – «كلهم يصيبها!»، ثمَّ تختار هي أحدهم لتلحق به ولدها!.

أمّا البغاء – وهو الصورة الرابعة – فهو البغاء! يزيد عليه إلحاق نتاجه برجل من البغاة! لا يجد في ذلك معرة! ولا يمتنع من ذلك! إنّه الوحل الذي طهّر الإسلام منه العرب، وزكّاهم، وكانوا – لولا الإسلام – غارقين إلى الأذقان فيه!.

ولم يكن هذا الوحل في العلاقات الجنسية إلا طرفاً من النظرة الهابطة إلى المرأة في الجاهلية. اهـ [١]

ويقول أيضاً: ومن هذه الوهدة العالمية ارتفع الإسلام بالمرأة وبالعلاقات الزوجية إلى ذلك المستوى الرفيع الطاهر الكريم وأنشأ للمرأة ما أنشأ من القيمة والاعتبار والحقوق والضمانات، وليدة لا توأد ولا تهان، ومخطوبة لا تنكح إلا بإذنها ثيباً أو بكراً، وزوجة لها حقوق الرعاية فوق ضمانات الشريعة، ومطلّقة لها هذه الحقوق المفصلة في هذه السورة (سورة الطلاق) وفي سورة البقرة وغيرها.

شرع الإسلام هذا كله، لا لأنَّ النساء في شبه الجزيرة أو في أي مكان في العالم حينذاك شعرن بأنَّ مكانهن غير مُرضٍ! ولا لأنَّ شعور الرجال كذلك قد تأذى بوضع النساء، ولا لأنَّه كان هناك اتحاد نسائي عربي أو عالمي! ولا لأنَّ المرأة دخلت دار الندوة أو مجلس الشورى! ولا لأنَّ هاتفاً واحداً في الأرض هتف بتغيير الأحوال.

إنّما كانت هي شريعة السماء للأرض، وعدالة السماء للأرض، وإرادة السماء بالأرض، أن ترتفع الحياة البشرية من تلك الوهدة، وأن تتطهر العلاقات الزوجية

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران.

من تلك الوصمة، وأن يكون للزوجين من نفس واحدة حقوق الإنسان وكرامة الإنسان. اهـ (١)

أمّا العلاقة التي كانت تربط الرجل الجاهلي بإخوته وأبناء عمومته وعشيرته فقد كانت علاقة قوية موطّدة، وكانت العصبية القبلية عند الرجل الجاهلي فوق كل اعتبار، يحيا لأجلها ويموت.

وأمّا العلاقة بين القبائل المختلفة فكان يحكمها التنافس والتنافر والبغضاء، وكانت الحروب تقوم بينهم لأتفه الأسباب، وقد روى لنا التاريخ سلسلة من أيام العرب في الجاهلية، والتي دارت فيها بينهم حروب طاحنة لأسباب تافهة، فمن تلك الأيام مثلاً يوم البسوس، وقد قامت الحرب فيه بين بكر وتغلب بسبب ناقة للجرمي وهو جار للبسوس بنت منقذ خالة جسّاس بن مرّة، وقد كان كليب سيد تغلب قد حمى لإبله مكاناً خاصاً به، فرأى فيه هذه الناقة فرماها، فجزع الجرمي وجزعت البسوس، فلمّا رأى ذلك جساس تحيّن الفرصة لقتل كليب فقتله، فقامت الحروب الطاحنة بين القبيلتين لمدة أربعين سنة، وكذلك يوم داحس والغبراء، وقد كان سببه سباقاً أقيم بين داحس وهو فرس لقيس بن زهير، والغبراء وهي لحذيفة بن بدر، فأوعز هذا إلى رجل ليقف في الوادي، فإن رأى داحساً قد سبق يردّه، وقد فعل ذلك فلطم الفرس حتى أوقعها في الماء، فسبقت الغبراء، وحصل بعد ذلك القتل والأخذ بالثأر، وقامت الحرب بين قبيلتي عبس وذبيان. (٢)

وكذلك الحروب التي قامت بين الأوس والخزرج في الجاهلية، وهم أبناء عم، فاستعان كل فريق منهم بحلفائه من القبائل المجاورة فاقتتلوا قتالاً شديداً في معارك كثيرة انتهى آخرها وهو يوم بعاث بانتصار الأوس على الخزرج.

وكانت بعض القبائل تسطوا وتغير بغية نهب الأموال، وسبي الأحرار وبيعهم، كزيد بن حارثة رضي الله عنه، فقد كان عربياً حراً، وسلمان الفارسي رضي الله عنه فقد كان فارسياً حراً.

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الطلاق.
(٢) الكامل في التأريخ لابن الأثير ١ / ٣١٢.

وقد أُولع العرب بالخمر والقمار والتعامل بالربا وأكل مال اليتامى، وشاعت فيهم الأمّية فلم يكونوا أهل كتاب وعلم كاليهود والنصارى، وكان فيهم قليل ممّن يكتب ويقرأ، ومع ذلك فقد اشتهروا بالذكاء والفطنة والألمعية والتهيؤ لقبول العلم والمعرفة.

ورغم هذا الواقع الاجتماعي والأخلاقي السيء فقد كانت عند عرب الجاهلية صفات حميدة تميَّزوا بها عن سائر الأمم ومنها:

١- الصدق والأمانة والوفاء والنفور عن الخداع والغدر وحبّهم للصراحة والوضوح.

ومن القصص الدالة على صدقهم قصة أبي سفيان حين سأله هرقل عن رسول الله ﷺ في فترة صلح الحديبية - وكان أبو سفيان لا يزال كافراً -، حيث لم يذكر أبو سفيان النبي ﷺ إلا بخير وقال: «لولا الحياء مِنْ أن يؤثروا عليَّ كذباً لكذبتُ عنه» [١]

ومن القصص الدالة على وفائهم أنَّ الحارث بن عبّاد قاد قبائل بكر لقتال تغلب وقائدهم المهلهل الذي قتل وَلَد الحارث، وقال: (بؤ بشسع نعل كليب) في حرب البسوس، فأسر الحارث مهلهلاً وهو لا يعرفه ، فقال: دُلّني على مهلهل بن ربيعة وأخلّي عنك، فقال له: عليك العهد بذلك إن دللتك عليه، قال: نعم، قال: فأنا هو، فجز ناصيته وتركه، وهذا وفاء نادر ورجولة تستحق الثناء، ومن وفائهم: أنَّ النعمان بن المنذر خاف على نفسه من كسرى لمّا منعه من تزويج ابنته فأودع أسلحته وحرمه إلى هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى فبطش به، ثمَّ أرسل إلى هانئ يطلب منه ودائع النعمان، فأبى، فسيّر إليه كسرى جيشًا لقتاله، فجمع هانئ قومه آل بكر وخطب فيهم فقال: «يا معشر بكر، هالك معذور، خير من ناج فرور، إنَّ الحذر لا ينجي من قدر، وإنَّ الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور، يا آل بكر

(١) رواه البخاري.

قاتلوا فما للمنايا من بد» واستطاع بنو بكر أن يهزموا الفرس في موقعة ذي قار.

٢- عِزَّة النفس والإباء والمروءة والنجدة: وسيمرُّ بنا في ثنايا الكتاب إن شاء الله ما يدللُّ على ذلك كاعتراض عبدالله بن أبي ربيعة على عمرو بن العاص حين أراد عمرو أن يُحرَّض ملك الحبشة ليقتل جعفر بن أبي طالب ومن معه من الصحابة، ووقوف المطعم بن عدي وأبي البختري مع النبي ﷺ في بعض المواقف، ووقوف ابن الدغنّة مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه عندما أراد الهجرة إلى الحبشة، ووقوف عثمان بن طلحة مع أمِّ سلمة رضي الله عنها في هجرتها، ووقوف أبي سفيان وزوجته هند مع زينب بنت النبي ﷺ حين أرادت الهجرة، ومواقف أخرى كثيرة، ونتج عن ذلك فرط الشجاعة عندهم وشدّة الغيرة وسرعة الانفعال.

٣- الكرم: ومنه إكرام الضيف وتحمّل الديات ليوقفوا سفك الدماء، وفي الأول يقول شاعرهم: [1]

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له ... أكيلاً فإنّي لست آكله وحدي

وفي الثاني يقول شاعرهم [2] وهو يمتدح رجلين أوقفا حرباً بين عبسٍ وذبيان وتحمّلا ديّات القتلى بين القبيلتين:

يَميناً لَنِعمَ السَيِّدانِ وُجِدتُما ... على كُلِّ حالٍ مِن سَحيلٍ وَمُبرَمِ

تَدارَكتُما عَبساً وَذُبيانَ بَعدَما ... تَفانوا وَدَقّوا بَينَهُم عِطرَ مَنشِمِ

وَقَد قُلتُما إِن نُدرِكِ السِلمَ واسِعاً ... بِمالٍ وَمَعروفٍ مِنَ الأَمرِ نَسلَمِ

٤- الصبر على المكاره وقوة الإحتمال والرضا باليسير، وربما اكتسبوا ذلك من طبيعة بلادهم الصحراوية، قليلة الزرع والماء.

٥- العفو عند المقدرة وحماية الجار، فكانوا لا يجهزون على الجرحى، ويراعون حقوق الجيرة ولا سيما المتعلقة بالعرض والشرف، قال شاعرهم: [3]

(١) البيت لحاتم الطائي.
(٢) الأبيات من معلّقة زهير بن أبي سلمى.
(٣) البيت لعنترة بن شداد.

وأَغُضُّ طرفي ما بدَتْ لي جارَتي حتى يُواري جارتي مأْواها

٦- وكانوا يجيرون من استجارهم، وربما ضحّوا بالنفس والولد والمال في سبيل ذلك، وقد أجار المطعم بن عدي النبي ﷺ حين عاد من الطائف، وأجار ابن الدغنّة أبا بكر رضي الله عنه، وأجار العاص بن وائل السهمي عمر رضي الله عنه.

ولهذه الأسباب، ولأسباب غيرها أهم كانت الجزيرة العربية، هي أصلح مكان على وجه الأرض في ذلك الوقت لتبدأ منها دعوة التوحيد.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: وكانت الجزيرة العربية، وأم القرى وما حولها بالذات، هي أصلح مكان على وجه الأرض لنشأة الإسلام يومئذ، وأصلح نقطة يبدأ منها رحلته العالمية التي جاء من أجلها منذ اللحظة الأولى.

لم تكن هناك حكومة منظمة ذات قوانين وتشريعات وجيوش وشرطة وسلطان شامل في الجزيرة، تقف للعقيدة الجديدة بسلطانها المنظم، وتخضع لها الجماهير خضوعاً دقيقاً، كما هو الحال في الامبراطوريات الأربع.

ولم تكن هنالك ديانة ثابتة كذلك ذات معالم واضحة، فقد كانت الوثنية الجاهلية ممزقة، ومعتقداتها وعباداتها شتى، وكان للعرب آلهة شتى من الملائكة والجن والكواكب والأصنام، ومع أنّه كان للكعبة وقريش سلطان ديني عام في الجزيرة، فإنّه لم يكن ذلك السلطان المحكم الذي يقف وقفة حقيقية في وجه الدين الجديد، ولولا المصالح الاقتصادية والأوضاع الخاصة لرؤساء قريش ما وقفوا هذه الوقفة في وجه الإسلام، فقد كانوا يدركون ما في عقائدهم من خلخلة واضطراب.

وكانت خلخلة النظام السياسي للجزيرة إلى جانب خلخلة النظام الديني، أفضل ظرف يقوم فيه دين جديد، متحرراً من كل سلطان عليه في نشأته، خارج عن طبيعته.

وفي وسط هذه الخلخلة كان للأوضاع الاجتماعية في الجزيرة قيمتها كذلك في حماية نشأة الدعوة الجديدة، كان النظام القبلي هو السائد، وكان للعشيرة وزنها في هذا النظام، فلمّا قام محمد ﷺ بدعوته وجد من سيوف بني هاشم حماية له، ووجد

من التوازن القبلي فرصة، لأن العشائر كانت تشفق من إثارة حرب على بني هاشم بسبب حمايتهم لمحمد ﷺ وهم على غير دينه، بل إنّها كانت تشفق من الاعتداء على كل من له عصبية من القلائل الذين أسلموا في أول الدعوة، وتدع تأديبه – أو تعذيبه – لأهله أنفسهم، والموالي الذين عُذِّبوا لإسلامهم عذبهم سادتهم ومن ثَمَّ كان أبو بكر رضي الله عنه يشتري هؤلاء الموالي ويعتقهم، فيمتنع تعذيبهم بهذا الإجراء، وتمتنع فتنتهم عن دينهم، ولا يخفى ما في هذا الوضع من ميزة بالقياس إلى نشأة الدين الجديد، ثمَّ كانت هنالك صفات الشعب العربي نفسه من الشجاعة والأريحية والنخوة، وهي استعدادات ضرورية لحمل العقيدة الجديدة والنهوض بتكاليفها. [1]

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الشورى.

خامساً: الحالة الاقتصادية

ستتكلم هنا عن الحالة الاقتصادية للجزيرة العربية فقط:

الجزيرة العربية عبارة عن صحراء واسعة، لا توجد فيها أنهار، لذلك خلت من الزراعة إلّا في أطرافها الشمالية والجنوبية في الشام واليمن، أمّا قلب الجزيرة العربية فقد انتشرت فيه بعض الواحات، ولذلك امتهن الناس رعي الإبل والغنم، فكانت القبائل تنتقل من مكان إلى آخر حيثما وُجد الكلأ [1] والمرعى.

ولم تكن للعرب صناعة، إذ كانوا يأنفون منها، ويترفّعون عن العمل فيها، ويتركون العمل فيها لمواليهم وللأعاجم، لكنَّ مهنة الحياكة والدباغة وغيرها كانت موجودة عند أهل اليمن والحيرة وأطراف الشام.

وإذا كان عرب الجزيرة لم يبرعوا في الزراعة والصناعة فقد برعوا في التجارة، وقد ساعدهم على ذلك الموقع المتميّز للجزيرة العربية، فهي تقع بين شرق ووسط آسيا من جهة، وأفريقيا من جهة أخرى.

وكان أهل المدن هم الذين يمارسون التجارة دون أهل البادية، لا سيما أهل مكّة، فلكونهم أهل الحرم لم يكن أحد يتعرض لتجارتهم عندما تخرج إلى الشام أو اليمن لا في ذهاب ولا في إياب، وقد امتنَّ الله عليهم بهذه النعمة، وذكرها في القرآن الكريم، فقال الله ﷻ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وكان لأهل مكّة رحلات تجارية مستمرة شمالاً وجنوباً طوال العام، ومن أشهر رحلاتهم وأعظمها رحلتان، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام، وقد ذكر الله ﷻ هاتين الرحلتين في القرآن العظيم فقال ﷻ: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٣].

---

(١) العشب، رطبه ويابسه.

وقد انتشر التعامل بالربا بين العرب وتفشّى، وكانوا يضاعفون الربا حتى تصل نسبته في بعض الأحيان إلى أكثر من مائة في المائة، حتى حرّمه الإسلام، ووضعه النبي ﷺ في حجّة الوداع فقال: «وربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب، فإنّه موضوع كله»[1]، ولعلَّ عدم قدرة قريش على توفير المال الحلال الكافي لإعادة بناء الكعبة قبل بعثة النبي ﷺ بخمس سنوات، ممّا اضطرها إلى تصغير البناء، حيث اشترطوا أن لا يدخل في البناء مهر بغي ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس، يرسم لنا صورة عن مدى تفشي الربا والكسب الخبيث في قريش حتى لم تجد مالاً حلالاً تبني به جدران الكعبة الأربعة وسقفها!!!.

وهكذا صارت الدنيا المعمورة من المحيط الهادئ إلى المحيط الأطلسي يغمرها الفساد العقدي والسياسي والاقتصادي الاجتماعي والأخلاقي، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليشمل جميع المجالات بلا استثناء، وقد وصف النبي ﷺ حال العالم في ذلك الوقت بقوله: «وإنَّ الله نظر إلى أهل الأرض فمَقَتَهم عربهم وعجمهم إلّا بقايا من أهل الكتاب»[2].

وهكذا كان لا بُدَّ من التغيير في هذا العالم الذي انحرف بعقائده وأخلاقه ونظمه السياسية والاقتصادية والاجتماعية، فكانت بعثة النبي ﷺ والتي أحدثت تغييراً هائلاً في حياة البشر، فما أن استلم الإسلام قيادة البشرية على يد رسول الله ﷺ وصحابته حتى تغيرت عقائد الناس ونظمهم وأخلاقهم.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: لقد كان الإسلام قد تسلّم القيادة بعد ما فسدت الأرض، وأسِنت الحياة، وتعفنت القيادات، وذاقت البشرية الويلات من القيادات المتعفنة، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، تسّلم الإسلام القيادة بهذا القرآن، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن، وبالشريعة المستمدة من هذا التصور، فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان أعظم في حقيقته من المولد الذي كانت به

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

نشأته، لقد أنشأ هذا القرآن للبشرية تصوراً جديداً عن الوجود والحياة والقيم والنظم، كما حقق لها واقعاً اجتماعياً فريداً كان يعزُّ على خيالها تصوره مجرد تصور، قبل أن ينشئه لها القرآن إنشاء، نعم! لقد كان هذا الواقع من النظافة والجمال، والعظمة والارتفاع، والبساطة واليسر، والواقعية والإيجابية، والتوازن والتناسق بحيث لا يخطر للبشرية على بال، لولا أنَّ الله أراده لها، وحققه في حياتها، في ظلال القرآن، ومنهج القرآن، وشريعة القرآن. اهـ [١]

ويقول أيضاً: ثمَّ وقعت تلك النكبة القاصمة، ونُحّي الإسلام عن القيادة، نُحّي عنها لتتولاها الجاهلية مرة أخرى....... ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً في تاريخها، ونكبة قاصمة في حياتها، نكبة لم تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألمَّ بها من نكبات. اهـ [٢]

قلت: إنَّ النظام العالمي الذي يحكم العالم اليوم، والذي تأسس بعد الحرب العالمية الثانية، بمؤسساته المختلفة: السياسية[٣] والاقتصادية[٤] والقانونية[٥] والاجتماعية[٦] والرياضية[٧] وغيرها، عمل على نشر الإلحاد والكفر والرذيلة والفقر في العالم، وعلى محاربة الإيمان والفضيلة، لقد ضيَّع هذا النظام على الناس دينهم ودنياهم، ولا ريب أنَّ العقدين الاخيرين شهدا تحولاً خطيراً في هذا الاتجاه، حيث يُعدّ ظهور وسائل التواصل الاجتماعي نقطة تحول خطيرة، وعلامةً فارقة، ونقلةَ هائلة باتجاه نسف إنسانية الإنسان وآدميته بعد أن نُسِفَ دينه وخُلُقه.

أمّا العقيدة، فقد استبدل الإنسان المعاصر اللات والعزى ومناة وهبل

---

(١) مقدمة في ظلال القرآن.
(٢) مقدمة في ظلال القرآن.
(٣) كالأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي وغيرهما.
(٤) كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي وغيرهما.
(٥) كمحكمة العدل الدولية والإنتربول وغيرها.
(٦) كاليونيسيف وغيرها.
(٧) كالفيفا وباقي المؤسسات الرياضية العالمية والقارية.

بالديمقراطية والدولة المدينة والحرية، وصارت هذه هي أصنام اليوم، إنَّ ثمانين بالمائة من سكان العالم اليوم هم كفار أصليون سواءً كانوا نصارى أم يهوداً أم وثنيين أم من أتباع الديانات الأخرى، وعددهم ستة مليارات إنسان تقريباً، وأما نسبة العشرين بالمائة المتبقية ممّن ينتسبون إلى الإسلام، فغالبيتهم الساحقة لم يعد لهم من الإسلام إلا الاسم، فإذا نحن أخرجنا من دائرة الإسلام حكام المسلمين من الطواغيت وأتباعهم من الوزراء وكبار المسؤولين والبرلمانيين والمنتسبين إلى الجيش والشُرَط وباقي الأجهزة الأمنية، والمنتسبين إلى الأحزاب التي تسمّي نفسها إسلامية، والمنتسبين إلى الأحزاب العلمانية، وإذا أضفنا إلى هؤلاء المطالبين بالديمقراطية والدولة المدنية ممّن ينتسبون إلى الإسلام، ثمَّ تاركي الصلاة، إذا فعلنا ذلك - وهو الحق الذي لا ريب فيه - لم يبقَ على وجه الأرض مَنْ هو على إسلام محمد ﷺ إلّا القليل من الغرباء.

لقد نحّى من يسمّون أنفسهم الطبقة المثقفة ممّن ينتسبون إلى الإسلام وتابعهم بعض العوام ممّن يسمّون أنفسهم مسلمين حكم الله ﷻ جانباً، وصاروا يطالبون علناً بالديمقراطية والتي تعني حكم الشعب لا حكم الله ﷻ، وبالدولة المدنية والتي تعني فصل الدين عن الدولة، أي إبعاد دين الله ﷻ عن الحكم، وصاروا يصرّحون بذلك ولا يلمّحون، ويقولون بلا خوف ولا خجل: إنَّ تطبيق الشريعة الإسلامية في حياة الناس لم يعد ممكناً اليوم بسبب التطور العلمي والمادي الذي حققه الإنسان، نعم هكذا وبصراحة أصبح من يسمون أنفسهم مسلمين يظهرون ما كان بالأمس خبيء صدروهم لا يجرؤون على إعلانه للناس.

وأمّا النظام السياسي الذي يحكم العالم اليوم، والذي تأسس بعد الحرب العالمية الثانية ممثلاً بالأمم المتحدة ومجلس الأمن الدولي، فقد ملأ العالم ظلماً وجوراً، فهذا النظام أُسِّسَ أصلاً لحماية مصالح الدول القوية، وخاصة الدول الخمس التي لها حق النقض في مجلس الأمن، ولم يؤسس لحماية مصالح الشعوب ومنع

الحروب وحل النزاعات بين الدول كما هو مُعْلَن، إنَّه نظام يفرض سطوته على المظلومين - أفراداً ودولاً - ليحمي مصالح الظالمين - أفراداً ودولاً -.

وأمّا النظام الاقتصادي الرأسمالي الذي يحكم العالم اليوم فقد جرَّ على العالم مصائب يعاني منها اليوم كل البشر في كل الأرض المعمورة، عدا حفنة قليلة من البشر تكدَّست عندهم رؤوس الأموال، ويكفي أن نعلم أنَّ في أمريكا وفي كل دولة من دول أوروبا يمتلك بضعة آلاف من المواطنين ما يزيد على ٨٠٪ من الأموال أو أكثر بينما تعيش الملايين المملينة من عامّة الناس بما تبقى، ولذلك زادت ساعات العمل عندهم إلى عشر ساعات تقريباً - تزيد قليلاً أو تنقص - وصار الناس عبيداً بأسماء أحرار، وليس الفقر وحده هو الذي تفشّى في العالم بطريقة مرعبة، بل المرض أيضاً، إنَّ الاحصاءات الرسمية التي تتحدث عن تفشّي الأمراض في العالم هي إحصاءات مخيفة، فهناك أكثر من مليار شخص في العالم (أي واحد من كل سبعة أشخاص تقريباً) يعانون من أمراض نفسيّة، ويحتاج العالم إلى ستة عشر ترليون دولار لمعالجة هؤلاء بحلول عام ٢٠٣٠م، وهذا مرضٌ واحد، فإذا أضفنا إليهم الأشخاص الذين يعانون من أمراض السكري، والضغط، والقلب، والكلى، والسرطانات، وسائر الأمراض الأخرى، كذلك أعداد الذين يُعانون من العمى و الصمم والبكم، والشلل، والبتر لأحد الأعضاء أو أكثر، إذا أضفنا كلَّ هؤلاء إلى الرقم السابق، علمنا أنَّنا نعيش في عالمٍ مريض، الكلُّ فيه مريض إلّا مَنْ رحم الله.

وأمّا أخلاق الناس اليوم فقد وصلت إلى حضيض غير مسبوق، فقد صار العالم يسوّق للفاحشة والرذيلة باسم الفن مرّة، وباسم الحرية الشخصية وحرية التعبير عن الرأي مرة أخرى، وما قام به الرئيس الأمريكي السابق أوباما من توقيع على قرار يسمح للرجال بالتزوج من الرجال، وللنساء بالتزوج من النساء، وهو ما يسمّونه زواج المثليين، كذلك وجود وزراء ورؤساء ولايات ومسؤولين كبار في أمريكا وأوروبا من المثليين يغنينا عن الكلام أكثر عن المستنقع الآسن والدرك الهابط الذي وصل إليه العالم.

إنَّ البشرية اليوم تعاني أشدّ المعاناة بسبب هذا النظام السياسي الفاسد الذي يحكمها، والذي انبثق عنه فساد كل الأنظمة الأخرى، الاقتصادية والاجتماعية والأخلاقية وغيرها، فهذه الأنظمة تكون دائماً تبعاً للنظام السياسي في كل بلد، إذا صلح النظام السياسي صلحت، وإذا فسد فسدت.

يقول الشهيد سيد قطب ؒ: إنَّ البشرية اليوم تعاني من الخواء المرير، خواء الروح من الحقيقة التي لا تطيق فطرتها أن تصبر عليها، حقيقة الإيمان، وخواء حياتها من المنهج الإلهي، هذا المنهج الذي يُنَسِّق بين حركتها وحركة الكون الذي تعيش فيه.

إنها تعاني من الهجير المحرق الذي تعيش فيه بعيداً عن ذلك الظل الوارف النّدي، ومن الفساد المقلق الذي تتمرغ فيه بعيداً عن ذلك الخط القويم والطريق المأنوس المطروق!.

ومن ثمَّ تجد الشقاء والقلق والحيرة والاضطراب، وتحس الخواء والجوع والحرمان، وتهرب من واقعها هذا بالأفيون والحشيش والمسكرات، وبالسرعة المجنونة والمغامرات الحمقاء، والشذوذ في الحركة واللبس والطعام! وذلك على الرغم من الرخاء المادي والإنتاج الوفير والحياة الميسورة والفراغ الكثير، لا بل إنَّ الخواء والقلق والحيرة لتتزايد كلّما تزايد الرخاء المادي والإنتاج الحضاري واليسر في وسائل الحياة ومرافقها.

إنَّ هذا الخواء المرير ليطارد البشرية كالشبح المخيف، يطاردها فتهرب منه، ولكنّها تنتهي كذلك إلى الخواء المرير!.

وما مِنْ أحد يزور البلاد الغنيّة الثرية في الأرض حتى يكون الانطباع الأول في حسه أنَّ هؤلاء قوم هاربون! هاربون من أشباح تطاردهم، هاربون من ذوات أنفسهم، وسرعان ما يتكشف الرخاء المادي والمتاع الحسي الذي يصل إلى حد التمرغ في الوحل، عن الأمراض العصبية والنفسية والشذوذ والقلق والمرض

والجنون والمسكرات والمخدرات والجريمة، وفراغ الحياة من كل تصور كريم!.

إنَّهم لا يجدون أنفسهم لأنّهم لا يجدون غاية وجودهم الحقيقية، إنَّهم لا يجدون سعادتهم لأنَّهم لا يجدون المنهج الإلهي الذي ينسق بين حركتهم وحركة الكون، وبين نظامهم وناموس الوجود، إنَّهم لا يجدون طمأنينتهم لأنهم لا يعرفون الله الذي إليه يرجعون. اهـ [١]

ويقول أيضاً: إنَّ العالم الذي نعيش فيه اليوم - في أنحاء الأرض - هو عالم القلق والاضطراب والخوف والأمراض العصبية والنفسية، باعتراف عقلاء أهله ومفكّريه وعلمائه ودارسيه، وبمشاهدات المراقبين والزائرين العابرين لأقطار الحضارة الغربية، وذلك على الرغم من كل ما بلغته الحضارة المادية، والإنتاج الصناعي في مجموعه من الضخامة في هذه الأقطار، وعلى الرغم من كل مظاهر الرخاء المادي التي تأخذ بالأبصار، ثمَّ هو عالم الحروب الشاملة والتهديد الدائم بالحروب المبيدة، وحرب الأعصاب، والاضطرابات التي لا تنقطع هنا وهناك!.

إنّها الشقوة البائسة المنكودة، التي لا تزيلها الحضارة المادية، ولا الرخاء المادي، ولا يُسرُ الحياة المادية وخفضها ولينها في بقاع كثيرة، وما قيمة هذا كله إذا لم ينشئ في النفوس السعادة والرضى والاستقرار والطمأنينة؟

إنّها حقيقة تواجه من يريد أن يرى، ولا يضع على عينيه غشاوة مِنْ صُنعِ نفسه كي لا يرى! حقيقة أنَّ الناس في أكثر بلاد الأرض رخاءً عاماً، في أمريكا، وفي السويد، وفي غيرهما من الأقطار التي تفيض رخاءً مادياً، أنَّ الناس ليسوا سعداء، أنّهم قلقون، يُطلُّ القلق من عيونهم وهم أغنياء! إنَّ الملل يأكل حياتهم وهم مستغرقون في الإنتاج! وأنهم يُغرِقون هذا الملل في العربدة والصخب تارة، وفي "التقاليع" الغريبة الشاذة تارة، وفي الشذوذ الجنسي والنفسي تارة، ثمَّ يحسون بالحاجة إلى الهرب، الهرب من أنفسهم، ومن الخواء الذي يعشش فيها! ومن الشقاء الذي ليس

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران.

له سبب ظاهر من مرافق الحياة وجريانها، فيهربون بالانتحار، ويهربون بالجنون، ويهربون بالشذوذ! ثم يطاردهم شبح القلق والخواء والفراغ ولا يدعهم يستريحون أبداً. اهـ [١]

ويقول: إنَّ العذاب النفسي، والشقاء الروحي، والشذوذ الجنسي، والانحلال الخُلُقي الذي تقاسي منه هذه الأمم اليوم، لَيكاد يغطي على الإنتاج والرخاء والمتاع، ولَيكاد يصبغ الحياة كلها بالنكد والقلق والشقاء! ذلك إلى جانب الطلائع التي تشير إليها القضايا الأخلاقية السياسية، التي تباع فيها أسرار الدولة، وتقع فيها الخيانة للأمة، في مقابل شهوة أو شذوذ، وهي طلائع لا تخطئ على نهاية المطاف اهـ. [٢]

ويقول أيضاً: إنَّ البشرية اليوم تعيش في ماخور كبير! ونظرة إلى صحافتها وأفلامها ومعارض أزيائها، ومسابقات جمالها، ومراقصها، وحاناتها، وإذاعاتها، ونظرة إلى سعارها المجنون للحم العاري، والأوضاع المثيرة، والإيحاءات المريضة في الأدب والفن وأجهزة الإعلام كلها، إلى جانب نظامها الرِبوي، وما يكمن وراءه من سعار للمال، ووسائل خسيسة لجمعه وتأميره، وعمليات نصب واحتيال وابتزاز تلبس ثوب القانون، وإلى جانب التدهور الخُلُقي والانحلال الاجتماعي، الذي أصبح يهدد كل نفس، وكل بيت، وكل نظام، وكل تجمع إنساني، نظرة إلى هذا كله تكفي للحكم على المصير البائس الذي تدلف إليه البشرية في ظل هذه الجاهلية.

إنَّ البشرية تتآكل إنسانيتها، وتتحلل آدميتها، وهي تلهث وراء الحيوان، ومثيرات الحيوان، لِتلحق بعالمه الهابط! والحيوان أنظف وأشرف وأطهر، لأنّه محكوم بفطرة حازمة لا تتميع، ولا تأسن كما تأسن شهوات الإنسان حين ينفلت من رباط العقيدة، ومن نظام العقيدة، ويرتد إلى الجاهلية التي أنقذه الله منها. اهـ [٣]

قلت: إنَّ الإنسان الجاهلي إنّما كان جاهلياً من ناحية العقيدة، نعم، ولكنّه حين

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.
(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنعام.
(٣) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران.

تخلّى عن التوحيد وعَبَدَ اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى لم يتخلّ عن إنسانيته، فقد بقي المطعم بن عدي وأبو البختري وعبدالله بن ربيعة وغيرهم من كفّار قريش يمتلكون من الرجولة والغيرة والكرم والشجاعة وغيرها من الصفات الحميدة ما لم يعد يمتلكها إنسان اليوم، لقد جرَّدت مدنية اليوم الإنسان المعاصر من إنسانيته، فلم يعد يحفل بصدقٍ ولا خُلُقٍ ولا مروءة.

لقد صارت هذه الأشياء من الماضي، ودعوة الناس للتمسك بها اليوم تعني تخلفاً وجهلاً ينبغي للإنسان المعاصر أن يتخلص منه ويدير له ظهره حتى يلحق بركب الحضارة والتطور!!!.

وبالجملة فقد صار حال العالم اليوم أسوأ ممّا كان عليه قُبيل بعثة النبي ﷺ، والذي وصفه ﷺ بقوله: «إنَّ الله اطّلع على أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلّا بقايا من أهل الكتاب».

ولا بُدَّ من إحداث تغيير هائل في هذا العالم الذي صار يحارب ربَّه سبحانه وتعالى في عقائده وأخلاقه ونظمه كلها، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، حتى صرنا نرى الحرب على الله سبحانه وتعالى في كل مكان من هذا العالم، في كل مدينة أو حي أو شارع.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: نحن اليوم في جاهلية كالجاهلية التي عاصرها الإسلام أو أظلم، كل ما حولنا جاهلية، تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم، حتى الكثير مما نحسبه ثقافة إسلامية، ومراجع إسلامية، وتفكيراً إسلامياً هو كذلك من صنع هذه الجاهلية!!. اهـ (١)

ويقول أيضاً: لقد استدار الزمان كهيئته يوم جاء هذا الدين إلى البشرية بلا إله إلا الله، فقد ارتدّت البشرية إلى عبادة العباد، وإلى جور الأديان، ونكصت عن لا إله إلا الله، وإن ظل فريق منها يردد على المآذن: «لا إله إلا الله « دون أن يدرك مدلولها،

---

(١) معالم في الطريق / جيل قرآني فريد.

ودون أن يعي هذا المدلول وهو يرددها، ودون أن يرفض شرعية «الحاكمية « التي يدّعيها العباد لأنفسهم – وهي مرادف الألوهية – سواء ادعوها كأفراد، أو كتشكيلات تشريعية، أو كشعوب، فالأفراد، كالتشكيلات، كالشعوب، ليست آلهة، فليس لها إذن حق الحاكمية، إلّا أنَّ البشرية عادت إلى الجاهلية، وارتدّت عن لا إله إلا الله، فأعطت لهؤلاء العباد خصائص الألوهية، ولم تعد توحّد الله، وتخلص له الولاء.

البشرية بجملتها، بما فيها أولئك الذين يرددون على المآذن في مشارق الأرض ومغاربها كلمات: (لا إله إلا الله) بلا مدلول ولا واقع، وهؤلاء أثقل إثماً وأشدّ عذاباً يوم القيامة، لأنّهم ارتدوا إلى عبادة العباد – من بعد ما تبين لهم الهدى – ومن بعد أن كانوا في دين الله!

فما أحوج العصبة المسلمة اليوم أن تقف طويلا أمام هذه الآيات البينات! ما أحوجها أن تقف أمام آية الولاء ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، ذلك لتعلم أن اتخاذ غير الله وليا – بكل معاني «الولي»–، وهي الخضوع والطاعة، والاستنصار والاستعانة، يتعارض مع الإسلام، لأنه هو الشرك الذي جاء الإسلام ليخرج منه الناس، ولتعلم أنَّ أول ما يتمثل فيه الولاء لغير الله هو تقبل حاكمية غير الله في الضمير أو في الحياة، الأمر الذي تزاوله البشرية كلها بدون استثناء، ولتعلم أنّها تستهدف اليوم إخراج الناس جميعاً من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، وأنها تواجه جاهلية كالتي واجهها رسول الله ﷺ والجماعة المسلمة حين تلقي هذه الآيات، وما أحوجها أن تستصحب في مواجهتها للجاهلية تلك الحقائق والمشاعر التي تسكبها في القلب المؤمن الآيات التالية:

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

فما أحوج مَنْ يواجه الجاهلية بطاغوتها وجبروتها، وبإعراضها وعنادها، وبالتوائها وكيدها، وبفسادها وانحلالها، ما أحوج مَنْ يواجه هذا الشر كله، أن يستصحب في قلبه هذه الحقائق وهذه المشاعر، مخافة المعصية والولاء لغير الله، ومخافة العذاب الرعيب الذي يترقب العصاة، واليقين بأنَّ الضارَّ والنافع هو الله، وأنَّ الله هو القاهر فوق عباده فلا معقِّب على حكمه ولا رادَّ لما قضاه، إنَّ قلباً لا يستصحب هذه الحقائق وهذه المشاعر لن يقوى على تكاليف «إنشاء» الإسلام من جديد في وجه الجاهلية الطاغية، وهي تكاليف هائلة تنوء بها الجبال!

ثمَّ ما أحوج العصبة المؤمنة بعد أن تستيقن حقيقة مهمتها في الأرض اليوم، وبعد أن تستوضح حقيقة العقيدة التي تدعو إليها ومقتضياتها من إفراد الله سبحانه بالولاء بكل مدلولاته، وبعد أن تستصحب معها في مهمتها الشاقة تلك الحقائق والمشاعر، ما أحوجها بعد ذلك كله إلى موقف الإشهاد والقطع والمفاصلة والتبرؤ من الشرك الذي تزاوله الجاهلية البشرية اليوم كما كانت تزاوله جاهلية البشرية الأولى، وأن تقول ما أمر رسول الله ﷺ أن يقوله، وأن تقذف في وجه الجاهلية بما قذف به في وجهها الرسول الكريم، تنفيذاً لأمر ربه العظيم: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تشركون﴾

إنّه لا بدَّ أن تقف العصبة المسلمة في الأرض، من الجاهلية التي تغمر الأرض، هذا الموقف، لا بُدَّ أن تقذف في وجهها بكلمة الحق هذه عالية مدوية، قاطعة فاصلة، مزلزلة رهيبة، ثم تتجه إلى الله تعلم أنّه على كل شيء قدير، وأنّه هو القاهر فوق عباده، وأنَّ هؤلاء العباد - بما فيهم الطواغيت المتجبرون - أضعف من الذباب، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه! وأنهم ليسوا بضارّين من أحد إلّا بإذن الله، وليسوا بنافعين أحداً إلّا بإذن الله، وأنَّ الله غالبٌ على أمره ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون.

ولا بدَّ أن تستيقن العصبة المسلمة كذلك أنَّها لن تُنصر ولن يتحقق لها وعد الله بالتمكين في الأرض، قبل أن تفاصل الجاهلية على الحق عند مفترق الطريق، وقبل أن تعلن كلمة الحق في وجه الطاغوت، وقبل أن تُشهِد على الجاهلية هذا الإشهاد، وتنذرها هذه النذارة، وتعلنها هذا الإعلان، وتفاصلها هذه المفاصلة، وتتبرأ منها هذه البراءة. اهـ [١]

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنعام.

الفصل الأول

من الولادة إلى البعثة

٤٠ سنة

أهم أحداث هذه المرحلة

١- حين ولد ﷺ أخذته حليمة السعدية لترضعه.

٢- وحين صار عمره سنتين: أعادته حليمة السعدية إلى أمّه وطلبت منها أن تبقيه معها فوافقت أمه.

٣- وحين صار عمره أربع سنوات: حدثت حادثة شق الصدر.

٤- وحين صار عمره ست سنوات: توفّيت أمّه آمنة بنت وهب فكفله جدّه عبدالمطلب

٥- وحين صار عمره ثمان سنوات: توفي جدّه عبدالمطلب فكفله عمّه أبو طالب.

٦- وحين صار عمره ١٢ سنة: حدثت حادثة بحيرا الراهب.

٧- وحين صار عمره ٢٠ سنة: حدثت حادثة حرب الفِجار وحلف الفضول.

٨- وحين صار عمره ٢٥ سنة: تزوّج أمَّ المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

٩- وحين صار عمره ٣٥ سنة: جدَّدت قريش بناء الكعبة.

١٠ - وحين صار عمره ٤٠ سنة: نزل عليه الوحي.

نسب النبي ﷺ

قسَّم كُتّاب السيرة نسب النبي ﷺ إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وهو المتفق عليه بين كُتّاب السيرة وهو من محمد ﷺ إلى عدنان، وقد ذكر البخاري نسب النبي ﷺ إلى عدنان فقال:

محمّد بن عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعدنان هو الجد الحادي والعشرون للنبي ﷺ، قال الإمام ابن القيم رحمه الله بعد ذكر النسب إلى عدنان: إلى هنا معلوم الصحة، متفقٌ عليه بين النسّابين، ولا خلاف فيه البتّة، وما فوق عدنان مختلف فيه، ولا خلاف بينهم أنَّ عدنان من ولد إسماعيل عليه السلام وإسماعيل هو الذبيح على الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. اهـ [(١)]

القسم الثاني: وهذا القسم اختلف فيه كُتّاب السيرة وهو من عدنان إلى إبراهيم عليه السلام ولا يُعلم عدد الآباء بينهما، قال الذهبي: قيل بينهما تسعة آباء، وقيل سبعة، وقيل خمسة عشر أباَ، وقيل بينهما أربعون أباً وهذا بعيد [(٢)]، وقال عروة بن الزبير: ما وجدنا من يعرف وراء عدنان إلاّ تخرصاً [(٣)] [(٤)]

القسم الثالث: وهذا القسم من النسب كان الاختلاف فيه أكثر من الاختلاف في القسم الثاني ، وهو من إبراهيم إلى آدم عليهما السلام، وقد ذكر ابن هشام أنَّ بين إبراهيم وآدم عليهما السلام عشرين أباً.

---

(١) زاد المعاد: ج١/ ٧١.
(٢) سير أعلام النبلاء: ج١/ ١٤٣.
(٣) كذباً.
(٤) المصدر السابق.

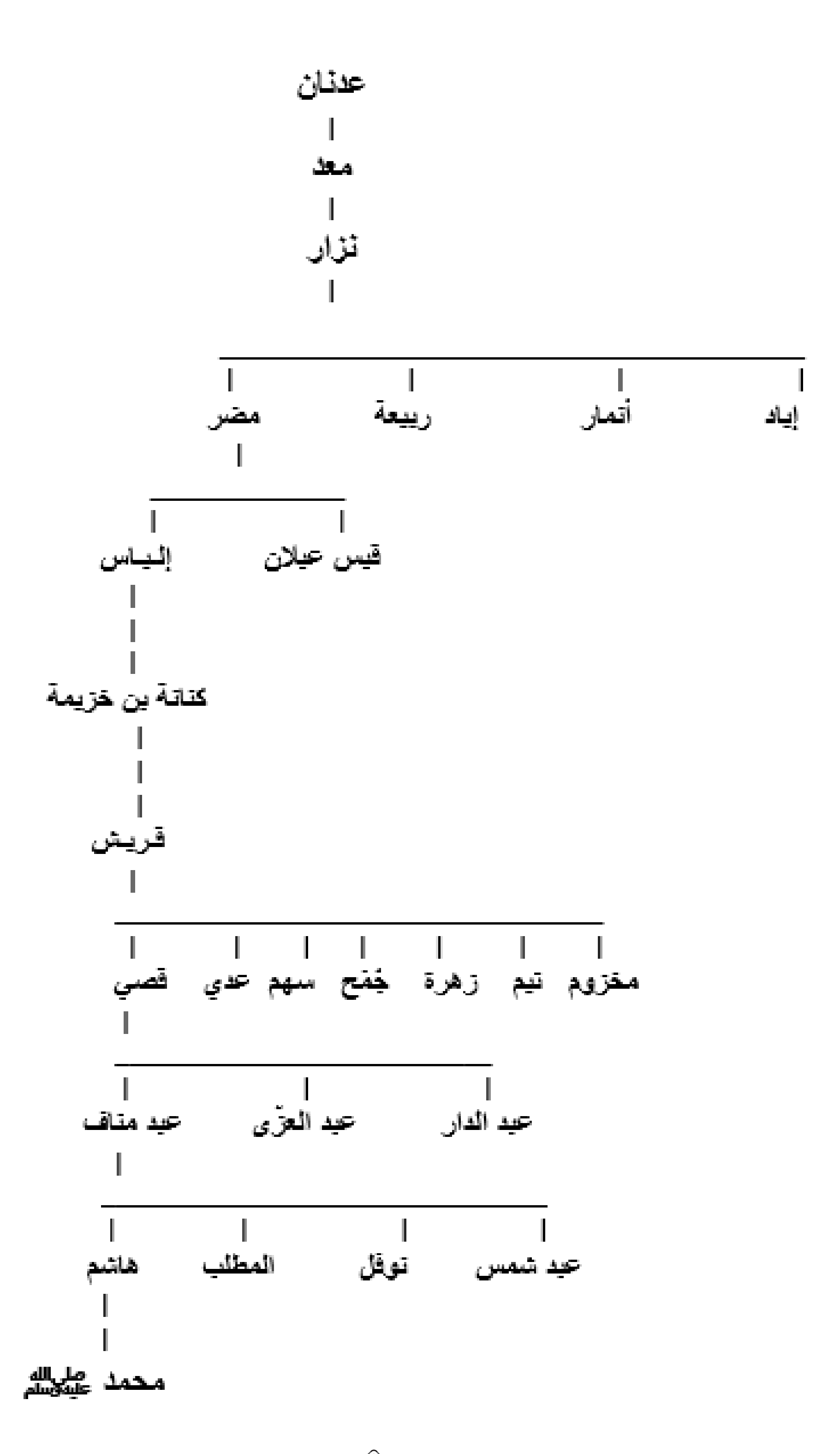
وقد ذكرنا سابقاً أنَّ إسماعيل عليه السلام كان له اثنا عشر ذكراً أشهرهم نابت وقيدار، وقلنا أنَّ عدنان هو من أحفاد قيدار، ومن أولاد عدنان معد، ومن أولاد معد نزار الذي كان له أربعة أولاد تفرّعت منهم أربع قبائل عظيمة وهم: إياد وأنمار وربيعة ومضر، وكانت قبيلتا ربيعة ومضر هما الأعظم فقد كثرت بطونهما وتوسعت أفخاذهما.

وتشعّبت مضر إلى قبيلتين عظيمتين وهما: قيس عيلان بن مضر وإلياس بن مضر.

ومن بطون إلياس بن مضر كانت كنانة بن خزيمة، ومن كنانة كانت قريش، وهم أولاد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة.

ومن قبائل قريش: مخزوم، وتيم، وزُهرَة، وجُمَح، وسهم، وعدي، وأولاد قصي بن كلاب، وهم عبد الدار بن قصي، وعبد العزى بن قصي، وعبد مناف بن قصي.

وكان لعبد مناف أربعة أولاد وهم عبد شمس، ونوفل، والمطلب، وهاشم، والنبي صلى الله عليه وسلم من بني هاشم، فهو محمد بن عبدالله بن عبد المطلب بن هاشم صلى الله عليه وسلم.


عدنان
معد
نزار
مضر
ربيعة
أنمار
إياد
إليـاس
قيس عيلان
كنانة بن خزيمة
قريـش
قصي
عدي
سهم
جُمَح
زهرة
تيم
مخزوم
عبد مناف
عبد العزّى
عبد الدار
هاشم
المطلب
نوفل
عبد شمس
محمد صلى الله عليه وسلم

روى الإمام مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ «إنَّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشماً من قريش، واصطفاني من بني هاشم».

وروى الترمذي وحسَّنه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ»[1].

(١) أي: لا أتبجح بهذه الأوصاف وإنما أقولها شكراً لربي ومنبهاً أمتي على إنعامه عليَّ.

من الميلاد الى البعثة

قبل الحديث عن هذه المرحلة لابدَّ من أنْ نَذْكر ثلاث حوادث مهمة حدثت قبل مولده ﷺ وهي:

١- حفر بئر زمزم:

أُمِرَ عبد المطلب جدُّ النبي ﷺ في المنام بحفر بئر زمزم، ووُصف له المكان، فحفر عبدالمطلب البئر وأقام سقاية زمزم للحجّاج.

ولمّا بدت زمزم نازعته قريش وقالوا له: أشركنا فيه، فقال: ما أنا بفاعل، فتخاصموا بينهم حتى اتفقوا على التحاكم عند كاهنة بني سعد، وفي طريق ذهابهم إليها نفد الماء فعطش القوم عطشاً شديداً، فدعا عبدالمطلب أن ينجيهم الله من الهلاك فانفجر الماء من تحت أقدامه فشرب القوم حتى ارتووا.

ولمّا رأت قريش ما دلّهم على تخصيص عبدالمطلب بزمزم قالوا له: هذا والله أمر خُصصتَ به، والله لا ننازعك فيه أبداً، فرجعوا إلى مكة، وحينئذ نذر عبدالمطلب لأن آتاه الله عشرة أبناء من الذكور لينحرَّن واحداً منهم عند الكعبة.

٢- نذر عبدالمطلب بذبح أحد أولاده:

لمّا رزق الله ﷻ عبد المطلب عشرة أبناء هَّم بالوفاء بنذره، فأخبر أولاده فأطاعوه، فكتب أسماءهم على القداح [1] وضرب القداح فخرجت على عبدالله وكان أحبّ أبناء عبدالمطلب أليه، فأخذه وأقبل به إلى الكعبة لينحره، فمنعته قريش من ذلك، فقال: كيف أصنع بنذري؟ فأشاروا عليه أن يأتي عرَّافة يستأمرها، فأتاها فأمرت أن يضرب القداح على عبدالله وعلى عشر من الإبل، فإنْ خرجت على عبدالله يزيد عشراً من الإبل حتى يُرضي ربه، وإن خرجت على الإبل نَحَرها، فضرب القداح

---

(١) قطعةٌ من الخشب تُعرَّض قليلًا وتُسَوَّى، وتكون في طول الفِتْر أو دونَه، والفتر أقلّ من الشبر، ويُمَيَّز كل قدح عن الآخر بعلامة، وكان يستعمل في المَيْسِر، وقد يكتب على القِدح: لا أو نعم أو يُغْفل، لِيُقْرَعَ به ويُستقْسَم.

فخرجت على عبدالله، فلم يزل يزيد من الإبل عشراً عشراً حتى بلغت الإبل مائة فخرجت عليها، فنُحرت الإبل ونجى عبدالله.

٣- حادثة الفيل:

بنى أبرهة الحبشي كنيسة في اليمن ليحجَّ الناس إليها ويصرفهم بذلك عن زيارة بيت الله، فسمع بذلك رجل فجاء الى الكنيسة وأحدث فيها [١]، فسمع أبرهة بما فعله ذلك الرجل فغضب وحلف ليسيرنَّ إلى البيت فيهدمه، فجهّز جيشه وأخذ معه فيل كبير ليهدم البيت، فسمعت العرب بذلك، فخرج بعضهم ليواجهوه فهزمهم، وسار أبرهة حتى وصل إلى الطائف فأرسل معه أهل الطائف أبا رغال ليدلّه على الطريق، فسار أبرهة مع أبي رغال حتى وصلوا المغمس (مكان قريب من مكة) فمات ابو رغال هناك، فرجمت العرب قبره وأصبح رمزاً للخيانة.

فلمّا أصبح أبرهة على أطراف مكة أمر عبدالمطلب أهل مكة بالخروج منها والتحرز في شعف الجبال، فلمّا تهيأ أبرهة لدخول مكة وهَدْم البيت برك الفيل ولم يتحرك، فصاروا يضربونه ولا يتحرك، فوجَّهوه نحو اليمن فقام يهرول، ثمَّ وجَّهوه نحو الشام ففعل مثل ذلك وعندما وجَّهوه إلى البيت برك الفيل ولم يتحرك، فأرسل الله تعالى طيراً أبابيل تحمل أحجاراً صغيرة لا تصيب أحداً إلاّ اهلكته، فهلك الجيش، وفرَّ بعضهم، ورجع أبرهة إلى اليمن وقد تساقطت أنامله في الطريق فهلك.

وبعد هلاك أبرهة تولى الحكم ابنه يكسوم وبعد هلاكه تولى أخوه مسروق بن أبرهة.

وهكذا يكون قد توالى على حكم اليمن أربعة حكام من الأحباش وهم: (أرياط، أبرهة، يكسوم بن أبرهة، مسروق بن أبرهة) واستمرَّ حكمهم اثنتين وسبعين سنة، وكانوا تابعين للفرس، وبهلاك آخرهم وهو مسروق عَيَّن كسرى حاكماً فارسياً على اليمن لتصبح اليمن تُحكم بشكل مباشر من الفرس بعد أن كانوا يحكمونها بشكل غير مباشر.

---

(١) أي: قضى حاجته داخل الكنيسة.

ثم عَيَّن بعده أربعة حكام من الفرس كان آخرهم باذان الذي أسلم في حياة النبي ﷺ فأبقاه النبي ﷺ والياً على اليمن حتى قُتل.

ولما قُتل باذان قسّم النبي ﷺ اليمن الي قسمين فولىّ شهر بن باذان على صنعاء، وولّى أبا موسى الأشعري على حضرموت، وبعد أن توفي شهر تولى خالد بن سعيد بن العاص أمر صنعاء بأمر من النبي ﷺ.

ميلاده ﷺ

وُلد ﷺ في يوم الاثنين ولا خلاف في ذلك، لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول على الراجح، في عام ٥٧١م بالإجماع.

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال: سأل أعرابي رسول الله ﷺ فقال: ما تقول في صوم يوم الاثنين؟ فقال: «ذاك يوم وُلِدتُ فيه، وفيه أوحي إليّ».

وقد وُلد عليه السلام يتيم الأب وبه يقول أكثر المؤرخين، ولمّا مات أبوه لم يترك له إلاّ خمسة أجمال وقطعة غنم وجارية حبشية اسمها بركة، وكنيتها أم أيمن [(١)]، وهي حاضنة رسول الله ﷺ.

وقد ولد عليه السلام في دار أبي طالب بشعب بني هاشم، ولمّا ولدته أُمّه أرسلت الى جدّه عبدالمطلب تبشّره بحفيده، فجاء مستبشراً، ودخل به الكعبة، واختار له اسم محمد [(٢)] وهذا الاسم لم يكن معروفاً عند العرب، وقد ذكر الذهبي رحمه الله عدّة أسماء للنبي ﷺ وردت كلُّها باحاديث صحيحة ومنها: أحمد، الحاشر، الماحي، الخاتم، العاقب، نبي الرحمة، نبي الملحمة،، أمّا الضحوك القتّال فاسمان مزدوجان لا يُفرد أحدهما عن الآخر، فإنَّه ضحوك في وجوه المؤمنين، غير عابسٍ ولا مُقَطّب ولا

(١) أعتق النبي ﷺ أمَّ أيمن وزوّجها بزيد بن حارثة رضي الله عنه، وكان زيد مملوكاً لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ فأعتقه وتبنّاه، فكان يُدعى زيد بن محمد، ثمَّ أبطل الله سبحانه وتعالى التبني وأنزل قوله تعالى ﴿ما كان محمَّد أبا احد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليماً﴾ [الأحزاب ٤٠]، وقد أنجبت أمُّ أيمن أسامة، وكان أسامة أسود البشرة كون أمّه أمّ أيمن حبشية سوداء، فتكلّم الناس في ذلك، فدخل النبي ﷺ على عائشة ذات يوم مسروراً تَبرقُ أسارير وجهه فقال: ألم تري أنَّ مجزراً نظر آنفاً الى زيد بن حارثة و أسامة بن زيد فقال: هذه الأقدام بعضها من بعض. رواه مسلم.

(٢) ومعنى اسم محمد أي كثير الخصال التي يُحمد عليها، ولهذا - والله أعلم - سُمّي به في التوراة لكثرة الخصال المحمودة التي وُصف بها هو ودينه وأمته في التوراة، حتى تمنّى موسى عليه السلام أن يكون منهم. زاد المعاد ١/ ٨٧.

غضوب ولا فظّ، قتّال لأعداء الله، لا تأخذه فيهم لومة لائم، كما قال الإمام ابن القيم رحمه الله.[1]

قال الذهبي رحمه الله في سير أعلام النبلاء: وأكثر ما سقناه من أسمائه صفات له لا أسماء أعلام، وقد تواتر أنَّ كنيته أبو القاسم، عن أبي هريرة قال: قال أبو القاسم ﷺ: «تَسَمَّوْا بِاسْمِي ولا تَكْتَنُوا بِكُنْيَتِي »[2]

قلت: يجوز التكنّي بأبي القاسم لِمن كان اسمه محمّداً أو غير ذلك، لحديث علي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، إنْ وُلِد لي من بعدك ولد أأسمّيه باسمك وأكنّيه بكنيتك؟، قال: نعم.[3]

وقد ورد عن كثير من الصحابة أنَّهم سمّوا أبناءهم بمحمّد، وكنّوهم بأبي القاسم، كما ذكر الحافظ في الفتح، ومنهم: أبو بكر الصديق، وجعفر بن أبي طالب، وعبدالرحمن بن عوف، وحاطب بن أبي بلتعة، والأشعث بن قيس رضي الله عنهم.

وهذا هو قول جمهور السلف والخلف وفقهاء الأمصار، ومنهم الإمام مالك والإمام أحمد في رواية.

وأمّا عن ختانه ﷺ فقد وردت فيه ثلاث روايات، أحدها أنَّه ولد مختوناً، والثانية أنَّ جبريل ختنه حين شق صدره في بادية بني سعد، والثالثة أنَّ جدَّه ختنه على عادة العرب، والروايات الثلاث لا يمكن الاحتجاج بها لضعفها، وقد ذكر ابن القيم في زاد المعاد أنَّ حديث أنَّه ولد مختوناً لا يصح، وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وليس هذا من خواصّه ﷺ، فكثير من الناس يولد مختوناً.

---

(١) زاد المعاد: ج١/ ٩٣ - ٩٤.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو داود، وابن ماجة، والحاكم وصححه.

في بادية بني سعد

كان من عادات العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البادية لينشؤوا فيها بعيداً عن أمراض الحواضر، فتقوى أجسامهم ويتقنوا اللسان العربي صغاراً، فالتمس عبدالمطلب لرسول الله ﷺ حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر، وزَوجُها الحارث بن عبد العزى المكنّى بأبي كبشة من القبيلة نفسها.

قال ابن إسحاق: كانت حليمة تُحدّث: أنَّها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير ترضعه، في نسوة من بني سعد بن بكر، تلتمس الرضعاء قالت: وذلك في سَنَة شهباء لم تبق لنا شيئاً، قالت: فخرجت على أتان[1] لي قمراء[2] معنا شارف[3] لنا، والله ما تبضُّ بقطرة، وما ننام ليلنا أجمع من صبيِّنا الذي معنا، من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذّيه، ولكن كنّا نرجو الغيث والفرج، فخرجتُ على أتاني تلك فلقد أذَمّت بالركب[4] حتى شقَّ ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، حتى قدمنا مكة نلتمس الرُضَعاء، فما منّا امرأة إلّا وقد عُرِض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لها إنّه يتيم، وذلك أنّا كنّا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنّا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمّه وجدّه! فكنّا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة قَدِمت معي إلّا أخذت رضيعاً غيري، فلمّا أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي: والله إنّي لأكره أن أرجع من بين صواحبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلآخذنه، قال: لا عليك أن تفعلي، عسى الله أن يُجعَل لنا فيه بركة، قالت: فذهبت إليه، فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أنّي لم أجد غيره، قالت: فلمّا أخذته رجعت به إلى رحلي، فلمّا وضعته في حجري أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب معه أخوه حتى روي، ثمَّ نام، وما كنّا ننام معه قبل ذلك، وقام زوجي إلى شارفنا تلك، فإذا هي حافل[5]، فحلب منها

(١) أنثى الحمار.

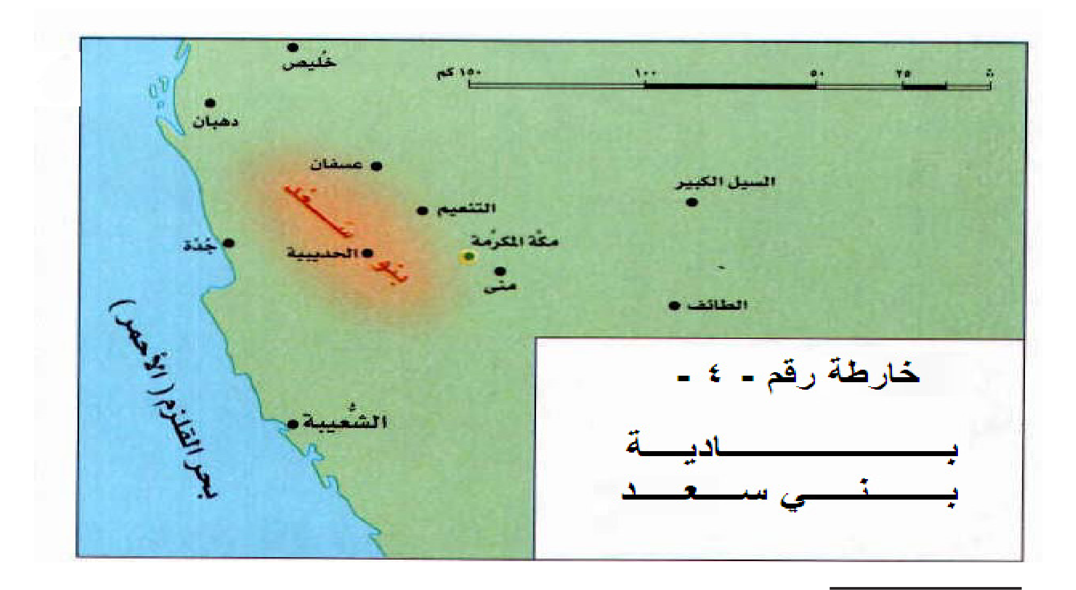
(٢) لون إلى الخضرة، أو بياض فيه كدرة.

(٣) ناقة مسنّة.

(٤) حبستهم لضعفها وانقطاع سيرها.

(٥) كثيرة اللبن.

ما شرب وشربتُ معه حتى انتهينا رياً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، قالت: يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليمة! لقد أخذت نسمة مباركة، قالت: فقلت: والله إنّي لأرجو ذلك، قالت: ثمَّ خرجنا وركبت أنا أتاني، وحملته عليها معي، فوالله لقطعت بالركب ما لا يقدر عليه شيء من حُمُرهم، حتى إنَّ صواحبي ليقلن لي: يا ابنة أبي ذؤيب، ويحك! أربعي علينا، أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها؟ فأقول لهن: بلى والله إنّها لهي هي، فيقلن: والله إنَّ لها شأناً، قالت: ثمَّ قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً، فنحلب ونشرب، وما يحلب إنسان قطرة لبن، ولا يجدها في ضرع حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشبُّ شباباً لا يشبه الغلمان، فلم يبلغ سنتيه حتى كان غلاماً جفراً، قالت: فقدمنا به على أمّه ونحن أحرص على مكثه فينا، لِمَا كنّا نرى من بركته، فكلمنا أمَّه، وقلت لها: لو تركت ابني عندي حتى يغلظ، فإنّي أخشى عليه وباء مكة، قالت: فلم نزل بها حتى ردَّته معنا[1]



(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج١/ ١١٦ - ١١٧.

السنة الرابعة من الميلاد

حادثة شقّ الصدر

عاش النبي ﷺ في بادية بني سعد منذ السنة الأولى من ولادته حتى السنة الرابعة حيث وقعت حادثة شق الصدر، روى الامام مسلم في صحيحه عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً فَقَالَ هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ ثُمَّ لَأَمَهُ ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ، قَالَ أَنَسٌ وَقَدْ كُنْتُ أَرْئِي أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ.

وقد شُقَّ صدره ﷺ مرتين، في السنة الرابعة من عمره، وفي السنة العاشرة للبعثة في الإسراء والمعراج، وبعد هذه الحادثة خافت حليمة على رسول الله ﷺ فأعادته الى أمّه.

السنة السادسة من الميلاد
وفاة أمِّه آمنة بنت وهب

بعد أنْ خافت حليمة السعدية على النبي ﷺ ردَّته الى أُمِّه، فعاش معها إلى أنْ بلغ ﷺ سنَّ السادسة، فقَدِمَت به أُمَّه آمنة المدينة لزيارة أخوال جَدّه من بني عدي بن النجار ومعها خادمتها أمّ أَيمن، وفي طريق عودتها إلى مكة توفيت آمنة ودُفِنَت بالأبواء [١] فرجعت به أمُّ أيمن إلى مكة.

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال: زار النبي ﷺ قبر أمِّه فبكى وأبكى من حوله ثمَّ قال: استأذنت ربي في زيارة قبر أمّي فأَذِنَ لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور تذكركم الموت.

(١) مكان يبعد عن المدينة ٢٢٢ كيلًا، والكيل يساوي ١٠٠٠م.

السنة الثامنة من الميلاد
وفاة جَدِّه عبدالمطلب

بعد أن توفيت آمنة عادت أمُّ أيمن إلى مكة ومعها النبي ﷺ فسلّمته لجَدِّه عبدالمطلب، فعاش في كفالته إلى أنْ بلغ ثمان سنوات، حيث توفي عبدالمطلب فانتقل إلى كفالة عمه أبي طالب.

تولى أبو طالب رعاية النبي ﷺ بعد وفاة عبدالمطلب فكان إليه ومعه، كان أبو طالب مُقلّا في الرزق، فعَمِلَ النبي ﷺ في رعي الغنم مساعدةً لعمّه، روى الإمام البخاري في صحيحه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ما بعث الله نبياً إلاّ رعى الغنم، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة» (١)

حادثة بحيرا الراهب

أراد ابو طالب الذهاب في ركب إلى الشام للتجارة، وكان عمر النبي ﷺ آنذاك تسعة أو عشرة أو اثنتي عشرة سنة على اختلاف الروايات، وذكر ابن اسحاق أنَّه كان يبلغ من العمر تسع سنوات (٢)

تهيأ ابو طالب للرحيل فمال إليه رسول الله ﷺ، فَرقَّ له أبو طالب وقال: والله لأخرجنَّ به معي، ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً، فخرج به معه، وكان في بُصرى من أرض الشام راهب يقال له بحيرا، واسمه جرجيس في صومعة (٣) له وكان إليه علم أهل النصرانية، فلمّا نزل الركب في بُصرى خرج إليهم بحيرا، وصنع لهم طعاماً، ودعاهم إليه، وكانوا يمرّون عليه قبل ذلك فلا يخرج إليهم ولا يكلمهم أبداً، فلمّا

---

(١) جمع قيراط: وهو شيء من الدينار أو الدرهم.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١/ ١٢٨.
(٣) مكان للعبادة.

رأى بحيرا النبي ﷺ، ورأى عليه آثار النبوة، طلب من أبي طالب أنْ يعيده إلى مكّة، وأن يَحْذَرَ عليه من اليهود، فإنّهم إن عرفوا عنه ما عرف سيؤذونه، فأعاده أبو طالب مع بعض غلمانه الى مكة.



السنة العشرون من الميلاد

حادثة حرب الفِجَار[1]

هاجت حرب الفِجار بين قريش ومن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان، وكان سببها أنَّ أحد الكنانيين قتل أحد القيسيين فاشتعلت الحرب بين الطرفين، فكان الظفر أول النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان وسط النهار كان الظفر لكنانة على قيس، وكانت هذه الحرب في الشهر الحرام فسمّيت بحرب الفِجَار لما انتهك فيه الحيّان (كنانة وقيس عيلان) من المحارم، وقد ذكر ابن هشام أنَّ عُمْرَ النبي ﷺ كان آنذاك أربع عشرة أو خمس عشرة سنة حيث كان يُنبل لأعمامه، قال ابن هشام: وشهد النبي ﷺ بعض أيّامهم، أخرجه أعمامه معهم، قال رسول الله ﷺ: كنت أنبل على أعمامي.

وقيل كان عمره عشرين سنة، ويُرجِّح الأول أنّه كان يجمع النبال ويناولها لأعمامه ممّا يدلُّ على حداثة سِنِّه، ويرجِّح الثاني قول المؤرخين: إنَّ حلف الفضول كان على أثر حرب الفِجار أو بعد رجوع قريش من هذه الحرب.

حلف الفضول

شهد النبي ﷺ حلف الفضول وكان عمره آنذاك عشرين سنة [2]، وكان سبب هذا الحلف أنَّ رجلاً من زبيد قَدِم مكة ببضاعة واشتراها منه العاص بن وائل السهمي فحبس عنه حقه، فصعد الرجل على جبل أبي قبيس ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته فسمعه الزبير بن عبدالمطلب، فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت قبائل

(١) الفِجار بمعنى المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وذلك أنّه كان قتالًا في الشهر الحرام ففجروا فيه جميعاً فسُمّي بالفِجار.

(٢) البداية والنهاية: ١/ ٤١٦

من قريش في دار عبدالله بن جدعان لسِنِّه وشرفه [١] فتعاقدوا وتعاهدوا على أنْ لا يجدوا في مكّة مظلوماً من أهلها ومن سائر الناس إلّا قاموا معه وردّوا عليه مظلمته، وبعد أن أبرموا الحلف قاموا إلى العاص بن وائل وانتزعوا منه حقَّ الرجل.

روى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: شهدتُ حلف المطيبين مع عمومتي وأنا غلام، فما أُحِبُّ أنَّ لي حمر النَعم وأنّي أنكثه - يعني حلف الفضول -، وإنّما ورد في الحديث بالمطيبين لأنَّ العشائر التي دخلت حلف المطيبين هي التي عقدت حلف الفضول. [٢]

قال ابن كثير رحمه الله: وكان حلف الفضول أكرم حلف سُمع به، وأشرفه في العرب، وكان أوّل من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب.

---

(١) هو ابن عم أبي قحافة جد عائشة "رضي الله عنها" لأبيها، روى الإمام مسلم في صحيحه أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله إنَّ ابن جدعان، كان يطعم الطعام، ويُقري الضيف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين.

(٢) ممّا اشتهر عند كتّاب السيرة أنَّ حلف الفضول هو نفسه حلف المطيبين وهذا غير صحيح، فإنَّ النبي ﷺ لم يشهد حلف المطيبين، فقد جرى هذا الحلف قبل ولادته ﷺ، فعندما توفي قصي ترك لابنه عبد الدار (الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة) ولم يعارض ذلك أحداً من أبناء قصي.

وبعد وفاة عبد الدار وأخيه عبد مناف نازع أولاد عبد مناف أولاد عمهم عبد الدار لينتزعوا منهم ما قد جعله لهم جدهم قصي، فتعاهد بنو عبد مناف مع بعض القبائل على أن لا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، وأخرج بنو عبد مناف لأحلافهم جفنة (إناء) مملوءة بالطِيب فغمسوا بها أيديهم ومسحوا أيديهم بالكعبة توكيدا منهم على أنفسهم فسُمُّوا المطيبين، وأمّا بنو عبد الدار فتعاهدوا أيضاً مع بعض القبائل الأخرى على أن لا يتخاذلوا ولا يُسْلِم بعضهم بعضاً فسُمُّوا الأحلاف.

وبينما كان الفريقان يتهيئان للحرب دُعوا الى الصلح فتصالحوا على أن يأخذ بنو عبد مناف السقاية والرفادة، ويبقى لبني عبد الدار الحجابة واللواء والندوة فرضيَ الطرفان، وهذا هو حلف المطيبين.

السنة الخامسة والعشرون من الميلاد

زواجه ﷺ من خديجة رضي الله عنها

شبَّ النبي ﷺ والله تعالى يحفظه ويحوطه من أقذار الجاهلية، فكان عظيماً في قومه لِنَسَبِه وحُسْنِ خلقه ومروءته وحلمه وكرمه وصدقِ حديثه وحسنِ جواره وعظمِ أمانته، حتى سمّاه قومه: الأمين، لِما جمع الله فيه من الأمور الصالحة.

عمل النبي ﷺ في التجارة فسمعت به خديجة بنت خويلد وكانت امرأة تاجرة، ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتاجروا لها بمالها وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم.

لمّا سمعت خديجة بأمانة النبي ﷺ أَرْسَلَت إليه، وعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً مع غلام لها اسمه ميسرة، وتُعطيه أفضل ممّا كانت تعطي لغيره، فقَبِلَ النبي ﷺ ذلك.

خرج النبي ﷺ مع ميسرة الى الشام، وباع سلعته التي خرج بها، وعاد الى مكة، فتحدّث ميسرة لخديجة رضي الله عنها عن خُلق النبي ﷺ وصدقه وأمانته، فأَرْسَلَت إليه، وعَرَضَت عليه نفسها، وكان عُمْرُها أربعين سنة، وعُمْرُ النبي ﷺ خمس وعشرون سنة، فقَبلَ بها النبي ﷺ، وذكر ذلك لأعمامه، فخرجوا معه وخطبوها له، فتزوجها وأصدقها عشرين بكرة، وقد ولدت له كلَّ أولاده إلاّ إبراهيم [1] وهم: (القاسم، عبدالله، زينب، رقية، أم كلثوم، فاطمة) وهي أوّل امرأة تزوجها النبي ﷺ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت.

---

(١) ولدت له أولًا القاسم - وبه كان يُكنّى عليه الصلاة والسلام - ثمَّ زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة وعبدالله، والذي كان يُلقّب بالطيب والطاهر، وقد مات بنوه كلهم في صغرهم، أمّا بناته ﷺ فقد أدركن الإسلام، فأَسْلَمْنَ وهاجَرْنَ، وكلهنَّ توفين في حياته عليه الصلاة والسلام، إلّا فاطمة رضي الله عنها فقد توفيت بعده بستة أشهر.

السنة الخامسة والثلاثون من الميلاد

بناء الكعبة وقضية التحكيم

أرادت قريش ومَنْ معها من القبائل الأخرى هدم الكعبة وبناءها من جديد لِما أصابها من تصدُّع في جدرانها، وبناء سقف لها فاتفقوا على ذلك، فقال لهم أبو وهب[1]: يا معشر قريش لا تُدْخِلوا في بنائها من كسبكم إلا طيباً، لا يدخل فيها مهر بغي ولا بيع ربا، ولا مظلمة من أحد الناس.

وافقت قريش والقبائل الأخرى على قول أبي وهب، ولكنهم تهيَّبوا من هدم الكعبة، وخافوا ذلك، فقام الوليد بن المغيرة، فقال: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المِعوَل وبدأ بهدمها وهو يقول: اللهم لا تُرَع، اللهم إنّا لا نريد إلّا الخير، وبدأ بهدمها، فانتظر الناس تلك الليلة لِيَروا إن كان سيحدث للوليد شيئاً، فإن حدث توقفوا عن هدمها وإن لم يحدث أكملوا الهدم، فلمّا أصبح الوليد وليس به شيءٌ قالوا: قد رضي الله على ما نصنع، فبدأوا بهدمها.

هدمت قريش الكعبة وأعادوا بناءَها، لكنَّ المال الطيب الذي جمعوه لم يكفِ لبنائها، فصغّروا البناء من الجهة الشمالية ستة أذرع تقريباً، وهي التي تُسمّى الحجْر أو الحطيم، ورفعوا بابها من الأرض حتى لا يدخلها إلّا مَنْ أرادوا.

ولمّا وصلوا إلى الركن وأرادوا وضع الحجر الأسود مكانه تنازعت القبائل فيما بينها، كل قبيلة تريد وضعه دون الأخرى لتحوز شرف وضعه حتى كادوا أن يقتتلوا فيما بينهم، فنادى أبو أمية بن المغيرة المخزومي، وكان عامئذ أسنَّ قريش كلها فقال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون أوّل مَنْ يدخل مِنْ باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه، فرضيت القبائل بذلك، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلمّا رأوه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمّد، فلمّا وصل إليهم أخبروه

---

(١) هو خال أبي رسول الله ﷺ.

بما جرى فقال ﷺ: هلمَّ إلي ثوباً، فأتي به فأخذ الحجر ووضعه عليه، وطلب من كل قبيلة أن تأخذ طرفاً من الثوب، فرفعوه جميعاً حتى وصلوا إلى موضع الحجر، فوضعه النبي ﷺ في مكانه ثمَّ بنى عليه.

روى البخاري في صحيحه عن جابر بن عبدالله قال: لمّا بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ والعباس ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: اجعل إزارك على رقبتك يقيك من الحجارة، فخرَّ الى الأرض وطمحت عيناه الى السماء ثم أفاق فقال: «إزاري إزاري»، فشُدَّ عليه إزاره، وفي رواية: «فما رُئيت له عورة بعد اليوم».

قلت: أعاد عبدالله بن الزبير رضي الله عنه (ت: ٧٣ هـ) بناء الكعبة على قواعد إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، أي أنَّه كبّر البناء، وألحق ما يُعرف اليوم بالحِجْر أو الحطيم بالكعبة، فلمّا قتله الحجاج بن يوسف الثقفي، أعاد الحجاج بناء الكعبة على قواعد قريش بأمر من عبدالملك بن مروان، حيث صغّر بناءها وأخرج الحِجْر أو الحطيم من البناء، ولمّا حكم العباسيون أراد هارون الرشيد [١] هدم الكعبة وإعادة بنائها من جديد على قواعد إبراهيم وإسماعيل، لكنَّ الإمام مالك ناشده ألّا يفعل حتى لا يُصبح البيت ملعبة للملوك فاستجاب له.

(١) نقل الحافظ ابن حجر في فتح الباري عن ابن عبد البر أنَّ الذي أراد هدم الكعب وبناءها على قواعد إبراهيم هو الرشيد أو المهدي أو المنصور.

الفصل الثاني
من البعثة إلى الهجرة
١٣ سنة -

أهم أحداث هذه المرحلة

تنقسم هذه المرحلة إلى قسمين:

١- الدعوة السرية (٣ سنوات).

٢- الدعوة العلنية (١٠ سنوات).

السنة الأولى والثانية والثالثة من البعثة: نزول الوحي، والدعوة السرّية.

السنة الرابعة من البعثة: الجهر بالدعوة، تعذيب قريش للمسلمين.

السنة الخامسة من البعثة: هجرة الحبشة الأولى، هجرة الحبشة الثانية.

السنة السادسة من البعثة: إسلام حمزة بن عبدالمطلب ﵁، إسلام عمر بن الخطاب ﵁، عتبة بن ربيعة يفاوض النبي ﷺ.

السنة السابعة من البعثة: مقاطعة قريش لبني هاشم وبني المطلب (٣ سنين) واستمرت المقاطعة إلى السنة العاشرة.

السنة العاشرة من البعثة: فك الحصار، وفاة أبي طالب وخديجة﵂، الهجرة إلى الطائف، الإسراء والمعراج، عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل والأفراد.

السنة الحادية عشرة من البعثة: إسلام ٦ من الأنصار.

السنة الثانية عشرة من البعثة: بيعة العقبة الأولى (بيعة النساء).

السنة الثالثة عشرة من البعثة: بيعة العقبة الثانية، هجرة الصحابة إلى المدينة، هجرة النبي ﷺ إلى المدينة



السنة الأولى والثانية والثالثة من البعثة

نزول الوحي

لمّا قارب سنُّ النبي ﷺ الأربعين حُبِّبَ إليه الخلاء، فكان يأخذ الطعام والماء، ويذهب إلى غار حراء في جبل النور على مبعدة نحو ميلين من مكة، ومعه أهله قريباً منه، فيقيم فيه شهر رمضان، حتى إذا جاء شهر رمضان من السنة التي بعثه الله ﷻ فيها، وكانت الليلة التي أكرمه الله ﷻ فيها برسالته جاءه جبريل ﷺ بأمر الله تعالى[1].

روى البخاري عن عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: أوَّل ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح، ثمَّ حُبِّبّ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث [2] فيه الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثمَّ يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه المَلَكُ، فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ منّي الجهد، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ منّي الجهد، ثمَّ أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطّني الثالثة، ثمّ أرسلني فقال: اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربّك الأكرم، فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد ﵂ فقال: زمّلوني زمّلوني، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي، فقالت خديجة: كلّا والله ما يخزيك الله أبداً، إنّك لتصل الرحم، وتحمل الكَل، وتكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، ابن عم خديجة، وكان امرئاً قد تنصّر في الجاهلية، وكان

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ج١ / ١٦٦.

(٢) يتعبّد.

يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعاً[1]، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: أوَ مخرجي هم؟، قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جئت به إلّا عودي، وإنْ يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزراً، ثمَّ لم ينشب – لم يلبث – ورقة أن توفي وفتر الوحي.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: هنا تتجلّى حقيقة المعركة وطبيعتها بين الإسلام والجاهلية، إنَّ الجاهلية لا ترضى من الإسلام أن يكون له كيان مستقل عنها، ولا تطيق أن يكون له وجود خارجٌ عن وجودها، وهي لا تسالم الإسلام حتى لو سالمها، لذلك لا يطلب الذين كفروا من رسلهم مجرد أن يكفوا عن دعوتهم، ولكن يطلبون منهم أن يعودوا في ملتهم، وأن يندمجوا في تجمعهم الجاهلي، وأن يذوبوا في مجتمعهم فلا يبقى لهم كيان مستقل، وهذا ما تأباه طبيعة هذا الدين لأهله.

إنَّ التجمع الجاهلي – بطبيعة تركيبه العضوي – لا يسمح لعنصر مسلم أن يعمل من داخله ، إلّا أن يكون عمل المسلم وجهده وطاقته لحساب التجمع الجاهلي، ولتوطيد جاهليته! والذين يُخَيَّلُ إليهم أنهم قادرون على العمل لدينهم من خلال التسرب في المجتمع الجاهلي ، والتميّع في تشكيلاته وأجهزته هم ناس لا يدركون الطبيعة العضوية للمجتمع، هذه الطبيعة التي ترغم كل فرد داخل المجتمع أن يعمل لحساب هذا المجتمع ولحساب منهجه وتصوره، لذلك يرفض الرسل الكرام أن يعودوا في ملّة قومهم بعد إذ نجّاهم الله منها.اهـ[2]

---

(١) أي شاباً قوياً.

(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة إبراهيم.

فترة الوحي [1]

انقطع الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من الزمن، ولا يُعلم على وجه التحديد كم دامت هذه الفترة، ولكن يبدو أنها لم تدم طويلاً، ثمَّ تتابع الوحي بعد ذلك وكثر، وأوّل ما نزل بعد فتوره: ﴿يا أيها المدثّر..... إلى والرجز فاهجر﴾.

عودة الوحي مرة ثانية

روى البخاري عن جابر «رضي الله عنه» أنّه سمع رسول الله ﷺ يحدّث عن فترة الوحي، قال: بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت، فقلت: زمّلوني زمّلوني، فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأنذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) ثم حَمِيَ الوحي وتتابع.

أقسام الوحي

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وكمَّل الله له من مراتب الوحي مراتب عديدة:

إحداها: الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه ﷺ، وكان لا يرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح.

الثانية: ما كان يُلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه، كما قال النبي ﷺ: «إنَّ روح القدس نفث في روعي أنّه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا يُنال إلا بطاعته»

الثالثة: أنّه ﷺ كان يتمثل له المَلَك رجلاً فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً.

---

(١) أي انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ.

الرابعة: أنّه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس، وكان أشدّه عليه، فيتلبس به الملك حتى إنَّ جبينه ليتفصَّد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إنَّ راحلته لتبرك به إلى الأرض إذا كان راكبها، ولقد جاءه الوحي مرة كذلك وفخذه على فخذ زيد بن ثابت فثقلت عليه حتى كادت ترضّها.

الخامسة: أنّه يرى الملك في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه، وهذا وقع له مرتين كما ذكر الله ذلك في النجم: ٧، ١٣.

السادسة: ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها.

السابعة: كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك، كما كلّم الله موسى بن عمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعاً بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء. اهـ. (١)

لقد استغرق نزول الوحي ثلاثاً وعشرين سنة، منها ثلاث عشرة سنة بمكة، وهذا هو المشهور، وعشر سنين في المدينة وهو المتفق عليه.

الدعوة سراً

قام عليه الصلاة والسلام يدعو إلى الله سبحانه، لكنّها كانت دعوة سريّة، واستمرت سريّة مدة ثلاث سنوات، وكان أوّل من استجاب لرسول الله ﷺ وآمن به أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد، زوجة رسول الله ﷺ، وعلي بن أبي طالب، ابن عم رسول الله ﷺ، وزيد بن حارثة، مولى رسول الله ﷺ، وأبو بكر الصديق (٢) رضي الله عنهم أجمعين، وكان هؤلاء الأربعة أوّل من أسلم. (٣)

قال ابن هشام: وكان أبو بكر رجلاً مألفاً لقومه، محبباً سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان فيها من خير وشر، وكان رجلاً تاجراً، ذا خلق

(١) زاد المعاد: ج/ ١، ٧٧ - ٧٨ - ٧٩.
(٢) قيل كان اسمه عتيقاً، وقيل: عبد الكعبة إلى أن أسلم فسمّاه النبي ﷺ عبدالله.
(٣) انظر سيرة ابن هشام: ج١ / ١٦٩ - ١٧٤.

ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحُسْنِ مجالسته، فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وَثِقَ به من قومه، ممن يغشاه ويجلس إليه، فأسلم بدعائه - فيما بلغني - عثمان بن عفّان بن أبي العاص بن أمية، والزبير بن العوام بن خويلد، وعبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيدالله، فجاء بهم إلى رسول الله ﷺ فأسلموا. اهـ (١)

ثمَّ أسلم بعد ذلك أبو عبيدة، وأبو سلمة، والأرقم بن أبي الأرقم، وعثمان بن مظعون، وأخواه قدامة وعبدالله، وعبيدة بن الحارث بن المطلب (٢)، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل (٣)، وامرأته فاطمة بنت الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وخبّاب بن الأرت، وعمير بن أبي وقاص أخو سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، ثمَّ أسلم جعفر بن أبي طالب وزوجته أسماء بنت عميس (٤)، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق، وعمّار بن ياسر، وصهيب بن سنان الرومي (٥).

وهؤلاء السابقون إلى الإسلام كانوا من جميع بطون قريش، عدّهم ابن هشام أكثر من أربعين نفراً (٦).

---

(١) انظر ابن هشام ج١ / ١٧٥.

(٢) هو ابن عم رسول الله ﷺ، وقد طُعن في غزوة بدر ومات بعد الغزوة على أثر تلك الطعنة.

(٣) هو ابن ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وصهره وكانت تحته فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، وكانت أخته عاتكة بنت زيد تحت عمر بن الخطاب، ولذلك استثناه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين أوصى بالخلافة لمن بقي على قيد الحياة من العشرة المبشرين بالجنة، وكان سعيد بن زيد واحداً منهم فاستثناه عمر لأنّه ابن عمه وصهره، فرضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، شهد سعيد بن زيد المشاهد كلّها مع النبي ﷺ بعد بدر، ومات في خلافة معاوية رضي الله عنه سنة ٥٠ أو ٥١، ودُفن بالمدينة. [انظر البداية والنهاية: ذكر قس بن ساعدة الأيادي وزيد بن عمرو بن نفيل].

(٤) هاجرت مع زوجها جعفر إلى الحبشة فولدت له هناك ثلاثة أولاد، ثمَّ هاجرت إلى المدينة بعد خيبر، فلما قُتل جعفر في مؤتة تزوجها أبو بكر الصديق فولدت له محمد بن أبي بكر، ثمَّ مات عنها فتزوجها علي بن أبي طالب فولدت له يحيى بن علي بن أبي طالب.

(٥) ذكر ابن هشام أنه عربي وذكر نسبه، وقال: ويقال أنَّه رومي، فقال بعض من ذكر أنَّه عربي أنَّه كان أسيراً في أرض الروم فاشتُري منهم.

(٦) انظر تفاصيل ما تقدم في سيرة ابن هشام: ج١ / ١٧٦ وما بعدها.

فائدة:

كان عُمْرُ أبي بكر رضي الله عنه حين أسلم ٣٧ سنة.

وكان عُمْرُ عثمان رضي الله عنه حين أسلم ٣٤ سنة.

وكان عُمْرُ علي رضي الله عنه حين أسلم ٨ أو ١٠ سنين.

وكان عُمْرُ عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه حين أسلم ٣٠ سنة.

وكان عُمْرُ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه حين أسلم ١٧ سنة.

وكان عُمْرُ الزبير بن العوام رضي الله عنه حين أسلم ١٢ سنة.

وكان عُمْرُ طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه حين أسلم ١٣ سنة.

قلت: كان عُمْرُ أبي بكر رضي الله عنه حين أسلم ٣٧ عاماً، وكان من عِلْيَة القوم، تاجراً، نسّابة، ولذلك لعب أبو بكر رضي الله عنه دوراً كبيراً في الدعوة في مرحلتها هذه، حيث أسلم على يديه الكثيرون من أهل مكة من السادة والضعفاء، منهم خمسة من المبشرين بالجنة [١]، ووظَّفَ أبو بكر رضي الله عنه ماله في خدمة الدعوة، فاستنقذ بماله العبيد والضعفاء من المسلمين الذين كان سادتهم من الكفار يعذبونهم حتى يرتدوا عن دينهم، مثل بلال وعامر بن فهيرة والنهدية وابنتها وغيرهم رضي الله عنهم، وهكذا انفرد أبو بكر رضي الله عنه بلعب دور كبير جداً في هذه المرحلة في الدعوة إلى الإسلام استحق به تلك المنزلة العظيمة التي تبوءها، فخير هذه الأمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الخلفاء الأربعة وخير الأربعة أبو بكر، ثمَّ عمر، ثمَّ عثمان، ثمَّ علي رضي الله عنهم، ومَنْ قدَّم علياً على أبي بكر فهو أضل من حمار أهله.

والملاحظ في هذه المرحلة أنَّ علياً رضي الله عنه حين أسلم كان عمره ٨ أو ١٠ سنين، ولذلك لم يكن له دور في الدعوة في هذه المرحلة لِصِغَرِ سِنِّه، ولا يَذكرُ كُتّاب السيرة علياً في الدعوة المكية إلّا في موضعين وهما: حين رآه أبو طالب يصلّي مع النبي صلى الله عليه وسلم، ومبيته في فراش النبي صلى الله عليه وسلم عند هجرته، ثمَّ ردّه الودائع إلى أهلها.

(١) وهم عثمان بن عفان وعبدالرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام رضي الله عنهم

كان انتشار الإسلام في المرحلة المكّية في سائر فروع قريش بصورة متوازنة دون أن يكون ثقل كبير لأي قبيلة، فأبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله من (تيم)، وعمر بن الخطاب وسعيد بن زيد من (عدي)، وعثمان بن عفان من (بني أمية)، وعلي بن أبي طالب من (بني هاشم) والزبير بن العوام من (بني أسد)، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقّاص من (بني زهرة)، ومصعب بن عمير من (بني عبد الدار)، وعثمان بن مظعون من (بني جُمَح)، بل إنَّ عدداً من المسلمين في هذه المرحلة لم يكونوا من قريش، فعبدالله بن مسعود من (هُذيل)، وعتبة بن غزوان من (مازن)، وأبو موسى الأشعري من (الأشعريين)، وعمار بن ياسر من (عنس) من مَذْحج، وزيد بن حارثة من (كلب)، والطفيل بن عمرو من (دوس)، وعمرو بن عبسة من (سليم).

إسلام الجن

بعث الله ﷻ نبيه ﷺ إلى الإنس والجن، ولم تقتصر دعوته على الإنس فقط، والجن مخلوقات مستترة لا نستطيع رؤيتها، لكنَّهم لهم القدرة على التجسّم والظهور بأشكال مختلفة، قال تعالى ﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

ولمّا بُعث النبي ﷺ حيل بين الجنّ وبين استراق السمع من السّماء، وكانوا قبل ذلك يسترقون السمع، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩]، فكانوا يبحثون عن السبب في أرجاء الأرض، ثمَّ رأى نفرٌ من الجن النبي ﷺ بنخلة عامداً إلى عكاظ، فاستمعوا له وهو يصلّي الفجر بأصحابه فآمنوا به، ثمَّ رجعوا إلى قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ [الجن: ١، ٢]، ولم يرَ النبي ﷺ الجن في هذه المرة ولم يقرأ عليهم، وإنّما آذنته شجرة بهم، فأنزل الله على نبيه ﴿قُلْ

أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَباً﴾.

كما دعا النبي ﷺ الجن مرّة أخرى، وهو مُعَسْكِر بأصحابه خارج مكّة، وفي تلك المرّة ذهب معهم وقرأ عليهم القرآن، ثمَّ أرى أصحابه آثارهم وآثار نيرانهم، وهذه الحادثة كانت مع وفد جن نصيبين كما ذكر الشعبي رحمه الله.



الصلاة

قال ابن حجر: فإنَّه ﷺ كان قبل الإسراء يصلي قطعاً، وكذلك أصحابه، ولكن اختُلِف هل افترض قبل الخمس شيء من الصلاة أم لا؟، فيصح على هذا قول مَنْ قال: إنَّ الفرض أولاً كان صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها. اهـ[١]

وقد ذكر ابن هشام أنَّ النبي ﷺ وأصحابه كانوا إذا حضرت الصلاة ذهبوا في الشعاب ليصلّوا حتى لا يراهم أهل مكّة، وقد رأى أبو طالب النبي ﷺ وعلياً يصلّيان.[٢]

مرّت ثلاث سنوات والدعوة لم تزل سِرّية وفردية، وقد تكونت في هذه الفترة

---

(١) فتح الباري: ج٩/ ٥٨٠.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١/ ١٧٢.

جماعة من المسلمين تقوم على التوحيد والولاء والبراء والأخوة والمحبة والتعاون، حتى نزل الوحي على رسول الله ﷺ بإعلان الدعوة، ولم تتعرض قريش للنبي ﷺ ولا لأصحابه بأي أذى في هذه السنوات الثلاث، رغم أنها علمت بما يدعو إليه ﷺ، ذلك أنَّها ظنّت أنَّ دعوته كدعوة الموحدين الّذين سبقوه، قس بن ساعدة الأيادي وزيد بن عمرو بن نفيل وأميّة بن أبي الصلّت.

وزيد بن عمرو بن نفيل هو الذي قال عنه النبي ﷺ أنَّه يُبعَث أمّة وحده، كما في حديث جابر «رضي الله عنه» قال: سُئل رسول الله ﷺ عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه كان يستقبل القبلة في الجاهلية، ويقول: إلهي إله إبراهيم، وديني دين إبراهيم، ويسجد، فقال رسول الله ﷺ : «يُحشر ذاك أمّة وَحْدَه، بيني وبين عيسى بن مريم». اهـ [1]

وأما أميّة بن أبي الصلّت الثقفي فقد قرأ الكتب وعَلِم أنَّ الله مرسل رسولاً في ذلك الوقت، وتمنّى أن يكون هو ذلك الرسول، فلمّا أرسل الله ﷻ محمداً ﷺ حَسدهُ وكَفرَ به، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: آمن شعره، وكفر قلبه. اهـ [2]

(١) قال ابن كثير: إسناده جيد حسن. البداية والنهاية.
(٢) انظر تفسير القرطبي / تفسير سورة الأعراف.

السنة الرابعة من البعثة

الجهر بالدعوة

انتهت مرحلة الدعوة السرية حين نزل قوله تعالى ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ [الشعراء: ٢١٤]، فصعد رسول الله ﷺ حتى علا الصفا وهتف: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، أرأيتكم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيّ؟، قالوا: ما جرّبنا عليك كذباً، قال: فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك، أما جمعتنا إلّا لهذا؟!! ثمَّ قام، فنزلت هذه السورة ﴿تبت يدا أبي لهب﴾. [1]

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا أُنزِلَت هذه الآية ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ دعا رسول الله ﷺ قريشاً فاجتمعوا، فعمّ وخصّ، فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسكِ من النار، فإنّي لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أنَّ لكم رحماً سأبلها ببلالها.

ثمَّ جاءت مرحلة أخرى بعدها، فأصبح يدعو فيها كل من يلتقي به من الناس على اختلاف قبائلهم وبلدانهم، ويتبع الناس في أنديتهم، ومجامعهم ومحافلهم، وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو مَنْ لقيه مِنْ حر وعبد، وقوي وضعيف، وغني وفقير ، حين نزول قوله تعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ - إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ - الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فسوف يَعْلَمُونَ - وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾ [الحجر: ٩٤ - ٩٧].

---

(١) متفق عليه.

كانت النتيجة لهذا الصدع هي الصدُّ والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المُدَبَّر المدروس، وقد اشتد الصراع بين النبي ﷺ وأصحابه من جهة ، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها من جهة أخرى، وأصبح الناس يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: لقد شاءت حكمة الله أن تكون قضية العقيدة هي القضية التي تتصدى الدعوة لها منذ اليوم الأول للرسالة، وأنْ يبدأ رسول الله ﷺ أُولى خطواته في الدعوة، بدعوة الناس أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنْ يمضي في دعوته يُعَرِّفُ الناس بربهم الحق، ويُعَبِّدُهم له دون سواه، فَلِمَ كانت هذه نقطة البدء في هذه الدعوة؟ ولِمَ اقتضت حكمة الله أن تبدأ بكل هذا العناء؟

لقد بُعِثَ رسول الله ﷺ بهذا الدين، وأخصب بلاد العرب وأغناها ليست في أيدي العرب، إنَّما هي في يد غيرهم من الأجناس، وكان في استطاعة محمد ﷺ وهو الصادق الأمين، الذي حكَّمه أشراف قريش قبل ذلك في وضع الحجر الأسود، وارتضوا حكمه، منذ خمسة عشر عاماً، والذي هو في الذؤابة من بني هاشم أعلى قريش نسباً كان في استطاعته أن يثيرها قومية عربية تستهدف تجميع قبائل العرب، التي أكلتها الثارات، ومزقتها النزاعات، وتوجيهها وجهة قومية لاستخلاص أرضها المغتصبة من الإمبراطوريات المستعمرة، الرومان في الشمال والفرس في الجنوب، وإعلاء راية العربية والعروبة، وربما قيل: إنَّ محمداً ﷺ كان خليقاً بعد أن يستجيب له العرب هذه الاستجابة، وبعد أن يُولّوه فيهم القيادة والسيادة، وبعد استجماع السلطان في يديه والمجد فوق مفرقه أنْ يستخدم هذا كله في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبّدهم لسلطانه، ولكن الله – سبحانه – وهو العليم الحكيم، لم يوجه رسوله ﷺ هذا التوجيه! إنّما وجهه إلى أن يصدع بلا إله إلا الله، وأن يحتمل هو والقلة التي تستجيب له كل هذا العناء، لماذا؟ إنَّ الله – سبحانه – لا يريد أن يُعنّت رسولَه والمؤمنين معه، إنّما هو – سبحانه

- يعلم أن ليس هذا هو الطريق، ليس الطريق أن تخلص الأرض من يد طاغوت روماني أو طاغوت فارسي، إلى يد طاغوت عربي، فالطاغوت كلّه طاغوت!، إنَّ الأرض لله، ويجب أن تَخْلُص لله، ولا تَخْلُصُ لله إلا أن ترتفع عليها راية: «لا إله إلا الله »، ولأنَّ الجنسية التي يريدها الإسلام للناس هي جنسية العقيدة، التي يتساوى فيها العربي والروماني والفارسي وسائر الأجناس والألوان تحت راية الله.

وهذا هو الطريق...

وبُعِثَ رسول الله ﷺ بهذا الدين، والمجتمع العربي كأسوأ ما يكون المجتمع توزيعاً للثروة والعدالة، قلّة قليلة تملك المال والتجارة، وتتعامل بالربا فتضاعِف تجارتها ومالها، وكثرة كثيرة لا تملك إلا الشظف والجوع، والذين يملكون الثروة يملكون معها الشرف والمكانة، وجماهير كثيفة ضائعة من المال والمجد جميعاً!

وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يرفعها راية اجتماعية، وأن يثيرها حرباً على طبقة الأشراف، وأن يطلقها دعوة تستهدف تعديل الأوضاع، وردّ أموال الأغنياء على الفقراء، وربّما قيل: إنَّ محمداً ﷺ كان خليقاً بعد أن تستجيب له الكثرة، وتوليه قيادها، فيغلب بها القلة ويَسْلُس له مقادها أن يستخدم مكانه يومئذ وسلطانه في إقرار عقيدة التوحيد التي بعثه بها ربه، وفي تعبيد الناس لسلطان ربهم بعد أن عبَّدهم لسلطانه!، ولكنَّ الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم، لم يوجهه هذا التوجيه.

لقد كان الله - سبحانه - يعلم أنَّ هذا ليس هو الطريق، كان يعلم أنَّ العدالة الاجتماعية لا بد أن تنبثق في المجتمع من تصور اعتقادي شامل، يرد الأمر كله لله، ويقبل عن رضى وعن طواعية ما يقضي به الله من عدالة في التوزيع، ومن تكافل بين الجميع، ويستقر معه في قلب الآخذ والمأخوذ منه أنه ينفذ نظاما يرضاه الله ويرجو على الطاعة فيه الخير والحسنى في الدنيا والآخرة سواء، فلا تمتلئ قلوب بالطمع، ولا تمتلئ قلوب بالحقد، ولا تسير الأمور كلها بالسيف والعصا وبالتخويف والإرهاب! ولا تفسد القلوب كلها وتختنق الأرواح، كما يقع في الأوضاع التي نراها قد قامت على غير: «لا إله إلا الله"

وبُعِثَ رسول الله ﷺ والمستوى الأخلاقي في الجزيرة العربية في الدرك الأسفل في جوانب منه شتى، إلى جانب ما كان في المجتمع من فضائل الخامة البدوية.

كان التظالم فاشياً في المجتمع، وكانت الخمر والميسر من تقاليد المجتمع الفاشية ومن مفاخره كذلك!، وكانت الدعارة - في صور شتى - من معالم هذا المجتمع، وكان في استطاعة محمد ﷺ أن يعلنها دعوة إصلاحية، تتناول تقويم الأخلاق، وتطهير المجتمع، وتزكية النفوس، وتعديل القيم والموازين

وكان واجداً وقتها - كما يجد كل مصلح أخلاقي في أية بيئة - نفوساً طيبة، يؤذيها هذا الدنس وتأخذها الأريحية والنخوة لتلبية دعوة الإصلاح والتطهير.

وربما قال قائل: إنّه لو صنع رسول الله ﷺ ذلك فاستجابت له - في أول الأمر - جمهرة صالحة تتطهر أخلاقها، وتزكو أرواحها، فتصبح أقرب إلى قبول العقيدة وحملها، بدلاً من أن تثير دعوة أن لا إله إلا الله المعارضة القوية منذ أول الطريق، ولكنَّ الله - سبحانه - وهو العليم الحكيم، لم يُوجِّه رسوله ﷺ إلى مثل هذا الطريق.

لقد كان الله - سبحانه - يعلم أنْ ليس هذا هو الطريق! كان يعلم أنَّ الأخلاق لا تقوم إلّا على أساس من عقيدة، تضع الموازين، وتقرر القيم، وتقرر السلطة التي ترتكن إليها هذه الموازين والقيم، كما تقرر الجزاء الذي تملكه هذه السلطة وتوقعه على الملتزمين والمخالفين، وأنه قبل تقرير تلك العقيدة تظل القيم كلها متأرجحة، وتظل الأخلاق التي تقوم عليها متأرجحة كذلك، بلا ضابط، وبلا سلطان، وبلا جزاء!

فلمّا تقررت العقيدة - بعد الجهد الشاق - وتقررت السلطة التي ترتكن إليها هذه العقيدة، لمّا عرف الناس ربهم وعبدوه وحده، لما تحرر الناس من سلطان العبيد، ومن سلطان الشهوات سواء، لمّا تقررت في القلوب: «لا إله إلا الله»، صنع الله بها وبأهلها كل شيء مما يقترحه المقترحون.

تطهرت الأرض من الرومان والفرس، لا ليتقرر فيها سلطان العرب، ولكن

ليتقرر فيها سلطان الله، لقد تطهرت من الطاغوت كله: رومانياً وفارسياً وعربياً على السواء.

وتطهر المجتمع من الظلم الاجتماعي بجملته، وقام النظام الإسلامي يعدِلُ بعَدْلِ الله، ويَزِن بميزان الله، ويرفع راية العدالة الاجتماعية باسم الله وحده؟ ويسميها راية الإسلام، لا يقرن إليها اسما آخر، ويكتب عليها: «لا إله إلا الله»

وتطهرت النفوس والأخلاق، وزكت القلوب والأرواح، دون أن يحتاج الأمر إلى الحدود والتعازير التي شرعها الله - إلا في الندرة النادرة - لأنَّ الرقابة قامت هنالك في الضمائر، ولأنَّ الطمع في رضى الله وثوابه، والحياء والخوف من غضبه وعقابه قد قامت كلها مقام الرقابة ومقام العقوبات..

وارتفعت البشرية في نظامها، وفي أخلاقها، وفي حياتها كلها، إلى القمّة السامقة التي لم ترتفع إليها من قبل قط، والتي لم ترتفع إليها من بعد إلّا في ظل الإسلام.

ولقد تمَّ هذا كله لأنَّ الذين أقاموا هذا الدين في صورة دولة ونظام وشرائع وأحكام، كانوا قد أقاموا هذا الدين من قبل في ضمائرهم وفي حياتهم، في صورة عقيدة وخلق وعبادة وسلوك، وكانوا قد وُعِدُوا على إقامة هذا الدين وعداً واحداً، لا يدخل فيه الغلب والسلطان، ولا حتى لهذا الدين على أيديهم، وعداً واحداً لا يتعلق بشيء في هذه الدنيا، وعداً واحداً هو الجنة، هذا كل ما وُعِدُوه على الجهاد المضني، والابتلاء الشاق، والمضيّ في الدعوة، ومواجهة الجاهلية بالأمر الذي يكرهه أصحاب السلطان، في كل زمان وفي كل مكان، وهو: «لا إله إلا الله».

فلمّا أن ابتلاهم الله فصبروا، ولمّا أن فرغت نفوسهم من حظ نفوسهم، ولمّا أنْ عَلِم الله منهم أنهم لا ينتظرون جزاء في هذه الأرض - كائنا ما كان هذا الجزاء ولو كان هو انتصار هذه الدعوة على أيديهم، وقيام هذا الدين في الأرض بجهدهم - ولمّا لم يعد في نفوسهم اعتزاز بجنس ولا قوم، ولا اعتزاز بوطن ولا أرض، ولا اعتزاز بعشيرة ولا بيت.

لمّا أن عَلِمَ الله منهم ذلك كله، علم أنهم قد أصبحوا - إذن - أُمَناء على هذه

الأمانة الكبرى، أُمناء على العقيدة التي يتفرد فيها الله سبحانه بالحاكمية في القلوب والضمائر وفي السلوك والشعائر، وفي الأرواح والأموال، وفي الأوضاع والأحوال، وأمناء على السلطان الذي يوضع في أيديهم ليقوموا به على شريعة الله ينفذونها، وعلى عدل الله يقيمونه، دون أن يكون لهم من ذلك السلطان شيء لأنفسهم ولا لعشيرتهم ولا لقومهم ولا لجنسهم، إنّما يكون السلطان الذي في أيديهم لله ولدينه وشريعته، لأنهم يعلمون أنه من الله، هو الذي آتاهم إياه.

ولم يكن شيء من هذا المنهج المبارك ليتحقق على هذا المستوى الرفيع، إلّا أن تبدأ الدعوة ذلك البدء، وإلّا أن ترفع الدعوة هذه الراية وحدها، راية لا إله إلا الله، ولا ترفع معها سواها، وإلّا أن تسلك الدعوة هذا الطريق الوعر الشاق في ظاهره ; المبارك الميسر في حقيقته.

وما كان هذا المنهج المبارك ليخلص لله، لو أنَّ الدعوة بدأت خطواتها الأولى دعوة قومية، أو دعوة اجتماعية، أو دعوة أخلاقية، أو رفعت أي شعار إلى جانب شعارها الواحد: «لا إله إلا الله». اهـ (١)

قريش تُرسل وفداً إلى أبي طالب

حاولت قريش احتواء الأمر فلجأت إلى التفاوض مع أبي طالب، قال ابن إسحاق: مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو البختري، والأسود بن المطلب، وأبو جهل - واسمه عمرو، وكان يكنّى أبا الحكم -، والوليد بن المغيرة، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج، والعاص بن وائل، فقالوا: يا أبا طالب، إنَّ ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا، وضلّل آباءنا، فإما أن تكفه عنّا، وإمّا أن تخلي بيننا وبينه، فإنّك على مثل ما نحن عليه من خِلافِهِ، فنكفيكه، فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم رداً جميلاً، فانصرفوا

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنعام.

عنه، ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه، يُظهر دين الله، ويدعو إليه، فرجع أشراف قريش إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أبا طالب، إنَّ لك سنّاً وشرفاً ومنزلةً فينا، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنّا، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا، حتى تكفّه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك، حتى يهلك أحد الفريقين. (١)

حين قالت قريش لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي، إنَّ قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا وكذا، للذي كانوا قالوا له، فأَبْقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق، قال: فظنَّ رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمّه فيه بداء أنّه خاذله ومُسْلِمَه، وأنّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه، قال: فقال رسول الله ﷺ: يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك فيه، ما تركته، قال: ثمَّ استعبر رسول الله ﷺ، فبكى ثمَّ قام، فلمّا ولّى ناداه أبو طالب، فقال: أقبل يا ابن أخي، قال: فأقبل عليه رسول الله ﷺ، فقال: اذهب يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أُسْلِمُك لشيء أبداً. (٢)

الحرب الإعلامية على المسلمين

لمّا رأت قريش إصرار النبي ﷺ على دعوته عزم الملأ منهم على مواجهة النبي ﷺ والمسلمين، ولم يمضِ على الجهر بالدعوة إلا أشهر معدودة حتى قَرُبَ موسم الحج، وعرفت قريش أنَّ وفود العرب ستَقْدُم عليهم، فرأت أنّه لا بُدَّ من كلمة يقولونها للعرب، في شأن محمد ﷺ حتى لا يكون لدعوته أثر في نفوس العرب، فاجتمعوا إلى الوليد بن المغيرة يتداولون في تلك الكلمة، فقال لهم الوليد : أَجمعوا فيه رأياً

---

(١) (١) سيرة ابن هشام: ج١/ ١٨٢ - ١٨٣.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١/ ١٨٣.

واحدًا، ولا تختلفوا فيُكَذِّبَ بعضكم بعضاً، ويَردَّ قولكم بعضُه بعضاً، قالوا: فأنت فقل، وأَقِم لنا رأياً نقول به ، قال: بل أنتم فقولوا، أسمع، قالوا: نقول : كاهن، قال : لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكُهّان فما هو بزَمْزَمَة الكاهن ولا سَجعِه، قالوا: فنقول: مجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، ما هو بخَنْقِه ولا تَخَالُجِه ولا وسوسته، قالوا: فنقول : شاعر، قال : ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله، رَجَزَه وهَزَجَه وقَرِيضَه ومَقْبُوضه ومَبْسُوطه، فما هو بالشعر، قالوا : فنقول: ساحر ، قال : ما هو بساحر، لقد رأينا السحّار وسحرهم، فما هو بنَفْثِهم ولا عقْدِهم (إشارة إلى ما كان يفعل الساحر بأنْ يعقد خيطاً ثمَّ ينفث فيه، ومنه قوله تعالى «ومن شر النفاثات في العقد» يعني الساحرات) قالوا: فما نقول ؟، قال : والله إنَّ لقوله لحلاوة، وإنَّ عليه لطلاوة، وإنَّ أصله لعَذَق، وإنَّ فَرْعَه لجَنَاة (العذق – بالفتح – النخلة، يشبهه بالنخلة التي ثبت أصلها وقوي وطاب فرعها إذا جُني)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلّا عُرِف أنّه باطل، وإنَّ أقرب القول فيه أنْ تقولوا: ساحر، جاء بقول هو سحر، يفرّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه بذلك، وأنزل الله ﷻ في الوليد بن المغيرة ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا – وَجَعَلْتُ لَهُ مَالا مَّمْدُودًا – وَبَنِينَ شُهُودًا – وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا – ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ – كَلاَّ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا – سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا – إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ – فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ – ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ – ثُمَّ نَظَرَ – ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ – ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ – فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ – إِنْ هَذَا إِلاَّ قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ [المدثر: ١١ – ٢٥] (١)

وبعد أن اتفق المجلس على هذا القرار أخذوا في تنفيذه، فجلسوا بسبل الناس حين قَدِموا للموسم، لا يمرُّ بهم أحد إلا حذروه إياه وذكروا لهم أمره.

أمّا رسول الله ﷺ فخرج يتبع الناس في منازلهم وفي عُكَاظ ومَجَنَّة وذي المَجَاز، يدعوهم إلى الله، وأبو لهب وراءه يقول: لا تطيعوه فإنّه صابئ كذاب. (٢)

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ / ١٨٦ – ١٨٧.

(٢) مسند الإمام أحمد ٣ / ٤٩٢.

وقد تنوعت الأساليب الإعلامية التي استخدمتها قريش لمواجهة النبي ﷺ ومنها:

١- اتهامه ﷺ بالجنون ﴿وقالوا يا أيها الذى نُزِّل عليه الذكر إنَّك لمجنون﴾ [الحجر: ٦]، والسحر والكذب ﴿وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب﴾ [ص: ٤].

٢- تشويه الدعوة الإسلامية وإثارة الشبهات حولها، وبث الدعايات الكاذبة، فكانوا يقولون عن القرآن أنَّه أساطير الأوّلين: ﴿وقالوا أساطير الاولين اكتتبها فهى تُملى عليه بكرةً وأصيلاً﴾ [الفرقان: ٥]، ﴿إن هذا إلا إفكٌ افتراه وأعانه عليه قومٌ آخرون﴾ [الفرقان: ٤]، وكانوا يقولون: ﴿إنّما يعلّمه بشر﴾، وقالوا عن النبي ﷺ: ﴿مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق﴾ [الفرقان: ٧].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: ولقد كان محمد ﷺ ملء السمع والبصر بين قومه قبل بعثته، فقد كان عندهم ذا مكانة من بيته، وهو من ذروة بني هاشم، وهم ذروة قريش، وكان عندهم ذا مكانة من خلقه وهو الملقّب بينهم بالأمين.

ولقد ارتضوا حكومته بينهم في وضع الحجر الأسود قبل البعثة بزمن طويل، ويوم دعاهم على الصفا فسألهم أيصدقونه لو أخبرهم أنَّ خيلاً بسَفحِ هذا الجبل قالوا: نعم أنت عندنا غير متهم.

ولكنهم بعد البعثة وبعد أن جاءهم بهذا القرآن العظيم راحوا يهزؤون به ويقولون: أهذا الذي بعث الله رسولاً؟ وهي قولة ساخرة مُسْتَنْكِرة، أكان ذلك عن اقتناع منهم بأنَّ شخصه الكريم يستحق منهم هذه السخرية، وأنَّ ما جاءهم به يستحق منهم هذا الاستهزاء؟ كلّا، إنّما كانت تلك خطة مُدَبَّرة من كبراء قريش للتصغير من أثر شخصيته العظيمة، ومن أثر هذا القرآن الذي لا يُقاوَم، وكانت وسيلة من وسائل مقاومة الدعوة الجديدة التي تهددهم في مراكزهم الاجتماعية وأوضاعهم الاقتصادية، وتجردهم من الأوهام والخرافات الاعتقادية التي تقوم عليها تلك المراكز وهذه الأوضاع.[1]

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الفرقان.

وقال أيضاً: والحق الذي لا مِرْية فيه أنَّ كبراء قريش لم يصدِّقوا أنفسهم لحظة وهم يقولون عن محمد بن عبد الله ﷺ الذي يعرفونه حق المعرفة: إنّه ساحر وإنّه كذاب! إنّما كان هذا سلاحاً من أسلحة التهويش والتضليل وحرب الخداع التي يُتْقِنها الكبراء، ويتخذونها لحماية أنفسهم ومراكزهم من خطر الحق الذي يتمثل في هذه العقيدة، ويزلزل القيم الزائفة والأوضاع الباطلة التي يستند إليها أولئك الكبراء!. [١]

وقال: ولقد كان كبراء قريش يقولون للجماهير: ﴿لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾ وكانت هذه المقالة تدل على الذعر الذي تضطرب به نفوسهم ونفوس أتباعهم من تأثير هذا القرآن، وهم يرون هؤلاء الأتباع كأنّما يُسحرون بين عشية وضحاها من تأثير الآية والآيتين، والسورة والسورتين، يتلوهما محمد بن عبد الله ﷺ فتنقاد إليه النفوس، وتهوى إليه الأفئدة.

ولم يقل رؤساء قريش لأتباعهم وأشياعهم هذه المقالة، وهم في نجوة من تأثير هذا القرآن، فلولا أنَّهم أحسوا في أعماقهم هزةً روَّعَتْهم ما أَمَرُوا هذا الأمر، وما أَشاعوا في قومهم بهذا التحذير، الذي هو أدل من كل قول على عمق التأثير [٢].

أسلوب جديد في مجابهة الدعوة

بقيت قريش تعتمد نفس الأساليب التي ذكرناها سابقاً في مواجهة الدعوة بعد ظهورها بداية السنة الرابعة للبعثة، واستمر هذا الحال لشهور، لكن لمّا رأى سادة قريش أنَّ هذه الأساليب لم تنجح في إيقاف تمدد الدعوة الإسلامية، ولم تردع المسلمين عن مواصلة دعوتهم قرّروا اللجوء إلى أسلوب جديد، وهو أسلوب القمع واستخدام القوة في محاولة لإيقاف دعوة النبي ﷺ.

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة ص.
(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة الفرقان.

وكان يسيراً على سادة قريش البطش بالمستضعفين من المسلمين، ومَنْ ليس لهم عشيرة تمنعهم وتحميهم، أمّا رسول الله ﷺ فما كانوا يجرؤون على المساس به وهو في حماية عمّه أبي طالب، لكنّهم حاولوا انتهاز كل فرصة تسنح لهم لإيذاءه عليه الصلاة والسلام.

ولم تكتفِ قريش بالإيذاء الجسدي لرسول الله ﷺ وللمسلمين، بل عمدت أيضاً إلى الحرب المعنوية والنفسية، ومن هذا ما فعله أبو لهب حين أمر ولديه عُتبة وعُتيبة بتطليق بنتي رسول الله ﷺ رقيّة وأم كلثوم، ففعلا، وكانا قد تزوّجاهما قبل البعثة، وكان أبو لهب يمشي خلف النبي ﷺ في موسم الحج يُكذّبه ويصدُّ الناس عنه، وكانت زوجته أم جميل أخت أبي سفيان، من أشد الناس عداوة وإيذاءً للنبي ﷺ، وكانت امرأة سليطة اللسان، تُطيل لسانها في الافتراء على النبي ﷺ وتأجيج الناس عليه، وكانت تضع الشوك في طريقه عليه الصلاة والسلام، وقد نزل القرآن بذمّها وذمِّ زوجها، ولمّا سَمِعَتْ ما نزل فيها وفي زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها فِهْرٌ [1] من حجارة، فلمّا وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ، فلا ترى إلّا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فاه، أَمَا والله إنّي لشاعرة، ثم قالت:

مُذَمَّماً [2] عصينا * وأمرَه أبينا * ودينَه قَلَيْنا

ثمَّ انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك؟ فقال : ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني.

وروى البخاري عن عبدالله بن مسعود أنَّ النبي ﷺ كان يُصلّي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيّكم يجيء بسلى جزور بني

---

(١) أي بمقدار ملء الكف.

(٢) تعني رسول الله ﷺ حيث كان المشركون يسمّونه مُذمماً للانتقاص منه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا تعجبون كيف يصرف الله عنّي شتم قريش ولَعْنَهم، يشتمون مذمّماً، ويلعنون مذمماً وأنا محمد»، رواه البخاري.

فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد؟ فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط) فجاء به، فنظر حتى سجد النبي ﷺ، وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أُغني شيئاً، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض [١]، ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رسول الله ﷺ رأسه ثم قال: اللهم عليك بقريش، ثلاث مرات، فشقَّ عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أنَّ الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمّى: اللهم عليك بأبي جهل، وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة، وأميّة بن خلف، وعقبة بن أبي معيط - وعد السابع فلم يحفظ -، قال: فوالذي نفسي بيده، لقد رأيت الذين عدَّ رسول الله ﷺ صرعى، في القليب، قليب بدر، والسابع هو عمارة بن الوليد. [٢]

وكان ممّن يؤذون رسول الله ﷺ أميّة بن خلف، فكان إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزَهُ ولَمَزَهُ، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿ويلٌ لكلِّ هُمزةٍ لُمزة - الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ - يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ - كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِى الْحُطَمَةِ - وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ - نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ - الَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ - إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُؤْصَدَةٌ - فِى عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: ١ - ٩].

قال ابن هشام: الهُمَزَة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه عليه، ويغمز به، واللُمزَة: الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم.

وكان أخوه أُبيْ بن خلف متصافياً مع عقبة بن أبي معيط حَسَناً ما بينهما، فجلس عقبة إلى رسول الله ﷺ وسمع منه، فبلغ ذلك أبيّاً فأنّبَ عقبة وحلف ألّا يكلمه إن جلس إلى النبي ﷺ وسمع منه، حيث أتى عقبةَ وقال له: ألم يبلغني أنّك جالست محمداً وسمعت منه، وجهي من وجهك حرام أن أكلمك - واستغلظ من اليمين - إن أنت جلست إليه أو سمعت منه، أو لم تأته فتتفل في وجهه، ففعل ذلك.

---

(١) أي يتمايل بعضهم على بعض مرحاً وطرباً.
(٢) صحيح البخاري / كتاب الصلاة.

وقد سأل عروة بن الزبير عبدالله بن عمرو بن العاص فقال: أخبرني بأشدّ ما صنع المشركون برسول الله ﷺ، قال: بينا رسول الله ﷺ يصلّي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله ﷺ ولوى ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله ﷺ وقال: ﴿أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم البينات من ربكم﴾. [١]

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: قال أبو جهل : يُعفَّر محمد وجهه بين أظهركم؟ فقيل : نعم، فقال: واللات والعزى، لئن رأيته لأطأنَّ على رقبته، ولأعفرنَّ وجهه، فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلّي، زعم ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه، فقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إنَّ بيني وبينه لخندقاً من نار وهولاً وأجنحةً، فقال رسول الله ﷺ: «لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً».

وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ دعا على قريش لمّا كذبوه واستعصوا عليه فقال: «اللهم اكفنيهم بسبعٍ كسبع يوسف»[٢] فأخذتهم سنة حتى هلكوا فيها، وأكلوا الميتة والعظام، فجاءه أبو سفيان فقال: يا محمد، جئت تأمر بصلة الرحم، وإنَّ قومك هلكوا، فادع الله، فقرأ «فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين» ثمَّ عادوا إلى كفرهم فذلك قوله تعالى (يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون) [٣].

تعرّض النبي ﷺ لكل هذه الاعتداءات على الرغم ممّا كان له من مكانة، وماله من وقار في نفوس العامّة، أمّا بالنسبة للمسلمين، وخاصةّ الضعفاء منهم فكان الاضطهاد والتعذيب بحقهم أكبر، فقد قامت كل قبيلة بتعذيب المسلمين من أبنائها.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: أول من أظهر إسلامه سبعة: رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمّار وأمّه سمية وصهيب وبلال والمقداد، فأمّا رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمّه أبي طالب، وأمّا أبو بكر فمنعه الله بقومه، وأمّا سائرهم فأُخذهم المشركون فألبسوهم

(١) رواه البخاري

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

أدرع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلّا بلال فإنّه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به في شعاب مكة وهو يقول: أحد أحد. [(١)]، ثمَّ اشترى أبو بكر بلالًا فأعتقه [(٢)].

قال عروة بن الزبير إمام أهل المغازي: أعتق أبو بكر ﵁ ممن كان يُعذَّب في الله سبعة: عامر بن فهيرة، وبلال، وزنيرة، وأم عبيس، والنهدية وابنتها، وجارية بني عمرو بن مؤمل.[(٣)]

وتنوعت صور التعذيب ضد المسلمين، بين الحبس والضرب والتجويع وشتّى صنوف التعذيب، فهذه أمُّ مصعب بن عمير لمّا أسلم كانت تجيعه وأخرجته من بيته، بعد أن كان من أنعم الناس عيشاً، وأكثرهم مالاً، وكان أميّة بن خلف يُعذِّب بلالاً ﵁ مولاه، وكان يشدّه شدّاً ثمَّ يضربه بالعصا، وكان يخرج في الظهيرة في بطحاء مكّة ثمَّ يأمر بالصخرة العظيمة فتُوضَع على صدره، ثمَّ يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول بلال - وهو في ذلك -: أحد أحد، وكان أيضاً يضع في عنقه حبلاً ثمَّ يسلّمه للصبيان يطوفون به في جبال مكّة، حتى مرَّ به أبو بكر ﵁ يوماً وهم يصنعون ذلك به فاشتراه وأعتقه، وكان صهيب «﵁» يُعذَّب حتى يفقد وعيه، وكان أبو فُكَيْهَةَ مولى لبني عبد الدار فكانوا يخرجونه في نصف النهار في حرٍّ شديد، ويضعون رجله في الحديد ويجرّدونه من الثياب، ويبطحونه في الرمضاء، ويضعون على ظهره صخرة حتى لا يتحرك، فكان يبقى كذلك حتى لا يعقل، وبقي هذا حاله حتى هاجر الهجرة الثانية إلى الحبشة، ومن أشهر قصص التعذيب وبطش قريش بالمسلمين قصّة آل ياسر «﵃» فكان المشركون وعلى رأسهم أبو جهل يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بِحَرِّها، فمرَّ بهم النبي ﷺ وهم يُعذَّبون فقال: «صبراً آل ياسر، فإنَّ موعدكم الجنة» ، ثمَّ بعد ذلك مات ياسر

(١) مسند أحمد بإسناد حسن، وقد صححه الحاكم ووافقه الذهبي.
(٢) صحيح مسلم.
(٣) مصنف ابن أبي شيبة: ١٧/ ٣٤، بإسناد صحيح.

من العذاب، وطعن أبو جهل سمّية أم عمّار بحربة فماتت - وهي أول شهيدة في الإسلام -، وشدّدوا العذاب على عمّار حتى كان يفقد وعيه من العذاب، وقالوا له: لا نتركك حتى تسب محمداً، أو تقول في اللات والعزى خيراً، فوافقهم على ذلك مُكْرَهاً، وجاء معتذراً إلى النبي ﷺ، فأنزل الله : ﴿مَن كَفَرَ بِاللهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ﴾الآية [النحل: ١٠٦].

وكان خبّاب بن الأرت مولى لأمِّ أنمار بنت سِباع الخزاعية، وكان حدّاداً، فلمّا أسلم عذبته مولاته بالنار، كانت تأتى بالحديدة المحماة فتجعلها على ظهره أو رأسه، ليكفر بمحمد ﷺ، فلم يكن يزيده ذلك إلا إيمانًا وتسليماً، وكان المشركون أيضاً يعذبونه فيلوون عنقه، ويجذبون شعره، وقد ألقوه على النار، ثمَّ سحبوه عليها، فما أطفأها إلا وَدَكَ ظهره.

عن خباب بن الأرت رضي الله عنه قال شكونا إلى رسول الله ﷺ وهو متوسد بردة له في ظلِّ الكعبة فقلنا: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فقال: قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله لَيَتِمَنَّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله، والذئبَ على غنمه، ولكنّكم تستعجلون [(١)].

وقد روى مسلم في صحيحه عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن قال: حلفت أم سعد أن لا تكلمه أبدا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمت أن الله وصاك بوالديك، وأنا أمك، وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثا حتى غشي عليها من الجهد، فقام ابن لها يقال له عمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسنا وإن جاهداك على أن تشرك بى﴾ وفيها﴿وصاحبهما فى الدنيا معروفاً﴾.

---

(١) رواه البخاري.

وفي رواية أنَّ سعداً ﵁ **قال لأمّه:** تعلمين والله لو كانت لك مائة نفس، فخرجت نفساً نفساً، ما تركت ديني هذا لشيء، إنْ شئتِ فكلي، وإن شئت فلا تأكلي [1].

يقول الشهيد سيد قطب ﵀: لقد ولدت الحركة الإسلامية في مكة على محكِّ الشدة، فلم تكد الجاهلية - ممثلة في قريش - تحسُّ بالخطر الحقيقي الذي يتهددها من دعوة: «أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدا رسول الله» وما تمثله من ثورة على كل سلطان أرضي لا يستمد من سلطان الله، ومن تمرد نهائي على كل طاغوت في الأرض والفرار منه إلى الله، ثَّم بالخطر الجدّي من التجمع الحركي العضوي الجديد الذي أنشأته هذه الدعوة تحت قيادة رسول الله ﷺ هذا التجمع الذي يدين منذ اليوم الأول بالطاعة لله، ولرسول الله ويتمرد ويخرج على القيادة الجاهلية الممثلة في قريش والأوضاع السائدة في هذه الجاهلية.

لم تكد الجاهلية - ممثلة في قريش أول الأمر - تُحِسُّ بهذا الخطر وذاك حتى شنَّتها حرباً شعواء على الدعوة الجديدة، وعلى التجمع الجديد، وعلى القيادة الجديدة، وحتى أرصدت لها كل ما في جعبتها من أذى ومن كيد ومن فتنة ومن حيلة.

لقد انتفض التجمع الجاهلي ليدفع عن نفسه الخطر الذي يتهدد وجوده بكل ما يدفع به الكائن العضوي خطر الموت عن نفسه، وهذا هو الشأن الطبيعي الذي لا مفر منه كلّما قامت دعوة إلى ربوبية الله للعالمين، في مجتمع جاهلي يقوم على أساس من ربوبية العباد للعباد، وكلّما تمثلت الدعوة الجديدة في تجمع حركي جديد، يتبع في تحركه قيادة جديدة، ويواجه التجمع الجاهلي القديم مواجهة النقيض للنقيض.

وعندئذ تعرّض كل فرد في التجمع الإسلامي الجديد للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان، ويومئذ لم يكن يُقدِم على شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، والانضمام إلى التجمع الإسلامي الوليد، والدينونة لقيادته الجديدة، إلا كل من نَذَرَ نفسه لله، وتهيّأ لاحتمال الأذى والفتنة

---

(١) (٢) البداية والنهاية: ٣/ ١٦٠٦.

والجوع والغربة والعذاب، والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان.

بذلك تكوّنت للإسلام قاعدة صلبة من أصلب العناصر عوداً في المجتمع العربي، فأمّا العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فُتِنَت عن دينها وارتدّت إلى الجاهلية مرة أخرى، وكان هذا النوع قليلاً فقد كان الأمر كلّه معروفاً مكشوفاً من قبل، فلم يكن يقدم ابتداء على الانتقال من الجاهلية إلى الإسلام، وقطع الطريق الشائك الخطر المرهوب، إلّا العناصر المختارة الممتازة الفريدة التكوين.

وهكذا اختار الله السابقين من المهاجرين من تلك العناصر الفريدة النادرة، ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين في مكة، ثمَّ ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك في المدينة مع السابقين من الأنصار، الذين وإن كانوا لم يصطلوها في أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون، إلّا أنَّ بيعتهم لرسول الله ﷺ (بيعة العقبة) قد دلت على أنَّ عنصرهم ذو طبيعة أصيلة مكافئة لطبيعة هذا الدين. [١]

وممّن أَسْلَمنَ من الإماء زِنِّيرَة والنّهدية وابنتُها وأمُّ عبيس، وكان المشركون يسومونهنَّ سوء العذاب، وأسلمت جارية لبني مؤمل من بني عدي، فكان عمر بن الخطاب يعذبها وهو يومئذ على الشرك فكان يضربها حتى يفتر، ثمَّ يدعها ويقول: والله ما أدعك إلا سآمة، فتقول : كذلك يفعل بك ربك.

وقد ابتاع أبو بكر رضي الله عنه هؤلاء الجواري فأعتقهن كما أعتق بلالاً وعامر بن فهيرة.

وكان المشركون يَلفُّون بعض الصحابة في إهاب [٢] الإبل والبقر ثمَّ يلقونه في حرّ الرمضاء، ويُلبِسون بعضهم درعاً من الحديد ثمَّ يلقونه على صخرة ملتهبة.

قريش تلجأ إلى المطالبة بالمعجزات لإثبات النبوة

لجأت قريش بعد ذلك إلى محاولة إحراج الرسول ﷺ وتحدّيه، وذلك بمطالبته

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.
(٢) الإهاب: الجلد.

بمعجزات تثبت نبوته، فطلبوا منه أن يجعل لهم جبل الصفا ذهباً، فلم يفعل ﷺ خوفاً عليهم من العذاب الأليم إذا هم لم يؤمنوا إذا تحققت المعجزة، ولكن وأمام إلحاحهم بطلب المعجزات أراهم ﷺ القمر شقتين حتى رأوا جبل حراء بينهما [١]، ومع ذلك لم يؤمنوا واتهموا النبي ﷺ بالسحر.

ثمَّ لجأت قريش بعد ذلك إلى طريقة الجدال مع النبي ﷺ لدحض الحق الذي جاء به، فسألوه عن الروح، فنزلت ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾، ثمَّ اتّهموا رسول الله ﷺ بأخذ القرآن من الأعاجم ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلّمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسانٌ عربيٌ مبين﴾ [النحل: ١٠٣]، وكذلك جادلوا في نزول القرآن منجّماً قائلين: ﴿لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ وقد بيّن الله تعالى علّة ذلك بقوله: ﴿كذلك لنثبّت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً﴾ [الفرقان: ٣٢]، وجادلوا رسول الله ﷺ في عقيدة البعث وأكثروا فيها الجدل ﴿أئذا متنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا لمبعوثون﴾ [الصافات: ١٦]، حتى جاء العاص بن وائل بعظم بالٍ إلى رسول الله ﷺ فتساءل ساخراً: إنْ كان الله يبعث ذلك العظم البالي!!، فقال له رسول الله ﷺ: «نعم، يبعث الله هذا، ثمَّ يميتك، ثمَّ يحييك، ثمَّ يدخلك نار جهنم»، فنزلت الآيات ﴿أولم يرَ الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾ [يس: ٧٧ إلى آخر السورة]. [٢]

وهكذا ازدادت وتيرة العنف ضد المسلمين مع الأيام، وتنوعت أساليب قريش في محاربة الدعوة وفي إيذاء المسلمين حتى أصبحوا في عزلة تامّة عن المجتمع القرشي، تحيطهم النظرات الغاضبة، والألسن الشاتمة، والأيدي المعتدية، كما بلغوا أقصى درجات الاستضعاف تحت وطأة بطش قريش، ومن هنا بدأ التفكير بالهجرة، وإيجاد مكان آخر للدعوة إلى الإسلام بعيداً عن مكّة.

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

السنة الخامسة من البعثة

الهجرة الأولى إلى الحبشة

بعد أن ازداد اضطهاد قريش للمسلمين وبلغ ذروته أواسط السنة الخامسة من البعثة، بدأ النبي ﷺ والمسلمون يفكّرون بإيجاد مَخْرَج ممّا هم فيه، وفي ذلك الوقت نزلت آيات سورة الكهف التي كان فيها الجواب حول الأسئلة التي طرحها سادة قريش على النبي ﷺ، وحاولوا أن يختبروه بها، لكن هذه الآيات ورد فيها ثلاث قصص كان فيها رسائل وإشارات عظيمة للمسلمين، فقصّة أصحاب الكهف تتحدث عن الهجرة وترك أرض الكفر والطغيان خشية الفتنة في الدين ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَما يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرفَقاً﴾ [الكهف: ١٦]، وقصة الخضر وموسى عليه السلام تبيّن للمسلمين أنَّ الأمور لا تؤخذ على ظاهرها، وأنَّ ما قد يبدو ويظهر على أنَّه شر مستطير قد يكون في حقيقته خيراً عظيماً، وقصة ذي القرنين تؤكد على أنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأنَّ الفلاح والرشاد إنّما يكون بسلوك سبيل الإيمان، واتباع طريق الحق، وأنَّ الله تعالى لا يتخلّى عن عباده وأنَّه يهيء لهم النجاة وسبلها التي يخفى عليهم زمانها ومكانها، يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: كذلك تعلمت أنَّ يد الله تعمل، ولكنّها تعمل بطريقتها الخاصة وأنَّه ليس لنا أن نستعجلها ولا أن نقترح على الله شيئاً. (١)

ثمَّ أنزل الله تعالى سورة الزُمَرْ التي تُشير إلى الهجرة ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ واسِعَةٌ إِنَّما يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لأنَّه علم أنَّ أصحمة النجاشي ملك الحبشة ملك عادلٌ لا يُظلَم عنده أحد.

(١) مقدمة الظلال.

وفي رجب سنة خمس من البعثة كانت الهجرة الأولى إلى الحبشة، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: لمّا كثر المسلمون، وخاف منهم الكفار، اشتد أذاهم له ﷺ، وفتنتهم إياهم، فأَذِنَ لهم رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة وقال: «إنَّ بها ملكاً لا يُظلم الناس عنده»، فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفّان، وهو أوّل مَنْ خرج ومعه زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار [1].

وتوجّه المهاجرون نحو البحر فهيّأ الله لهم سفينتين تجاريتين حملتهم نحو الحبشة، وحاولت قريش اللحاق بهم لكنّهم كانوا قد غادروا إلى الحبشة آمنين، وأقاموا فيها بأحسن جوار.

وذكر ابن هشام أنَّ ممّن هاجر إلى الحبشة أبو بكر الصديق رضي الله عنه حتى إذا بلغ بِرْك الغِماد ، لقيه ابن الدغنّة، وهو سيّد القارة، فقال: أين تريد يا أبا بكر؟ ، فقال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي، قال ابن الدغنّة: إنَّ مثلك يا أبا بكر لا يَخرُج ، ولا يُخرَج، إنّك تَكْسِب المعدوم، وتَصِل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق، فارجع فاعبد ربك ببلدك ، وأنا لك جار، فرجع أبو بكر مع ابن الدغنّة الذي أعلن في قريش جواره له، فوافقت قريش على أن يعبد أبو بكر ربه في داره ولا يستعلِن، فمضى وقت على ذلك، ثمَّ أخذ أبو بكر يجهر بقراءة القرآن في فناء داره فيجتمع نساء وأبناء المشركين يعجبون وينظرون إليه، وكان رجلاً بكّاءً لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن فأفزع ذلك قريشاً وطلبوا من ابن الدغنّة أنْ يكفَّه، فخيَّره ابن الدغنة بين الإسرار بعبادته أو أن يرد عليه جواره، فردّ أبو بكر عليه جواره قائلاً: إنِّي أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله.

وفي أعقاب الهجرة الأولى إلى الحبشة صلّى رسول الله ﷺ في المسجد الحرام، فقرأ سورة النجم وسجد في موضع السجود، فسجد كلُّ الحاضرين إلا اثنين منهم لم يسجدا استكباراً، فشاع أنَّ قريشاً قد أسلمت.

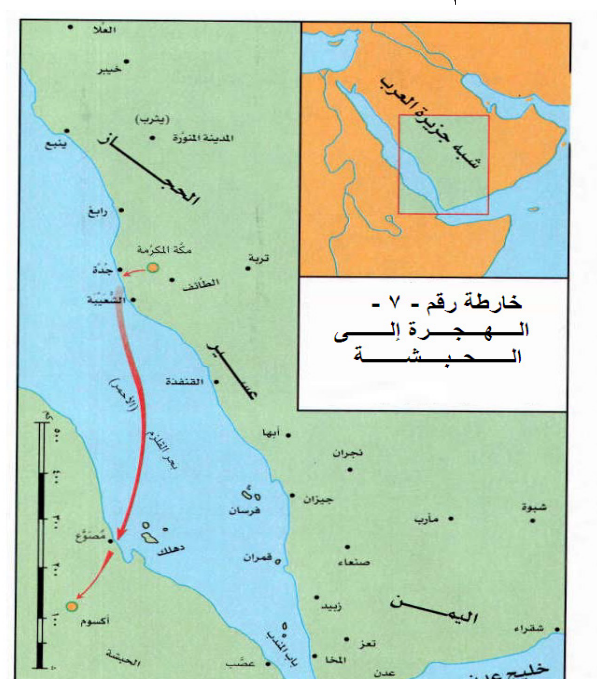
(١) زاد المعاد: ج١/ ٩٥.

ثمَّ بلغ المسلمين وهم بأرض الحبشة أنَّ أهل مكّة أسلموا فرجع ناس منهم عثمان بن مظعون إلى مكة في شوال فلم يجدوا ما أُخبِروا به صحيحاً، فرجعوا وسار معهم جماعة إلى الحبشة وهي الهجرة الثانية، ولم يدخل في مكّة من سائرهم أحد إلا مستخفياً، أو في جوار رجل من قريش.

الهجرة الثانية إلى الحبشة

اشتدَّ البلاء على المسلمين، وازداد اضطهاد قريش لهم، خصوصاً بعدما بلغها عن إحسان النجاشي إلى المسلمين، فأشار النبي ﷺ مرّة أخرى على أصحابه بأن يهاجروا إلى الحبشة، فهاجرت فرقة ثانية من المسلمين كانت أكبر بكثير من الفرقة التي هاجرت في المرة الأولى، حيث كانوا ثلاثة وثمانون رجلاً إن كان معهم عمّار «رضي الله عنه»، ففي هجرته خلاف، وثمان عشرة أو تسع عشرة امرأة.

وكانت هذه الهجرة أصعب من سابقتها حيث فطنت لها قريش وعملت على إحباطها لكنَّ الله نجّى عباده ويسَّر لهم السفر، فانحازوا إلى الحبشة قبل أن تُدركهم قريش.



خارطة رقم - ٧ - الهجرة إلى الحبشة

قريش تحاول استرجاع مهاجري الحبشة

قال ابن إسحاق: عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله ﷺ، قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار، فلمّا بلغ ذلك قريشاً، ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جَلِدَيْن، وأن يهدوا للنجاشي هدايا ممّا يُستطْرفُ من متاع مكة، ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثمَّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، فخرجا حتى قَدِما على النجاشي، ونحن عنده بخير دار، فلم يبق من بطارقته بطريق إلا دفعا إليه هديته قبل أن يكلّما النجاشي، وقالا لكل بطريق منهم: إنّه قد ضوى إلى بلد الملك منّا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاءوا بدين مبتدع، لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردّهم إليهم، فإذا كلمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا ولا يكلمهم، فإن قومهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، فقالوا لهما: نعم، ثمَّ إنّهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما، ثمَّ كلّماه، فغضب النجاشي، ثمَّ قال: لاها الله [1]، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاوروني، ونزلوا بلادي، واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عمّا يقول هذان في أمرهم، فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وإن كانوا على غير ذلك منعتهم منهما، وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

ثمَّ أرسل إلى أصحاب رسول الله ﷺ فدعاهم، فلمّا جاءهم رسوله اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا: نقول: والله ما عَلِمْنا، وما أمرنا به نبينا ﷺ كائناً في ذلك ما هو كائن، فلمّا جاءوا، وقد دعا النجاشي أساقفته، فقال للمسلمين: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا به في ديني، ولا في دين أحد من هذه الملل؟ قالت: فكان الذي كلّمه جعفر بن أبي طالب (رضوان الله عليه)، فقال له: أيها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام،

(١) قال الجوهري: ها للتنبيه وقد يقسم بها يقال: لاها الله ما فعلت كذا. فتح الباري.

ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنّا على ذلك، حتى بعث الله إلينا رسولاً منّا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام - قالت: فعدد عليه أمور الإسلام - فصدّقناه وآمنا به، واتبعناه على ما جاء به من الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئاً، وحرّمنا ما حرّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا، فعذبونا، وفتنونا عن ديننا، ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نستحلَّ ما كنا نستحلُّ من الخبائث، فلمّا قهرونا وظلمونا وضيّقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا أن لا نُظْلَم عندك أيها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله من شيء؟ قالت: فقال له جعفر: نعم، فقال له النجاشي: فاقرأه علي، قالت: فقرأ عليه صدراً من: ﴿كهيعص﴾ قالت: فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم، حين سمعوا ما تلا عليهم، ثمَّ قال لهم النجاشي: إنَّ هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، فلا والله لا أسلمهم إليكما، ولا يكادون.

قالت أمُّ سلمة رضي الله عنها: فلمّا خرجا من عنده، قال عمرو بن العاص: والله لآتينه غداً عنهم بما أستأصل به خضراءهم، قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة، وكان أتقى الرجلين فينا: لا تفعل، فإنَّ لهم أرحاماً، وإن كانوا قد خالفونا، قال: والله لأخبرنّه أنهم يزعمون أن عيسى ابن مريم عبد، قالت: ثمَّ غدا عليه من الغد فقال له: أيها الملك، إنّهم يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً، فأرسلْ إليهم فَسَلْهُم عمّا يقولون فيه، قالت: فأرسل إليهم ليسألهم عنه، قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط، فاجتمع

القوم، ثم قال بعضهم لبعض: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه؟ قالوا: نقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا، كائنا في ذلك ما هو كائن، قالت: فلمّا دخلوا عليه، قال لهم: ماذا تقولون في عيسى ابن مريم؟ قالت: فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ، يقول: هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت: فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً، ثم قال: والله ما عدا عيسى ابن مريم ما قلت هذا العود، قالت: فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله، اذهبوا فأنتم شيوم [١] بأرضي من سبَّكم غرم، ثمَّ قال: من سبَّكم غرم، ثمَّ قال: من سبَّكم غرم، ما أحب أنَّ لي دبراً [٢] من ذهب، وأنّي آذيت رجلاً منكم. [٣]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: إنَّه الأمر الجازم الحاسم للرسول ﷺ أنْ يبلغ ما أُنزل إليه من ربّه كاملاً، وألّا يجعل لأي اعتبار من الاعتبارات حساباً وهو يصدع بكلمة الحق، هذا، وإلّا فما بلغ وما أدّى وما قام بواجب الرسالة، والله يتولى حمايته وعصمته من الناس، ومن كان الله له عاصماً فماذا يملك له العباد المهازيل!

إنَّ كلمة الحق في العقيدة لا ينبغي أن تجمجم! إنّها يجب أن تُبلَّغ كاملة فاصلة، وليقل من شاء من المعارضين لها كيف شاء، وليفعل من شاء من أعدائها ما يفعل، فإنَّ كلمة الحق في العقيدة لا تَمْلَّقُ الأهواء، ولا تُراعي مواقع الرغبات، إنّما تراعي أن تصدع حتى تصل إلى القلوب في قوة وفي نفاذ.

وكلمة الحق في العقيدة حين تصدع تصل إلى مكامن القلوب التي يكمن فيها الاستعداد للهدى، وحين تُجَمْجَم لا تلين لها القلوب التي لا استعداد فيها للإيمان، وهي القلوب التي قد يطمع صاحب الدعوة في أن تستجيب له لو داهنها في بعض الحقيقة!

---

(١) أي آمنون.

(٢) دبراً: جبلًا

(٣) [سيرة ابن هشام / ج١: ٢٣٠ - ٢٣٢]

إنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين

وإذن فلتكن كلمة الحق حاسمة فاصلة كاملة شاملة، والهدى والضلال إنّما مناطهما استعداد القلوب وتفتحها، لا المداهنة ولا الملاطفة على حساب كلمة الحق أو في كلمة الحق!

إنَّ القوة والحسم في إلقاء كلمة الحق في العقيدة لا يعني الخشونة والفظاظة، فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة - وليس هنالك تعارض ولا اختلاف بين التوجيهات القرآنية المتعددة - والحكمة والموعظة الحسنة لا تجافيان الحسم والفصل في بيان كلمة الحق، فالوسيلة والطريقة إلى التبليغ شيء غير مادة التبليغ وموضوعه، والمطلوب هو عدم المداهنة في بيان كلمة الحق كاملة في العقيدة، وعدم اللقاء في منتصف الطرق في الحقيقة ذاتها. فالحقيقة الاعتقادية ليس فيها أنْصافُ حلول.

ومنذ الأيام الأولى للدعوة كان الرسول ﷺ يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة في طريقة التبليغ، وكان يفاصل مفاصلة كاملة في العقيدة، فكان مأموراً أن يقول: يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون، فيصفهم بصفتهم، ويفاصلهم في الأمر، ولا يقبل أنصافَ الحلول التي يعرضونها عليه، ولا يدهن فيدهنون، كما يَودُّون! ولا يقول لهم: إنّه لا يطلب إليهم إلا تعديلات خفيفة فيما هم عليه، بل يقول لهم: إنّهم على الباطل المحض، وإنّه على الحق الكامل، فيصدع بكلمة الحق عالية كاملة فاصلة، في أسلوب لا خشونة فيه ولا فظاظة...... وصاحب الدعوة لا يكون قد بلَّغ عن الله، ولا يكون قد أقام الحجة لله على الناس، إلّا إذا أبلغهم حقيقة الدعوة كاملة، ووصف لهم ما هم عليه كما هو في حقيقته، بلا مجاملة ولا مداهنة، فهو قد يؤذيهم إن لم يبين لهم أنهم ليسوا على شيء، وأنَّ ما هم عليه باطل كلّه من أساسه، وأنه هو يدعوهم إلى شيء آخر تماماً غير ما هم عليه، يدعوهم إلى نقلة بعيدة، ورحلة طويلة، وتغيير أساسي في تصوراتهم وفي أوضاعهم وفي نظامهم وفي أخلاقهم،

فالناس يجب أن يعرفوا مِنَ الداعية أين هم من الحق الذي يدعوهم إليه، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حي عن بينة، وحين يجمجم صاحب الدعوة ويتمتم ولا يبين عن الفارق الأساسي بين واقع الناس من الباطل وبين ما يدعوهم إليه من الحق، وعن الفاصل الحاسم بين حقه وباطلهم، حين يفعل صاحب الدعوة هذا – مراعاة للظروف والملابسات، وحذراً من مواجهة واقع الناس الذي يملأ عليهم حياتهم وأفكارهم وتصوراتهم – فإنّه يكون قد خدعهم وآذاهم، لأنّه لم يعرّفهم حقيقة المطلوب منهم كله، وذلك فوق أنّه يكون لم يُبَلِّغ ما كلفه الله تبليغه!

إنَّ التلطف في دعوة الناس إلى الله، ينبغي أن يكون في الأسلوب الذي يُبلِّغ به الداعية، لا في الحقيقة التي يبلغهم إياها، إنَّ الحقيقة يجب أن تبلغ إليهم كاملة، أمّا الأسلوب فيتبع المقتضيات القائمة، ويرتكز على قاعدة الحكمة والموعظة الحسنة.

ولقد ينظر بعضنا اليوم – مثلاً – فيرى أنَّ أهل الكتاب هم أصحاب الكثرة العددية وأصحاب القوة المادية، وينظر فيرى أصحاب الوثنيات المختلفة يعدون بمئات الملايين في الأرض، وهم أصحاب كلمة مسموعة في الشؤون الدولية، وينظر فيرى أصحاب المذاهب المادية أصحاب أعداد ضخمة وأصحاب قوة مدمّرة، وينظر فيرى الذين يقولون: إنّهم مسلمون ليسوا على شيء لأنهم لا يقيمون كتاب الله المنزل إليهم، فيتعاظمه الأمر، ويستكثر أن يواجه هذه البشرية الضالة كلها بكلمة الحق الفاصلة، ويرى عدم الجدوى في أن يبلغ الجميع أنهم ليسوا على شيء! وأن يبين لهم «الدين» الحق!

وليس هذا هو الطريق، إنَّ الجاهلية هي الجاهلية – ولو عمّت أهل الأرض جميعاً – وواقع الناس كله ليس بشيء ما لم يقم على دين الله الحق، وواجب صاحب الدعوة هو واجبه، لا تُغيِّره كثرة الضلال، ولا ضخامة الباطل، فالباطل ركام، وكما بدأت الدعوة الأولى بتبليغ أهل الأرض قاطبة أنَّهم ليسوا على شيء، كذلك ينبغي أن تستأنف، وقد استدار الزمان كهيئة يوم بعث الله رسوله ﷺ وناداه:

يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك - وإن لم تفعل فما بلغت رسالته - والله يعصمك من الناس. إن الله لا يهدي القوم الكافرين قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم. [١]

وفي الحبشة توفي عبيدالله بن جحش زوج أمِّ المؤمنين أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان، فخطبها رسول الله ﷺ وتزوجها وهي بالحبشة، زوَّجه إياها النجاشي ومَهَرها أربعة آلاف، ثمَّ جهّزها من عنده، وبعث بها مع شرحبيل بن حسنة، وجهازها كله من عند النجاشي، ولم يرسل إليها رسول الله ﷺ بشيء، وكانت مهور أزواج النبي ﷺ أربعمائة درهم. [٢]

وقد هاجر معظم مهاجرة الحبشة إلى المدينة بعد استقرار الإسلام فيها، وتأخّر جعفر بن أبي طالب ومن معه إلى فتح خيبر سنة ٧ هـ.

وقد انضم إلى المسلمين في الحبشة أبو موسى الأشعري مع جمع من قومه بلغوا ثلاثة وخمسين رجلاً وكانوا قد ركبوا سفينة يريدون الهجرة إلى المدينة حين بلغهم استقرار الوضع فيها لصالح الإسلام، فألقتهم الرياح إلى الحبشة، فالتحقوا بالمسلمين، ومكثوا معهم إلى أن عادوا جميعاً إلى المدينة حين افتتح المسلمون خيبر [٣].

وقد أسلم النجاشي، ولمّا مات صلّى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب كما في البخاري ومسلم وقال: مات اليوم العبد الصالح أصحمة.

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة المائدة.

(٢) رواه الحاكم وصححه وأقرّه الذهبي.

(٣) متفق عليه.

السنة السادسة من البعثة

إسلام حمزة رضي الله عنه

قال ابن إسحاق: حدثني رجل من أسلم، كان واعية: أنَّ أبا جهل مرَّ برسول الله ﷺ عند الصفا، فآذاه وشتمه، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله ﷺ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثمَّ انصرف عنه، فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً [١] قوسه، راجعاً من قَنَصٍ [٢] له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلّا وقف وسلّم وتحدث معهم، وكان أعزُّ فتى في قريش، وأشدّ شكيمة [٣]، فلمّا مرَّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله ﷺ إلى بيته، قالت له: يا أبا عُمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام، وجده هاهنا جالسا فآذاه وسبَّه، وبلغ منه ما يكره، ثمَّ انصرف عنه ولم يكلّمه محمد ﷺ.

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته، فخرج يسعى ولم يقف على أحد، مُعِداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به، فلمّا دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول؟ فرُدَّ ذلك عليَّ إن استطعت، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقال أبو جهل: دعوا أبا عُمارة، فإنّي والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً، وتمَّ حمزة رضي الله عنه على إسلامه، وعلى

---

(١) متقلّداً.

(٢) القنص: الصيد.

(٣) أَنَفَة.

ما تابع عليه رسول الله ﷺ من قوله، فلمّا أسلم حمزة عرفت قريش أنَّ رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأنَّ حمزة سيمنعه، فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه. [١]

عتبة بن ربيعة يفاوض النبي ﷺ

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن زياد، عن محمد بن كعب القرظي، قال: حدثت أنَّ عتبة بن ربيعة، وكان سيداً، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش، ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش، أَلَا أقوم إلى محمد فأكلمه، وأعرض عليه أموراً لعلَّه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء، ويكفَّ عنّا؟ وذلك حين أسلم حمزة، ورأوا أصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون، فقالوا: بلى يا أبا الوليد، قم إليه فكلِّمه، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا ابن أخي، إنّك مِنّا حيث قد علمت من السطّة[٢] في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به آلهتهم ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع منّي أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، قال: فقال له رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد، أَسمعْ، قال: يا ابن أخي، إن كنت إنّما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفا سوَّدناك علينا[٣]، حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[٤] تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنّه ربما

(١) ابن هشام: ج١ / ١٠٢ - ٢٠٢.
(٢) الشرف.
(٣) جعلناك سيداً علينا.
(٤) الرئي «بفتح الراء وكسرها»: ما يتراءى للإنسان من الجن.

غلب التابع[1] على الرجل حتى يُداوى منه، أو كما قال له، حتى إذا فرغ عتبة، ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم، قال: فاسمع منّي، قال: أفعل، فقال:﴿بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم - كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون - بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون - وقالوا قلوبنا في أكنّة مما تدعونا إليه﴾ ثمَّ مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلمّا سمعها منه عتبة، أَنصَتَ لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه، ثمَّ انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد ثمَّ قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فأنت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلمّا جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أنّي قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإنْ تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم[2].

وقد روى ابن كثير أنَّ قريشاً أرسلت عتبة بن ربيعة ليفاوض النبي ﷺ، فقال له عتبة: يا محمد أنت خير أم عبد الله؟ فسكت رسول الله ﷺ، فقال: أنت خير أم عبد المطلب؟ فسكت رسول الله ﷺ، قال: فإن كنت تزعم أنَّ هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإنْ كنت تزعم أنّك خير منهم فتكلّم حتى نسمع قولك، إنّا والله ما رأينا سخلة قط أشأم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وشتت أمرنا، وعبت ديننا،

(١) من يتبع الناس من الجن.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١/ ٢٠٢ - ٣٠٢.

وفضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أنَّ في قريش ساحراً، وأنَّ في قريش كاهناً، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى أنْ يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى نتفانى، أيها الرجل إنْ كان إنّما بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً، وإنْ كان إنما بك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشراً، فقال رسول الله ﷺ: فرغت؟، قال: نعم، فقال رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ إلى أن بلغ ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ٢ -١٣]، فقال عتبة: حسبك، ما عندك غير هذا؟، قال: لا، فرجع إلى قريش فقالوا: ما وراءك؟، قال: ما تركت شيئاً أرى أنّكم تكلمونه إلا كلمته، قالوا: فهل أجابك؟، فقال: نعم، ثمَّ قال: لا والذي نصبها بَنِيَّةً ما فهمت شيئاً ممّا قال غير أنّه أنذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، قالوا: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟، قال: لا والله ما فهمت شيئاً ممّا قال غير ذكر الصاعقة. (١)

فهذه صورة من وقع هذا الإنذار من فم رسول الله ﷺ على قلب رجل لم يؤمن!!.

ولا نترك هذه الرواية قبل أن نقف وقفة قصيرة أمام صورة رسول الله ﷺ وأدب النفس الكبيرة وطمأنينة القلب المؤمن، وهو يستمع من عتبة إلى هذه الخواطر الصغيرة التي يعرضها عليه، وقلبه مشغول بما هو أعظم، حتى لتبدو هذه الخواطر مقززة تثير الاشمئزاز، ولكن الرسول ﷺ يتلقاها حليماً، ويستمع كريماً، وهو مطمئن هادئ ودود، لا يعجل عتبة عن استكمال هذه الخواطر الصغيرة، حتى إذا انتهى قال في هدوء وثبات وسماحة: أفرغت يا أبا الوليد؟ فيقول: نعم، فيقول ﷺ: فاستمع مني، ولا يفاجئه بالقول حتى يقول: أفعل، وعندئذ يتلو ﷺ في ثقة وفي طمأنينة وفي امتلاء روح قول ربه لا قوله: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم- حم....﴾.

---

(١) البداية والنهاية: ج١/ ٤٩٣.

إنَّها صورة تلقي في القلب المهابة والثقة والمودة والاطمئنان، ومن ثمَّ كان يملك قلوب سامعيه، الذين قد يقصدون إليه أوّل الأمر ساخرين أو حانقين!) [١].

صلى الله عليه وسلّم، وصدق الله العظيم: الله أعلم حيث يجعل رسالته.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كان عمر بن الخطاب رجلاً شديداً ذا هيبة في قومه، وكان من أشرف قريش، وإليه كانت السفارة فِي الجاهلية، وذلك أنَّ قريشاً كانوا إِذَا وقع بينهم حرب، أَوْ بينهم وبين غيرهم، بعثوه سفيراً، وَإِن نافرهم منافر، أَو فاخرهم مفاخر، رضوا به، وبعثوه منافراً ومفاخراً [٢].

وكان شديد الإيذاء للمسلمين قبل أن يُسلم، روى البخاري في صحيحه عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: والله لقد رأيتني وإنَّ عمر لموثقي على الإسلام قبل أن يُسلم.

ولمّا كانت سنة ٦ من النبوة في ذي الحجة، وبعد ان أسلم حمزة بثلاثة أيام، أسلم عمر «رضي الله عنه»، وكان النبي ﷺ قد دعا ربه فقال: «اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ الرجلين إليك: بعمر بن الخطاب، أو بأبي جهل بن هشام» [٣]

قال ابن إسحاق: عن أمّ عبد الله بنت أبي حثمة، قالت: والله إنَّا لنترحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر (هو زوجها) في بعض حاجاتنا، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وهو على شِرْكِه، قالت: وكنّا نَلقى منه البلاء أذى لنا وشدّة علينا، قالت: فقال: إنّه للانطلاق يا أمَّ عبد الله، قالت: فقلت: نعم والله، لنخرجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله مخرجاً، قالت: فقال: صحبكم الله، ورأيت له رقّة لم أكن أراها، ثمَّ انصرف وقد أحزنه - فيما أرى - خروجنا، قالت: فجاء

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة فصِّلت.

(٢) أسد الغابة: ج٤/ ١٣٨.

(٣) رواه الترمذي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما وصححه.

عامر بحاجته تلك، فقلت له: يا أبا عبد الله، لو رأيت عمر آنفاً ورِقَّته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: فلا يسلم الذي رأيتِ حتى يُسلم حمار الخطاب، قالت: يأساً منه، لِمَا كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام. [١]

قال ابن إسحاق: وكان إسلام عمر فيما بلغني أنَّ أخته فاطمة بنت الخطاب، وكانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وكانت قد أسلمت وأسلم بعلها سعيد بن زيد، وهما مُسْتَخْفِيانِ بإسلامهما من عمر، وكان نعيم بن عبد الله النحام، رجل من قومه، من بني عدي بن كعب قد أسلم، وكان أيضا يستخفي بإسلامه فرقاً [٢] من قومه، وكان خَبّاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ وجماعة من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا، وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله ﷺ عمّه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، وعلي بن أبي طالب، في رجال من المسلمين ﭫ، ممن كان أقام مع رسول الله ﷺ بمكة، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة، فلقيه نعيم بن عبد الله، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ، الذي فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟!! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: ختنك [٣] وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما، وتابعا محمّداً على دينه، فعليك بهما، قال: فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه، وعندهما خَبّاب بن الأرت معه صحيفة، فيها: طه يقرئهما إياها، فلمّا سمعوا حسَّ عمر، تغيَّبَ خَبّاب في مخدع لهم، أو في بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة

(١) سيرة ابن هشام: ج١ / ٢٣٥ - ٢٣٦.
(٢) خوفاً.
(٣) الختن عند العرب: كل من كان من قِبَل المرأة كالأب والأخ، والمراد هنا المصاهرة.

فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلمّا دخل قال: ما هذه الهينمة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله، لقد أُخبرت أنّكما تابعتما محمّداً على دينه، وبطش بِخَتَنِه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها، فضربها فشجها، فلمّا فعل ذلك قالت له أخته وختنه: نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك، فلمّا رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى [١]، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون آنفا أنظر ما هذا الذي جاء به محمد، وكان عمر كاتباً [٢]، فلمّا قال ذلك، قالت له أخته: إنّا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها إليها، فلما قال ذلك، طمعت في إسلامه، فقالت له: يا أخي، إنّك نجس، على شركك، وإنّه لا يمسها إلّا الطاهر، فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وفيها: طه فقرأها، فلمّا قرأ منها صدراً، قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، فلمّا سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: يا عمر، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنّي سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام، أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك عمر: فدُلَّني يا خَبّاب على محمد حتى آتيه فأُسلم، فقال له خباب: هو في بيت عند الصفا، معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه، ثمَّ عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فضرب عليهم الباب، فلمّا سمعوا صوته، قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف، فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحا السيف؟ فقال حمزة بن عبد المطلب: فأْذَنْ له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه، فقال رسول الله ﷺ: ائذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته، أو بمجمع ردائه، ثم جبذه به جبذة شديدة، وقال: ما جاء بك يا ابن

(١) أي: كفَّ عمّا كان يصنع

(٢) أي أنَّه كان يعرف القراءة والكتابة.

الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يُنزِل الله بك قارعة؟ فقال عمر: يا رسول الله، جئتك لأومن بالله وبرسوله، وبما جاء من عند الله، قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أنَّ عمر قد أسلم.

قال ابن إسحاق: وحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن ابن عمر، قال: لمّا أسلم أبي، عمر، قال: أي قريش أنقل للحديث؟ فقيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فغدا عليه، قال عبد الله بن عمر: فغدوت أتبع أثره، وأنظر ما يفعل، وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه، فقال له: أعلمت يا جميل أنّي قد أسلمت، ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتّبعه عمر، واتّبعت أبي، حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، وهم في أنديتهم حول الكعبة، ألا إنَّ عمر بن الخطاب قد صبأ، قال: و يقول عمر من خلفه: كذب، ولكنّي قد أسلمت، وشهدتُ أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمداً عبده ورسوله، وثاروا إليه، فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، قال: وطلح[1]، فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم، فأحلف بالله أنْ لو قد كنّا ثلاث مائة رجل لقد تركناها لكم، أو تركتموها لنا، قال: فبينما هم على ذلك، إذ أقبل شيخ من قريش عليه حلة حبرة [2]، وقميص موشى [3]، حتى وقف عليهم، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: صبأ عمر، فقال: فَمَهْ، رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا، خلّوا عن الرجل، قال: فوالله لكأنَّما كانوا ثوباً كشط عنه، قال: فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة: يا أبت، مَنْ الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت، وهم يقاتلونك؟ فقال: ذاك، أي بني، العاص بن وائل السهمي.

لقد صُعِقَت قريش بخبر إسلام فتاها وسفيرها عمر، حتى اجتمعوا على قتله،

(١) أي أعيا وتعب.
(٢) نوع من برود اليمن.
(٣) مُزَيَّن ومُزَخرف.

فقد روى البخاري عن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: بينما هو في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي، أبو عمرو، عليه حلة حبرة وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وهم حلفاؤنا في الجاهلية فقال له: ما بالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلوني إنْ أسلمت، قال: لا سبيل إليك، وبعد أن قالها أَمِنْتُ، فخرج العاص فلقي الناس قد سال بهم الوادي فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد هذا ابن الخطاب الذي صبأ قال: لا سبيل إليه، فكرّ الناس.

وقد قوي المسلمون بإسلام عمر «رضي الله عنه»، يقول عبدالله بن مسعود: ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر [1].

وقال أيضاً: لقد رأيتنا وما نستطيع أنْ نصلّي بالبيت حتى أسلم عمر، فلمّا أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا نصلّي [2].

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) طبقات ابن سعد ج٣ / ٢٧٠ بإسناد صحيح.

السنة السابعة من البعثة

قريش تقاطع المسلمين

قال ابن إسحاق: فلمّا رأت قريش أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد نزلوا بلداً أصابوا به أمناً وقراراً، وأنَّ النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأنَّ عمر قد أسلم، فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله ﷺ وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم، وبني المطلب، على أن لا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً، ولا يبتاعوا منهم، فلمّا اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثمَّ علّقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم.

وقد كتب هذه الصحيفة بغيض بن عامر، فدعا عليه رسول الله ﷺ فشُلّت يده[1].

واستمر الحصار على المسلمين، وعلى مَن معهم من بني هاشم وبني المطلب ثلاثة أعوام من المحرّم من السنة السابعة من البعثة، وحتى المحرم من السنة العاشرة، وقد اشتدّ الأمر عليهم، وقطع عنهم الطعام، حتى صاروا يأكلون الحشائش والورق، وصار بكاء أطفالهم ونسائهم يُسمع من خارج الشِعْب، وازداد المشركون في إيذائهم فصاروا يبادرون في شراء ما يدخل إلى مكّة من طعام وبيع كي لا يشتريه أهل الشِعْب، وضيّقوا على أهل الشِعْب وحاصروهم فصاروا لا يخرجون منه إلّا في الأشهر الحرم فقط لشراء الحوائج فيزيدون في السعر عليهم حتى لا يستطيعون الشراء، وكانوا يمنعون من يريد إرسال الطعام لهم ويصدونهم، فتعرض أبو جهل لحكيم بن حزام الذي كان يحمل القمح لعمّته خديجة رضي الله عنها يريد منعه، فتدخل أبو البختري بينهما ومكّن لحكيم من إدخاله.

(١) صحيح البخاري.

وكان أبو طالب يخشى على النبي ﷺ فكان يأمره أن يضطجع على فراشه حتى يراه من يريد قتله، فإذا نام الناس أمر أبو طالب أحد أولاده أو بني عمه أن يضطجع في فراش النبي ﷺ فيأمن عليه.

وكان المسلمون يخرجون في أيام الموسم مع رسول الله ﷺ يدعون الناس إلى الإسلام.

السنة العاشرة من البعثة

حدثت في هذه السنة حوادث كثيرة، من أهمّها: فكُّ الحصار، ووفاة أبي طالب وخديجةرضي الله عنها، وهجرة النبي ﷺ إلى الطائف، والإسراء والمعراج، وعَرْضُ النبي ﷺ نفسه على القبائل، ودونك الكلام عن ذلك بالتفصيل:

فك الحصار

في المحرم من هذه السنة كان فك الحصار عن النبي ﷺ ومن معه، بعد ثلاث سنين من القطيعة والظلم، وكان سبب نقض الصحيفة فيما رواه ابن إسحاق أنَّ هشام بن عمرو مشى إلى زهير بن أبي أمية - وكانت أمّه عاتكة بنت عبد المطلب، فهو ابن عمّة رسول الله ﷺ - فقال: يا زهير، أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأخوالك حيث قد علمت، لا يباعون ولا يبتاع منهم، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم؟ أما إنّي أحلف بالله أنْ لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم، ما أجابك إليه أبداً، قال: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنّما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقضها حتى أنقضها، قال: قد وجدت رجلاً قال: فمن هو؟ قال: أنا، قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف[1]، وأنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه؟! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً، قال: ويحك فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قال: أنا، قال: أبغنا ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، قال: أبغنا رابعاً، فذهب إلى أبي البختري بن هشام، فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي،

(١) يعني بني هاشم وبني المطلب.

فقال: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال: نعم، قال: من هو؟ قال: زهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال: أبغنا خامساً، فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم، فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟ قال: نعم، ثم سمّى له القوم، فاتعدوا خطم الحجون [(١)] ليلاً بأعلى مكة، فاجتمعوا هنالك، فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام في الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير: أنا أبدؤكم، فأكون أول من يتكلم، قال ابن اسحاق: فلمّا أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حلة، فطاف بالبيت سبعاً، ثمَّ أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة؟ أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تُشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، قال أبو جهل - وكان في ناحية المسجد -: كذبت والله لا تُشقّ، قال زمعة بن الأسود: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حيث كتبت، قال أبو البختري: صدق زمعة، لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرُّ به، قال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها، قال هشام بن عمرو نحوا من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قُضي بليل، تشوور فيه بغير هذا المكان، قال: وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقّها، فوجد الأرضة قد أكلتها، إلّا باسمك اللهم، اهـ.

قال ابن هشام: وذكر بعض أهل العلم: أنَّ رسول الله ﷺ قال لأبي طالب: يا عم، إنَّ ربي الله قد سلَّط الأرضة على صحيفة قريش، فلم تدع فيها اسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منه الظلم والقطيعة والبهتان، فقال: أَربّكَ أخبرك بهذا؟ قال: نعم، قال: فوالله ما يدخل عليك أحد، ثمَّ خرج إلى قريش، فقال: يا معشر قريش، إنَّ ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلمَّ صحيفتكم، فإنْ كان كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، وانزلوا عما فيها، وإن يكن كاذبا دفعت إليكم ابن أخي، فقال القوم: رضينا، فتعاقدوا

(١) الحجون: موضع بأعلى مكة، وخطمه: مقدمه.

على ذلك، ثمَّ نظروا، فإذا هي كما قال رسول الله ﷺ فزادهم ذلك شرّاً، فعند ذلك صنع الرهط من قريش في نقض الصحيفة ما صنعوا [١].

تمَّ نقض الصحيفة وخرج رسول الله ﷺ ومَن معه من الشعب، وانتهى ذلك الحصار الظالم الجائر على بني هاشم وبني المطلب.

أَمْرُ وفد النصارى الذين أسلموا

قال ابن إسحاق: قَدِم على رسول الله ﷺ وهو بمكّة، عشرون رجلاً أو قريب من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره من الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه وكلّموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلمّا فرغوا من مسألة رسول الله ﷺ عمّا أرادوا، دعاهم رسول الله ﷺ إلى الله ﷻ وتلا عليهم القرآن، فلمّا سمعوا القرآن فاضت أعينهم من الدمع، ثمَّ استجابوا لله، وآمنوا به وصدّقوه، وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره، فلمّا قاموا عنه اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقالوا لهم: خيبكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدَّقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم، أو كما قال، فقالوا لهم: سلام عليكم، لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نألُ أنفسنا خيراً [٢].

استهزاء المشركين بالمسلمين

قال ابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ إذا جلس في المسجد، فجلس إليه المستضعفون من أصحابه خبّاب، وعمّار، وأبو فَكيهَة يسار مولى صفوان بن أمية بن محرث، وصهيب، وأشباههم من المسلمين، هزئت بهم قريش، وقال بعضهم

(١) سيرة ابن هشام: ج١ / ٢٥٦ - ٢٥٧.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١ / ٢٦٧.

لبعض: هؤلاء أصحابه كما ترون، أهؤلاء منَّ الله عليهم من بيننا بالهدى والحق، لو كان ما جاء به محمّد خيراً ما سبقنا هؤلاء إليه، وما خصهم الله به دوننا. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا: أيُّ الفريقين خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديّا﴾ [مريم: ٧٣]:

أيُّ الفريقين؟ الكبراء الذين لا يؤمنون بمحمد ﷺ؟ أم الفقراء الذين يلتفُّون حوله؟ أيُّ الفريقين؟ النضر بن الحارث وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة وأبو سفيان بن حرب؟ أم بلال وعمّار وصهيب وخبّاب؟ أفلو كان ما يدعو إليه محمد ﷺ خيراً أفكان أتباعه يكونون هم هؤلاء النفر، الذين لا سلطان لهم في قريش ولا خطر، وهم يجتمعون في بيت متواضع كدار الأرقم، ويكون معارضوه هم أولئك أصحاب الندوة الفخمة الضخمة، والمجد والجاه والسلطان؟!

إنَّه منطق الأرض، منطق المحجوبين عن الآفاق العليا في كل زمان ومكان، وإنَّها لحكمة الله أن تقف العقيدة مجردة من الزينة والطلاء، عاطلة من عوامل الإغراء، لا قربى من حاكم، ولا اعتزاز بسلطان، ولا هتاف بلذة، ولا دغدغة لغريزة، وإنَّما هو الجهد والمشقة والجهاد والاستشهاد، لُيقبل عليها مَن يُقبل، وهو على يقين من نفسه أنه يريدها لذاتها خالصة لله من دون الناس، ومِنْ دون ما تواضعوا عليه من قيم ومغريات، ولينصرف عنها مَن يبتغي المطامع والمنافع، ومَن يشتهي الزينة والأُبَّهة، ومَن يطلب المال والمتاع، ومَن يقيم لاعتبارات الناس وزناً حين تخِفُّ في ميزان الله [١].

(١) معالم في الطريق.

وفاة أبي طالب وخديجة رضي الله عنها

قال ابن إسحاق: ولمّا اشتكى أبو طالب، وبلغ قريشاً ثقله قالت قريش بعضها لبعض: إنَّ حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب، فليأخذ لنا على ابن أخيه، وليعطه منّا، والله ما نأمن أن يبتزّونا [١] أمرنا.

قال ابن إسحاق: فحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض أهله، عن ابن عباس، قال: مشوا إلى أبي طالب فكلّموه، وهم أشراف قومه: عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو جهل بن هشام، وأميّة بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، في رجال من أشرافهم، فقالوا: يا أبا طالب، إنّك منّا حيث قد علمت، وقد حضرك ما ترى، وتخوفنا عليك، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعه، فخذ له منّا، وخذ لنا منه، ليكفَّ عنّا، ونكفَّ عنّه، وليدعنا وديننا، ونَدَعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب، فجاءه فقال: يا ابن أخي، هؤلاء أشراف قومك، قد اجتمعوا لك، ليعطوك، وليأخذوا منك، قال: فقال رسول الله ﷺ: نعم، كلمة واحدة تعطونيها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم، قال: فقال أبو جهل: نعم وأبيك، وعشر كلمات، قال: تقولون: لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه، قال: فصفّقوا بأيديهم ثم قالوا: أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟! إنَّ أمرك لعجب، قال: ثمَّ قال بعضهم لبعض: إنَّه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم، حتى يحكم الله بينكم وبينه، قال: ثمَّ تفرقوا.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله لقد قال الرجل العربي - بفطرته وسليقته - حين سمع رسول الله ﷺ يدعو الناس إلى شهادة أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله: (هذا أمر تكرهه الملوك)، وقال له رجل آخر من العرب بفطرته وسليقته: (إذن

(١) أي: يسلبونا إياه ويغلبونا عليه.

تحاربك العرب والعجم)، لقد كان هذا العربي وذاك يفهم مدلولات لغته، كان يفهم أنَّ شهادة أن لا إله إلا الله ثورة على الحاكمين بغير شرع الله عرباً كانوا أم عجماً!، كانت لشهادة أنْ لا إله إلا الله جدّيتها في حس هؤلاء العرب، لأنهم كانوا يفهمون مدلول لغتهم جيداً، فما كان أحد منهم يفهم أنّه يمكن أن تجتمع في قلب واحد، ولا في أرض واحدة، شهادة أنْ لا إله إلا الله، مع الحكم بغير شرع الله! فيكون هناك آلهة مع الله! ما كان أحد منهم يفهم شهادة أنْ لا إله إلا الله كما يفهمها اليوم مَنْ يدْعُون أنفسهم «مسلمين» ذلك الفهم الباهت التافه الهزيل.[1]

وقال أيضاً: فهي المساومة إذن، والالتقاء في منتصف الطريق، كما يفعلون في التجارة، وفرق بين الاعتقاد والتجارة كبير! فصاحب العقيدة لا يتخلى عن شيء منها، لأنَّ الصغير منها كالكبير، بل ليس في العقيدة صغير وكبير، إنّها حقيقة واحدة متكاملة الأجزاء، لا يطيع فيها صاحبها أحداً، ولا يتخلى عن شيء منها أبداً.

وما كان يمكن أن يلتقي الإسلام والجاهلية في منتصف الطريق، ولا أن يلتقيا في أي طريق، وذلك حال الإسلام مع الجاهلية في كل زمان ومكان، جاهلية الأمس وجاهلية اليوم وجاهلية الغد كلها سواء، إنَّ الهُوّةَ بينها وبين الإسلام لا تُعبَر، ولا تُقام عليها قنطرة، ولا تقبل قسمة ولا صِلة، وإنّما هو النضال الكامل الذي يستحيل فيه التوفيق!

ولقد وردت روايات شتى فيما كان يدهن به المشركون للنبي ﷺ ليدهن لهم ويلين، ويترك سب آلهتهم وتسفيه عبادتهم، أو يتابعهم في شيء مما هم عليه ليتابعوه في دينه، وهم حافظون ماء وجوههم أمام جماهير العرب! على عادة المساومين الباحثين عن أنصاف الحلول! ولكنَّ الرسول ﷺ كان حاسماً في موقفه من دينه، لا يدهن فيه ولا يلين، وهو فيما عدا الدين ألين الخلق جانباً، وأحسنهم معاملة، وأبرّهم بعشيرة، وأحرصهم على اليسر والتيسير، فأمّا الدين فهو الدين! وهو فيه عند توجيه ربه: فلا تطع المكذبين!

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأعراف.

ولم يساوم ﷺ في دينه وهو في أحرج المواقف العصيبة في مكة، وهو محاصر بدعوته، وأصحابه القلائل يُتخطفون ويُعذَّبون ويُؤذَون في الله أشد الإيذاء وهم صابرون، ولم يسكت عن كلمة واحدة ينبغي أن تقال في وجوه الأقوياء المتجبرين، تأليفاً لقلوبهم، أو دفعاً لأذاهم، ولم يسكت كذلك عن إيضاح حقيقة تمسُّ العقيدة من قريب أو من بعيد. (١)

وفي الصحيح عن سعيد بن المسيب عن أبيه أنَّه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل بن هشام وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله ﷺ لأبي طالب: يا عم قل لا إله إلا الله كلمة أشهد لك بها عند الله، فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن مِلّة عبد المطلب؟، فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلّمهم: على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ: أما والله لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك، فأنزل الله تعالى فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قربى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾. (٢)

وروى أبو داود والنسائي عن علي رضي الله عنه قال: قلت للنبي ﷺ: إنَّ عمّك الشيخ الضال قد مات، قال: اذهب فوارِ أباك، ثمَّ لا تُحدثنَّ شيئاً حتى تأتيَني، فذهبت فواريته وجئته، فأمرني فاغتسلت ودعا لي.

وقد سأل العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه النبي ﷺ عن مصير أبي طالب فقال له: ما أغنيت عن عمّك فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟، فقال النبي ﷺ: هو في ضحضاح من نار ، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار (٣).

بعد وفاة أبي طالب بثلاثة أيام توفيت خديجة رضي الله عنها كما ذكر البيهقي، وقيل أنّها

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة القلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

ماتت بعد أبي طالب بشهرين، وقد لعبت خديجةﷺ دوراً مهماً في حياة النبي ﷺ وكانت له سنداً وعوناً.

عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة قد أتت معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربّها ومنّي وبشّرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب [١]

وعن عائشة ﷺ، قالت: ما غِرتُ على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرتُ على خديجة، وما رأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يُكثِر ذكرَها ، وربما ذبح الشاة ثمَّ يقطعها أعضاء ، ثمَّ يبعثها في صدائق خديجة، فربّما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة!، فيقول: إنّها كانت وكانت، وكان لي منها ولد. [٢]

وروى البخاري ومسلم عن عائشة ﷺ قالت: استأذنتْ هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاع [٣] لذلك فقال: اللهم هالة، قالت: فغرتُ فقلت: ما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدقين [٤] هلكت في الدهر قد أبدلك الله خيراً منها.

وفي رواية الإمام أحمد والطبراني أنَّ النبي ﷺ أجاب عائشة ﷺ فقال: ما أبدلني الله ﷻ خيراً منها، قد آمنتْ بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله ﷻ ولدها إذ حرمني أولاد النساء [٥].

وأما تفضيل خديجة على عائشة أو تفضيل عائشة على خديجة ﷺ» فالصحيح

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) أي فزع.
(٤) قال القرطبي: والذي عندي أنَّ المراد بذلك نسبتها إلى كبر السن، لأنَّ من دخل في سن الشيخوخة مع قوة في بدنه يغلب على لونه غالبا الحمرة المائلة إلى السمرة، كذا قال، والذي يتبادر أنَّ المراد بالشدقين ما في باطن الفم فكنَّت بذلك عن سقوط أسنانها حتى لا يبقى داخل فمها إلا اللحم الأحمر من اللثة وغيرها، وبهذا جزم النووي وغيره. فتح الباري.
(٥) وكان هذا قبل أن يولد إبراهيم ابن النبي ﷺ.

في ذلك التوقف، قال ابن كثير ﷫: والحق أنَّ كلًّا منهما لها من الفضائل ما لو نظر الناظر فيه لبهره وحيّره، والأحسن التوقف في ذلك.

وقد روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب ﷛ قال: قال رسول الله ﷺ: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» أي: خير نساء زمانها.

و عن أبي موسى الأشعري ﷛ قال: قال رسول الله ﷺ: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النّساء إلّا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام [١].

الزواج بسودة بنت زمعة ﵂

تزوجها النبي ﷺ بعد وفاة خديجة ﵂ فإنّه ﷺ لم يتزوج على خديجة في حياتها، فلمّا ماتت تزوج من سودة بنت زمعة، وكانت قبله عند السكران بن عمرو، وقد هاجرت مع زوجها إلى الحبشة، ثمَّ عادا إلى مكّة وتوفي زوجها، فتزوجها النبي ﷺ.

وقد تزوج النبي ﷺ عائشة بنت أبي بكر﵄ في هذه السنة وهي بنت ٦ سنين، وبنى بها في شوال سنة ١ هـ وهي بنت ٩ سنين [٢].

إيذاء قريش للنبي ﷺ بعد وفاة أبي طالب

روى ابن الجوزي بسنده عن ثعلبة بن صغير وحكيم بن حزام أنهما قالا: لمّا توفي أبو طالب وخديجة اجتمع على رسول الله ﷺ مصيبتان، ولزم بيته وأقلَّ الخروج، ونالت منه قريش ما لم تكن تنال ولا تطمع فيه، فبلغ ذلك أبا لهب فجاءه فقال: يا محمد امض لما أردت وما كنتَ صانعاً إذ كان أبو طالب حياً فاصنعه، لا

(١) متفق عليه.
(٢) صحيح البخاري.

واللات لا يوصل إليك حتى أموت، وسبَّ ابنُ الغيطلة رسولَ الله ﷺ فأقبل إليه أبو لهب فنال منه، فولّى يصيح: يا معشر قريش صبأ أبو عتبة، فأقبلت قريش حتى وقفوا على أبي لهب فقال: ما فارقتُ دين عبد المطلب، ولكنّي أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد، فقالوا: لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم، فمكث رسول الله ﷺ كذلك أياماً يأتي ويذهب لا يعرض له أحد من قريش، وهابوا أبا لهب، إذ جاء عقبة بن أبي معيط وأبو جهل إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟، فقال له أبو لهب: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟، قال: مع قومه، فخرج إليهما فقال: قد سألته فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنّه في النار، فقال: يا محمد، أيدخل عبد المطلب النار؟، فقال رسول الله ﷺ: ومَنْ مات على ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقال: أبو لهب - لعنه الله -: والله لا برحت لك إلّا عدواً أبداً وأنت تزعم أنَّ عبد المطلب في النار!!، واشتدّ عند ذلك أبو لهب وسائر قريش عليه. (١)

واعترض سفيه من سفهاء قريش، فنثر على رأسه تراباً، فدخل رسول الله ﷺ بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته، فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي، ورسول الله ﷺ يقول لها: لا تبكي يا بُنيَّة فإنَّ الله مانع أباك، قال: ويقول بين ذلك: ما نالت منّي قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب. (٢)

وقد ختم المشركون أذاهم لرسول الله ﷺ بمحاولة قتله في أواخر المرحلة المكية مما كان سبباً مباشراً للهجرة إلى المدينة، فعن ابن عباس قال: إنَّ الملأ من قريش اجتمعوا في الحجر، فتعاهدوا باللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، لو قد رأينا محمداً قمنا إليه قيام واحد، فلم نفارقه حتى نقتله، فأقبلت ابنته فاطمة تبكي، حتى دخلت على رسول الله ﷺ فقالت: هؤلاء الملأ من قريش قد تعاهدوا لو قد رأوك قاموا إليك فقتلوك، فليس منهم رجل إلا قد عرف نصيبه من دمك، قال:

(١) الوفا بأحوال المصطفى: ٢١٣.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١/ ٢٨٤.

«يا بنية أدلي وضوءاً»، فتوضأ ثم دخل عليهم المسجد، فلمّا رأوه قالوا: هذا هو، وخفضوا أبصارهم، وعُقِروا في مجالسهم، فلم يرفعوا إليه أبصارهم، ولم يقم إليه رجل منهم، فأقبل رسول الله ﷺ حتى قام على رؤوسهم، فأخذ قبضة من تراب فحصبهم بها وقال: «شاهت الوجوه»، فما أصابت رجلاً منهم حصاة إلا قتل يوم بدر كافراً [(١)]، وهذه الحادثة قد تكررت ليلة الهجرة، وكان رسول الله ﷺ يذكر ما لاقاه من أذى قريش - قبل أن ينال الأذى أحداً من أتباعه -، يقول: ولقد أُخِفْتُ في الله ﷻ وما يُخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولا لبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال. [(٢)]

الهجرة إلى الطائف

لمّا هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياته، فخرج ﷺ إلى الطائف ساعياً لإيجاد مركز جديد للدعوة وطالباً النصرة من ثقيف، والمنعة بهم من قومه، وراجياً أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷻ، فخرج إليهم ومعه مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه [(٣)]، وعمد إلى سادة ثقيف وأشرافهم فعرض عليهم الإسلام وكلّمهم بما جاءهم له من نصرته على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه، لكنهم لم يستجيبوا له، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموه - عليه السلام - وألجؤوه إلى حائط [(٤)] لعتبة وشيبة ابني ربيعة، وهما فيه، فعمد إلى ظل حَبَلة [(٥)] فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف، فلمّا اطمأن رسول الله ﷺ

---

(١) مسند أحمد بإسنادين صحيحين.
(٢) مسند أحمد وسنن الترمذي.
(٣) زاد المعاد: ج٣ / ٢٨.
(٤) بستان.
(٥) شجرة العنب.

قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلُني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك، أو يحل عليَّ سخطك، لك العتبى حتى ترضى [(١)]، ولا حول ولا قوة إلا بك».

فلمّا رآه ابنا ربيعة وما لقي تحرّكت له رَحمُهما [(٢)] فَدَعَوْا غلاماً لهما نصرانياً يقال له عدّاس، فقالا له: خذ قطفا من هذا العنب، فضعه في هذا الطبق، ثمَّ اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثمَّ أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، ثم قال له: كُلْ، فلمّا وضع رسول الله ﷺ فيه يده، قال: بسم الله، ثمَّ أكل، فنظر عداس في وجهه، ثمَّ قال: والله إنَّ هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد، فقال له رسول الله ﷺ: ومِنْ أَهل أيِّ البلاد أنت يا عداس، وما دينك؟ قال: نصراني، وأنا رجل من أهل نينوى، فقال رسول الله ﷺ: من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى، فقال له عداس: وما يدريك ما يونس بن مَتّى؟ فقال رسول الله ﷺ ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبي، فأكبَّ عداس على رسول الله ﷺ يُقبّل رأسه ويديه وقدميه قال: يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه: أمّا غلامك فقد أفسده عليك، فلمّا جاءهما عداس، قالا له: ويلك يا عداس مالك تقبّل رأس هذا الرجل ويديه وقدميه؟ قال: يا سيدي ما في الأرض شيء خير من هذا، لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلّا نبي، قالا له: ويحك يا عداس، لا يَصْرِفَنَّك عن دينك، فإنَّ دينك خير من دينه. [(٣)]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: إنَّ طريق الدعوة إلى الله شاق، محفوفٌ بالمكاره، ومع أنَّ نصر الله للحق آتٍ لا ريب فيه إلا أنَّ هذا النصر إنّما يأتي في موعده الذي

(١) أي أسترضيك حتى ترضى، يقال: استعتبته فأعتبني أي: استرضيته فأرضاني.
(٢) الرحم: الصلة والقرابة.
(٣) سيرة ابن هشام ج١ / ٢٨٦ - ٢٨٨.

يقدره الله وفق علمه وحكمته، وهو غيبٌ لا يعلم موعده أحد. [١]

وقد سألت عائشة رضي الله عنها النبيَ ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟، قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة[٢]إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم أستفق إلّا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إنَّ الله قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال، فسلّم عليّ ثمَّ قال: يا محمّد فقال ذلك فيما شئت، إنْ شئت أن أطبق عليهم الأخشبين [٣]، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً. [٤]

فلمّا نزل ﷺ بنخلة قام يصلّي من الليل، فصُرف إليه نفر من الجن فاستمعوا قراءته ولم يشعر بهم رسول الله ﷺ حتى نزل عليه: ﴿وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلمّا حضروه قالوا أنصتوا فلمّا قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا إنّا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم * يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم * ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٢]

وأقام بنخلة أياماً، فقال له زيد بن حارثة رضي الله عنه: كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ - يعني قريشاً - فقال: «يا زيد إنَّ الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً، وإنَّ الله ناصر دينه ومظهر نبيه». [٥]

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنعام.

(٢) المقصود عقبة بالطائف وليست عقبة مِنى التي اجتمع بها ﷺ مع الأنصار.

(٣) وهما جبلا مكة: أبو قبيس، والجبل الذي يقابله.

(٤) متفق عليه.

(٥) زاد المعاد: ج٣/ ٣٠.

ولمّا انصرف رسول الله ﷺ عن أهل الطائف، ولم يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، من تصديقه ونصرته صار إلى حراء، ثمَّ بعث إلى الأخنس بن شريق ليجيره، فقال: أنا حليف، والحليف لا يجير، فبعث إلى سهيل بن عمرو، فقال: إنَّ بني عامر لا تجير على بني كعب، فبعث إلى المُطْعِم بن عدي فأجابه إلى ذلك، ثمَّ تسلّح المطعم وأهل بيته، وخرجوا حتى أتوا المسجد، ثمَّ بعث إلى رسول الله ﷺ أنْ ادخل، فدخل رسول الله ﷺ، فطاف بالبيت، فأقبل أبو سفيان إلى المُطْعِم فقال: أمجير أو تابع [(١)]، قال: لا، بل مجير، قال: إذاً لا تُخفر، فجلس معه حتى قضى رسول الله ﷺ طوافه ثمَّ انصرف إلى منزله، وانصرفوا معه [(٢)].

وقد حفظ رسول الله ﷺ للمُطْعِم بن عدي هذا الصنيع فقال في أسارى بدر: لو كان المطعم بن عدي حياً، ثمَّ كلمني في هؤلاء النتنى لتركتهم له [(٣)].

الإسراء والمعراج

روى مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: أُتِيتُ بالبراق - وهو دابّة أبيض طويل فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه - فرَكِبْتُه، حتى أَتيتُ بيت المقدس، قال: فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، قال: ثمَّ دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ثمَّ خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال جبريل: اخترتَ الفطرة، ثمَّ عرج بنا إلى السماء، فاستفتح جبريل، فقيل من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعِث إليه؟ قال: قد بُعِث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بآدم فرَحَّبَ بي ودعا لي بخير، ثمَّ عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل عليه السلام فقيل من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه

(١) أي مسلم

(٢) سيرة ابن هشام ج١ / ٢٦٠، والبداية والنهاية: ج١ / ٥٣٨ - ٥٣٩.

(٣) رواه البخاري.

فَفُتح لنا، فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا، فرحَّبا ودعوا لي بخير، ثمَّ عرج بي على السماء الثالثة، فاستفتح جبريل، فقيل من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بيوسف إذا هو قد أُعطي شَطر الحسن، فرَحَّبَ ودعا لي بخير، ثمَّ عرج بي على السماء الرابعة، فاستفتح جبريل فقيل من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه فَفُتح لنا، فإذا أنا بإدريس فرَحَّبَ ودعا لي بخير، قال الله ﷻ: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧]، ثمَّ عرج بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح جبريل فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بهارون فَرَحَّبَ ودعا لي بخير، ثمَّ عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: قد بُعث إليه، فَفُتح لنا، فإذا أنا بموسى فرَحَّبَ ودعا لي بخير، ثمَّ عرج بنا إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، فقيل من هذا؟ قال: جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمّد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه فَفُتح لنا، فإذا أنا بإبراهيم مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثمَّ ذهب بي إلى سدرة المنتهى [1]، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، قال: فلمّا غشيها من أمر الله ما غشى تغيّرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حُسْنِها، فأوحى الله إليّ ما أوحى، ففرض عليّ خمسين صلاة، في كل يوم وليلة، فنزلتُ إلى موسى فقال: ما فرض ربك على أمتك؟ قلت: خمسين صلاة قال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف فإنَّ أمتك لا يطيقون ذلك، فإنّي قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم قال: فرجعت إلى ربي، فقلت يا رب خفف على أمتي، فحط عنّي خمسة، فرجعت إلى موسى فقلت: حَطَّ عنّي خمساً، قال: إنَّ أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك

(١) هي شجرة في أقصى الجنة، إليها ينتهي علم الأولين والآخرين ولا يتعدّاها.

فاسأله التخفيف قال: فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى حتى قال: يا محمّد، إنّهنَّ خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة، ومن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشراً، ومن هَمَّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال: فنزلتُ حتى انتهيتُ إلى موسى عليه السلام فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فأسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ: فقلت: قد رجعت إلى ربي حتى استحيت منه.

وفي رواية أخرى لمسلم: كان أبو ذر يُحدّث أنَّ رسول الله ﷺ قال: فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل، ففرج صدري ثمَّ غسله بماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغه في صدري ثمَّ أطبقه، ثمَّ أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء الدنيا فلمَّا جئت إلى السماء الدنيا قال جبريل لخازن السماء: افتح، قال: من هذا قال هذا جبريل، قال: هل معك أحد؟ قال: نعم معي محمد، فقال: أُرسِل إليه؟ قال: نعم، فلمّا فتح عَلَوْنا السماء الدنيا فإذا رجل قاعد على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة إذا نظر قبل يمينه ضحك، وإذا نظر قبل يساره بكى، فقال: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، قلت لجبريل: مَنْ هذا؟ قال: هذا آدم، وهذه الأسودة عن يمينه وشماله نسم بنيه، فأهل اليمين منهم أهل الجنة، والأسودة التي عن شماله أهل النار، فإذا نظر عن يمينه ضحك، وإذا نظر قِبَلَ شماله بكى، حتى عرج بي إلى السماء الثانية، فقال لخازنها: افتح، فقال له خازنها مثل ما قال الأول، ففتح، قال أنس: فذكر أنَّه وجد في السموات آدم وإدريس وموسى وعيسى وإبراهيم صلوات الله عليهم، ولم يثبت كيف منازلهم، غير أنَّه ذكر أنَّه وجد آدم في السماء الدنيا وإبراهيم في السماء السادسة....... قال ابن شهاب فأخبرني ابن حزم أنَّ ابن عباس وأبا حبة الأنصاري كانا يقولان قال النبي ﷺ: ثمَّ عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقلام. (١)

(١) هذه الرواية متفق عليها

وعن مالك بن صعصعة قال: قال نبيُّ الله ﷺ: بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان إذ سمعت قائلاً يقول: أحد الثلاثة بين الرجلين، فأتيت، فانطلق بي، فأتيت بطست من ذهب فيها من ماء زمزم فشرح صدري إلى كذا وكذا، قال قتادة: فقلت للذي معي: ما يعني؟ قال: إلى أسفل بطنه، فاستخرج قلبي فغسل بماء زمزم، ثمَّ أُعيد مكانه، ثمَّ حُشيَ إيماناً وحكمة، ثمَّ أُتيتُ بدابة أبيض يقال له البراق، فوق الحمار ودون البغل، يقع خَطْوُه عند أقصى طرفه، فحُمِلتُ عليه، ثمَّ انطلقنا حتى أتينا السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فقيل: مَنْ هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومَنْ معك؟ قال: محمد ﷺ، قيل: وقد بُعث إليه؟ قال: نعم، قال: ففتح لنا وقال: مرحبا به ولنعم المجيء جاء، قال: فأتينا على آدم ﷺ، وساق الحديث بقصته، وذكر أنَّه لقي في السماء الثانية عيسى ويحيى عليهما السلام، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون صلوات الله عليهم، قال: ثمَّ انطلقنا حتى انتهينا إلى السماء السادسة، فأتيت على موسى عليه السلام، فسلّمت عليه، فقال: مرحباً بالأخ الصالح والنبي الصالح، فلمّا جاوزته بكى، فنودي: ما يبكيك؟ قال: ربِّ هذا غلام بعثته بعدي يدخل من أمته الجنّة أكثر ممّا يدخل من أمتي، قال: ثمَّ انطلقنا حتى انتهينا إلى السماء السابعة، فأتيت على إبراهيم، وقال في الحديث: وحدَّثَ نبيُّ الله ﷺ أنّه رأى أربعة أنهار يخرج من أصلها نهران ظاهران ونهران باطنان، فقلت: يا جبريل، ما هذه الأنهار؟ قال: أمّا النهران الباطنان فنهران في الجنة، وأمّا الظاهران فالنيل والفرات، ثمَّ رفع لي البيت المعمور فقلت: يا جبريل، ما هذا؟ قال: هذا البيت المعمور، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا منه لم يعودوا فيه آخر ما عليهم، ثم أُتيتُ بإناءين أحدهما خمر، والآخر لبن، فعُرِضا عليَّ، فاخترت اللبن، فقيل: أصبت، أصاب الله بك أمتك على الفطرة، ثمَّ فُرضت عليَّ كل يوم خمسون صلاة، ثمَّ ذكر قصتها إلى آخر الحديث. (١)

وقد روى البخاري ومسلم أنَّ الرسول ﷺ كان في المسجد الحرام، أو في

(١) رواه مسلم.

الحطيم أو الحجْر حين شُقَّ صدره وغُسل قلبه، وقد ذكر الحافظ ابن حجر في فتح الباري أنّه يمكن الجمع بين الروايات بأنَّه كان في بيته ثمَّ جاء به جبريل إلى المسجد الحرام[1]، ثمَّ ركب فنزل بالمسجد الأقصى، وهناك صلّى بالأنبياء إماماً، وربط البراق بحلقة باب المسجد.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فلمّا أصبح رسول الله ﷺ في قومه، أخبرهم بما اراد الله ﷻ من آياته الكبرى، فاشتدَّ تكذيبهم له وأذاهم وضراوتهم عليه، وسألوه أن يصف لهم بيت المقدس، فجلّاه الله له حتى عاينه، فطفق يخبرهم عن آياته ولا يستطيعون أن يردوا عليه شيئاً، وأخبرهم عن عيرهم في مسراه ورجوعه، وأخبرهم عن وقت قدومها، وأخبرهم عن البعير الذي يقدمها، وكان الأمر كما قال، فلم يزدهم ذلك إلّا نفوراً، وأبى الظالمون إلّا كفوراً. [2]

تقول عائشة رضي الله عنها: لمّا أُسري بالنبيِّ ﷺ إلى المسجد الأقصى، أصبح يتحدث الناس بذلك، فارتدَّ ناس ممن كانوا آمنوا به وصدّقوه، وسَعَوْا بذلك إلى أبي بكر رضي الله عنه، فقالوا: هل لك في صاحبك؟ يزعم أنه أسري به في الليل إلى بيت المقدس، قال: أَوَ قال ذلك؟ قالوا: نعم، قال: لئن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وتصدقه أنّه ذهب الليلة إلى بيت المقدس، وجاء قبل أن يصبح؟ قال: نعم، إنّي لأصدقه بما هو أبعد من ذلك، أُصَدُّقه بخبر السماء في غدوة أو روحة، فلذلك سُمّي أبو بكر الصدّيق. [3]

قلت: وقعت حادثة شقّ الصدر للنبي ﷺ مرتين: مرة في بادية بني سعد، وكان عمره ٤ سنوات، والثانية في حادثة الإسراء والمعراج.

وقد رأى النبيُّ ﷺ ضمن هذه الرحلة أموراً عديدة غير التي مرَّت معنا سابقاً، وهي:

(١) فتح الباري: ٧/ ٢٠٤.
(٢) زاد المعاد: ج٣ / ٣٥.
(٣) رواه الحاكم، وعبدالرزاق في المصنّف، والآجري.

رأى مالكاً خازن النار، وهو لا يضحك، وليس على وجهه بشر ولا بشاشة، وكذلك رأى الجنّة والنّار ، ورأى أكلة أموال اليتامى ظلماً لهم مشافر [١] كمشافر الإبل، يقذفون في أفواههم قطعاً من نار كالأفهار، فتخرج من أدبارهم.

ورأى أكلة الربا لهم بطون كبيرة لا يستطيعون بسببها أن يتحركوا من أماكنهم، ويمر بهم آل فرعون حين يعرضون على النار فيطأونهم.

ورأى الزناة بين أيديهم لحم سمين طيب، إلى جنبه لحم غث منتن، يأكلون من الغث المنتن، ويتركون الطيب السمين .

ورأى النساء اللّاتي يدخلن على الرجال مَنْ ليس مِنْ أولادهم، وهنَّ معلّقات من أثدائهن.

ووصف نهر الكوثر في الجنّة، وأنَّ حافتيه قباب لؤلؤ مجّوف، وطينه مسك أثفر[٢]، وقد سُئل رسول الله ﷺ إن كان قد رأى ربه فقال: نور أنى أراه [٣]، ووصف رؤيته لجبريل لما دنا منه، وأنَّ له ستمائة جناح. [٤]

ورأى في المعراج عذاب الذين يغتابون الناس فإذا لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم [٥]

وقد قال النبي ﷺ لأهل مكّة حين سألوه عن آية صدقه: آية ذلك أنّي مررت بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، فأنفرهم حس الدابة، فندَّ لهم بعير، فدللتهم عليه، وأنا موجه إلى الشام، ثمَّ أقبلت حتى إذا كنت بضجنان مررت بعير بني فلان، فوجدت القوم نياماً، ولهم إناء فيه ماء قد غطّوا عليه بشيء، فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ثمَّ غطيت عليه كما كان، وآية ذلك أنَّ عيرهم الآن يصوب من البيضاء ثنية التنعيم يقدمها جمل أورق، فابتدر القوم الثنية فلم يلقهم أول من الجمل كما وصف لهم،

---

(١) شفاه

(٢) صحيح البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) مسند أحمد وسنن أبي داود بإسناد صحيح.

وسألوهم عن الإناء، فأخبروهم أنَّهم وضعوه مملوءاً ماء ثمَّ غطوه، وأنّهم هبوا فوجدوه مغطى كما غطوه، ولم يجدوا فيه ماء، وسألوا الآخرين وهم بمكة، فقالوا: صدق والله، لقد أنفرنا في الوادي الذي ذكر، وندَّ لنا بعير، فسمعنا صوت رجل يدعونا إليه حتى أخذناه. (١)

وعندما أخبر رسول الله ﷺ قومه بما وقع معه من المعراج صدّقه المؤمنون وكذّبه المشركون قال ﷺ: «لقد رأيتني في الحجر وقريشٌ تسألني عن مسراي، فسألتني عن أشياء من بيت المقدس لم أثبتها، فكربت كربة ما كربت مثله قط، قال: فرفعه الله لي أنظر إليه، ما يسألوني عن شيء إلا نبأتهم به». (٢)

عَرْضُ رسول الله ﷺ الإسلام على القبائل والأفراد

لمّا عاد رسول الله ﷺ من الطائف استأنف دعوته للقبائل والأفراد، فكان يعرض نفسه في مواسم الحج على قبائل العرب يدعوهم إلى الإسلام ويسألهم أن يمنعوه حتى يُبلِّغ رسالة ربه، وكان أبو لهب يتبعه ويقول: أيها الناس لا يغرنّكم هذا عن دينكم ودين آبائكم. (٣)

وقد عرض رسول الله ﷺ نفسه على بني فزارة، وبني حنيفة، وبني سُليم، وبني عبس، وبني نضر بن هوازن، وبني ثعلبة بن عكابة، وكندة، وكلب، وغسان، وبني الحارث بن كعب، وبني عذرة، وقيس بن الحطيم، وبني محارب بن خصفة، ومرة، والحضارمة، وبني عامر بن صعصعة، فلم يستجب منهم أحد.

وهذه القبائل لم يكن عَرْض عليها الإسلام في سنة واحدة، بل كان ذلك ما بين السنة الرابعة إلى الهجرة، ولكنَّ القبائل التي لقيها النبي ﷺ قبل هجرة الطائف كان يعرض عليهم الإسلام فقط ولم يكن يطلب نصرة أو إيواء منهم، أمّا بعد هجرة الطائف فلم يعد رسول الله ﷺ يدعو القبائل إلى الإسلام فحسب كما كان يفعل

---

(١) سيرة ابن هشام: ج١/ ٢٧٤ - ٢٧٥.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه الحاكم في المستدرك وصححه ووافقه الذهبي.

سابقاً بل أصبح يطلب منها معونة ونصرة وإيواء

ومن القبائل التي عرض رسول الله ﷺ نفسه عليها بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله ﷻ، فقال له رجل منهم يقال له: بيحرة بن فراس: والله، لو أنّي أخذت هذا الفتى من قريش، لأكلت به العرب، ثمَّ قال: أَرَأَيْتَ إنْ نحن بايعناك على أمرك، ثمّ أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال: الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء، قال: فقال له: أَفتهدفُ نحورنا [1] للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟!!، لا حاجة لنا بأمرك، فأبوا عليه.

فلمّا صدر الناس رجعت بنو عامر إلى شيخ لهم، قد كانت أدركته السن، حتى لا يقدر أن يوافي معهم المواسم، فكانوا إذا رجعوا إليه حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم، فلمّا قَدِموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم، فقالوا: جاءنا فتى من قريش، ثمّ أحد بني عبد المطلب، يزعم أنّه نبي، يدعونا إلى أن نمنعه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا، قال: فوضع الشيخ يديه على رأسه ثمَّ قال: يا بني عامر، هل لها من تلاف؟!!، هل لذناباها من مطلب؟!! [2] والذي نفس فلان بيده، ما تقوّلها إسماعيلي قط [3]، وإنّها لحق، فأين رأيكم كان عنكم؟. [4]

من آمن بالنبي ﷺ من خارج مكّة

١- الطفيل بن عمرو الدوسي:

عن الطفيل بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت رجلاً شاعراً سيداً في قومي، فقَدِمتُ مكّة، فمشيت إلى رجالات قريش فقالوا: إنك امرؤ شاعر سيد، وإنّا قد خشينا أن يلقاك هذا الرجل فيصيبك ببعض حديثه، فإنّما حديثه كالسحر، فاحذره أن يُدخِل عليك وعلى قومك ما أدخل علينا، فإنّه فرَّق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وابنه،

---

(١) أي تصير هدفاً يُرمى.

(٢) هو مثل يُضرب لِمَا فات.

(٣) **أي: ما ادعى النبوة أحد من بني إسماعيل كاذباً.**

(٤) سيرة ابن هشام: ج١/ ٢٩٠.

فوالله ما زالوا يحدثوني شأنه وينهوني أن اسمع منه حتى قلت: والله لا أدخل المسجد إلا وأنا ساد أذنيَّ، قال: فعمدت إلى أذني فحشوتها كرسفاً [(١)] ثمَّ غدوت إلى المسجد، فإذا برسول الله ﷺ قائماً في المسجد، فقمت قريباً منه وأبى الله إلّا أنْ يُسمِعني بعض قوله، فقلت في نفسي: والله إنّ هذا للعجز، وإنّي امرؤ ثَبْت ما تخفى عليَّ الأمور حسنها وقبيحها، والله لأتسمعنَّ منه، فإن كان أمره رشداً أخذت منه وإلا اجتنبته، فنزعت الكرسفة، فلم أسمع قط كلاماً أحسن من كلام يتكلم به، فقلت: يا سبحان الله ما سمعت كاليوم لفظاً أحسن ولا أجمل منه، فلمّا انصرف تَبِعتُه فدخلت معه بيته فقلت: يا محمد، إنَّ قومك جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأخبرته بما قالوا، وقد أبى الله إلا أن أسمعني منك ما تقول، وقد وقع في نفسي أنّه حق، فاعرض عليَّ دينك، فعرض عليَّ الإسلام فأسلمت، ثم قلت: إنّي أرجع إلى دوس، وأنا فيهم مطاع وأدعوهم إلى الإسلام، لعلَّ الله أن يهديهم، فادعُ الله أن يجعل لي آية قال: "اللهم اجعل له آية تُعينُه"، فخرجتُ حتى أشرفت على ثنيّة قومي، وأبي هناك شيخ كبير، وامرأتي وولدي، فلمّا علوت الثنية وضع الله بين عيني نوراً كالشهاب يتراءاه الحاضر في ظلمة الليل، وأنا منهبط من الثنية، فقلت: اللهم في غير وجهي، فإنّي أخشى أن يظنّوا أنها مثلة لفراق دينهم، فتحول فوقع في رأس سوطي، قال: فأتاني أبي فقلت: إليك عنّي فلست منك ولست منّي، قال: وما ذاك؟، قلت: إنّي أسلمت واتبعت دين محمد، فقال أي بني ديني دينك، وكذلك أمّي فأسلما، ثمَّ دعوت دوساً إلى الإسلام فأبت عليَّ وتعاصت، ثمَّ قدمت على رسول الله ﷺ فقلت: غلب على دوس الزنى والربا فادع عليهم فقال: «اللهم اهدِ دوسا» [(٢)] [(٣)].

---

(١) الكرسف: القطن.

(٢) والحديث رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء الطفيل بن عمرو إلى النبي ﷺ فقال: إنَّ دوساً قد هلكت، عصت وأبت فادع الله عليهم، فقال: اللهم اهد دوساً وأتِ بهم) ثمَّ رجعتُ إليهم، وهاجر رسول الله ﷺ فأقمت من ظهرانيهم أدعوهم إلى الإسلام حتى استجاب منهم من استجاب، وسبقتني بدر وأحد والخندق، ثمَّ قدِمتُ بثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس، فكنت مع النبي ﷺ حتى فتح مكة فقلت: يا رسول الله ابعثني إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة حتى أحرقه، قال: أجل فاخرج إليه، فأتيتُ فجعلتُ أوقد عليه النار، ثمَّ قَدِمتُ على رسول الله ﷺ فأقمت معه حتى قُبِضَ. اهـ.

(٣) سير أعلام النبلاء / ترجمة الطفيل بن عمرو الدوسي.

وقد استشهد الطفيل رضي الله عنه في حروب الرِدّة يوم اليمامة.

روى مسلم في صحيحه عن جابر، أنَّ الطفيل بن عمرو الدوسي أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله هل لك في حصن حصين ومنعة، فأبى ذلك النبي ﷺ للذي ذخر الله للأنصار، فلمَّا هاجر النبي ﷺ إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه فاجتووا المدينة، فمرض، فجزع، فأخذ مشاقص له فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه وهيئته حسنة ورآه مغطيا يديه، فقال له: ما صنع بك ربك فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ فقال: ما لي أراك مغطياً يديك، قال: قيل لي: لن نُصلح منك ما أفسدت، فقصّها الطفيل على رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: اللهم ولِيَدَيْه فاغفر.

قلت: ما حصل مع الطفيل بن عمرو الدوسي حين قَدِم مكّة ووقوعه تحت تأثير الإعلام المكّي إلى الحد الذي جعله يضع القطن في أذنيه لكيلا يسمع رسول الله ﷺ!!! وهو اللبيب الفطن، يرسم لنا صورة مهمّة للدور الخطير الذي يلعبه الإعلام في الصراع بين الحق والباطل، فإذا كانت قريش التي لا تمتلك صحفاً ولا مجلّات ولا فضائيات ولا وسائل تواصل اجتماعي، قد استطاعت بإمكانياتها المتواضعة أن تصنع رأياً عامّاً في مكّة يقلب الحقائق رأساً على عقب، ويجعل عامّة الناس يرددون بلا وعي: محمّد ساحر، وشاعر، وكاهن، وكذّاب، ويفرّق بين المرء وزوجه، والقرآن أساطير الاولين اكتتبها فهي تُملى عليه بكرة وأصيلا، وأتباع محمد هم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، متهورون، أقول: إذا كانت قريش قد استطاعت أن تفعل كلَّ هذا بإعلامها المتواضع البسيط، فأي دور يمكن أن يلعبه الإعلام اليوم، وقد صار يمتلك إمكانيات مرعبة مكّنته من الوصول إلى الجماهير في كل وقت، وفي أي مكان، إنّه لم يعد إعلاماً ارتجالياً فوضوياً ساذجاً كما كان الإعلام القرشي، بل صار إعلاماً مؤسساتياً، مدروساً، موجّهاً بطريقة محسوبة وبعناية فائقة، تُنفق عليه المليارات من الدولارات سنوياً، ويعمل فيه مئات الآلاف من الكوادر المعدّة لهذا

الغرض، من مُقدّمي برامج ومُعدّيها ومصوّرين، ومُخرجين، ومهندسين، وفنيين، وممثلين، ومغنين، وغيرهم من الاختصاصات التي يحتاجها العمل الإعلامي، وقد صار العمل الإعلامي عند هؤلاء مهنة يعيشون بها، وبالتالي فهم ليسوا أحراراً فيما يقولون ويقدّمون كما يزعمون، لأنَّهم محكومون بالسياسة الإعلامية للمؤسسة التي يعملون فيها، وعادةً ما تكون المؤسسات الإعلامية تابعة لحكومة أو حزب أو شخص، وبالتالي تدور السياسة الإعلامية لهذه المؤسسة الإعلامية أو تلك في فلك مصلحة تلك الدولة أو الحزب أو الشخص، وقد غطّى هؤلاء الإعلاميون سوآتهم بشعارات المِهنية، والإعلام الحر المستقل، وبشعارات أخرى، وهم يعلمون علم اليقين أنَّهم كاذبون، وأنَّهم أبواق وأدوات بيد من يدفعون لهم.

وما انفكَّ هؤلاء الإعلاميون المجرمون يحاولون تحطيم سمعة الموحدين المجاهدين في سبيل الله، من خلال كيل التهم لهم ونسبتهم إلى كل منقصة، وهم يعلمون علم اليقين أنَّ الموحدين المجاهدين برءاء من هذا الذي يقولون براءة المزن من شوائب الأرض.

إنّهم لا يملّون من القول عن المجاهدين أنَّهم تكفيريون، سفّاكو دماء، جهلة، الدين عندهم هو القتل وتجهّم الوجه وسوء الخُلُق والغدر والغلظة، يحفظون آيات العذاب وينسون آيات الرحمة، يحسنون القتال لكنّهم لا يحسنون بناء الدولة وقيادة الناس.

وإلى جانب ذلك روّج هؤلاء الإعلاميون المجرمون للكفر والشرك، وحاربوا التوحيد، فهم يدعون الناس إلى الديمقراطية، والدولة المدنية، والمساواة بين الناس بغض النظر عن دياناتهم، فالكل سواء أمام القانون وإخوة!!!، المسلم واليهودي والنصراني والعلماني والملحد، فالإنسانية والمواطنة هي التي ينبغي أن تجمعنا وليس الدين!!!.

ولم يكتفِ هؤلاء الإعلاميون بمحاربة التوحيد ونشر الشرك، وتشويه سمعة

المجاهدين، بل عملوا على تحطيم أخلاق المسلمين، رجالاً ونساءً وأطفالاً، من خلال الأفلام والأغاني والبرامج.

وبسبب الدور الخطير الذي يلعبه الإعلام فقد اعتُبرَ السلطة الرابعة بعد السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية.

وقد تعاظم دور الإعلام بشكل كبير جداً خاصّة بعد ظهور الفضائيات ووسائل التواصل الاجتماعي، وبتعاظم دوره تعاظم خطره أكثر من أي وقت مضى، ومَنْ أراد أن يكسب المعركة العسكرية فعليه أن يكسب المعركة الإعلامية أولاً.

٢- ضماد الأزدي ﷺ:

روى مسلم في صحيحه عن عبدالله بن عباس ﷺ أنَّ ضماداً قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يُرقّي من هذه الريح، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إنَّ محمّداً مجنون، فقال: لو أنّي رأيت هذا الرجل لعلَّ الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه فقال: يا محمّد إنّي أُرَقّي من هذه الريح، وإنَّ الله يشفي على يديَّ من شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنَّ محمداً عبده ورسوله، أما بعد:، قال: فقال: أَعِد علي كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ ثلاث مرات، قال: فقال لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر [١]، قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: وعلى قومك؟، قال: وعلى قومي، قال: فبعث رسول الله ﷺ سريّة فمرّوا بقومه، فقال صاحب السرية للجيش: هل أصبتم من هؤلاء شيئاً؟ فقال رجل من القوم: أصبت منهم مطهرة [٢]، فقال: ردّوها فإنَّ هؤلاء قوم ضماد.

(١) وفي رواية: قاموس البحر: أي وسطه.
(٢) هي كلُّ إناءٍ يُتَطَهَّر منه، كالإبريقِ والسَّطلِ وغيرِها.

٣- أبو ذر الغفاري رضي الله عنه:

روى البخاري في صحيحه عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا بلغ أبا ذر مبعث النبي صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركب إلى هذا الوادي فاعلم لي عِلْمَ هذا الرجل الذي يزعم أنّه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثمّ ائتني، فانطلق الأخ حتى قدمه وسمع من قوله ثمَّ رجع إلى أبي ذر فقال له: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق، وكلاماً ما هو بالشعر، فقال: ما شفيتني مما أردت، فتزوَّدَ وحمل شنة له فيها ماء حتى قدم مكة، فأتى المسجد فالتمس النبي صلى الله عليه وسلم ولا يعرفه، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل، فاضطجع، فرآه علي، فعرف أنّه غريب، فلمّا رآه تبعه فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح، ثمَّ احتمل قربته وزاده إلى المسجد وظل ذلك اليوم ولا يراه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أمسى فعاد إلى مضجعه، فمرَّ به عليّ فقال: أما نال للرجل أن يعلم منزله، فأقامه، فذهب به معه لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يوم الثالث فعاد عليّ على مثل ذلك، فأقام معه، ثمَّ قال: أَلَا تحدثني ما الذي أقدمك؟، قال: إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت، ففعل، فأخبره، قال: فإنّه حق، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أصبحت فاتبعني فإنّي إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء، فإن مضيت فاتْبَعني حتى تدخل مدخلي، ففعل فانطلق يقفوه حتى دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ودخل معه، فسمع من قوله وأسلم مكانه، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى قومك فأخبرهم حتى يأتيك أمري، قال: والذي نفسي بيده لأصرخنَّ بها بين ظهرانيهم، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أنْ لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله، ثمَّ قام القوم فضربوه حتى أضجعوه، وأتى العباس فأكبَّ عليه قال: ويلكم ألستم تعلمون أنَّه من غِفار؟ وأنَّ طريق تجاركم إلى الشام، فأنقذه منهم، ثمَّ عاد من الغد لمثلها فضربوه وثاروا إليه فأكبَّ العباس عليه.

٤- سويد بن صامت [١]:

كان قومه يسمّونه الكامل لجَلدهِ وشرفهِ ونَسبهِ، قَدِم سويد مكة حاجاً أو معتمراً فتصدى له رسول الله ﷺ حين سمع به، فدعاه إلى الله وإلى الإسلام، فقال له سويد: فلعلَّ الذي معك مثل الذي معي، فقال له رسول الله ﷺ: وما الذي معك؟ قال: مجلة لقمان - يعني حكمة لقمان - فقال له رسول الله ﷺ: اعرضها عليّ، فعرضها عليه، فقال له: إنَّ هذا لكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا، قرآن أنزله الله تعالى عليّ، هو هدى ونور، فتلا عليه رسول الله ﷺ القرآن، ودعاه إلى الإسلام، فلم يبعد منه، وقال: إنَّ هذا لقول حسن، ثم انصرف عنه، فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج، فإنَّه كان رجال من قومه ليقولون: إنّا لنراه قد قُتِل وهو مسلم، وكان قتله قبل يوم بعاث. [٢]

٥- إياس بن معاذ:

قال ابن إسحاق: عن محمود بن لبيد، قال: لمّا قدم أبو الحيسر، أنس بن رافع، مكة ومعه فتية من بني عبد الأشهل، فيهم إياس بن معاذ، يلتمسون الحلف من قريش على قومهم من الخزرج، سمع بهم رسول الله ﷺ، فأتاهم فجلس إليهم، فقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟ قال: أنا رسول الله بعثني إلى العباد، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا، وأنزل علي الكتاب، قال: ثمَّ ذكر لهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: فقال إياس بن معاذ، وكان غلاماً حدثاً: أي قوم، هذا والله خير مما جئتم له قال: فيأخذ أبو الحيسر، أنس بن رافع، حفنة من تراب البطحاء، فضرب بها وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك، فلعمري لقد جئنا لغير هذا، قال: فصمت إياس، وقام رسول الله ﷺ عنهم، وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج، قال: ثمَّ لم يلبث إياس بن معاذ أنْ هلك،

(١) وهو ابن خالة عبدالمطلب جد رسول الله ﷺ.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ج١/ ٢٩١ - ٢٩٢.

قال محمود بن لبيد: فأخبرني من حضره من قومه عند موته: أنّهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكّون أن قد مات مسلماً، لقد كان استشعر الإسلام في ذلك المجلس، حين سمع من رسول الله ﷺ ما سمع.[1]

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج/ ١: ٢٩٢ - ٢٩٣.

السنة الحادية عشرة من البعثة

إسلام الأنصار

وفي السنة الحادية عشرة من البعثة خرج رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار، فعرض نفسه على قبائل العرب، كما كان يصنع في كل موسم، فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الخزرج وهم: أبو أمامة أسعد بن زرارة، وعوف بن الحارث، ورافع بن مالك، وقطبة بن عامر بن حديدة، وعقبة بن عامر بن نابي، وجابر بن عبدالله، وكلّهم من الخزرج، فقال لهم رسول الله ﷺ: مَنْ أنتم؟ قالوا: نفر من الخزرج، قال: أَمِنْ موالي يهود؟ قالوا: نعم، قال: أفلا تجلسون أكلمكم؟ قالوا: بلى، فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن، قال: وكان ممّا صنع الله بهم في الإسلام، أنَّ يهود كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكانوا قد غزوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم: إنَّ نبياً مبعوث الآن، قد أظل زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلمّا كلّمَ رسول الله ﷺ أولئك النفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض: يا قوم، تعلمون والله إنَّه لَلنبي الذي توعدكم به يهود، فلا تسبقنّكم إليه، فأجابوه فيما دعاهم إليه، بأنْ صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام، وقالوا: إنَّا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، وتعرض عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعزَّ منك، ثمَّ انصرفوا عن رسول الله ﷺ راجعين إلى بلادهم، وقد أسلموا.

ولمّا قدموا المدينة ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، فلم يبقَ دارٌ من دور الأنصار إلّا وفيها ذكر لرسول الله ﷺ [1].

(١) سيرة ابن هشام: ج١/ ٢٩٣ - ٢٩٤.

السنة الثانية عشرة من البعثة

بيعة العقبة الأولى

حتى إذا كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً، الستة الأول خلا جابر بن عبدالله ومعهم معاذ بن الحارث وذكوان بن عبد قيس [١] وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، والعباس بن عبادة، وعويم بن ساعدة، وأبو الهيثم بن تيهان، فلقوه بالعقبة، فبايعوا رسول الله ﷺ على بيعة النساء [٢] وذلك قبل أن تفترض عليهم الحرب.

روى البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس: تبايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفّى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب في الدنيا فهو كفّارة له، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله، فأمره إلى الله إن شاء عاقبه وإن شاء عفا عنه، فبايعناه على ذلك.

فلمّا انصرف عنه القوم، بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه وأَمَرَهُ أن يُقرئهم القرآن، ويعلّمهم الإسلام، ويفقّههم في الدين، فكان مصعب يُسمى المقرئ بالمدينة.

خرج أسعد بن زرارة بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة، فدخل به حائطاً [٣] من حوائط بني ظفر، على بئر يقال لها: بئر مرق، فجلسا في الحائط، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم، وسعد بن معاذ وأسيد بن حضير يومئذ سيدا قومهما من بني عبد الأشهل،

(١) أقام بمكة ثمَّ هاجر فكان يقال أنّه مهاجري أنصاري.
(٢) أي لم يرد في بيعة العقبة الأولى ذكر القتال.
(٣) بستان.

وكلاهما مشرك على دين قومه، فلمّا سمعا به قال سعد بن معاذ لأُسيد بن حضير: لا أباً لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا، فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنَّه لولا أنَّ أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمت كفيتك ذلك، هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدماً، قال: فأخذ أُسيد بن حضير حربته، ثمَّ أقبل إليهما، فلمّا رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه، قال مصعب: إن يجلس أكلمه، قال: فوقف عليهما متشتّماً، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة، فقال له مصعب: أَوَ تجلس فتسمع، فإنْ رضيت أمراً قبلته، وإنْ كرهته كُفَّ عنك ما تكره، قال: أنصفت، ثمَّ ركز حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن، فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له: تغتسل فتطهر وتطهِّر ثوبيك، ثمَّ تشهد شهادة الحق، ثمَّ تُصلّي، فقام فاغتسل وطهَّر ثوبيه، وتشهّد شهادة الحق، ثمَّ قام فركع ركعتين، ثمَّ قال لهما: إنَّ ورائي رجلاً إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه، وسأرسله إليكما الآن، سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلمّا نظر إليه سعد بن معاذ مقبلاً، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أُسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمّا وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟ قال: كلَّمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأسا، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حُدِّثْتُ أنَّ بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه، وذلك أنهم قد عرفوا أنّه ابن خالتك، ليخفروك قال: فقام سعد مغضباً مبادراً، تخوفاً للذي ذكر له من بني حارثة، فأخذ الحربة من يده، ثمَّ قال: والله ما أراك أغنيت شيئاً، ثمَّ خرج إليهما، فلمّا رآهما سعد مطمئنين، عرف سعد أنَّ أسيداً إنّما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشّتماً، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة، أَمَا والله لولا

ما بيني وبينك من القرابة ما رُمْتَ هذا منّي، أتغشانا في دارنا بما نكره - وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أيْ مصعب، جاءك والله سيد من وراءه قومه، إنْ يتبعك لا يتخلّف عنك منهم اثنان - قال: فقال له مصعب: أَوَ تقعد فتسمع، فإنْ رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإنْ كرهته عزلنا عنك ما تكره؟ قال سعد: أنصفت، ثمَّ ركز الحربة وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله، ثم قال لهما: كيف تصنعون إذا أنتم أسلمتم ودخلتم في هذا الدين؟ قالا: تغتسل فتطهُر وتُطهِّر ثوبيك، ثمَّ تشهد شهادة الحق، ثمَّ تصلي ركعتين، قال: فقام فاغتسل وطهر ثوبيه، وتشهد شهادة الحق، ثمَّ ركع ركعتين، ثمَّ أخذ حربته، فأقبل عامداً إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، قال: فلمّا رآه قومه مقبلاً، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم، فلمّا وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة، قال: فإنَّ كلام رجالكم ونسائكم عليَّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله، قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً ومسلمة، ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة، فأقام مصعب عنده يدعو الناس إلى الإسلام، حتى لم تبقَ دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون إلّا ما كان من دار بني أميّة بن زيد، وخطمة، ووائل فقد تأخر إسلامهم إلى السنة الخامسة من الهجرة، وكذلك الأصيرم عمرو بن ثابت فإنّه تأخر إسلامه إلى يوم أحد، فأتى النبيَ ﷺ يوم أحد فقال: أقاتل أو أسلم؟، قال: أسلم ثمَّ قاتل، فأسلم ثمَّ قاتل فقُتل، فقال رسول الله ﷺ: عمل قليلاً وأجر كثيراً. (١) (٢)

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: إنَّ كلمة الدعوة حينئذ هي أحسن كلمة تقال في الأرض، وتصعد في مقدمة الكلم الطيب إلى السماء، ولكن مع العمل الصالح الذي

(١) متفق عليه.
(٢) سيرة ابن هشام: ج١/ ٢٩٤ - ٣٠٠.

يصدّق الكلمة، ومع الاستسلام لله الذي تتوارى معه الذات، فتصبح الدعوة خالصة لله ليس للداعية فيها شأن إلا التبليغ.

ولا على الداعية بعد ذلك أن تُتلقى كلمته بالإعراض، أو بسوء الأدب، أو بالتبجح في الإنكار، فهو إنّما يتقدم بالحسنة، فهو في المقام الرفيع، وغيره يتقدم بالسيئة، فهو في المكان الدون: ولا تستوي الحسنة ولا السيئة.

وليس له أن يَرُدَّ بالسيئة، فإنَّ الحسنة لا يستوي أثرها - كما لا تستوي قيمتها - مع السيئة، والصبر والتسامح، والاستعلاء على رغبة النفس في مقابلة الشر بالشر، يرد النفوس الجامحة إلى الهدوء والثقة، فتنقلب من الخصومة إلى الولاء، ومن الجماح إلى اللين: ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنَّه وليٌّ حميم.

وتصدق هذه القاعدة في الغالبية الغالبة من الحالات، وينقلب الهياج إلى وداعة، والغضب إلى سكينة، والتبجح إلى حياء، على كلمة طيبة، ونبرة هادئة، وبسمة حانية في وجه هائج غاضب متبجح مفلوت الزمام، ولو قوبل بمثل فعله ازداد هياجاً وغضباً وتبجحاً ومروداً وخلع حياءه نهائياً، وأفلت زمامه، وأخذته العزة بالإثم.

غير أنَّ تلك السماحة تحتاج إلى قلب كبير يعطف ويسمح وهو قادر على الإساءة والرد، وهذه القدرة ضرورية لتؤتي السماحة أثرها، حتى لا يُصوِّر الإحسان في نفس المسيء ضعفاً، ولئن أحس أنَّه ضعف لم يحترمه، ولم يكن للحسنة أثرها إطلاقاً.

وهذه السماحة كذلك قاصرة على حالات الإساءة الشخصية، لا العدوان على العقيدة وفتنة المؤمنين عنها، فأمّا في هذا فهو الدفع والمقاومة بكل صورة من صورها، أو الصبر حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وهذه الدرجة، درجة دفع السيئة بالحسنة، والسماحة التي تستعلي على دفعات الغيظ والغضب، والتوازن الذي يعرف متى تكون السماحة ومتى يكون الدفع

بالحسنى، درجة عظيمة لا يُلقّاها كل إنسان، فهي في حاجة إلى الصبر، وهي كذلك حظ موهوب يتفضل به الله على عباده الذين يحاولون فيستحقون: (وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم)

إنّها درجة عالية إلى حد أنَّ رسول الله ﷺ وهو الذي لم يغضب لنفسه قط، وإذا غضب لله لم يقم لغضبه أحد، قيل له - وقيل لكل داعية في شخصه -: (وإمّا ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنّه هو السميع العليم)، فالغضب قد ينزغ، وقد يلقي في الروع قلّة الصبر على الإساءة، أو ضيق الصدر عن السماحة، فالاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم حينئذ وقاية، تدفع محاولاته، لاستغلال الغضب، والنفاذ من ثغرته.

إنَّ خالق هذا القلب البشري، الذي يعرف مداخله ومساربه، ويعرف طاقته واستعداده، ويعرف من أين يدخل الشيطان إليه، يحوط قلب الداعية إلى الله من نزغات الغضب، أو نزغات الشيطان، مما يلقاه في طريقه مما يثير غضب الحليم.

إنَّه طريق شاق، طريق السير في مسارب النفس ودروبها وأشواكها وشعابها، حتى يبلغ الداعية منها موضع التوجيه ونقطة القياد!!!. [1]

وقبل حلول موسم الحج التالي - أي حجّ السنة الثالثة عشر - عاد مصعب إلى مكّة يحمل إلى النبي ﷺ بشائر دخول يثرب في الإسلام، وقد قام مصعب بمهمّته خير قيام وانتشر على يديه الإسلام.

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة فصلت.

السنة الثالث عشرة من البعثة

بيعة العقبة الثانية

عاد مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى مكة، وخرج بعض الأنصار المسلمين إلى الموسم مع حجاج قومهم من أهل الشرك، حتى قدموا مكة، فواعدوا رسول الله ﷺ العقبة، من أوسط أيام التشريق، وقد خرج العباس عمّ النبي ﷺ معه وكان لا يزال مشركاً، عن كعب بن مالك «رضي الله عنه» قال: ثمَّ خرجنا إلى الحج، وواعدنا رسول الله ﷺ بالعقبة من أوسط أيام التشريق، قال: فلمّا فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها، ومعنا عبدالله بن عمرو بن حرام أبو جابر، سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، أخذناه معنا، وكنّا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا، فكلمناه وقلنا له: يا أبا جابر، إنك سيد من ساداتنا، وشريف من أشرافنا، وإنّا نرغب بك عمّا أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثمَّ دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا العقبة، قال: فأسلم وشهد معنا العقبة، وكان نقيباً، قال: فنمنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ، نتسلل تسلل القطا [1] مستخفين، حتى اجتمعنا في الشِعْب عند العقبة، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً، ومعنا امرأتان من نسائنا: نُسيبة بنت كعب، أم عِمارة، وأسماء بنت عمرو، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ، حتى جاءنا ومعه عمّه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه، إلّا أنَّه أحبّ أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلمّا جلس كان أوّل متكلم العباس بن عبد المطلب، فقال: يا معشر الخزرج - قال: وكانت العرب إنّما يسمون هذا الحي من الأنصار: الخزرج، خزرجها وأوسها - إنَّ محمداً منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا، ممّن هو على مثل رأينا فيه، فهو في عِزٍّ من قومه ومَنَعةٍ في بلده، وإنّه قد أبى إلّا الانحياز إليكم، واللحوق بكم،

(١) القطا: ضرب من الحمام.

فإن كنتم ترون أنَّكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحمّلتم من ذلك، وإنْ كنتم ترون أنَّكم مُسلِموه وخاذِلُوه بعد الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه، فإنّه في عزٍّ ومنعة من قومه وبلده، قال: فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت، قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورغّب في الإسلام، ثمّ قال: أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم، قال: فأخذ البراء بن معرور بيده، ثم قال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما نمنع منه أزرنا [1] فبايعْنا يا رسول الله، فنحن والله أبناء الحروب، وأهلُ الحَلْقة ورِثْناها كابراً عن كابر، قال: فاعترض القول، والبراء يُكلّم رسول الله ﷺ، أبو الهيثم بن التيهان، فقال: يا رسول الله، إنَّ بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنّا قاطعوها - يعني اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منّي، أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم، قال ابن إسحاق: لمّا اجتمعوا للبيعة قال العباس بن عبادة بن نضلة: يا معشر الخزرج، هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ قالوا: نعم، قال: إنَّكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإنْ كنتم ترون أنَّكم إذا نهكت أموالكم مصيبة، وأشرافكم قتلاً أسلمتموه، فمن الآن، فهو والله إنْ فعلتم خزي الدنيا والآخرة، وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة (نقص) الأموال وقتل الأشراف، فخذوه، فهو والله خير الدنيا والآخرة، قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟، قال: الجنّة، قالوا: ابسط يدك. فبسط يده فبايعوه. [2]

وأخذ أسعد بن زرارة بيد رسول الله ﷺ فقال: رويداً يا أهل يثرب، فإنَّا لم نضربْ أكباد الإبل إلّا ونحن نعلم أنَّه رسول الله، وإنَّ إخراجه اليوم مفارقة العرب

(١) نساءنا.

(٢) سيرة ابن هشام: ج١ / ٣٠٥.

كافة، وقتل خياركم، وأن تعضَّكم السيوف، فإمّا أنتم قومٌ تصبرون على ذلك فخذوه وأجركم على الله، وإمّا انتم قومٌ تخافون من أنفسكم خيفة فبيّنوا ذلك، فهو أعذر لكم عند الله، قالوا: أَمِطْ عنّا يا أسعد فوالله لا ندع هذه البيعة ولا نسلبها أبداً. [١].

وقد كان رسول الله ﷺ قال: أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً، ليكونوا على قومهم بما فيهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً، تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس وهم: أسعد بن زرارة، وسعد بن الربيع، وعبدالله بن رواحة، ورافع بن مالك، والبراء بن معرور، وعبدالله بن عمرو بن حرام، وعبادة بن الصامت، وسعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو من الخزرج، وأسيد بن حضير، وسعد بن خيثمة، ورفاعة بن عبد المنذر من الأوس.

روى البخاري ومسلم عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره وأن لا ننازع الأمر أهله وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنّا لا نخاف في الله لومة لائم.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: وهكذا أخذوا الأمر بقوة، ومن ثمَّ فشا الإسلام في المدينة، حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله الإسلام.

وأخذ المسلمون في مكة يهاجرون إلى المدينة تباعاً، تاركين وراءهم كل شيء، ناجين بعقيدتهم وحدها، حيث لقوا من إخوانهم الذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم، من الإيثار والإخاء ما لم تعرف له الإنسانية نظيراً قط، ثمَّ هاجر رسول الله ﷺ وصاحبه الصديق، هاجر إلى القاعدة الحرة القوية الآمنة التي بحث عنها من قبل طويلاً، وقامت الدولة الإسلامية في هذه القاعدة منذ اليوم الأول لهجرة الرسول ﷺ[٢].

ويقول أيضاً: ولقد كان هؤلاء الذين يبايعون رسول الله هذه البيعة ولا يرتقبون

---

(١) رواه الإمام أحمد والطبراني، قال ابن كثير: وهذا إسناد جيد على شرط مسلم ولم يخرجوه. البداية والنهاية: ج١/ ٥٥٢.

(٢) في ظلال القرآن/ تفسير سورة البقرة.

من ورائها شيئاً إلّا الجنة، ويوثّقون هذا البيع، فيعلنون أنهم لا يقبلون أن يرجعوا فيه ولا أن يرجع فيه رسول الله ﷺ! يعلمون أنّهم لا يبايعون على أمر هيّن، بل كانوا مستيقنين أنَّ قريشاً وراءهم، وأنَّ العرب كلها سترميهم، وأنّهم لن يعيشوا في سلام مع الجاهلية الضاربة الأطناب من حولهم في الجزيرة، وبين ظهرانيهم في المدينة[١].

ويقول: فقد كان الأنصار إذن يعلمون – عن يقين واضح – تكاليف هذه البيعة، وكانوا يعلمون أنَّهم لم يوعدوا على هذه التكاليف شيئاً في هذه الحياة الدنيا – حتى ولا النصر والغلبة – وأنَّهم لم يوعدوا عليها إلّا الجنّة، ثمَّ كان هذا مدى وعيهم بها ومدى حرصهم عليها، فلا جرم أن يكونوا – مع السابقين من المهاجرين الذين بنوا هذا البناء وأعدوا هذا الإعداد – هم القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم أول العهد بالمدينة. [٢]

فلمّا تمّت هذه البيعة استأذن الأنصار رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل العقبة بأسيافهم فلم يأذن لهم في ذلك، وصرخ الشيطان على العقبة بأنفذ صوت سمع: يا أهل الجباجب [٣] هل لكم في مذمم والصباة [٤] معه قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال ﷺ: هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب، أما والله يا عدو الله لأتفرغنَّ لك، ثم أمرهم أن ينفضّوا إلى رحالهم، فلمّا أصبح القوم غدت عليهم جلة قريش وأشرافهم حتى دخلوا شعب الأنصار فقالوا: يا معشر الخزرج، إنّه بلغنا أنكم لقيتم صاحبنا البارحة وواعدتموه أن تبايعوه على حربنا، وأيّم الله ما حي من العرب أبغض إلينا من أن ينشب بيننا وبينه الحرب منكم، فانبعث من كان هناك من الخزرج من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان هذا وما عَلِمْنا، وجعل عبد الله بن أُبيْ بن سلول يقول: هذا

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.
(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة
(٣) المنازل.
(٤) الصباة: جمع صابئ، يعني المسلمين، وكانوا يقولون لمن أسلم: صبأ.

باطل وما كان هذا، وما كان قومي ليفتاتوا عليَّ مثل هذا، لو كنت بيثرب ما صنع قومي هذا حتى يؤامروني، فرجعت قريش من عندهم، ورحل البراء بن معرور فتقدم إلى بطن يأجج وتلاحق أصحابه من المسلمين، وتطلبتهم قريش فأدركوا سعد بن عبادة فربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، وجعلوا يضربونه ويجرونه ويجذبونه بجمته حتى أدخلوه مكة، فجاء مطعم بن عدي والحارث بن حرب بن أمية فخلَّصاه من أيديهم، وتشاورت الأنصار حين فقدوه أن يكروا إليه، فإذا سعد قد طلع عليهم، فوصل القوم جميعا إلى المدينة. (١)

هجرة الصحابة إلى المدينة

كان أبو سلمة بن عبد الأسد أول من هاجر من مكة إلى المدينة بعد أن آذته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة فتوجه إلى المدينة قبل بيعة العقبة بسنة، ولذلك قالت أم سلمة رضي الله عنها إنَّ أبا سلمة أول بيت هاجر إلى رسول الله ﷺ. (٢)

وأَذِنَ رسول الله ﷺ للمسلمين بالهجرة إلى المدينة فبادر الناس إلى ذلك، فكان أول من قَدِمَ المدينة مصعب بن عمير وابن أمِّ مكتوم، فجعلا يُقرئان الناس القرآن، ثمَّ جاء عمّار وبلال وسعد، ثمَّ جاء عمر بن الخطاب في عشرين راكباً، ثمَّ جاء رسول الله ﷺ (٣)

هجرة أبي سلمة وأم سلمة رضي الله عنهما

خرج أبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة، لكنَّ أم سلمة احتُبِسَت دونه ومُنعت من اللحاق به، ثم خرجت بعد ذلك، تقول أم سلمة: وما معي أحد من خلق

(١) سيرة ابن هشام: ج١/ ٣٠٠ - ٣٠٤، والبداية والنهاية: ج٣/ ٢٥٥، وزاد المعاد: ج٣/ ٤٣ - ٤٤.
(٢) رواه مسلم.
(٣) صحيح البخاري.

الله، قالت: فقلت: أتبلغ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي، حتى إذا كنت بالتنعيم لقيت عثمان بن طلحة بن أبي طلحة أخا بني عبد الدار[1] فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ قالت: فقلت: أريد زوجي بالمدينة، قال: أو ما معك أحد؟ قالت: فقلت: لا والله، إلّا الله وبُنيَّ هذا، قال: والله ما لك من مَتْرَك، فأخذ بخطام البعير، فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط، أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلت استأخر ببعيري، فحطّ عنه، ثمَّ قيده في الشجرة، ثمَّ تنحى عنّي إلى شجرة، فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح، قام إلى بعيري فقدّمه فرحّله، ثمَّ استأخر عنّي، وقال: اركبي، فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه، فقاده، حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلمّا نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء، قال: زوجك في هذه القرية - وكان أبو سلمة بها نازلاً - فادخليها على بركة الله، ثمَّ انصرف راجعاً إلى مكة، قال: فكانت تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة، وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.[2]

قلت: في هجرة أمِّ سلمة رضي الله عنها مع عثمان بن طلحة، وهو ليس من محارمها دليل على جواز هجرة المسلمة من دار الكفر إلى دار الإسلام بلا محرم، وقد هاجرت زينب بنت النبي ﷺ مع حميها (هو أخو زوجها) كنانة بن الربيع، وهو ليس من محارمها أيضاً، وقد اتفق علماؤنا «رحمهم الله» على جواز هجرة المرأة بدون محرم، قال النووي رحمه الله: واتفق العلماء على أنه ليس لها أن تخرج في غير الحج والعمرة إلا مع ذي محرم إلا الهجرة من دار الحرب، فاتفقوا على أن عليها أن تهاجر منها إلى دار الإسلام وإن لم يكن معها محرم، والفرق بينهما أن إقامتها في دار الكفر حرام

(١) أسلم بعد الحديبية مع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وكانت مفاتيح الكعبة عند عمّه عثمان بن أبي طلحة فقُتل كافراً يوم أحد، فلمّا كان الفتح دفع رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة لعثمان بن طلحة «رضي الله عنه».

(٢) سيرة ابن هشام: ج١/ ٣١٩ - ٣٢٠.

إذا لم تستطع إظهار الدين، وتخشى على دينها ونفسها [١].

وقال القرطبي رحمه الله: قد اتفق على أنه يجب عليها أن تسافر مع غير ذي محرم إذا خافت على دينها ونفسها، وتهاجر من دار الكفر [٢]، وقال: لأن القيام بأمر الدين واجب، والهجرة من ضرورة الواجب، وما لا يتم الواجب إلا به واجب [٣].

وهذا الخُلُق وهذه المروءة لم نعد نجدها عن العرب اليوم، ونظرة سريعة إلى ما تفعله الحكومات المرتدة وجيوشها وشرطها وصحواتها بعوائل المجاهدين ونسائهم وأطفالهم من تهجير وقتل وشتم تنبيك عن البون الشاسع بين عرب اليوم وعرب الجاهلية.

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

قال ابن إسحاق: فحدثني نافع مولى عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عمر، عن أبيه عمر بن الخطاب، قال: اتَّعدْت، لمّا أردنا الهجرة إلى المدينة، أنا وعيّاش بن أبي ربيعة، وهشام بن العاص بن وائل السهمي التناضب من أضاة بني غفار، فوق سرف، وقلنا: أيّنا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه، قال: فأصبحت أنا وعياش بن أبي ربيعة عند التناضب، وحبس عنّا هشام، وفتن فافتتن، فلمّا قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش بن أبي ربيعة، وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما، حتى قدما علينا المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلّماه وقالا: إنَّ أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقَّ لها، فقلت له: يا عياش، إنَّه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمّك القمّل لامتشطت، ولو

(١) شرح النووي على مسلم: ٤/ ٢٦٢.

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٣/ ٤٥٠.

(٣) مطالب أولي النهى: ج٣/ ٤٣٣.

قد اشتد عليها حرّ مكة لاستظلت، قال: فقال: أبرُّ قسم أمي، ولي هنالك مال فآخذه، قال: فقلت: والله إنك لتعلم أنّي لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى عليَّ إلّا أن يخرج معهما ؛ فلمّا أبى إلّا ذلك، قال: قلت له: أَمَا إذ قد فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه، فإنّها ناقة نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإنْ رابك من القوم ريب، فانجُ عليها، فخرج عليها معهما، حتى إذا كانوا ببعض الطريق، قال له أبو جهل: والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه؟ قال: بلى، قال: فأناخ، وأناخا ليتحول عليها، فلمّا استووا بالأرض عدوا عليه، فأوثقاه وربطاه، ثمَّ دخلا به مكة، وفتناه فافتتن.

قال ابن إسحاق: فحدثني به بعض آل عياش بن أبي ربيعة: أنهما حين دخلا به مكة دخلا به نهاراً موثقا، ثمَّ قالا: يا أهل مكة، هكذا فافعلوا بسفهائكم، كما فعلنا بسفيهنا هذا.

هجرة صهيب رضي الله عنه

ولمّا أراد صهيب رضي الله عنه الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً حقيراً، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك، والله لا يكون ذلك، فقال لهم صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإنّي جعلت لكم مالي، قال: فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: ربح صهيب، ربح صهيب.

نزل كثير من المهاجرين في مكان يُسَمّى العُصبة قبل مقدم النبي ﷺ، وكان سالم بن معقل مولى أبي حذيفة يؤمهم في مسجد قباء لكونه أكثرهم قرآناً. [١]

ثمَّ خرج الناس أرسالاً يتبع بعضهم بعضاً، ولم يبقَ بمكة من المسلمين إلّا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي أقاما بأمره لهما، وإلّا من احتبسه المشركون كرهاً. [٢]

---

(١) صحيح البخاري.
(٢) انظر زاد المعاد: ج٣ / ٤٥.

هجرة رسول الله ﷺ

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فلمّا رأى المشركون أصحاب رسول الله ﷺ قد تجهّزوا وخرجوا وحملوا وساقوا الذراري والأطفال والأموال إلى الأوس والخزرج، وعرفوا أنَّ الدار دار مَنَعَة، وأنَّ القوم أهل حلقة وشوكة وبأس، فخافوا خروج رسول الله ﷺ إليهم ولحوقه بهم فيشتد عليهم أمره، فاجتمعوا في دار الندوة، ولم يتخلّف أحد من أهل الرأي والحِجا منهم ليتشاوروا في أمره، وحضرهم وليّهم وشيخهم إبليس في صورة شيخ كبير من أهل نجد مشتمل الصماء في كسائه، فتذاكروا أمر رسول الله ﷺ فأشار كل أحد منهم برأي والشيخ يردّه ولا يرضاه، إلى أن قال أبو جهل: قد فرق لي فيه رأي ما أراكم قد وقعتم عليه، قالوا: ما هو؟ قال: أرى أن نأخذ من كل قبيلة من قريش غلاما نهداً جلداً ثم نعطيه سيفاً صارماً فيضربونه ضربة رجل واحد فيتفرق دمه في القبائل، فلا تدري بنو عبد مناف بعد ذلك كيف تصنع، ولا يمكنها معاداة القبائل كلها، ونسوق إليهم ديته، فقال الشيخ: لله در الفتى، هذا والله الرأي، قال: فتفرقوا على ذلك واجتمعوا عليه، فجاءه جبريل بالوحي من عند ربه تبارك وتعالى فأخبره بذلك، وأمره أن لا ينام في مضجعه تلك الليلة.

وجاء رسول الله ﷺ إلى أبي بكر نصف النهار في ساعة لم يكن يأتيه فيها متقنعاً، فقال له: أَخْرِج مَنْ عِندَكَ، فقال: إنّما هم أهلك يا رسول الله، فقال: إنَّ الله قد أذن لي في الخروج، فقال أبو بكر: الصحابة يا رسول الله؟، فقال رسول الله ﷺ: نعم، فقال أبو بكر: فخذ بأبي وأمّي إحدى راحلتي هاتين، فقال رسول الله ﷺ: بالثمن.

وأمر علياً أن يبيت في مضجعه تلك الليلة، واجتمع أولئك النفر من قريش يتطلعون من صير الباب ويرصدونه ويريدون بياته، ويأتمرون أيهم يكون أشقاها، فخرج رسول الله ﷺ، عليهم فأخذ حفنة من البطحاء، فجعل يذرّه على رؤوسهم وهم لا يرونه، وهو يتلو ﴿وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم

فهم لا يبصرون) [يس: ٩]، ومضى رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر، فخرجا من خوخة في دار أبي بكر ليلاً، وجاء رجل ورأى القوم ببابه فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: خبتم وخسرتم، قد والله مرَّ بكم وذرَّ على رؤوسكم التراب، قالوا: والله ما أبصرناه، وقاموا ينفضون التراب عن رؤوسهم، وهم أبو جهل، والحكم بن العاص، وعقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، وطعيمة بن عدي، وأبو لهب، وأُبيْ بن خلف، ونبيه ومنبّه ابنا الحجاج، فلمّا أصبحوا قام عليٌّ عن الفراش، فسألوه عن رسول الله ﷺ فقال: لا علم لي به، ثمَّ مضى رسول الله ﷺ وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه، وضرب العنكبوت على بابه، وكانا قد استأجرا عبد الله بن أريقط الليثي وكان هادياً ماهراً بالطريق، وكان على دين قومه من قريش، وأمّناه على ذلك وسلّما إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث، وجدَّت قريش في طلبهما، وأخذوا معهم القافة حتى انتهوا إلى باب الغار، فوقفوا عليه، ففي الصحيحين أنَّ أبا بكر قال: يا رسول الله لو أنَّ أحدهم نظر إلى ما تحت قدميه لأبصرنا، فقال: يا أبا بكر ما ظنّك باثنين الله ثالثهما؟ لا تحزن فإنَّ الله معنا، وكان النبي ﷺ وأبو بكر يسمعان كلامهم فوق رؤوسهما ولكنَّ الله سبحانه عمّى عليهم أمرهما، وكان عامر بن فهيرة يرعى عليهما غنماً لأبي بكر، ويتسمع ما يقال بمكة ثم يأتيهما بالخبر، فإذا كان السحر سرح مع الناس، قالت عائشة: وجهزناهما أحسن الجهاز ووضعنا لهما سفرة في جراب، فقطعت أسماء بنت أبي بكر قطعة من نطاقها فأوكت به الجراب، وقطعت الأخرى فصيّرتها عصاماً لفم القربة، فلذلك لُقِّبَت ذات النطاقين.

وذكر الحاكم في مستدركه عن عمر قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الغار ومعه أبو بكر فجعل يمشي ساعة بين يديه وساعة خلفه، حتى فطن له رسول الله ﷺ، فسأله، فقال له: يا رسول الله أذكر الطلب فأمشي خلفك، ثمَّ أذكر الرصد فأمشي بين يديك، فقال: يا أبا بكر لو كان شيء أحببت أن يكون بك دوني؟ قال: نعم والذي بعثك بالحق، فلمّا انتهى إلى الغار، قال أبو بكر: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ

لك الغار، فدخل فاستبرأه، حتى إذا كان في أعلاه ذكر أنه لم يستبرئ الجحرة، فقال: مكانك يا رسول الله حتى أستبرئ الجحرة، ثم قال: انزل يا رسول الله، فنزل، فمكثا في الغار ثلاث ليال حتى خمدت عنهما نار الطلب، فجاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين فارتحلا، وأردف أبو بكر عامر بن فهيرة، وسار الدليل أمامهما وعين الله تكلؤهما، وتأييده يصحبهما، وإسعاده يرحلهما وينزلهما.

ولمّا يئس المشركون من الظفر بهما جعلوا لمن جاء بهما ديّة كل واحد منهما، فجدَّ الناس في الطلب، والله غالب على أمره، فلمّا مروا بحي بني مدلج مصعدين من قديد بَصُرَ بهم رجل من الحي فوقف على الحي فقال: لقد رأيت آنفا بالساحل أسودة ما أراها إلّا محمداً وأصحابه، ففطن بالأمر سراقة بن مالك فأراد أن يكون الظفر له خاصة وقد سبق له من الظفر ما لم يكن في حسابه، فقال: بل هم فلان وفلان خرجا في طلب حاجة لهما، ثم مكث قليلاً، ثم قام فدخل خباءه وقال لخادمه: اخرج بالفرس من وراء الخباء وموعدك وراء الأكمة، ثمَّ أخذ رمحه وخفض عاليه يخط به الأرض حتى ركب فرسه، فلمّا قرب منهم وسمع قراءة رسول الله ﷺ وأبو بكر يكثر الالتفات ورسول الله ﷺ لا يلتفت فقال أبو بكر: يا رسول الله هذا سراقة بن مالك قد رهقنا، فدعا عليه رسول الله ﷺ فساخت يدا فرسه في الأرض، فقال: قد علمت أنَّ الذي أصابني بدعائكما، فادعوا الله لي ولكما عليّ أن أرد الناس عنكما، فدعا له رسول الله ﷺ فأُطلق، وسأل رسول الله ﷺ أن يكتب له كتاباً، فكتب له أبو بكر بأمره في أديم، وكان الكتاب معه إلى يوم فتح مكة فجاءه بالكتاب فوفاه له رسول الله ﷺ وقال: يوم وفاء وبر، وعرض عليهما الزاد والحملان فقالا: لا حاجة لنا به، ولكن عَمِّ عنّا الطلب، فقال قد كُفيتم، ورجع فوجد الناس في الطلب فجعل يقول قد استبرأت لكم الخبر، وقد كُفيتم ما هاهنا، وكان أول النهار جاهداً عليهما وآخره حارساً لهما.

ثم مرَّ رسول الله ﷺ في مسيره ذلك بخيمتي أم معبد الخزاعية، وكانت امرأة

برزة جلدة تحتبي بفناء الخيمة، ثمَّ تُطعم وتسقي من مرَّ بها، فسألاها: هل عندها شيء؟ فقالت: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزكم القِرى، والشاء عازب، وكانت مسنّة شهباء، فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، فقال: أتأذنين لي أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبي وأمّي، إنْ رأيت بها حلباً فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده ضرعها وسمّى الله ودعا فتفاجت عليه ودرّت، فدعا بإناء لها يربض الرهط، فحلب فيه حتى علته الرغوة، فسقاها فشربت حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، ثمَّ شرب وحلب فيه ثانياً حتى ملأ الإناء، ثمَّ غادره عندها فارتحلوا فقلّما لبثت أن جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً يتساوكن هزالاً لا نقي بهن، فلمّا رأى اللبن عجب، فقال: من أين لك هذا والشاة عازب؟ ولا حلوبة في البيت؟ فقالت: لا والله إلا أنه مرّ بنا رجل مبارك كان من حديثه كيت وكيت، ومن حاله كذا وكذا، قال: والله إني لأراه صاحب قريش الذي تطلبه، صِفِيهِ لي يا أم معبد، فوصفته له، فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قريش الذي ذكروا من أمره ما ذكروا، لقد هممت أنْ أصحبه، ولأفعلن إنْ وجدت إلى ذلك سبيلاً. (١)

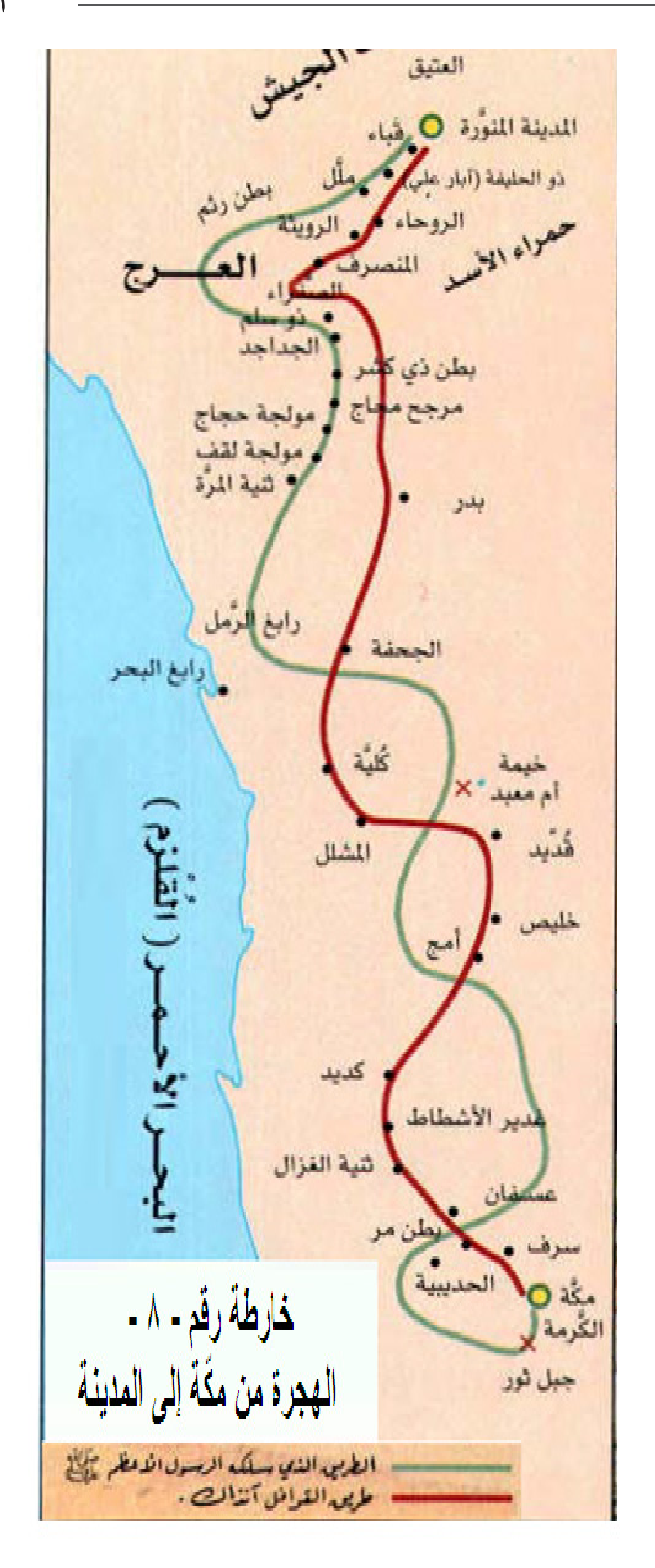
لقد كانت الهجرة شديدة التأثير على رسول الله ﷺ والمهاجرين، ويصوّر هذا وقوف النبي ﷺ في سوق مكّة وقوله مخاطباً مكّة: والله إنَّك لخير أرض الله، وأحبّ أرض الله إليَّ، ولولا أنّي أُخْرِجت منك ما خرجت. (٢)

وعندما دُوّن التاريخ في خلافة عمر بن الخطاب ؓ جُعِلَت الهجرة بداية التاريخ الإسلامي، وجُعِلَ المحرّم الشهر الأوّل من السنة، ذلك أنَّ هلال المحرّم هو أوّل هلال استهلَّ بعد بيعة العقبة الثانية في ذي الحجة، والتي كانت مقدّمة الهجرة.

---

(١) زاد المعاد: ٣٢٠ - ٣٢٢

(٢) رواه الترمذي وقال: حسن غريب صحيح.



خارطة رقم - ٨ -
الهجرة من مكّة إلى المدينة

الفصل الثالث

قيام الدولة الإسلامية في المدينة والجزيرة العربية

(١٠ سنين)

أهم أحداث هذه المرحلة

السنة الأولى من الهجرة: بناء المسجد، المؤاخاة، كتابة وثيقة المدينة.

السنة الثانية من الهجرة: غزوة بدر، غزوة بني قينقاع.

السنة الثالثة من الهجرة: غزوة أحد، غزوة حمراء الأسد.

السنة الرابعة من الهجرة: يوم الرجيع، حادثة بئر معونة، إجلاء بني النضير.

السنة الخامسة من الهجرة: غزوة الأحزاب (الخندق)، وإبادة بني قريظة.

السنة السادسة من الهجرة: غزوة بني المصطلق (المريسيع)، حادثة الإفك، صلح الحديبية.

السنة السابعة من الهجرة: بعْث النبي ﷺ إلى الملوك، غزوة خيبر وعودة مهاجري الحبشة، غزوة ذات الرقاع، عمرة القضاء، إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما.

السنة الثامنة من الهجرة: غزوة مؤتة، فتح مكّة، غزوة حنين (أوطاس)، حصار الطائف.

السنة التاسعة من الهجرة: غزوة تبوك، قدوم وفود العرب إلى النبي ﷺ.

السنة العاشرة من الهجرة: حجّة الوداع.

السنة الحادية عشرة من الهجرة: بعْث أسامة بن زيد إلى فلسطين، وفاة النبي ﷺ.



السنة الأولى من الهجرة

وصول النبي ﷺ إلــى المدينـة

حين بلغ الأنصارَ نبأُ خروج النبي ﷺ من مكة وتوجهه إلى المدينة كانوا يخرجون كلَّ يوم إلى الحرة ينتظرونه حتى يردهم حرُّ الظهيرة، فلمّا كان يوم الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنة من النبوة خرج الأنصار كعادتهم ثمَّ عادوا لمَّا حميَ حرُّ الشمس، فصعد رجل من اليهود على أُطم [(١)] من آطام المدينة لبعض أموره، فرأى رسول الله ﷺ وأصحابه، فصرخ بأعلى صوته: يا بني قيلة [(٢)]، هذا صاحبكم قد جاء، هذا جدّكم الذي تنتظرون، فثار الأنصار إلى السلاح ليتلقّوا رسول الله ﷺ فتلقوه وحيّوه بتحية النبّوة، فسار حتى نزل بقباء في بني عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، وأسَّس مسجد قباء، وهو أول مسجد أُسِّسَ بعد النبوة، وصلّى فيه رسول الله ﷺ.

وبعد أن أقام رسول الله ﷺ المدَّة التي قضاها في قباء توجه لدخول المدينة، وكان يوم وصوله إلى المدينة يوم فرح وابتهاج لم ترَ المدينةُ مثله، وخرج أهلها لاستقبال رسول الله ﷺ، جاء في صحيح مسلم: عندما دخل رسول الله ﷺ المدينة صعد الرجال والنساء فوق البيوت، وتفرَّق الغلمان والخدم في الطرق ينادون: يا محمد، يا رسول الله.

ولمّا دخل المدينة أخذ الأنصار بخطام راحلة النبي ﷺ فقال: «خلّوا سبيلها فإنَّها مأمورة»، فلم تزل ناقته سائرة لا تمرُّ بدار من دور الأنصار إلّا رغبوا إليه في النزول عليهم، فسارت حتى بركت في موضع مسجده اليوم، وذلك في بني النجار، أخوال النبي ﷺ[(٣)]،

---

(١) الحصن، أو البيت المرتفع

(٢) قيلة: جَدّة للأنصار يُنسبون إليها.

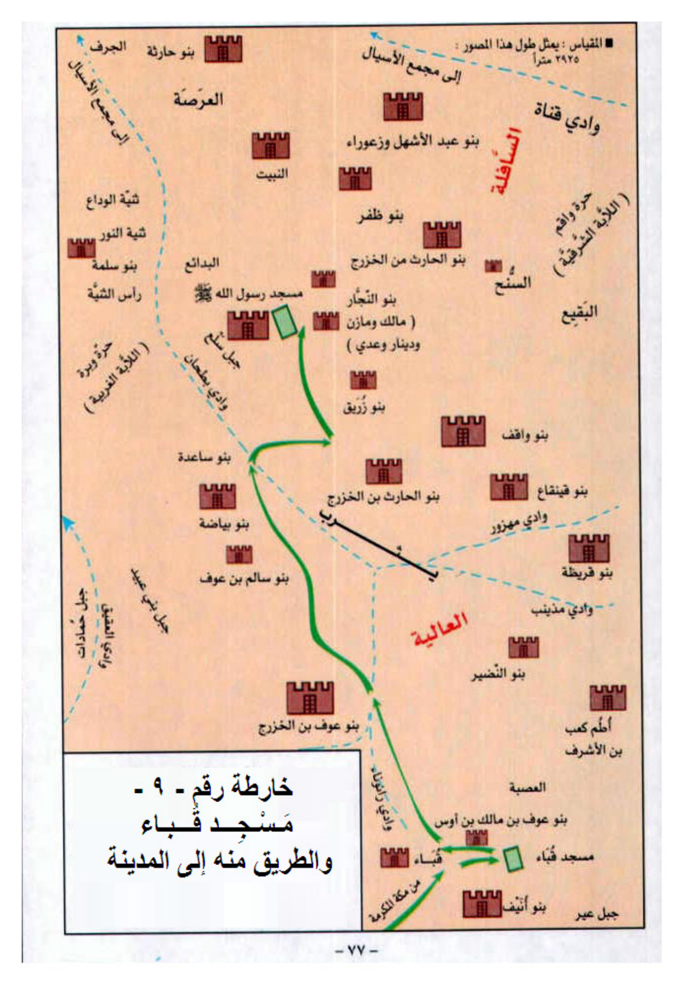
(٣) تزوج هاشم بسلمى وهي من بني النجار، فولدت له عبد المطلب جَدّ النبي ﷺ، ولذلك فبنوا النجار هم أخوال عبد المطلب، وبهذا المعنى هم أخوال النبي ﷺ لأنَّهم أخوال جدِّه عبد

وكان النبي ﷺ يحبُّ أن ينزل على أخواله يكرمهم بذلك، فجعل الناس يكلّمون رسول الله ﷺ في النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصاري إلى رحل النبي ﷺ فأدخله بيته، فجعل رسول الله يقول: المرء مع رحله، فأقام النبي ﷺ في منزل أبي أيوب حتى بنى حُجَرَه، وبعث رسول الله ﷺ - وهو في منزل أبي أيوب - زيد بن حارثة وأبا رافع وأعطاهما بعيرين وخمسمائة درهم إلى مكة، فقَدِما عليه بفاطمة وأمِّ كلثوم ابنتيه، وسودة بنت زمعة زوجته، وأسامة بن زيد وأمّه أمّ أيمن، وأمّا زينب بنت رسول الله ﷺ فلم يمكّنها زوجها أبو العاص بن الربيع من الخروج، وهاجرت رضي الله عنها بعد بدر، وخرج عبد الله بن أبي بكر معهم بعيال أبي بكر، ومنهم أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وبقي علي رضي الله عنه في مكّة ليؤدي الودائع التي كانت عند رسول الله ﷺ للنّاس فأقام بمكّة ثلاثاً، ثمَّ هاجر ماشياً على قدميه، حتى لحق برسول الله ﷺ وأبي بكر في قباء.

قلت: في استبقاء النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه في مكّة لكي يردَّ الأمانات إلى أهلها درس لكل مسلم كي يكون أميناً، صادقاً، لا يغدر بالآخر ولو كان كافراً، فالكافر وإن كان حلال الدم والمال إلّا أنَّ هذه الصورة مستثناة، أي إذا أودع كافر ماله عند مسلم فيجب الحفاظ عليه وردّه إليه إذا طلبه، والدليل فعل النبي ﷺ هنا، وكذلك أمره ﷺ الراعي الأسود في غزوة خيبر أن يترك الغنم ترجع إلى صاحبها الكافر بعدما أسلم الراعي، ولم يقل له إنّها أصبحت حلالاً لك لأنَّ صاحبها كافر، فأكل أمانة الكافر بحجة أنّه كافر ليس من الإسلام في شيء، بل هو مذهب المنحرفين من اليهود الذين قالوا ﴿ليس علينا في الأمّيين سبيل﴾ [آل عمران: ٧٥] أي أنَّ أموال المسلمين حلال لنا!!! فردَّ عليهم القرآن (بلى من أوفى بعهده واتقى فإنَّ الله يحب المتقين) [آل عمران: ٧٦].

المطلب، أمّا آمنة أمُّ النبي ﷺ فهي من بني زهرة، بطن من بطون قريش، ولذلك فبنو زهرة هم أخوال النبي ﷺ، وسعد بن أبي وقاص «رضي الله عنه» من بني زهرة، وقد قال ﷺ عن سعد: (هذا خالي، فليريني امرؤ خاله) ﴿رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب﴾.



خارطة رقم - ٩ -
مَسْجِد قُبَاء
والطريق منه إلى المدينة

يقول الشهيد سيد قطب ﷺ: لقد تمّت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة بعد تمهيد ثابت وإعداد محكم، تمّت تحت تأثير ظروف حتّمت هذه الهجرة، وجعلتها إجراءً ضرورياً لسير هذه الدعوة في الخط المرسوم الذي قدَّره الله لها بتدبيره، كان موقف قريش العنيد من الدعوة في مكة – وبخاصة بعد وفاة خديجة "رضي الله عنها" وموت أبي طالب كافل النبي وحاميه –، كان هذا الموقف قد انتهى إلى تجميد الدعوة تقريباً في مكة وما حولها، ومع استمرار دخول أفراد في الإسلام على الرغم من جميع الاضطهادات والتدبيرات، فإنَّ الدعوة كانت تعتبر قد تجمّدت فعلاً في مكة وما حولها بموقف قريش منها، وتحالفهم على حربها بشتى الوسائل، مما جعل

بقية العرب تقف موقف التحرز والانتظار، في ارتقاب نتيجة المعركة بين الرسول وعشيرته الأقربين، وعلى رأسهم أبو لهب وعمرو بن هشام وأبو سفيان بن حرب وغيرهم ممن يَمُتّون بصلة القرابة القوية لصاحب الدعوة، وما كان هناك ما يشجّع العرب في بيئة قبلية لعلاقات القرابة عندها وزن كبير على الدخول في عقيدة رجل تقف منه عشيرته هذا الموقف، وبخاصة أنَّ عشيرته هذه هي التي تقوم بسدانة الكعبة، وهي التي تمثّل الناحية الدينية في الجزيرة!. (١)

الدولة الإسلامية في المدينة

المدينة النبوية، واسمها القديم (يثرب)، وهي واحةٌ كثيرة المياه، خصبة التربة، تحيط بها الحرّات من جهاتها الأربع، وأهمّها حرَّة الوبرة من الغرب، وحرّة واقم من الشرق، والتي كانت أكثر خصوبة وعمراناً من الوبرة، ويقع جبل عير في جنوبها الغربي، وجبل أحد في شمالها، كما تقع فيها عدَّة وديان منحدرة من الجنوب إلى الشمال، أشهرها وادي العقيق.

وكانت الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة تتكون من ثلاثة أصناف من الناس وهم:

١- المسلمون من المهاجرين والأنصار.

٢- المشركون الذين لم يدخلوا في الإسلام من أهل المدينة، وعلى رأسهم عبدالله بن أُبيْ بن سلول.

٣- اليهود.

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.

١- المسلمون من المهاجرين والأنصار

أمّا الأنصار فهم قبائل الأوس والخزرج الذين سكنوا يثرب وينتمون إلى قبيلة الأزد اليمانية التي خرجت من اليمن إلى الشمال في فترات مختلفة ربما أقدمها في حدود عام ٢٠٧ م عندما هاجرت خزاعة إلى مكة، وأمّا سبب هجرتهم فاختلف فيها المؤرخون، فبعضهم يرى أنَّ ذلك كان بسبب انهيار سد مأرب وحدوث سيل العرم الذي ذكره القرآن الكريم في سورة سبأ، والذي أدى إلى تفرّق سبأ في البلاد، وكان التصدع الأخير للسد سنة ٥٤٤ م في أيام أبرهة.

وكان اليهود قد سبقوا الأوس والخزرج إلى المدينة، وسكنوها قبلهم، فتملّكوا أخصب بقاعها وأعذب مياهها، ممّا اضطر الأوس والخزرج إلى أن يسكنوا الأراضي المهجورة من يثرب، فسكن الأوس منطقة العوالي بجوار قريظة والنضير، وسكن الخزرج سافلة المدينة بجوار بني قينقاع، وكانت ديار الأوس أخصب من ديار الخزرج ممّا كان له أثر في المنافسة والصراع الطويل بين القبيلتين، والذي لم ينتهِ إلّا بقدوم النبي ﷺ.

ورغم أنَّ اليهود سبقوا الأوس والخزرج إلى يثرب، وكانت هجرة الأوس والخزرج متأخرة كما ذكرنا، حيث يحددها بعض المؤرخين بعام ٣٠٠ م، إلّا أنَّهم استطاعوا أن يبسطوا سيطرتهم وسيادتهم على يثرب، حيث حدثت تحوّلات اقتصادية وسكّانية لصالح العرب من الأوس والخزرج أدَّت إلى زيادة عددهم وثروتهم، ومهَّدت لسيطرتهم على يثرب.

وقد حاول اليهود تفتيت وحدة العرب، وإثارة الشقاق بين الأوس والخزرج، وإذكاء العداوة وتأجيج نار الفتنة فيما بينهم، ونجحوا في ذلك، وكان آخر الحروب بين الأوس والخزرج يوم بعاث قبل الهجرة بخمس سنين، حيث هزم الأوسُ الخزرجَ بعد أن تحالفوا مع يهود بني النضير وبني قريظة ضد الخزرج، حيث كانت الكفّة سابقاً تميل لصالح الخزرج على حساب الأوس، لكنَّ العرب بعد بعاث

تنبهوا إلى خطورة استمرار الحرب القائمة فيما بينهم، وأنَّ ذلك يساعد في إضعاف قوتهم ونفوذهم في يثرب لصالح اليهود، لذلك سعوا إلى الصلح فيما بينهم وإيقاف الحرب، وفعلاً تمَّ الصلح واتفقوا على ترشيح عبدالله بن أُبَيْ بن سلول ليكون ملكاً على يثرب، وكان من الخزرج إلّا أنَّه وقف وأهله على الحياد يوم بُعاث، وكان هذا أحد أهم أسباب تصدي عبدالله بن أُبَيْ لدعوة النبي ﷺ في المدينة، حيث اعتبر أنَّ الدعوة الجديدة سلبته ملكاً ناله أو كاد.

ولا يوجد إحصاء دقيق لعدد الأوس والخزرج لكنَّهم قدّموا أربعة آلاف مقاتل للجيش الإسلامي الذي ذهب لفتح مكّة سنة ٨ هـ.

وكان يوم بعاث من الأسباب التي يسَّرها الله ﷻ للنبي ﷺ لكي تجد دعوته القبول في المدينة، حيث قُتل في ذلك اليوم غالب شيوخ الأوس والخزرج وملأ القبيلتين، ومعلوم أنَّ الملأ والشيوخ وأصحاب المصالح هم ألدُّ أعداء الدعوات وأكبر العقبات في طريقها، تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: (كان يوم بعاث يوماً قدّمه الله لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤُهم وقُتِلَت سرواتهم وجرحوا، قدّمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام) [(١)]، ولذلك حين قدم النبي ﷺ إلى المدينة كان سادتها وأولوا الأمر فيها من الشباب فوجد النبي ﷺ سعد بن معاذ وأُسيد بن حضير وسعد بن عبادة «رضي الله عنهم» فقبلوا دعوة الإسلام وناصروه.

وأمّا المهاجرون فكانوا من عشائر قريش المختلفة، الذين تركوا مكّة بحثاً عن ملاذ آمن يُظهرون فيه دينهم بعيداً عن بطش قريش وأذاها، ولا يوجد بين أيدينا إحصاء دقيق لعدد المهاجرين إلى المدينة، لكن على الأغلب لم يكن يتجاوز عددهم مع عوائلهم أربعمائة شخص حتى معركة بدر، والتي اشترك فيها ثلاثة وثمانون رجلاً من المهاجرين، ولم يكن لدى المهاجرين عملٌ يعملونه، ولا مالٌ يعينهم على معيشتهم في المدينة أول الأمر، ولذلك آخى النبي ﷺ بينهم وبين الأنصار.

---

(١) رواه البخاري.

٢- المشركون

وهم أبناء الأوس والخزرج الذين رفضوا الدخول في الإسلام والإيمان بالنبي ﷺ، حيث كان بعضهم متردداً في ترك دين آبائه، لكنّهم لم يكونوا يبطنوا العداوة والبغضاء للمسلمين، ولذلك ما لبثوا أن دخلوا في الإسلام وأخلصوا دينهم لله.

وقسمٌ آخر منهم كان يبطن شديد العداوة لرسول الله ﷺ وللمسلمين، لكنّه كان مضطراً إلى إخفاء هذه العداوة، وإظهار الودّ للمسلمين، لأنَّ الوضع العام في المدينة كلّه كان يسير في صالح المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى أن يسايروا هذا المسير، وعلى رأسهم عبدالله بن أُبيْ بن سلول، الذي كان على وشك أن يُصبح ملكاً على أهل المدينة قُبيل مقدم النبي ﷺ فأدّى دخول أهل المدينة في الإسلام إلى انصرافهم عنه، وضياع ملكه، فبقي على الكفر حتى معركة بدر، حيث اضطر بعدها إلى إظهار الإسلام تحت ضغط الواقع الجديد، وبعد أن أصبح المسلمون قوة وسلطة، وأقاموا دولة حقيقية، فلم يجد بُدّاً من إظهار الإسلام، لكنَّه بقي يُخطط ويكيد للنبي ﷺ والمسلمين، وكان أصحابه من الرؤساء الذين حُرموا المناصب التي كانوا يرجونها إذا ملك ابن سلول يساعدونه في تنفيذ خططه.

٣- اليـهود

بعد أن نجح الرومان في السيطرة على سوريا ومصر في القرن الأول ق. م، وعلى اليهود ودولة الأنباط في القرن الثاني بعد الميلاد، هاجر اليهود من الشام إلى شبه الجزيرة العربية التي كانت تعتبر بعيدة نسبياً عن الرومان، وتزايدت هجرة اليهود إلى الحجاز بعد أن فشل التمرد اليهودي ضد الرومان والذي قمعه الإمبراطور الروماني تيتوس عام ٧٠ م، وتوّجه بعض اليهود النازحين نحو يثرب، كما وصلت مجموعة أخرى منهم إلى يثرب بعد أن فشل تمرد آخر قاموا به ضد الرومان في زمن

الامبراطور هادريان بين عامي ١٣٢ - ١٣٥م، فتشكّلت جالية لليهود في المدينة وباقي الحجاز، وكانت هذه هي بداية تواجد اليهود الذين كانوا في الجزيرة العربية حين بُعث النبي ﷺ.

استقرَّ يهود بني النضير وبني قريظة في يثرب، وتحديداً في حرّة واقم شرقي يثرب لخصوبتها وأهمية موقعها التجاري على طرق القوافل نحو الشام، وقد انصهر اليهود في المجتمع العربي في زيّهم ولغتهم، بل وحتى أسمائهم وأسماء قبائلهم، وقامت بينهم وبين العرب علاقات زواج ومصاهرة، إلّا أنَّ هذا لم يغيّر شيئاً من عصبيتهم لجنسهم ودينهم، حيث كانوا يفتخرون بجنسيتهم اليهودية الإسرائيلية، ويحتقرون العرب، ويعتبرونهم أراذل متأخرون، ويرون أنَّ أموالهم مباحة لهم، يأكلونها كيف شاؤوا ﴿وقالوا ليس علينا في الأمّيين سبيل﴾، وكانوا يسمّون العرب بالأمّيين.

ولكنَّ اليهود عبر التاريخ وبعكس النصارى لم يكن لهم تحمّس في نشر دينهم، وإنّما يقتصر طرحهم الديني على الفأل والسحر والنفث وأمثالها، وكانوا يأججون نار الفتنة بين الأوس والخزرج، ويحاولون إشعال نار الحرب فيما بينهم، فكانوا يقرضون الطرفين قروضاً رِبوية ثقيلة حتى لا يتركوا الحرب، ويحققون بذلك غايتين، الأولى: إضعاف العرب بالحروب فيما بينهم، بينما يحتفظ اليهود بقوتهم وكيانهم الموحّد، والثانية: كسب الأموال الطائلة من خلال القروض الرِبوية، وإرهاق العرب بالديون.

وحين وصل النبي ﷺ إلى يثرب كان فيها ثلاث قبائل مشهورة وهم: بنو قينقاع، الذين كانوا حلفاء الخزرج، وكانت ديارهم في داخل المدينة، وبنو النضير وبنو قريظة، الذين كانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم في ضواحي المدينة.

وليس فيما بين أيدينا من مصادر أي إحصاءٍ دقيق لعدد اليهود الذين كانوا في المدينة حين وصلها النبي ﷺ، لكنَّ كُتّاب السيرة ذكروا أعداد المقاتلين - وهم

الرجال البالغون عادة – من هذه القبائل الثلاث، وهم يزيدون قليلاً على الألفين.

وبعد قدوم النبي ﷺ ودخول الإسلام إلى المدينة امتلأت قلوب يهود بغضاً وحقداً على الإسلام والمسلمين، فالدعوة الجديدة تدعو إلى التأليف بين القلوب، وإطفاء العداوة والبغضاء، والتقيّد بالأكل الحلال، وهي بالتالي تضرب كل مصالح اليهود، وتدمّر موارد قوتهم وتماسكهم، كما أنَّ النبي ﷺ كان من غير جنسهم، وكان من العرب الذين يعتبرهم اليهود أقل شأناً منهم بكثير، ورغم أنَّهم كانوا يعلمون يقيناً أنَّه نبي، وأنَّه صادقٌ ومؤيَّدٌ بالوحي إلّا أنَّهم تولوا كِبْر عداوته وتكذيبه وصدّ الناس عنه.

روى ابن إسحاق عن أمِّ المؤمنين صفيّة رضي الله عنها، قال ابن إسحاق: حُدِّثْت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنَّها قالت: كنت أحبَّ وّلدِ أبي إليه، وإلى عمّي أبي ياسر، لم ألقهما قط مع ولد لهما إلّا أخذاني دونه، قالت: فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة، ونزل قباء في بني عمرو بن عوف، غدا عليه أَبِي حُيي بن أخطب، وعمّي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين[1]، قالت: فلم يرجعا حتى كانا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالّيْن[2]، كسلانَيْن، ساقطَيْن، يمشيان الهُوَينى[3]، قالت: فهششت[4] إليهما كما كنت أصنع، فو الله ما التفت إلي واحد منهما، مع ما بهما من الغم، قالت: وسمعت عمّي أبا ياسر، وهو يقول لأبي، حيي بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله، قال: أتعرفه وتثبته؟، قال: نعم، قال: فما في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيت.[5]

وروى البخاري في إسلام عبد الله بن سلام رضي الله عنه وقد كان حَبراً من فطاحل علماء اليهود، فلمّا بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه، فقال: إنّي سائلك عن ثلاث لا

(١) الغَلَس: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.
(٢) أي أصابهما الكلل، وهو الإعياء والتعب.
(٣) الاتِّئادُ في المشي، وهو السير في تأنٍ وتمهّل.
(٤) (٤) أي نشطت.
(٥) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٣٥٦.

يعلمهن إلّا نبيّ، قال: ما أول أشراط الساعة، وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله، فقال رسول الله ﷺ: خبّرني بهن آنفاً جبريل، قال: فقال عبد الله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: أمّا أول أشراط الساعة فنار تَحْشُر الناس من المشرق إلى المغرب، وأمّا أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأمّا الشبه في الولد فإنَّ الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها، قال: أشهد أنَّك رسول الله، ثمَّ قال: يا رسول الله، إنَّ اليهود قوم بهت، إنْ علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك، فجاءت اليهود، ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: أيُّ رجل فيكم عبد الله بن سلام؟، قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ أفرأيتم إن أسلم عبد الله؟، قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم فقال: أشهد أنْ لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، فقالوا: شرّنا وابن شرِّنا، ووقعوا فيه.

هذا كان حال المدينة ووضعها الداخلي حين قدم النبي ﷺ، أمّا الوضع الخارجي فإنَّ قريشاً العدو الأول للمسلمين شنَّت حرباً شعواء واستخدمت أساليب جديدة بعد هجرة المسلمين إلى المدينة، حيث صادرت أراضي المسلمين وديارهم وأموالهم في مكّة وحالت بينهم وبين أزواجهم وذرّياتهم، وحبست وعذّبت مَنْ قدرت على الوصول إليه قبل هجرته من المسلمين، ثمَّ بعد ذلك بدأت تحاول استغلال مكانتها الدينية والسياسية بين أوساط العرب كونهم سدنة بيت الله الحرام لتحريض مشركي الجزيرة العربية ضد أهل المدينة حتى فرضوا شبه مقاطعة لأهل المدينة، فقلَّت وارداتها في الوقت الذي كان فيه عدد المسلمين المهاجرين يزداد.

كانت هذه آخر محاولات قريش لمنع قيام دولة للمسلمين في المدينة بعد أن فشلت كل محاولاتها السابقة طيلة عشر سنوات لوأد الدين الجديد بعد أن كان المسلمون تحت أيديها في مكّة، وبعد أن جرّبوا كل الطرق لإيقاف دعوة الإسلام،

والتي كان آخرها محاولة قتل صاحب الدعوة ﷺ، لكنَّ الله أبى إلّا أن يُتمَّ نوره رغم أنف قريش وسادتها، كما سيُتمُّ الله نوره وينصر دعاة التوحيد في زماننا رغم أنف كل الطواغيت.

بناء المسجد

كان أوّلُ عمل قام به النبي ﷺ في المدينة هو بناء المسجد، روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنَّ رسول الله ﷺ دخل المدينة راكباً راحلته، فسار يمشي معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، وهو يصلّي فيه يومئذ رجال من المسلمين، وكان مِربداً (١) لسهل وسهيل غلامين يتيمين في حجر أسعد بن زرارة، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته: هذا إن شاء الله المنزل، ثمَّ دعا رسول الله ﷺ الغلامين فساومهما بالمربد ليتَّخِذه مسجداً، فقالا: بل نَهَبُه لك يا رسول الله، فأبى رسول الله ﷺ أن يقبله منهما هبة حتى ابتاعه منهما.

وفي رواية أنس بن مالك رضي الله عنه: فكان فيه ما أقول: كان فيه نخل وقبور المشركين وخَرِب، فأمر رسول الله ﷺ بالنخل فقُطع، وبقبور المشركين فنُبشت، وبالخَرِب فسوّيَت، قال: فصفّوا النخل قبلة، وجعلوا عِضادتيه (٢) حجارة، قال: فكانوا يرتجزون ورسول الله ﷺ معهم، وهم يقولون:

اللهم إنّه لا خير إلّا خير الآخرة   فاغفر للأنصار والمهاجرة (٣)

وجعل قبلة المسجد إلى بيت المقدس وجعل له ثلاثة أبواب، باب في مؤخره، وباب يُسمّى الرحمة، والباب الذي يدخل منه النبي ﷺ، وجعل عُمَدَهُ الجذوع، وسقَّفَه بالجريد، وبنى إلى جنبه بيوت أزواجه باللِبْنِ، وسقَّفها بالجريد والجذوع،

---

(١) المكان الذي يجفف فيه التمر.

(٢) قال النووي: العضادة بكسر العين: جانب الباب، انظر شرح صحيح مسلم للنووي / كتاب المساجد ومواضع الصلاة: باب ابتناء مسجد النبي "ﷺ".

(٣) رواه مسلم.

فلمّا فرغ من بناء المسجد، بنى بعائشةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في البيت الذي بناه لها شرقي المسجد وهو مكان حجرته اليوم، وجعل لسودة بنت زمعةرَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا بيتاً آخراً (١)

وجاء في طبقات ابن سعد في قصة بناء المسجد: وجعل رسول الله ﷺ يبني معهم وينقل اللِبْنَ والحجارة بنفسه ويقول:

اللهم لا عيش إلّا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

وكان يقول:

هذا الحِمال لا حِمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وجعلوا يرتجزون وهم ينقلون اللِبْنَ ويقول بعضهم في رجزه:

لئن قعدنا والنبي يعمل لذاك منّا العمل المُضَلَلُ.

قلت: النشيد في اللغة هو رفع الصوت بالشعر مع تحسين وترقيق، وقد جاءت النصوص الثابتة الصريحة على إباحة قول الشعر وإنشاده واستماعه، فقد صحَّ أنَّ النبي ﷺ وصحابته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم سمعوا الشعر وأنشدوه واستنشدوه من غيرهم، في مجالسهم وأعمالهم، وفي سفرهم وحضرهم، بأصوات فردية كما في إنشاد حسّان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبدالله بن رواحة، وعامر بن الأكوع، وغيرهم من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم، وبأصوات جماعية كما مرَّ معنا هنا في بناء المسجد، وكما سيمرُّ معنا في حفر الخندق، فقد روى البخاري عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لمّا رأى النبي ﷺ ما بنا من النصب والجوع (أي في الخندق)، قال:

اللهم لا عيش إلّا عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة.

فقالوا مجيبين:

نحن الذين بايعوا محمّداً على الجهاد ما بقينا أبدا

كذلك كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ينشدون في المجالس، فعن أبي سلمة بن عبدالرحمن قال: لم يكن أصحاب رسول الله ﷺ منحرفين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون

(١) زاد المعاد: ج٣/ ٥٦.

الأشعار في مجالسهم، وينكرون أمر جاهليتهم، فإذا أريد أحدهم على دينه دارت حماليق عينه. [1]

وقد كان عليه الصلاة والسلام يحرّض حسان رضي الله عنه على هجاء المشركين، فعن البراء بن عازب «رضي الله عنه» أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قال لحسّان: اهجهم - أو قال هاجهم - وجبريل معك [2]، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك في غزوة بني قريظة.

وعليه فقول الشعر وإنشاده واستنشاده جائز، بل قد يكون قوله مندوباً إذا كان هجاءً للكفّار، ورفع همم المسلمين، كما في طلب النبي صلى الله عليه وسلم من حسّان أن يهجوَ المشركين.

على أنَّ هناك ضوابط يجب أن يُنتبَه إليها في هذه المسألة وهي:

١- أن لا يشتمل الشعر على كلام محرّم أو فاحش.

٢- أن لا يرافقه استخدام للمعازف فإنَّها محرّمة، وحكم المؤثرات الصوتية التي تُنتج أصواتاً كأصوات المعازف هو حكم المعازف.

٣- أن لا يكون بصوت النساء.

٤- أن لا يشابه ألحان أهل الفسق والمجون.

٥- عدم الإكثار منه، بحيث يصبح ديدن المسلم فيضيّع فيه جُلَّ وقته.

وأمّا قوله صلى الله عليه وسلم: «لأن يمتلئ جوف أحدكم قيحاً خير من أن يمتلئ شعراً» [3] فهو عام مُخَصّص بالأحاديث والآثار السابقة، فالشعر يكون محموداً إذا اشتمل على هجاء الكفار والذكر والمواعظ ممّا لا إفراط فيه، ويكون مذموماً حين يغلب على المسلم فيشغله عن عبادته وسائر شؤونه.

وأمّا زخرفة المساجد، وبناء المنائر والقباب معها فغير جائز ومردود، لِما يلي:

---

(١) مصنف ابن أبي شيبة: ٨/ ٧١١.

(٢) رواه البخاري.

(٣) رواه البخاري.

١- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ما أُمرتُ بتشييد المساجد [(١)]، قال البغوي في شرح السنّة: التشييد: رفع البناء وتطويله، ومنه قوله تعالى ﴿بروجٍ مشيّدة﴾ [النساء: ٧٨]، وهي التي طُوّل بناؤها.

٣- حين أعاد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بناء مسجد رسول الله ﷺ قال: «أَكِنَّ النَّاسَ مِنَ الْمَطَرِ، وَإِيَّاكَ أَنْ تُحَمِّرَ أَوْ تُصَفِّرَ فتفتن الناس»[(٢)]

٤- عن أنس رضي الله عنه قال: «يتباهون بها ثمَّ لا يعمرونها إلّا قليلاً».

٥- عن ابن عباس رضي الله عنه قال: «لَتُزَخرِفُنَّها كما زخرَفَت اليهودُ والنَّصارى»[(٣)]

وأوّل من زخرف المساجد هو الوليد بن عبدالملك (ت: ٩٦ هـ)، وذلك في أواخر عصر الصحابة «رضي الله عنهم»، وقد سكت كثير من أهل العلم في وقتها ولم ينكر ذلك خوفاً من الفتنة، ولا ريب أنَّ الاستدلال بترك بعض علماء السلف الإنكار على الوليد ومَنْ جاء بعده من الخلفاء على جواز زخرفة المساجد لا يصمد أمام النصوص التي سقناها عن النبي ﷺ، والآثار عن صحابته رضي الله عنهم، وقد دلَّت السنّة على أنَّ الأصل في بناء المساجد هو القصد وترك الغلو، وقد بنى ﷺ جدران مسجده باللّبِن، وسقَّفه الجريد، وجعل عُمده خشب النخل.

وعليه فزخرفة المساجد وبناء المنائر والقباب ليس من هدي رسول الله ﷺ، ونوعٌ من أنواع المباهاة المحرّمة، وهو دأب اليهود والنصارى، وقد أُمِرنا بمخالفتهم.

ومعلوم أنَّ الزخرفة وبناء المنائر والقباب مكلفٌ جداً، إذ ربما بلغت كلفة بناء منائر المساجد وقببه وزخرفته عشرات أضعاف كلفة بناء المسجد نفسه، وهذه الأموال ينبغي أن تُنفق في مصالح المسلمين الأخرى كبناء المستشفيات والمساكن والمدارس والجامعات وسائر البنى التحتيّة، والإنفاق على المحتاجين وغيرها.

فلتكن مساجدنا عبارة عن جدران أربعة وسقف خالية تماماً من الزخارف

(١) أخرجه أبو داود، وصحَّحه ابن حبان.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً.

(٣) رواه البخاري.

والمنائر والقباب، متوفر فيها كلُّ ما يساعد المسلم على المكوث فيها للعبادة من تبريد وتدفئة، ولنحرص على نظافتها، فهذه هي سنّة رسول الله ﷺ وذاك هو هديه.

أهلُ الصُفّة

قال الإمام ابن تيمية رحمه الله: أمّا الصفّة التي ينسب إليها أهل الصفّة من أصحاب النبي ﷺ فكانت في مؤخر مسجد النبي ﷺ في شمالي المسجد بالمدينة النبوية، كان يأوي إليها من فقراء المسلمين من ليس له أهل ولا مكان يأوي إليه. (١)

وقال: وكان النبي ﷺ قد حالف بين المهاجرين والأنصار، وآخى بينهم، ثمَّ صار المهاجرون يكثرون بعد ذلك شيئاً بعد شيء، فإنَّ الإسلام صار ينتشر والناس يدخلون فيه، والنبي ﷺ يغزو الكفار تارة بنفسه، وتارة بسراياه، فيسُلِم خلق تارة ظاهراً وباطناً، وتارة ظاهراً فقط، ويكثر المهاجرون إلى المدينة من الفقراء والأغنياء والأهلين والعزّاب، فكان من لم يتيسر له مكان يأوي إليه، يأوي إلى تلك الصفّة التي في المسجد، ولم يكن جميع أهل الصفّة يجتمعون في وقت واحد، بل منهم من يتأهل، أو ينتقل إلى مكان آخر يتيسر له، ويجيء ناس بعد ناس، فكانوا تارة يقلّون، وتارة يكثُرون، فتارة يكونون عشرة أو أقل، وتارة يكونون عشرين وثلاثين وأكثر، وتارة يكونون ستين وسبعين، وأمّا جملة من أوى إلى الصفة مع تفرّقهم، فقد قيل: كانوا نحو أربعمائة من الصحابة، وقد قيل : كانوا أكثر من ذلك ولم يُعرف كل واحد منهم .

وقال أيضاً: ولم يكن يُقيم بها ناس معيَّنون بل يذهب قوم ويجيء آخرون، ولم يكن أهل الصفّة خيار الصحابة بل كانوا من جملة الصحابة. (٢)

وتُنسب الصفّة إلى المهاجرين، لأنَّهم أوّل من نزل فيها، فقيل: صفّة المهاجرين،

---

(١) مجموع الفتاوى: ج١١/ ٣٧.
(٢) مجموع الفتاوى: ج١١/ ٤٠ – ٤١.

وكان أبو هريرة «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» هو عريف من سكن الصفّة من القاطنين أو من الطارقين وهم الغرباء من الوفود التي كانت تقدم على النبي ﷺ لتُعلن إسلامها، فكان عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا أراد دعوة أهل الصفّة، أو أراد شيئاً منهم عَهِد إلى أبي هريرة لمعرفته بهم وبمنازلهم.

كما نزل في الصفّة بعض الأنصار أيضاً رغم وجود دور لهم في المدينة، ومنهم غسيل الملائكة حنظلة بن أبي عامر الأنصاري «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» وكعب بن مالك الأنصاري «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ».

ومن أشهر الصحابة الذين سكنوا الصفّة:

١- أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٢- أبو ذر الغفاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٣- كعب بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٤- سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٥- حنظلة بن أبي عامر الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (غسيل الملائكة).

٦- حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٧- خُنيس بن حذافة السهمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٨- خبّاب بن الأرت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

٩- صهيب بن سنان الرومي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٠- سَفِينَةُ مولى النبي ﷺ.

١١- سالم مولى أبي حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١٢- بلال بن رباح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٣- البراء بن مالك الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

١٤- ثوبان مولى النبي ﷺ.

١٥- أبو سعيد الخدري (سعد بن مالك) رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد انقطع أهل الصفّة للعلم والعبادة ومع ذلك فقد شاركوا في معارك المسلمين، في بدر وأحد وخيبر وتبوك واليمامة.

وكان غالب طعامهم من التمر فكان النبي ﷺ يُجري لكل رجلين منهم مدّاً من تمر في كل يوم، ورغم أنَّهم اشتكوا إلى رسول الله ﷺ من أكل التمر، وقالوا إنَّه أحرق بطونهم، إلّا أنَّه ﷺ لم يستطع أن يوفر لهم طعاماً غيره، فصبّرهم وواساهم، كما ورد في مسند أحمد.

وكان بعض الصحابة يضيّفهم في داره، خصوصاً أغنياء الصحابة، كما ورد ذلك في البخاري، لكنّهم في كثير من الأحيان لم يكونوا يجدون ما يسدُّ رمقهم، حتى أنَّ بعضهم كان يُصرع من الجوع، كما كان يحصل مع أبي هريرة «رضي الله عنه» حيث كان يُصرع بين المنبر وحجرة عائشة من شدّة الجوع، وكان عليه الصلاة والسلام يتفقد أحوالهم بنفسه، ويُكثر مجالستهم وإرشادهم ومواساتهم.

ولا يوجد فيما بين أيدينا من مصادر ذكر تاريخ دقيق لخروج الصحابة من الصفّة، لكن بعض المصادر تحدّثت عن أنَّ الصفّة انتهت ببداية العهد الراشدي، قال ابن الجوزي: هؤلاء القوم إنَّما قعدوا في المسجد ضرورة، وإنّما أكلوا من الصدقة ضرورة، فلمّا فتح الله على المسلمين، استغنوا عن تلك الحال وخرجوا [1]

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ثمَّ آخى رسول الله ﷺ بين المهاجرين والأنصار في دار أنس بن مالك، وكانوا تسعين رجلا، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار، آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعد الموت دون ذوي الأرحام، إلى حين وقعة بدر، فلمّا أنزل الله جل جلاله ﴿وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله﴾ [الأنفال: ٧٥] ردَّ التوارث إلى الرحم دون عقد الأخّوة، وقد قيل إنَّه آخى بين

(١) تلبيس إبليس، ابن الجوزي / ١٥٧.

المهاجرين بعضهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ فيها علياً أخاً لنفسه [١] والثبت الأول والمهاجرون كانوا مستغنين بأخوّة الإسلام وقرابة النسب عن عقد مؤاخاة، بخلاف المهاجرين مع الأنصار، ولو آخى بين المهاجرين كان أحق الناس بأخوّته أحبَّ الخلق إليه، ورفيقه في الهجرة، وأنيسه في الغار، وأفضل الصحابة وأكرمهم عليه، أبو بكر الصديق، وقد قال: لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل، وفي لفظ: ولكن أخي وصاحبي، وهذه الأخوّة في الإسلام وإن كانت عامّة كما قال: وددت أن قد رأينا إخواننا، قالوا: ألسنا إخوانك؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواني قوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني، فللصدِّيق من هذه الأخوّة أعلى مراتبها كما له من الصحبة أعلى مراتبها[٢]، وذهب ابن كثير ﷺ الى ما ذهب اليه ابن القيم ﷺ في عدم إثبات المؤاخاة بين المهاجرين.[٣]

حين وصل المهاجرون إلى المدينة واجهتهم الكثير من المشاكل على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي والصحّي، حيث تركوا كل شيء خلفهم في مكّة، أهلهم وأموالهم، إضافة إلى أنَّه لم تكن لديهم معرفة في الزراعة والصناعة التي كانت تمثّل العصب الاقتصادي للمدينة، فأهل مكّة كانوا يعتمدون على التجارة، والتجارة تحتاج إلى رأس مال، فمثّلت هذه مشكلة اقتصادية للمهاجرين، أمّا على الجانب الاجتماعي فقد كان المهاجرون يفتقدون أهلهم وأقرباءهم وديارهم بمكّة، وكانوا

(١) الأحاديث الواردة في مؤاخاة النبي ﷺ علياً كلها ضعيفة، والحديث الذي أخرجه الترمذي أنَّه ﷺ قال لعلي: «أنت أخي في الدنيا والآخرة» في سنده جميع بن عُمير، اتهمه ابن حبّان بالوضع، وقال ابن نمير: كان من أكذب الناس.

(٢) زاد المعاد ج ٣: ٥٦ - ٥٨.

(٣) المؤاخاة بين المهاجرين كانت قبل الهجرة، حيث آخى بينهم النبي ﷺ»على الحق والمواساة، فآخى بين أبي بكر وعمر، وبين حمزة وزيد بن حارثة، وبين عثمان وعبد الرحمن بن عوف، وبين الزبير وابن مسعود، وبين عبيدة بن الحارث وبلال، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبي وقاص، وبين أبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين سعيد بن زيد وطلحة بن عبيد الله.

حديثي عهدٍ بالمجتمع المدني، ممّا ولَّد إحساساً بالغربة والوحشة والحنين أول الأمر.

وأمّا على الجانب الصحّي فقد أدّى اختلاف المناخ في المدينة إلى إصابة المهاجرين بالحمّى كأبي بكر وبلال «رضي الله عنهما»، حتى دعا النبي ﷺ ربّه أن ينقل الحمّى إلى الجحفة.

حاول النبي ﷺ من خلال المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار أن يضع حلًّا لمشكلة المهاجرين في المدينة، وقد ضرب الأنصار أروع الأمثلة في التضحية والفداء ونصرة إخوانهم المهاجرين بل وآثروهم على أنفسهم، قال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]، حيث قال الأنصار للنبي عليه الصلاة والسلام: إنْ شئت فخذ منّا منازلنا، فقال لهم خيراً، وابتنى لأصحابه في أراضٍ وهبتها لهم الأنصار، وأراضٍ ليست ملكاً لأحد.

وآخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع، فقال لعبد الرحمن: إنّي أكثر الأنصار مالاً، فأقسمُ ماليَ نصفين، ولي امرأتان، فانظر أعجبهما إليك فسمّها لي، أطلِّقها، فإذا انقضت عدّتها فتزوّجها، قال: بارك الله لك في أهلك ومالك، وأين سوقكم؟ فدلّوه على سوق بني قينقاع، فما انقلب إلّا ومعه فضل من أَقِط وسمن، ثمَّ تابع الغُدُو، ثمَّ جاء يوماً وبه أثر صفرة، فقال النبي ﷺ: مَهْيَمْ؟ [١] قال: تزوجت، قال: «كم سقت إليها؟» قال: نواة من ذهب [٢] [٣]

وروى عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالت الأنصار للنبي ﷺ: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا، فقالوا: فتكفونا المؤنة، ونُشرِكُكم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا[٤]

---

(١) كلمة يستفهم بها، معناها ما حالك وما شأنك.

(٢) النواة اسم لقدر معروف عندهم فسروها بخمسة دراهم من ذهب. شرح صحيح مسلم للنووي / كتاب النكاح.

(٣) صحيح البخاري / باب إخاء النبيّ ﷺ بين المهاجرين والأنصار.

(٤) صحيح البخاري / باب إذا قال: اكفني مؤنة النخل.

وهكذا يعلن النبي ﷺ أنَّ رابطة الدم واللحم والقرابة والعشيرة والوطن لا قيمة لها في الإسلام، إذا انقطعت رابطة العقيدة، العقيدة أولاً، فإذا انقطعت هذه الرابطة بين المسلم والآخرين انقطعت معها كل الروابط الأخرى، أبوّة كانت أم بنوّة، أم أخوّة، أم عمومة، أم خؤولة، أم غير ذلك من الروابط والوشائج، فرابطة العقيدة، والعقيدة وحدها، هي التي يتجمع عليها المسلمون.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: «ولأنَّ الإنسان بهذا القدر من الكرامة والسمو جعل الله الآصرة التي يتجمع عليها البشر هي الآصرة المستمدة من النفخة الإلهية الكريمة، جعلها آصرة العقيدة في الله، فعقيدة المؤمن هي وطنه، وهي قومه، وهي أهله، ومن ثمَّ يتجمع البشر عليها وحدها، لا على أمثال ما تتجمع عليه البهائم من كلأ ومرعى وقطيع وسياج. [١]

ويقول: وكل أرض تحارب المسلم في عقيدته، وتصدّه عن دينه، وتعطل عمل شريعته، فهي دار حرب ولو كان فيها أهله وعشيرته وقومه وماله وتجارته، وكل أرض تقوم فيها عقيدته وتعمل فيها شريعته، فهي دار إسلام ولو لم يكن فيها أهل ولا عشيرة ولا قوم ولا تجارة.

الوطن: دار تحكمها عقيدة ومنهاج حياة وشريعة من الله، هذا هو معنى الوطن اللائق بالإنسان، والجنسية : عقيدة ومنهاج حياة، وهذه هي الآصرة اللائقة بالآدميين.

إنَّ عصبية العشيرة والقبيلة والقوم والجنس واللون والأرض، عصبية صغيرة مُتخلِّفة، عصبية جاهلية عرفتها البشرية في فترات انحطاطها الروحي، وسمّاها رسول الله ﷺ (منتنة) بهذا الوصف الذي يفوح منه التقزز والاشمئزاز. [٢]

ويقول الشهيد رحمه الله: وقصّة المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار قصة من عالم الحقيقة، ولكنّها في طبيعتها أقرب إلى الرؤى الحالمة، وهي قصة وقعت في هذه

(١) مقدمة في ظلال القران.

(٢) معالم في الطريق.

الأرض، ولكنّها في طبيعتها من عالم الخلد والجنان......... نزل المهاجرون على إخوانهم الأنصار، الذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم، فاستقبلوهم في دورهم وفي قلوبهم، وفي أموالهم، وتسابقوا إلى إيوائهم، وتنافسوا فيهم حتى لم ينزل مهاجري في دار أنصاري إلا بِقُرْعة، إذ كان عدد المهاجرين أقل من عدد الراغبين في إيوائهم من الأنصار، وشاركوهم كل شيء عن رضى نفس، وطيب خاطر، وفرح حقيقي مبرأ من الشح الفطري، كما هو مبرأ من الخيلاء والمراءاة.

وآخى رسول الله ﷺ بين رجال من المهاجرين ورجال من الأنصار، وكان هذا الإخاء صلة فريدة في تاريخ التكافل بين أصحاب العقائد، وقام هذا الإخاء مقام أخوة الدم، فكان يشمل التوارث والالتزامات الأخرى الناشئة عن وشيجة النسب كالديّات وغيرها. [١]

وثيقة المدينة

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار، وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، وشَرَط لهم، واشترط عليهم. [٢]

وإليك بنود ذلك الكتاب وما جاء فيه مُلَخَّصاً:

هذا كتاب من محمّد النبيّ ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم:

١ - أنَّهم أمة واحدة من دون الناس.

٢ - المهاجرون من قريش على ربعتهم [٣] يتعاقلون بينهم، وهم يَفْدون عانيهم [٤] بالمعروف والقسط بين المؤمنين، وكل قبيلة من الأنصار على ربعتهم يتعاقلون

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران، وتفسير سورة الأحزاب.

(٢) سيرة ابن هشام ج١: ٣٤٣.

(٣) الحال التي جاء الإسلام وهم عليها.

(٤) أي أسيرهم.

معاقلهم الأولى، وكل طائفة منهم تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٣- وأنَّ المؤمنين لا يتركون مفرحاً [١] بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

٤- وأنَّ المؤمنين المتقين على من بغى عليهم، أو ابتغى دسيعة [٢] ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين.

٥- وأنَّ أيديهم عليه جميعاً، ولو كان وَلَد أحدهم.

٦- ولا يَقتُل مؤمنٌ مؤمناً في كافر.

٧- ولا يَنْصُر (أي مؤمن) كافراً على مؤمن.

٨- وأنَّ ذمّة الله واحدة يجير عليهم أدناهم .

٩- وأنَّ من تبعنا من يهود فإنَّ له النصر والأسوة، غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٠- وأنَّ سلم المؤمنين واحدة، ولا يُسالِم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١١- وأنَّ المؤمنين يبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

١٢- وأنَّه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً، ولا يحول دونه على مؤمن.

١٣- وأنَّه من اعتبط [٣] مؤمناً قتلًا عن بينة فإنه قَوَدٌ به، إلاّ أن يرضى ولي المقتول.

١٤- وأنَّ المؤمنين عليه كافّة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

١٥- وأنَّه لا يحل لمؤمن أن ينصرَ مُحدِثاً ولا يؤويه، وأنَّه من نصره أو آواه فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

١٦- وأنَّكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإنَّ مردّه إلى الله ﷻ وإلى محمّد ﷺ.

---

(١) مَنْ أَثْقَلَهُ الدَّيْنُ ولا يَجدُ قضَاءَهُ.

(٢) هي ما يخرج من حلق البعير إذا رغا، فاستعاره هنا للعطية وأراد به هنا ما ينال منهم من ظلم.

(٣) قَتَل من غير علّة.

وقد وردت في نفس الكتاب بنود تتعلق باليهود في المدينة، وإليك هذه البنود مُلخّصة:

١ - إنَّ يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم، كذلك لغير بني عوف من اليهود .

٢- وإنَّ على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم.

٣- وإنَّ بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة .

٤- وإنَّ بينهم النُصْحَ والنصيحة، والبرّ دون الإثم.

٥- وإنّه لم يأثم امرؤ بحليفه.

٦- وإنَّ النصر للمظلوم.

٧- وإنَّ اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٨- وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

٩- وإنّه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإنَّ مردّه إلى الله ﷻ، وإلى محمّد رسول الله ﷺ.

١٠- وإنّه لا تُجار قريش ولا من نَصرَها.

١١- وإنَّ بينهم النصر على من دهم يثرب على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قِبَلهم.

١٢- وإنّه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم. [١]

قراءة في وثيقة المدينة

يقرِّرُ البند الأول من وثيقة المدينة (أنَّ المسلمين أمةٌ واحدة من دون الناس) مفهوم الأمّة في منظور الإسلام، والرابط الوحيد الذي يربط أفرادها بعضهم ببعض، فالأمّة الإسلامية لا تجمعها القومية، ولا العشائرية، ولا الجنس، ولا اللون، بل

(١) سيرة ابن هشام ج١: ٣٤٣ - ٣٤٥.

يجمع بين أفرادها أمرٌ واحد فقط وهو العقيدة، فأبناء الأمّة هم الذين يحملون عقيدة التوحيد أيّاً كان جنسهم أو لونهم أو عرقهم، وأيّاً كانت قوميتهم.

كما يقرِّرُ البند الأول أمراً آخر وهو تميز المسلمين عن غيرهم وأفضليتهم على مَنْ سواهم، فهم أفضل في الدنيا والآخرة من غيرهم، ولهم في الدنيا ما ليس لغيرهم، فلا مساواة بين المسلم وغير المسلم، لا في الحقوق، ولا في الواجبات، ولذلك فمَنْ ينادي بالمساواة بين المسلمين وغيرهم على أساس المواطنة أو غيرها كما ينادي اليوم دعاة العلمانية والديمقراطية والدولة المدنية، بل وحتى بعض من ينتسبون إلى الإسلام ويُسمّون أنفسهم دعاة من الحاصلين على الشهادات العليا في الدراسات الإسلامية من أساتذة الجامعات والمعاهد والمدارس الإسلامية، ومن أئمة وخطباء المساجد، مَنْ ينادي بهذا فقد خلع ربقة الإسلام ومرَق من الدين ولو وصل ذيل عمامته إلى أخمص قدميه.

ولا يعني تفصيل الكيانات العشائرية الذي وَرَد في البند الثاني من وثيقة المدينة والذي اعتبر المهاجرين كتلةً واحدة لقلّة عددهم، ونَسَبَ الأنصار إلى عشائرهم، لا يعني أبداً أنَّ الإسلام يعتبر العشائرية أساساً للارتباط بين الناس، كما لا يعني أنَّ الإسلام يقيم وزناً للعصبية القبلية، بل على العكس وصفها النبي ﷺ بأنَّها منتنة[١]، إنّما جاء ذكرها لكي تُعين العشيرة أفرادها في دفع الديّة إذا قتل أحدهم بالخطأ، وكذلك تُعين العشيرة أسراها بمفاداتهم بالمال.

ويقرر البند السادس استعلاء المؤمنين على الكافرين (ولا يقتل مؤمنٌ مؤمناً في كافر)، فدم الكافر لا يمكن أن يُكافئ دم المسلم، كيف وهو هدر؟ وإنَّما هو دم كلب كما قال عمر لأبي جندل "رضي الله عنهما" في صلح الحديبية: اصبر يا أبا جندل، فإنّما هم المشركون، وإنَّما دم أحدهم دم كلب [٢]، ولذلك جعل الإسلام لأهل الذمّة، وهم الذين يعيشون مع المسلمين داخل الدولة الإسلامية، أحكاماً خاصّة بهم، ولم

(١) متفق عليه.

(٢) انظر القصة كاملة في أحداث السنة السادسة، صلح الحديبية.

يساوهم بالمسلمين، وقد وردت الكثير من أحكامهم في الوثيقة العمرية التي كتبها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» لأهل الشام، وهذا نصّها:

كتب أهل الجزيرة إلى عبدالرحمن بن غنم: إنّا حين قدمت بلادنا طلبنا إليك الأمان لأنفسنا وأهل ملّتنا، على أنَّا شرطنا لك على أنفسنا:

ألّا نُحْدِث في مدينتنا كنيسة ولا فيما حولها ديراً ولا قلاية ولا صومعة راهب.

ولا نُجدِّدَ ما خرب من كنائسنا، ولا ما كان منها في خطط المسلمين.

وألّا نمنع كنائسنا من المسلمين أن ينزلوها في الليل والنهار.

وأن نوسع أبوابها للمارة وابن السبيل.

ولا نؤوي فيها ولا في منازلنا جاسوساً.

وألّا نكتم غشاً للمسلمين.

وألّا نضرب بنواقيسنا إلّا ضرباً خفياً في جوف كنائسنا، ولا نظهر عليها صليباً.

ولا نرفع أصواتنا في الصلاة ولا القراءة في كنائسنا فيما يحضره المسلمون.

وألّا نخرج صليباً ولا كتاباً في سوق المسلمين.

وألّا نخرج باعوثاً، - والباعوث يجتمعون كما يخرج المسلمون يوم الأضحى والفطر - ولا شعانين، ولا نرفع أصواتنا مع موتانا، ولا نظهر النيران معهم في أسواق المسلمين، وألا نجاورهم بالخنازير ولا ببيع الخمور.

ولا نظهر شركاً، ولا نرغِّب في ديننا ولا ندعو إليه أحداً.

ولا نتخذ شيئاً من الرقيق الذي جرت عليه سهام المسلمين.

وألّا نمنع أحداً من أقربائنا أرادوا الدخول في الإسلام.

وأن نلزم زيّنا حيثما كنّا.

وألّا نتشبه بالمسلمين في لبس قلنسوة ولا عمامة، ولا نعلين، ولا فرق شعر، ولا في مراكبهم، ولا نتكلم بكلامهم ولا نكتني بكناهم.

وأن نجزَّ مقادم رؤوسنا ولا نفرق نواصينا.

ونشد الزنانير على أوساطنا.

ولا ننقش خواتمنا بالعربية.

ولا نركب السروج، ولا نتخذ شيئاً من السلاح، ولا نحمله، ولا نتقلد السيوف.

وأن نوقِّر المسلمين في مجالسهم، ونرشدهم الطريق، ونقوم لهم عن المجالس إن أرادوا الجلوس ولا نطَّلِع عليهم في منازلهم، ولا نُعلِّم أولادنا القرآن [١].

ولا يشارك أحد منّا مسلماً في تجارة، إلا أن يكون إلى المسلم أمر التجارة.

وأن نُضَيّف كل مسلم عابر سبيل ثلاثة أيام ونطعمه من أوسط ما نجد.

ضمنَّا لك ذلك على أنفسنا وذرارينا وأزواجنا ومساكيننا، وإنْ نحن غيّرنا أو خالفنا عما شرطنا على أنفسنا وقبلنا الأمان عليه فلا ذمّة لنا، وقد حلَّ لك منّا ما يحل لأهل المعاندة والشقاق.

فكتب بذلك عبدالرحمن بن غنم إلى عمر بن الخطاب ﵁ فكتب إليه عمر أن أمض لهم ما سألوا، وألحق فيهم حرفين اشترطهما عليهم مع ما شرطوا على أنفسهم، ألّا يشتروا من سبايانا شيئاً، ومن ضرب مسلماً عمداً فقد خلع عهده.

فأنفذ عبدالرحمن بن غنم ذلك، وأقرَّ من أقام من الروم في مدائن الشام على هذا الشرط) [٢]

ويؤكد البند السابع في وثيقة المدينة على مبدأ البراء من المشركين (ولا يَنصُر (أي مؤمن) كافراً على مؤمن).

يقول الشهيد سيد قطب ﵀: فروابط الدم والقرابة هذه تتقطع عند حد الإيمان، إنَّها يمكن أن تُرْعى إذا لم تكن هناك محادّة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان..... ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر، وهمَّ الصديق أبو بكر بقتل ولده

(١) قال الإمام ابن القيم ﵀ عن الحكمة في هذا الشرط: صيانة للقرآن أن يحفظه مَنْ ليس من أهله ولا يؤمن به، بل هو كافر به، فهذا ليس أهلاً أن يحفظه، ولا يُمكَّن منه اهـ. [أحكام أهل الذمّة: ٢/ ١٩٢].

(٢) أحكام أهل الذمّة للإمام ابن القيم: ج٢/ ١٤٦- ١٤٧.

عبد الرحمن، وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير، وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم، متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة، وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله..... وهكذا تنقسم البشرية إلى حزبين اثنين: حزب الله وحزب الشيطان، وإلى رايتين اثنتين: راية الحق وراية الباطل، فإمّا أن يكون الفرد من حزب الله فهو واقف تحت راية الحق، وإمّا أن يكون من حزب الشيطان فهو واقف تحت راية الباطل، وهما صفّان متميزان لا يختلطان ولا يتميّعان.

لا نسب ولا صهر، ولا أهل ولا قرابة، ولا وطن ولا جنس، ولا عصبية ولا قومية، إنَّما هي العقيدة، والعقيدة وحدها، فمن انحاز إلى حزب الله ووقف تحت راية الحق فهو وجميع الواقفين تحت هذه الراية إخوة في الله، تختلف ألوانهم وتختلف أوطانهم، وتختلف عشائرهم وتختلف أُسَرُهم، ولكنّهم يلتقون في الرابطة التي تؤلف حزب الله، فتذوب الفوارق كلها تحت الراية الواحدة، ومن استحوذ عليه الشيطان فوقف تحت راية الباطل، فلن تربطه بأحد من حزب الله رابطة، لا من أرض، ولا من جنس، ولا من وطن، ولا من لون، ولا من عشيرة، ولا من نسب، ولا من صهر، لقد انبتّت الوشيجة الأولى التي تقوم عليها هذه الوشائج فانبتّت هذه الوشائج جميعاً. (١)

كما تحدّث البند الثامن عن مفهوم الموالاة وحصرها بين المؤمنين، فلا يجوز لمؤمنٍ أن يوالي كافراً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ والنصارى أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]، ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٢٨]، كما يُقرُّ البند الثامن مبدأ الجوار الذي كان معروفاً قبل الإسلام.

أمّا البند العاشر (إنَّ سلم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة المجادلة.

في سبيل الله إلّا على سواء وعدل بينهم) فيقرر أنَّ اتخاذ قرار إعلان حرب أو سلم هو صلاحية النبي ﷺ ومن ثمَّ صلاحية الدولة الإسلامية وليس من صلاحيات الأفراد، وأنَّه متى أعلنت الدولة هدنة أو سلماً أو حرباً فإنَّ جميع المسلمين ملزمٌ بهذا الإعلان.

أمّا البند الخامس عشر فيقرر مسألة مهمّة تتعلق بأمن المسلمين ودولتهم، وهي موضوع التستّر على المطلوبين للدولة، فمن نصر مطلوباً للدولة الإسلامية أو آواه وتستّر عليه، فإنَّ عليه لعنة الله وغضبه إلى يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرفٌ ولا عدل، فينبغي على كل فرد في الدولة الإسلامية الإبلاغ عن كل من يعمل ضد الدولة من الجواسيس وغيرهم.

وأمّا ما يتعلق بوثيقة اليهود

فقد تحدّث البند الأول عن العلاقة مع المتهودين من العرب من الأوس والخزرج، وأقرَّ أنَّهم حلفٌ مع المسلمين (وإنَّ يهود بني عوف أمّة مع المؤمنين)، وأمّا سبب وجود رجال من الأوس والخزرج ضمن القبائل اليهودية فقد وَرَدَ في سنن أبي داود بإسناد صحيح عن ابن عباس رضي الله عنه فقال: كانت المرأة من نساء الأنصار تكون مقلاة [1]، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوّده، فلمّا أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا، فأنزل الله تعالى ﴿لا إكراه في الدين﴾.

وتحدّث البند السابع عن أنَّ على اليهود أن يدفعوا جزءاً من نفقات الحرب مع المسلمين، أمّا اشتراك اليهود في القتال مع المسلمين فقد ثبت بالأحاديث الصحيحة أنَّ النبي ﷺ لم يسمح لليهود ولا لغيرهم من المشركين بأن يقاتلوا مع المسلمين، ومن هذه الأحاديث ما رواه الحاكم عن أبي حميد الساعدي قال: خرج رسول الله

(١) المقلاة: هي التي لا يعيش لها ولد

ﷺ حتى إذا خلف ثنية الوداع، إذا كتيبة قال: مَنْ هؤلاء؟ قالوا: بنو قينقاع رهط عبد الله بن سلام، قال: وأسلموا؟ قالوا: لا، بل هم على دينهم، قال: قل لهم: فليرجعوا، فإنّا لا نستعين بالمشركين. [1]

ونقل ابن القيم، عن الزهري أنَّ الأنصار قالت يوم أحد: ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟، فقال ﷺ: «لا حاجة لنا فيهم».

وما ورد من أحاديث عن اشتراك اليهود في القتال مع النبي ﷺ **فهي ضعيفة.**

ولا ريب أنَّ التحالفات التي تحدثنا عنها بين اليهود والأوس والخزرج قبل الإسلام بقي لها اثر ولم تنتهِ بشكل كامل إلّا بعد وقت طويل، ويتجلّى هذا في قول الأنصار للنبي ﷺ في أحد: «ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟»، كما يتضح هذا في محاولة عبدالله بن أُبيْ الشفاعة ليهود بني قينقاع حلفاء الخزرج، وكذلك محاولة بعض الأوس الشفاعة لحلفائهم بني قريظة بعد غزوة الأحزاب.

ولا يفوتنا هنا ونحن نتحدث عن رفض النبي ﷺ للاستعانة بالمشركين أن نذكر الفتوى المشؤومة التي صدرت عن ما تسمّى هيئة كبار العلماء في الجزيرة وعلى رأسهم ابن باز ومعه ما يقارب الأربعمائة ممّن يسمّون علماء ودعاة في العالم الإسلامي بجلب القوات الأمريكية إلى جزيرة محمد ﷺ لإخراج جيش صدام الذي اعتدى على أهل الكويت، حيث ضرب ابن باز عرض الحائط بكل الأدلة الصحيحة الصريحة الثابتة والتي كان هو نفسه يستدلُّ بها قبل سنة ١٤١١ هـ حين كان يُفتي بعدم جواز الاستعانة بالكافر ولو على الكافر، ثمَّ انقلب فصار يُفتي بجواز الاستعانة بالكافر على المسلم!!!، تلك الفتوى التي فُتِحَت على إثرها العديد من القواعد الأمريكية في المنطقة، وما زالت باقية إلى اليوم، وما زال المسلمون إلى اليوم يدفعون ثمن جرأة علماء الطواغيت وتلك اللحى الآثمة على الله سبحانه وتعالى، فقد قُتِل مئات الآلاف من المسلمين منذ سنة ١٤١١ هـ وإلى اليوم بقصف الطائرات التي

(١) المستدرك على الصحيحين.

تنطلق من تلك القواعد التي أفتى بفتحها ابن باز ومَنْ معه، بل ذهب ابن باز إلى أبعد من هذا حيث أخذته العزة بالإثم حين راجعه بعض من حوله في تلك الفتوى المشؤومة، فقال رادّاً على الذين راجعوه، وواصفاً الجنود الأمريكان الذين قَدِموا بفضل فتواه: «وما جاؤوا ليستحلوا البلاد، ولا ليأخذوها، بل جاؤوا لصدّ العدوان وإزالة الظلم ثمَّ يرجعون إلى بلادهم، وهم الآن يتحرون المواضع التي يستعين بها العدو، وما يتعمدون قتل الأبرياء ولا قتل المدنيين، وإنّما يريدون قتل الظالمين المعتدين وإفساد مخططهم والقضاء على سبل إمدادهم وقوتهم في الحرب» (١)

بل اعتبر علّامتهم!!! أبو بكر الجزائري دخول القوات الصليبية إلى جزيرة محمد ﷺ في وقتها أمراً يستحق سجدة الشكر!!!.

وقد اعتبر البند الثامن مدينة رسول الله ﷺ حرماً، والحرم: ما لا يحل انتهاكه، فلا يقتل صيده ولا يقطع شجره، وحرم المدينة بين جبل ثور في الشمال، وجبل عير في الجنوب، وبين الحرّة الشرقية والحرّة الغربية، ويدخل في حرمها وادي العقيق(٢)

كما أقرَّ البند التاسع بوجود سلطة قضائية يحتكم إليها كل سكان المدينة بِمَنْ فيهم اليهود إذا كانت القضايا بينهم وبين المسلمين، أمّا إذا كانت فيما بينهم فليسوا مُلزمين بالرجوع إلى القضاء الإسلامي، ويحتكمون إلى التوراة ، لكنَّ اليهود احتكموا إلى النبي ﷺ في بعض شؤونهم الداخلية، كما حصل بين بني النضير وبني قريظة في ديّة القتلى بينهما، فقد كانت بنو النضير أعزَّ من بني قريظة، فكانت تفرض

(١) مجموع فتاوى ومقالات ابن باز: ٦/ ١٤٧.

(٢) قول البعض عن المسجد الأقصى: ﴿ثالث الحرمين الشريفين﴾ خطأ ينبغي التنبّه إليه، فالمسجد الأقصى ليس حرماً، وللمسلمين حرمان لا ثالث لهما: حرم مكّة، وحرم المدينة، لكن يبقى المسجد الأقصى من الأماكن المقدّسة عند المسلمين، فمنه عرج رسول الله ﷺ إلى السماء ليلة الإسراء والمعراج، والصلاة في المسجد الأقصى تعدل ألف صلاة في غيره أو مائة أو خمسمائة أو مائتين وخمسين صلاة، على اختلاف الروايات، وقد رجَّح الحافظ العراقي الأحاديث التي فيها أنَّ الصلاة في بيت المقدس بألف صلاة. [طرح التثريب: ج٣/ ٤٧ -٤٨].

عليهم ديّة مضاعفة لقتلاها، فلمّا قدم النبي ﷺ إلى المدينة امتنع بنو قريظة عن دفع الضعف، وطالبوا بالمساواة في الديّة فنزل قوله تعالى: ﴿وكتبنا عليهم فيها أنَّ النفس بالنفس﴾ [المائدة: ٤٥].

كما أكَّد البند العاشر من الوثيقة على منع اليهود من نصرة قريش أو إجارتها، حيث كان عليه السلام ينوي التعرض لتجارة قريش التي تمرُّ غربي المدينة نحو الشام، وهذا ما حصل لاحقاً حين تعرّض المسلمون لقافلة أبي سفيان ليكون هذا التعرّض سبباً في غزوة بدر.

ومثلما حرص النبي ﷺ في هذه المرحلة على أن يعمّق ويجذّر معاني الولاء والبراء عند المسلمين فجعلهم أمّة واحدة من دون الناس، قاطعاً بذلك كل الوشائج والروابط التي كانت تربطهم مع أوطانهم وعشائرهم، فدار الإسلام هي وطن المسلم، والمسلمون هم أهله وعشيرته، والكافرون أعداؤه وإن كانوا أهله، أباه وأمه وإخوته وأقاربه، كذلك حرص النبي ﷺ على تعليم المسلمين، وتربيتهم، وتزكية نفوسهم، وحثّهم على مكارم الأخلاق، وتنشأتهم على العبادة والطاعة، فحرص على بناء الفرد والأسرة والمجتمع:

عن حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ: يقول: لا يدخل الجنّة قتّات [١] [٢]

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ ، يقول: من تعظم في نفسه، أو اختال في مشيته، لقي الله وهو عليه غضبان. [٣]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غدرة فلان. [٤]

(١) هو النمّام، والنميمة هي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد بينهم. شرح صحيح مسلم للنووي / كتاب الإيمان / باب بيان غلظ تحريم النميمة.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه الإمام أحمد واللفظ له، والحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه.
(٤) متفق عليه واللفظ لمسلم.

وعن أبي الدرداء ﵁ أنَّ النبي ﷺ قال: ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خُلُقٍ حسن، وإنَّ الله ليبغض الفاحش البذيء. [١]

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سُئل رسول الله ﷺ عن أكثر ما يُدخل الناس الجنّة فقال: تقوى الله، وحُسن الخُلُق [٢]، وسُئِل عن أكثر ما يدخل الناس النّار فقال: الفم والفرج. [٣]

وعن جابر ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: إنَّ من أحبّكم إليَّ وأقربكم منّي مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإنَّ أبغضكم إليَّ وأبعدكم منّي مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون [٤]، والمتفيهقون، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون. [٥]

وعن أبي أمامة الباهلي ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: أنا زعيم ببيت في رَبَض الجنّة [٦] لمن ترك المراء وإنْ كان محقاً، وببيت في وسط الجنّة لمن ترك الكذب وإنْ كان مازحاً، وببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقُه. [٧]

وعن بَهْزِ بْنِ حَكِيمٍ عن أبيه عن جدّه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ويلٌ للذي يحدِّث فيكذب ليُضحك به القوم، ويلٌ له، ثمَّ ويلٌ له. [٨]

وعن عبد الله بن مسعود ﵁ عن النبي ﷺ قال: إنَّ الصدق يهدي إلى البرِّ، وإنَّ البرَّ يهدي إلى الجنّة، وإنَّ الرجل ليَصْدُق حتى يكون صدّيقاً، وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور، وإنَّ الفجور يهدي إلى النّار، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يُكتَب عند الله كذاباً. [٩]

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٢) وروى الترمذي عن عبد الله بن المبارك ﵀ أنّه وصف حُسن الخلق فقال: هو بسطُ الوجه، وبذلُ المعروف، وكفُّ الأذى.

(٣) رواه الترمذي وقال: حديث صحيح غريب.

(٤) والثرثار: الكثير الكلام، والمتشدق: الذي يتطاول على الناس في الكلام.

(٥) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.

(٦) ربض الجنّة: أدناها.

(٧) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

(٨) رواه أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح.

(٩) متفق عليه واللفظ للبخاري.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «أدِّ الأمانة إلى مَنْ ائتمنك، ولا تخنْ مَنْ خانك». [1]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث، إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتُمِن خان». [2]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من كنَّ فيه كان منافقًا خالصاً، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر». [3]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس المؤمن بالطعان، ولا اللعان، ولا الفاحش، ولا البذيء». [4]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يدخل الجنّة مَنْ كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر، قال رجل: إنَّ الرجل يحبُّ أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسنة، قال: إنَّ الله جميل يحب الجمال، الكِبْر: بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ». [5] [6]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حُسْنِ إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه». [7]

وعن المقدام رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما أكل أحدٌ طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده، وإنَّ نبي الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده». [8]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم

---

(١) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه ابن حبّان والترمذي وقال: حسن غريب، وصحَّح إسناده الحافظ العراقي.
(٥) غَمَطَ الناس: ازدراهم واحتقرهم.
(٦) رواه مسلم.
(٧) رواه الترمذي وقال: حديث غريب.
(٨) رواه البخاري.

حبله فيحتطب على ظهره، خيرٌ له من أن يأتي رجلاً فيسأله أعطاه أو منعه». [١]

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده». [٢]

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: «إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى تختلطوا بالناس، أجل أن يحزنه»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه». [٤]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: «مَنْ أحق الناس بحسن صحابتي؟، قال: أمُّك، قال: ثمَّ مَنْ؟ قال: ثمَّ أمُّك، قال: ثمَّ مَنْ؟، قال: ثمَّ أمُّك، قال: ثمَّ مَنْ؟، قال: ثمَّ أبوك». [٥]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «سألت النبي ﷺ أي العمل أحبّ إلى الله؟ قال: الصلاة على وقتها، قال: ثمَّ أي؟ قال: ثمَّ بر الوالدين، قال: ثمَّ أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: حدثني بهن، ولو استزدته لزادني». [٦]

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «خيرُكم خيرُكم لأهله، وأنا خيرُكم لأهلي». [٧]

وعن عمرو بن الأحوص رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال في حجة الوداع: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنّما هنَّ عوانٍ عندكم ليس تَملِكُونَ منهنَّ شَيْئًا غَيْرَ ذلك». [٨]

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه البخاري.
(٧) رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب صحيح.
(٨) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ألا كُلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام الذي على الناس راعٍ، وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راعٍ على أهل بيته، وهو مسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولده، وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راعٍ على مال سيده، وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته». (١)

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه أنَّه سمع النبي ﷺ يقول: «لا يدخل الجنة قاطع». (٢)

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جانبه». (٣)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، ومَنْ كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليُكرم ضيفه، ومَنْ كان يؤمن بالله اليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت (٤)، وفي لفظ: ومَن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلْيَصلْ رحمَه» (٥)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ يقول: «تَهَادُوا، تَحابّوا». (٦)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلاَ تُنَفِّرُوا». (٧)

وَعن عبدِاللَّهِ بنِ سَلاَمٍ رضي الله عنه أَنَّ النبيّ ﷺ قالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ أَفْشوا السَّلامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا باللَّيْل وَالنَّاسُ نِيامٌ، تَدخُلُوا الجَنَّةَ بِسَلامٍ». (٨)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي قاطع رحم، والحديث في الصحيحين.

(٣) رواه البخاري في الأدب المفرد والحاكم في المستدرك وصححه الذهبي.

(٤) رواه البخاري.

(٥) رواه البخاري.

(٦) رواه البخاري في الأدب المفرد، وأبو يعلى بإسناد حسن.

(٧) متفق عليه.

(٨) رواهُ الترمذيُّ وقالَ: حديثٌ حسنٌ صحيحٌ

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: إنَّ الله تعالى يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يُتقِنه.(١)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «لا تباغضوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا» (٢)، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام»

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومَنْ كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومَنْ فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومَنْ ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة».(٣)

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجد فبكلمة طيبة»(٤)

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ رأى منكم منكراً فليغيّره بيده، فإنْ لم يستطع فبلسانه، فإنْ لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».(٥)

وقيل لسلمان الفارسي رضي الله عنه: قد علَّمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة، قال: فقال: «أجل، لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول، أو أن نستنجي باليمين، أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار، أو أن نستنجي برجيع(٦) أو بعظم».(٧)

فهذا هو الإسلام، كلٌّ لا يتجزأ، فمَنْ دعا الناس إلى التوحيد وما يتطلبه من تحكيم للشريعة وهدم للقبور، وولاء وبراء وجهاد في سبيل الله، وحذَّرهم من الوقوع في شرك القصور أو القبور، وأهمل دعوتهم إلى حسن الخُلُق والصدق والوفاء بالعهد والأمانة وصلة الأرحام وسائر الفضائل ونهيهم عن سوء الخُلُق والكذب والغدر

(١) رواه الطبراني وأبو يعلى والبيهقي.
(٢) أي: لا يعطِ كل واحد منكم أخاه دبره وقفاه فيعرض عنه ويهجره.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه مسلم.
(٦) الروث أو العذرة.
(٧) رواه مسلم.

والخيانة وسائر الرذائل التي نهى عنها النبي ﷺ فقد أساء إلى الإسلام وإلى نبيه عليه السلام.

ومَنْ قدَّم الإسلام للناس على أنَّه صلاة وصيام وحُسن خُلُق وصلة أرحام وسائر الفضائل، واجتناب سائر الرذائل، وأهمل الكلام عن التوحيد ووجوب تحكيم الشريعة وهدم القبور، ولم يحذِّر الناس من خطورة الوقوع في الشرك بالله سبحانه وتعالى متمثلاً في أصنام العصر من الديمقراطية والدولة المدنية وغيرها فما قدَّم للنّاس إسلام محمد ﷺ، بل قدّم لهم شيئاً آخر ألبسه عباءة الإسلام، والإسلام منه براء، فالأعمال الصالحة أغصان في شجرة جذعها وأصلها هو التوحيد، فإذا قُطع الأصل ماتت الأغصان ولم يعد لها قيمة، هكذا حكم الله سبحانه وتعالى على الأعمال الصالحة التي صدرت ممّن قُطِع عندهم الجذع، أعني التوحيد، فقال تعالى ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]، وقد سألت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ عن عبدالله بن جدعان فقالت: يا رسول الله، ابن جدعان كان في الجاهلية يَصِل الرحم، ويُطعم المسكين، فهل ذاك نافعه؟ قال: لا ينفعه، إنّه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين[(١)]

وكذا لم تنفع الأعمال الصالحة التي كان يقوم بها عمرو بن لُحي من إطعام الطعام وحُسن الخُلُق مع الآخرين وغيرها، لم تنفعه حين انقطع عنده الجذع، أعني التوحيد، فهو يجرُّ قُصْبَه في النار، كما أخبر ﷺ [(٢)]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله عن المجتمع المسلم: هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتضامن المتكافل المتناسق، هذا المجتمع الذي حقَّقه الإسلام مرة في أرقى وأصفى صوره، ثمَّ ظلَّ يحققه في صور شتى على توالي الحِقَب، تختلف درجة صفائه، ولكنّه يظل في جملته خيراً من كلِّ مجتمع آخر صاغته الجاهلية في الماضي والحاضر، وكلِّ مجتمع لوَّثته هذه الجاهلية بتصوراتها ونظمها الأرضية.

هذا المجتمع الذي تربطه آصرة واحدة - آصرة العقيدة - حيث تذوب فيها

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

الأجناس والأوطان، واللغات والألوان، وسائر هذه الأواصر العَرَضية التي لا علاقة لها بجوهر الإنسان.

هذا المجتمع الذي يسمع الله يقول له: إنَّما المؤمنون إخوة، والذي يرى صورته في قول النبي الكريم: مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى. [1]

هذا المجتمع الذي من آدابه: ﴿وإذا حُييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردّوها﴾ ﴿ولا تصعِّر خدك للناس ولا تمش في الأرض مرحاً إنَّ الله لا يحب كل مختال فخور﴾ ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبُّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إنَّ الله تواب رحيم﴾.

هذا المجتمع الذي من ضماناته: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبإ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ ﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إنَّ بعض الظن إثم ولا تجسسوا﴾، ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها﴾ و﴿كل المسلم على المسلم حرام دمه وعرضه وماله﴾ [2].

ثمَّ هذا المجتمع النظيف العفيف الذي لا تَشيع فيه الفاحشة، ولا يتبجح فيه الإغراء، ولا تُروَّج فيه الفتنة، ولا ينتشر فيه التبرّج، ولا تتلفت فيه الأعين على العورات، ولا ترفُّ فيه الشهوات على الحُرُمات، ولا ينطلق فيه سعار الجنس وعرامة اللحم والدم كما تنطلق في المجتمعات الجاهلية قديماً وحديثاً، هذا المجتمع الذي تحكمه التوجيهات الربانية الكثيرة، والذي يسمع الله - سبحانه -

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.

يقول: ﴿إنَّ الذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ ﴿والذين يرمون المحصنات ثمَّ لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ والذي يخاطب فيه نساء النبي - أطهر نساء الأرض في أطهر بيت في أطهر بيئة في أطهر زمان: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ ۚ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾.

وفي مثل هذا المجتمع تأمن الزوجة على زوجها، ويأمن الزوج على زوجته، ويأمن الأولياء على حُرُماتهم وأعراضهم، ويأمن الجميع على أعصابهم وقلوبهم، حيث لا تقع العيون على المفاتن، ولا تقود العيون القلوب إلى المحارم، فإمّا الخيانة المتبادلة حينذاك وإمّا الرغائب المكبوتة وأمراض النفوس وقلق الأعصاب، بينما المجتمع المسلم النظيف العفيف آمن ساكن، ترفُّ عليه أجنحة السلم والطهر والأمان.

وأخيراً إنَّه ذلك المجتمع الذي يكفل لكل قادر عملاً ورزقاً، ولكل عاجز

ضمانة للعيش الكريم، ولكل راغب في العفّة والحصانة زوجة صالحة، والذي يعتبر أهل كل حي مسؤولين مسؤولية جنائية لو مات فيهم جائع، حتى ليرى بعض فقهاء الإسلام تغريمهم بالديّة.

والمجتمع الذي تُكْفَل فيه حريات الناس وكراماتهم وحرماتهم وأموالهم بحكم التشريع، بعد كفالتها بالتوجيه الرباني المطاع، فلا يؤخذ واحد فيه بالظنّة، ولا يُتسّور على أحد بيته، ولا يتجسَّس على أحد فيه متجسِّس، ولا يذهب فيه دم هدراً والقصاص حاضر، ولا يضيع فيه على أحد ماله سرقة أو نهباً والحدود حاضرة.

المجتمع الذي يقوم على الشورى والنصح والتعاون، كما يقوم على المساواة والعدالة الصارمة التي يشعر معها كل أحد أنَّ حقه منوط بحكم شريعة الله لا بإرادة حاكم، ولا هوى حاشية، ولا قرابة كبير.

وفي النهاية المجتمع الوحيد بين سائر المجتمعات البشرية، الذي لا يخضع البشر فيه للبشر، إنّما يخضعون حاكمين ومحكومين لله ولشريعته، ويُنفِّذون حاكمين ومحكومين حكم الله وشريعته، فيقف الجميع على قدم المساواة الحقيقية أمام الله رب العالمين وأحكم الحاكمين، في طمأنينة وفي ثقة وفي يقين.[1]

ويقول الشهيد رحمه الله: ولقد كان من النتائج الواقعية الباهرة للمنهج الإسلامي في هذه القضية، ولإقامة التجمع الإسلامي على آصرة العقيدة وحدها، دون أواصر الجنس والأرض واللون واللغة والمصالح الأرضية القريبة والحدود الإقليمية السخيفة، ولإبراز «خصائص الإنسان» في هذا التجمع وتنميتها وإعلائها، دون الصفات المشتركة بينه وبين الحيوان، كان من النتائج الواقعية الباهرة لهذا المنهج أن أصبح المجتمع المسلم مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات، بلا عائق من هذه العوائق الحيوانية السخيفة! وأنْ صبَّت في بوتقة المجتمع الإسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت،

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.

وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تُعَدُّ نسبياً قصيرة، وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة المتناسقة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعة، على بعد المسافات وبطء طرق الاتصال في ذلك الزمان.

لقد اجتمع في المجتمع الإسلامي المتفوق: العربي والفارسي والشامي والمصري والمغربي والتركي والصيني والهندي والروماني والإغريقي والأندونسي والإفريقي، إلى آخر الأقوام والأجناس، وتجمّعت خصائصهم كلها لتعمل متمازجة متعاونة متناسقة في بناء المجتمع الإسلامي والحضارة الإسلامية، ولم تكن هذه الحضارة الضخمة يوما ما «عربية» إنما كانت دائماً «إسلامية»، ولم تكن يوما ما «قومية» إنما كانت دائماً «عقيدية».

ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة، وبآصرة الحب، وبشعور التطلع إلى وجهة واحدة، فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم، وأبرزوا أعمق خصائص أجناسهم، وصبّوا خلاصة تجاربهم الشخصية والقومية التاريخية في بناء هذا المجتمع الواحد الذي ينتسبون إليه جميعاً على قدم المساواة، وتجمع فيه بينهم آصرة تتعلق بربهم الواحد وتبرز فيها «إنسانيتهم» وحدها بلا عائق، وهذا ما لم يتجمع قط لأي تجمع آخر على مدار التاريخ، ولكنَّ الله غالب على أمره، وهذه الانتكاسات الحيوانية الجاهلية في حياة البشرية لن يكتب لها البقاء، وسيكون ما يريده الله حتماً، وستحاول البشرية ذات يوم أن تقيم تجمعاتها على القاعدة التي كرَّم الله الإنسان بها، والتي تَجمّع عليها المجتمع المسلم الأول فكان له تفرده التاريخي الفائق، وستبقى صورة هذا المجتمع تلوح على الأفق، تتطلع إليها البشرية وهي تحاول مرة أخرى أن ترقى في الطريق الصاعد إلى ذلك المرتقى السامي الذي بلغت إليه في يوم من الأيام. [1]

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنفال.

زيادة الصلاة وتشريع الأذان

قال ابن جرير: وفي هذه السنة [1] زِيدَ في صلاة الحضر - فيما قيل - ركعتان، وكانت صلاة الحضر والسفر ركعتين، وذلك بعد مقدم النبي ﷺ المدينة بشهر، في ربيع الآخر لمضي ثنتي عشرة ليلة منه.

روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: فُرِضَت الصلاة أول ما فُرِضَت ركعتين، فأُقرّت صلاة السفر وزيد في صلاة الحضر.

قال ابن اسحاق: وقد كان رسول الله ﷺ حين قَدِمها إنّما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين مواقيتها، بغير دعوة، فهمَّ رسول الله ﷺ حين قدمها أن يجعل بوقاً كبوق يهود الذين يدعون به لصلاتهم، ثمَّ كرهه، ثمَّ أمر بالناقوس، فَنُحت ليضرب به للمسلمين للصلاة، فبينما هم على ذلك، إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة بن عبد ربه، أخو بني الحارث بن الخزرج، النداء، فأتى رسول الله ﷺ، فقال له: يا رسول الله، إنّه طاف بي هذه الليلة طائف: مرَّ بي رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً في يده، فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قال: قلت: ندعو به إلى الصلاة، قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قال: قلت: وما هو؟ قال: تقول: (الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر، أشهد أنْ لا إله إلا الله، أشهد أنْ لا إله إلا الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله، أشهد أنَّ محمداً رسول الله، حي على الصلاة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، حي على الفلاح، الله أكبر الله أكبر، لا إله إلا الله)، فلمّا أخبر بها رسول الله ﷺ، قال: إنّها لرؤيا حق إن شاء الله، فقم مع بلال فألْقِها عليه، فليُؤذّن بها، فإنّه أندى صوتاً منك، فلمّا أذَّنَ بها بلال سمعها عمر بن الخطاب، وهو في بيته، فخرج إلى رسول الله ﷺ، وهو يجرُّ رداءه، وهو يقول: يا نبي الله، والذي بعثك بالحق، لقد رأيت مثل الذي رأى، فقال رسول الله ﷺ: فلله الحمد على ذلك. [2]

---

(١) يعني السنة الأولى من الهجرة

(٢) سيرة ابن هشام: ج/ ٣٤٨ - ٣٤٩.

قلت: لم يرسل النبي ﷺ السرايا ولم يبدأ العمل العسكري إلّا بعد ستة أشهر من وصوله المدينة، حيث وصل إليها في ربيع الأول وهو الشهر الثالث، وبقي إلى رمضان وهو الشهر التاسع يوطّد أركان الدولة الوليدة ويرتّب شؤونها الداخلية، فلمّا تمَّ له ذلك، ابتدأ العمل العسكري في رمضان بسرية عمّه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه.

قريش تتوعد المسلمين وتحرّض ضدهم

ازداد غيض قريش على المسلمين بعد أن فشلت كل المحاولات للقضاء عليهم، وصارت لهم دولة في المدينة، فكتبوا إلى عبدالله بن أُبيْ بن سلول بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة: «إنَّكم آويتم صاحبنا، وإنَّا نقسم بالله لتُقاتلُنَّه أو لتُخرجُنَّه، أو لنسيرنَّ إليكم بأَجمُعِنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم»

فلمَّا بلغ ذلك عبد الله بن أُبيْ ومَن كان معه من عَبَدَة الأوثان اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ، فلمّا بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم، فقال: لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم، فلمّا سمعوا ذلك من النبي ﷺ تفرقوا.[1]

ثمَّ إنَّ قريشاً أرسلت إلى المسلمين تقول لهم: لا يغرنَّكم أنكم أفلتمونا إلى يثرب، سنأتيكم فنستأصلكم ونبيد خضراءكم في عقر داركم.

وقد أخذ النبي ﷺ والمسلمون تهديدات قريش على محمل الجد، لأنَّهم يدركون حجم المأزق الذي أصبحت فيه قريش، ومدى خطورة ما حصل من هجرة النبي ﷺ والمسلمين إلى المدينة على قريش، لذلك كان رسول الله ﷺ يبيت في حرس من أصحابه، روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: «سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة، قالت: فبينما نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح، فقال: من هذا؟ قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له

(١) سنن أبي داود / باب خبر النضير.

رسول الله ﷺ: ما جاء بك؟ فقال: وقع في نفسي خوفٌ على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثمَّ نام)، واستمرّت هذه الحراسة حتى نزل قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأمر الصحابةَ بالانصراف عن حراسته.

ولم يكن هذا الخطر يختصُّ بالنبي ﷺ بل شمل كل الصحابة، فكانوا لا يبيتون إلّا بالسلاح، ولا يصبحون إلّا فيه، حتى جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، أَمَا يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ فقال عليه السلام: «لا تلبثون إلّا يسيراً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس عليه حديدة»[1]

الإذن بالقتال

قال الإمام ابن القيّم رحمه الله: فلمّا استقر رسول الله ﷺ بالمدينة وأيّده الله بنصره بعباده المؤمنين الأنصار، وألَّف بين قلوبهم بعد العداوة والإحن التي كانت بينهم، فمنعته أنصار الله وكتيبة الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه، وقدَّموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهم العرب واليهود عن قوس واحدة، وشمّروا لهم عن ساق العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كل جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح، حتى قويت الشوكة فقال تعالى: ﴿أُذن للذين يقاتَلون بأنَّهم ظُلموا وإنَّ الله على نصرهم لقدير﴾ [الحج ٣٩].

ثم فَرض عليهم القتال بعد ذلك لِمن قاتلهم دون من لم يقاتلهم فقال: ﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم﴾ [البقرة ١٩٠]، ثمَّ فَرض عليهم قتال المشركين كافّة، وكان محرَّماً ثم مأذوناً به ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال ثم مأموراً به لجميع المشركين، إمّا فرض عين على أحد القولين أو فرض كفاية على المشهور.[2]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي / تفسير سورة النور، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير / تفسير سورة النور.

(٢) زاد المعاد: ج٣/ ٦٤.

وبعد نزول الإذن بالقتال قام المسلمون بعمليات عسكرية خارج المدينة لتحقيق عدّة أهداف:

١ – القيام بعمليات استطلاعية للتعرف على المناطق والطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة، خاصّة الطرق التجارية الحيوية لقريش بين مكّة والشام.

٢– عقد المعاهدات مع القبائل التي تسكن قريباً من هذه الطرق، لتأمين حركة المجاهدين المسلمين، وضمان عدم التعرّض لهم من قبل هذه القبائل، لأنَّ الهدف الآني للدولة الإسلامية هو التصدي لقريش، فكان لا بُدَّ من تحييد بقية الأعداء.

٣– إشعار أعداء الدولة الإسلامية في الداخل من المشركين واليهود، وفي الخارج من الأعراب الذين يسكنون حول المدينة بقوّة الدولة الإسلامية.

٤– البدء بفرض حصار اقتصادي على قريش من خلال تهديد الطرق التجارية بين مكّة والشام، حيث أصبحت قوافل قريش غير آمنة وهي تسلك هذه الطرق ذهاباً وإياباً.

قال الإمام ابن القيم ﵀: الجهاد أربع مراتب: جهاد النفس، وجهاد الشيطان، وجهاد الكفار، وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداها: أن يجاهدها على تعلّم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا سعادة في معاشها ومعادها إلّا به، ومتى فاتها عِلْمُه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرّد العلم بلا عمل إنْ لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخَلْق، ويتحمل ذلك كله لله، فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإنَّ

السلف مجمعون على أنَّ العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه، فمن عَلِم وعمِل وعلّم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات.

وأمّا جهاد الشيطان فمرتبتان، إحداهما: جهاده على دفع ما يُلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يُلقي إليه من الإرادات الفاسدة والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعِدَّةِ اليقين، والثاني: يكون بعدّةِ الصبر، قال تعالى: ﴿وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ [السجدة: ٢٤] فأخبر أنَّ إمامة الدين إنّما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

وأمّا جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب: بالقلب، واللسان، والمال، والنفس، وجهاد الكفار أخصّ باليد، وجهاد المنافقين أخصّ باللسان.

وأمّا جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب، الأولى: باليد إذا قدر، فإن عجز انتقل إلى اللسان، فإن عجز جاهد بقلبه، فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد، و«مَنْ مات ولم يغز ولم يحدِّث نفسه بالغزو مات على شعبة من النفاق».[1]

١- سريّة سيف البحر

سريّة حمزة رضي الله عنه

كانت هذه السريّة في رمضان سنة ١ هـ، حيث أرسل رسول الله ﷺ ثلاثين رجلاً من المهاجرين بإمارة حمزة بن عبدالمطلب ليعترضوا عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل في ثلاثمائة رجل، حيث سار حمزة ومَنْ معه حتى بلغوا سيف البحر من ناحية العيص ليلتقوا بالمشركين واصطفوا للقتال لكن حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان حليفاً للفريقين، فلم يتقاتلوا، ويعدُّ لواء حمزة أول لواء عقده رسول الله ﷺ، وكان لواءً أبيضاً، وكان حامله أبا مرثد كنّاز بن حصين الغنوي.

---

(١) زاد المعاد: ج٣/ ٩ - ١٠.

٢- سريّة رابغ

سريّة عبيدة بن الحارث رضي الله عنه

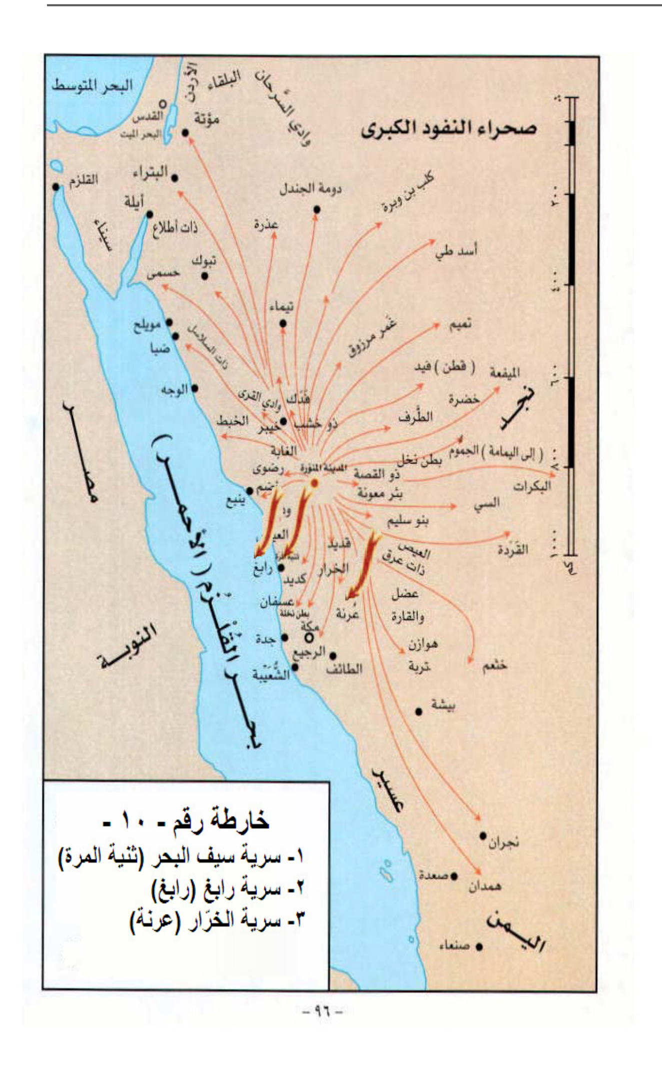
كانت هذه السريّة في شوال سنة ١ هـ، حيث أرسل رسول الله ﷺ ستين من المهاجرين بإمارة عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب «رضي الله عنه»، فلقي أبا سفيان في مائتين من المشركين، فترامى الفريقان بالنبل، ولم يحصل قتال، وكان لواء عبيدة أبيضاً، يحمله مسطح بن أثاثة بن المطلب.

وفي هذه السرية انضمَّ رجلان من قريش إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو وعتبة بن غزوان «رضي الله عنهما»، حيث خرجا مع جيش قريش وكانا مُسْلِميْن ليكون ذلك وسيلة لهما للوصول إلى المسلمين.

٣- سريّة الخرّار

سريّة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه

كانت هذه السريّة في ذي القعدة سنة ١ هـ، حيث أرسل رسول الله ﷺ عشرين راكباً بإمارة سعد بن أبي وقاص لاعتراض عير قريش، وأمره بأن لا يجاوز الخرّار، فخرجوا مشاة يكمنون في النهار، ويسيرون بالليل إلى أن وصلوا الخرّار، لكنّهم وجدوا العير قد فاتتهم، وكان لواء سعد «رضي الله عنه» أبيضاً وحامله المقداد بن عمرو.



خارطة رقم - ١٠ -

١- سرية سيف البحر (ثنية المرة)

٢- سرية رابغ (رابغ)

٣- سرية الخرّار (عرنة)

- ٩٦ -

ومن أحداث هذه السنة

١- وفاة أسعد بن زرارة: في هذه السنة توفي أبو أمامة أسعد بن زرارة ﵁ أحد النقباء الاثني عشر ليلة العقبة على قومه بني النّجار، قال ابن إسحاق: توفي والنبي ﷺ يبني مسجده قبل بدر، فقد أصابه وجع الذبح في حلقه، فقال رسول الله ﷺ: لأبلغنَّ أو لأبلينَّ في أبي أمامة عذراً، فكواه بيده فمات، فقال رسول الله ﷺ: ميتة سوء لليهود، يقولون: هلّا دفع عن صاحبه؟ ولا أملك له ولا لنفسي من الله شيئاً.

٢- وفي هذه السنة توفي البراء بن معرور ﵁ أحد نقباء الأنصار يوم العقبة، توفي قبل قدوم النبي ﷺ إلى المدينة بشهر.

٣- وفي هذه السنة وُلد عبد الله بن الزبير ﵁ فكان أوّل مولود وُلِد في الإسلام بعد الهجرة، وفيها وُلد النعمان بن بشير «﵁» فكان أوّل مولود للأنصار بعد الهجرة.

٤- وفي هذه السنة مات الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي بمكّة، وقد هلكا على الشرك.

السنة الثانية من الهجرة

قام النبي ﷺ في هذه السنة بثمانية أعمال عسكرية، قاد سبعة منها بنفسه، بينما أرسل سريّة واحدة، وهي سرية عبدالله بن جحش إلى نخلة.

وما إنْ نزل جبريل على النبي ﷺ بـ «يا أيها المدثِّر» في غار حراء، حتى أمضى ﷺ الثلاث والعشرين سنة المتبقية من حياته في دعوة الناس إلى التوحيد والجهاد، وإذا كانت الدعوة إلى التوحيد دون اللجوء إلى القوة قد صبغت الفترة المكية، فإنَّ الدعوة إلى التوحيد والجهاد في سبيل الله، وإخضاع الناس لسلطان الدولة الإسلامية بالقوة هي التي صبغت الفترة المدنية، ولذلك قام عليه السلام بقرابة مائة عمل عسكري في عشر سنوات فقط، أي بمعدّل عمل عسكري في الشهر تقريباً، وكانت كل هذه الأعمال العسكرية تعرّضية هجومية باستثناء عدد قليل منها لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة.

إنَّ الجهاد في الإسلام لم يكن في يوم من الأيام عملاً دفاعياً، وإنَّما كان دائماً فريضة دينية دعا إليها القرآن وحرّض عليها النبي ﷺ، وَوَصْفُ حركة الفتح الإسلامي بأنّها دفاعية هي محاولة تبريرية لا تصمد لأي مناقشة جادّة، وإنَّما يَقدُم على مثل هذا التبرير المهزومون نفسياً ممن يسمّون أنفسهم بالأحزاب الإسلامية وأتباعهم من الببغاوات الذين لا يفقهون ولا ينقهون، فهل اعتدت الإمبراطورية الفارسية على الدولة الإسلامية في الجزيرة العربية حتى أرسل لها أبو بكر الصدّيق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما خالداً بن الوليد والمثنى بن حارثة والأحنف بن قيس وأبا عبيد وسعد بن أبي وقاص والنعمان بن مقرن؟، وهل اعتدت الامبراطورية الرومانية على الدولة الإسلامية حتى أرسل لها أبو بكر الجيوش الأربعة بقيادة أبي عبيدة وعمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان؟، وهل اعتدت الصين على المسلمين حتى وصلتها جيوش قتيبة بن مسلم الباهلي لتجبرها على دفع الجزية

للدولة الإسلامية؟، وهل اعتدى نصارى الأندلس على المسلمين حتى وصلتهم جيوش طريف بن مالك وطارق بن زياد وموسى بن نصير؟، وهل اعتدت فرنسا على المسلمين حين هاجمها عبدالرحمن الغافقي في بواتيه؟، وهل اعتدى أهل صقلية على الدولة الإسلامية حتى غزاهم المسلمون بقيادة العالم المجاهد أسد بن الفرات ليكمل المسلمون بعده فتح جنوب إيطاليا؟

وإذا كانت الإجابة على كل هذه الأسئلة: لا، فكيف نقول بعد ذلك إنَّ حركة الفتح الإسلامي كانت دفاعية لتأمين حدود الدولة الإسلامية؟!!!

هل يقتضي تأمين حدود الدولة الإسلامية التوغل في قارات العالم القديم الثلاث آسيا وأوروبا وأفريقيا؟

إنَّ الجهاد في سبيل الله يقوم على مبدأ التفسير الإسلامي للكون والحياة، فالله ﷻ هو خالق هذه الأرض وما عليها، وبالتالي فالذي يخلق هو الذي يحكم (ألا له الخلق والأمر)، وهو الذي يقرر ما يجب وما لا يجب، وما هو صواب وما هو خطأ، وما هو إنساني وما هو غير إنساني، وما هو أخلاقي وما هو غير أخلاقي، وميزان الله ﷻ وحده هو الذي نخضع له ونَزِنُ به أمورنا، ونبني عليه أحكامنا، فالسَبِي إنساني وأخلاقي وحق، وكذا تعدد الزوجات، وقوامة الرجل على المرأة، وعدم مساواتها له في الميراث، ورجم الزاني المحصن، وقطع يد السارق، وإلقاء اللوطي من على شاهق أو حرقه بالنار، وقتل المرتد، وعدم مساواة الذمّي بالمسلمين، وغيرها من الأحكام الأخرى، كلها أحكام إنسانية وأخلاقية وحق لأنَّ الله ﷻ شرّعها وأقرّها فهي حكم الله، وحكم الله هو الحق الذي لا ريب فيه.

(وليس في إسلامنا ما نخجل منه، وما نضطر للدفاع عنه، وليس فيه ما نتدسس به للناس تدسساً، أو ما نتلعثم في الجهر به على حقيقته، إنَّ الهزيمة الروحية أمام الغرب وأمام الشرق وأمام أوضاع الجاهلية هنا وهناك هي التي تجعل بعض الناس.. المسلمين.. يتلمس للإسلام موافقات جزئية من النظم البشرية، أو يتلمس من أعمال

" الحضارة " الجاهلية ما يسند به أعمال الإسلام وقضاءه في بعض الأمور، إنَّه إذا كان هناك من يحتاج للدفاع والتبرير والاعتذار فليس هو الذي يقدم الإسلام للناس، وإنّما هو ذاك الذي يحيا في هذه الجاهلية المهلهلة المليئة بالمتناقضات وبالنقائض والعيوب، ويريد أن يتلمس المبررات للجاهلية، وهؤلاء هم الذين يهاجمون الإسلام ويُلجئون بعض محبيه الذين يجهلون حقيقته إلى الدفاع عنه، كـأنه متهم مضطر للدفاع عن نفسه في قفص الاتهام) [1].

والجهاد في سبيل الله وقتل المشركين وسحقهم وسبيهم عمل إنساني وأخلاقي وحق لأنَّه حكم الله ﷻ.

(لقد انتضى الإسلام السيف، وناضل وجاهد في تاريخه الطويل، لا ليُكرِه أحداً على الإسلام ولكن ليكفل عدة أهداف كلها تقتضي الجهاد.

جاهد الإسلام أولاً ليدفع عن المؤمنين الأذى والفتنة التي كانوا يُسامونها، وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، وقرر ذلك المبدأ العظيم الذي سلف تقريره في هذه السورة (سورة البقرة) - في الجزء الثاني - والفتنة أشد من القتل، فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها، وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم، وإذا كان المؤمن مأذوناً في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله، فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه، وقد كان المسلمون يُسامون الفتنة عن عقيدتهم ويؤذون، ولم يكن لهم بد أن يدفعوا هذه الفتنة عن أعزِّ ما يملكون، يسامون الفتنة عن عقيدتهم، ويؤذون فيها في مواطن من الأرض شتى، وقد شهدت الأندلس من بشاعة التعذيب الوحشي والتقتيل الجماعي لفتنة المسلمين عن دينهم، وفتنة أصحاب المذاهب المسيحية الأخرى ليرتدوا إلى الكثلكة، ما ترك أسبانيا اليوم ولا ظل فيها للإسلام! ولا للمذاهب المسيحية الأخرى ذاتها! كما شهد بيت المقدس

(١) معالم في الطريق.

وما حوله بشاعة الهجمات الصليبية التي لم تكن موجهة إلّا للعقيدة والإجهاز عليها، والتي خاضها المسلمون في هذه المنطقة تحت لواء العقيدة وحدها فانتصروا فيها، وحموا هذه البقعة من مصير الأندلس الأليم، وما يزال المسلمون يسامون الفتنة في أرجاء المناطق الشيوعية والوثنية والصهيونية والمسيحية في أنحاء من الأرض شتى، وما يزال الجهاد مفروضاً عليهم لرد الفتنة إنْ كانوا حقاً مسلمين!.

وجاهد الإسلام ثانياً لتقرير حرية الدعوة - بعد تقرير حرية العقيدة - فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة، وبأرقى نظام لتطوير الحياة، جاء بهذا الخير ليهديه إلى البشرية كلها، ويُبْلِغه إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر، ولا إكراه في الدين، ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة، كما جاء من عند الله للناس كافة، وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضمّوا إلى موكب الهدى إذا أرادوا، ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية في الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى وتفتن المهتدين أيضاً، فجاهد الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية، وليقيم مكانها نظاماً عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وحرية الدعاة، وما يزال هذا الهدف قائماً، وما يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين ليبلغوه إن كانوا مسلمين.

وجاهد الإسلام ثالثاً ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه، وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال، ويلغي من الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها، فليس هنالك فرد ولا طبقة ولا أُمّة تُشرّع الأحكام للناس، وتستذلهم عن طريق التشريع، إنّما هنالك رب واحد للناس جميعاً هو الذي يشرع لهم على السواء، وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع، كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء، فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون مُنفذاً لشريعة

الله، موكّلاً عن الجماعة للقيام بهذا التنفيذ، حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء، لأنَّ التشريع من شأن الألوهية وحدها، وهو مظهر الألوهية في حياة البشر، فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدّعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد.

هذه هي قاعدة النظام الرباني الذي جاء به الإسلام، وعلى هذه القاعدة يقوم نظام أخلاقي نظيف تُكفَل فيه الحرية لكل إنسان، حتى لمن لا يعتنق عقيدة الإسلام، وتصان فيه حرمات كل أحد حتى الذين لا يعتنقون الإسلام، وتحفظ فيه حقوق كل مواطن في الوطن الإسلامي أياً كانت عقيدته، ولا يكره فيه أحد على اعتناق عقيدة الإسلام، ولا إكراه فيه على الدين إنّما هو البلاغ.

جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه، وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الباغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر، والتي يدّعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية بغير حق..... وما يزال هذا الجهاد لإقامة هذا النظام الرفيع مفروضاً على المسلمين حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله، فلا تكون هناك ألوهة للعبيد في الأرض، ولا دينونة لغير الله.

لم يحمل الإسلام السيف إذن ليُكره الناس على اعتناقه عقيدة، ولم ينتشر بالسيف على هذا المعنى كما يريد بعض أعدائه أن يتهموه! إنما جاهد ليقيم نظاماً آمناً يأمن في ظلّه أصحاب العقائد جميعاً، ويعيشون في إطاره خاضعين له، وإنْ لم يعتنقوا عقيدته) (١).

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.

١- غزوة الأبواء أو ودّان [١]

في صفر سنة ٢ هـ، وهي أولى غزواته ﷺ، خرج يعترض عيراً لقريش، ولم يلقَ المسلمون فيها كيداً. [٢]

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه، وهذا)هذا كتاب من محمد رسول الله لبني ضمرة، فإنّهم آمنون على أموالهم وأنفسهم، وإنَّ لهم النصر على من رامهم إلّا أن يحاربوا دين الله، ما بلّ بحر صوفة، وإنَّ النبي إذا دعاهم لنصره أجابوه). [٣]

٢- غزوة بواط

كانت هذه الغزوة في ربيع الأول سنة ٢ هـ، حيث خرج ﷺ يعترض عيراً لقريش، ولم يلقَ كيداً.

٣- غزوة العُشَيْرة

كانت هذه الغزوة في جُمادَى الأولى وجمادى الآخرة سنة ٢ هـ، حيث خرج ﷺ يعترض عيراً لقريش فبلغ ذا العشيرة، فوجد العير قد فاتته، وهذه العير هي عير أبي سفيان التي عاد ﷺ فاعترضها لمّا رجعت من الشام فصارت سبباً لغزوة بدر الكبرى، وفي هذه الغزوة عاهد النبي ﷺ بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة.

---

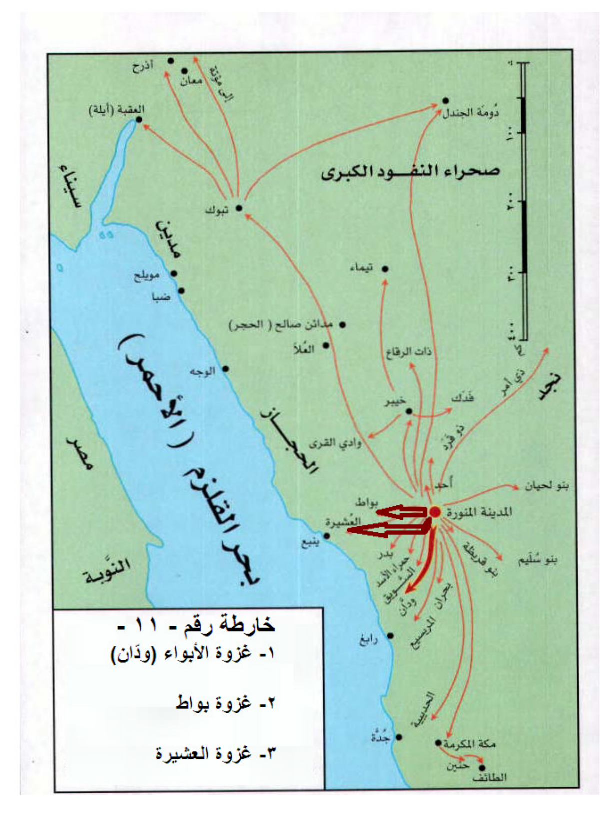
(١) وهما موقعان متجاوران بينهما ستة أو ثمانية أميال، وتبعد الأبواء عن المدينة أربعة وعشرين ميلاً.

(٢) أي لم يقع قتال.

(٣) السيرة لابن كثير: ج٢ / ٣٥٦.

٤ - غزوة بدر الأولى

وسبب هذه الغزوة أنَّ كُرز بن جابر الفهري أغار على سَرْح [١] المدينة، ونهب بعض الإبل والمواشي، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه فلم يدركه، فرجع ﷺ إلى المدينة.



٥ - سريّة عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة

لم يقتصر تعرّض المسلمين لتجارة قريش مع الشام، بل تعرّضوا لطريق تجارتها مع اليمن أيضاً، حيث بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب، حين عاد من بدر الأولى، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين، ليس فيهم من الأنصار أحد، وكتب له كتاباً وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثمَّ ينظر فيه،

(١) الإبل والمواشي التي تسرح للرعي.

فيمضي لِما أمره به، ولا يستكره من أصحابه أحداً.

فلمّا سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب، فنظر فيه فإذا فيه: إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل نخلة، بين مكّة والطائف، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم، فلمّا نظر عبد الله بن جحش في الكتاب، قال: سمعاً وطاعة، ثمَّ قال لأصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ أن أمضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً، حتى آتيه منهم بخبر، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق، ومن كره ذلك فليرجع، فأمّا أنا فماضٍ لأمر رسول الله ﷺ، فمضى ومضى معه أصحابه، لم يتخلّف عنه منهم أحد.

وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن، فوق الفرع يقال له: بحران، أضلَّ سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان بعيراً لهما، كانا يَعْتَقِبانه، فتخلفا عليه في طلبه، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة، فمرّت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً، وتجارة من تجارة قريش، فيها عمرو بن الحضرمي.

وتشاور القوم فيهم وذلك في آخر يوم من رجب، فقال القوم: والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخُلنَّ الحرم، فليمتنعُنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام، فتردد القوم، وهابوا الإقدام عليهم، ثمَّ شجعوا أنفسهم عليهم، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم، وأخذ ما معهم، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، واستأسر عثمان بن عبد الله، والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم، وأقبل عبدالله بن جحش وأصحابه بالعير وبالأسيرين، حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة.

فلمّا قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، قال: ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام، فوقف العير والأسيرين، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً، فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ سُقِط في أيدي القوم، وظنّوا أنهم قد هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا، وقالت قريش: قد استحلَّ محمد وأصحابه الشهر الحرام.

فلمّا أكثر الناس في ذلك أنزل الله على رسوله ﷺ: (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله)، أي: إن كنتم قتلتم في الشهر الحرام فقد صدّوكم عن سبيل الله مع الكفر به، وعن المسجد الحرام، وإخراجكم منه وأنتم أهله أكبر عند الله من قتل من قتلتم منهم، والفتنة أكبر من القتل، أي: قد كانوا يفتنون المسلم في دينه، حتى يردّوه إلى الكفر بعد إيمانه، فذلك أكبر عند الله من القتل، (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)، أي: ثمَّ هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه، غير تائبين ولا نازعين، فلمّا نزل القرآن بهذا من الأمر، وفرّج الله تعالى عن المسلمين ما كانوا فيه من الشفق، قَبَضَ رسول الله ﷺ العير والأسيرين، وبعثت إليه قريش في فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، فقال رسول الله ﷺ: لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا - يعني سعد بن أبي وقاص، وعتبة بن غزوان - فإنّا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما، نقتل صاحبيكم، فقدم سعد وعتبة، فأفداهما رسول الله ﷺ منهم.

فأمّا الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه، وأقام عند رسول الله ﷺ حتى قتل يوم بئر معونة شهيداً، وأمّا عثمان بن عبد الله فلحق بمكة، فمات بها كافراً.

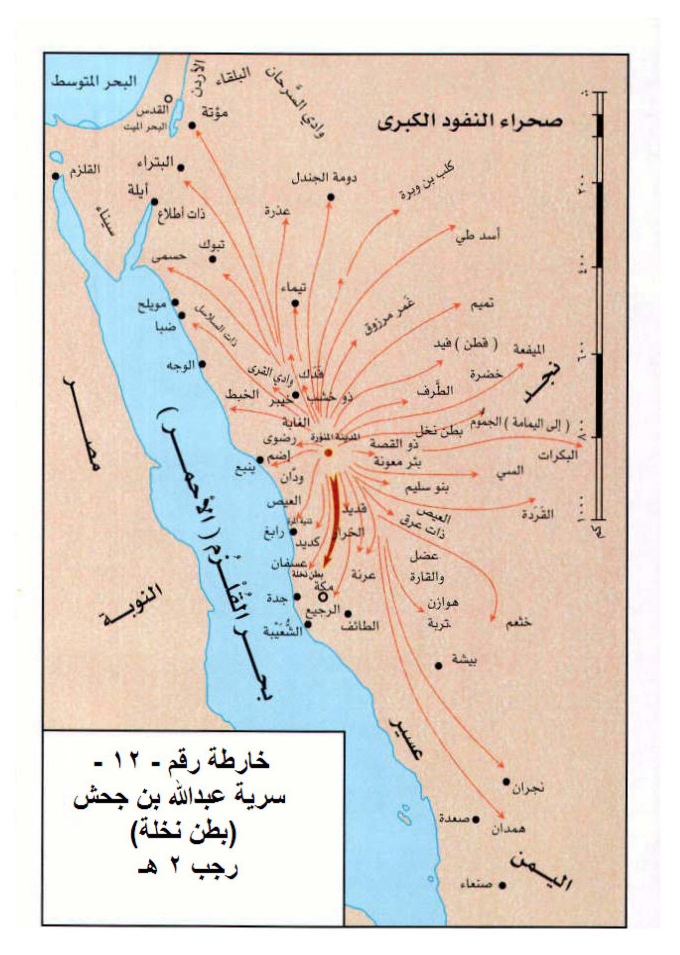
وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أنَّ عبد الله قال لأصحابه: إنَّ لرسول الله ﷺ مما غَنِمنا الخُمُس، - وذلك قبل أن يفرض الله تعالى الخمس من المغانم - فعزل لرسول الله ﷺ خمس العير، وقسّم سائرها بين أصحابه.

وهذه أول غنيمة غنمها المسلمون، وعمرو بن الحضرمي أول من قتله المسلمون، وعثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان أوّل من أسر المسلمون. [1]

حاول المشركون استغلال ما وقع في سرية عبدالله بن جحش لتحريض الناس على المسلمين، واتهامهم بانتهاك حرمة الأشهر الحُرُم، حيث كان العرب يُعظّمون

(١) انظر سيرة ابن هشام: ج١/ ٤٠٧ - ٤١٩.

الأشهر الحرم في الجاهلية، ويعتبرون القتال فيها انتهاكاً لحرمتها، فأشاعت قريش أنَّ محمّداً ﷺ وأصحابه استحلوا الأشهر الحرم، وسفكوا فيها الدم، وأخذوا المال، وكان عبدالله بن جحش «رضي الله عنه» يدرك خطورة المسألة لذلك تردَّد هو وأصحابه في الإقدام عليه، حتى هداهم الله لذلك، ثمَّ نزل القرآن يردُّ على قريش، ويبيّن حالها، ويؤكد على أنَّها هي من انتهكت كل المحرمات، وفعلت كل الموبقات، وهي تتصدى لدعوة النبي ﷺ حيث حاولت فتن المسلمين عن دينهم، ولم تراعِ لا حرمة البيت، ولا حرمة للأشهر الحرم، فقريش هي التي عذَّبت المسلمين في داخل البلد الحرام، وهي التي سلبت أموال المسلمين داخل البلد الحرام، فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها عند سادة قريش بعد أن انتهكوها كما ذكرنا؟!!.



خارطة رقم - ١٢ -
سرية عبدالله بن جحش
(بطن نخلة)
رجب ٢ هـ

تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة

روى البخاري عن البراء أنَّ النبي ﷺ صلّى قِبَل بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً، وكان يعجبه أن تكون قبلته قِبَل البيت، وأنَّه صلّى أول صلاة صلّاها صلاة العصر، وصلّى معه قوم، فخرج رجل ممن صلّى معه فمرَّ على أهل مسجد وهم راكعون فقال: أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله ﷺ قِبَل مكة فداروا كما هم قِبَل البيت، وكان الذي مات على القبلة قبل أن تُحوّل رجال وقُتلوا فلم نَدْرِ ما نقول فيهم، فأنزل الله تعالى ﴿وما كان الله ليضيع إيمانكم إنَّ الله بالناس لرؤوف رحيم﴾.

فرض صوم شهر رمضان

قال ابن جرير: وفي هذه السنة فُرِض صيام شهر رمضان، وقد قيل إنَّه فُرض في شعبان منها.

قال ابن القيم رحمه الله: وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله ﷺ وقد صام تسع رمضانات، وفُرض أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يُطعِم عن كل يوم مسكيناً، ثم نُقل من التخيير إلى تحتُّم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يطيقا الصيام فإنّهما يفطران ويطعمان عن كل يوم مسكيناً، وكان للصوم رتب ثلاث: إحداها: إيجابه بوصف التخيير، والثانية: تحتُّمه، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يُطعم حُرّم عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة، فنُسِخ ذلك بالرتبة الثالثة، وهي التي استقرَّ عليها الشرع إلى يوم القيامة. (١)

(١) انظر زاد المعاد ج٢: ٢٩ - ٣٠.

غزوة بدر الكبرى

سَمِع رسول الله ﷺ بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عير لقريش عظيمة فيها أموال لقريش وتجارة من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون منهم عمرو بن العاص.

وكان في العير ألف بعير تحمل أموال قريش بأسرها إلّا حويطب بن عبد العزى فلهذا تخلّف عن بدر، وندب النبي ﷺ المسلمين إليهم، وقال: هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعلَّ الله ينفلكموها، فانتدب الناس فخفَّ بعضهم وثَقُل بعضهم، وذلك أنَّهم لم يظنّوا أنَّ رسول الله ﷺ يلقى حرباً.

وخرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين لثمان ليالٍ خلون من شهر رمضان، واستعمل ابن أم مكتوم على الصلاة بالناس، ثم ردّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة.

ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير، وكان أبيضاً، وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع علي بن أبي طالب يقال لها العُقاب والأخرى مع بعض الأنصار.

وكانت إبل أصحاب رسول الله ﷺ يومئذ سبعين بعيراً فاعتقبوها، فكان رسول الله ﷺ وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد يعتقبون بعيراً، وكان أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف يعتقبون بعيراً، وكان أصحاب النبي ﷺ ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً.

قريش تتجهز لإنقاذ القافلة

كان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار فلمّا سَمِع بخروج رسول الله استأجر ضمضم بن عمرو الغفاري، فبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم، ويخبرهم أنَّ محمداً قد عرض لها في أصحابه، فأقبل ضَمْضَم الى مكة

وبدأ يصرخ ببطن الوادي واقفاً على بعيره، قد جدع بعيره [1]، وحوّل رحله، وشقَّ قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش، اللطيمة اللطيمة [2]، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها، الغوث الغوث.

فتجهز الناس سراعاً، وقالوا: أيظنُّ محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلّا والله ليعلمن غير ذلك، فكانوا بين رجلين، إمّا خارج وإمّا باعث مكانه رجلاً، وأوعبت قريش، فلم يتخلّف من أشرافها أحد، إلا أنَّ أبا لهب بن عبد المطلب تخلف، وبعث مكانه العاص بن هشام بن المغيرة.

ولمّا فرغوا من جهازهم، وأجمعوا المسير، ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب، فقالوا: إنّا نخشى أن يأتونا من خلفنا، وكانت الحرب التي كانت بين قريش وبين بني بكر، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدّى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من أشراف بني كنانة، فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا ومعهم القيان يَضرِبْنَ بالدفوف ويُغنّين بهجاء المسلمين.

وكان مع المشركين ستون فرساً وستمائة درع، وكان مع رسول الله ﷺ فَرَسان وستون درعاً.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم، فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش، فقام أبو بكر الصديق، فقال وأحسن، ثمَّ قام عمر بن الخطاب، فقال وأحسن، ثمَّ قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله، امضِ لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون، ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنّا معكما مقاتلون، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه، حتى تبلغه، فقال له رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له.

---

(١) قَطَعَ أَنْفَهُ أَوْ طَرَفاً مِنْ أَطْرَافِهِ.

(٢) واللطيمة: الجمال التي تحمل العطر والبز غير الميرة (أي القافلة). لسان العرب: ١٣/ ٢٠٣.

ثمَّ قال رسول الله ﷺ: أشيروا عليَّ أيها الناس، وإنّما يريد الأنصار، وذلك أنّهم عدد الناس، وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنّا براء من ذمامك حتى تصل إلى ديارنا، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذمّتنا نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا، فكان رسول الله ﷺ يتخوّف ألّا تكون الأنصار ترى عليها نصرَهُ إلا ممّن دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم، فلمّا قال ذلك رسول الله ﷺ قال له سعد بن معاذ: والله لكأنّك تريدنا يا رسول الله؟ قال أجل، قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أنَّ ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا، على السمع والطاعة، فامضِ يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منّا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنّا لصُبرٌ في الحرب، صُدقٌ في اللقاء، لعلَّ الله يريك منّا ما تقرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله، فسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد، ونشّطه ذلك، ثمَّ قال: سيروا وأبشروا، فإنَّ الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأنّي الآن أنظر إلى مصارع القوم، ثُمَّ ارْتَحَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ونزل قريباً من بدر.

ويعلّق الشهيد سيد قطب رحمه الله على قول بني إسرائيل لموسى عليه السلام ﴿قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا، إنّا ها هنا قاعدون﴾ فيقول:

وَهَكَذَا يُحْرَجُ الْجُبَنَاءُ فَيَتَوَقَّحُونَ ; وَيَفْزَعُونَ من الخطر أَمَامَهُمْ فَيَرْفُسُونَ بِأَرْجُلِهِمْ كَالْحُمُرِ وَلَا يُقْدِمُونَ! وَالْجُبْنُ وَالتَّوَقُّحُ لَيْسَا مُتَنَاقِضَيْنِ وَلَا مُتَبَاعِدَيْنِ، بل إِنَّهُمَا لَصِنْوَانٌ في كثير من الأحيان، يُدْفَعُ الْجَبَانُ إِلَى الْوَاجِبِ فَيَجْبُنُ، فَيُحْرَجُ بِأَنَّهُ نَاكِلٌ عَنِ الْوَاجِبِ، فَيَسُبُّ هَذَا الْوَاجِبَ ; وَيَتَوَقَّحُ عَلَى دَعْوَتِهِ الَّتِي تُكَلِّفُهُ ما لا يريد، (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون)، هكذا في وقاحة العاجز، الذي لا تُكلّفه وقاحة اللسان إلا مدَّ اللسان! أمّا النهوض بالواجب فيُكلّفه وخز السنان! (فاذهب أنت وربك) فليس بربهم إذا كانت ربوبيته ستكلفهم القتال! (إنّا ها هنا قاعدون) لا نريد

مُلكاً، ولا نريد عزاً، ولا نريد أرض الميعاد، ودونها لقاء الجبارين!!!...... ولقد وعى المسلمون هذا الدرس - مما قصَّه الله عليهم من القصص - فحين واجهوا الشدة وهم قلة أمام نفير قريش في غزوة بدر، قالوا لنبيهم ﷺ إذن لا نقول لك يا رسول الله ما قاله بنو إسرائيل لنبيهم، (فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعدون) لكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا فإنّنا معكما مقاتلون.(١)

ثمَّ بعث رسول الله ﷺ علياً بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر يلتمسون الخبر له عليه، فأصابوا راوية لقريش فيها غلامان، فأتوا بهما فسألوهما، ورسول الله ﷺ قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش، بعثونا نسقيهم من الماء، فكَرِه القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان، فضربوهما، فلمّا أذلقوهما قالا: نحن لأبي سفيان، فتركوهما، وركع رسول الله ﷺ وسجد سجدتيه، ثمَّ سلّم، وقال: إذا صَدَقاكم ضربتموهما وإذا كَذَباكم تركتموهما، صدقا والله إنّهما لقريش، أخبِراني عن قريش؟ قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي ترى بالعدوة القصوى، فقال لهما رسول الله ﷺ: كم القوم؟ قالا: كثير، قال: ما عدّتهم؟ قالا: لا ندري، قال: كم ينحرون كل يوم؟ قالا: يوماً تسعاً، ويوماً عشراً، فقال رسول الله ﷺ: القوم فيما بين التسعمائة والألف، ثمَّ قال لهما: فمَنْ فيهم من أشراف قريش؟ فذكروا له من خرج من أشراف قريش، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس، فقال: هذه مكّة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.

أبو سفيان ينجو بالقافلة

وأقبل أبو سفيان بن حرب، فتقدّم العير حذِراً، حتى ورد الماء، فقال لمجدي بن عمرو: هل أحسست أحداً، فقال: ما رأيت أحداً أُنكره، إلّا أنّي قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل، ثمَّ استقيا في شن لهما، ثمَّ انطلقا، فأتى أبو سفيان مناخهما،

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة المائدة.

فأخذ من أبعار بعيريهما، ففته، فإذا فيه النوى، فقال: هذه والله علائف يثرب، فرجع إلى أصحابه سريعاً، فضرب وجه عيره عن الطريق، فَساحَل بها، وترك بدراً بيسار، وانطلق حتى أسرع، ولمّا رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره، أرسل إلى قريش: إنّكم إنّما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجّاها الله، فارجعوا، فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدراً - وكان بدر موسماً من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثاً، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا.

وقال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، وكان حليفاً لبني زهرة وهم بالجحفة: يا بني زهرة، قد نجّى الله لكم أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل، وإنّما نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لي جبنها وارجعوا، فإنّه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا، يعني أبا جهل، فرجعوا، فلم يشهدها زهري واحد، أطاعوه وكان فيهم مطاعاً، ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس، إلّا بني عدي بن كعب، لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، فلم يشهد بدراً من هاتين القبيلتين أحد، وبقي ٩٥٠ مقاتلاً من المشركين.

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي، خلف العقنقل وبطن الوادي، وفي هذا قال تعالى ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ أي من ناحية الساحل، ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

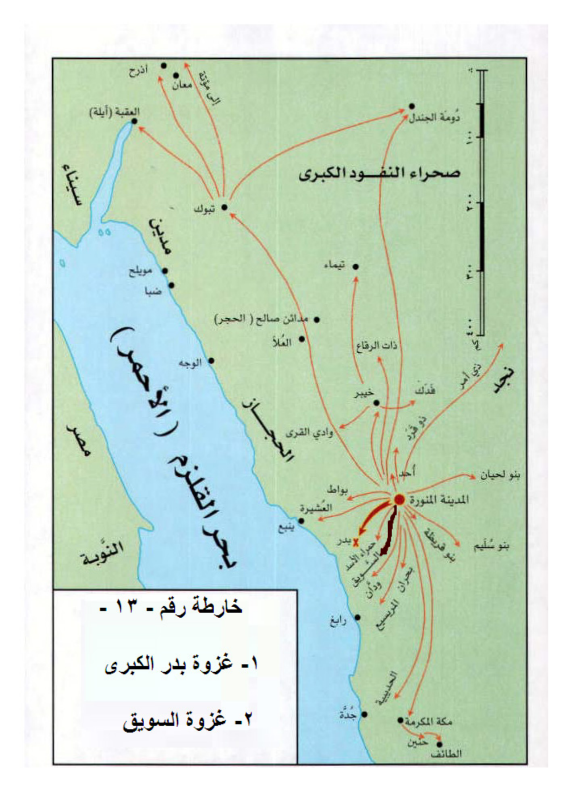
وبعث الله السماء، وكان الوادي دهساً، فأصاب رسول الله ﷺ وأصحابه منها ما لَبَّدَ لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير، وأصاب قريشاً منها ما لم يقدروا على أن يرتحلوا معه، وفي هذا قوله تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ

وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١] فذكر أنَّه طهّرهم ظاهراً وباطناً، وأنّه ثبّت أقدامهم، وشجّع قلوبهم، وأذهب عنهم تخذيل الشيطان وتخويفه للنفوس ووسوسته.

مشورة الحُباب على رسول الله ﷺ

لمّا نزل المسلمون قريباً من بدر قال الحباب بن المنذر بن الجموح: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل، أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه، ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: بل هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال: يا رسول الله، فإنَّ هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم، فننزله، ثمَّ نغوّر ما وراءه من القُلُبْ، ثمَّ نبني عليه حوضا فنملؤه ماءً، ثمَّ نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون، فقال رسول الله ﷺ: لقد أشرت بالرأي، فنهض رسول الله ﷺ ومن معه من الناس، فسار، حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثمَّ أمر بالقُلُب فَغُوِّرت، وبنى حوضاً على القليب الذي نزل عليه، فمُلئ ماءً، ثمَّ قذفوا فيه الآنية.

وقال سعد بن معاذ: يا نبي الله، أَلَا نبني لك عريشاً تكون فيه، ونَعُدُّ عندك ركائبك، ثمَّ نَلقى عدونا، فإن أعزّنا الله وأظهرنا على عدونا، كان ذلك ما أحببنا، وإن كانت الأخرى، جلست على ركائبك، فلحقت بمن وراءنا، فقد تخلّف عنك أقوام، يا نبي الله، ما نحن بأشدّ لك حباً منهم، ولو ظنّوا أنّك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنك، يمنعك الله بهم، يناصحونك ويجاهدون معك، فأثنى عليه رسول الله ﷺ خيراً، ودعا له بخير، ثمَّ بُنيَ لرسول الله ﷺ عريش، فكان فيه، فلمّا نزل الناس أقبل نفر من قريش حتى وردوا حوض رسول الله ﷺ فيهم حكيم بن حزام، فقال رسول الله ﷺ: دعوهم، فما شرب منه رجل إلّا قُتل، إلا ما كان من حكيم بن حزام فإنّه لم يقتل، ثمَّ أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، فكان إذا اجتهد في يمينه قال: لا والذي نجّاني من يوم بدر.



قريش تستطلع الجيش الإسلامي

ثمَّ بعثت قريش عُمَيْر بن وهب الجمحي فقالوا: احزر لنا أصحاب محمد، فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثمائة رجل، يزيدون قليلاً أو ينقصون، ولكنْ أمهلوني حتى أنظر أَلِلْقومِ كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم يرَ شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكنّي قد رأيت يا معشر قريش البلايا (١) تحمل المنايا، نواضحُ (٢) يثرب تحمل الموت الناقع (٣)، قوم ليس معهم مَنَعة ولا ملجأ إلّا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتَل رجل منهم، حتى يَقتُل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم.

فلمّا سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة، فقال:

---

(١) جمع بلية، وهي الناقة أو الدابّة.
(٢) الإبل يُستقى بها الماء.
(٣) الموت الثابت البالغ في الإفناء.

يا أبا الوليد، إنّك كبير قريش وسيّدها، والمطاع فيها، هل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس، وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلت، أنت عليَّ بذلك، إنّما هو حليفي، فعليَّ عقله وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية - يعني أبا جهل -، فإنّي لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره، ثمَّ قام عتبة بن ربيعة خطيباً، فقال: يا معشر قريش، إنّكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلّوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون، قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل، فوجدته قد نثل درعاً له من جرابها، فهو يهنئها [١] فقلت له: يا أبا الحكم إنَّ عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا، للذي قال، فقال: انتفخ والله سَحَرُه[٢] حين رأى محمداً وأصحابه، كلّا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال: ولكنّه قد رأى أنَّ محمداً وأصحابه أكلة جزور [٣]، وفيهم ابنه، فقد تخوّفكم عليه، ثمَّ بعث إلى عامر بن الحضرمي [٤]، فقال: هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس، وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك، ومقتل أخيك، فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف، ثمَّ صرخ: واعَمْراه، واعَمْراه، فحميت الحرب، وحقب الناس، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة، فلمّا بلغ عتبة قول أبي جهل انتفخ والله سَحَرُه، قال: سيعلم مصفرُّ استه من انتفخ سحره، أنا أم هو؟ [٥]

(١) أي: يهيئها.
(٢) أي: امتلأ خوفاً وجُبناً.
(٣) كناية عن قلّتهم.
(٤) وهو أخو عمرو بن الحضرمي الذي قتله المسلمون في نخلة في رجب قبل شهرين من غزوة بدر.
(٥) سيرة ابن هشام: ج١/ ٤٣١ - ٤٣٣.

وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وكان رجلاً شرساً سيء الخلق، فقال: أعاهد الله لأشربنَّ من حوضهم، أو لَأَهدمنّه، أو لأموتنَّ دونه، فلمّا خرج، خرج إليه حمزة بن عبد المطلب، فلمّا التقيا ضَربُه حمزة فأَطنَّ قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض، فوقع على ظهره تشخب رجله دماً نحو أصحابه، ثمَّ حَبَا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبرَّ يمينه، وأتبعه حمزة فضربه حتى قتله في الحوض.

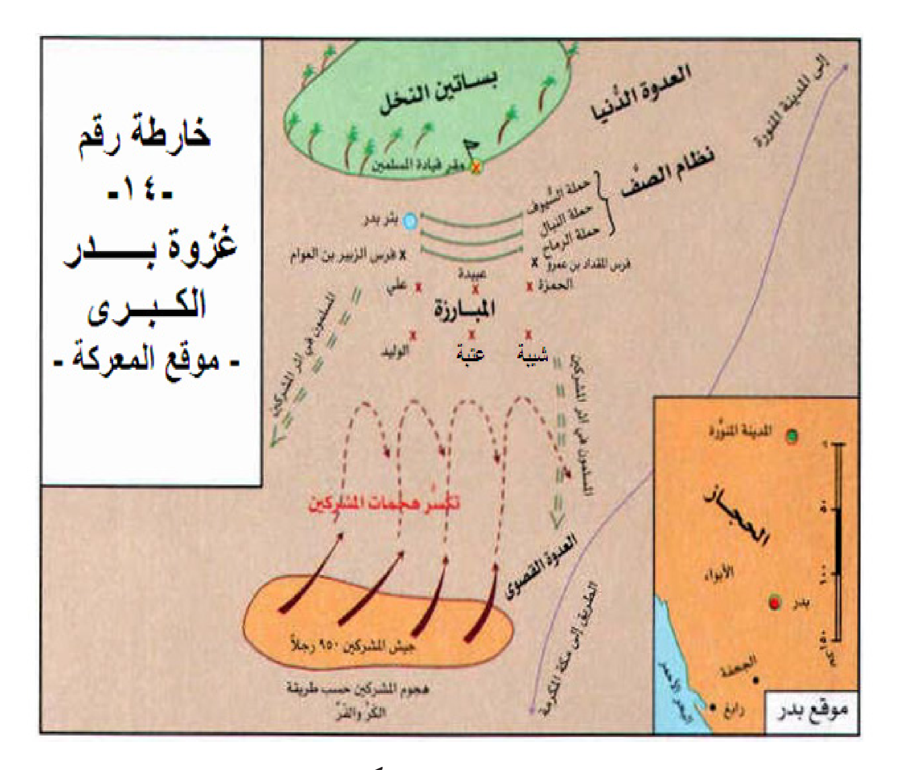
ثمَّ خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من الأنصار ثلاثة، وهم: عوف، ومعوذ، ابنا الحارث - وأمهما عفراء - ورجل آخر، يقال: هو عبد الله بن رواحة، فقالوا: مَنْ أنتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار، قالوا: ما لنا بكم من حاجة، ثمَّ نادى مناديهم: يا محمد، أَخْرِج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله ﷺ: قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة، وقم يا علي، فلمّا قاموا ودنوا منهم، قالوا: مَنْ أنتم؟ قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي، قالوا: نعم، أكفاء كرام، فبارز عبيدة، وكان أسنَّ القوم، عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة، فأمّا حمزة فلم يمهل شيبة أن قتله، وأمّا علي فلم يمهل الوليد أن قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين، كلاهما أثبت صاحبه، وكرَّ حمزة وعلي بأسيافهما على عتبة فذفقّا عليه، واحتملا صاحبهما فحازاه إلى أصحابه.

وعبيدة هو ابن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، ابن عمِّ النبي ﷺ، ولمّا جاؤوا به إلى رسول الله ﷺ اضجعوه إلى جانب موقف رسول الله ﷺ فوَسَّده رسول الله ﷺ قدمه، فوضع عبيدة خدّه على قدم النبي ﷺ» وقال: يا رسول الله، لو رآني أبو طالب لعلم أنّي أحق بقوله:

وَنُسْلِمُهُ حَتَّى نُصَرَّعَ حَوْلَه وَنَذْهَلَ عَنْ أَبْنَائِنَا وَالْحَلَائِلِ [1]

ثمَّ مات «رضي الله عنه» فقال رسول الله ﷺ: أشهد أنّك شهيد. [2]

(١) والبيت السابق لهذا البيت هو قول أبي طالب:
كذبتم وبيت الله نُبزي محمّداً *** ولمّا نقاتل دونه ونناضلِ.
(٢) البداية والنهاية: ج١/ ٦١٨.



قصة سواد بن غَزِيَّة

ثمَّ عدّل رسول الله ﷺ صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قدح [١] يعدل به القوم، فمرَّ بسواد بن غزية، حليف بني عدي بن النجار فطعنه في بطنه بالقدح، وقال: استوِ يا سواد، فقال: يا رسول الله، أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، قال: فأقدني [٢]، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: استقد، قال: فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال: ما حملك على هذا يا سواد؟ قال: يا رسول الله، حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

الرسول ﷺ يناشد ربّه

ثمَّ رجع رسول الله ﷺ إلى العريش فدخله، ومعه فيه أبو بكر الصديق، ليس معه

(١) السهم قبل أن يُنْصَل.
(٢) أي أنَّه طلب القصاص.

فيه غيره، ورسول الله ﷺ يناشد ربه ما وعده من النصر، ويقول فيما يقول: اللهم إنْ تهلك هذه العصابة اليوم لا تُعبَد، وأبو بكر يقول: يا نبيّ الله، بعض مناشدتك ربك، فإنَّ الله منجز لك ما وعدك، وقد خفق [١] رسول الله ﷺ خفقة وهو في العريش، ثمَّ انتبه فقال: أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع [٢]، ثمَّ تزاحف الناس ودنا بعضهم من بعض فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان.

ورُمي مهجع، مولى عمر بن الخطاب بسهم فقُتِل، فكان أول قتيل من المسلمين، ثمَّ رُمي حارثة بن سراقة، أحد بني عدي بن النجار، وهو يشرب من الحوض، بسهم فأصاب نحره، فقُتِل.

ثمَّ خرج رسول الله ﷺ إلى الناس فحرَّضهم، وقال: والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلّا أدخله الله الجنّة، فقال عمير بن الحمام، أخو بني سلمة، وفي يده تمرات يأكلهن: بخ بخ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنّة إلّا أن يقتلني هؤلاء، ثمَّ قذف التمرات من يده وأخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

وفي رواية مسلم أنَّ النبي ﷺ قال: قوموا إلى جنّة عرضها السموات والأرض، فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم، قال: بخ بخ، فقال رسول الله ﷺ: ما يحملك على قولك بخ بخ؟ قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنَّها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل.

ولمّا التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، قال أبو جهل بن هشام: اللهم أقطَعَنا للرحم، وآتانا بما لا يعرف، فأحِنْه [٣] الغداة، فكان هو المستفتح.

---

(١) نام.
(٢) أي التراب.
(٣) أي: فأهلكه.

قال ابن أبي حاتم الرازي: قال أبو جهل: اللهم انصر أعز الفئتين، وأكرم الفرقتين، فنزلت: ﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ﴾ (١)

ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل قريشاً بها، ثمَّ قال: شاهت الوجوه، ثمَّ نفحهم بها، وأمر أصحابه، فقال: شدّوا، وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر: أَحَدٌ أَحَدٌ.

وإنَّك لعلى خُلُقٍ عظيم

وقد نهى النَّبي ﷺ أصحابه عن قتل رجال من المشركين فقال: إنّي قد عرفت أنَّ رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أُخرجوا كرهاً، لا حاجة لهم بقتالنا، فمَنْ لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله، ومن لقي أبا البختري بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله، ومن لقي العباس بن عبد المطلب، عمّ رسول الله ﷺ فلا يقتله، فإنّه إنّما أخرج مستكرهاً، قال: فقال أبو حذيفة: أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس، والله لئن لقيته لألجمنّه السيف، قال: فبلغت رسول الله ﷺ، فقال لعمر بن الخطاب: يا أبا حفص - قال عمر: والله إنه لأول يوم كنّاني فيه رسول الله ﷺ بأبي حفص - أيُضرب وجه عمّ رسول الله ﷺ بالسيف؟ فقال عمر: يا رسول الله، دعني فلأضرب عنقه بالسيف، فوالله لقد نافق، فكان أبو حذيفة يقول: ما أنا بآمن من تلك الكلمة التي قلت يومئذ، ولا أزال منها خائفاً، إلّا أن تكفّرها عنّي الشهادة، فقُتل يوم اليمامة شهيداً.

وإنَّما نهى رسول الله ﷺ عن قتل أبي البختري لأنّه كان أكفَّ القوم عن رسول الله ﷺ وهو بمكة، وكان لا يؤذيه، ولا يبلغه عنه شيء يكرهه، وكان ممّن قام في نقض الصحيفة التي كتبت قريش على بني هاشم وبني المطلب، فلقيه المجذر بن ذياد البلوي، حليف الأنصار، فقال المجذر لأبي البختري: إنَّ رسول الله ﷺ قد نهانا

(١) تفسير ابن أبي حاتم / تفسير سورة الأنفال.

عن قتلك – ومع أبي البختري زميل له، قد خرج معه من مكة –، قال: وزميلي؟ فقال له المجذر: لا والله، ما نحن بتاركي زميلك، ما أمرنا رسول الله ﷺ إلّا بك وحدك، فقال: لا والله، إذن لأموتنَّ أنا وهو جميعاً، لا تتحدث عنّي نساء مكة أنّي تركت زميلي حرصاً على الحياة، فاقتتلا فقتله المُجذرُ بن ذِياد، ثم إن المجذر أتى رسول الله ﷺ، فقال: والذي بعثك بالحق لقد جهدت عليه أن يستأسر فآتيك به، فأبى إلّا أن يقاتلني، فقاتلته فقتلته.

قلت: تأمّل – وفقك الله – هذا الخُلُق العظيم من النبي ﷺ، وكيف يأمر أصحابه بتجنب قتل بني هاشم ويخصُّ منهم عمّه العباس، وكذا يأمرهم بعدم قتل أبي البختري، رغم أنَّ هؤلاء الذين ذكرهم عليه الصلاة والسلام كانوا كفاراً خرجوا لقتاله وقتال المسلمين، ولكن لمّا كانت لهؤلاء أيادٍ عند رسول الله ﷺ أراد أن يردّها لهم ويكافئهم عليها، فبنو هاشم ساندوه وأعانوه طول فترة الدعوة المكّية، ومنعوا قريشاً من الوصول إليه، ودخلوا معه في شعب أبي طالب، وتحمّلوا حصاراً دام ثلاث سنوات، وأمّا العباس فإنّه وإن لم يسلم لكنّه كان مناصراً للنبي ﷺ، وقد رأينا كيف خرج معه في بيعة العقبة الثانية ليطمئن عليه ويوثّق العهد مع الأنصار على حمايته ﷺ، وأمّا أبو البختري فهو كما مرَّ معنا كان لا يؤذي النبي ﷺ في كلمة، ولا يتعرض له، وكان أحد الخمسة الذين قاموا على نقض صحيفة الحصار التي كتبتها قريش ووضعتها في جوف الكعبة، فدونك هذا الخُلُق العظيم من النبي ﷺ، فخذه منه، وتأسَّ به، فهو عليه الصلاة والسلام الأسوة والقدوة والإمام.

الملائكة تقاتل مع المسلمين

والتقى الفريقان، وأمدَّ الله نبيه والمؤمنين بألف من الملائكة، وكان جبريل في خمسمائة مُجَنِّبَةٍ، وميكائيل في خمسمائة مُجَنِّبَةٍ، وهذا هو المشهور.

وروى ابن إسحاق عن ابن عباس، قال: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام

سوى بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يَضرِبون.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس ﵄ قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه، فخرَّ مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خُطِم أنفه، وشُقَّ وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدَّث بذلك رسول الله ﷺ فقال: صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة، فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين.

روى ابن اسحاق عن أبي داود المازني قال: إنّي لأتبع رجلاً من المشركين يوم بدر لأضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري.

روى البخاري عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ فقال: ما تَعُدّونَ أهل بدر فيكم؟ قال من أفضل المسلمين - أو كلمة نحوها - قال: وكذلك من شهد بدراً من الملائكة.

ولمّا تنزلت الملائكة للنصر، ورآهم رسول الله ﷺ حين أغفى إغفاءة، ثمَّ استيقظ وبشَّر بذلك أبا بكر، وقال: أبشر يا أبا بكر هذا جبريل يقود فرسه على ثناياه النقع من المعركة، ثمَّ خرج رسول الله ﷺ من العريش في الدرع فجعل يُحرّض على القتال، ويُبشّر النّاس بالجنّة، ويُشَجِّعهم بنزول الملائكة، والناس بعد على مصافهم لم يحملوا على عدوهم، حصل لهم السكينة والطمأنينة، وقد حصل النعاس الذي هو دليل على الطمأنينة والثبات والايمان، كما قال ﷻ: (إذ يُغشّيكم النعاسَ أَمَنةً منه)، وقد قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ﴾

ولمّا رأى إبليس الملائكة ﴿نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ [الأنفال: ٤٨] وهو في صورة سراقة، وأقبل أبو يجهل يُحرّض أصحابه ويقول: لا يهولنّكم خذلان سراقة إياكم، فإنَّه كان على موعد من محمد وأصحابه،

ثمَّ قال: واللات والعزى لا نرجع حتى نفرّق محمداً وأصحابه في الجبال، فلا تقتلوهم وخذوهم أخذاً.

مقتل أُميّة بن خلف

روى البخاري أنَّ عبدالله بن مسعود حدّث عن سعد بن معاذ أنّه كان صديقاً لأميّة بن خلف، وكان أميّة إذا مرّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرّ بمكة نزل على أمية، فلمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً فنزل على أميّة بمكة فقال لأُميّة: انظر لي ساعة خلوة لعلّي أنْ أطوف بالبيت، فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟، فقال: هذا سعد، فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد آويتم الصباة وزعمتم أنَّكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنّك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً، فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنّك ما هو أشدّ عليك منه، طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي، فقال سعد: دعنا عنك يا أميّة فوالله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول إنَّهم قاتلوك، قال: بمكة؟ قال: لا أدري، ففزع لذلك أميّة فزعاً شديداً فلمّا رجع أميّة إلى أهله قال: يا أم صفوان، ألم تَرَيْ ما قال لي سعد، قالت: وما قال لك؟، قال: زعم أنَّ محمداً أخبرهم أنهم قاتلي، فقلت له: بمكة قال: لا أدري، فقال أميّة: والله لا أخرج من مكة، فلمّا كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس، قال: أدركوا عيركم، فكره أميّة أن يخرج، فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنّك متى ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما إذ غلبتني فوالله لأشترينَّ أجود بعير بمكة، ثمَّ قال أمية: يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي، قال: لا ما أريد أن أجوز معهم إلّا قريباً، فلمّا خرج أميّة أخذ لا ينزل منزلاً إلّا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله ﷻ ببدر.

وروى ابن إسحاق عن عبد الرحمن بن عوف قال: كان أميّة بن خلف لي صديقاً بمكة، وكان اسمي عبد عمرو، فتسمّيت حين أسلمت عبد الرحمن، ونحن بمكة، فكان يلقاني إذ نحن بمكة فيقول: يا عبد عمرو، أَرَغِبَت عن اسم سَمّاكَهُ أبواك؟ فأقول: نعم، فيقول: فإنّي لا أعرف الرحمن، فاجعل بيني وبينك شيئا أدعوك به، أمّا أنت فلا تجيبني باسمك الأول، وأمّا أنا فلا أدعوك بما لا أعرف، قال: فكان إذا دعاني: يا عبد عمرو، لم أجبه، قال: فقلت له: يا أبا علي، اجعل ما شئت، قال: فأنت عبد الإله، قال: فقلت: نعم، قال: فكنت إذا مررت به قال: يا عبد الإله فأجيبه، فأتحدث معه، حتى إذا كان يوم بدر، مررت به وهو واقف مع ابنه، علي بن أمية، آخذ بيده، ومعي أدراع، قد استلبتها، فأنا أحملها، فلمّا رآني قال لي: يا عبد عمرو، فلم أجبه، فقال: يا عبد الإله؟ فقلت: نعم، قال: هل لك فيَّ، فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك؟ قال: قلت: نعم، ها الله ذا، قال: فطرحت الأدراع من يدي، وأخذت بيده ويد ابنه، وهو يقول: ما رأيت كاليوم قط، أَمَا لكم حاجة في اللبن؟ قال: ثمَّ خرجت أمشي بهما، قال عبد الرحمن بن عوف: قال لي أمية بن خلف وأنا بينه وبين ابنه، آخذ بأيديهما: يا عبد الإله، من الرجل منكم المُعلَّم بريشة نعامة في صدره؟ قال: قلت: ذاك حمزة بن عبد المطلب، قال: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل، قال عبد الرحمن: فوالله إني لأقودهما إذ رآه بلال معى - وكان هو الذي يعذِّب بلالاً بمكة على ترك الإسلام، فيخرجه إلى رمضاء مكة إذا حميت، فيضجعه على ظهره، ثمَّ يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثمَّ يقول: لا تزال هكذا أو تفارق دين محمد، فيقول بلال: أحد أحد، قال: فلما رآه، قال: رأس الكفر أميّة بن خلف، لا نجوت إنْ نجا، قال: قلت: أي بلال، أبأسيري؟ قال: لا نجوت إن نجا، قال: قلت: أتسمع يا ابن السوداء، قال: لا نجوت إن نجا، قال: ثمَّ صرخ بأعلى صوته: يا أنصار الله، رأس الكفر أميّة بن خلف، لا نجوت إن نجا، قال: فأحاطوا بنا حتى جعلونا في مثل المسكة [1] وأنا أذب عنه، قال: فأخلف رجل السيف، فضرب

---

(١) أي السوار من عاج.

رجل ابنه فوقع، وصاح أميّة صيحة ما سمعت مثلها قط، قال: فقلت: انجُ بنفسك، ولا نجاء بك فوالله ما أغني عنك شيئاً، قال: فهبروهما بأسيافهم، حتى فرغوا منهما، قال: فكان عبد الرحمن يقول: يرحم الله بلالاً، ذهبت أدراعي وفجعني بأسيري.

فكانت الهزيمة لقريش، وانتصر المسلمون وقتل الله تعالى من قتل من صناديد قريش، وأسر من أسر من أشرافهم، فلمّا وضع القوم أيديهم يأسرون ورسول الله ﷺ في العريش، وسعد بن معاذ قائم على باب العريش الذي فيه رسول الله ﷺ، متوشح السيف في نفر من الأنصار، يحرسون رسول الله ﷺ، يخافون عليه كرَّة العدو، ورأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لِمَا يصنع الناس، فقال له رسول الله ﷺ: والله لكأنّك يا سعد تكره ما يصنع القوم، قال: أجل والله يا رسول الله، كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك، فكان الإثخان في القتل بأهل الشرك أحبَّ إليَّ من استبقاء الرجال.

مقتل أبي جهل

قال معاذ بن عمرو بن الجموح، أخو بني سلمة: سمعت القوم وأبو جهل في مثل الحرجة [1]، وهم يقولون: أبو الحكم لا يخلص إليه، قال: فلمّا سمعتها جعلته من شأني، فصمدت نحوه، فلمّا أمكنني حملت عليه، فضربته ضربة أطنت قدمه بنصف ساقه.... قال: وضربني ابنه عكرمة على عاتقي، فطرح يدي، فتعلقت بجلدة من جنبي، وأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامّة يومي، وإنّي لأسحبها خلفي، فلمّا آذتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطيت بها عليها حتى طرحتها، ثمَّ مرّ بأبي جهل وهو عقير، معوذ بن عفراء، فضربه حتى أثبته، فتركه وبه رمق، وقاتل معوذ حتى قتل، فمرَّ عبد الله بن مسعود بأبي جهل، حين أمر رسول الله ﷺ أن يُلتمس في القتلى، وقد قال لهم رسول الله ﷺ - فيما بلغني - انظروا، إن خفي عليكم في القتلى، إلى أثر

(١) الشجر الملتف.

جرح في ركبته، فإنّي ازدحمت يوما أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان، ونحن غلامان، وكنت أشف منه بيسير، فدفعته فوقع على ركبتيه، فجحش في إحداهما جحشاً لم يزل أثره به، قال عبد الله بن مسعود: فوجدته بآخر رمق فعرفته، فوضعت رجلي على عنقه، قال: وقد كان ضبث [(١)] بي مرة بمكة، فآذاني ولكزني [(٢)]، ثمَّ قلت له: هل أخزاك الله يا عدو الله؟ قال: وبماذا أخزاني، أَعْمَدُ مِنْ رَجُلٍ قتلتموه، أخبرني لمن الدائرة اليوم؟ قال: قلت: لله ولرسوله.

وزعم رجال من بني مخزوم، أنَّ ابن مسعود كان يقول: قال لي: لقد ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم، قال: ثمّ احتززت رأسه، ثمَّ جئت به رسول الله ﷺ، فقلت: يا رسول الله، هذا رأس عدو الله أبي جهل، قال: فقال رسول الله ﷺ: آلله الذي لا إله غيره، قال: وكانت يمين رسول الله ﷺ، قال: قلت نعم، والله الذي لا إله غيره، ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله ﷺ، فحمد الله. [(٣)]

وفي الصحيحين عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: من ينظر لنا ما صنع أبو جهل؟، فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضربه ابنا عفراء حتى برك، قال: فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، فقال: وهل فوق رجل قتلتموه.

وأمر رسول الله ﷺ يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش فقذفوا في طوي من أطواء بدر خبيث مخبث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعرصة ثلاث ليال، فلمّا كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشدّ عليها رحلها، ثمَّ مشى واتبعه أصحابه، وقالوا ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الركي فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: يا فلان بن فلان، ويا فلان بن فلان أيسُرُّكم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنّا قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟، قال: فقال عمر: يا رسول الله ما تكلم من أجساد لا أرواح لها؟ فقال رسول

(١) بطش.
(٢) أي: ضربه بجمع كفّه.
(٣) سيرة ابن هشام: ج١/ ٤٤١.

الله ﷺ: والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لِمَا أقول منهم. [1]

قال ابن إسحاق: ولمّا أمر رسول الله ﷺ أن يُلقوا في القَليب، أخذ عتبة بن ربيعة، فسُحب إلى القَليب، فنظر رسول الله ﷺ - فيما بلغني - في وجه أبي حذيفة بن عتبة، فإذا هو كئيب قد تغيّر لونه، فقال: يا أبا حذيفة، لعلّك قد دخلك من شأن أبيك شيء؟ أو كما قال ﷺ، فقال: لا والله يا رسول الله، ما شككت في أبي ولا في مصرعه، ولكنّني كنت أعرف مِن أبي رأياً وحلماً وفضلاً، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام، فلمّا رأيت ما أصابه، وذكرت ما مات عليه من الكفر، بعد الذي كنت أرجو له، أحزنني ذلك، فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيراً.

وهكذا انتهت غزوة بدر بنصر عظيم للمسلمين، وهزيمة ساحقة للمشركين. يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: لقد أراد الله - وله الفضل والمنّة - أن تكون ملحمة لا غنيمة، وأن تكون موقعة بين الحق والباطل، ليُحِقَّ الحقَّ ويثبته، ويُبْطِلَ الباطلَ ويُزهقه، وأراد أن يقطع دابر الكافرين، فيقتل منهم من يقتل، ويؤسر منهم من يؤسر، وتُذَلُ كبرياؤُهم، وتُخضدُ شوكتُهم، وتعلو راية الإسلام، وتعلو معها كلمة الله، ويمكِّن الله للعصبة المسلمة التي تعيش بمنهج الله، وتنطلق به لتقرير ألوهية الله في الأرض، وتحطيم طاغوت الطواغيت، وأراد أن يكون هذا التمكين عن استحقاق لا عن جزاف - تعالى الله عن الجزاف - وبالجهد والجهاد، وبتكاليف الجهاد ومعاناتها في عالم الواقع وفي ميدان القتال.

نعم، أراد الله للعصبة المسلمة أن تُصبِح أمة وأن تُصبِح دولة وأن يُصبِح لها قوة وسلطان، وأراد لها أن تقيس قوتها الحقيقية إلى قوة أعدائها، فترجح ببعض قوتها على قوة أعدائها! وأن تعلم أنَّ النصر ليس بالعدد وليس بالعدة، وليس بالمال والخيل والزاد، إنّما هو بمقدار اتصال القلوب بقوة الله التي لا تقف لها قوة العباد.

وأن يكون هذا كله عن تجربة واقعية، لا عن مجرد تصور واعتقاد قلبي، ذلك

---

(١) رواه البخاري.

لتتزود العُصْبة المسلمة من هذه التجربة الواقعية لمستقبلها كلّه، ولتوقنَ كلُّ عصبة مسلمة أنّها تملك في كل زمان وفي كل مكان أن تغلب خصومها وأعداءها مهما تكن هي من القلة ويكن عدوها من الكثرة، ومهما تكن هي من ضعف العدّة المادية ويكن عدوها من الاستعداد والعتاد، وما كانت هذه الحقيقة لتستقر في القلوب كما استقرت بالمعركة الفاصلة بين قوة الإيمان وقوة الطغيان.

وينظر الناظر اليوم، وبَعدَ اليوم، ليرى الآماد المتطاولة بين ما أرادته العُصْبة المسلمة لنفسها يومذاك وما أراده الله لها، بين ما حسبته خيراً لها وما قدره الله لها من الخير، ينظر فيرى الآماد المتطاولة ويعلم كم يخطئ الناس حين يحسبون أنهم قادرون على أن يختاروا لأنفسهم خيراً ممّا يختاره الله لهم، وحين يتضررون مما يريده الله لهم مما قد يعرضهم لبعض الخطر أو يصيبهم بشيء من الأذى، بينما يكمن وراءه الخير الذي لا يخطر لهم ببال، ولا بخيال! فأين ما أرادته العصبة المسلمة لنفسها مما أراده الله لها؟ لقد كانت تمضي - لو كانت لهم غير ذات الشوكة - قصّة غنيمة، قصّة قوم أغاروا على قافلة فغنموها!، فأمّا بدر فقد مضت في التاريخ كله قصة عقيدة، قصّة نصر حاسم وفرقان بين الحق والباطل، قصّة انتصار الحق على أعدائه المدججين بالسلاح المزودين بكل زاد، والحق في قلة من العدد، وضعف في الزاد والراحلة، قصة انتصار القلوب حين تتصل بالله، وحين تتخلص من ضعفها الذاتي، بل قصّة انتصار حفنة من القلوب من بينها الكارهون للقتال! ولكنها ببقيتها الثابتة المستعلية على الواقع المادي، وبيقينها في حقيقة القوى وصحة موازينها، قد انتصرت على نفسها، وانتصرت على من فيها، وخاضت المعركة والكفة راجحة رجحاناً ظاهراً في جانب الباطل، فقلبت بيقينها ميزان الظاهر فإذا الحق راجحٌ غالب.

أَلا إنَّ غزوة بدر - بملابساتها هذه - لتمضي مثلا في التاريخ البشري، أَلا وإنّها لتقرر دستور النصر والهزيمة وتكشف عن أسباب النصر وأسباب الهزيمة، الأسباب الحقيقية لا الأسباب الظاهرة المادية، أَلا وإنّها لكتاب مفتوح تقرؤه الأجيال في كل

زمان وفي كل مكان، لا تتبدل دلالتها ولا تتغير طبيعتها، فهي آية من آيات الله، وسُنّة من سُننه الجارية في خلقه، ما دامت السماوات والأرض، أَلا وإنَّ العصبة المسلمة التي تجاهد اليوم لإعادة النشأة الإسلامية في الأرض - بعد ما غلبت عليها الجاهلية - لجديرة بأن تقف طويلا أمام بدر وقيمها الحاسمة التي تقررها والأبعاد الهائلة التي تكشفها بين ما يريده الناس لأنفسهم وما يريده الله لهم. (١)

وقال ﵀: إنَّ الإنسان لا يدري أين يكون الخير وأين يكون الشر، لقد كان المؤمنون الذين خرجوا يوم بدر يطلبون عير قريش وتجارتها، ويرجون أن تكون الفئة التي وعدهم الله إياها هي فئة العير والتجارة، لا فئة الحامية المقاتلة من قريش، ولكنَّ الله جعل القافلة تُفلت، ولقّاهم المقاتلة من قريش! وكان النصر الذي دوّى في الجزيرة العربية ورفع راية الإسلام، فأين تكون القافلة من هذا الخير الضخم الذي أراده الله للمسلمين؟ وأين يكون اختيار المسلمين لأنفسهم من اختيار الله لهم؟ والله يعلم والناس لا يعلمون. (٢)

شهداء المسلمين في بدر

استشهد من المسلمين في بدر أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين، منهم عبيدة بن الحارث ابن عم النبي ﷺ، وعمير بن أبي وقاص ﵁ (٣)، وثمانية من الأنصار منهم عمير بن الحمام ﵁.

قتلى المشركين في بدر

قُتل من المشركين في هذه الغزوة سبعون رجلاً، منهم أبو جهل بن هشام وأمية

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنفال.
(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.
(٣) هو أخو سعد بن أبي وقاص ﵁، وكان من صغار المسلمين الذين أجازهم النبي ﷺ، وكان النبي ﷺ قد ردّه فبكى عمير فأجازه ﵇، وكان عمره حين استشهد ١٦ عاماً.

بن خلف وابنه علي وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأبو البختري ونبيه ومنبه ابنا الحجاج وولداهما والنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط - كانا في جملة الأسرى فقتلهما النبي ﷺ في طريق عودته إلى المدينة - وحنظلة بن أبي سفيان.

وهكذا استطاع النبي ﷺ أن يقضي على الخط الأول من قادة قريش، فقد مات الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل السهمي والمطعم بن عدي قبل بدر، وهلك سائر قادة قريش في بدر ولم يبقَ منهم سوى أربعة، وهم أبو لهب وأُبيْ بن خلف وأبو سفيان وسهيل بن عمرو، أمّا أبو لهب فقد مات بعد بدر بثلاثة أيام، وأمّا أُبي بن خلف فسيقتله النبي ﷺ في أُحد بعد عام من بدر، وأمّا سهيل بن عمرو فقد أسره المسلمون في بدر، فتفرّد أبو سفيان بقيادة مكّة، وظهر في هذه الفترة الجيل الثاني من قيادات مكّة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل.

الغنـائم

في الصحيحين عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: أُعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نُصِرتُ بالرعب مسيرة شهر، وجُعِلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيّما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلَّت ليَ الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأُعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامّة.

وقد اختلف الصحابة رضي الله عنهم يوم بدر في المغانم من المشركين، لِمَنْ تكون منهم، وكانوا ثلاثة أصناف حين ولّى المشركون، ففرقة أحدقت برسول الله ﷺ تحرسه خوفاً من أن يرجع أحد من المشركين إليه، وفرقة ساقت وراء المشركين يقتلون منهم ويأسرون، وفرقة جمعت المغانم من متفرقات الأماكن، فادعى كل فريق من هؤلاء أنّه أحق بالمغنم من الآخرين لِما صنع من الأمر المهم.

روى ابن إسحاق عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال، فقال: فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل، وساءت فيه أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا، فجعله إلى رسوله، فقسمه رسول الله ﷺ بين المسلمين عن بواء يقول: على السواء.

ومعنى قوله: (على السواء) أي ساوى فيها بين الذين جمعوها وبين الذين تبعوا العدو، وبين الذين ثبتوا تحت الرايات، لم يخصص بها فريقاً منهم ممن ادعى التخصيص بها، ولا ينفي هذا تخميسها وصرف الخمس في مواضعه.

ثمَّ أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى المدينة، ومعه الأسارى من المشركين، وفيهم عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، واحتمل رسول الله ﷺ معه النفل الذي أصيب من المشركين، فلمّا وصل رسول الله ﷺ بالصفراء قَتَلَ النضر بن الحارث، ثم خرج حتى إذا كان بعرق الظبية أمر بقتل عقبة بن أبي معيط، فقال عقبة حين أمر رسول الله ﷺ بقتله: فمن للصبية يا محمد؟ قال: النار.

قال ابن كثير: كان هذان الرجلان من شرّ عباد الله، وأكثرهم كفراً وعناداً وبغياً وحسداً وهجاءً للإسلام وأهله، لعنهما الله، وقد فعل.

وقد رثت قتيلة بنت الحارث، أخاها النضر بن الحارث بأبيات من الشعر جاء فيها:

أمحمــدٌ يا خيــر ضنء كريمــة   من قومها والفحل فحل معــرقُ

مـا كان ضرّك لــو مننت؟ وربـمـا   مـنَّ الفتى وهو المغيظ المحنقُ

أو كـنـت قـابـل فديـة فَلَيُنـفَـقَـنْ   بـأعـزِّ مـا يـغـلـو بـه ما ينفقُ

قال ابن هشام: ويقال، والله أعلم: إنَّ رسول الله ﷺ لمّا بلغه هذا الشعر قال: لو بلغني هذا قبل قتله لمننت عليه.

قلت: في قَتْلِه ﷺ للنضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط دليل على جواز قتل الأسرى، وقد استقرَّ حكم الأسرى في الشريعة الإسلامية على أنَّ الإمام مخيّر فيهم

بين قتلهم أو فدائهم بأسرى المسلمين أو بالمال أو الاسترقاق، أو المنِّ عليهم وهو إطلاقهم بدون مقابل، وضابط هذا التخيير هو مصلحة المسلمين، فمتى كان في قتل الأسرى مصلحة للمسلمين قتلهم الإمام، خاصّة عندما يكونون من أكابر المجرمين، من قيادات العدو، أو ممّن لهم دور مهم في المعركة ضد المسلمين.

ونُذكّر هنا بأنَّ على الإمام أن لا يدخّر جهداً في تخليص أسرى المسلمين واستنقاذهم من العدو، وأنْ يسلك في ذلك كل سبيل شرعي، ومن ذلك مبادلتهم بأسرى المشركين، وعادة ما يكون العدو مستعداً لمبادلة أسراه بأسرى المسلمين، لذلك على الإمام أن يبادر إلى ذلك، ولا يقدّم قتل الأسرى المشركين على مبادلتهم بأسرى المسلمين تحت أي حجّة أو ذريعة، إلّا في بعض الحالات الاستثنائية التي يكون فيها قتل الأسير الكافر خير للمسلمين من مبادلته بأسراهم، وهذه المسألة يرجع القرار الأخير فيها للإمام بعد أن يستشير أهل الشورى في الدولة.

ويصف قوله ﷺ لمّا بلغه شعر قتيلة بنت الحارث أخت النضر (لو بلغني هذا قبل قتله لمننتُ عليه) خُلُقَه العظيم ﷺ، وكيف أنَّه كان يجعل للعفو والمسامحة مساحة في تعامله مع عدوّه ما دام ذلك لا يضرُّ بالمسلمين، والمسألة تقدّر بقدرها، ولكل مقام مقال، وقد وجدنا نظير هذا في تعامله ﷺ مع أعدائه، كما في استجابته عليه الصلاة والسلام لأبي سفيان في مكّة حين جاءه يشكو إليه ضيق الحال الذي وصلت إليه مكّة، والبلاء الذي حلَّ بقريش ويسأله أن يدعو الله أنْ يدفع عنهم ذلك البلاء، فاستجاب عليه الصلاة والسلام لطلب أبي سفيان، وكذلك في إطلاقه لثمامة بن أثال الحنفي دون مقابل حين وقع أسيراً في يد المسلمين، ثمَّ طلبه من ثمامة بعد ذلك أن يعود لبيع الحنطة لقريش حين سألته قريش ذلك، وكان ثمامة قد أقسم ألّا تصل إلى قريش حبّة حنطة حتى يأمر النبي ﷺ، وإطلاقه لأبي عَزّة الجمحي دون مقابل أيضاً حين أُسِر في بدر، وعفوه عن أهل مكّة حين دخلها فاتحاً، بل عفوه حتى عن بعض من أهدر دماءهم في فتح مكّة وغير ذلك كثير، ممّا سيمرُّ معنا في هذا الكتاب إن شاء الله.

ومثلما تتعلم – وفقك الله – من نبيك ﷺ التوحيد والجهاد، عليك أن تتعلم منه هذا الخُلُق العظيم، فالزم غرزه ﷺ وتأسَّ به في توحيده وجهاده وعبادته وخُلُقه وسائر شأنه، فذلك هو الفوز العظيم.

وفي مدح قتيلة بنت الحارث للنبي ﷺ وثنائها عليه رغم أنَّه قتل أخاها مثال آخر يُضاف لِمَا ذكرناه في مقدمة الكتاب على ما كان يتمتع به العربي من الأخلاق والتي تمثّلت هنا عند هذه المرأة بإقرارها بشرف نسب النبي ﷺ وعدم فجورها في الخصومة.

وصول نبأ الانتصار إلى المدينة

ثمَّ بعث رسول الله ﷺ عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيراً إلى أهل العالية بما فتح الله ﷻ على رسوله ﷺ وعلى المسلمين، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة، قال أسامة بن زيد: فأتانا الخبر حين سوّينا التراب على رقية ابنة رسول الله ﷺ، التي كانت عند عثمان بن عفان.

ثمَّ ارتحل رسول الله ﷺ، حتى إذا كان بالروحاء لَقِيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين، فقال لهم سلمة بن سلامة: ما الذي تهنئوننا به؟ فوالله إنْ لقينا إلّا عجائز صلعاً كالبُدْن المعقلة، فنحرناها، فتبسَّم رسول الله ﷺ ثمَّ قال: أي ابن أخي، أولئك الملأ [١].

وصول نبأ الهزيمة إلى مكّة

ووصل خبر الهزيمة لقريش، وكان أول من قَدِم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعي، فقالوا: ما وراءك؟ قال: قُتِل عتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو الحكم بن هشام، وأميّة بن خلف، وزمعة بن الأسود، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج،

(١) أي الأشراف والرؤساء.

وأبو البختري بن هشام، فلمّا جعل يعدد أشراف قريش، قال صفوان بن أمية، وهو قاعد في الحِجْر: والله إنْ يعقل هذا، فاسألوه عنّي، فقالوا: وما فعل صفوان بن أميّة؟ قال: ها هو ذاك جالساً في الحِجْر، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قُتِلا، فناحت قريش على قتلاهم، ثمَّ قالوا: لا تفعلوا فيبلغ محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في أسراكم حتى تستأنوا بهم، لا يأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء.

الأسـرى

والمشهور أنَّ الأسارى يوم بدر كانوا سبعين، والقتلى من المشركين سبعين، وكان من جملة الأسارى من آل رسول الله ﷺ عمّه العباس بن عبدالمطلب، وابن عمه عقيل بن أبي طالب، ونوفل بن الحارث بن عبدالمطلب، وكان فيهم أيضاً أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله ﷺ.

وحين أقبل رسول الله ﷺ بالأسارى فرّقهم بين أصحابه وقال: استوصوا بالأسارى خيراً، وقد التزم الصحابة بوصية رسول الله ﷺ رغم أنَّ هؤلاء الأسرى كانوا من ألدِّ أعدائهم، ومن قريش التي عذّبتهم وسلبت أموالهم وأخرجتهم من ديارهم، حتى حكى أبو عزيز – وقد أسره أخوه مصعب بن عمير ومعه رجل أنصاري – أن آسريه كانوا إذا قدّموا غداءهم وعشاءهم خصّوه بالخبز وأكلوا التمر، لوصيّة رسول الله ﷺ بالأسرى، حتى ما تقع في أيديهم خبزة إلّا ناوله إياها، قال: فأستحي فأردها، فيردها عليَّ ما يمسّها.

و كان أبو عزيز بن عُمَير بن هاشم، أخو مصعب بن عمير لأبيه وأمه في الأسارى، يقول أبو عزيز: مرّ بي أخي مصعب بن عمير ورجل من الأنصار يأسرني، فقال: شُدَّ يديك به، فإن أمَّه ذاتُ متاع، لعلها تفديه منك، فلمّا قال أخوه مصعب بن عمير للصحابي الذي أسره هذا، قال له أبو عزيز: يا أخي، هذه وصاتك بي؟، فقال له مصعب: إنّه أخي دونك، وكان أبو عزيز صاحب لواء المشركين ببدر بعد النضر بن الحارث.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: إنَّ العقيدة هي العروة الكبرى التي تلتقي فيها سائر الأواصر البشرية والعلاقات الإنسانية، فإذا انْبَتَّتْ وشيجة العقيدة انْبَتَّتْ الأواصر الأخرى من جذورها، فلا لقاء بعد ذلك في نسب، ولا لقاء بعد ذلك في صهر، ولا لقاء بعد ذلك في قوم، ولا لقاء بعد ذلك في أرض، إمّا إيمان بالله فالوشيجة الكبرى موصولة، والوشائج الأخرى كلها تنبع منها وتلتقي بها، أو لا إيمان فلا صلة إذن يمكن أن تقوم بين إنسان وإنسان. (١)

ويقول: إنَّ التصور الإسلامي يقطع الوشائج والصلات التي لا تقوم على أساس العقيدة والعمل، ولا يعترف بقربى ولا رحم إذا انْبَتَّتْ وشيجة العقيدة والعمل، ويُسقِط جميع الروابط والاعتبارات ما لم تتصل بعروة العقيدة والعمل، وهو يفصل بين جيل من الأمة الواحدة وجيل إذا خالف أحد الجيلين الآخر في عقيدته، بل يفصل بين الوالد والولد، والزوج والزوج إذا انقطع بينهما حبل العقيدة، فعرب الشرك شيء وعرب الإسلام شيء آخر، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة، والذين آمنوا من أهل الكتاب شيء، والذين انحرفوا عن دين إبراهيم وموسى وعيسى شيء آخر، ولا صلة بينهما ولا قربى ولا وشيجة، إنَّ الأسرة ليست آباءً وأبناءً وأحفاداً، إنّما هي هؤلاء حين تجمعهم عقيدة واحدة، وإنَّ الأمة ليست مجموعة أجيال متتابعة من جنس معين، إنّما هي مجموعة من المؤمنين مهما اختلفت أجناسهم وأوطانهم وألوانهم، وهذا هو التصور الإيماني، الذي ينبثق من خلال هذا البيان الرباني في كتاب الله الكريم. (٢)

وقد اختلف الصحابة في الأسارى أيُقتَلون أو يُفادَوْن على قولين: فقد روى الإمام أحمد - واللفظ له - ومسلم وأبو داود والترمذي وصححه، عن عمر بن الخطاب قال: نظر النبي ﷺ إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيّف، ونظر إلى المشركين

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.

(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.

فإذا هم ألف وزيادة، فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثمَّ مدّ يده وعليه رداؤه وإزاره، ثمَّ قال: اللهم أين ما وعدتني، اللهم انجز ما وعدتني، اللهم إنْ تهلك هذه العصابة من أهل الاسلام فلا تُعْبَد في الأرض أبداً، قال: فما زال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، وأنزل الله تعالى ﴿إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين﴾ فلمّا كان يومئذ والتقوا، فهزم الله المشركين، فقُتل منهم سبعون رجلاً، وأُسِر منهم سبعون رجلاً، فاستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعلياً وعمر، فقال أبو بكر: يا نبي الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، فأنا أرى أن تأخذ منهم الفداء فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله ﷻ أنْ يهديهم فيكونون لنا عضداً، فقال رسول الله ﷺ: ما ترى يا ابن الخطاب، فقال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكنّي أرى أن تمكّنني من فلان – قريب لعمر – فاضرب عنقه، وتمكّن علياً من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان أخيه فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أنَّه ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر، ولم يهوَ ما قلت، فأخذ منهم الفداء، فلمّا كان من الغد، قال عمر رضي الله عنه: غدوت إلى النبي ﷺ فإذا هو قاعد وأبو بكر، وإذا هما يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني ماذا يبكيك أنت وصاحبك، فان وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، قال: قال النبي ﷺ: الذي عرض عليَّ أصحابك من الفداء، ولقد عرض عليَّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة – لشجرة قريبة – وأنزل الله تعالى ﴿ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض..... إلى قوله: لمسكم فيما أخذتم﴾ من الفداء، ثم أحلَّ لهم الغنائم. وذكر تمام الحديث.

وقال الإمام أحمد: لمّا كان يوم بدر قال رسول الله ﷺ: ما تقولون في هؤلاء الأسرى؟ قال: فقال أبو بكر: يا رسول الله، قومك وأهلك، استَبْقهم واستأنِ بهم لعلَّ الله أن يتوب عليهم، قال: وقال عمر: يا رسول الله، أخرجوك وكذّبوك، قرّبهم

فاضرب أعناقهم، قال: وقال عبد الله بن رواحة: يا رسول الله، انظر وادياً كثير الحطب فأدخلهم فيه ثمَّ أضرمه عليهم ناراً، فقال العباس: قطعت رحمك، قال: فدخل رسول الله ﷺ ولم يردَّ عليهم شيئاً، فقال ناس: يأخذ بقول أبي بكر، وقال ناس: يأخذ بقول عمر، وقال ناس: يأخذ بقول عبد الله بن رواحة، فخرج عليهم فقال: إنَّ الله ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإنَّ الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإنَّ مثلك يا أبا بكر، كمثل إبراهيم عليه السلام، قال: (فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنك غفور رحيم)، ومثلك يا أبا بكر كمثل عيسى، قال: (إن تعذبهم فإنّهم عبادك وإن تغفر لهم فإنّك أنت العزيز الحكيم)، وإنَّ مثلك يا عمر كمثل نوح، قال: ﴿رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً﴾ وإنَّ مثلك يا عمر كمثل موسى، قال: ﴿ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم﴾ أنتم عالة، فلا ينفلتنَّ منهم أحد إلّا بفداء أو ضربة عنق، قال عبد الله: فقلت: يا رسول الله، إلا سهيل بن بيضاء، فإني قد سمعته يذكر الإسلام، قال فسكت، قال: فما رأيتني في يوم أخوف أن تقع عليَّ حجارة من السماء من ذلك اليوم، حتى قال: (إلا سهيل بن بيضاء) قال: فأنزل الله (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم) إلى آخر الآيتين. [1]

قلت: الحكم بقتل الأسرى كان في أول الإسلام، واستقرَّ الحكم بعد ذلك للإمام بين القتل أو المفاداة أو الاسترقاق أو المنِّ عليهم دون فداء، عدا الأطفال والنساء حيث لا يجوز قتلهم بل يصبحون سبياً للمسلمين.

ثمَّ بعثت قريش في فداء الأسارى، فقدم مكرز بن حفص بن الأخيف في فداء سهيل بن عمرو، روى ابن إسحاق أنَّ عمر بن الخطاب قال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، دعني أنزع ثنيتي سهيل بن عمرو، ويدلع لسانه، فلا يقوم عليك خطيباً

(١) وهكذا رواه الترمذي، والحاكم من حديث أبي معاوية، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. [البداية والنهاية: ج١/ ٦٣٢ - ٦٣٣].

في موطن أبداً، قال: فقال رسول الله ﷺ: لا أُمثِّلُ به فيمثِّلُ الله بي وإن كنت نبياً، قال ابن إسحاق: وقد بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال لعمر في هذا الحديث: إنّه عسى أن يقوم مقاماً لا تذمُّه.

قلت: في موقف عمر بن الخطاب وسعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة «رضي الله عنهم» من أسرى بدر، ورغبتهم في قتلهم ونزول القرآن يؤيد هذا الموقف درسٌ لكل مسلم بأن لا يكون ولاؤه إلّا لله ولرسوله وللمؤمنين، وأن يبرأ من كل ما عداهما، وأن يكون موقف من الكفّار والمرتدين كموقف عمر وسعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة «رضي الله عنهم» وإنْ كان أولئك الكفّار والمرتدون آباءه أو أبناءه أو إخوانه أو عشيرته، يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: ففي هذا تكون العداوة، وفي هذا تكون المعركة، وفي هذا يكون الجهاد، وليس هنالك أسباب أخرى يعادي فيها المسلم ويعارك ويجاهد، فهو إنّما يعادي لله، ويعارك لله، ويجاهد لله. (1)

وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس، ختن رسول الله ﷺ، وزوج ابنته زينب كما ذكرنا، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين، مالاً، وأمانة، وتجارة، وكان لهالة بنت خويلد، وكانت خديجة خالته، فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوّجه، وكان رسول الله ﷺ لا يخالفها، وذلك قبل أن ينزل عليه الوحي، فزوّجه، وكانت تعدّه بمنزلة ولدها، فلمّا أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته آمنت به خديجة وبناته، فصدَّقنه، وشهدن أنَّ ما جاء به الحق، ودِنَّ بدينه، وثبت أبو العاص على شركه.

وروى ابن إسحاق عن عائشة قالت: لمّا بعث أهل مكة في فداء أسرائهم، بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، قالت: فلمّا رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقّة شديدة وقال: إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردّوا عليها مالها

(1) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران.

فافعلوا، فقالوا: نعم يا رسول الله، فأطلقوه، ورَدُّوا عليها الذي لها.

وثبت في صحيح البخاري إنَّ رجالاً من الأنصار استأذنوا رسول الله ﷺ قالوا: «ائذن لنا فلنترك لابن اختنا [1] العباس فداءه، فقال: لا والله لا تذرون منه درهماً».

وكان من بين الأسارى أبو عزة الجمحي، قال ابن إسحاق: كان محتاجاً ذا بنات، قال: يا رسول الله، لقد عرفت ما لي من مال، وإنّي لذو حاجة وذو عيال، فامنن علي، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ، وأخذ عليه أن لا يظاهر عليه أحداً.

قال ابن كثير: ثم إنَّ أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب المشركون بعقله فرجع إليهم، فلمّا كان يوم أحد أُسر أيضاً، فسأل من النبي ﷺ أن يمنَّ عليه أيضاً، فقال النبي ﷺ: لا أدعك تمسح عارضيك وتقول: خدعت محمداً مرتين، ثمَّ أمر به، فضُربت عنقه.

وقد رأت أمُّ المؤمنين سودة بنت زمعة رضي الله عنها سهيل بن عمرو ويداه معقودتان إلى عنقه بحبل فقالت: أبا يزيد أعطيتم بأيديكم؟!!! أَلَا متّم كراماً!!، فقال رسول الله ﷺ: أي سَوْدة، أعلى الله وعلى رسوله!! - أي تؤلبين - فقالت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما ملكت حين رأيت أبا يزيد مجموعة يداه إلى عنقه بالحبل أن قلتُ ما قلت.

وكان فراغ رسول الله ﷺ من بدر في عقب شهر رمضان أو في شوال، قال ابن إسحاق: فلمّا انقضى أمرُ بدر أنزل الله ﷻ فيه من القرآن الأنفال بأسرها.

فرح النجاشي بانتصار المسلمين

قال ابن كثير: قال الحافظ البيهقي: أرسل النجاشي ذات يوم إلى جعفر بن أبي طالب وأصحابه، فدخلوا عليه وهو في بيت عليه خلقان ثياب، جالس على التراب، قال جعفر: فأشفقنا منه حين رأيناه على تلك الحال، فلمّا أن رأى ما في وجوهنا،

(١) إنّما قالوا ذلك لأنَّ جدّته من بني النجار.

قال: إنّي أبشركم بما يسرّكم، إنّه جاءني من نحو أرضكم عين لي، فأخبرني أنَّ الله ﷻ قد نصر نبيه ﷺ، وأهلك عدوه، وأسر فلان وفلان وفلان وقتل فلان وفلان وفلان.

صور من غزوة بدر

١ – طلب حذيفة بن اليمان ووالده رضي الله عنهما من النبي ﷺ أنْ يأذن لهما بعدم شهود بدر، لأنَّهما وعدا كفّار قريش بعدم القتال، فأَذِنَ لهما، وطلب منهما أن يفيا بعهدهما.[1]

وهذا هو – وفقك الله – ما لا نملُّ من طرحه عليك، وتذكيرك به، ونوصيك بأن تحفظه من نبيك ﷺ، الوفاء وعدم الغدر بالآخر، ولو كان كافراً، فاحفظ هذا، بيَّض الله وجهك، وسدَّد خطاك.

٢– عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج رسول الله ﷺ قبل بدر، فلمّا كان بحرّة الوبرة أدركه رجل قد كان يُذكر منه جرأة ونجدة، ففرح أصحاب رسول الله ﷺ حين رأوه، فلمّا أدركه قال لرسول الله ﷺ جئت لأتبعك وأصيب معك، قال له رسول الله ﷺ: تؤمن بالله ورسوله، قال: لا، قال: فارجع، فلن أستعين بمشرك، قالت: ثمَّ مضى، حتى إذا كنا بالشجرة أدركه الرجل، فقال له كما قال أول مرة، فقال له النبي ﷺ كما قال أول مرة، قال: فارجع، فلن أستعين بمشرك، قال: ثمَّ رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرة: تؤمن بالله ورسوله، قال: نعم، فقال له رسول الله ﷺ فانطلق.[2]

قلت: في قوله ﷺ للرجل: (فارجع، فلن أستعين بمشرك) دليل على عدم جواز الاستعانة بالمشرك في القتال مطلقاً، فلم يقاتل في صفوف المسلمين في معاركهم كلّها في عهد النبي ﷺ ولا في عهد الخلفاء الراشدين أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم مشرك على الإطلاق، وهذا هو قول الإمام مالك رحمه الله.

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

أمّا الاستدلال على الجواز باستئجاره ﷺ لعبدالله بن أريقط في هجرته إلى المدينة، وباستعارته للدروع من صفوان بن أميّة في حنين، وبما هو من جنس هذا من سيرة رسول الله ﷺ، فهو استدلال خارج عن محل النزاع، فهذه الأمثلة تصلح للاستدلال على جواز التعامل مع المشركين بالبيع والشراء والاستئجار والاستعارة وغيرها من المسائل المشابهة، كذلك فإنَّ للمسألة دليلها الخاص هنا، وهو قوله عليه السلام: (فارجع، فلن أستعين بمشرك)، ومن القواعد الأصولية الثابتة عدم الاستدلال بالعام مع وجود المخصِّص.

٣- قال عوف بن الحارث وهو ابن عفراء للنبي ﷺ: يا رسول الله، ما يضحك الرب من عبده؟ قال: غمسه يده في العدو حاسراً [١]، فنزع درعاً كانت عليه فقذفها، ثمَّ أخذ سيفه فقاتل القوم حتى قُتِل.

٤- قصة سيف عكاشة: قال ابن إسحاق: وقاتل عكاشة بن محصن بن حرثان الأسدي، حليف بني عبد شمس بن عبد مناف، يوم بدر بسيفه حتى انقطع في يده، فأتى رسول الله ﷺ فأعطاه جذلاً من حطب، فقال: قاتل بهذا يا عكاشة، فلمّا أخذه من رسول الله ﷺ هزّه، فعاد سيفاً في يده طويل القامة، شديد المتن، أبيض الحديدة، فقاتل به حتى فتح الله تعالى على المسلمين، وكان ذلك السيف يسمى: العون، ثمَّ لم يزل عنده يشهد به المشاهد مع رسول الله ﷺ حتى قُتِل في الردّة، وهو عنده، قتله طليحة بن خويلد الأسدي.

وعكاشة بن محصن رضي الله عنه هو الذي قال لرسول الله ﷺ حين قال رسول الله ﷺ: عُرضت عليَّ الأمم، فأخذ النبي يمرُّ معه الأمّة، والنبي يمرُّ معه النفر، والنبي يمرُّ معه العشرة، والنبي يمرُّ معه الخمسة، والنبي يمرُّ وحده، فنظرت فإذا سواد كثير، قلت: يا جبريل هؤلاء أمتي؟، قال: لا، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد كثير، قال: هؤلاء أمتك، وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب، قلت: ولِمَ؟،

---

(١) الحاسر: من لا درع له.

قال: كانوا لا يكتوون، ولا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، فقام إليه عكاشة بن محصن فقال: ادع الله أنْ يجعلني منهم، قال: اللهم اجعله منهم، ثمَّ قام إليه رجل آخر قال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: سبقك بها عكاشة.(١)

٥- قتال النبي ﷺ بنفسه: قال علي رضي الله عنه: لقد رأيتنا يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأساً(٢)، وقد قاتل مع رسول الله ﷺ في بدر وفي سائر غزواته عليه السلام أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وأبو عبيدة وسعد وطلحة والزبير وسائر الصحابة «رضي الله عنهم» ولم يكن أحدٌ منهم يتخلّف عن الجهاد إلّا لعذر يحول دون حضوره المعارك، إذ لم يكن للمسلمين جناح عسكري!!! يقاتل ويتحمل تَبِعاتِ القتال من قتلٍ وأسرٍ وبترٍ وخوفٍ وجوع، فهو يمكث في الخنادق متحمّلاً كلَّ هذا، وجناحٌ آخر سياسي!!! يخوض في النعيم ويعيش في الفنادق، ويتنقَّل بين عواصم العالم لحضور المؤتمرات (بل المؤامرات)، والقيادة لهذا الجناح والقولُ قولُه!!!، إنَّها والله لقسمةٌ ضيزى لا يقبل بها مَنْ كان عنده مُسكة من عقل، إذ كيف يسوغ أن يأتمر أبطال الخنادق بأمر خونة الفنادق الذين يُسوّقون لعدم مشاركتهم في القتال بأنّهم كوادر!!! لا ينبغي تعريضهم للخطر، فالمقاتل العادي يسهل تعويضه بغيره إذا قُتِل أو أُسِر، أمّا الكادر فيصعب تعويضه!!!.

إنَّ أبا جهل وعتبة وشيبة وغيرهم من قادة قريش، وحُيي بن أخطب ومرحب اليهودي وغيرهم من قادة اليهود، والهرمزان والفيرزان ورستم وغيرهم من قادة الفرس كانوا أصدق وأشجع وأفضل في المقياس الإنساني من هؤلاء قادة مَنْ يُسمّون أنفسهم اليوم الأحزاب الإسلامية والجماعات الإسلامية، فهم لم يُرسلوا أتباعهم للقتال في المعارك بينما تخلّفوا هم في بيوتهم مع نسائهم وأبنائهم، كلّا، بل خرجوا مقاتلين أمام جنودهم، وقد وجدنا عندهم من معاني الرجولة ما لم نعد

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.
(٢) مسند الإمام أحمد.

نجده عند قادة مَنْ يُسمّون أنفسهم الأحزاب الإسلامية والجماعات الإسلامية بعد أن صاروا مسوخاً لا يلوون على شيء من دينٍ ولا خُلُق ولا مروءة ولا رجولة.

٦- روى البخاري عن أنس بن مالك أنَّ أم الربيع بنت البراء وهي أم حارثة بن سراقة أتت النبي ﷺ فقالت: يا نبي الله ألا تحدثني عن حارثة - وكان قتل يوم بدر أصابه سهم غرب - فإنْ كان في الجنّة صبرت، وإنْ كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، قال: يا أم حارثة إنّها جنان في الجنّة، وإنَّ ابنك أصاب الفردوس الأعلى.

قلت: لم يُصلِّ رسول الله ﷺ على شهداء بدر، وهذه هي السنّة في الشهداء، ودُفنوا في بدر، ولم يُنقَل أحدٌ منهم للدفن في المدينة.

أنزل الله ﷻ سورة الأنفال كاملة تتحدث عن غزوة بدر، وقد علَّق الشهيد سيد قطب رحمه الله في كتابه القيّم في ظلال القرآن على أحداث الغزوة، وممّا قاله رحمه الله في تفسير قوله تعالى ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ. إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾: إنَّ الإسلام يعاهد ليصون عهده، فإذا خاف الخيانة من غيره نبذ العهد القائم جهرة وعلانية، ولم يخن ولم يغدر، ولم يغش ولم يخدع، وصارح الآخرين بأنَّه نفض يده من عهدهم، فليس بينه وبينهم أمان، وبذلك يرتفع الإسلام بالبشرية إلى آفاق من الشرف والاستقامة، وإلى آفاق من الأمن والطمأنينة، إنّه لا يُبيّت الآخرين بالهجوم الغادر الفاجر وهم آمنون مطمئنون إلى عهود ومواثيق لم تنقض ولم تنبذ، ولا يروّع الذين لم يأخذوا حذرهم حتى وهو يخشى الخيانة من جانبهم، فأمّا بعد نبذ العهد فالحرب خدعة، لأنَّ كل خصم قد أخذ حذره، فإذا جازت الخدعة عليه فهو غير مغدور به إنّما هو غافل! وكل وسائل الخدعة حينئذ مباحة لأنها ليست غادرة!

إنَّ الإسلام يريد للبشرية أن ترتفع، ويريد للبشرية أن تعف، فلا يبيح الغدر في سبيل الغلب، وهو يكافح لأسمى الغايات وأشرف المقاصد، ولا يسمح للغاية الشريفة أن تستخدم الوسيلة الخسيسة.

إنَّ الإسلام يكره الخيانة، ويحتقر الخائنين الذين ينقضون العهود، ومن ثمَّ لا

يحبُّ للمسلمين أن يخونوا أمانة العهد في سبيل غاية مهما تكن شريفة، إنَّ النفس الإنسانية وحدة لا تتجزأ، ومتى استحلت لنفسها وسيلة خسيسة، فلا يمكن أن تظل محافظة على غاية شريفة، وليس مسلماً من يبرر الوسيلة بالغاية، فهذا المبدأ غريب على الحس الإسلامي والحساسية الإسلامية، لأنّه لا انفصال في تكوين النفس البشرية وعالمها بين الوسائل والغايات، إنَّ الشط الممرع لا يغري المسلم بخوض بركة من الوحل، فإنَّ الشط الممرع لا بد أن تلوثه الأقدام الملوثة في النهاية، من أجل هذا كله يكره الله الخائنين ويكره الله الخيانة، **"إنَّ الله لا يُحبُّ الخائنين"**. (١)

وقال: وتُختم السورة ببيان طبيعة العلاقات في المجتمع المسلم، وطبيعة العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى، وبيان الأحكام المُنظِمة لهذه العلاقات وتلك، ومنه تتبين طبيعة المجتمع المسلم ذاته، والقاعدة التي ينطلق منها والتي يقوم عليها كذلك، إنّها ليست علاقات الدم، ولا علاقات الأرض، ولا علاقات الجنس، ولا علاقات التاريخ، ولا علاقات اللغة، ولا علاقات الاقتصاد، ليست هي القرابة، وليست هي الوطنية، وليست هي القومية، وليست هي المصالح الاقتصادية، إنّما هي علاقة العقيدة، وعلاقة القيادة، وعلاقة التنظيم الحركي، فالذين آمنوا وهاجروا إلى دار الهجرة والإسلام، متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم ومصالحهم، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذين آووهم ونصروهم ودانوا معهم لعقيدتهم وقيادتهم في تجمع حركي واحد، أولئك بعضهم أولياء بعض، والذين آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية، لأنَّهم لم يتجردوا بعد للعقيدة، ولم يدينوا بعد للقيادة، ولم يلتزموا بعد بتعليمات التجمع الحركي الواحد، وفي داخل هذا التجمع الحركي الواحد تعتبر قرابة الدم أولى في الميراث وغيره، والذين كفروا بعضهم أولياء بعض كذلك، هذه هي الخطوط الرئيسية في العلاقات والارتباطات. (٢)

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنفال.
(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأنفال.

هجرة زينب رضي الله عنها

وكان رسول الله ﷺ قد أخذ على زوجها أبي العاص، أو وعد رسول الله ﷺ ذلك، أن يخلي سبيل زينب إليه، أو كان فيما شرط عليه في إطلاقه، ولم يظهر ذلك منه ولا من رسول الله ﷺ فيُعلم ما هو، إلّا أنَّه لمّا خرج أبو العاص إلى مكة وخُلّي سبيله، بعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة ورجلاً من الأنصار مكانه، فقال: كونا ببطن يأجج حتى تمرَّ بكما زينب، فتصحباها حتى تأتياني بها، فخرجا مكانهما، وذلك بعد بدر بشهر أو شَيْعه [(١)]، فلمّا قَدِم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها، فخرجت تجهز .

وروى ابن إسحاق عن زينب بنت رسول الله ﷺ أنّها قالت: بينا أنا أتجهز بمكة للحوق بأبي لقيتني هند بنت عتبة، فقالت: يا بنت محمد، ألم يبلغني أنك تريدين اللحوق بأبيك؟ قالت: فقلت: ما أردت ذلك، فقالت: أَيْ ابنة عمّي، لا تفعلي، إن كانت لك حاجة بمتاع مما يرفق بك في سفرك، أو بمال تتبلغين به إلى أبيك، فإنَّ عندي حاجتك، فلا تضطني منّي، فإنّه لا يدخل بين النساء ما بين الرجال، قالت: والله ما أراها قالت ذلك إلا لتفعل، قالت: ولكنّي خِفْتُها، فأنكرتُ أن أكون أريد ذلك، وتجهزت.

فلمّا فرغت بنتُ رسول الله ﷺ من جهازها قدّم لها حموها كنانة بن الربيع أخو زوجها بعيراً، فركبته، وأخذ قوسه وكنانته، ثمَّ خرج بها نهاراً يقود بها، وهي في هودج لها، وتحدّث بذلك رجال من قريش، فخرجوا في طلبها حتى أدركوها بذي طوى، فكان أول من سبق إليها هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى، والفهري، فروَّعها هبار بالرمح وهي في هودجها، وكانت المرأة حاملاً - فيما يزعمون - فلمّا رِيعَت طرحت ذا بطنها، وبرك حموها كنانة، ونثر كنانته، ثمَّ قال: والله لا يدنو منّي رجل إلا وضعت فيه سهماً، فتكركر الناس عنه.

---

(١) أي قريب منه

وأتى أبو سفيان في جلّة من قريش فقال: أيها الرجل، كفَّ عنا نبلك حتى نكلمك، فكف، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال: إنّك لم تُصِبْ، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظنُّ الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رؤوس الناس من بين أظهرنا، أنَّ ذلك عن ذُلٍ أصابنا عن مصيبتنا التي كانت، وأنَّ ذلك منّا ضعف ووهن، ولعمري ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا في ذلك من ثورة، ولكن ارجع بالمرأة، حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أنْ قد رددناها، فَسُلّها سراً، وألحقها بأبيها، قال: ففعل، فأقامت ليالي، حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وصاحبه، فقدما بها على رسول الله ﷺ، ثمَّ أسلم زوجها أبو العاص بعد ذلك قبل الفتح ورَدَّ عليه رسول الله ﷺ زينب بالعقد الأول.

قلت: تذكر - وفقك الله - ما ذكرناه في مقدمة كتابنا عمّا بقي عند العرب من الأخلاق التي لم تكن عند غيرهم من الأقوام، وقد كان ذلك أحد الأسباب في اختيار الجزيرة العربية لتكون مهد الرسالة كما قلنا، فالعرب جاهليون من ناحية العقيدة، أمّا أخلاقهم فقد بقي الكثير منها، فهذه هند تعرض المساعدة، وزوجها أبو سفيان يبذل النصيحة، ولِمن؟!! لبنت ألدِّ أعداء قريش، رسول الله ﷺ!!!، ومتى؟!، بعد بدر التي قتل فيها النبي ﷺ - والد زينب - حنظلة بن أبي سفيان، وأسر عمرو بن أبي سفيان، وكذلك قتل عتبة وشيبة والوليد، والد هند وعمَّها وأخاها، وما ذاك إلّا للقرابة والرحم، ولأنَّها امرأة تأبى غَيْرَةُ العرب ونخوتُهم أن تُترَك بلا نصير.

مؤامرة جديدة لاغتيال النبي ﷺ

قال ابن إسحاق: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير، عن عروة بن الزبير قال: جلس عُمير بن وهب الجُمحي مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش بيسير في الحِجْر، وكان عمير بن وهب شيطاناً من شياطين قريش، وممّن كان يؤذي

رسول الله ﷺ وأصحابه وهو بمكّة، وكان ابنه وهب في أسارى بدر، قال: فذكر أصحاب القَليبِ ومُصابهم، فقال صفوان: والله إنْ في العيش بعدهم خير، قال له عمير: صدقت والله، أما والله لولا دَيْن عليَّ ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإنَّ لي قبلهم علّة، ابني أسير في أيديهم، قال: فاغتنمها صفوان، وقال: عليَّ دينك، أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا، لا يسعني شيء ويعجز عنهم، فقال له عمير: فاكتم شأني وشأنك، قال: أفعل، قال: ثمَّ أمر عمير بسيفه، فشُحذ له وسُمَّ، ثمَّ انطلق حتى قدم المدينة، فبينا عمر بن الخطاب في نفر من المسلمين يتحدثون عن يوم بدر، ويذكرون ما أكرمهم الله به، وما أراهم من عدوهم، إذ نظر عمر إلى عمير بن وهب حين أناخ على باب المسجد متوشحاً السيف، فقال: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، والله ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وحزرنا للقوم يوم بدر، ثمَّ دخل عمر على رسول الله ﷺ فقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه، قال: فأدخله عليَّ، قال: فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقه فلبّبه بها، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار: ادخلوا على رسول الله ﷺ فاجلسوا عنده، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنَّه غير مأمون، ثمَّ دخل به على رسول الله ﷺ، فلمّا رآه رسول الله ﷺ، وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، ادنُ يا عمير، فدنا، ثمَّ قال: انعموا صباحاً، وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم، فقال رسول الله ﷺ: قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام: تحية أهل الجنة، فقال: أَمَا والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد، قال: فما جاء بك يا عمير؟ قال: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم فأحسنوا فيه، قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال: قَبَّحها الله من سيوف، وهل أغنت عنّا شيئاً؟ قال: اصدقني، ما الذي جئت له؟ قال: ما جئت إلّا لذلك، قال: بل قعدت أنت وصفوان بن أميّة في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثمَّ قلت: لولا دين عليَّ وعيال عندي لخرجت حتى

أقتل محمداً، فتحمّل لك صفوان بِدَيْنك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك، قال عمير: أشهد أنّك رسول الله، قد كنّا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلّا أنا وصفوان، فوالله إنّي لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، ثمَّ شهد شهادة الحق، فقال رسول الله ﷺ: فقهوا أخاكم في دينه، وأَقْرِئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره، ففعلوا.

ثمَّ قال: يا رسول الله، إنّي كنت جاهداً على إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله عزَّ وجل، وأنا أحبُّ أن تأذن لي، فأقدم مكة، فأدعوهم إلى الله تعالى، وإلى رسوله ﷺ، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلّا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم؟ قال: فأذن له رسول الله ﷺ، فلحق بمكة، وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب، يقول: أبشروا بوقعة تأتيكم الآن في أيّام، تُنسيكم وقعة بدر، وكان صفوان يسأل عنه الركبان، حتى قَدِم راكب فأخبره عن إسلامه، فحلف أن لا يكلمه أبداً، ولا ينفعه بنفع أبداً.

قال ابن إسحاق: فلمّا قدم عمير مكة، أقام بها يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، فأسلم على يديه ناس كثير.

غزوة قَرقَرة الكُدْر

كان المسلمون يُركّزون جهدهم للمحافظة على الحصار الاقتصادي الذي فرضوه على قريش، في محاولة لإضعافها وإنهاكها، لكنَّ بعض القبائل التي تضررت من هذا الحصار، حيث كانت مستفيدة من تجارة قريش ومرورها بديارها، بدأت بإقامة تجمّعات ضد المسلمين، حيث تجمّع بنو سُليم وغطفان بقرقرة الكُدْر وهو ماء لبني سُليم، فخرج إليهم النبي ﷺ، وداهمهم على الماء فلم يجد سوى الإبل، حيث فرَّ المقاتلون بعد سماعهم بقدومه عليه الصلاة والسلام.

غزوة بني قينقاع

كان يهود بني قينقاع أوّل يهود نقضاً للعهد، وذلك أنّه بعد انتصار المسلمين في بدر جمعهم رسول الله ﷺ في سوقهم، ثمَّ قال: يا معشر يهود، احذروا من الله مثل ما نزل بقريش من النّقمة، وأَسْلِموا، فإنّكم قد عرفتم أنّي نبيٌ مرسلٌ، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم، قالوا: يا محمّد، إنّك ترى أنّا قومك! لا يغرنّك أنّك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنّا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنّا نحن الناس.

قال ابن إسحاق: ومر شاس بن قيس، وكان شيخاً قد عسا [(١)]، عظيم الكفر، شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم، على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، في مجلس قد جمعهم، يتحدثون فيه، فغاظه ما رأى من إلفتهم وجماعتهم، وصلاح ذات بينهم على الاسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية، فقال: قد اجتمع مَلَأُ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله مالنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود كان معهم، فقال: اعمد إليهم، فاجلس معهم، ثمَّ اذكر يوم بعاث، وكان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولوا فيه من الأشعار، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا وتفاخروا حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب، أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث، من الأوس، وجبار بن صخر، أحد بني سلمة من الخزرج، فتقاولا ثمَّ قال أحدهما لصاحبه: إن شئتم رددناها الآن جذعة، فغضب الفريقان جميعاً، وقالوا: قد فعلنا، موعدكم الظاهرة - والظاهرة: الحرة - السلاح السلاح، فخرجوا إليها، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد أن هداكم الله للإسلام، وأكرمكم به، وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وألّف به بين

---

(١) أي: كبر.

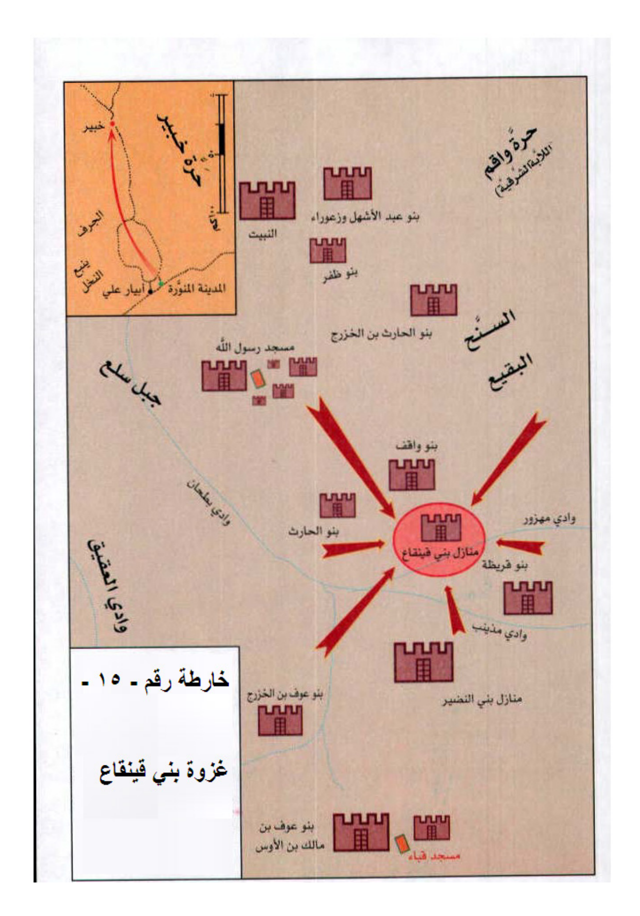
قلوبكم، فعرف القوم أنَّها نزغة من الشيطان، وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثمَّ انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس بن قيس.

ثمَّ إنَّ امرأة من العرب قدمت بِجَلَب لها (١)، فباعته بسوق بني قينقاع، وجلست إلى صائغ يهودي بها، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها، فلما قامت انكشفت سوأتها، فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وشدّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود، فغضب المسلمون، وسار رسول الله ﷺ إلى بني قينقاع في شوال سنة ٢ هـ فحاصرهم خمس عشرة ليلة، ثمَّ نزلوا على حكمه في رقابهم وأموالهم ونسائهم وذراريهم، فأمر بهم النبي ﷺ فكُتفوا، فقام عبدالله بن أُبيْ فقال: يا محمد، أحسن في مواليّ - وكانوا حلفاء الخزرج في الجاهلية - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد أحسن في مواليّ، فأعرض عنه، فأدخل يده في جيب درع رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: أرسلني، وغضب رسول الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظللاً، ثمَّ قال: ويحك أرسلني، قال: لا والله لا أرسلك حتى تحسن في مواليّ، أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع، قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة! إنّي والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال رسول الله ﷺ: هم لك، وأمرهم عليه السلام بالخروج من المدينة، وأنْ لا يجاوروه فيها، فخرجوا إلى أذرعات بالشام، وهناك هلك أكثرهم.

كان هذا تصرف عبدالله بن أُبيْ المنافق، أمّا عبادة بن الصامت «رضي الله عنه» فتبرأ من بني قينقاع مع أنَّهم كان لهم من حلفه مثل الذي لهم من عبدالله بن أُبيْ، وقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، أتولى الله ورسوله ﷺ والمؤمنين، وأبرأ من حلف هؤلاء الكفار وولايتهم. (٢)

---

(١) كل ما يجلب إلى الأسواق ليُباع.
(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٣٩ - ٤١.



خارطة رقم - ١٥ -

غزوة بني قينقاع

غزوة السويق

كان أبو سفيان حين رجع إلى مكة، ورجع فلُّ قريش من بدر، نَذَرَ أنْ لا يمسَّ رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً ﷺ، فخرج في ذي الحجة سنة ٢ هـ في مائتي راكب من قريش، ليبرَّ يمينه فنزل قريباً من المدينة، وبعث رجالاً من قريش فأتوا ناحية منها يقال لها العُريض، وقتل رجلاً من الأنصار وحليفاً لها وأحرق نخلاً وفرَّ عائداً إلى مكّـة فنذر بهم الناس، فخرج رسول الله ﷺ في طلبهم فبلغ قرقرة الكدر، ثمَّ انصرف راجعاً، وقد فاته أبو سفيان وأصحابه، ووجد أصحاب رسول الله ﷺ أزواداً كثيرة قد ألقاها المشركون يتخفَّفون منها، وعامَّتها سويق، فسمّيت لذلك غزوة السويق.

ومن أحداث السنة الثانية

١- فرض صيام رمضان.

٢- فرض زكاة الفطر.

٣- بيان أنصبة الزكاة.

٤- سنَّ الله سبحانه وتعالى للمسلمين صلاة العيد يوم الفطر ويوم الأضحى.

٥- زواجه ﷺ بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

٦- وفاة رقية رضي الله عنها، وزواج عثمان بأختها أم كلثوم رضي الله عنها، ويقال: أنَّه لم يتزوج أحد بابنتي نبي واحدة بعد الأخرى غيره «رضي الله عنه».

٧- زواج علي من فاطمة رضي الله عنهما، وقد ولدت له حسناً، وحسيناً، ومحسناً - مات صغيراً -، وأم كلثوم، وزينب.

٨- وممّن مات في هذه السنة عدو الله أبو لهب، رماه الله بالعدسة [١] فقتلته، وتركه ابناه بعد موته ثلاثاً، ما دفناه حتى أنتن، وكانت قريش تتقي هذه العدسة كما تتقي الطاعون.

---

(١) وهو مرض يصيب الإنسان ويقتله في أيام، وكانت العرب تتشاءم من هذا المرض.

السنة الثالثة من الهجرة

الغزوات والسرايا

قام النبي ﷺ بستة أعمال عسكرية، أربع غزوات خرج فيها بنفسه، وأرسل سريتين، وعلى رأس تلك الغزوات غزوة أحد، وإليك هذه الغزوات والسرايا حسب الترتيب:

١- غزوة ذي أَمَر

استهلَّ رسول الله ﷺ سنة ثلاث من الهجرة بغزوة ذي أمر، ففي المحرم من هذه السنة استعمل عثمان بن عفّان على المدينة، وخرج إلى نجد يريد غطفان التي تجمّعت في ذي أمر، ففرّوا ولم يلقَ رسول الله ﷺ كيداً، وأقام في ديارهم صَفراً كلّه، ثمَّ عاد إلى المدينة.

٢- غزوة بُحران

ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ غزا بُحران من ناحية الفُرُع على الطريق التجارية بين مكّة والشام في ثلاثمائة مقاتل، فلم يقع قتال، ثمَّ رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد عشرة أيام.

٣- سرية محمد بن مسلمة لقتل كعب بن الأشرف

لمّا انتصر المسلمون في بدر، وجاء زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة يبشّران المسلمين في المدينة بالنصر، وقُتِل من قُتل في بدر، قال كعب بن الأشرف حين بلغه الخبر: أحقٌّ هذا؟!! أترون أنَّ محمّداً قتل هؤلاء الذين يسمّي هذان الرجلان

- يعني زيد بن حارثة وعبدالله بن رواحة - فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمّد أصاب هؤلاء القوم لَبَطن الأرض خير من ظهرها، فلمّا تيقنَّ عدو الله الخبر خرج حتى قدم مكّة، وجعل يحرّض على رسول الله ﷺ وينشد الأشعار، ويبكي أصحاب القليب من قريش، ثمَّ رجع إلى المدينة وصار يشببُّ بنساء المسلمين حتى آذاهم، فقال رسول الله ﷺ: من لي بابن الأشرف؟ فقال محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، قال: فافعل إن قدرت على ذلك، فقال محمد بن مسلمة: يا رسول الله، إنّه لا بدّ لنا من أن نقول، قال: قولوا ما بدا لكم، فأنتم في حِلٍّ من ذلك، فخرج محمد بن مسلمة في أربعة من الصحابة هو خامسهم، وفيهم سلكان بن سلامة - أبو نائلة - أخو كعب بن الأشرف من الرضاعة، فخرجوا وأقبلوا حتى انتهوا إلى حصن ابن الأشرف، فهتف به أبو نائلة، وكان حديث عهد بعرس، فوثب في ملحفته، فأخذت امرأته بناحيتها، وقالت: إنّك امرؤ محارب، وإنَّ أصحاب الحرب لا ينزلون في هذه الساعة، قال: إنّه أبو نائلة، لو وجدني نائماً لَما أيقظني، فقالت: والله إنّي لأعرف في صوته الشر، فقال لها كعب: لو يُدعى الفتى لطعنه لأجاب، فنزل، فتحدث معهم ساعة، وتحدثوا معه، ثمَّ قال له أبو نائلة: هل لك يا ابن الأشرف أن تتماشى إلى شعب العجوز [١]، فنتحدث به بقية ليلتنا هذه؟ قال: إن شئتم، فخرجوا يتماشون، فمشوا ساعة، ثمَّ إنَّ أبا نائلة شام [٢] يده في فود رأسه [٣]، ثمَّ شمَّ يده فقال: ما رأيت كالليلة طيباً أعطر قط، ثمَّ مشى ساعة، ثمَّ عاد لمثلها حتى اطمأن، ثمَّ مشى ساعة، ثمَّ عاد لمثلها، فأخذ بفود رأسه، ثمَّ قال: اضربوا عدو الله، فضربوه، فاختلفت عليه أسيافهم، فلم تغنِ شيئاً، قال محمد بن مسلمة: فذكرت مِغْوَلاً [٤] في سيفي، حين رأيت أسيافنا لا تغني شيئاً، فأخذته، وقد صاح عدو الله صيحة لم يبق حولنا حصن

(١) اسم موضع.
(٢) أي أدخل.
(٣) أي بمعظم شعر اللمة ممّا يلي الأذنين.
(٤) السكين التي تكون في السوط.

إلّا وقد أوقدت عليه نار، قال: فوضعته في ثنته [1]ثمَّ تحاملت عليه حتى بلغت عانته فوقع عدو الله، وقد أصيب الحارث بن أوس بن معاذ، فجُرح في رأسه أو في رجله، أصابه بعض أسيافنا، فاحتملناه، فجئنا به رسول الله ﷺ آخر الليل، وهو قائم يصلي، فسلّمنا عليه، فخرج إلينا، فأخبرناه بقتل عدو الله، وتفل على جرح صاحبنا فبرئ، فرجع ورجعنا إلى أهلنا، فأصبحنا وقد خافت يهود لوقعتنا بعدو الله، فليس بها يهودي إلّا وهو يخاف على نفسه. [2]

ثمَّ إنَّ رسول الله ﷺ قال: من ظفرتم به من رجال يهود فاقتلوه، فقتل محيصة بن مسعود رجلاً من تجار يهود كان يلابسهم ويبايعهم، فلمّا قتله جعل أخوه حويّصة - وكان إذ ذاك مشركاً - يضربه - وكان حويّصة أسنّ من محيّصة - ويقول: أي عدو الله، أقتلته، أما والله لربّ شحم في بطنك من ماله، فقال محيّصة: والله لقد أمرني بقتله من لو أمرني بقتلك لضربت عنقك، قال حويّصة: أوالله لو أمرك محمد بقتلي لقتلتني؟ قال: نعم، والله لو أمرني بضرب عنقك لضربتها، قال: والله إنَّ ديناً بلغ منك هذا لعجب!، فأسلم حويّصة. [3]

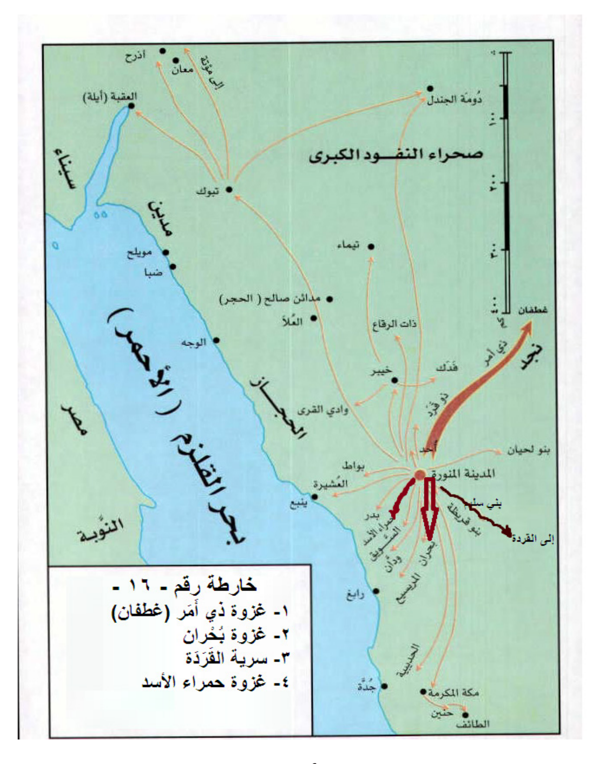
٤- سرية القَرَدَة

لمّا هُزمت قريش في بدر خافت طريق تجارتها إلى الشام فسلكت طريق العراق للتجارة، فخرج منهم تجّار فيهم أبو سفيان بن حرب، فبعث رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في سرية من مائة مقاتل فلقيتهم السرية على ماء من مياه نجد يُدعى القَرَدة، فأصابوا تلك العير، وفرّ الرجال تاركين القافلة غنيمة للمسلمين، وكانت فيها فضّة كثيرة.

وكان على قريش بعد كل هذه الانتكاسات والحصار الذي أُحكِمَ عليها، أن

(١) ما بين السرة والعانة.
(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٤٢ - ٤٦.
(٣) سيرة ابن هشام ج٢: ٤٧.

تقوم بعمل حاسم لإنقاذ تجارتها واقتصادها أولاً، ثمَّ لإنقاذ سمعتها ثانياً ولتثأر لقتلاها وما أصابها في بدر، فكانت غزوة أحد.



٥- غزوة أحـــد (١)

كانت معركة أحد بعد هجوم شنّته قريش على المدينة، بهدف إنقاذ طريق تجارتها إلى الشام من سيطرة المسلمين، والثأر لقتلاها في بدر، واستعادة سمعتها ومكانتها التي تزعزعت عند العرب بعد الهزيمة في بدر، حيث اجتمعت قريش ومن أطاعها من قبائل كنانة وأهل تهامة لحرب رسول الله ﷺ، وجمعوا ثلاثة آلاف مقاتل، كان فيهم أبو عَزّة الجمحي، ومعهم ثلاثة آلاف بعير، ومائتا فرس، وسبعمائة درع، فخرج المشركون بحدّهم وحديدهم حتى نزلوا مقابل المدينة، وكانوا قد أحضروا معهم بعض نساءهم لِئلا يفرّوا، وكان من بين النساء هند بن عتبة زوجة أبي

(١) أحد هو اسم الجبل الذي وقعت عنده المعركة، ويبعد خمسة أكيال ونصف الكيل عن المسجد النبوي.

سفيان، وخناس بنت مالك أمّ مصعب بن عمير. [١]

وكان جبير بن مطعم قد دعا غلاماً له حبشياً يُدعى وحشي، يقذف بحربة له قذف الحبشة، قلّما يخطئ بها، ووعده بأن يعتقه إن هو قتل حمزة بن عبدالمطلب «رضي الله عنه»، فكانت هند بنت عتبة كلّما مرّ بها وحشي قالت: ويهاً أبا دُسمة [٢]، اشفِ واستشفِ. [٣]

رؤيا النبي ﷺ

لمّا سمع رسول الله ﷺ والمسلمون بالمشركين وأنّهم قد نزلوا حيث نزلوا، قال رسول الله ﷺ للمسلمين: إنّي قد رأيت والله خيراً، رأيت بقراً لي تذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أنّي أدخلت يدي في درع حصينة، فأوّلتها المدينة، قال: فأمّا البقر فهي ناس من أصحابي يُقتلون، وأما الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي، فهو رجل من أهل بيتي يُقتل. [٤]

الاستشارة

وقال رسول الله ﷺ لأصحابه: فإنْ رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتَدَعوهم حيث نزلوا، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام، وإنْ هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها، وكان رأي عبد الله بن أبيْ مع رأي رسول الله ﷺ، وألّا يخرج إليهم، وكان رسول الله ﷺ يكره الخروج، فقال رجال من المسلمين ممّن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنّا جبنّا عنهم وضعفنا، فقال عبد الله بن أبيْ: يا رسول الله، أقم

(١) ذكر ابن إسحاق أنَّهم أخرجوا معهم ثمان نسوة.

(٢) تعني وحشي، وكان يكنّى أبا دُسمة.

(٣) سيرة ابن هشام ج٢: ٤٩ – ٥٠.

(٤) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٠.

بالمدينة لا تخرج إليهم، فوالله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلّا أصاب منّا، ولا دخلها علينا إلّا أصبنا منه، فَدَعْهُم يا رسول الله، فإنْ أقاموا أقاموا بشرّ محبس، وإنْ دخلوا قاتلهم الرجال في وجههم، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم، وإنْ رجعوا رجعوا خائبين كما جاؤوا، فلم يزل الناس الذين كان من أمرهم حُبُّ لقاء القوم برسول الله ﷺ حتى دخل رسول الله ﷺ بيته، فلبس لَأْمَته [١]، ثمَّ إنَّ الصحابة ندموا وقالوا: استكرهنا رسول الله ﷺ، ولم يكن لنا ذلك، فلمّا خرج عليهم رسول الله ﷺ، قالوا: يا رسول الله، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا، فإنْ شئت فاقعد صلى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل [٢]

خرج رسول الله ﷺ في ألف من المسلمين من بينهم منافقون، معهم فَرَسان فقط، ومائة دارع، وحمل لواء المهاجرين مصعب بن عمير، فلمّا قُتل حمله علي بن أبي طالب، وحمل لواء الأوس أسيد بن حضير، ولواء الخزرج الحُباب بن المنذر.

انخذال المنافقين

وبعد خروج المسلمين للقتال انخذل عبدالله بن أبيْ في ثلاثمائة من المنافقين، وقال: أطاعهم وعصاني!، ما ندري علامَ نقتل أنفسنا ها هنا؟!!، فتبعهم عبدالله بن عمرو بن حرام فأنّبهم ووبّخهم فقالوا: لو نعلم أنّكم تقاتلون لَما أَسْلمْناكُم، ولكنّا نرى أنّه لا يكون قتال، فقال: أبعدكم الله أعداء الله، فسيغني الله عنكم نبيه.

كان لموقف المنافقين تأثير كبير في نفوس المسلمين، حتى أنَّ بني سلمة من الخزرج، وبني حارثة من الأوس فكّروا بالرجوع إلى المدينة، لكنهم تراجعوا عن ذلك بعد ان تولاهم الله فدفع عنهم الوهن، وهم الذين تحدّث عنهم قوله تعالى: ﴿إذ همّت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما﴾ [آل عمران: ١٢٢].

---

(١) اللأمة: الدرع، وقيل: السلاح.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٠ – ٥١.

وقالت الأنصار لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ألا نستعين بحلفائنا من يهود؟، فقال: لا حاجة لنا فيهم. (١)

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشِعْبَ من أُحد، في عدوة الوادي إلى الجبل، فجعل ظهره وعسكره إلى أحد، وقال: لا يقاتلنَّ أحد منكم حتى نأمره بالقتال.

مرور جيش المسلمين بمال لمربع بن قيظي

ثمَّ قال رسول الله ﷺ لأصحابه : مَن رجل يخرج بنا على القوم من كثب – أي من قرب – من طريق لا يمر بنا عليهم ؟ فقال أبو خيثمة أخو بني حارثة بن الحارث: أنا يا رسول الله . فنفذ به في حرة بني حارثة، وبين أموالهم، حتى سلك في مال لمربع بن قيظي، وكان رجلا منافقا ضرير البصر، فلما سمع حِس رسول الله ﷺ ومن معه من المسلمين، قام يحثي في وجوههم التراب، ويقول : إن كنت رسول الله، فإني لا أحل لك أن تدخل حائطي . وقد ذكر لي أنه أخذ حفنة من تراب في يده، ثم قال : والله لو أعلم أني لا أصيب بها غيرك يا محمد لضربت بها وجهك ، فابتدره القوم ليقتلوه، فقال رسول الله ﷺ : لا تقتلوه، فهذا الأعمى أعمى القلب، أعمى البصر .

شأن صغار المسلمين

وخرج مع رسول الله ﷺ جماعة من صغار المسلمين فردّهم لصغر سنّهم وكانوا أربعة عشر صبياً فيهم أسامة بن زيد، وعبدالله بن عمر، وزيد بن ثابت، والبراء بن عازب، وأجاز سمرة بن جندب ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة، وكان قد ردّهما، فقيل له: يا رسول الله، إنَّ رافعا رامٍ، فأجازه، فلمّا أجاز رافعاً، قيل له: يا رسول الله، فإنَّ سمرة يصرع رافعاً، فأجازه. (٢)

(١) سيرة ابن هشام ج٢: ٥١.
(٢) سيرة ابن هشام ج٢: ٥٣.

شأن أبي دجانة

وأخذ رسول الله ﷺ سيفاً يوم أحد فقال: من يأخذ هذا منّي؟، فبسطوا أيديهم كل إنسان منهم يقول: أنا أنا، قال: فمن يأخذه بحقه؟، فاحجم القوم، فقال سماك بن خرشة أبو دجانة: أنا آخذه بحقه، فأخذه ففلق به هام المشركين [١]، وكان أبو دجانة رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب، وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها عَلِم الناس أنَّه سيقاتل، فلمّا أخذ السيف من رسول الله ﷺ أخذ عصابته الحمراء فعصب بها رأسه، وجعل يتبختر بين الصفين، فقال رسول الله ﷺ حين رآه يتبختر: إنّها لمشية يبغضها الله إلّا في مثل هذا الموطن [٢]

التجهّز للقتال

وتعبّئ رسول الله ﷺ للقتال وهو في سبعمائة رجل، وأمّر على الرماة – وكانوا خمسين – عبدالله بن جبير، وقال له: انضح الخيل عنّا بالنَبْل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نُؤتينَّ من قِبَلِك، وقال للرماة: إن رأيتمونا تخطّفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أُرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم وأوطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم.

وظاهر رسول الله ﷺ بين درعين [٣] [٤] وجعل على إحدى المجنبتين الزبير بن العوام، وعلى الأخرى المنذر بن عمرو. [٥]

وتعبأت قريش، وهم ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مئتا فرس، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل.

---

(١) رواه مسلم.
(٢) سيرة ابن هشام ج٢: ٥٣.
(٣) أي لبس درعاً فوق درع.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٢ – ٥٣.
(٥) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٤.



بدء المعركة

ثمَّ التقى الناس، ودنا بعضهم من بعض، وكان أول من بَدَر من المشركين أبو عامر الفاسق [(١)]، وكان يسمى: الراهب، فسمّاه رسول الله ﷺ الفاسق، وكان رأس الأوس في الجاهلية، فلمّا جاء الإسلام شَرَقَ به، وجاهر رسول الله ﷺ بالعداوة، فخرج من المدينة، وذهب إلى قريش يُؤلّبهم على رسول الله ﷺ ويحضّهم على قتاله، ووعدهم بأنَّ قومه إذا رأوه أطاعوه، ومالوا معه، فكان أول من لقي المسلمين، فنادى قومه، وتعرّف إليهم، فقالوا له: لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، فقال: لقد أصاب قومي بعدي شر، ثمَّ قاتل المسلمين قتالاً شديداً، وكان شعار المسلمين يومئذٍ: أَمِتْ.[(٢)] [(٣)]

وقامت هند بنت عتبة في النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال، ويُحَرِّضْنَهم، فقالت هند فيما تقول:

---

(١) وهو والد حنظلة غسيل الملائكة.

(٢) أي: اقتل.

(٣) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٥.

ويهاً بني عبد الدار ويها حماة الأدبار

ضرباً بكل بتار

وتقول:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

وبدأ القتال واشتد في كل ساحة المعركة، ولكنَّ ثقله كان حول لواء المشركين، وقد كان يحمله طلحة بن أبي طلحة العبدري، فلمّا قتله المسلمون حمل اللواء أخوه شيبة، فلّما قُتل حمله أخوه أبو سعد بن أبي طلحة، فلمّا قتل حمل اللواء أولاد طلحة بن أبي طلحة الثلاثة مسافع وكلاب والجلاس، فلمّا قُتل هؤلاء الستة وهم من بيت واحد حمله أربعة آخرون من بني عبد الدار فقُتلوا جميعاً، وقد قتل قزمان ثلاثة منهم، وكان قزمان منافقاً قاتل حميّة مع المسلمين، حتى إذا سقط لواء المشركين حمله غلام لهم حبشي يُدعى صؤاب فقاتل حتى قُطعت يده، فأخذ اللواء بصدره وعنقه حتى لا يسقط فقُتل وهو يقول: اللهم هل أعزرت؟ يعني هل أعذرت؟ [1]

ثمَّ أقبل أبو دجانة معلماً بعصابته الحمراء، وجعل لا يلقى مشركاً إلّا قتله، قال الزبير بن العوام: وجدت في نفسي حين سألت رسول الله ﷺ السيف فمَنَعنِيه، وأعطاه أبا دجانة، وقلت - أي في نفسي -: أنا ابن صفيّة عمته، ومِنْ قريش، وقد قمت إليه، فسألته إياه قَبْلَه، فآتاه إياه وتركني، والله لأنظرنَّ ما يصنع؟ فاتبعته، فأخرج عصابة له حمراء، فعصب بها رأسه، فقالت الأنصار: أخرج أبو دجانة عصابة الموت، فخرج وهو يقول:

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيلِ

ألّا أقوم الدهر في الكيولِ أضرب بسيف الله والرسولِ

فجعل لا يلقى أحداً إلا قتله، وكان في المشركين رجل لا يدع لنا جريحاً إلا

(١) يعني أنَّه كانت في لسانه لكنة أعجمية.

ذفَّف عليه [١]، فجعل كل واحد منهما يدنو من صاحبه، فدعوت الله أن يجمع بينهما فالتقيا، فاختلفا ضربتين، فضرب المشرك أبا دجانة فاتقاه بدرقته، فعضت بسيفه، فضربه أبو دجانة فقتله.

استشهاد حمزة بن عبد المطلب

وقاتل حمزة بن عبدالمطلب يومئذٍ قتالاً شديداً، يقول وحشي غلام جبير بن مطعم: والله إنّي لأنظر إلى حمزة يَهُدُّ الناس بسيفه [٢] ما يليق [٣] به شيئاً، مثل الجمل الأورق، إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فقال له حمزة: هلمّ إلي يا ابن مقطعة البظور، فضربه ضربة، فكأنَّ ما أخطأ رأسه، وهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه، فوقعت في ثنته حتى خرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، فغُلب فوقع، وأمهلته حتى إذا مات جئت فأخذت حربتي، ثمَّ تنحيت إلى العسكر، ولم تكن لي بشيء حاجة غيره. [٤]

وقد قال رسول الله ﷺ في حمزة «رضي الله عنه»: سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتله. [٥]

شأن وحشي بعد ذلك

ولمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة أسلم وحشي، فقال له رسول الله ﷺ: أوحشي؟ قال وحشي: نعم يا رسول الله، قال: اقعد فحدثني كيف قتلت حمزة، فحدّثه، فقال رسول الله ﷺ: ويحك غيّب عنّي وجهك، فلا أرينّك، يقول وحشي: فكنت أتنكب رسول الله ﷺ حيث كان لئلا يراني، حتى قَبَضَهُ الله

---

(١) أي أسرع في قتله.
(٢) أي يرديهم ويهلكهم.
(٣) ما يبقي.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٦.
(٥) قال الحاكم: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ولمّا كانت حروب الردّة أخذ وحشي حربته التي قَتَل فيها حمزة وخرج مع المسلمين إلى اليمامة، فضرب مسيلمة الكذاب بحربته، وأجهز عليه رجل من الأنصار، يقول وحشي: فربك أعلم أينا قتله، فإن كنت قتلته، فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله ﷺ، وقد قتلت شرَّ الناس.

قال ابن هشام: فبلغني أنَّ وحشياً لم يزل يُحدُّ في الخمر حتى خُلع من الديوان، فكان عمر بن الخطاب يقول: قد علمت أنَّ الله تعالى لم يكن ليدع قاتل حمزة. (١)

عودة إلى المعركة

وكانت الدولة أوّل النهار للمسلمين على الكفار، فانهزم أعداء الله، وولّوا مدبرين، حتى انتهوا إلى نسائهم، يقول الزبير «رضي الله عنه»: «والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمّرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير إذ مالت الرماة إلى العسكر، حين كَشَفْنا القوم عنه وخلُّوا ظهورنا للخيل، فأُتِينا مِنْ خَلْفِنا»، فلمّا رأى الرماة هزيمتهم تركوا مركزهم الذي أمرهم رسول الله ﷺ بحفظه، وقالوا: يا قوم، الغنيمة، فذكّرهم أميرهم عبدالله بن جبير عهد رسول الله ﷺ، فلم يسمعوا، وظنّوا أن ليس للمشركين رجعة، فذهبوا في طلب الغنيمة، وأَخْلَو الثغر، وكرّ فرسان المشركين يقودهم خالد بن الوليد فوجدوا الثغر خالياً، فجازوا منه وأحاطوا بالمسلمين، فأكرم الله من أكرم منهم بالشهادة، وهم سبعون، وتولى الصحابة، وخلص المشركون إلى رسول الله ﷺ فجرحوا وجهه، وكسروا رباعيته اليمنى، وكادت السفلى، وهشموا البيضة على رأسه ورموه بالحجارة حتى وقع لشقه، وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق يكيد بها المسلمين، فأخذ عليٌ بيده، واحتضنه طلحة بن عبيد الله، وكان الذي تولى أذاه ﷺ عمرو بن قمئة، وعتبة بن أبي وقاص. (٢)

يقول سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: والله ما حرصت على قتل رجل كحرصي على

(١) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٧ – ٥٨.
(٢) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٦.

قتل عتبة بن أبي وقاص، وإن كان ما علمتُ لسيء الخُلُق، مبغَضاً في قومه، ولقد كفاني منه قول رسول الله ﷺ: اشتدَّ غضب الله على من دمّى وجه رسوله. (١)

استبسال الصحابة في الدفاع عن النبي ﷺ

واستبسل الصحابة رضي الله عنهم في الدفاع عن رسول الله ﷺ فقُتل مصعب بن عمير بين يديه، فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب، وأُفرد عليه السلام يوم أحد في سبعة من الأنصار، ورجلين من قريش، فلمّا رهقوه، قال: من يردُّهم عنّا وله الجنّة، أو هو رفيقي في الجنّة، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتل، ثمَّ رهقوه، فقال: مَنْ يردُّهم عنّا وله الجنّة، أو هو رفيقي في الجنّة، فتقدم رجل من الأنصار، فقاتل حتى قُتل، فلم يزل كذلك حتى قُتل السبعة، فقال رسول الله ﷺ: ما أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا (٢)، وشُجَّ رسول الله ﷺ في وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم، فأنزل الله جل وعلا في ذلك: ﴿ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنّهم ظالمون﴾، ونشبت حلقتان من حلق المغفر (٣) في وجهه ﷺ، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح وعضّ عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه، فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا، ثمَّ جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه، وأصيب يومئذ عشرين جراحة أو أكثر كان منها في يده فشُلّت، وقال ﷺ: أوجب طلحة (٤)، وترس أبو دجانة على النبي ﷺ بظهره، والنبل يقع فيه وهو لا يتحرك، ورمى سعد بن أبي وقاص دون رسول الله ﷺ ورسول الله ﷺ يناوله النبل

(١) سيرة ابن هشام ج٢: ٦٨.
(٢) رواه مسلم.
(٣) زَرَدٌ يُنسج من الدُّروع على قدر الرأس.
(٤) رواه الترمذي.

وهو يقول: ارمِ فداك أبي وأمّي [١] وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان، فأتى بها رسول الله ﷺ، فردَّها عليه بيده، وكانت أصح عينيه وأحسنهما.

وصرخ الشيطان بأعلى صوته: إنَّ محمداً قد قُتِل، ووقع ذلك في قلوب كثير من المسلمين، وفرّ أكثرهم، ومرّ أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا ما بأيديهم فقال: ما تنتظرون؟، فقالوا: قُتل رسول الله ﷺ، فقال: ما تصنعون في الحياة بعده؟، قوموا فموتوا على ما مات عليه. [٢]

ولشدّة ما لاقاه المسلمون حينها قتلوا والد حذيفة بن اليمان وهم يظنّونه مشركاً، وحذيفة يصرخ فيهم: أي عباد الله، أبي، فلم يفهموا قوله حتى قتلوه، فقال: يغفر الله لكم، فأراد رسول الله ﷺ أن يَدِيَه، فقال حذيفة: فقد تصدّقتُ بديّته على المسلمين، فزاده ذلك خيراً عند النبي ﷺ.

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك، فصاح بأعلى صوته: يا معشر المسلمين، أبشروا هذا رسول الله ﷺ، فأشار إليه أنْ اسكت، واجتمع إليه المسلمون، ونهضوا معه إلى الشعب الذي نزل فيه، وفيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، والحارث بن الصمّة الأنصاري، وغيرهم. [٣]

مقتل أُبيْ بن خلف

أدرك أبيٌّ بن خلف رسول الله ﷺ، وكان أُبيْ يعلف فرسه بمكة ويقول: أقتل عليه محمداً، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: بل أنا أقتله إن شاء الله تعالى، فلمّا اقترب منه، تناول رسول الله ﷺ الحربة من الحارث بن الصمة، فطعنه بها، فجاءت في ترقوته، فكرّ عدو الله منهزماً، فلمّا طعنه تذكر عدو الله قوله: أنا قاتله، فأيقن بأنه مقتول من ذلك الجرح، وقال له المشركون: والله ما بك من بأس، فقال: والله لو

(١) متفق عليه.

(٢) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٧ – ١٧٨، والسيرة النبوية لابن هشام: ج٢/ ٦٣.

(٣) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٨.

كان ما بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، فمات منه في طريقه بسرف مرجعه إلى مكة. (١)

شهود النساء أُحد

وقد شهدت نساء المسلمين يوم أحد، فكنّ يحملنَ القرب للمسلمين، فيهنّ أم سليط وعائشة رضي الله عنها وقاتلت نسيبة بنت كعب المازنية أمُّ عِمارة، فعن أم سعد بنت سعد بن الربيع قالت: دخلت على أمِّ عِمارة، فقلت لها: يا خالة، أخبريني خبرك، فقالت: خرجت أول النهار وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعي سقاء فيه ماء، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ، وهو في أصحابه، والدولة والريح (٢) للمسلمين، فلمّا انهزم المسلمون، انحزت إلى رسول الله ﷺ، فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمي عن القوس، حتى خلصت الجراح إلي، قالت: فرأيت على عاتقها جرحاً أجوف له غور، فقلت: من أصابك بهذا؟ قالت: ابن قمئة، أقمأه الله (٣)، لمّا ولى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل يقول: دلوني على محمّد، فلا نجوت إنْ نجا، فاعترضت له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ، فضربني هذه الضربة ولكن فلقد ضربته على ذلك ضربات، ولكنَّ عدو الله كان عليه درعان(٤) وقد جُرحت أم عمارة اثني عشر جرحاً يومها.

صعود المشركين الجبل وقتال عمر لهم

وبينما رسول الله ﷺ بالشِعب، معه أولئك النفر من أصحابه، إذ علت عالية من قريش الجبل، كان على تلك الخيل خالد بن الوليد، فقال رسول الله ﷺ: اللهم إنّه

---

(١) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٨.
(٢) النصر.
(٣) أي أذلّه.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٢ / ٦٤ - ٦٥

لا ينبغي لهم أن يعلونا، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين حتى أهبطوهم من الجبل [١]

وجاء علي إلى رسول الله ﷺ بماء ليشرب منه، فوجده آجناً، فردَّه، وغسل عن وجهه الدم، وصبّ على رأسه، فأراد رسول الله ﷺ أن يعلو صخرة هنالك، فلم يستطع لِمَا به، فجلس طلحة تحته حتى صعدها، وحانت الصلاة، فصلّى بهم جالساً[٢]

المدد الإلهي في أُحد

وأنزل الله ﷻ على المسلمين النعاس أَمَنَةً منه في غزاة بدر وأحد، والنعاس في الحرب وعند الخوف دليل على الأمن، وهو مِنَ الله، وفي الصلاة ومجالس العلم من الشيطان. [٣]

وقاتلت الملائكة يوم أحد عن رسول الله ﷺ، ففي الصحيحين: عن سعد بن أبي وقاص، قال: رأيت رسول الله ﷺ يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه، عليهما ثياب بيض كأشدِّ القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد.

شأن قُزمان

كان قُزمان هذا شجاعاً ذا بأس في الحرب، وكان رسول الله ﷺ يقول إذا ذُكِر له: إنّه لمن أهل النار، فلمّا كان يوم أحد قاتل قتالاً شديداً، فقتل وحده ثمانية أو سبعة من المشركين، فأثبتته الجراحة، وجعل رجال من المسلمين يقولون له: والله لقد أبليت اليوم يا قزمان، فأبشر، قال: بماذا أبشر؟ فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب

(١) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٦٨.
(٢) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٩.
(٣) زاد المعاد: ج٣/ ١٨٢.

قومي، ولولا ذلك ما قاتلت، قال: فلمّا اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كنانته، فقتل به نفسه.

يقول الشهيد سيد قطب ﷺ: إنَّ راية المسلم التي يحامي عنها هي عقيدته، ووطنه الذي يجاهد من أجله هو البلد الذي تقام شريعة الله فيه، وأرضه التي يدفع عنها هي «دار الإسلام» التي تتخذ المنهج الإسلامي منهجاً للحياة، وكل تصور آخر للوطن هو تصور غير إسلامي تنضح به الجاهليات، ولا يعرفه الإسلام...... إنّه لا جهاد، ولا شهادة، ولا جنّة، إلّا حين يكون الجهاد في سبيل الله وحده، والموت في سبيله وحده، والنصرة له وحده، في ذات النفس وفي منهج الحياة.

لا جهاد ولا شهادة ولا جنّة إلا حين يكون الهدف هو أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن تُهيمن شريعته ومنهاجه في ضمائر الناس وأخلاقهم وسلوكهم، وفي أوضاعهم وتشريعهم ونظامهم على السواء.

عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: سُئِل رسول الله ﷺ عن الرجل يُقاتل شجاعة، ويُقاتل حمية، ويُقاتل رياء، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: «مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»

وليس هنالك من راية أخرى، أو هدف آخر، يُجاهد في سبيله مَنْ يُجاهد، ويستشهد دونه من يستشهد، فيحقّ له وعد الله بالجنّة، إلّا تلك الراية وإلّا هذا الهدف، من كل ما يروج في الأجيال المنحرفة التصور من رايات وأسماء وغايات!

ويحسن أن يُدرك أصحاب الدعوة هذه اللفتة البديهية، وأن يخلصوها في نفوسهم من الشوائب التي تعلق بها من منطق البيئة وتصور الأجيال المنحرفة، وألّا يلبسوا برايتهم راية، ولا يخلطوا بتصورهم تصوراً غريباً على ضيعة العقيدة.

لا جهاد إلّا لتكون كلمة الله هي العليا، العليا في النفس والضمير، والعليا في الخلق والسلوك، والعليا في الأوضاع والنظم، والعليا في العلاقات والارتباطات في كل أنحاء الحياة، وما عدا هذا فليس لله، ولكن للشيطان، وفيما عدا هذا ليست

هناك شهادة ولا استشهاد، وفيما عدا هذا ليس هنالك جنّة ولا نصر من عند الله ولا تثبيت للأقدام، وإنّما هو الغبش وسوء التصور والانحراف.

وإنْ عزَّ على غير أصحاب الدعوة لله أن يتخلصوا من هذا الغبش وسوء التصور والانحراف، فلا أقلَّ من أن يخلص الدعاة إلى الله أنفسهم ومشاعرهم وتصورهم من منطق البيئة الذي لا يتفق مع البديهية الأولى في شرط الله. (١)

شأن أنس بن النضر

عن أنس بن مالك ﵁ قال: غاب عمّي أنس بن النضر عن قتال بدر، فقال: يا رسول الله، غبتُ عن أول قتال قاتلت المشركين، لئن الله أشهدني قتال المشركين ليرينَّ الله ما أصنع، فلمّا كان يوم أحد، وانكشف المسلمون قال: اللهم إنّي أعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني أصحابه - وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء - يعني المشركين - ثمَّ تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد بن معاذ، الجنّة وربِّ النضر، إنّي أجد ريحها من دون أحد، قال أنس: فوجدنا به بضعاً وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة برمح، أو رمية بسهم، ووجدناه قد قُتل، وقد مثّل به المشركون، فما عرفه أحد إلا أخته ببنانه، قال أنس: كنّا نُرَى أو نظن أنَّ هذه الآية نزلت فيه وفي أشباهه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣] (٢).

غسيل الملائكة

كان حنظلة بن أبي عامر الأنصاري ﵁ قد تزوج قُبيل أُحد، فلمّا سمع النداء يوم أحد أخذ سلاحه وخرج يقاتل مع رسول الله ﷺ، فاستشهد، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة النساء، وتفسير سورة محمد.

(٢) متفق عليه.

صاحبكم لتُغسِّلُه الملائكة فاسألوا أهله ما شأنه، فسُئلت صاحبته عنه، فقالت: خرج وهو جُنُب حين سمع الهاتفة.

شأن الأُصَيْرِم

وكان عمرو بن ثابت المعروف بالأصيرم من بني عبد الأشهل يأبى الإسلام، فلمّا كان يوم أحد، قذف الله الإسلام في قلبه للحسنى التي سبقت له منه، فأسلم وأخذ سيفه، ولحق بالنبي ﷺ، فقاتل فأثبت بالجراح، ولم يعلم أحد بأمره، فلمّا انجلت الحرب، طاف بنو عبد الأشهل في القتلى، يلتمسون قتلاهم، فوجدوا الأصيرم وبه رمق يسير، فقالوا: والله إنَّ هذا الأصيرم، ما جاء به، لقد تركناه وإنّه لَمُنْكِر لهذا الأمر، ثمَّ سألوه ما الذي جاء بك؟ أَحَدَبٌ على قومك، أم رغبة في الإسلام؟ فقال: بل رغبة في الإسلام، آمنت بالله ورسوله، ثمَّ قاتلت مع رسول الله ﷺ حتى أصابني ما ترون، ومات من وقته، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: هو من أهل الجنّة. قال أبو هريرة: ولم يُصلِّ لله صلاة قط. [1]

شأن عمرو بن الجموح

كان عمرو بن الجموح رجلاً أعرجاً شديد العرج، وكان له بنون أربعة مثل الأُسْد، يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد، فلمّا كان يوم أُحد أرادوا حبسه، وقالوا له: إنَّ الله ﷻ قد عذرك، فأتى رسول الله ﷺ، فقال: إنَّ بنيَّ يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه، والخروج معك فيه، فوالله إنِّي لأرجو أنْ أطأ بعرجتي هذه في الجنّة، فقال رسول الله ﷺ: أمّا أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك، وقال لبنيه: ما عليكم أن لا تمنعوه، لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة، فخرج معه فقُتل يوم أحد.

(١) زاد المعاد: ج٣/ ١٧٩ - ١٨٠.

شأن عبدالله بن جحش

وقال عبد الله بن جحش قُبيل أحد: اللهم إنّي أقسم عليك أن ألقى العدو غداً فيقتلوني، ثمَّ يبقروا بطني، ويجدعوا أنفي، وأذني، ثمَّ تسألني: فيم ذلك؟ فأقول فيك، فاسْتَشْهَدَ وفُعل به ذلك.

التمثيل بشهداء أحد

ووقعت هند بنت عتبة، والنسوة اللاتي معها يُمثّلن بالقتلى من أصحاب رسول الله ﷺ، يجدعن الآذان والأُنُف، حتى اتخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدماً وقلائد، وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها وحشياً، وبقرت عن كبد حمزة، فلاكتها، فلم تستطع أن تسيغها، فلفظتها.

حديث أبي سفيان مع عمر

ولمّا انقضت الحرب أشرف أبو سفيان على الجبل فنادى: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم ابن أبي قحافة؟ فلم يجيبوه، فقال: أفيكم عمر بن الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يسأل إلّا عن هؤلاء الثلاثة، لِعِلْمِه وعلم قومه أنَّ قوام الإسلام بهم، فقال: أمّا هؤلاء، فقد كفيتموهم، فلم يملك عمر نفسه أن قال: يا عدو الله، إنَّ الذين ذكرتهم أحياء، وقد أبقى الله لك ما يسوؤك، فقال: قد كان في القوم مثلة لم آمر بها، ولم تَسُؤْني، ثمَّ قال: اعلُ هبل، فقال النبي ﷺ: ألا تجيبونه؟ فقالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله أعلى وأجل، ثمَّ قال: لنا العزى ولا عزى لكم، قال: ألا تجيبونه؟ قالوا: ما نقول؟ قال: قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم [١]، ثمَّ قال أبو سفيان: يوم بيوم بدر، والحرب سجال [٢]، فأجابه عمر، فقال: لا سواء، قتلانا في الجنة، وقتلاكم في النار،

(١) صحيح البخاري.

(٢) وفي رواية أنَّ أبا سفيان قال: حنظلة بحنظلة – يعني ابنه حنظلة الذي قُتل في بدر، وحنظلة

فقال أبو سفيان: هلمّ إلي يا عمر؟ فقال رسول الله ﷺ لعمر: ائته فانظر ما شأنه، فجاءه، فقال له أبو سفيان: أنشدك الله يا عمر، أقتلنا محمداً؟ قال عمر: اللهم لا، وإنّه ليسمع كلامك الآن، قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وأبر، لقول ابن قمئة لهم: إنّي قد قتلت محمداً، ولمّا انصرف أبو سفيان ومن معه، نادى: إنَّ موعدكم بدر للعام القابل، فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه: قل: نعم، هو بيننا وبينكم موعد. (١)

قلت: تأمّل - وفقك الله - كيف صدَّق أبو سفيان عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» وهو عدوّه، ووثق بكلامه، بينما كذّب ابن قمئة وهو يقاتل معه، وما ذاك إلّا لأنَّ المسلمين كانوا لا يكذبون، على ذلك ربّاهم القرآن، وربّاهم عليه الصلاة والسلام، فاحرص على هذا الخُلُق وتمسّك به، وتخلّق بأخلاق رسول الله ﷺ واقبض عليها كما تقبض على الغنيمة، وإيّاك والكذب على الآخرين بحجّة أنَّهم كفار أو مرتدون، فوالله ما كان هذا خُلُق رسول الله ﷺ ولا الصحابة، فما كانوا يكذبون على عدوٍ ولا على صديق.

خروج علي في آثار المشركين

ثمَّ بعث رسول الله ﷺ علياً بن أبي طالب، فقال: اخرج في آثار القوم، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، فإنّهم يريدون مكة، وإنْ ركبوا الخيل وساقوا الإبل، فإنهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده، لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها، ثمَّ لأناجزنَّهم، قال علي: فخرجت في آثارهم أنظر ماذا يصنعون، فجنَّبوا الخيل، وامتطوا الإبل، ووجهوا إلى مكة، وكان عدد قتلى المشركين في أحد اثنين وعشرين رجلاً.

الغسيل الذي استشهد في أحد -، ويوم أحد بيوم بدر. تاريخ الطبري: ٢/ ٧٢.
(١) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٧٤، وزاد المعاد: ج٣/ ١٨١.

شهداء أحد

واستشهد في أحد سبعون رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ منهم أسد الله حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وعبدالله بن جحش وأنس بن النضر وسعد بن الربيع وعبدالله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح وحنظلة بن أبي عامر – غسيل الملائكة – ومالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري، ولم يصلِّ عليهم رسول الله ﷺ، وأمر أن يُدفنوا بمكانهم، وجعلوا يَدفِنون الرجلين والثلاثة في القبر الواحد، فكانوا يُقدِّمون أكثر الشهداء جمعاً للقرآن في القبر، ولمّا أُمر بدفن القتلى قال رسول الله ﷺ: انظروا إلى عمرو بن الجموح، وعبد الله بن عمرو بن حرام، فإنَّهما كانا متصافيين في الدنيا، فاجعلوهما في قبر واحد.

وقال رسول الله ﷺ: لمّا أصيب إخوانكم بأُحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر، تَرِدُ أنهار الجنّة، وتأكل من ثمارها، وتأوي إلى قناديل من ذهب، في ظل العرش، فلمّا وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم، وحُسنَ مقيلهم، قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا، لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب ؛ فقال الله تعالى: فأنا أبلغهم عنكم، فأنزل الله على رسوله ﷺ هؤلاء الآيات: ﴿ولا تحسبن....﴾. [(١)]

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع، فقال لي: إن رأيته فأقرئه منيّ السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ كيف تَجِدُك؟ قال: فجعلت أطوف بين القتلى فأتيته، وهو بآخر رمق، وفيه سبعون ضربة، ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، فقلت: يا سعد، إنَّ رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام، ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: وعلى رسول الله ﷺ السلام، قل له: يا رسول الله، أجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إنْ خَلُص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، وفاضت نفسه من وقته.

---

(١) رواه الإمام أحمد وأبو داود.

وأقبلت صفيّة بنت عبد المطلب لتنظر إلى حمزة، وكان أخاها لأبيها وأمها، فقال رسول الله ﷺ لابنها الزبير بن العوام: القَها فأرجعها، لا ترى ما بأخيها، فقال لها: يا أُمّه، إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعي، قالت: ولِمَ؟ وقد بلغني أن قد مُثِّل بأخي، وذلك في الله، فما أرضانا بما كان من ذلك، لأحتسبنَّ ولأصبرن إن شاء الله، فلمّا جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك، قال: خلِّ سبيلها، فأتته، فنظرت إليه، فصلّت عليه، واسترجعت، واستغفرت له، ثمَّ أمر به رسول الله ﷺ فدُفن.

وقال كعب بن مالك يبكي حمزة بن عبدالمطلب:

طرقتْ همومُك فالرُقاد مسَهَّدُ ... وجزعت أنْ سُلِخَ الشباب الأغْيدُ

ودَعَتْ فؤادك للهوى ضَمْريةٌ ... فهواك غَوْريٌ وصَحْوك مُنْجدُ

ولقد هُدِدْتُ لفقد حمزة هدَّةً ... ظَلَّت بناتُ الجوفِ منها تَرْعَدُ

ولو انَّه فُجِعَتْ حِراءُ بمثله ... لرأيت رأسَيْ صخْرها يتبددُ

قرمٌ تمكّنَ في ذؤابة هاشمٍ ... حيث النبوة والندى والسؤددُ

عمُّ النبي محمّد وصفيُّه ... ورد الحِمامَ فطاب ذاك الموردُ

وأتى المنيَّة مُعْلماً في أُسرةٍ ... نصروا النبي فمنهم المستشهدُ

ولقد إخال بذاك هندٌ بُشِّرت ... لتميت داخل غصّة لا تبرُدُ

ممّا صبحنا بالعقنقل قومها ... يوماً تغيّب فيه عنها الأسعدُ

وببئر بدرٍ إذْ نَرُدُّ وجوههم ... جبريلُ تحت لوائنا ومحمّدُ

حتى رأيتُ لدى النبي سراتهم ... قسمين نقتل من نشاء ونطردُ

شتّان من هو في جهنّم ثاوياً ... أبداً ومن هو في الجنان مُخلَّدُ

ثناء النبي ﷺ على ربه

روى الإمام أحمد في مسنده: لمّا كان يوم أحد وانكفأ المشركون، قال رسول الله ﷺ: استووا حتى أُثني على ربي ﷻ، فصاروا خلفه صفوفاً، فقال: «اللهم لك

الحمد كلّه، اللهم لا قابض لما بسطت، ولا باسط لما قبضت، ولا هادي لمن أضللت، ولا مُضِلَّ لمن هديت، ولا مُعْطِي لما منعت، ولا مانع لما أعطيت، ولا مُقرِّب لما باعدت، ولا مُبعد لما قرّبت، اللهم ابسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك﴾ ﴿اللهم إنّي أسألك النعيم المقيم، الذي لا يحول ولا يزول، اللهم إنّي أسألك العون يوم العلة، والأمن يوم الخوف، اللهم إنّي عائذ بك من شرّ ما أعطيتنا، وشرّ ما منعتنا، اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيّنه في قلوبنا، وكرّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين، اللهم توفنا مسلمين وأحينا مسلمين، وألحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين، اللهم قاتل الكفرة الذين يكذّبون رسلك، ويصدّون عن سبيلك، واجعل عليهم رجزك وعذابك، اللهم قاتل الكفرة الذين أوتوا الكتاب إله الحق﴾ [(١)].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: فأمّا المسلمون فلعلهم قد وقع في نفوسهم من هذا النصر [(٢)] أنّه الشأن الطبيعي الذي لا شأن غيره، وأنّه لا بد ملازمهم على أي حال في كل مراحل الطريق! أليسوا بالمسلمين؟ أليس أعداؤهم بالكافرين؟ وإذن فهو النصر لا محالة حيثما التقى المسلمون بالكافرين.

غير أنَّ سُنّة الله في النصر والهزيمة ليست بهذه الدرجة من البساطة والسذاجة، فلهذه السنّة مقتضياتها في تكوين النفوس، وتكوين الصفوف، وإعداد العدة، واتباع المنهج، والتزام الطاعة والنظام، واليقظة لخوالج النفس ولحركات الميدان، وهذا ما أراد الله أن يعلمهم إياه بالهزيمة في «غزوة أحد» على النحو الذي تَعْرِضه السورة عرضاً حياً مؤثراً عميقاً، وتَعْرِض أسبابه من تصرفات بعض المسلمين، وتوجه في ظله العظات البناءة للنفس وللصف على السواء.

وحين نراجع غزوة أحد نجد أنَّ تعليم المسلمين هذا الدرس قد كلّفهم أهوالاً وجراحات وشهداء من أعز الشهداء - على رأسهم حمزة رضي الله عنه وأرضاه - وكلفهم

(١) رواه البخاري في الأدب المفرد، والإمام أحمد في المسند.
(٢) يعني يوم بدر.

ما هو أشق من ذلك كله على نفوسهم، كلفهم أن يروا رسولهم الحبيب تُشج جبهته وتُكسر سِنُّه، ويسقط في الحفرة، ويغوص حلق المغفر في وجنته ﷺ الأمر الذي لا يقوم بوزنه شيء في نفوس المسلمين.[١]

الرجوع إلى المدينة

ثمَّ انصرف رسول الله ﷺ راجعاً إلى المدينة، فلقيته حمنة بنت جحش[٢]، فلمّا لقيت الناس نُعي إليها أخوها عبد الله بن جحش، فاسترجعت واستغفرت له، ثمَّ نُعي لها خالها حمزة بن عبد المطلب فاسترجعت واستغفرت له، ثمَّ نُعي لها زوجها مصعب بن عمير، فصاحت وولولت، فقال رسول الله ﷺ: إنّ زوج المرأة منها لبمكان.

ومرَّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بني عبد الأشهل وظفر، فسمع البكاء والنوائح على قتلاهم، فذرفت عينا رسول الله ﷺ، فبكى، ثمَّ قال: لكنَّ حمزة لا بواكي له، فأمر سعد بن معاذ وأسيد بن حضير نساء بني عبد الأشهل أن يتحزمنَّ ويبكين عمَّ رسول الله ﷺ، فلمّا سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن وهنّ على باب مسجده يبكين حمزة فقال: ارجعن يرحمكن الله فقد آسيتنَّ بأنفسكن.

ومرَّ رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأُحد، فلمّا نُعُوا لها، قالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيراً يا أم فلان، هو بحمد الله كما تحبين، قالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته قالت: كل مصيبة بعدك جلل[٣]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: ولا بُدَّ من تربية النفوس بالبلاء، ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، لا بُدَّ من هذا البلاء ليؤدي المؤمنون تكاليف العقيدة، كي تَعزَّ على نفوسهم بمقدار ما

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران.
(٢) هي ابنة عمّة النبي ﷺ وأخت أمِّ المؤمنين زينب بنت جحش رضي الله عنها.
(٣) تريد صغيرة، فالجلل: يكون من القليل، ومن الكثير.

أدوا في سبيلها من تكاليف، والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعزُّ عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى، فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعزُّ به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعزَّ في نفوس الآخرين، وكلّما تألموا في سبيلها، وكلّما بذلوا من أجلها، كانت أعزَّ عليهم وكانوا أضنَّ بها، كذلك لن يدرك الآخرون قيمتها إلا حين يرون ابتلاء أهلها بها وصبرهم على بلائها، إنّهم عندئذ سيقولون في أنفسهم: لو لم يكن ما عند هؤلاء من العقيدة خيراً ممّا يبتلون به وأكبر ما قبلوا هذا البلاء، ولا صبروا عليه، وعندئذ ينقلب المعارضون للعقيدة باحثين عنها، مقدّرين لها، مندفعين إليها، وعندئذ يجيء نصر الله والفتح، ويدخل النّاس في دين الله أفواجاً.

ولا بُدَّ من البلاء كذلك ليصلب عود أصحاب العقيدة ويقوى، فالشدائد تستجيش مكنون القوى ومذخور الطاقة، وتفتح في القلب منافذ ومسارب ما كان ليعلمها المؤمن في نفسه إلا تحت مطارق الشدائد، والقيم والموازين والتصورات ما كانت لِتَصحَّ وتدق وتستقيم إلا في جو المحنة التي تزيل الغبش عن العيون، والران عن القلوب.

وأهم من هذا كله، أو القاعدة لهذا كله، الالتجاء إلى الله وحده حين تهتز الأَسنادُ كلُّها، وتتوارى الأوهام وهي شتى، ويخلو القلب إلى الله وحده، لا يجد سنداً إلا سنده، وفي هذه اللحظة فقط تنجلي الغشاوات، وتتفتح البصيرة، وينجلي الأفق على مد البصر، لا شيء إلا الله، لا قوة إلا قوته، لا حول إلا حوله، لا إرادة إلا إرادته، لا ملجأ إلا إليه، وعندئذ تلتقي الروح بالحقيقة الواحدة التي يقوم عليها تصور صحيح، والنص القرآني هنا يصل بالنفس إلى هذه النقطة على الأفق: ﴿وبشِّر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنّا لله وإنا إليه راجعون﴾.

إنّا لله، كلنا، كل ما فينا، كل كياننا وذاتيتنا لله، وإليه المرجع والمآب في كل أمر وفي كل مصير، التسليم، التسليم المطلق، تسليم الالتجاء الأخير المنبثق من الالتقاء وجهاً لوجه بالحقيقة الوحيدة، وبالتصور الصحيح.

هؤلاء هم الصابرون، الذين يبلغهم الرسول الكريم بالبشرى من المنعم الجليل، وهؤلاء هم الذين يعلن المنعم الجليل مكانهم عنده جزاء الصبر الجميل: (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)، صلوات من ربهم، يرفعهم بها إلى المشاركة في نصيب نبيه الذي يصلي عليه هو وملائكته سبحانه، وهو مقام كريم، ورحمة، وشهادة من الله بأنّهم هم المهتدون، وكل أمر من هذه هائل عظيم.

وبعد، فلا بُدَّ من وقفة أمام هذه الخاتمة في تلك التعبئة للصف الإسلامي، التعبئة في مواجهة المشقة والجهد، والاستشهاد والقتل، والجوع والخوف، ونقص الأموال والأنفس والثمرات، والتعبئة في هذه المعركة الطويلة الشاقة العظيمة التكاليف.

إنَّ الله يضع هذا كُلَّه في كِفَّة، ويضع في الكِفَّة الأخرى أمراً واحداً، صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون، إنَّه لا يَعِدُهم هنا نصراً، ولا يَعِدُهم هنا تمكيناً، ولا يَعِدُهم هنا مغانم، ولا يَعِدُهم هنا شيئاً إلا صلوات الله ورحمته وشهادته، لقد كان الله يُعِدُّ هذه الجماعة لأمر أكبر من ذواتها وأكبر من حياتها، فكان من ثَمَّ يجردها من كل غاية، ومن كل هدف، ومن كل رغبة من الرغبات البشرية - حتى الرغبة في انتصار العقيدة - كان يجردها من كل شائبة تشوب التجرد المطلق له ولطاعته ولدعوته، كان عليهم أن يمضوا في طريقهم لا يتطلعون إلى شيء إلا رضى الله وصلواته ورحمته وشهادته لهم بأنّهم مهتدون، هذا هو الهدف، وهذه هي الغاية، وهذه هي الثمرة الحلوة التي تهفو إليها قلوبهم وحدها، فأمّا ما يكتبه الله لهم بعد ذلك من النصر والتمكين فليس لهم، إنّما هو لدعوة الله التي يحملونها.

إنَّ لهم في صلوات الله ورحمته وشهادته جزاء، جزاء على التضحية بالأموال والأنفس والثمرات، وجزاء على الخوف والجوع والشدة، وجزاء على القتل والشهادة، إنَّ الكفة ترجح بهذا العطاء فهو أثقل في الميزان من كل عطاء، أرجحُ من النصر، وأرجحُ من التمكين، وأرجحُ من شفاء غيظ الصدور.[1]

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.

غزوة حمراء الأسد

أذّن مؤذن رسول الله ﷺ في الناس بطلب العدو، وذلك صباح الغد من غزوة أُحد، فأذّن مؤذّنه أن لا يخرجنَّ معنا أحدٌ إلا أحدٌ حضر يومنا بالأمس، فكلّمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام، فقال: يا رسول الله، إنَّ أبي كان خلّفني على أخوات لي سبع، وقال: يا بني، إنّه لا ينبغي لي ولا لك أن نترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن، ولست بالذي أؤثرك بالجهاد مع رسول الله ﷺ على نفسي، فتخلّف على أخواتك، فتخلّفت عليهن، فأَذِنَ له رسول الله ﷺ، فخرج معه.

وإنّما خرج رسول الله ﷺ مُرْهِباً للعدو، وليبلغهم أنّه خرج في طلبهم، ليظنّوا به قوة، وأنَّ الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوهم، فخرج رسول الله ﷺ حتى انتهى إلى حمراء الأسد، وهي من المدينة على ثمانية أميال، واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثمَّ رجع إلى المدينة.

وقد مرّ معبد بن أبي معبد الخزاعي برسول الله ﷺ، وكانت خزاعة، مسلمهم ومشركهم عيبةَ نُصحٍ[1] لرسول الله ﷺ، بتهامة، صفقتهم معه، لا يُخْفون عنه شيئاً كان بها، ومعبد يومئذ مشرك، فقال: يا محمد، أَمَا والله لقد عزَّ علينا ما أصابك، ولوددنا أنَّ الله عافاك فيهم، ثمَّ خرج ورسول الله ﷺ بحمراء الأسد، حتى لقي أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقالوا: أصبنا حد أصحابه وأشرافهم وقادتهم، ثمَّ نرجع قبل أن نستأصلهم، لنكرنَّ على بقيتهم، فلنفرغنّ منهم، فلمّا رأى أبو سفيان معبداً، قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمّد، قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط، يتحرّقون عليكم تحرقاً، قد اجتمع معه من كان تخلّف عنه في يومكم، وندموا على ما صنعوا، فيهم من الحنق عليكم شيء لم أر مثله قط، قال: ويحك ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى أرى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد

(١) أي أنَّهم موضع النصح له والأمانة على سرِّه.

أجمعنا الكرَّةَ عليهم، لنستأصل بقيتهم، قال: فإنِّي أنهاك عن ذلك. [(١)]

ومرّ ركب من عبد القيس بأبي سفيان ومن معه، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة؟ قال: ولِمَ؟ قالوا: نُريد المِيرةَ، قال: فهل أنتم مبلغون عنّي محمداً رسالة أرسلكم بها إليه، وأحمل لكم هذه غداً زبيباً بعكاظ إذا وافيتموها؟ قالوا نعم، قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنّا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم، فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل. [(٢)]

وقبل رجوعه إلى المدينة أسر رسول الله ﷺ رجلين أحدهما أبو عَزّة الجُمحي وكان رسول الله ﷺ أسره ببدر، ثمَّ منَّ عليه، فقال: يا رسول الله، أَقِلْني، فقال رسول الله ﷺ: والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول: خدعت محمداً مرتين، اضرب عنقه يا زبير، فضرب عنقه

قال ابن هشام: وبلغني عن سعيد بن المسيب أنّه قال: قال له رسول الله ﷺ: إنَّ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين، اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت، فضرب عنقه. اهـ

وبالجملة فقد كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص، اختبر الله به المؤمنين، ومحن به المنافقين، ممن كان يظهر الإيمان بلسانه، وهو مستخف بالكفر في قلبه، ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته. [(٣)]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: إنّهم أولئك الذين دعاهم الرسول ﷺ إلى الخروج معه كرة أخرى غداة المعركة المريرة، وهم مثخنون بالجراح، وهم ناجون بشق الأنفس من الموت أمس في المعركة، وهم لم ينسوا بعد هول الدعكة، ومرارة الهزيمة، وشدّة الكرب، وقد فقدوا مِنْ أعزائهم مَنْ فقدوا، فقلَّ عددهم، فوق ما هم مثخنون بالجراح، ولكنَّ رسول الله ﷺ دعاهم، ودعاهم وحدهم، ولم يأذن

(١) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٧٩ - ٨٠.
(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٨١.
(٣) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٨١ - ٨٢.

لأحد تخلف عن الغزوة أن يخرج معهم - ليقَوّيهم ويكثّر عددهم كما كان يمكن أن يقال - فاستجابوا، استجابوا لدعوة الرسول ﷺ وهي دعوة الله - كما يقرر السياق، وكما هي في حقيقتها وفي مفهومهم كذلك - فاستجابوا بهذا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح، ونزل بهم الضر، وأثخنتهم الجراح..... وينظر الإنسان في هذه الصورة وفي هذا الموقف، فيحس كأنَّ كيان الجماعة كلّه قد تبدل ما بين يوم وليلة، نضجت، وتناسقت، واطمأنت إلى الأرض التي تقف عليها، وانجلى الغَبَشُ عن تصورها، وأخذت الأمر جداً كله، وخلصت من تلك الأرجحة والقلقلة، التي حدثت بالأمس فقط في التصورات والصفوف، فما كانت سوى ليلة واحدة هي التي تفرِّق بين موقف الجماعة اليوم وموقفها بالأمس، والفارق هائل والمسافة بعيدة.

لقد فعلت التجربة المريرة فعلها في النفوس، وقد هزتها الحادثة هزاً عنيفاً، أطار الغبش، وأيقظ القلوب، وثبَّتَ الأقدام، وملأ النفوس بالعزم والتصميم، نعم، وكان فضل الله عظيماً في الابتلاء المرير.[١]

قلت: نزلت في أُحدٍ ستون آية من سورة آل عمران، من الآية ١٢١ إلى الآية ١٧٩، من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ما كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاء فَآمِنُواْ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾.

الأحكام الفقهية في غزوة أحد

١- منها: جواز سلوك الإمام بالعسكر في بعض أملاك رعيته إذا صادف ذلك طريقه وإن لم يرض المالك، كما فعل النبي ﷺ حين مرَّ بمال لمربع بن قيظي دون رضاه.

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران.

٢- ومنها: أنَّه لا يأذن لمن لا يطيق القتال من الصبيان غير البالغين بل يردهم إذا خرجوا كما رد رسول الله ﷺ ابن عمر ومن معه.

٣- ومنها: جواز الغزو بالنساء والاستعانة بهن في الجهاد.

٤- ومنها: جواز الانغماس في العدو كما انغمس أنس بن النضر وغيره.

٥- ومنها: أنَّ الإمام إذا أصابته جراحة صلى بهم قاعداً وصلوا وراءه قعودا كما فعل رسول الله ﷺ في هذه الغزوة واستمرت على ذلك سنته إلا حين وفاته.

٦- ومنها: جواز دعاء الرجل أن يقتل في سبيل الله وتمنيه ذلك وليس هذا من تمني الموت المنهي عنه كما قال عبد الله بن جحش: اللهم لقني من المشركين رجلاً عظيماً كفره شديداً حرده فأقاتله فيقتلني فيك ويسلبني ثم يجدع أنفي وأذني فإذا لقيتك فقلت: يا عبد الله بن جحش فيم جدعت؟ قلت: فيك يا رب.

٧- ومنها: أنَّ المسلم إذا قتل نفسه فهو من أهل النار لقوله ﷺ في قزمان الذي أبلى يوم أحد بلاء شديدا فلما اشتدت به الجراح نحر نفسه فقال ﷺ: هو من أهل النار.

٨- ومنها: أنَّ السنّة في الشهيد أنّه لا يُغسَّل ولا يُصلّى عليه ولا يكفن في غير ثيابه بل يدفن فيها بدمه وكلومه إلّا أن يسلبها فيُكفَّن في غيرها.

٩- ومنها: أنَّ السنة في الشهداء أن يُدفنوا في مصارعهم ولا ينقلوا إلى مكان آخر فإن قوما من الصحابة نقلوا قتلاهم إلى المدينة فنادى منادي رسول الله ﷺ بالأمر بردِّ القتلى إلى مصارعهم قال جابر: بين أنا في النظارة إذ جاءت عمتي بأبي وخالي عادلتهما على ناضح فدخلت بهما المدينة لندفنهما في مقابرنا وجاء رجل ينادي: ألا إنَّ رسول الله ﷺ يأمركم أن ترجعوا بالقتلى فتدفنوها في مصارعها حيث قتلت قال: فرجعنا بهما فدفناهما في القتلى حيث قتلا فبينا أنا في خلافة معاوية بن أبي سفيان إذ جاءني رجل فقال: يا جابر! والله لقد أثار أباك عمال معاوية فبدا فخرج طائفة منه قال: فأتيته فوجدته على النحو الذي تركته لم يتغير منه شيء قال: فواريته فصارت سنّة في الشهداء أن يُدفنوا في مصارعهم.

١٠- ومنها: جواز دفن الرجلين أو الثلاثة في القبر الواحد فإنَّ رسول الله ﷺ كان يدفن الرجلين والثلاثة في القبر ويقول: [أيُّهم أكثر أخذاً للقرآن؟، فإذا أشاروا إلى رجل قدمه في اللحد]، ودفن عبد الله بن عمرو بن حرام وعمرو بن الجموح في قبر واحد لما كان بينهما من المحبة فقال: [ادفنوا هذين المتحابين في الدنيا في قبر واحد] ثمَّ حفر عنهما بعد زمن طويل ويد عبد الله بن عمرو بن حرام على جرحه كما وضعها حين جرح فأميطت يده عن جرحه فانبعث الدم فردت إلى مكانها فسكن الدم.

وقال جابر: رأيت أبي في حفرته حين حفر عليه كأنَّه نائم وما تغير من حاله قليل ولا كثير وقيل له: أفرأيت أكفانه؟ فقال: إنّما دفن في نمرة [١] خمر وجهه وعلى رجليه الحرمل فوجدنا النمرة كما هي والحرمل على رجليه على هيئته وبين ذلك ست وأربعون سنة.

وقد اختلف الفقهاء في أمر النبي ﷺ أن يدفن شهداء أحد في ثيابهم هل هو على وجه الاستحباب والأولوية أو على وجه الوجوب؟ على قولين: الثانى أظهرهما وهو المعروف عن أبي حنيفة.

١١- ومنها: أنَّ شهيد المعركة لا يصلى عليه لأنَّ رسول الله ﷺ لم يُصلِّ على شهداء أحد، ولم يعرف عنه أنَّه صلى على أحد ممّن استشهد معه في مغازيه وكذلك خلفاؤه الراشدون ونوابهم من بعدهم.

١٢- ومنها: أنَّ مَنْ عذره الله في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج يجوز له الخروج إليه وإن لم يجب عليه كما خرج عمرو بن الجموح وهو أعرج.

١٣- ومنها: أنَّ المسلمين إذا قتلوا واحدا منهم في الجهاد يظنونه كافراً فعلى الإمام ديّته من بيت المال لأنَّ رسول الله ﷺ أراد أن يدي اليمان أبا حذيفة فامتنع حذيفة من أخذ الديّة وتصدَّق بها على المسلمين. [٢]

---

(١) نوع من الثياب.

(٢) زاد المعاد: ج٣/ ١٨٩ - ١٩٦.

ذكر بعض الحكم والغايات المحمودة
التي كانت في وقعة أحد

١ – منها: تعريفهم سوء عاقبة المعصية والفشل والتنازع وأنَّ الذي أصابهم إنّما هو بشؤم ذلك كما قال تعالى: ﴿ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثمَّ صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم﴾[آل عمران: ١٥٢].

٢– ومنها: أن يتميز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر وطار لهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهراً مَنْ ليس معهم فيه باطناً، فاقتضت حكمة الله ﷻ أن سبَّب لعباده محنة ميَّزت بين المؤمن والمنافق فأطلع المنافقون رؤوسهم في هذه الغزوة وتكلموا بما كانوا يكتمونه وظهرت مخبآتهم وعاد تلويحهم تصريحاً، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقساماً ظاهراً وعرف المؤمنون أنَّ لهم عدواً في نفس دورهم وهم معهم لا يفارقونهم فاستعدّوا لهم وتحرزوا منهم قال الله تعالى: ﴿ ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

٣– ومنها: أنَّه سبحانه هيّأ لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنة، فقيَّض لهم الأسباب التي توصلهم إليها من ابتلائه وامتحانه كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي من جملة أسباب وصولهم إليها.

٤– ومنها: أنَّ النفوس تكتسب من العافية الدائمة والنصر والغنى طغياناً وركوناً إلى العاجلة.

٥– ومنها: أنَّ الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه

والمقربون من عباده وليس بعد درجة الصديقية إلّا الشهادة، وهو سبحانه يحبُّ أن يتخذَّ من عباده شهداء تراق دماؤهم في محبته ومرضاته، ويؤثرون رضاه ومحابه على نفوسهم، ولا سبيل إلى نيل هذه الدرجة إلّا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

٦- ومنها: أنَّ الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم قيّض لهم الأسباب التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم وطغيانهم ومبالغتهم في أذى أوليائه ومحاربتهم وقتالهم والتسلّط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم وقد ذكر ﷻ ذلك في قوله: ﴿ ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

٧- ثمَّ أخبر سبحانه عمّا استنصرت به الأنبياء وأممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم أن يثبت أقدامهم وأن ينصرهم على أعدائهم فقال: ﴿ وما كان قولهم إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين) [آل عمران: ١٤٧] لما علم القوم أنَّ العدو إنّما يُدال عليهم بذنوبهم، وأنَّ الشيطان إنّما يستزلهم ويهزمهم بها وأنَّها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد وأنَّ النصرة منوطة بالطاعة قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا.

٨- من ظنَّ بأنَّه لا ينصر رسوله، ولا يتمّ أمره، ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأعدائه ويظهرهم عليهم، وأنَّه لا ينصر دينه وكتابه، وأنَّه يديل الشرك على التوحيد والباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لا يقوم بعده أبداً، فقد ظنَّ بالله ظنَّ السوء ونسبه إلى خلاف ما يليق بكماله وجلاله

وصفاته ونعوته، فإنَّ حمده وعزته وحكمته وإلهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يذلَّ حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به فمن ظنَّ به ذلك فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله.

٩- ثمَّ أخبر ﷻ عن تولي من تولى من المؤمنين الصادقين في ذلك اليوم، وأنَّه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاستزلَّهم الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوا، فكانت أعمالهم جنداً عليهم ازداد بها عدوهم قوّة، فإنَّ الأعمال جند للعبد وجند عليه ولا بُدَّ، فللعبد كل وقت سرية من نفسه تهزمه أو تنصره، فهو يمدُّ عدوه بأعماله من حيث يظن أنَّه يقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنَّه يغزو عدوه، فأعمال العبد تسوقه قسراً إلى مقتضاها من الخير والشر، والعبد لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرار الإنسان من عدوّه وهو يطيقه إنّما هو بجند من عمله بعثه له الشيطان واستزلَّه به. (١)

ومن أحداث هذه السنة

١- فيها تزوّج النبي ﷺ من حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

٢- وفيها وُلد الحسن بن علي رضي الله عنهما.

٣- وفيها توفي عثمان بن مظعون أخو النبي ﷺ من الرضاعة، وكان قد هاجر الهجرتين رضي الله عنه.

(١) زاد المعاد: ج٣/ ١٩٦ - ٢١٣.

السنة الرابعة من الهجرة

سرية أبي سلمة: في المحرّم من هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ أبا سلمة في مائة وخمسين رجلاً إلى ماء يقال له قَطَن، وهو ماء لبني أسد، وذلك أنَّ طليحة بن خويلد الأسدي وأخوه سلمة كانا قد جمّعا خلقاً من بني أسد قاصدين حرب النبي ﷺ، فجاء رجل إلى النبي ﷺ وأخبره بما تمالأوا عليه، فأرسل لهم هذه السرية، فلمّا انتهوا إلى أرضهم تفرقوا، وتركوا نَعماً كثيراً لهم من الإبل والغنم، فأخذ ذلك كلّه أبو سلمة، وأسر منهم معه ثلاثة مماليك، وأقبل راجعاً إلى المدينة، فأعطى الرجل الذي دلّهم نصيباً وافراً من الغنم، وأخرج صفيّ النبي ﷺ وخمّس الغنيمة وقسّمها بين أصحابه ثمَّ قدم المدينة.[1]

يـوم الرجـيـع

وفي صَفَر من هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ سرية من عشرة نفر من أصحابه، وأمّر عليهم عاصم بن ثابت، فخرجوا، حتى إذا كان بين عسفان ومكّة ذُكروا لحيّ من هُذيل يقال لهم بنو لحيان، فتبعوهم بقريب من مائة رامٍ فاقتصُّوا آثارهم حتى أتوا منزلاً نزلوه، فوجدوا فيه نوى تمر تزودوه من المدينة فقالوا: هذا تمر يثرب، فتبعوا آثارهم حتى لحقوهم، فلمّا انتهى عاصم وأصحابه لجؤوا إلى فدفد[2] وجاء القوم فأحاطوا بهم، فقالوا: لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا أن لا نقتل منكم رجلاً، فقال عاصم: أمّا أنا فلا أنزل في ذمّة كافر، اللهم أخبر عنّا رسولك، فرموهم حتى قتلوا عاصماً في سبعة نفر بالنَبْل، وبقي خُبيب بن عدي وزيد بن الدثنة ورجل آخر، فأعطوهم العهد والميثاق، فنزلوا إليهم، فلمّا استمكنوا منهم حلّوا أوتار قسيهم

(١) البداية والنهاية: ج٢/ ٧٠٣.
(٢) الموضع المرتفع.

فربطوهم، فقال الرجل الثالث: هذا أوّل الغدر، فأبى أنْ يصحبهم، فجرّوه وعالجوه فلم يمتثل فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد حتى باعوهما لأهل مكّة. (١)

فأمّا زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أميّة ليقتله بأبيه أميّة بن خلف، فأخرجه إلى التنعيم خارج الحرم ليقتله، واجتمع رهط من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب، فقال له أبو سفيان حين قُدّم ليُقتَل: أنشدك الله يا زيد، أتحبّ أنَّ محمّداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه، وأنّك في أهلك؟ قال: والله ما أحبّ إليّ أنَّ محمّداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه، وأنّي جالس في أهلي، يقول أبو سفيان: ما رأيت من النّاس أحداً يُحبّ أحداً كحبّ أصحاب محمّد محمّداً، ثمَّ قتلوا زيداً. (٢)

وأمّا خبيب فاشتراه بنو الحارث بن عامر بن نوفل، وكان خبيب هو قتل الحارث يوم بدر، فمكث عندهم أسيراً، حتى إذا أجمعوا قتله استعار موسى من بعض بنات الحارث ليستحدّ بها، فأعارته، قالت: فغفلتُ عن صبيّ لي، فدرج إليه حتى أتاه فوضعه على فخذه، فلمّا رأيته فزعتُ فزعةً عرف ذاك منّي، وفي يده الموسى، فقال: أتخشين أن أقتله؟ ما كنت لأفعل ذاك إن شاء الله، وكانت تقول: ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب وما بمكة يومئذ ثمرة، وإنّه لموثق في الحديد، وما كان إلّا رزق رزقه الله، فخرجوا به من الحرم ليقتلوه فقال: دعوني أُصلّي ركعتين، ثمَّ انصرف إليهم فقال: لولا أن تروا أنَّ ما بي جزع من الموت لزدت، فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل هو، ثمَّ قال: اللهم أحصهم عددا، ثمَّ قال:

ما أبالي حين أقتل مسلماً على أي شق كان لله مصرعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزع (٣)

وقد ذكر الإمام ابن القيم أنَّ خبيباً قال قبل أن يقتلوه: اللهم أحصهم عدداً، واقتلهم بدداً، ولا تبقِ منهم أحداً، ثمَّ قال:

---

(١) صحيح البخاري / كتاب المغازي / باب غزوة الرجيع ورعل وذكوان وبئر معونة.
(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢/ ١٣٤ - ١٣٥.
(٣) رواه البخاري.

لقد أجمع الأحزاب حولي وألَّبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع
وكلهم مبدي العداوة جاهداً عليَّ لأنّي في وثاق بمضيع
وقد قرّبوا أبناءهم ونساءهم وقُربتُ من جذع طويل ممنع
إلى الله أشكو غُربتي بعد كربتي وما أرصد الأحزاب لي عند مصرعي
فذا العرش صبرني على ما يُراد بي فقد بضعوا الحمي وقد ياس مطمعي
وقد خَيَّروني الكفر، والموت دونه فقد ذرفت عيناي من غير مجزع
وما بي حذار الموت إنّي لميّتٌ وإنَّ إلى ربي إيابي ومرجعي
ولست أبالي حين أُقتل مُسلماً على أي شقٍ كان في الله مضجعي
وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أوصال شلوٍ ممزع
فلستُ بمُبْدٍ للعدو تخشعاً ولا جزعاً إنّي إلى الله مرجعي[1]

حادثة بئر معونة

وفي صَفَر من هذه السنة أرسل رسول الله ﷺ المنذر بن عمرو في سبعين رجلاً من خيار الصحابة، فيهم حرام بن ملحان، ونافع بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وعامر بن فُهَيْرة، فساروا حتى نزلوا ببئر معونة على بعد ١٦٠ كيلاً عن المدينة.

وكان سبب إرسال النبي ﷺ لهم أنَّ أبا براء عامر بن مالك ملاعب الأَسنّة قَدِم على رسول الله ﷺ المدينة، فعرض عليه النبيُّ ﷺ الإسلام، ودعاه إليه، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام، وقال: يا محمّد، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد، فدَعَوهم إلى أمرك، رجوتُ أن يستجيبوا لك، فقال رسول الله ﷺ: إنّي أخشى عليهم أهل نجد، قال أبو براء: أنا لهم جار، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك.

ولمّا كانوا ببئر معونة أرسلوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلمّا أتاه لم ينظر في كتابه حتى عدا على حرام فقتله، فصاح حرام: الله أكبر،

(١) زاد المعاد: ج٣ / ٢١٩

فزتُ وربِّ الكعبة، ثمَّ استصرخ عامر بن الطفيل بني عامر على المسلمين، فأبوا أن يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نُخفر أبا براء [١]، وقد عقد لهم عقداً وجواراً ؛ فاستصرخ عليهم قبائل من بني سُليم من عُصَيَّة ورِعْلٍ وَذَكْوَانَ، فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا فأحاطوا بالمسلمين في رحالهم، فلمّا رآهم المسلمون أخذوا سيوفهم، ثمَّ قاتلوهم حتى قُتلوا عن آخرهم، إلا كعب بن زيد،، فإنّهم تركوه وبه رمق، فارتثَّ [٢] من بين القتلى، فعاش حتى قتل يوم الخندق شهيداً.

وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن محمد، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلّا الطير تحوم على العسكر، فقالا: والله إنَّ لهذه الطير لشأناً، فأقبلا لينظرا، فإذا القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال المنذر لعمرو بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله ﷺ، فنخبره الخبر، فقال المنذر: لكنّي ما كنت لأرغب بنفسي عن موطن قُتل فيه المنذر بن عمرو، وما كنتُ لتخبرني عنه الرجال ؛ ثمَّ قاتل القوم حتى قُتل، وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فقال له عامر بن الطفيل: مَنْ هذا؟ فأشار إلى قتيل، فقال له عمرو بن أمية: هذا عامر بن فُهَيْرة، فقال: لقد رأيته بعد ما قتل رُفِع إلى السماء، حتى إنّي لأنظر إلى السماء بينه وبين الأرض ثمَّ وُضِعْ.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله عن الشهداء: إنّهم قُتلوا في ظاهر الأمر، وحسبما ترى العين، ولكنَّ حقيقة الموت وحقيقة الحياة لا تقررهما هذه النظرة السطحية الظاهرة، إنَّ سمة الحياة الأولى هي الفاعلية والنمو والامتداد، وسمة الموت الأولى هي السلبية والخمود والانقطاع، وهؤلاء الذين يُقتلون في سبيل الله فاعليتهم في نصرة الحق الذي قُتلوا من أجله فاعلية مؤثرة، والفكرة التي من أجلها قُتلوا ترتوي بدمائهم وتمتد، وتأثُّر الباقين وراءهم باستشهادهم يَقوى ويمتد، فهم ما يزالون عنصراً فعالاً دافعاً مؤثراً في تكييف الحياة وتوجيهها، وهذه هي صفة الحياة الأولى،

---

(١) أي لن ننقض عهده.

(٢) أي رُفع وبه جراح.

فهم أحياء أولاً بهذا الاعتبار الواقعي في دنيا الناس.[1]

ثمَّ أخبرهم عمرو أنّه من مضر، فأطلقه عامر بن الطفيل، وأعتقه عن رقبة زعم أنّها كانت على أمّه، فخرج عمرو فلمّا كان ببعض الطريق أقبل رجلان من بني عامر حتى نزلا معه في ظلٍّ هو فيه، وكان معهما عقدٌ من رسول الله ﷺ وجوارٌ لم يعلم به عمرو، وقد سألهما حين نزلا، ممّن أنتما؟ فقالا: من بني عامر، فأمهلهما، حتى إذا ناما، عدا عليهما فقتلهما، وهو يرى أنّه قد أصاب بهما ثأراً من بني عامر فيما أصابوا من أصحاب رسول الله ﷺ، فلمّا قدم عمرو بن أمية على رسول الله ﷺ، فأخبره الخبر، قال رسول الله "ﷺ»: لقد قتلتَ قتيلين، لأدينَّهما.

وقنت النبي ﷺ بعد الركوع شهراً يدعو على رِعْلٍ وَذَكْوَانَ وعُصيّة ويقول: عُصَيَّةُ عصت الله ورسوله[2]، قال الإمام ابن القيم ﵀: ثمَّ ترك القنوت لمّا جاؤوا تائبين مسلمين.



---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة البقرة.
(٢) صحيح البخاري.

إجلاء بني النضير

خرج رسول الله ﷺ إلى بني النضير يستعينهم في دِيّة القتيلين من بني عامر، الّذَيْن قتلهما عمرو بن أمية الضمري، للجوار الذي كان رسول الله ﷺ عقد لهما، فلمّا أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم في دِيّة ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم، نُعِينكَ على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثمَّ خلا بعضهم ببعض، فقالوا: إنّكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد - فمَنْ رجل يعلو على هذا البيت، فيُلقي عليه صخرة، فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فقال: أنا لذلك، فصعد ليُلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي "رضي الله عنهم".

فأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة، ثمَّ أقبل أصحاب رسول الله ﷺ، حتى انتهوا إليه، فأخبرهم بما كانت اليهود أرادت من الغدر به، وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم، والسير إليهم، ثمَّ سار بالناس حتى نزل بهم،واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، وذلك في شهر ربيع الأول، فحاصرهم ست ليال، ونزل حينها تحريم الخمر.

تحصّن بنو النضير في الحصون، فأمر رسول الله ﷺ بقطع النخيل والتحريق فيها، فنادوه: أنْ يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد، وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخل وتحريقها.

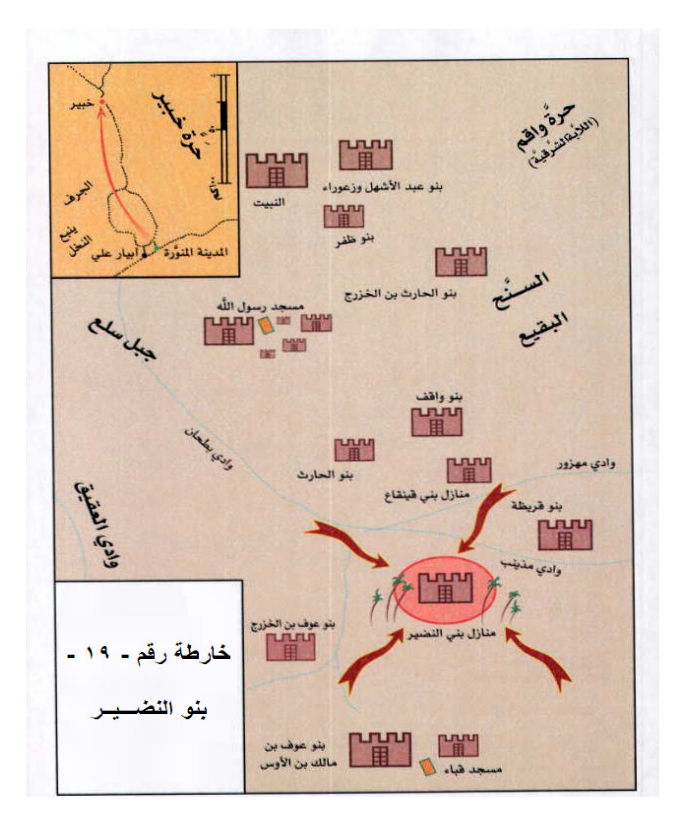
وقد كان جماعة من المنافقين منهم عبدالله بن أُبيْ قد بعثوا إلى بني النضير أنْ اثبتوا وتمنّعوا، فإنّا لن نُسلِمَكم، إنْ قوتلتم قاتلنا معكم، وإنْ أخرجتم خرجنا معكم، فتربَصوا ذلك مِنْ نَصْرِهم، فلم يفعلوا، وقذف الله في قلوبهم الرعب، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكفَّ عن دمائهم، على أنَّ لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا الحلقة [1]، ففعل، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل، فكان الرجل منهم يهدم

(١) السلاح.

بيته عن نجاف بابه، فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به،فخرجوا فمنهم من سار إلى خيبر، ومنهم من سار إلى الشام، وممّن سار إلى خيبر سلّام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع، وحُيي بن أخطب، فلمّا نزلوها دان لهم أهلها.

وخلّوا الأموال لرسول الله ﷺ، فكان لرسول الله ﷺ خاصة، يضعها حيث يشاء، فقسّمها رسول الله ﷺ على المهاجرين الأولين دون الأنصار إلا أنَّ سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة ذكرا فقراً، فأعطاهما رسول الله ﷺ.

كانت غزوة بني النضير في ربيع الأول سنة ٤ هـ، ونزلت فيها سورة الحشر بأسرها.



خارطة رقم - ١٩ -

بنو النضـيـر

غزوة نجد

نُقلت الأخبار إلى النبي ﷺ أنَّ البدو والأعراب من بني محارب وبني ثعلبة من غطفان، يتحشدون للهجوم على المدينة، فسارع ﷺ إلى الخروج إليهم فهربوا

وتمنّعوا في رؤوس الجبال، وقد ألقى الجيش الإسلامي الخوف في قلوب أولئك البدو القساة وأرهبهم حتى لا يعودوا إلى التفكير في قتال المسلمين.

غزوة بدر الآخرة

وفي ذي القعدة من هذه السنة خرج رسول الله ﷺ في ألف وخمسمائة من أصحابه إلى بدر لميعاد أبي سفيان، واستعمل على المدينة عبدالله بن عبدالله بن أُبيْ، فأقام عليه ثماني ليال ينتظر أبا سفيان، فأتاه مخشي بن عمرو الضمري، وهو الذي كان وادعه على بني ضمرة في غزوة ودان، فقال: يا محمد، أجئت للقاء قريش على هذا الماء؟ قال: نعم يا أخا بني ضمرة، وإنْ شئت مع ذلك رددنا إليك ما كان بيننا وبينك، ثمَّ جالدناك حتى يحكم الله بيننا وبينك، قال: لا والله يا محمد، ما لنا بذلك منك من حاجة.

وخرج أبو سفيان في ألفين من أهل مكة حتى نزل مرّ الظهران على بعد ٤٠ كيلاً من مكّة، ثمَّ بدا له في الرجوع، فقال: يا معشر قريش، إنّه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون فيه اللبن، وإنَّ عامكم هذا عام جدب، وإنِّي راجع، فارجعوا، فرجع الناس، ولم يلقَ رسول الله ﷺ كيداً فرجع إلى المدينة، وكان لإخلاف قريش موعدها مع رسول الله ﷺ والمسلمين أثر في إعادة هيبة المسلمين ومكانتهم.

ومن أحداث السنة الرابعة

١- توفي عبدالله بن عثمان بن عفّان، وهو ابن رقية بنت رسول الله ﷺ، توفي وهو ابن ست سنين، فصلّى عليه رسول الله ﷺ.[١]

٢- ولد الحسين بن علي رضي الله عنهما، في شعبان من هذه السنة.

---

(١) البداية والنهاية: ج٢/ ٧٢٠.

٣- تزوج رسول الله ﷺ زينب بنت خزيمة أم المساكين، وأصدقها اثنتي عشرة أوقية، ولم تلبث عنده إلّا شهرين أو ثلاثة حتى توفيت رضي الله عنها.

٤- تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بنت أبي أمية، وكانت قبله عند أبي سلمة رضي الله عنه فمات أبو سلمة في هذه السنة على أثر جرح جُرِحَه في أحد، وهو ابن عمّة رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاعة، فتزوج رسول الله ﷺ أم سلمة، تقول أم سلمة رضي الله عنها: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله ﷺ فقال: لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولاً سُرِرْتُ به، قال: (لا يصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثمَّ يقول: اللهم آجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها إلا فعل به)، قالت أم سلمة: فحفظت ذلك منه، فلمّا توفي أبو سلمة استرجعت، وقلت: اللهم آجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها، ثمَّ رجعت إلى نفسي فقلت: من أين لي خير من أبي سلمة، فلمّا انقضت عدتي استأذن عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أدبغ إهاباً لي، فغسلت يدي من القرظ وأذنت له، فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف، فقعد عليها فخطبني إلى نفسي، فلمّا فرغ من مقالته قلت: يا رسول الله، ما بي أن لا تكون بك الرغبة، ولكنّي امرأة بي غَيْرة شديدة، فأخاف أن ترى منّي شيئاً يعذبني الله به، وأنا امرأة قد دخلت في السن، وأنا ذات عيال، فقال: أمّا ما ذكرتِ من الغَيْرة فسيذهبها الله عنك، وأمّا ما ذكرت من السن فقد أصابني مثل الذي أصابك، وأمّا ما ذكرت من العيال فإنّما عيالك عيالي، فقالت: فقد سَلّمتُ لرسول الله ﷺ، تقول أم سلمة: فقد أبدلني الله بأبي سلمة خيراً منه رسول الله ﷺ. (١)

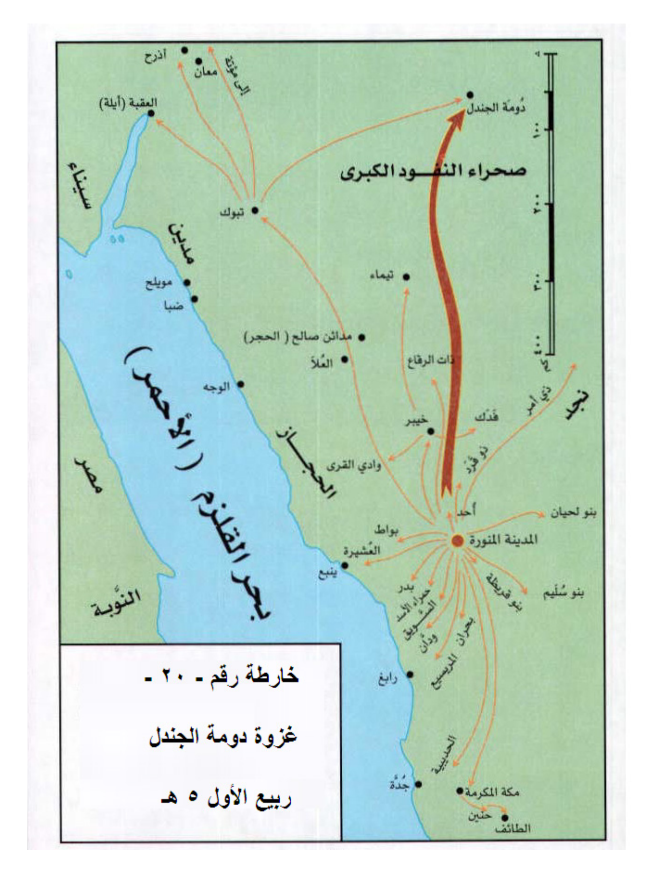
٥- نزل تحريم الخمر.

(١) رواه الإمام أحمد والترمذي والنسائي، وقال الترمذي: حسن غريب.

السنة الخامسة من الهجرة

غزوة دُومة الجندل [1]

عاد النبي « صلى الله عليه وسلّم» إلى المدينة بعد غزوة بدر الثانية ومكث فيها ستة أشهر، فجاءته الأخبار بأنَّ القبائل القريبة من دُومة الجندل - قريباً من الشام - تقطع الطريق هناك وتنهب من يمر بها، فخرج النبي ﷺ في ربيع الأول من هذه السنة ومعه ألف من المسلمين ليغزوهم، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وأخذ معه دليلاً للطريق من بني عذرة يُقال له مذكور، فلمّا وصلوا إلى دُومة الجندل هرب أهلها فلم يجد منهم المسلمون أحداً، فعاد النبي ﷺ إلى المدينة ولم يلقَ كيداً.



(١) دُومة، بالضم.

غزوة الأحزاب (الخندق)

رغم الانتصار الذي اعتبرت قريش أنَّها حققته في أُحد، ورغم أنَّها اعتبرت نفسها أيضاً قد أدركت ثأر بدر، بمن قتلته من المسلمين، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطلب عمُّ النبي ﷺ، إلّا أنَّها فشلت في تحقيق أحد أهم أهدافها في أُحد، وهو تحرير طرق تجارتها إلى الشام، حيث بقيت تجارة قريش مهددة، كما أنَّ اليهود وعلى الرغم ممّا ذاقوه من ذِلَّة وهوان نتيجة غدرهم وخيانتهم إلّا أنَّهم لم يتّعظوا، واستمروا في مكائدهم ومحاولاتهم في التحريض ضد المسلمين، وبدأوا يحاولون تحشيد أعداء المسلمين وتجميعهم تحت راية واحدة، وتشكيل تحالف عسكري للهجوم على المدينة واستئصال المسلمين فيها، فخرج نفر من زعماء اليهود وسادات بني النضير وعلى رأسهم سلّام بن أبي الحقيق النضري، وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيق إلى قريش ليحرّضوهم على قتال النبي «صلى الله عليه وسلّم» ووعدوهم بالنصر، فوافقت قريش على ذلك.

ثمَّ خرج الوفد اليهودي إلى غطفان، وباقي القبائل العربية يدعوهم للاجتماع لحرب النبي ﷺ فاستجابت غطفان وبعض قبائل العرب، ونجح اليهود في تشكيل حزب قوي وكبير ليواجهوا به النبي ﷺ، فخرجت قريش بقيادة أبي سفيان بن حرب في أربعة آلاف مقاتل وخرجت غطفان بقيادة عُيَيْنَة بن حصن، وخرجت القبائل الأخرى معهم حتى بلغ عددهم عشرة آلاف مقاتل.

ولمّا سمع بهم النبي ﷺ وما أجمعوا له من الأمر سارع إلى استشارة الصحابة ليناقش كيفية التصدي لهم وحماية المدينة ومن فيها، فاقترح عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه أن يحفروا خندقاً في المنطقة الشمالية من المدينة، ليكون رابطاً بين حرّة واقم وحرّة الوبرة، وهي الجهة الوحيدة التي تمثّل نقطة ضعف مكشوفة أمام الغزاة القادمين نحو المدينة، لأنَّ الجهات الأخرى كانت تتشابك فيه الأبنية وأشجار

النخيل، وتحيط بها الحرّات التي يصعب على الإبل والمشاة السير فيها، فقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: يا رسول الله: إنّا كنا بأرض فارس إذا حوصرنا خندقنا علينا، فكانت خطة عظيمة لم يكن يعرفها العرب من قبل، فسارع النبي «صلى الله عليه وسلّم » لحفر الخندق، وكان طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة أذرع إلى عشرة، وكان على كل عشرة من المسلمين حفر أربعين ذراعاً [١]، وكان عدد جيش المسلمين ثلاثة آلاف مقاتل

قام المسلمون بحفر الخندق ورسول الله ﷺ يساعدهم ويحثّهم على عملهم، ففي البخاري عن سهل بن سعد قال: كنّا مع رسول الله ﷺ في الخندق وهم يحفرون، ونحن ننقل التراب على أكتاد [٢] فقال رسول الله ﷺ: (اللهم إنَّ العيش عيش الآخرة *** فاغفر للمهاجرين والانصار).

وروى البخاري عن أنس رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلمّا رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

اللهم إنَّ العيش عيش الآخرة فاغفر للأنصار والمهاجرة

فقالوا مجيبين له:

نحن الذين بايعوا محمدا على الجهاد ما بقينا أبدا

وفي البخاري أيضاً عن البراء بن عازب قال: رأيته ﷺ ينقل من تراب الخندق حتى وارى عنّي الغبار جلدة بطنه، وكان كثير الشعر، فسمعته يرتجز بكلمات ابن رواحة، وهو ينقل من التراب، ويقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فأَنْزِلَنْ سكينةً علينا وثبّتْ الأقدام إن لاقينا

إن الألى قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا

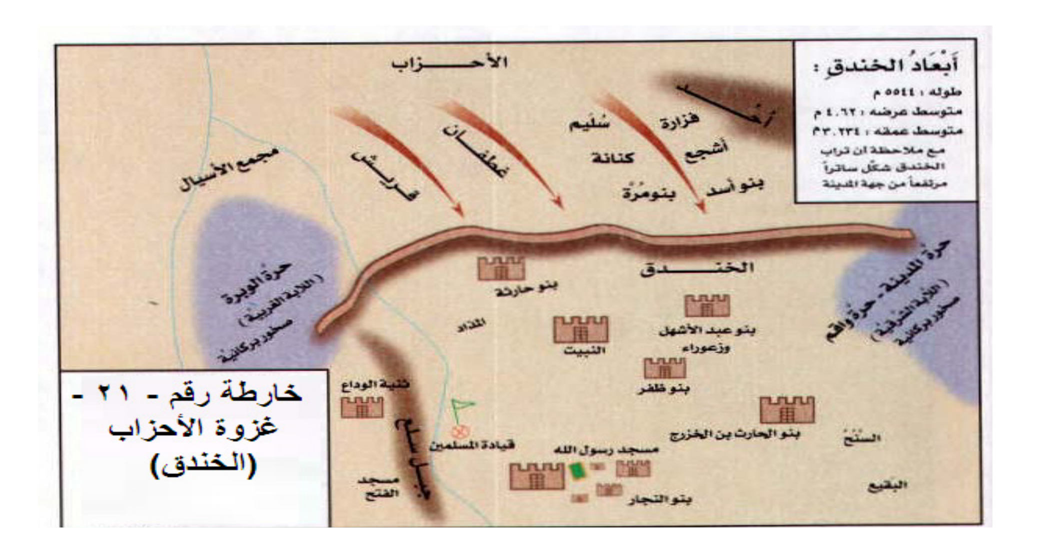
(١) كان طول الخندق ٥٥٤٤ متر، ومتوسط عرضه ٤,٦٢ متر، ومتوسط عمقه ٣,٢٣ متراً.
(٢) جمع كتد: وهو ما بين الكاهل والظهر.

قال: ثمَّ يمد بها صوته بآخرها.

يقول الشهيد سيد قطب ﷺ: ولنا أن نتصور هذا الجو الذي يعمل فيه المسلمون، والرسول ﷺ بينهم، يضرب بالفأس، ويجرف بالمسحاة، ويحمل في المِكتَل.... ولنا أن نتصور أيّة طاقة يطلقها هذا الجو في أرواحهم، وأي ينبوع يتفجر في كيانهم بالرضى والحماسة والثقة والاعتزاز..... ثمَّ كانت روحُه ﷺ تستشرف النصر من بعيد، وتراه رأي العين في ومضات الصخور على ضرب المعاول، فيحدث بها المسلمين، ويبث فيهم الثقة واليقين. [١]

ويقول: وقد كان رسول الله ﷺ على الرغم من الهول المُرعِب والضيق المُجهِد، مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء والاطمئنان، وإنَّ دراسة موقفه ﷺ في هذا الحادث الضخم لما يرسم لقادة الجماعات والحركات طريقهم، وفيه أسوة حسنة لِمَن كان يرجو الله واليوم الآخر، وتطلب نفسه القدوة الطيبة، ويذكر الله ولا ينساه. [٢]

وقد أنجز المسلمون الخندق في ستة أيام فقط.



خارطة رقم - ٢١ -
غزوة الأحزاب
(الخندق)

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأحزاب.
(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأحزاب.

ما رآه المسلمون من الآيات في حفر الخندق

١- رأى جابر بن عبد الله في النبي ﷺ خمصاً [١] شديداً، فذبح بهيمة، وطحنت امرأته صاعاً من شعير، ثمَّ التمس من رسول الله ﷺ سراً أن يأتي في نفر من أصحابه، فقام النبي ﷺ بجمع أهل الخندق، وهم ألف فأكلوا من ذلك الطعام وشبعوا، وبقيت برمة اللحم تغط به كما هي، وبقي العجين يخبز كما هو. [٢]

٢- كانت أخت النعمان بن بشير قد جاءت بحفنة من تمر إلى الخندق ليتغدى بها أبوها وخالها، فمرَّت برسول الله ﷺ، فطلب منها التمر وبدَّدَهُ فوق ثوب، ثمَّ دعا أهل الخندق فجعلوا يأكلون منه وجعل التمر يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وإنّه يسقط من أطراف الثوب. [٣]

٣- روى البخاري عن جابر قال: إنّا يوم الخندق نحفر، فعرضت كُدْيَةٌ [٤] شديدة، فجاؤوا النبي ﷺ فقالوا: هذه كدية عَرَضَت في الخندق، فقال: أنا نازل، ثمَّ قام وبطنه معصوب بحجر - ولبثنا ثلاثة لا نذوق ذواقاً - فأخذ النبي ﷺ المِعْول، فضرب فعاد كثيباً أَهْيَلَ أو أَهْيَمَ، أي صار رملاً لا يتماسك.

وفي رواية أحمد والنسائي، عندما واجَهَت الصحابة صخرة عجزوا عن كسرها أثناء الحفر، ضربها الرسول ﷺ ثلاث ضربات ففتَّتها، وقال إثر الضربة الأولى: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح الشام، والله إنّي لأبصر قصورها الحمراء الساعة، ثمَّ ضربها الثانية فقال: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح فارس، والله إنّي لأبصر قصر المدائن أبيض، ثمَّ ضرب الثالثة وقال: الله أكبر، أُعطيتُ مفاتيح اليمن، والله إنّي لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا الساعة.

---

(١) أي جوعاً.

(٢) رواه البخاري.

(٣) سيرة ابن هشام: ج٢/ ١٦٩.

(٤) القطعة الصلبة.

٤- وفي هذه الغزوة أخبر النبي ﷺ عمّاراً بن ياسر بأنَّه سيُقتل، وقال له: «تقتلك الفئة الباغية»، فكان أنْ قُتل في صفّين.

لمّا فرغ المسلمون من حفر الخندق أقبلت قريش ومَنْ معها في عشرة آلآف مقاتل، وخرج المسلمون في ثلاثة آلاف مقاتل حتى جعلوا ظهورهم إلى سَلْع [١] فعسكروا هناك، والخندق بينهم وبين المشركين، وكان شعارهم (حم لا يُنصرون)، واستعمل النبي ﷺ على المدينة ابن امّ مكتوم، وأمر بالذراري والنساء فجُعِلوا في الآطام.

فرض المشركون الحصار على المدينة حين تفاجؤوا بوجود الخندق، وأصبحوا يدورون حوله وهم غضاب، فصاروا يتحسسون نقطة ضعيفة لينحدروا منها ويباغتوا المسلمين، ولكنَّ المسلمين كانوا على أتم الاستعداد، فكانوا يرمونهم بالنبل حتى لا يقتربوا من الخندق، فكَرِه بعضُ فرسان قريش أن يقفوا حول الخندق عاجزين عن فعل شيء، وكان منهم عمرو بن عبد ودّ وعكرمة بن أبي جهل وضرار بن الخطاب، فتحسسوا مكاناً ضيقاً من الخندق فنزلوا فيه، فخرج إليهم نفر من المسلمين وفيهم علي بن أبي طالب فوقف عمرو بن عبد ودّ وقال: مَنْ يُبارز؟ فبرز له علي بن أبي طالب، فقال له: يا عمرو، إنّك قد كنت عاهدت الله ألّا يدعوك رجلُ من قريش إلى إحدى خلَّتين إلا أخذتها منه، فقال له: أجل، فقال له علي: فإنّي أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال: لا حاجة لي بذلك، قال: فإنّي أدعوك إلى النزال، فقال له: لِمَ يا ابن أخي؟ فوالله ما أُحبُّ أن أقتلك، فقال له عليّ: لكنّي والله أحب أن أقتلك، فحمي عمرو عند ذلك، فاقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثمَّ أقبل على عليَّ فتنازلا وتجاولا، فقتله علي رضي الله عنه، وخرجت خيلهم مُنهزمة، وألقى عكرمة بن أبي جهل رُمْحَه وهرب.

وقد فاتت المسلمين بعضُ الصلوات بسبب انشغالهم بالقتال ففي الصحيحين

---

(١) جبل بالمدينة.

عن جابر ﵁: أنَّ عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق، فجعل يسبُّ كفار قريش، فقال: يا رسول الله، ما كدت أن أصلّي حتى كادت الشمس أن تغرب، فقال النبي ﷺ: وأنا والله ما صلّيتها، فنزلنا مع النبي ﷺ بطحان، فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلّى العصر بعد ما غربت الشمس ثمَّ صلى بعدها المغرب.

وقد غضب ﷺ لفوات صلاة العصر، فدعا على المشركين، روى البخاري في صحيحه عن علي عن النبي ﷺ أنّه قال يوم الخندق: «ملأ الله عليهم بيوتهم وقبورهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس».

وفي مسند أحمد والشافعي أنَّهم حبسوه عن صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، فصلاهن جميعاً، قال النووي: وطريق الجمع بين هذه الروايات أنَّ وقعةَ الخندق بقيت أياماً فكان هذا في بعض الأيام، وهذا في بعضها. اهـ

بقي المشركون يدورون حول الخندق ويحاولون عبوره، لكنَّ المسلمين كانوا لهم بالمرصاد، وبسبب وجود الخندق بينهم لم يكن هناك قتال مباشر إلّا ما كان من علي بن أبي طالب ﵁ مع عمرو بن عبد ود العامري، واقتصر الفريقان على الرمي والمناضلة.

وكان من دعاء المسلمين «اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا»، ودعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: «اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهم أهزمهم وزلزلهم» (١)

موقف المنافقين

وعظم البلاء على المسلمين، واشتدَّ الخوف، وأتاهم العدو من كلِّ جانب، فنجم حينها النفاق، وأظهر المنافقون ما كانوا يكتمونه حتى قال بعضهم: كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط. (٢)

---

(١) رواه البخاري.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٢٢٢.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله في تفسير قوله تعالى: (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم.... الآيات): إنّها صورة الهول الذي روَّع المدينة، والكرب الذي شملها، والذي لم ينجُ منه أحدٌ من أهلها، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب، من أعلاها ومن أسفلها، فلم يختلف الشعور بالكرب والهول في قلب عن قلب، وإنّما الذي اختلف هو استجابة تلك القلوب، وظنّها بالله، وسلوكها في الشدة، وتصوراتها للقيم والأسباب والنتائج، ومن ثمَّ كان الابتلاء كاملاً والامتحان دقيقاً، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً لا تردّد فيه.

﴿وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل، والشدّة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون مِنْ أنْ يلومهم أحد، وفرصةً للتوهين والتخذيل وبثّ الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله، وهم مطمئنون أن يأخذهم أحد بما يقولون، فالواقع بظاهره يُصدّقهم في التوهين والتشكيك، وهم مع هذا منطقيون مع أنفسهم ومشاعرهم، فالهول قد أزاح عنهم ذلك الستار الرقيق من التجمّل، وروّع نفوسهم ترويعاً لا يثبت له إيمانهم المُهَلْهَل، فجهروا بحقيقة ما يشعرون غير مُبْقين ولا متجملين.

ومِثْل هؤلاء المنافقين والمرجفين قائمون في كل جماعة، وموقفهم في الشدّة هو موقف إخوانهم هؤلاء، فهم نموذج مكرر في الأجيال والجماعات على مدار الزمان.

﴿وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا﴾

فهم يحرِّضون أهل المدينة على ترك الصفوف، والعودة إلى بيوتهم، بحجة أنَّ إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا، لا موضع لها ولا محل، وبيوتهم مُعرّضة للخطر من ورائهم، وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها، ثغرة

الخوف على النساء والذراري، والخطر مُحدِق، والهول جامح، والظنون لا تثبت ولا تستقر. (١)

ويقول: ثمَّ يستطرد إلى تقرير علم الله بالمعوّقين، الذين يقعدون عن الجهاد ويَدْعون غيرهم إلى القعود، ويقولون لهم: (لا مقام لكم فارجعوا)، ويرسم لهم صورة نفسية مبدعة، وهي - على صدقها - تثير الضحك والسخرية من هذا النموذج المكرور في الناس، صورة للجبن والانزواء، والفزع والهلع، في ساعة الشدّة، والانتفاش وسلاطة اللسان عند الرخاء، والشُحِّ على الخير والضن ببذل أي جهد فيه، والجزع والاضطراب عند توهم الخطر من بعيد...... وهي صورة شاخصة، واضحة الملامح، متحركة الجوارح، وهي في الوقت ذاته مُضحكة، تثير السخرية من هذا الصنف الجبان، الذي تنطق أوصاله وجوارحه في لحظة الخوف بالجبن المرتعش الخوّار، وأشدُّ إثارة للسخرية صورتهم بعد أن يذهب الخوف ويجيء الأمن: (فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد) فخرجوا من الجحور، وارتفعت أصواتهم بعد الارتعاش، وانتفخت أوداجهم بالعظمة، ونفشوا بعد الانزواء، وادعوا في غير حياء ما شاء لهم الادعاء، من البلاء في القتال والفضل في الأعمال، والشجاعة والاستبسال، ثمَّ هم: (أشحة على الخير) فلا يبذلون للخير شيئاً من طاقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم، مع كل ذلك الادعاء العريض وكل ذلك التبجح وطول اللسان.

وهذا النموذج من الناس لا ينقطع في جيل ولا في قبيل، فهو موجود دائماً، وهو شجاعٌ فصيحٌ بارزٌ حيثما كان هناك أمن ورخاء، وهو جبان صامت منزوٍ حيثما كان هناك شدّة وخوف، وهو شحيح بخيل على الخير وأهل الخير، لا ينالهم منهم إلا سلاطة اللسان!. (٢)

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأحزاب.
(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأحزاب.

بنو قُريظة تنقض العهد

كان رئيس بني قريظة كعب بن أسد القرظي قد عاهد النبي ﷺ على قومه أن لا يقاتلوه أو يتحالفوا مع عدوه ضدّه، فلمّا كانت الأحزاب خرج حُيي بن أخطب إلى بني قريظة في ديارهم فقال: قد جئتكم بعزّ الدهر، جئتكم بقريش على سادتها وغطفان على قادتها، وأنتم أهل الشوكة والسلاح، فهلمَّ نناجز محمداً ونفرُغ منه، فقال له كعب: بل جئتني والله بِذُلِّ الدهر، جئتني بسحاب قد أراق ماءه فهو يرعُد ويبرق، فلم يزل حيي يُخادعه ويَعِدُه ويُمنّيه حتى أجابه بشرط أن يدخل معه في حصنه، يصيبه ما أصابهم، ففعل، ونقضت قريظة عهد رسول الله « صلى الله عليه وسلّم» وأظهروا سبّه، فبلغ رسول الله «صلى الله عليه وسلّم» ذلك فأرسل يستعلم الأمر، فوجدهم قد نقضوا العهد، فكبّر وقال: أبشروا يا معشر المسلمين.

همّ الرسول ﷺ بعقد الصلح مع غطفان

لمّا اشتد على المسلمين البلاء بعث رسول الله ﷺ إلى عُيينة بن حصن، والحارث بن عوف، وهما قائدا غطفان، فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمَنْ معهما عنه وعن أصحابه، فجرى بينه وبينهما الصلح، حتى كتبوا الكتاب ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح، إلّا المراوضة في ذلك، فلمّا أراد رسول الله ﷺ أن يفعل، بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة، فذكر ذلك لهما، واستشارهما فيه، فقالا له: يا رسول الله، أمراً تُحبّه فنصنعه، أم شيئاً أمرك الله به، لا بُدَّ لنا من العمل به، أم شيئا تصنعه لنا؟ قال: بل شيء أصنعه لكم، والله ما أصنع ذلك إلّا لأنّني رأيت العربَ قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردتُ أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما، فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنّا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن

يأكلوا منها تمرة إلّا قرى أو بيعاً، أفحينَ أكرمنا الله بالإسلام وهدانا له وأعزَّنا بك وبه، نعطيهم أموالنا! والله ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلّا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم، قال رسول الله ﷺ: فأنت وذاك، فتناول سعد بن معاذ الصحيفة، فمحا ما فيها من الكتاب، ثمَّ قال: لِيَجْهَدُوا علينا.

شأن سعد بن معاذ

أُصيبَ سعد بن معاذ رضي الله عنه يوم الخندق، رماه رجل من قريش يقال له حِبَان بن العَرِقَة، فقال سعد رضي الله عنه: اللهم إنّك تعلم أنّه ليس أحد أحبّ إليَّ أن أُجاهدهم فيك من قوم كذّبوا رسولك ﷺ وأخرجوه، اللهم فإنّي أظنُّ أنّك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإنْ كان بقيَ من حرب قريش شيء فأبقني له حتى أُجاهدهم فيك، وإنْ كنتَ وضعتَ الحرب فافجُرها، واجعلْ موتتي فيها (١)، وفي رواية ابن إسحاق أنَّ سعداً رضي الله عنه قال في آخر دعائه: ولا تُمتْني حتى تَقرَّ عيني من بني قريظة. (٢)

شأن نُعيم في تخذيل المشركين عن المسلمين

ثمَّ إنَّ الله جلّ وعلا صنع أمراً من عنده خذل به العدو، وهزم جموعهم، فكان ممّا هيأ من ذلك أنَّ رجلاً من غطفان يقال له نُعيم بن مسعود بن عامر جاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنّي قد أسلمت، فمُرْني بما شئت، فقال رسول الله ﷺ: إنّما أنت رجل واحد فخذّل عنّا ما استطعت، فإنَّ الحرب خُدْعَةٌ، فذهب من فوره ذلك إلى بني قريظة، وكان عشيراً لهم في الجاهلية، فدخل عليهم وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بني قريظة إنّكم قد حاربتم محمداً، وإنَّ قريشاً إنْ أصابوا فرصة انتهزوها، وإلّا انشمروا إلى بلادهم راجعين وتركوكم ومحمداً، فانْتقَم منكم، قالوا:

(١) رواه البخاري.
(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ١٧٥.

فما العمل يا نُعيم؟ قال: لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن قالوا: لقد أشرت بالرأي، ثمَّ مضى على وجهه إلى قريش، فقال لهم: تعلمون ودّي لكم ونصحي لكم، قالوا: نعم، قال: إنَّ يهود قد ندموا على ما كان منهم من نقض عهد محمد وأصحابه، وإنّهم قد راسلوه أنّهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثمَّ يمالئونه عليكم، فإنْ سألوكم رهائن فلا تعطوهم، ثمَّ ذهب إلى غطفان، فقال لهم مثل ذلك، فلمّا كان ليلة السبت من شوال بعثوا إلى اليهود: إنّا لسنا بأرض مقام، وقد هلك الكراع والخف، فانهضوا بنا حتى نناجز محمداً، فأرسل إليهم اليهود: إنَّ اليوم يوم السبت، وقد علمتم ما أصاب مَنْ قبلنا حين أحدثوا فيه، ومع هذا فإنّا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا إلينا رهائن، فلمّا جاءتهم رسلهم بذلك قالت قريش: صَدَقَكم والله نُعيم، فبعثوا إلى يهود، إنّا والله لا نرسل إليكم أحداً، فاخرجوا معنا حتى نناجز محمداً، فقالت قريظة: صَدَقَكم والله نُعيم، فتخاذل الفريقان.

ثمَّ إنَّ الله ﷻ أرسل على المشركين جنداً من الريح، فجعلت تقوّض خيامهم، ولا تدع لهم قِدراً إلّا كفأتها، ولا طنباً إلا قلعته، ولا يقرُّ لهم قرار، وجند الله من الملائكة يزلزلونهم، ويُلقون في قلوبهم الرعب والخوف، وأرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيئوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم، يقول حذيفة رضي الله عنه: لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقُر [1]، فقال رسول الله ﷺ: أَلاَ رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه منّا أحد، ثمَّ قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه منّا أحد، ثمَّ قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة، فسكتنا فلم يجبه منّا أحد، فقال: قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم، فلم أجد بُدّاً إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليَّ، فلمّا وليت من عنده جعلت كأنّما

(١) البرد.

أمشي في حِمام [١] حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يُصلي ظهره بالنار فوضعت سهماً في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ: «ولا تذعرهم عليَّ» ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحِمام فلمّا أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغتُ، قررتُ، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلّي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت، فلمّا أصبحت قال: قم يا نومان [٢]، فأصبح رسول الله ﷺ، وقد ردَّ الله عدوه بغيظه لم ينالوا خيراً، وكفاه الله قتالهم، فصدق وعده، وأعزَّ جنده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، فعاد إلى المدينة [٣]

يقول الشهيد سيد قطب ؒ في تفسير قوله تعالى ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾: لقد كان الهول الذي واجهه المسلمون في هذا الحادث من الضخامة، وكان الكرب الذي واجهوه من الشدّة، وكان الفزع الذي لقوه من العنف، بحيث زلزلهم زلزالاً شديداً، كما قال عنهم أصدق القائلين: (هنالك ابتُلِيَ المؤمنون وزُلْزِلُوا زلزالاً شديداً)

لقد كانوا ناساً من البشر، وللبشر طاقة، لا يكلِّفهم الله ما فوقها، وعلى الرغم من ثقتهم بنصر الله في النهاية، وبشارة الرسول ﷺ لهم، تلك البشارة التي تتجاوز الموقف كلّه إلى فتوح اليمن والشام والمغرب والمشرق، على الرغم من هذا كلّه، فإنَّ الهول الذي كان حاضراً يواجههم كان يزلزلهم ويزعجهم ويكرب أنفاسهم.

وممّا يصور هذه الحالة أبلغ تصوير خبرُ حذيفة، والرسول ﷺ يحسُّ حالة أصحابه، ويرى نفوسهم من داخلها، فيقول: (مَنْ رجل يقوم فينظر لنا ما فعل القوم ثمَّ يرجع - يشرط له رسول الله ﷺ الرجعة - أسأل الله تعالى أن يكون رفيقي في الجنة) [٤] ومع

---

(١) أي أنّه لم يجد البرد الذي يجده الناس، ولا من تلك الريح الشديدة شيئاً.

(٢) رواه مسلم.

(٣) زاد المعاد: ج٣/ ٢٤٤ - ٢٤٥.

(٤) هذا في رواية الإمام أحمد.

هذا الشرط بالرجعة، ومع الدعاء المضمون بالرفقة مع رسول الله في الجنة، فإنَّ أحداً لا يُلبّي النداء، فإذا عيّن بالاسم حذيفة قال: فلم يكن لي بُدَّ من القيام حين دعاني!، أَلَا إنَّ هذا لا يقع إلا في أقصى درجات الزلزلة.

ولكن كان إلى جانب الزلزلة، وزوغان الأبصار، وكرب الأنفاس، كان إلى جانب هذا كلّه الصلة التي لا تنقطع بالله، والإدراك الذي لا يضلُّ عن سنن الله، والثقة التي لا تتزعزع بثبات هذه السنن، وتحقق أواخرها متى تحققت أوائلها، ومن ثمَّ اتخذ المؤمنون من شعورهم بالزلزلة سبباً في انتظار النصر، ذلك أنّهم صَدّقوا قول الله سبحانه من قبل: (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب) وها هم أولاء يُزَلْزَلون، فنصر الله إذن منهم قريب، ومن ثمَّ قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً

هذا ما وعدنا الله ورسوله، هذا الهول، وهذا الكرب، وهذه الزلزلة، وهذا الضيق، وُعدنا عليه النصر، فلا بُدَّ أن يجيء النصر (وصدق الله ورسوله)، صدق الله ورسوله في الأمارة، وصدق الله ورسوله في دلالتها، ومن ثمَّ اطمأنت قلوبهم لنصر الله ووعد الله: ﴿وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾

لقد كانوا ناساً من البشر، لا يملكون أن يتخلصوا من مشاعر البشر، وضعف البشر، وليس مطلوباً منهم أن يتجاوزوا حدود جنسهم البشري، ولا أن يخرجوا من إطار هذا الجنس، ويفقدوا خصائصه ومميزاته، فلهذا خلقهم الله، خلقهم ليبقوا بشراً، ولا يتحولوا جنساً آخر، لا ملائكة ولا شياطين، ولا بهيمة ولا حجراً، كانوا ناساً من البشر يفزعون، ويضيقون بالشدة، ويُزَلْزَلون للخطر الذي يتجاوز الطاقة، ولكنَّهم كانوا - مع هذا - مرتبطين بالعروة الوثقى التي تشدهم إلى الله وتمنعهم من السقوط، وتجدد فيهم الأمل، وتحرسهم من القنوط، وكانوا بهذا

وذاك نموذجاً فريداً في تاريخ البشرية لم يعرف له نظير.[١]

استشهد من المسلمين في غزوة الخندق ثمانية من صحابة النبي ﷺ، أبرزهم سعد بن معاذ رضي الله عنه زعيم الأوس، كما هلك من المشركين أربعة فقط، فرغم طول الحصار وحجم الحملة الضخمة التي قادها المشركون على المدينة إلّا أنَّ غزوة الخندق، كانت أقل الغزوات قتلى، لأنَّه لم يحصل التحام مباشر بين الطرفين.

بعد فشل الأحزاب وانسحابهم ونهاية الحصار ومرور تلك الأزمة الخطيرة قال عليه الصلاة والسلام: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم» وهي عبارة تدلُّ على أنَّ معركة الأحزاب كانت نقطة تحوّل في الصراع بين المسلمين والمشركين، فالنبي ﷺ كان يعلم أنَّ قريشاً ومشركي العرب لن يستطيعوا أن يُحشّدوا ويجمعوا أكثر ممّا جمعوه في الأحزاب، بل إنَّهم لن يستطيعوا جمع ما جمعوه في الأحزاب مرة أخرى، كما أنَّه يُشير إلى تحوّل في استراتيجية النبي ﷺ بعد الخندق، ونهاية مرحلة الدفاع، وانتقال المسلمين إلى مرحلة الهجوم ضد قريش ومشركي العرب.

وهذا ما حصل بعد الخندق، حيث كانت آخر معركة تجري قريباً من مدينة النبي ﷺ، وكانت بداية النهاية لدولة قريش إنْ صحَّ التعبير، حيث انقلبت موازين القوى بعد الخندق لصالح المسلمين وانتقلت المعارك إلى ديار قريش ومشركي العرب، فكان فتح مكّة وحُنين وغزو الطائف كلّها في عقر ديار المشركين.

القرآن يتحدث عن غزوة الأحزاب

تحدَّث القرآن الكريم عن غزوة الأحزاب في سورة الأحزاب في سبع عشرة آية، من الآية التاسعة إلى الآية الخامسة والعشرين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الأَبْصَارُ

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأحزاب.

وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا وَإِذْ قَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْؤُولًا قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُوْلَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ولَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾، وقد فضح الله ﷻ المنافقين فتكلّم عنهم بتسع آيات من مجموع الآيات السبع عشرة.

غزوة بني قريظة

حين هُزِم الأحزاب وولَّوا مدبرين بعد أن أصابهم ما أصابهم قال ﷺ: «الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم» (١)، فرجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فلمّا كان الظهر، أتاه جبريل فقال: أَوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعتُ الآن إلا من طلب القوم، إنَّ الله ﷻ يأمرك يا محمد بالمسير إلى بني قريظة، فإنّي عامد إليهم فمزلزل بهم، فأمر رسول الله ﷺ مؤذناً، فأذن في الناس: من كان سامعاً مطيعاً، فلا يصلينَّ العصر إلا ببني قريظة، واستعمل على المدينة ابنَ أمِّ مكتوم، وقدَّم رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب برايته إلى بني قريظة، وابتدرها الناس، فسار علي بن أبي طالب، حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ، فرجع حتى لقي رسول الله ﷺ بالطريق، فقال: يا رسول الله، لا عليك أن لا تدنو من هؤلاء الأخابث، قال: لِمَ؟ أظنّك سمعت منهم لي أذى؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: لو رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً، فلمّا دنا رسول الله ﷺ من حصونهم، قال: يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته؟ قالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولاً.

ولمّا أتى رسول الله ﷺ بني قريظة، نزل على بئر من آبارها من ناحية أموالهم، يقال لها بئر أُنَا، وتلاحق به الناس، فأتى رجال منهم من بعد العشاء الآخرة، ولم يصلّوا العصر، لقول رسول الله ﷺ: (لا يصلينَّ أحد العصر إلا ببني قريظة) فشغلهم ما لم يكن منه بُدّ في حربهم، وأبوا أن يصلوا، لقول رسول الله ﷺ: حتى تأتوا بني قريظة. فصلّوا العصر بها، بعد العشاء الآخرة، فما عابهم الله بذلك في كتابه، ولا عنّفهم به رسول الله ﷺ (٢)

وصل النبي ﷺ في ثلاثة آلاف من المسلمين إلى حصون بني قريظة فحاصروها،

(١) صحيح البخاري.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢/ ١٨٠ - ١٨١.

وحين اشتدَّ على بني قريظة الأمر عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد ثلاث خصال فقال: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنّي عارض عليكم خلالاً ثلاثاً، فخذوا أيها شئتم، قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تبيّن لكم أنّه لنبي مرسل، وأنّه لّلذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم، قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثمَّ نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد، فإنْ نهلك نهلك، ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإنْ نظهر فلعمري لنجدنَّ النساء والأبناء، قالوا: نقتل هؤلاء المساكين فما خير العيش بعدهم؟، قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، فإن الليلة ليلة السبت، وإنّه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلنا نصيب من محمد وأصحابه غرّة ؛ قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونُحدِث فيه ما لم يُحدِث مَنْ كان قبلنا إلا مَنْ قد علمت، فأصابه ما لم يخفَ عليك من المسخ قال: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليلة واحدة من الدهر حازماً.[1]

ثمَّ إنَّهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ: أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف، وكانوا حلفاء الأوس، لنستشيره في أمرنا، فأرسله رسول الله ﷺ إليهم، فلمّا رأوه قام إليه الرجال، وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه، فرقَّ لهم، وقالوا له: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم، وأشار بيده إلى حلقه، إنّه الذبح، قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي من مكانهما حتى عرفت أنّي قد خنتُ الله ورسوله ﷺ، ثمَّ انطلق أبو لبابة على وجهه ولم يأتِ رسول الله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله عليَّ ممّا صنعت، وعاهد الله: أنْ لا أطأ بني قريظة أبداً، ولا أُرى في بلد خنتُ الله ورسوله فيه أبداً، فلمّا بلغ رسول الله ﷺ خبره، وكان قد استبطأه، قال: أما

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢/ ١٨١ - ١٨٢.

إنّه لو جاءني لاستغفرتُ له، فأمّا إذ قد فعل ما فعل فما أنا بالذي أُطلِقه من مكانه حتى يتوب الله عليه. [1]

قررّت قريظة النزول لحكم رسول الله ﷺ رغم تحذير أبي لبابة لهم، فأمر النبي ﷺ باعتقال الرجال، وجعل النساء والذراري في معزل عنهم، فتواثبت الأوس، فقالوا: يا رسول الله، إنّهم موالينا دون الخزرج، وقد فعلت في موالي إخواننا بالأمس ما قد علمت [2] فلمّا كلمته الأوس قال رسول الله ﷺ: ألا ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟ قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: فذاك إلى سعد بن معاذ، وكان رسول الله ﷺ قد جعل سعد بن معاذ في خيمة لامرأة من أسلم، يقال لها رفيدة، في مسجده، كانت تداوي الجرحى، وتحتسب بنفسها على خدمة من كانت به ضيعة من المسلمين، فلمّا حكّم رسول الله ﷺ سعداً في بني قريظة، أتاه قومه فحملوه على حمار قد وطئوا له بوسادة من أدم، وكان رجلاً جسيماً جميلاً، ثمَّ أقبلوا معه إلى رسول الله ﷺ وهم يقولون: يا أبا عمرو، أحسن في مواليك، فإنَّ رسول الله ﷺ إنّما ولّاك ذلك لتحسن فيهم، فلمّا أكثروا عليه قال: لقد آن لسعد أن لا تأخذه في الله لومة لائم، فرجع بعض مَنْ كان معه من قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة، قبل أن يصل إليهم سعد، عن كلمته التي سمع منه، فلمّا انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال رسول الله ﷺ قوموا إلى سيدكم، فقاموا إليه، فقالوا: يا أبا عمرو، إنَّ رسول الله ﷺ قد ولّاك أمر مواليك لتحكم فيهم، فقال سعد بن معاذ: عليكم بذلك عهد الله وميثاقه، أنَّ الحكم فيهم لِما حكمت؟ قالوا: نعم: وعلى من هاهنا؟ في الناحية التي فيها رسول الله ﷺ وهو مُعْرض عن رسول الله ﷺ إجلالاً له، فقال رسول الله ﷺ: نعم، قال سعد: فإنّي أحكم فيهم أن تُقتل الرجال، وتُقسّم الأموال، وتُسبى

(١) سيرة ابن هشام: ج٢/ ١٨٢ - ١٨٣.

(٢) يعنون بني قينقاع، وقد كان رسول الله ﷺ قد حاصرهم، وكانوا حلفاء الخزرج، فنزلوا على حكمه، فسأله إياهم عبد الله بن أبي ابن سلول، فوهبهم له.

الذراري والنساء، فقال رسول الله ﷺ: لسعد: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة [1]، ثمَّ خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة فخندق بها خنادق، ثمَّ بعث إليهم، فضرب أعناقهم في تلك الخنادق، يخرج بهم إليه أرسالاً، وفيهم عدو الله حيي بن أخطب، وكعب بن أسد، رأس القوم، وهم ستمائة أو سبعمائة، والمكثر لهم يقول: كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة، وقد قالوا لكعب بن أسد، وهم يُذهب بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالاً: يا كعب، ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع، وأنّه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل، فلم يزل ذلك الدأب حتى فرغ منهم رسول الله ﷺ.

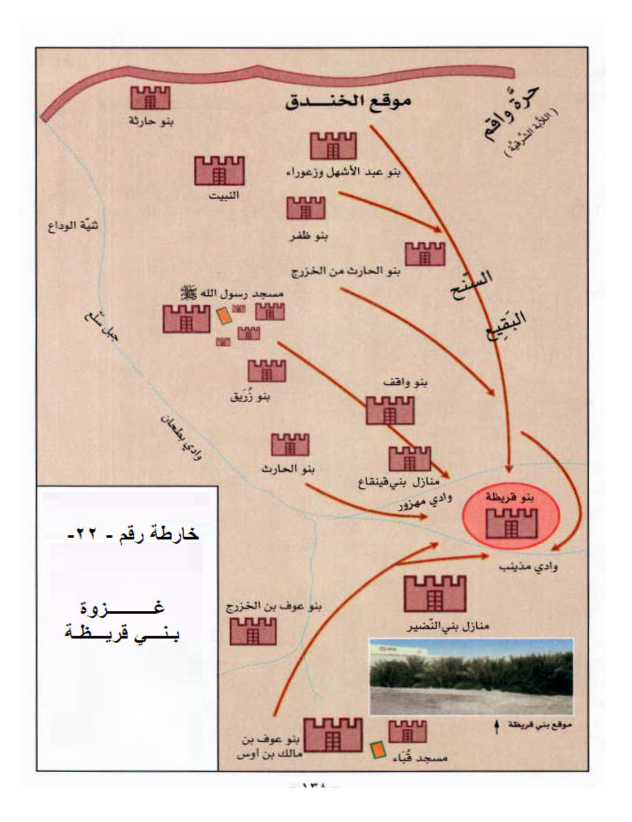
وأُتي بعدو الله حيي بن أخطب، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، فلمّا نظر إلى رسول الله ﷺ، قال: أَمَا والله ما لمت نفسي في عداوتك، ولكنَّه مَنْ يَخْذُل الله يُخْذَل، ثمَّ أقبل على الناس فقال: أيها الناس، إنّه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل، ثمَّ جلس فضُرِبَت عنقُه.

قسّم النبي ﷺ أموال بني قريظة ونساءهم وأولادهم على المسلمين بعد أن أخرج الخمس، فأعطى للفارس ثلاثة أسهم وللراجل سهم، وبعث مع سعد بن زيد الأنصاري سبايا من بني قريظة إلى نجد فاشترى بهم خيلاً وسلاحاً، واصطفى عليه السلام من نسائهم ريحانة بنت زيد، فعرض عليها الإسلام فامتنعت ثمَّ أسلمت بعد ذلك، وفرح النبي ﷺ بإسلامها، وعرض عليها أن يُعتِقها ويتزوجها فاختارت ان تبقى على الرق ليكون أسهل عليها، وبقيت عنده إلى أنْ توفي عليه الصلاة السلام. [2]

---

(١) أي: سموات.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ١٨٤ - ١٨٨.



وفاة سعد بن معاذ رضي الله عنه

أجاب الله دعوة سعد بن معاذ وأقرَّ عينه ببني قريظة، وحين انتهى أمرهم انتقضت جراحته، تقول عائشة رضي الله عنها: فانفجرت من لَبَّتِهِ فلم يَرُعْهُمْ وفي المسجد خيمة من بني غفار إلّا والدم يسيل إليهم، فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الذي يأتينا من قِبَلكم، فإذا سعد يغذو جرحه دماً، فمات منها .

روي في الصحيحين عن جابر أنَّ رسول الله ﷺ قال : اهتزَّ عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ [١]، وصحَّح الترمذي من حديث أنس قال: لمّا حُمِلَت جنازة سعد بن معاذ قال المنافقون: ما أخف جنازته، وذلك لحكمه في بني قريظة، فقال رسول الله ﷺ : لا، إنَّ الملائكة كانت تحمله.

(١) قال الحافظ ابن حجر في الفتح: والمراد باهتزاز العرش استبشاره وسروره بقدوم روحه، يقال لكل من فرح بقدوم قادم عليه اهتز له.

وقالت أمُّ سعد حين احتُمِل سعد على نعشه تندبه:

ويل أمَّ سعد سعدا ... صرامة وحدّا
وسؤددا ومجدا ... وفارساً مُعدّا
سدَّ به مسدّا ... يقدّها ما قدّا

فقال رسول الله ﷺ: كل نائحة تكذب إلّا نائحة سعد بن معاذ.

نزول التوبة على أبي لُبابة

وأمّا أبو لُبابة، فأقام مرتبطاً بالجذع ست ليال، تأتيه امرأته في وقت كل صلاة فَتَحُلُّهُ للصلاة، ثمَّ يعود فيرتبط بالجذع، ثمَّ نزلت توبته على رسول الله ﷺ من السَحَر، وهو في بيت أم سلمة، فسمعت أمُّ سلمة رسولَ الله ﷺ وهو يضحك، فقالت: ممَّ تضحك يا رسول الله؟ أضحك الله سنَّك، قال: تيب على أبي لبابة، قالت: أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال: بلى، إنْ شئتِ، فقامت على باب حجرتها، وذلك قبل أن يُضرب عليهنَّ الحجاب، فقالت: يا أبا لبابة، أبشر فقد تاب الله عليك، فثار الناس إليه ليطلقوه فقال: لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذي يطلقني بيده؛ فلمّا مرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجاً إلى صلاة الصبح أطلقه.[1]

مقتل سلّام بن أبي الحُقَيق «أبو رافع»

لمّا فرغ المسلمون من أمر بني قريظة استأذن رجال من الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلّام بن أبي الحقيق، والذي كان من أبرز اليهود الذين حرّضوا وجمعوا الأحزاب ضد النبي ﷺ، وأعانوهم بالأموال، فأَذِن لهم رسول الله ﷺ، حيث كان الخزرج يسعون لإحراز منقبة وفضيلة كفضيلة الأوس الذين اغتالوا كعب بن الأشرف، حيث كانت الأوس والخزرج يتسابقون في فعل الخير وإرضاء رسول الله ﷺ والذود عنه.

---

(١) سيرة ابن هشام: ج٢/ ١٨٣.

روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب رضي الله عنهما قال: بعث رسول الله ﷺ رهطاً إلى أبي رافع فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلاً وهو نائم فقتله.

وروى البخاري عن عبدالله بن عتيك رضي الله عنه وهو يحدّث عن مقتل أبي رافع، قال: فجعلتُ أفتح الأبواب باباً باباً حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا أرى أنّي قد انتهيت إلى الأرض، فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقي، فعصبتها بعمامة ثمَّ انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلتُه؟، فلمّا صاح الديك قام الناعي على السور فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابي فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيتُ إلى النبي ﷺ فحدثته، فقال: ابسط رجلك فبسطت رجلي فمسحها فكأنّها لم أشتكها قط. (١)

ومن أحداث السنة الخامسة

١- تزوَّج النبي ﷺ بأمِّ حبيبة رملة بنت أبي سفيان رضي الله عنها.

٢- تزوَّج النبي ﷺ بزينب بنت جحش رضي الله عنها.

٣- نزول فرض الحجاب، وذلك بعد إشارة عمر بن الخطاب على النبي ﷺ بذلك، يقول عمر رضي الله عنه: قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب. (٢)

---

(١) ذكر ابن هشام أنَّ الذي قتله كان عبدالله بن أنيس، وأنَّ عبدالله بن عتيك كان قائد السرية التي أرسلها رسول الله ﷺ لقتل أبي رافع.

(٢) رواه البخاري.

السنة السادسة من الهجرة

الآن نغزوهم ولا يغزوننا [(١)]

تغيّرت موازين القوى في الجزيرة العربية بعد غزوة الخندق لصالح المسلمين، ويئست قريش من النجاح بأي عمل عسكري تقوم به ضد المسلمين بعد فشلها في الخندق، فلجأت الدولة الإسلامية إلى توسيع عملياتها العسكرية التعرّضية، حيث أقدم النبي ﷺ على القيام بخمسة عشر عملاً عسكرياً هجومياً في هذه السنة، كان منها غزوتان قادهما بنفسه، وأرسل ثلاث عشرة سرية ليضيّق الخناق الاقتصادي على قريش من جديد، ويعاقب المشركين الذين شاركوا في الأحزاب، ويثأر من القبائل التي كانت قد غدرت بالقُرّاء من الصحابة «رضي الله عنهم».

وتمثّلت العمليات العسكرية للدولة الإسلامية في هذه السنة بما يلي:

١ - سريّة محمد بن مسلمة:

مثَّلت عشائر نجد العمود الفقري لجيش الأحزاب الذي هاجم المدينة، فكان النجديون أغلبية جيش الأحزاب، حيث شارك ستة آلاف مقاتل من غطفان وأشجع وأسلم وفزارة وأسد، وقد كانت العشائر النجدية عموماً من أكثر العشائر عداءً للمسلمين وجرأة عليهم، ولذلك وبعد انخذال المشركين في الأحزاب بدأ رسول الله ﷺ حملة تأديبية استهدفت جُلَّ من شاركوا في جيش المشركين في الأحزاب، ومَنْ أعانهم، وكانت البداية ببني قريظة ثمَّ بعد ذلك تبعتها حملة عسكرية وجّهها ﷺ لتأديب قبائل نجد من بني بكر بن كلاب الذين كانوا يسكنون على مسافة سبع ليال من المدينة في القُرطاء بناحية ضرية، وكان هذا في أوائل المحرم سنة ست للهجرة بعد الانتهاء مباشرة من الحملة العسكرية ضد بني قريظة، وبعد عملية الإعدام الجماعي التي نفّذها رسول الله ﷺ في رجال بني قريظة.

---

(١) رواه البخاري.

أرسل رسول الله ﷺ محمّد بن مسلمة في ثلاثين مقاتلاً لشنِّ الغارة على قبيلة بكر بن كلاب، فهاجمهم المسلمون وقتلوا منهم عشرة، وغَنِمُوا إبلهم وماشيتهم بعد أن فرَّ الباقون.

وفي طريق عودتهم أسروا ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة وهم لا يعرفونه، فقدموا به المدينة وربطوه بسارية من سواري المسجد، روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بعث النبي ﷺ خيلاً قِبَلَ نجد فجاءت برجل من بني حنيفة يقال له ثُمامة بن أثال، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي خير يا محمد، إنْ تقتلني تقتل ذا دم، وإنْ تُنْعم تُنْعم على شاكر، وإنْ كنت تريد المال فسَلْ منه ما شئت، فتُرك حتى كان الغد، ثمَّ قال له: ما عندك يا ثمامة؟ قال: ما قلت لك، إنْ تُنْعم تُنْعم على شاكر، فتركه حتى كان بعد الغد فقال: ما عندك يا ثمامة؟ فقال: عندي ما قلت لك، فقال: أطلقوا ثمامة، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثمَّ دخل المسجد فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، يا محمّد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحبّ الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، والله ما كان من بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبح بلدك أحبّ البلاد إليَّ، وإنَّ خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى، فبشَّره رسول الله ﷺ وأَمَره أن يعتمر، فلمّا قَدِم مكة قال له قائل: صبوت؟، قال: لا، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة حتى يأذن فيها النبي ﷺ.[1]

٢- غزوة بني لحيان:

بعد أن غدر بنو لحيان بصحابة رسول الله ﷺ في بعث الرجيع، وقتلوهم، لم يستطع رسول الله ﷺ وقتها أخذ ثأر أصحابه منهم لأنَّ ديارهم كانت متوغلة في

---

(١) متفق عليه.

الحجاز إلى حدود مكّة، وقريبة من قريش والأعراب الذين كانوا على عداوة شديدة مع النبي ﷺ فرأى ﷺ أن يؤجّل حسابهم إلى أن تأتي الفرصة المناسبة، فلمّا انخذل الأحزاب رأى ﷺ أنَّ الوقت أصبح مناسباً للأخذ بثأر أصحاب الرجيع من بني لحيان، فخرج ﷺ في ربيع الأول أو جمادي الأولى سنة ست للهجرة في مائتين من أصحابه، وأظهر أنَّه يقصد الشام، ثمَّ سار حتى انتهى إلى بطن غران حيث كان مصاب أصحابه ﷺ في الرجيع فدعا لهم وترحّم عليهم.

ولمّا سمعت بنو لحيان بقدومه ﷺ هربوا إلى رؤوس الجبال فأقام يومين في أرضهم وبعث السرايا، لكنَّهم لم يقدروا على أحد منهم، ثمَّ سار إلى عُسفان وبعث عشرة فوارس من صحابته إلى كراع الغميم لتسمع به قريش ثمَّ عاد إلى المدينة.

٣- سريّة عُكاشة بن محصن إلى الغمر:

كانت هذه السرية في ربيع الأول أو ربيع الآخر سنة ٦ هـ، حيث أرسل رسول الله ﷺ أربعين من الصحابة بقيادة عُكاشة بن محصن إلى الغمر - ماء لبني أسد -، فهربوا واغتنم المسلمون مائتي بعير

٤- سريّة محمد بن مسلمة إلى ذي القصّة:

بعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة في عشرة نفر إلى بني ثعلبة، فكمن القوم لهم حتى ناموا، فقُتل أصحاب محمد بن مسلمة كلّهم، وأفلت هو جريحاً.

٥- سريّة أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصّة:

كانت هذه السريّة في ربيع الآخر سنة ٦ هـ، حيث أرسل النبي ﷺ أربعين من أصحابه بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، على إثر مقتل أصحاب محمّد بن مسلمة، فأغاروا على بني ثعلبة، فهربوا نحو الجبال، وأصاب المسلمون رجلاً واحداً فأسلم، وغنموا وعادوا إلى المدينة.



٦- سريّة زيد بن حارثة إلى الجَمُوم:

كانت هذه السريّة في ربيع الآخر سنة ٦ هـ، حيث أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في نفرٍ من أصحابه إلى الجَمُوم وهو ماء لبني سُليم في مرّ الظهران، فأصابوا امرأة يقال لها حليمة، فدلّتهم على محلّة لبني سُليم فأغار عليها المسلمون وأصابوا فيها نَعماً وشاءً وأسرى، ثمَّ عادوا إلى المدينة، ووهب رسول الله ﷺ للمرأة نفسها وزوجها.

٧- سريّة زيد بن حارثة إلى العيص:

كانت هذه السريّة في جمادى الأولى سنة ٦ هـ، حيث أرسل رسول الله ﷺ مائة وسبعين راكباً من أصحابه بقيادة زيد بن حارثة رضي الله عنه، حيث اعترضوا أموالاً لقريش في عير يقودها أبو العاص ختن رسول الله ﷺ، ونجا أبو العاص فأتى زوجه زينب

فاستجار بها وطلب منها أن تسأل والدها رسول الله ﷺ أن يعيد له أموال العير ففعلت، فأشار رسول الله ﷺ على أصحابه أن يردّوا الأموال إن شاؤوا ففعلوا ورجع أبو العاص بالمال إلى مكّة، وأدّى ودائع أهل مكة، ثمَّ هاجر إلى النبي ﷺ وأسلم، وردَّ له رسول الله ﷺ زوجته زينب بالنكاح الأول.

٨- سريّة زيد بن حارثة إلى الطرف:

في جمادي الآخر سنة ٦ هـ أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في خمسة عشر رجلاً إلى بني ثعلبة، فهربوا، وأصاب زيد من نعمهم عشرين بعيراً وعاد إلى المدينة.

٩- سريّة زيد بن حارثة إلى وادي القرى:

في رجب سنة ٦ هـ، أرسل رسول الله ﷺ زيد بن حارثة في اثني عشر رجلاً إلى وادي القرى، لاستطلاع المنطقة وملاحظة إن كان هناك تحركات للعدو فيها، فهاجمهم سكان وادي القرى، وقتلوا تسعة من أصحاب رسول الله ﷺ ونجا ثلاثة منهم زيد بن حارثة.



خارطة رقم - ٢٤ -
سرايا زيد بن حارثة
إلى الجموم والعيص والطرف
ووادي القرى وحِسمى

١٠- سريّة أبي عبيدة إلى سيف البحر (سرية الخَبَط [١]):

عن جابر «رضي الله عنه» قال: بَعَثَنا رسول الله ﷺ وأمَّر علينا أبا عبيدة نتلقى عيراً لقريش، وزوَّدنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره، فكان أبو عبيدة يعطينا تمرة تمرة، فقيل له: كيف كنتم تصنعون بها؟، قال: نمصها كما يمصُّ الصبي، ثمَّ نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل، وكنّا نضرب بعصينا الخبط ثمَّ نبلّه بالماء، فنأكله، قال: وانطلقنا على ساحل البحر، فرُفِعَ لنا على ساحل البحر كهيئة الكثيب الضخم، فأتيناه، فإذا هي دابة تدعى العنبر، قال: قال أبو عبيدة: ميتة، ثمَّ قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ وفي سبيل الله، وقد اضطررتم فكُلُوا، قال: فأقمنا عليه شهراً، ونحن ثلاثمائة حتى سمنّا، قال: ولقد رأيتنا نغترف من وقب عينه بالقلال الدهن، ونقتطع منه الفدر كالثور أو كقدر الثور، فلقد أخذ منّا أبو عبيدة ثلاثة عشر رجلاً، فأقعدهم في وقب عينه، وأخذ ضلعاً من أضلاعه فأقامها ثمَّ رحّل أعظم بعير معنا، فمرَّ من تحتها، وتزودنا من لحمه وشائق، فلمّا قدمنا المدينة أتينا رسول الله ﷺ فذكرنا ذلك له، فقال: هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟، قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه فأكله. [٢]

١١- سريّة عبدالرحمن بن عوف إلى دومة الجندل:

في شعبان سنة ٦ هـ أرسل رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف في سريّة إلى دومة الجندل، وجاء عبد الرحمن وقد اعتمَّ بعمامة من كرابيس [٣] سوداء، فأدناه النبي ﷺ ثمَّ نقضه وعمَّمه بعمامة بيضاء، وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحو ذلك وقال: هكذا يا ابن عوف اعتمَّ فإنَّه أعرب وأحسن، ثمَّ قال له: إنْ هم أطاعوا فتزوّج بنت ملكهم، فأسلم القوم، وتزوّج عبد الرحمن بن عوف بنت ملكهم

قلت: كان النبي ﷺ وصحابته «رضي الله عنهم» يلبسون العمائم، وكانوا يسدلونها بين

(١) الخَبَط: ورق الشجر.

(٢) متفق عليه.

(٣) ثوب غليظ من القطن.

أكتافهم، أي يرخونها أو يسبلونها، فعن نافع عن ابن عمر قال: كان رسول الله ﷺ إذا اعتمَّ سدل عمامته بين كتفيه، وكان ابن عمر يسدل عمامته بين كتفيه [1]، وكان السلف يلبسون العمائم، ولم تكن شعاراً للعلماء ولا لطلبة العلم فقط كما هو الحال اليوم، حيث أصبح لبس العمائم مقتصراً على أئمة وخطباء المساجد وغيرهم ممّن يُنسَب إلى العلم الشرعي، بينما يلبس البعض الآخر ممّن يُنسب إلى العلم أو الفضل الشماغ أو الغترة من غير عقال، ونحن لا ندري من أين جاؤوا بهذا!!، فهذه بدعة قبيحة، فلا هي عمامة، ولا هي قلنسوة، ولا هي عادة أهل البلد، ناهيك عن أنَّها تشغل المسلم في الصلاة، فتراه يتحرّك كثيراً منشغلاً بتعديل الشماغ أو الغترة، ومعلوم أنَّ كثرة الحركة في الصلاة دون حاجة قد تبطل الصلاة.

فمَنْ أراد أن يضع شيئاً على رأسه فليعتم تأسياً بالنبي ﷺ والصحابة، أو ليلبس القلنسوة، أو ليلبس ما هو عادة أهل البلد، وإلّا يبقى حاسر الرأس ولا يبتدع شيئاً من عندياته.

١٢- سريّة علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك:

في شعبان سنة ٦ هـ، أرسل رسول الله ﷺ علياً إلى بني سعد بن بكر في مائتي رجل، وذلك أنّه بلغه أنَّ بها جمعاً يريدون أنْ يُمدّوا اليهود، فكان عليٌ يسير الليل ويَكْمن النهار، فأسر المسلمون عيناً للمشركين، فاعترف بأنَّهم أرسلوه إلى يهود خيبر يعرض عليهم نصرتهم على أن يجعلوا لهم تمر خيبر، كما دلَّهم على موضع تجمّع بني سعد فأغار عليهم المسلمون، لكنّهم هربوا، واغتنم المسلمون خمسمائة بعير وألفي شاة.

١٣- سريّة أبي بكر الصديق إلى وادي القرى:

كانت هذه السريّة في رمضان سنة ٦ هـ، حيث أرسل رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق إلى فزارة التي كانت تريد اغتيال النبي ﷺ، قال سلمة بن الأكوع: وخرجت

(١) رواه الترمذي.

معه، حتى إذا صلّينا الصبح أَمَرَنا فشَنَنَّا الغارة، فوردنا الماء، فقَتَلَ أبو بكر مَنْ قَتَل، ورأيت طائفة وفيهم الذراري، فخشيت أن يسبقوني إلى الجبل فأدركتهم، ورَمَيْتُ بسهم بينهم وبين الجبل، فلمّا رأوا السهم وقفوا، فيهم امرأة هي أمُّ قرفة عليها قشع من أديم، معها ابنتها من أحسن العرب، فجئت بهم أسوقهم إلى أبي بكر، فنفلني أبو بكر ابنتها، فلم أكشف لها ثوباً، وقد سأله رسول الله ﷺ بنت أم قرفة، فبعث بها إلى مكة، وفدى بها أسرى من المسلمين هناك.

وكانت أم قرفة هذه تسعى لاغتيال النبي ﷺ وأعدَّت ثلاثين فارساً من أهل بيتها لذلك، فردَّ الله كيدها وقُتل الثلاثون.

١٤- سريّة كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين

عن أنس بن مالك «رضي الله عنه» قال: إنَّ ناساً من عرينة قدموا على رسول الله ﷺ المدينة فاجتووها [١] فقال لهم رسول الله ﷺ: إن شئتم أن تخرجوا إلى إبل الصدقة فتشربوا من ألبانها وأبوالها، ففعلوا فصحوا، ثمَّ مالوا على الرعاة فقتلوهم، وارتدوا عن الإسلام، وساقوا ذود رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك النبي ﷺ فبعث في أَثرهم، فأُتيَ بهم، فقطع أيديهم وأرجلهم وسمّل أعينهم، وتركهم في الحرّة حتى ماتوا. [٢]

١٥ - غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع

كان سبب الغزوة أنَّ الحارث بن أبي ضرار [٣] جمع قومه ومَنْ قَدِر عليه من العرب يريد حرب رسول الله ﷺ، فلمّا سمع بذلك رسول الله خرج إليهم في شعبان سنة ست من الهجرة على أصح الأقوال، واستعمل على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: نميلة بن عبدالله الليثي، وقيل أبا ذر، وكان الحارث قد بعث عيناً ليأتيه بخبر رسول الله ﷺ ومَنْ معه، فأسره المسلمون وقتلوه، ووصل رسول الله ﷺ إلى

(١) استوخموها.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٣) والد أمِّ المؤمنين جويرية بنت الحارث.

المُرَيسيع [١]، وتجهّز للقتال، وصفَّ أصحابه، وأعطى راية المهاجرين لأبي بكر الصديق، وراية الأنصار لسعد بن عبادة، ثمَّ اقتتل الفريقان فكان النصر للمسلمين، وانهزم المشركون، وسبى رسول الله ﷺ النساء والذراري، ولم يُقتَل من المسلمين إلا رجل واحد خطأً، حيث قتله أحد الأنصار ظنّاً منه أنَّه من العدو، وقيل إنَّه لم يكن بينهم قتال وإنّما أغار عليهم على الماء فسبى ذراريهم وأموالهم، فالله اعلم.

زواج النبي ﷺ من جويرية بنت الحارث

وكان رسول الله ﷺ قد أصاب من بني المصطلق سبياً كثيراً، فشا قَسَمه في المسلمين، وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، زوج رسول الله ﷺ.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا قسّم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وكانت امرأة حلوة مُلّاحة [٢]، لا يراها أحدٌ إلا أخذت بنفسه، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه في كتابتها، قالت عائشة: فوالله ما هو إلا أنْ رأيتها على باب حجرتي فكرهتها، وعرفت أنَّه سيرى منها ﷺ ما رأيت، فَدَخَلَتَ عليه فقالت: يا رسول الله، أنا جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار سيّد قومه، وقد أصابني من البلاء ما لم يخفَ عليك، فوقعتُ في السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له، فكاتبته على نفسي، فجئتك أستعينك على كتابتي، قال: فهل لك في خير من ذلك؟ قالت: وما هو يا رسول الله؟ قال: أقضي عنك كتابتك وأتزوجك، قالت: نعم يا رسول الله، قال: قد فعلت، قالت: وخرج الخبر إلى الناس أنَّ رسول الله ﷺ قد تزوّج جويرية بنت الحارث بن أبي ضرار، فقال الناس: أصهار رسول الله ﷺ، وأرسلوا ما بأيديهم،

---

(١) اسم لماء من مياههم.
(٢) إذا بالغوا في المدح.

قالت: فلقد أُعتِق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بني المصطلق، فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركةً منها.

قال ابن كثير: وذكر موسى بن عقبة عن بني المصطلق أنَّ أباها طلبها وافتداها ثمَّ خطبها منه رسول الله ﷺ فزوَّجه إياها. اهـ



خارطة رقم - ٢٥ -

غزوة بني المصطلق
(المُرَيسيع)
شعبان ٥ هـ

دور المنافقين في غزوة بني المصطلق

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنّا في غزاة في جيش، فَكَسَعَ (١) رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين، فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: ما بال دعوى الجاهلية؟، قالوا: يا رسول الله، كَسَعَ رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال: دعوها فإنّها منتنة، فسمع بذلك عبد الله بن أبي فقال: فعلوها!، أَمَا والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله، دعني أضرب عنق

(١) أي: ضرب دُبُرَه بيده أو بصدر قدمه.

هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: دعه، لا يتحدث الناس أنَّ محمّداً يقتل أصحابه [١].

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنتُ في غزاة فسمعت عبد الله بن أُبيْ يقول: لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضّوا من حوله، ولئن رجعنا من عنده ليُخرجنَّ الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمّي فذكره للنبي ﷺ، فدعاني فحدّثته، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبيْ وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فكذّبني رسول الله ﷺ وصدَّقه، فأصابني همٌّ لم يصبني مثله قط، فجلست في البيت، فقال لي عمّي: ما أردت إلى أن كَذَّبك رسول الله ﷺ ومَقَتَك، فأنزل الله تعالى ﴿إذا جاءك المنافقون﴾ فبعث إليّ النبي ﷺ فقرأ فقال: إنّ الله قد صدّقك يا زيد [٢].

ثمَّ أذّن منادي النبي ﷺ بالرحيل، ولمّا استقل رسول الله ﷺ وسار، لقيه أسيد بن حضير، فحيّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثمَّ قال: يا نبي الله، والله لقد رُحتَ في ساعة مُنْكَرَة، ما كنت تروح في مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: أو ما بلغك ما قال صاحبكم؟ قال: وأيُّ صاحب يا رسول الله؟ قال: عبد الله بن أبي، قال: وما قال؟ قال: زعم أنّه إن رجع إلى المدينة ليخرجنَّ الأعز منها الأذل، قال: فأنت يا رسول الله والله تُخرِجُه منها إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثمَّ قال: يا رسول الله، ارفق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لينظمون له الخرز ليتوّجوه، فإنَّه ليرى أنَّك قد استلبته ملكاً.

ثمَّ مشى رسول الله ﷺ بأصحابه ذلك اليوم حتى أمسوا، وواصل المسير في الليل حتى أصبحوا، ثمَّ واصل المسير صدر اليوم حتى آذتهم الشمس، ثمَّ نزل بالناس فوقعوا نياماً من شدّة التعب، وإنّما فعل رسول الله ﷺ ذلك ليشغلهم عن الحديث.

ونزلت السورة التي ذكر الله فيها المنافقين في ابن أُبيْ ومَنْ كان على مثل أمره،

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

فلمّا نزلت أخذ رسول الله ﷺ بأذن زيد بن أرقم، ثمَّ قال: هذا الذي أوفى الله بأذنه.

موقف عبدالله بن عبدالله بن أُبيْ مِنْ أبيه

وبلغ عبدَالله بن عبدِالله بن أُبيْ الذي كان من أمر أبيه، فأتى رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنَّه بلغني أنَّك تريد قتل عبد الله بن أُبيْ فيما بلغك عنه، فإن كنت لا بُدَّ فاعلاً فمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد عَلِمَت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منّي، وإنّي أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أنظر إلى قاتل عبد الله بن أُبيْ يمشي في الناس، فأقتله، فأقتل رجلاً مؤمناً بكافر فأدخل النار، فقال رسول الله ﷺ: بل نترفق به، ونحسن صحبته ما بقي معنا.

وذكر ابن كثير أنَّ عبدالله رضي الله عنه وقف لأبيه عبدالله بن أُبيْ عند مضيق المدينة فقال: قِفْ، فوالله لا تدخلها حتى يأذن رسول الله ﷺ في ذلك، فلمّا جاء رسول الله ﷺ استأذنه في ذلك فأَذِنَ له، فأرسله حتى دخل المدينة.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: هذا عبد الله بن أُبيْ بن سلول، يعيش بين المسلمين، قريباً من رسول الله ﷺ تتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصِدْقِ هذا الرسول، ولكنَّ الله لا يهدي قلبه للإيمان، لأنّه لم يكتب له هذه الرحمة وهذه النعمة، وتقف دونه ودون هذا الفيض المتدفق من النور والتأثير، تقف دونه إحنة في صدره أن لم يكن ملكاً على الأوس والخزرج بسبب مقدم رسول الله ﷺ بالإسلام إلى المدينة! فتكفّه هذه وحدها عن الهدى الذي تواجهه دلائله من كل جانب، وهو يعيش في فيض الإسلام ومدّه في يثرب!.

وهذا ابنه عبد الله رضي الله عنه وأرضاه نموذج رفيع للمسلم المتجرد الطائع، يشقى بأبيه ويضيق بأفاعيله ويخجل من مواقفه، ولكنّه يُكِنُّ له ما يكنّه الولد البار العطوف، ويسمع أنَّ رسول الله ﷺ يريد أن يقتل أباه هذا، فيختلج قلبه بعواطف ومشاعر متباينة، يواجهها هو في صراحة، وفي قوة، وفي نصاعة، إنّه يحبُّ الإسلام، ويحبُّ

طاعة رسول الله ﷺ ويحبُّ أن ينفذ أمره ولو في أبيه، ولكنّه لا يطيق أن يتقدم أحدٌ فيضرب عنق أبيه ويظلّ يمشي على الأرض بعده أمام ناظريه، وهو يخشى أن تخونه نفسه، وألّا يقدر على مغالبة شيطان العصبية، وهتاف الثأر، وهنا يلجأ إلى نبيّه وقائده ليعينه على خلجات قلبه، ويرفع عنه هذا العَنَتَ الذي يلاقيه، فيطلب منه إن كان لا بُدَّ فاعلاً أن يأمره هو بقتل أبيه، وهو لا بُدَّ مطيع، وهو يأتيه برأسه، كي لا يتولى ذلك غيره، فلا يطيق أن يرى قاتل أبيه يمشي على الأرض فيقتله فيقتل مؤمناً بكافر، فيدخل النار.

وإنَّها لروعةٌ تواجه القلب أينما اتجه، وأينما قلَّب النظر في هذا الموقف الكريم، روعة الإيمان في قلب إنسان وهو يعرض على رسول الله ﷺ أن يَكِل إليه أشقَّ عمل على النفس البشرية - أن يقتل أباه - وهو صادق النية فيما يعرض، يتّقي به ما هو أكبر في نظره وأشق، وهو أن تضطره نوازعه البشرية إلى قتل مؤمن بكافر، فيدخل النار، وروعة الصدق والصراحة وهو يواجه ضعفه البشري تجاه أبيه وهو يقول: «فو الله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده مني»، وهو يطلب من نبيّه وقائده أن يعينه على هذا الضعف ويخرجه من هذا الحرج، لا بأن يردّ أمره أو يغيره - فالأمر مطاع والإشارة نافذة - ولكن بأن يَكِلَ إليه هو أن يأتيه برأسه!.

والرسول الكريم يرى هذه النفس المؤمنة المُحْرَجة، فيمسح عنها الحرج في سماحة وكرامة: بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا، ومن قبل هذا يكفُّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن رأيه: فكيف يا عمر إذا تحدَّث الناس أنَّ محمّداً يقتل أصحابه؟

ثمَّ تصرّفُ الرسول ﷺ في الحادث تصرّفُ القائد الملهم الحكيم، وأَمْرُه بالسير في غير أوان، ومتابعة السير حتى الإعياء، ليصرف الناس عن العصبية المنتنة التي أثارها صياح الرجلين المتقاتلين: يا للأنصار، يا للمهاجرين، وليصرفهم كذلك عن الفتنة التي أطلقها المنافق عبدالله بن أبي بن سلول، وأرادها أن تُحرِق ما بين الأنصار والمهاجرين من مودة وإخاء فريدين في تاريخ العقائد وفي تاريخ الإنسان، وحديث

الرسول ﷺ مع أسيد بن حضير، وما فيه من تعبئة روحية ضد الفتنة، واستجاشة للأخذ على يد صاحبها وهو صاحب المكانة في قومه حتى بعد الإسلام.

وأخيراً نقف أمام المشهد الرائع الأخير، مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أُبيْ، وهو يأخذ بسيفه مدخل المدينة على أبيه فلا يدعه يدخل، تصديقاً لمقاله هو: ﴿لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ﴾ ليعلم أنَّ رسول الله هو الأعزُّ، وأنّه هو الأذلُّ، ويظل يقفُه حتى يأتي رسول الله ﷺ فيأذن له، فيدخلها بإذنه، ويتقرر بالتجربة الواقعة من هو الأعزُّ ومن هو الأذلُّ، في نفس الواقعة وفي ذات الأوان.

أَلَا إنَّها لقمّةٌ سامقة تلك التي رفع الإيمان إليها أولئك الرجال، رفعهم إلى هذه القمّة، وهم بعدُ بشر، بهم ضعف البشر، وفيهم عواطف البشر، وخوالج البشر، وهذا هو أجمل وأصدق ما في هذه العقيدة، حين يدركها الناس على حقيقتها، وحين يصبحون هم حقيقتها التي تدب على الأرض في صورة أناسي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق [١].

وجعل ابن أُبيْ بعد ذلك إذا أحدث الحَدَثَ كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنّفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر؟، أَمَا والله لو قتلتُه يوم قلتَ لي اقتلْه لأرعدت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لَقَتَلَته، قال عمر: قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري.

شأن الوليد بن عقبة مع بني المصطلق بعد إسلامهم

ثم إنَّ رسول الله ﷺ بعث إلى بني المصطلق بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبي معيط، فلمّا سمعوا به ركبوا إليه، فلمّا سمع بهم هابهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره أنَّ القوم قد همُّوا بقتله، ومنعوه ما قِبَلهم من صُدقهم، فأكْثَرَ المسلمون في ذكر غزوهم، حتى همَّ رسول الله ﷺ بأنْ يغزوهم، فبينا هم على ذلك قدم وفدهم

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة المنافقون.

على رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، سمعنا برسولك حين بعثته إلينا، فخرجنا إليه لِنُكْرِمَه، ونؤدّي إليه ما قِبَلَنا من الصدقة، فانشمر [1] راجعاً، فبلغنا أنّه زعم لِرسول الله ﷺ أنّا خرجنا إليه لنقْتُلَه، ووالله ما جئنا لذلك، فأنزل الله تعالى فيه وفيهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

حادثة الإفك

عن عائشةؓ قالت: كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين نسائه، فأيتهنَّ خرج سهمها خرج بها معه، فلمّا كانت غزوة بني المصطلق أقرع بين نسائه، كما كان يصنع، فخرج سهمي عليهنَّ معه، فخرج بي رسول الله ﷺ.

وكنت إذا رَحَل لي بعيري جلست في هودجي [2]، ثمَّ يأتي القوم الذين يُرَحِّلون لي ويحملونني، فيأخذون بأسفل الهودج، فيرفعونه، فيضعونه على ظهر البعير، فيشدّونه بحباله، ثمَّ يأخذون برأس البعير، فينطلقون به.

قالت: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من سفره ذلك، وجّه قافلاً، حتى إذا كان قريباً من المدينة، نزل منزلاً، فبات به بعض الليل، ثم أذّن في الناس بالرحيل، فارتحل الناس، وخرجتُ لبعض حاجتي، وفي عُنُقي عقْد لي، فيه جزع ظفار [3]، فلمّا فرغت انسلَّ من عُنُقي ولا أدري، فلمّا رجعت إلى الرحل ذهبت ألتمسه في عُنُقي، فلم أَجِدْه، وقد أخذ الناس في الرحيل، فرجعتُ إلى مكاني الذي ذهبت إليه، فالتمستُه حتى وجدته.

وجاء القوم خلافي، الذين كانوا يُرَحِّلون لي البعير، وقد فرغوا من رحلته، فأخذوا الهودج، وهم يظنون أنّي فيه، كما كنت أصنع، فاحتملوه، فشدّوه على

(١) أي هرب.
(٢) الهودج: مركب النساء.
(٣) الجزع: الخرز.

البعير، ولم يشكّوا أنّي فيه، ثمَّ أخذوا برأس البعير، فانطلقوا به، فرجعت إلى العسكر وما فيه من داع ولا مجيب، قد انطلق الناس

قالت: فتلففت بجلبابي، ثمَّ اضطجعت في مكاني، وعرفت أن لو قد افتُقِدت لرُجِع إلي، قالت: فوالله إنّي لمضطجعة إذ مرَّ بي صفوان بن المعطل السلمي، وقد كان تخلف عن العسكر لبعض حاجته، فلم يبتْ مع الناس، فرأى سوادي، فأقبل حتى وقف عليَّ، وقد كان يراني قبل أن يُضرَب علينا الحجاب، فلمّا رآني قال: إنّا لله وإنا إليه راجعون، ظعينة [1] رسول الله ﷺ وأنا متلففة في ثيابي، قال: ما خلّفك يرحمك الله؟ قالت: فما كلّمته، ثمَّ قرَّب البعير، فقال: اركبي، واستأخر عني، قالت: فَرَكبْتُ، وأَخَذَ برأس البعير، فانطلق سريعاً يطلب الناس، فوالله ما أدركنا الناس، وما افتُقدت حتى أصبحت، ونزل الناس، فلمّا اطمأنوا طلع الرجل يقود بي، فقال أهل الإفك ما قالوا، فارتعج [2] العسكر، ووالله ما أعلم بشيء من ذلك

ثمَّ قدمنا المدينة، فلم ألبث أن اشتكيت شكوى شديدة، ولا يبلغني من ذلك شيء، وقد انتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوي لا يذكرون لي منه قليلاً ولا كثيراً، إلا أنّي قد أنكرتُ مِن رسول الله ﷺ بعضَ لُطفِه بي، كنتُ إذا اشتكيت رحمني، ولطف بي، فلم يفعل ذلك بي في شكواي تلك، فأنكرتُ ذلك منه، كان إذا دخل عليَّ وعندي أمي تمرضني، قال: كيف تيكم؟ لا يزيد على ذلك.

قالت: حتى وجدت في نفسي، فقلت: يا رسول الله – حين رأيت ما رأيت من جفائه لي – لو أذنت لي، فانتقلتُ إلى أمّي، فمرّضتني؟ قال: لا عليك، قالت: فانتقلت إلى أمّي، ولا عِلْمَ لي بشيء ممّا كان، حتى نقهت من وجعي بعد بضع وعشرين ليلة، وكنّا قوما عرباً، لا نتخذ في بيوتنا هذه الكنف [3] التي تتخذها الأعاجم، نعافها ونكرهها، إنّما كنا نذهب في فُسَحِ المدينة، وإنّما كانت النساء يخرجن كل ليلة في

---

(١) أي امرأة.
(٢) أي تحرّك واضطرب.
(٣) أي المراحيض.

حوائجهن، فخرجتُ ليلة لبعض حاجتي ومعي أمُّ مسطح بنت أبي رهم بن المطلب بن عبد مناف، وكانت أمّها بنت صخر بن عامر بن كعب بن سعد بن تيم، خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه .

قالت: فوالله إنّها لتمشي معي إذ عثرت في مرطها [١]، فقالت: تَعِس مسطح - ومسطح لقب واسمه عوف - قالت: قلت: بئس لعمر الله ما قلت لِرجلٍ من المهاجرين قد شهد بدراً، قالت: أو ما بلغك الخبر يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: وما الخبر؟ فأخبرتني بالذي كان من قول أهل الإفك، قالت: قلت: أَوَقد كان هذا؟ قالت: نعم والله لقد كان، قالت: فوالله ما قدرت على أن أقضي حاجتي، ورجعت، فوالله ما زلت أبكي حتى ظننت أنَّ البكاء سيصدع كبدي [٢]، قالت: وقلت لأمّي: يغفر الله لك، تحدّث الناس بما تحدثوا به، ولا تذكرين لي من ذلك شيئاً، قالت: أي بنية، خفّضي عليك الشأن [٣]، فوالله لقلّما كانت امرأة حسناء، عند رجل يُحبُّها، لها ضرائر، إلا كثّرن وكثّر الناس عليها.

قالت: وقد قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس يخطبهم ولا أعلم بذلك، فحَمَدَ الله وأثنى عليه، ثمَّ قال: أيها الناس، ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق؟ والله ما علمت منهم إلّا خيراً، ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلّا خيراً، وما يدخل بيتاً من بيوتي إلّا وهو معي، فلمّا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المقالة، قال أسيد بن حضير: يا رسول الله، إن يكونوا من الأوس نكفكهم، وإن يكونوا من إخواننا من الخزرج، فمُرْنا بأمرك، فوالله إنهم لأهل أن تُضْربُ أعناقهم، قالت: فقام سعد بن عبادة، وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً، فقال: كذبت لعمر الله، لا نضرب أعناقهم، أَمَا والله ما قلت هذه المقالة إلا أنّك قد عرفت أنّهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا، فقال أسيد: كذبتَ لعمر الله، ولكنّك منافق تجادل

(١) أي كسائها.
(٢) أي سيشقُّ كبدها.
(٣) أي هوّني عليكِ.

عن المنافقين، قالت: وتساور الناس، حتى كاد يكون بين هذين الحيّين من الأوس والخزرج شر.

قالت: وكان كِبْرُ ذلك عند عبد الله بن أُبيْ بن سلول في رجال من الخزرج مع الذي قال مسطح وحمنة بنت جحش، وذلك أنَّ أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ.

استشارة علي وأسامة رضي الله عنهما

ثمَّ دعا النبي ﷺ علياً بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما، فاستشارهما، فأمَّا أسامة فأثنى عليَّ خيراً وقاله، ثمَّ قال: يا رسول الله أهلك ولا نعلم منهم إلّا خيراً، وهذا الكذب والباطل، وأمّا علي فإنّه قال: يا رسول الله إنَّ النساء لكثير، وإنَّك لقادر على أن تستخلف، وسَلْ الجارية، فإنّها ستصدقك، فدعا رسول الله ﷺ الجارية ليسألها، قالت: فقام إليها علي بن أبي طالب، فضربها ضرباً شديداً، ويقول: اصدقي رسول الله ﷺ قالت: فتقول والله ما أعلم إلّا خيراً، وما كنت أعيب على عائشة شيئاً، إلا أنّي كنت أعجن عجيني، فآمرها أن تحفظه، فتنام عنه، فتأتي الشاة فتأكله.

قالت: ثمَّ دخل عليَّ رسول الله ﷺ وعندي أبواي، وعندي امرأة من الأنصار، وأنا أبكي، وهي تبكي معي، فجلس، فحَمَدَ الله، وأثنى عليه، ثمَّ قال: يا عائشة، إنَّه قد كان ما قد بلغك من قول الناس، فاتقي الله، وإنْ كُنْتِ قد قارفتِ سوءاً [1] ممّا يقول الناس فتوبي إلى الله، فإنَّ الله يقبل التوبة عن عباده، قالت: فوالله ما هو إلا أن قال لي ذلك فقلص دمعي [2]، حتى ما أحسُّ منه شيئاً، وانتظرت أبوي أن يجيبا عنّي رسول الله ﷺ فلم يتكلما، قالت: وأيّم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيَّ قرآناً يُقرأ به في المساجد، ويُصلّى به، ولكنّي قد كنتُ أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يُكذِّب به اللهُ عني، لِما يعلم من براءتي، أو يُخبَر خبراً؛ فأمّا قرآن ينزل فيَّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك، قالت: فلمّا لم أرَ أبوي

(١) أي: دخلت فيه.

(٢) أي: ارتفع.

يتكلمان، قلت لهما: ألا تجيبان رسول الله ﷺ؟، فقالا: والله ما ندري بماذا نجيبه، قالت: ووالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبي بكر في تلك الأيام، قالت: فلما أنْ استعجما عليَّ، استعبرت فبكيت، ثمَّ قلت: والله لا أتوب إلى الله ممّا ذكرت أبداً، والله إنّي لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس، والله يعلم أنّي منه بريئة، لأقولنَّ ما لم يكن، ولئن أنا أنكرت ما يقولون لا تصدقونني، قالت: ثمَّ التمست اسم يعقوب فما أذكره، فقلت: ولكن سأقول كما قال أبو يوسف: فصبرٌ جميل والله المستعان على ما تصفون، قالت: فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشّاه من الله ما كان يتغشّاه، فسُجيَّ بثوبه ووضعت له وسادة من أدم تحت رأسه، فأمّا أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت، فوالله ما فزعت ولا باليت، قد عرفت أنّي بريئة، وأن الله ﷻ غير ظالمي، وأمّا أبواي، فوالذي نفس عائشة بيده، ما سُرّي عن رسول الله ﷺ حتى ظننت لتخرجنَّ أنفسهما، فرقاً [1] من أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، قالت: ثم سري عن رسول الله ﷺ فجلس، وإنّه ليتحدر منه مثل الجُمَانِ في يوم شاتٍ، فجعلَ يمسح العَرَقَ عن جبينه، ويقول: أبشري يا عائشة، فقد أنزل الله براءتك، قالت: قلت: بحمد الله، ثمَّ خرج إلى الناس، فخطبهم، وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من القرآن في ذلك، ثمَّ أمر بمسطح بن أثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بنت جحش، وكانوا ممّن أفصح بالفاحشة، فضربوا حدّهم [2].

وأمّا عبدالله بن أُبيْ فلم يحدّه النبي ﷺ مع أنَّه كان ممّن أفصح بالفاحشة، وطعن في عائشة رضي الله عنها.

قال ابن القيم رحمه الله: وقيل بل ترك حدّه لمصلحة هي أعظم من إقامته، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلّمه بما يوجب قتله مراراً، وهي تأليف قومه وعدم تنفيرهم عن الإسلام، فإنّه كان مُطاعاً فيهم، رئيساً عليهم، فلم تُؤمَن إثارة الفتنة في حدّه [3].

(١) أي: خوفاً.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٢٩٨ - ٣٠١.

(٣) زاد المعاد: ج٣/ ٢٣٦.

همُّ أبي بكر بعَدِم الإنفاق على مسطح

فلمّا نزل هذا في عائشة، وفيمن قال لها ما قال، قال أبو بكر، وكان ينفق على مسطح لقرابته وحاجته: والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً، ولا أنفعه بنفع أبداً بعد الذي قال لعائشة، وأَدْخَل علينا، فأنزل الله في ذلك)ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم)، فقال أبو بكر: بلى والله، إنّي لأحبُّ أن يغفر الله لي، فرجع إلى مسطح نفقته التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

ثم إنَّ حسان بن ثابت ﵁ قال شعراً يعتذر من الذي قال في شأن عائشة﵂.

غزوة الحديبية

سمّيت هذه الغزوة بالحديبية لأنَّ الصلح بين المسلمين وقريش تمَّ في الحديبية، وهو اسم بئر يقع على بعد اثنين وعشرين كيلاً شمال غرب مكّة، وأطراف الحديبية تدخل حدود الحرم المكّي.

أراد ﷺ أن يعتمر فأخبر الصحابة بذلك، فخرج في ذي القعدة من السنة السادسة من الهجرة، واستنفر أهل البوادي من الأعراب فأبطأوا عليه، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، وقد سجّل القرآن الكريم موقف الأعراب هذا ﴿ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ۚ بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا – بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [سورة الفتح: ١١ – ١٢]، ورغم أنَّ المسلمين ذهبوا معتمرين إلّا أنَّهم أخذوا سلاحهم معهم تحسباً للصدام مع قريش لأنَّهم كانوا يتوقعون الشر منها.

المسلمون يتحركون إلى مكة

تحرّك رسول الله ﷺ باتجاه مكة، ومعه ألف وأربعمائة من الصحابة، ومعه زوجته أمُّ المؤمنين أم سلمةرضي الله عنها، فلمّا أتى ذا الحليفة قلّد الهدي وأشعره، وأحرم منها بعمرة، وبعث عيناً له من خزاعة، وسار النبي ﷺ حتى كان بغدير الأشطاط أتاه عينه، قال: إنَّ قريشاً جمَّعوا لك جموعاً، وقد جمعوا لك الأحابيش، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت ومانعوك، فقال: أشيروا أيها الناس عليَّ، أترون أنْ أميل إلى عيالهم وذراري هؤلاء الذين يريدون أن يصدّونا عن البيت، فإنْ يأتونا كان الله ﷻ قد قطع عيناً من المشركين، وإلّا تركناهم محروبين؟، قال أبو بكر: يا رسول الله، خرجت عامداً لهذا البيت، لا تريد قتل أحد، ولا حرب أحد، فتوجه له فمَنْ صدّنا عنه قاتلناه، قال: امضوا على اسم الله [1].

روى البخاري في صحيحه عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم قالا: خرج رسول الله ﷺ زمن الحديبية حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال النبي ﷺ: إنَّ خالد بن الوليد بالغميم [2] في خيل لقريش طليعة فخذوا ذات اليمين، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هم بقترة الجيش [3] فانطلق يركض نذيراً لقريش.

وسار النبي ﷺ حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها بركت به راحلته، فقال الناس: حل حل[4] فألحَّت فقالوا: خلأت [5] القصواء، خلأت القصواء، فقال النبي ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخُلُق، ولكن حبسها حابس الفيل، ثمَّ قال: والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطّة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) على بعد ٦٥ كيلًا عن مكّة.

(٣) أي غبار الجيش.

(٤) كلمة تُقال لزجر الناقة.

(٥) أي: بركت.

ثمَّ زجرها فوثبت [١] قال: فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد [٢] قليل الماء يتبرضه الناس تبرضاً [٣] فلم يلبثه الناس حتى نزحوه، وشُكِيَ إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع سهماً من كنانته، ثمَّ أمرهم أن يجعلوه فيه، فوالله ما زال يجيش لهم بالري حتى صدروا عنه. اهـ من البخاري.

وفي عُسفان صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف حين عَلِم بقرب خيل قريش منهم، فكانت تلك أول صلاة خوف صلّاها رسول الله ﷺ على قول من أخَّر غزوة ذات الرقاع إلى ما بعد خيبر، وهو الصحيح.

بُديل بن ورقاء يتوسط بين رسول الله ﷺ وقريش

قال البخاري: فبينما هم كذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه من خزاعة، وكانوا عَيْبَةَ نُصحٍ رسول الله ﷺ من أهل تهامة فقال: إنّي تركت كعب بن لؤي وعامر بن لؤي نزلوا أعداد مياه الحديبية، ومعهم العوذ المطافيل [٤]، وهم مقاتلوك وصادّوك عن البيت، فقال رسول الله ﷺ: إنّا لم نجئ لقتال أحد، ولكنّا جئنا معتمرين، وإنَّ قريشاً قد نهكتهم الحرب وأضرّت بهم، فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلّا فقد جموا [٥]، وإنْ هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنّهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي [٦] ولينفذنَّ الله أمره.

وفي رواية أخرى: يا ويح قريش، لقد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني

---

(١) أي: قامت.
(٢) حوض.
(٣) يأخذون منه القليل.
(٤) العوذ: جمع عائذ: وهي من الإبل الحديثة النتاج، والمطافيل: التي معها أولادها، يريد أنَّهم خرجوا ومعهم النساء والصبيان.
(٥) أي: استراحوا.
(٦) السالفة: صفحة العنق.

وبين سائر العرب، فإن هم أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟!، فوالله لا أزال أجاهد على الذي بعثني الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة [(١)].

وهذا والله ما تقتضيه الحكمة، ويجنح إليه كل عاقل ينظر في العواقب، لكنَّ الكِبْر أعمى بصائر القوم فما عادوا يفقهون ولا ينقهون.

قال البخاري: فقال بديل سأبلغهم ما تقول، قال: فانطلق حتى أتى قريشاً، فقال: إنّا قد جئناكم من هذا الرجل، وسمعناه يقول قولاً فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا، فقال سفهاؤهم: لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء، وقال ذوو الرأي منهم: هاتِ ما سمعته يقول، قال: سمعته يقول كذا وكذا، فحدّثهم بما قال النبي ﷺ، اهـ.

ولكنَّ قريشاً ردّت: وإن كان إنّما جاء لذلك، فلا والله لا يدخلها أبداً علينا، ولا تتحدث بذلك العرب. [(٢)]

رسل قريش

أرسلت قريش عدداً من الرسل للتفاوض، وكان أوّلهم عروة بن مسعود الثقفي[(٣)]، قال البخاري: فقام عروة بن مسعود فقال: أيْ قوم ألستم بالوالد؟، قالوا: بلى، قال: أولست بالولد؟، قالوا: بلى، قال: فهل تتهموني؟، قالوا: لا، قال: ألستم تعلمون أنّي استنفرت أهل عكاظ فلمّا بلحوا علي جئتكم بأهلي وولدي ومن أطاعني؟، قالوا: بلى، قال: فإنَّ هذا قد عرض لكم خطة رشد اقبلوها ودعوني آتيه، قالوا: ائته، فأتاه فجعل يُكلِّم النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ نحواً من قوله لبديل، فقال عروة عند ذلك: أي محمد أرأيت إن استأصلت أمر قومك؟! هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟، وإن تكن الأخرى فإنّي والله لأرى وجوهاً، وإنّي لأرى

(١) مسند أحمد بإسناد حسن، وسيرة ابن هشام: ج٢/ ٢٨٣.

(٢) مسند أحمد بإسناد حسن.

(٣) وهو عمّ المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

أوشاباً من الناس خليقاً أن يفرّوا ويدعوك، فقال له أبو بكر الصديق: امصص ببظر اللات، أنحن نفر عنه وندعه؟!، فقال: من ذا؟، قالوا: أبو بكر، قال: أَمَا والذي نفسي بيده لولا يد كانت لك عندي لم أَجْزِك بها لأجبتك، قال: وجعل يكلّم النبي ﷺ فكلّما تكلم أخذ بلحيته، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ﷺ ومعه السيف وعليه المِغْفر، فكلّما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ﷺ ضرب يده بنعل السيف وقال له: أخِّر يدك عن لحية رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه، فقال: مَنْ هذا؟ قالوا: المغيرة بن شعبة، فقال: أي غُدُر، ألستُ أسعى في غدرتك؟ [1] ثم إنَّ عروة جعل يرمق أصحاب النبي ﷺ بعينيه قال: فوالله ما تنخّم رسول الله ﷺ نخامة إلا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أي قوم، والله لقد وفدت على الملوك، ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي، والله إنْ رأيت ملكاً قط يعظّمه أصحابه ما يعظم أصحاب محمد محمداً، والله إن تنخّم نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدّون إليه النظر تعظيماً له، وإنّه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة [2]: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلمّا أشرف على النبي ﷺ وأصحابه، قال رسول الله ﷺ: هذا فلان وهو من قوم يُعظِّمون البُدن فابعثوها له، فبُعِثَت له، واستقبله الناس يلبّون، فلمّا رأى ذلك قال: سبحان الله ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَّدوا عن البيت، فلمّا رجع إلى أصحابه قال: رأيتُ البُدن قد قُلِّدت وأُشعِرت فما أرى أن يُصدّوا عن البيت. اهـ من البخاري

---

(١) وكان المغيرة صحب قوماً في الجاهلية فقتلهم وأخذ أموالهم ثمَّ جاء فأسلم، فقال النبي ﷺ أمّا الإسلام فأقبل وأما المال فلست منه في شيء.

(٢) هو الحليس بن علقمة الكناني سيد الأحابيش.

عثمان بن عفان رسول النبي ﷺ إلى قريش

قال ابن هشام: ثمَّ دعا [(١)] عمر بن الخطاب ليبعثه إلى مكة، فيبلّغ عنه أشراف قريش ما جاء له، فقال: يا رسول الله، إنّي أخاف قريشاً على نفسي، وليس بمكة من بني عدي بن كعب أحد يمنعني، وقد عَرَفتْ قريش عداوتي إياها، وغلظتي عليها، ولكنّي أدلُّك على رجل أعزَّ بها منّي، عثمان بن عفان، فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان، فبعثه إلى أبي سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنّه لم يأتِ لحرب، وأنَّه إنّما جاء زائراً لهذا البيت، ومعظّماً لحرمته، فخرج عثمان إلى مكة، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة، أو قَبْل أن يدخلها، فحمله بين يديه، ثمَّ أجاره حتى بلّغ رسالة رسول الله ﷺ، فانطلق عثمان حتى أتى أبا سفيان وعظماء قريش، فبلّغهم عن رسول الله ﷺ ما أرسله به ؛ فقالوا لعثمان حين فرغ من رسالة رسول الله ﷺ إليهم: إن شئت أن تطوف بالبيت فَطُفْ ؛ فقال: ما كنتُ لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ، واحتبسته قريش عندها، فبلغ رسول الله ﷺ والمسلمين أنَّ عثمان بن عفان قد قُتِل، فقال رسول الله ﷺ: لا نبرح حتى نناجز القوم، فدعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة، فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة، فكان الناس يقولون: بايَعهم رسول الله ﷺ على الموت، وكان جابر بن عبد الله يقول: إنَّ رسول الله ﷺ لم يبايعنا على الموت، ولكن بايعنا على أن لا نفرّ، فبايع رسول الله ﷺ الناس، ولم يتخلف عنه أحد من المسلمين حضرها، إلا الجدّ بن قيس أخو بني سلمة، [وقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: هذه يد عثمان، فضرب بها على يده فقال: هذه لعثمان]. [(٢)] ثمَّ أتى رسول الله ﷺ أنَّ الذي ذُكر من أمر عثمان باطل.

وهذه هي بيعة الرضوان التي أنزل الله فيها: (لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيباً) [الفتح: ١١٨].

---

(١) أي النبي ﷺ.

(٢) ما بين معقوفين رواه البخاري.

سُهَيْل بن عمرو يفاوض المسلمين

بعثت قريش مكرز بن حفص وأعقبته بسهيل بن عمرو، قال البخاري: قال معمر فأخبرني أيوب عن عكرمة أنَّه لمّا جاء سهيل بن عمرو قال النبي ﷺ: (لقد سهل لكم من أمركم) قال معمر: قال الزهري في حديثه: فجاء سهيل بن عمرو فقال: هاتِ اكتب بيننا وبينكم كتاباً، فدعا النبي ﷺ الكاتب [(١)]، فقال النبي ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، قال سهيل أمّا الرحمن فوالله ما أدري ما هو، ولكن اكتب باسمك اللهم كما كنتَ تكتُب، فقال المسلمون: والله لا نكتبها إلّا (بسم الله الرحمن الرحيم)، فقال النبي ﷺ اكتب باسمك اللهم، ثمَّ قال: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله، فقال سهيل: والله لو كنّا نعلم أنَّك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك، ولكن اكتب محمد بن عبد الله، فقال النبي ﷺ: والله إنّي لرسول الله وإنْ كذَّبتُموني، اكتب محمد بن عبد الله[(٢)]، فقال له النبي ﷺ: على أن تخلّوا بيننا وبين البيت فنطوف به، فقال سهيل: والله لا تتحدث العرب أنّا أُخذنا ضغطة، ولكن ذلك من العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: وعلى أنَّه لا يأتيك منّا رجل وإن كان على دينك إلّا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله كيف يُردُّ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟، فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسف في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمد أول ما أقاضيك عليه أن ترده إليّ، فقال النبي ﷺ: إنّا لم نقض الكتاب بعد، قال: فوالله إذاً لم أصالحك على شيء أبداً، قال النبي ﷺ: فأَجِزْه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى، فافعل، قال: ما أنا بفاعل، قال أبو جندل: أَيْ معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟! - وكان قد عُذب عذاباً شديداً في الله -. اهـ من البخاري.

(١) وكان الكاتب هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) وفي رواية أخرى للبخاري أنَّ علياً رضي الله عنه رفض أن يمحو اسم النبي ﷺ، فمحاه النبي ﷺ وكتب محمد بن عبدالله، قال الزهري وذلك لقوله لا يسألوني خطة يعظّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها.

قال الزهري: فقال رسول الله ﷺ: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإنَّ الله جاعل لك ولِمَنْ معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنَّا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنّا لا نغدر بهم، قال: فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه ويقول: اصبر يا أبا جندل فإنّما هم المشركون، وإنّما دم أحدهم دم كلب، قال: ويُدني قائم السيف منه، قال: ويقول عمر: رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه، فضنّ الرجل بأبيه [١]، ونفذت القضية.

واتفق الطرفان على عدّة أمور، على أن توضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين، يكفُّ بعضهم عن بعض، ويأمن فيها الناس، وعلى أنَّه من أتى رسول الله ﷺ من أصحابه بغير إذن وليّه من قريش ردَّه عليهم، ومن أتى قريشاً ممّن مع رسول الله ﷺ لم يرده عليهم، وأنَّه من أحبَّ أن يدخل في عقد رسول الله ﷺ وعهده دخل فيه، ومن أحبَّ أن يدخل في عقد قريش وعهدها دخل فيه، فدخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده، ودخل بنو بكر في عقد قريش وعهدها.

وكان من بنود الاتفاق أيضاً أنَّ بين الطرفين عيبة مكفوفة [٢]، وأنَّه لا إسلال ولا إغلال [٣].

كما اتفق الطرفان أيضاً على أن يرجع رسول الله ﷺ والمسلمون هذا العام عن مكّة، ثمَّ يعودون العام المقبل من أجل العمرة فتخرج قريش عنها، ويقيم فيها رسول الله ﷺ وأصحابه ثلاثة أيام وليس معهم سوى سلاح الراكب.

تمَّ الاتفاق ووقّعت الهدنة بين المسلمين وقريش، ومع ذلك لم تكفّ قريش عن تصرفاتها الاستفزازية للمسلمين أثناء المفاوضات لكتابة الصلح، بل وحتى بعد إنجازه، حيث تنوعت تلك الاستفزازات بين ما كان منها تصرفات فردية من شباب قريش المتحمّس، أو ما كان بعلم زعماء قريش ليضغطوا على

(١) تَضنُّ به، أي تَبْخَل لمكانه منك وموقعه عندك.
(٢) أي بينهم صدر نقي من الغل والخداع مطوي على الوفاء بالصلح.
(٣) الإسلال: سلُّ السيوف، والإغلال: الخيانة

المسلمين أثناء المفاوضات، وقد تعامل رسول الله ﷺ مع هذه الاستفزازات بحكمة كبيرة، حيث أسر المسلمون ثمانين رجلاً من أهل مكّة كانوا يريدون أخذ معسكر المسلمين غرّة، فأطلقهم ﷺ كما ورد في صحيح مسلم، كما خرج على معسكر المسلمين ثلاثون شاباً من قريش أثناء كتابة الصلح فأسرهم المسلمون وأطلقهم ﷺ كما ورد في مسند أحمد بإسناد رجاله رجال الصحيح. وبعد إبرام الصلح، وإتمام الاتفاق أخذ سلمة بن الأكوع أربعة من المشركين كانوا يقعون في رسول الله ﷺ فعفا عنهم، ثمَّ عفا عن سبعين من المشركين أسرهم المسلمون بعد إبرام الصلح، وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وهو الذي كفَّ أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن اظفركم عليهم﴾ [سورة الفتح: ٢٤]..

رسول الله ﷺ يتحَلَّلُ من العمرة

فلمّا فرغ من قضية الكتاب، قال رسول الله ﷺ لأصحابه: قوموا فانحروا ثمَّ احلقوا، قال: فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ذلك ثلاث مرات، فلمّا لم يقم منهم أحد دخل على أمِّ سلمة فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أمُّ سلمة: يا نبيّ الله، أتحبُّ ذلك؟ اخرج ثمَّ لا تكلّم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك فيحلقك، فخرج فلم يكلّم أحداً منهم حتى فعل ذلك، نحر بدنه، ودعا حالقه فحَلَقه، فلمّا رأوا ذلك قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضاً، حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غمّاً [١].

ونحر رسول الله ﷺ جملاً كان لأبي جهل، وكان في أنفه برة من فضة، ليغيظ به المشركين، ودعا رسول الله ﷺ للمحلّقين ثلاثاً وللمقصرين مرة [٢].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

الحزن يخيّم على المسلمين بعد إبرام الصلح

حزن المسلمون بسبب الصلح الذي تمَّ مع قريش حيث قدموا من المدينة آملين أن يدخلوا مكّة معتمرين بعد ست سنين من خروجهم منها، فتأجل ذلك عاماً آخر، كما حزنوا من بعض بنود الصلح، كبند رد المسلمين الفارين من قريش إليها، فقال المسلمون: يا رسول الله، تكتب هذا؟، قال: نعم، إنّه من ذهب إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً. [١]

وأتى عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ فقال: ألستَ نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟، قال: بلى، قال: فَلِمَ نعطي الدنية [٢] في ديننا إذاً؟، قال: إنّي رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري، قال: أوليسَ كنتَ تحدِّثُنا أنّا سنأتي البيت فنطوف به؟، قال: بلى، فأخبرتك أنا نأتيه العام؟، قال: لا، قال: فإنّك آتيه ومطوف به، ثمَّ أتى أبا بكر فقال: يا أبا بكر أليس هذا نبي الله حقاً؟ قال: بلى، قال: ألسنا على الحق وعدونا على الباطل؟ قال: بلى، قال: فلِمَ نعطي الدنية في ديننا إذاً؟ قال: أيها الرجل إنّه لرسول الله ﷺ، وليس يعصي ربه، وهو ناصره فاستمسك بغرزه [٣] فوالله إنّه على الحق، قال: أليس كان يحدثُّنا أنّا سنأتي البيت ونطوف به؟ قال: بلى، أفأخبرك أنّك تأتيه العام؟ قال: لا، قال: فإنّك آتيه ومطوف به [٤]

وفي طريق عودة المسلمين من الحديبية إلى المدينة أنزل الله تعالى سورة الفتح ففرح رسول الله ﷺ بنزولها واستبشر وقال: أُنزِلَت عليَّ الليلة سورة هي أحبُّ إليَّ ممّا طلعت عليه الشمس [٥]، وسأله رجل: يا رسول الله أو فتح هو؟!، قال نعم [٦]

(١) صحيح مسلم.
(٢) الدنية: الذل والأمر الخسيس.
(٣) أي الزم أمره.
(٤) صحيح البخاري.
(٥) صحيح البخاري.
(٦) متفق عليه.

ثمَّ شرع الناس في التهيؤ للعودة إلى المدينة بعد أن أقاموا بالحديبية عشرين يوماً، واستغرقت رحلتهم ذهاباً وإياباً شهراً ونصف الشهر.

ومن المعجزات التي حدثت في طريق عودة المسلمين من الحديبية ما يرويه سلمة بن الأكوع ﵁ حيث يقول: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة فأصابنا جهد حتى هممنا أن ننحر بعض ظُهُرنا[1]، فأمر النبي ﷺ فجمعنا مزاودنا[2]، فبسطنا له نطعاً [3] فاجتمع زاد القوم على النطع، قال فتطاولت لأحرزه كم هو؟، فحرزته كربضة العنز، ونحن أربع عشرة مائة، قال فأكلنا حتى شبعنا جميعاً ثمَّ حشونا جربنا، فقال النبي ﷺ: فهل من وَضوء؟، فجاء رجل بأداوة له فيها نطفة فأفرغها في قدح، فتوضأ كلنا ندغفقه دغفقة[4] أربع عشرة مائة[5]

ولقد حقَّق المسلمون كسباً كبيراً بخروجهم ذلك العام نحو مكّة، حيث كان المكسب مضموناً مهما كانت النتائج، فإنْ دخلوا مكّة واعتمروا وتحدث العرب عن ذلك فقد أصابوا الغاية، وإنْ منعتهم قريش ولم يدخلوها فتتحدث العرب عن صد قريش لمَنْ جاء البيت معتمراً معظماً له، فقد حققوا مكسباً كبيراً أيـضاً.

شأن المستضعفين

ثمَّ رجع النبي ﷺ إلى المدينة فجاءه أبو بصير مسلماً، فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فقالوا: العهد الذي جعلت لنا، فدفعه إلى الرجلين فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة فنزلوا يأكلون من تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إنّي لأرى سيفك هذا يا فلان جيداً، فاستلَّه الآخر، فقال: أجل والله إنّه لجيد، لقد جربتُ به ثمَّ

(١) إبلنا.
(٢) أوعية الزاد.
(٣) بساط من الجلد.
(٤) نصبّه صبّاً كثيراً.
(٥) صحيح مسلم / كتاب اللقطة، وانظر صحيح البخاري.

جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه فضربه حتى برد، وفرّ الآخر حتى أتى المدينة فدخل المسجد يعدو، فقال رسول الله ﷺ حين رآه: لقد رأى هذا ذُعراً، فلمّا انتهى إلى النبي ﷺ قال: قُتِلَ والله صاحبي وإنّي لمقتول، فجاء أبو بصير فقال: يا نبي الله، قد والله أوفى الله ذمّتك، قد رددتني إليهم ثمَّ أنجاني الله منهم، قال النبي ﷺ: «ويل أمّه، مسعر حرب لو كان له أحد» فلمّا سمع ذلك عرف أنه سيردّه إليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر، قال: وينفلتُ منهم أبو جندل بن سهيل فلحق بأبي بصير، فجعل لا يخرج من قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبي بصير، حتى اجتمعت منهم عصابة، فوالله ما يسمعون بِعِير خرجت لقريش إلى الشام إلّا اعترضوا لها فقتلوهم وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تناشده بالله والرحم لِمَا أرسل إليهم، فمَنْ أتاه فهو آمن.[1]، فكتب رسول الله ﷺ إلى أبي جندل وأبي بصير يأمرهم أن يقدموا عليه وألّا يتعرضوا لأحد من قريش وعيرها، فقدم كتاب رسول الله ﷺ على أبي بصير وهو في الموت، فمات وهو على صدره، ودفنه أبو جندل مكانه، وأقبل أبو جندل على رسول الله ﷺ وأَمِنَت عير قريش.[2]

ولم يشمل بند ردِّ مَنْ خرج مهاجراً من قريش إلى النبي ﷺ النساء المهاجرات، بل اقتصر على الرجال فقط، حيث قَدِمَتْ أمُّ كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط إلى رسول الله ﷺ مهاجرة، فجاء أهلها يريدونها فلم يردّها رسول الله ﷺ لمّا نزل قوله تعالى: ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله اعلم بإيمانهن﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولا هم يحلون لهنّ﴾، كما ورد في البخاري، فكانت مَنْ تأتي من المسلمات مهاجرة من مكّة يختبرها ﷺ، فإنْ كانت خرجت تريد الإسلام فقط استبقاها وردَّ مهرها لزوجها، وكان قبل الصلح لا يعيد إليهم مهور زوجاتهم [3]

وفي هذه الآية ﴿إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن﴾ كان تحريم زواج

(١) رواه البخاري.
(٢) زاد المعاد: ج٣/ ٢٥٣.
(٣) انظر: سيرة ابن هشام، والسنن الكبرى للبيهقي.

المسلمة من المشرك بعد أن كان جائزاً في بداية الإسلام، وكذلك أُمر المسلمون بفسخ نكاح المشركات [1] فطلّق المسلمون زوجاتهم الكافرات بهذا الحكم، فطلّق عمر يومئذ امرأتين كانتا له في الشرك، تزوج بإحداهما معاوية، وبالأخرى صفوان بن أمية.

لم تدم هدنة الحديبية إلّا سبعة عشر أو ثمانية عشر شهراً، حيث أعانت قريش حلفاءها من بني بكر ضد حلفاء المسلمين من خزاعة، فنقضت بذلك عهدها مع رسول الله ﷺ، واستنصرت خزاعة بالمسلمين، لينتهي بذلك العهد الذي بين المسلمين وبين قريش، وكان ذلك سبباً مباشراً لمسير رسول الله ﷺ إلى مكّة وفتحها.

إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً

بعد مرور أشهر على صلح الحديبية، بدأت تتكشف للمسلمين الحكمة البالغة والنتائج العظيمة لذلك الصلح الذي وصفه الله تعالى بالفتح المبين، والمتأمّل لبنود الحديبية يُدرك أنَّ أهمّ ما تحقق للمسلمين في ذلك هو اعتراف قريش بالمسلمين كدولة لها قوتها وهيبتها ومكانتها، بعد أن كانت تصوّرهم أمام العرب على أنَّهم ثلّة من الغلمان والسفهاء الذين فارقوا دين قومهم، ليُتبَع هذا الاعتراف بدخول خزاعة في حلف المسلمين، والذي شكَّل نقطة تحوّل في تأكيد هوية المسلمين الجديدة، وهي هوية الدولة.

كما أنَّ هذا الصلح كان فرصة عظيمة للمسلمين لتحييد أكبر خصومهم، وليتفرغوا لباقي الخصوم والأعداء وعلى رأسهم يهود خيبر التي كانت آخر معاقل اليهود التي ساهمت في التحريض على المسلمين في الخندق وما بعدها.

كما كان تحييد قريش فرصة عظيمة للمسلمين للبدء بالدعوة للإسلام، بعيداً

(١) تفسير القرآن العظيم.

عن تأثير ضغط قريش على العرب، يقول الزهري: فما فُتِح في الإسلام فتحٌ قبله كان أعظم منه، إنّما كان القتال حيث التقى الناس، فلمّا كانت الهدنة ووُضِعت الحرب، وأَمِن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يُكلَّم أحد بالإسلام يعقل إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل مَنْ كان في الإسلام قبل ذلك، قال ابن هشام: والدليل على قول الزهري أنَّ رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثمَّ خرج في عام الفتح بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[١].

في مقابل كل هذه المكاسب التي حققها المسلمون، لم تحقق قريش إلّا أمراً واحداً فقط وهو أنّها نجحت في تأجيل دخول المسلمين لمكّة، وصدّهم عن البيت عاماً واحداً فقط!!!.

الأحكام الفقهية في الحديبية

١- في غزوة الحديبية أصاب كعب بن عجرة أذى في رأسه وكان محرماً بالعمرة، فأَذِنَ له النبي ﷺ أنْ يحلق رأسه على أن يصوم ثلاثة أيام أو يذبح شاة أو يطعم ستة مساكين.

٢- وفيها أَذِن النبي ﷺ للصحابة بالصلاة في منازلهم عندما نزل المطر [٢].

٣- وفيها بيَّن النبي ﷺ كُفْرَ مَنْ يقول (مُطِرنا بنوءِ كذا وكذا) وأنَّ مَنْ قالها كان كافراً بالله، مؤمناً بالكوكب [٣].

٤- وفيها جواز التبرك بآثار النبي ﷺ كماء وضوئه، وهو خاص به خلافاً لآثار الصالحين من أمّته.

(١) سيرة ابن هشام: ج٣/ ٢٤٨.
(٢) صحَّحه الحافظ ابن حجر في فتح الباري.
(٣) صحيح البخاري.

قلت: ما كان الصحابة ﷺ يتبرّكون بآثار أحد غيره ﷺ، لا بآثار أبي بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي، ولا بآثار بقية العشرة المبشّرين بالجنّة، ولا بآثار أهل بدر أو بيعة الرضوان، فكيف بمن هو دونهم في المنزلة؟!! فمَنْ فعل فقد فتح على نفسه باب شرٍّ مستطير.

٥- وفي قول النبي ﷺ للمغيرة:(أمّا الإسلام فأقبل، وأمّا المال فلستُ منه في شيء) دليل على أنَّ مال المشرك المعاهد معصوم، وأنَّه لا يُملك بل يُردُّ عليه ؛ فإنَّ المغيرة كان قد صحبهم على الأمان، ثمَّ غدر بهم، وأخذ أموالهم، فلم يتعرض النبي ﷺ لأموالهم ولا ذبَّ عنها، ولا ضَمِنَها لهم، لأنَّ ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

٦- وفي قول الصديق لعروة: امصص بظر اللات، دليل على جواز التصريح باسم العورة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبي ﷺ أن يُصرَّحَ لمن ادعى دعوى الجاهلية بهن أبيه، ويقال له: اعضض أيرَ أبيك، ولا يُكنّى له، فلكل مقام مقال.

٧- وفيها أنَّ إشعار الهدي سُنّة لا مُثْلَة منهيٌ عنها.

٨- وفيها استحباب مغايظة أعداء الله، فإنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وسَلَّمَ أهدى في جُملة هديه جملاً لأبي جهل، في أنفه بُرَةٌ مِن فضةٍ ، يغيظُ به المشركين، وقد قال تعالى في صِفةِ النبي ﷺ وأصحابه (وَمَثَلُهُم فِي الإِنجِيلِ كَزَرعٍ أَخرَجَ شَطأَهُ فَآزَرَهُ فَاستَغلَظَ فَاستَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ [الفتح: ٢٩]، وقال جل وعلا: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُم لاَ يُصِيبُهُم ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِن عَدُوٍّ نَّيلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجرَ المُحسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

٩- وفيها أنّه ينبغي لأمير الجيش أن يبعث العيون أمامه نحو العدو.

١٠- وفيها استحباب مشورة الإمام رعيَّته وجيشه، استخراجاً لوجه الرأي، واستطابةً لنفوسهم، وأمناً لِعَتبهم، وتعّرفاً لمصلحةٍ يختصٌّ بعلمها بعضهم دون

بعض، وامتثالاً لأمر الرب في قوله تعالى: ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩] وقد مدح ﷻ عباده بقوله: ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: ٣٨].

قلت: استشار النبي ﷺ الصحابة في الإغارة على ذراري المشركين وأخذ برأي أبي بكر رضي الله عنه، وكذلك أخذ برأي أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها فبادر بالنحر والحلق.

١١- وفيها جواز سبي ذراري المشركين إذا انفردوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

١٢- أنَّ تسميةَ ما يُلابسه الرجلُ مِن مراكبه ونحوها سُنّة.

١٣- وفيها جواز الحلف، بل استحبابه على الخبر الديني الذي يريد تأكيده، وقد حُفِظَ عن النبي ﷺ الحلف في أكثر من ثمانين موضعاً، وأمره الله تعالى بالحلف على تصديق ما أخبر به في ثلاثة مواضع: في سورة يونس وسبأ والتغابن.

قلت: اليمين على ثلاثة أقسام:

١- اليمين المنعقدة: وهي أن يحلف المرء على أن يفعل شيئاً أو لا يفعله، فإن حنث وجبت عليه كفّارة اليمين، والحنث باليمين: هو إخلاف اليمين بفعل خلاف مضمونها كفعل ما حلف ألّا يفعله، أو ترك ما حلف أن يفعله، وكفارته إطعام عشرة مساكين من الطعام الوسط الذي يُطعم منه أهله، أو كسوتهم، أو أن يعتق رقبة مؤمنة، فمَنْ لم يجد صام ثلاثة أيام، ولا يصح الصوم في كفارة اليمين لمَن كان قادراً على إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة مؤمنة، وإنّما يصح الصوم ممن عجز عن ذلك.

٢- يمين اللغو: وهو اليمين من غير قصد، مثل قول الرجل في كلامه: لا والله، وبلى والله من غير قصد اليمين، وهذه ليس فيها كفّارة.

٣- اليمين الغموس: وهي أن يحلف المرء على شيء مضى كاذباً عالماً بكذبه، وسمّيت بذلك لأنَّها تغمس صاحبها في الإثم ثمَّ في النّار، وهي من كبائر الذنوب، وليس فيها كفّارة اليمين على قول جمهور العلماء، وإنَّما عليه التوبة والاستغفار.

وهاهنا مسائل:

الأولى: اتفق الفقهاء على مشروعية الحلف بالله ﷻ، فيجوز للمسلم أن يحلف ما دام صادقاً في يمينه، فقد كان رسول الله ﷺ يحلف، وكذا الصحابة ﵃.

الثانية: نهى رسول الله ﷺ عن الحلف بغير الله ﷻ، فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عمر ﵄ أنَّ النبي ﷺ قال: ألا إنَّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفاً فليحلف بالله وإلّا فليصمت، وروى الترمذي عن عبدالله بن عمر ﵄ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ حلف بغير الله فقد أشرك [1]

الثالثة: أنَّ اليمين لا تنعقد إلا إذا كانت باسم من أسماء الله ﷻ أو صفة من صفاته، فمن أقسم بما لا يجوز القسم به لم تنعقد يمينه ولا كفّارة عليه إذا حنث بها، والحلف بالقرآن حلف بصفة من صفات الله ﷻ لأنَّ القرآن هو كلام الله ﷻ، فينعقد به اليمين، وتجب فيه الكفارة عند الحنث.

الرابعة: كراهة الإفراط في الحلف، فينبغي على المسلم أن يعظّم يمين الله ولا يحلف بها في كل صغيرة وكبيرة.

الخامسة: إذا حلف المسلم على أمرٍ ما فرأى خيراً منه فله أن يفعل ما هو خير ويكفّر عن يمينه، فقد روى البخاري ومسلم عن أبي موسى الأشعري ﵁ أنَّ النبي ﷺ قال: إنّي والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى خيراً منها إلّا كفّرتُ عن يميني وأتيت الذي هو خير.

١٤- وفيها جواز ابتداء الإمام بطلب صلح العدو إذا رأى المصلحة للمسلمين فيه، ولا يتوقف ذلك على أن يكون ابتداءُ الطلب منهم.

١٥- وفي قيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله ﷺ بالسيف - ولم يكن عادته أن يُقام على رأسه وهو قاعد - سُنّة يُقتدى بها عند قدوم رسل العدو من إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس.

---

(١) رواه أبو داود والترمذي وحسَّنه.

١٦- وفيها طهارة النخامة، سواء كانت من رأس أو صدر.

١٧- وفيها طهارة الماء المستعمل.

١٨- وفيها استحباب التفاؤل، وأنَّه ليس من الطِيَرة المكروهة، لقوله ﷺ لمّا جاء سهيل: سَهُلَ أمركم

١٩- وفيها: أنَّ مصالحة المشركين ببعض ما فيه ضيم على المسلمين جائزة للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفع أعلى المفسدتين باحتمال أدناهما.

٢٠- وفيها: أنَّ من حلف على فعل شيء أو نذره أو وعد غيره به، ولم يعيّن وقتاً، لا بلفظه ولا بنيته، لم يكن على الفور، بل على التراخي .

٢١- وفيها: جواز صلح الكفار على ردِّ من جاء منهم إلى المسلمين، وألّا يردَّ من ذهب من المسلمين إليهم، هذا في غير النّساء، وأمّا النّساء فلا يجوز اشتراط ردّهنَّ إلى الكفار، وهذا موضع النسخ خاصّة في هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيل إلى دعوى النسخ في غيره بغير موجب.

٢٢- وفيها: أنَّ ردَّ مَنْ جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول مَنْ خرج منهم مسلماً إلى غير بلد الإمام، وأنّه إذا جاء إلى بلد الإمام لا يجب عليه رده بدون الطلب، فإنَّ النبي ﷺ لم يرد أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لمّا جاءوا في طلبه مكّنهم من أخذه، ولم يكرهه على الرجوع.

٢٣- وفيها: أنَّ المعاهدين إذا عاهدوا الإمام فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم وغنمت أموالهم، ولم يتحيّزوا إلى الإمام، لم يجب على الإمام دفعهم عنهم ومنعهم منهم، وسواء دخلوا في عقد الإمام وعهده ودينه أو لم يدخلوا، والعهد الذي كان بين النبي ﷺ وبين المشركين لم يكن عهداً بين أبي بصير وأصحابه وبينهم [(١)].

---

(١) انظر: زاد المعاد: ج٣/ ٢٦٧ - ٢٧٥.

فصل في بعض الحِكَم التي تضمنتها هذه الهدنة

١- أنَّ هذه الهدنة كانت من أعظم الفتوح، فإنَّ الناس أَمِن بعضُهم بعضاً، واختلط المسلمون بالكفار، وبادءوهم بالدعوة وأسمعوهم القرآن، وناظروهم على الإسلام جهرة آمنين، وظهر مَنْ كان مختفياً بالإسلام، ودخل فيه في مدّة الهدنة مَنْ شاء الله أن يدخل، ولهذا سمّاه الله فتحا مبيناً [1].

٢- أخبر سبحانه أنَّ الكفار لو قاتلوا أولياءه، لولّى الكفارُ الأدبارَ غير منصورين، وأنَّ هذه سنّته في عباده قبلهم، ولا تبديل لسنَّتِه.

فإن قيل: فقد قاتلوهم يوم أحد وانتصروا عليهم ولم يولّوا الأدبار؟ قيل: هذا وعد معلق بشرط مذكور في غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يوم أحد بفشلهم المنافي للصبر، وتنازعهم وعصيانهم المنافي للتقوى، فصرفهم عن عدوهم، ولم يحصل الوعد لانتفاء شرطه [2].

---

(١) انظر: زاد المعاد: ج٣/ ٢٧٥.

(٢) انظر: زاد المعاد: ج٣/ ٢٧٩.

السنة السابعة من الهجرة

بَعثُ رسول الله ﷺ إلى الملوك

استهلَّ رسول الله ﷺ هذه السنة بالكتابة إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ففي المُحرّم من هذه السنة كتب رسول الله ﷺ إلى كسرى ملك فارس، وقيصر ملك الروم، والنجاشي ملك الحبشة، والمقوقس ملك مصر، والمنذر بن ساوى ملك البحرين، وهوذة بن علي صاحب اليمامة، والحارث بن أبي شمر الغساني صاحب دمشق، وجيفر بن الجلندي صاحب عمان وأخيه عبد.

قال ابن كثير: وقال عبد الله بن وهب: عن يونس، عن الزهري، حدثني عبد الرحمن بن عبد القاري، أنَّ رسول الله ﷺ قام ذات يوم على المنبر خطيباً، فحمد الله وأثنى عليه وتشهَّد، ثمَّ قال: (أمَّا بعد: فإنّي أريد أن أبعث بعضكم إلى ملوك الأعاجم فلا تختلفوا عليَّ كما اختلف بنو إسرائيل على عيسى بن مريم)، فقال المهاجرون: يا رسول الله إنّا لا نختلف عليك في شيء أبداً، فمُرْنا وابعثنا. اهـ [(١)].

وروى مسلم في صحيحه عن أنس أنَّ نبي الله ﷺ كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كلِّ جبّار، يدعوهم إلى الله تعالى، وليس بالنجاشي الذي صلّى عليه النبي ﷺ.

ولمّا أراد رسول الله ﷺ أنْ يكتبَ إلى هؤلاء الملوك قيل له: إنّهم لا يقبلون كتاباً إلّا عليه خاتم، فاتّخذ النبي ﷺ خاتماً من فضّة، نقشُه: محمّد رسول الله [(٢)]، هكذا

الله

رسول

محمد

(١) انظر: البداية والنهاية: ج٢/ ٣٠٦.

(٢) رواه البخاري.

كتابه ﷺ إلى كسرى

روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ بعث بكتابه مع رجل إلى كسرى، وأَمَرَه أن يدفعه إلى عظيم البحرين [1]، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلمّا قرأه كسرى مزّقه، قال: فحسبتُ أنَّ ابن المسيب قال: فدعا عليهم رسول الله ﷺ أن يُمَزَّقوا كل مُمَزَّق. اهـ.

قال ابن جرير: وبعث عبد الله بن حذافة إلى كسرى بن هرمز ملك فارس، وكتب معه: (بسم الله الرحمن الرحيم، مِنْ محمّد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشَهِد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنَّ محمّداً عبده ورسوله، وأدعوك بدعاء الله، فإنّي أنا رسول الله إلى النّاس كافّة، لأُنذر مَنْ كان حياً ويحقّ القولُ على الكافرين، فإنْ تُسْلِم تَسْلَم، وإن أَبيْتَ فإنَّ إثم المجوس عليك)، قال: فلما قرأه شقّه وقال: يكتب إليَّ بهذا وهو عبدي؟!، ثمَّ كتب كسرى إلى باذان وهو نائبه على اليمن، أن ابعث إلى هذا الرجل الذي بالحجاز رجلين من عندك جَلِدَين فليأتياني به.

واستبشر أهل الطائف - يعني وقريش - بهما وفرحوا، وقال بعضهم لبعض: أبشروا فقد نَصَبَ له كسرى ملك الملوك، كُفيتم الرجل.

فخرجا حتى قَدِما على رسول الله ﷺ فكلّمه أبا ذويه فقال: شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك مَنْ يأتيه بك، وقد بعثني إليك لتنطلق معي، فإنْ فعلت كتب لك إلى ملك الملوك ينفعك ويكفّه عنك، وإنْ أبيْتَ فهو مَنْ قد علمت، فهو مهلكك ومهلك قومك ومخرّب بلادك، ودخلا على رسول الله ﷺ وقد حلقا لحاهما، وأعفيا شواربهما، فكره النظر إليهما وقال: ويلكما مَنْ أَمَرَكما بهذا؟ قالا: أمرنا ربنا - يعنيان كسرى -، فقال رسول الله ﷺ: ولكنَّ ربي أمرني بإعفاء لحيتي، وقصِّ شاربي، ثمَّ قال: ارجعا حتى تأتياني غداً،

(١) لأنَّ البحرين كانت تابعة للإمبراطورية الفارسية في ذلك الوقت.

قال: وأتى رسولَ الله ﷺ الخبرُ من السماء بأنَّ الله قد سلّط على كسرى ابنه شيرويه فقتله في شهر كذا وكذا، من ليلة كذا وكذا من الليل، قال: فدعاهما فأخبرهما، فقالا: هل تدري ما تقول؟ إنّا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا، فنكتب عنك بهذا، ونخبر الملك باذان، قال: نعم أخبراه ذاك عنّي، وقولا له إنَّ ديني وسلطاني سيبلغ ما بلغ كسرى، وينتهي إلى الخف والحافر، وقولا له إنْ أسلمتَ أعطيتك ما تحت يديك، وملّكتك على قومك من الأبناء، ثمّ أعطى الرجل مِنْطَقة فيها ذهب وفضة، كان أهداها له بعض الملوك، فخرجا من عنده حتى قدما على باذان، فأخبراه الخبر فقال: والله ما هذا بكلام ملك، وإنيّ لأرى الرجل نبياً كما يقول، وليكوننَّ ما قد قال، فلئن كان هذا حقاً فهو نبي مرسل، وإن لم يكن فسنرى فيه رأياً، فلم ينشب باذان أن قَدِم عليه كتاب شيرويه، أمّا بعد: فإنّي قد قتلت كسرى، ولم أقتله إلّا غضباً لفارس لِما كان استحل من قتل أشرافهم، ونحرهم في ثغورهم، فإذا جاءك كتابي هذا فخذ لي الطاعة ممّن قبلك، وانطلق إلى الرجل الذي كان كسرى قد كتب فيه، فلا تهجه حتى يأتيك أمري فيه، فلمّا انتهى كتاب شيرويه إلى باذان قال: إنَّ هذا الرجل لرسول، فأسلم وأبقاه النبي ﷺ على ملكه.

قلت: سنذكر هنا مسألتين فقهيتَيْن، هما حكم اللحية وحكم الشارب، وسنذكر استطراداً حكم تطويل شعر الرأس وحكم الإسبال، فهذه أربع مسائل:

١- حكم اللحية:

عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: أنهكوا الشوارب، وأعفوا اللحى [(١)].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النبي ﷺ قال: جزّوا الشوارب، وأرخوا اللحى، خالفوا المجوس.

وإذن فقد ثبت أنَّ النبي ﷺ أمر بإعفاء اللحى، فيكون حلقها بالموسى أو قصّها

(١) رواه البخاري.

بالمقص أو ماكنة الحلاقة الكهربائية حتى لا يبقى منها إلّا الشيء اليسير حرام وغير جائز، وفاعله آثم، وقد اتفق الفقهاء على أنَّ هذا مُثلة لا تجوز.

والمقصود بإعفائها هنا هو تركها حتى تكثَّ وتكثر، وليس المقصود عدم الأخذ منها مطلقاً، فقد ثبت الأخذ منها عن بعض الصحابة والتابعين كابن عمر وأبي هريرة رضي الله عنهما وعن الحسن وابن سيرين وغيرهما من التابعين رحمهم الله.

ومن معاني الإعفاء: التكثير، وقد استدلَّ الإمام البخاري رحمه الله على هذا المعنى بقوله تعالى: (حتى عفوا وقالوا قد مسَّ آباءنا الضراء والسراء) [الأعراف: ٩٥].

وعمل الصحابة يدل على ترجيح هذا المعنى، خاصّة رواة أحاديث إعفاء اللحية عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس وأبو هريرة رضي الله عنهم، فقد ثبت في الموطّأ أنَّ عبدالله عمر رضي الله عنهما كان يأخذ من لحيته ما زاد على القبضة، وثبت أنَّ ابن عبّاس فسَّر التفث في قوله تعالى: ﴿ثمَّ ليقضوا تَفَثَهم﴾ [الحج: ٢٩] بالأخذ من اللحية والشاربين، وحلق الرأس، ونتف الإبط، وقصِّ الأظفار [١]

وبالجملة فإنَّ الأخذ من طول اللحية ما زاد على القبضة، ومن عرضها وتشذيبها حَسَن، وهو الثابت عن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخاصّة رواة أحاديث إعفاء اللحية، ومنهم عبدالله بن عمر - وناهيك به - رضي الله عنه ونحن إنَّما نأخذ أحكامنا الشرعية من الكتاب والسنّة بفهم السلف الصالح، والسلف الصالح هم أهل القرون الثلاثة الأولى، وعلى رأسهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم.

وأمّا مَنْ ترك لحيته دون أخذ من طولها أو عرضها فلا يُثَرَّب عليه، لأنَّ هذه وأمثالها مسائل فقهية، الأمر فيها واسع، والخلاف فيها سائغ، فلا نطوّل الكلام فيها ونُبَدِّع المخالف وكأنَّها أصل من الأصـــول.

٢- حكم الشارب:

مرَّ معنا في حكم اللحية حديثان عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيهما: (أنهكوا الشوارب) و (جزّوا الشوارب).

(١) تفسير الطبري: ٩/ ١٤٠.

وعن أنس رضي الله عنه قال: وُقِّت لنا في قصِّ الشارب، وتقليم الأظفار، ونتف الإبط، وحلق العانة، أن لا نترك أكثر من أربعين ليلة (١).

وقال الإمام مالك رحمه الله: كان عمر بن الخطاب إذا كَرَبَه أمر نفخ وفَتَل شاربه (٢).

وليس هناك خلاف في أنَّ قصَّ الشارب واجب أو سنّة مؤكدة، قال النووي رحمه: (أمّا قصُّ الشارب فمتفقٌ على أنَّه سنّة) (٣)، وقال العراقي: (قصُّ الشارب وهو مُجْمَع على استحبابه) (٤)، لكنَّ الخلاف على المقصود بالقص، والصحيح أنَّ المقصود هو قصُّ ما نزل من الشعر على الشفة العليا لا حلق الشارب بالكامل، ولذلك اعتبر الإمام مالك رحمه الله حلق الشارب مُثْلَة يُعزَّر فاعلها، واحتجَّ الإمام مالك أنَّ عمر رضي الله عنه كان يفتل شاربه إذا غضب أو اهتمَّ.

وعلى الأصل الذي اعتمدناه بأنَّنا نأخذ القرآن والسنّة بفهم السلف الصالح، نفسِّر قوله ﷺ: (أنهكوا الشوارب) وقوله: (جزّوا الشوارب) بفعل عمر رضي الله عنه - وناهيك به - أمير المؤمنين الذي قال فيه عليه الصلاة والسلام: بينا أنا نائم أتيت بقدح لبن فشربت منه حتى إني لأرى الري يخرج من أظفاري، ثمَّ أعطيت فضلي يعني عمر، قالوا: فما أولته يا رسول الله؟ قال: العلم (٥)، وقال عليه الصلاة والسلام: اقتدوا باللّذَيْن من بعدي أبي بكر وعمر(٦)، فلا يكون المقصود بالجزِّ والإنهاك هو حلق الشارب بالكامل

٣- حكم تطويل شعر الرأس:

عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: ما رأيت من ذي لِمَّة في حلّة حمراء أحسن من رسول الله ﷺ، له شعر يضرب منكبيه (٧) (٨)

(١) رواه مسلم.
(٢) الاستذكار لابن عبد البر.
(٣) المجموع: ٢/ ٢٢٧.
(٤) طرح التثريب في شرح التقريب: ١/ ٧٢.
(٥) متفق عليه.
(٦) رواه الترمذي.
(٧) مجتمع رأس العضدين والكتف.
(٨) متفق عليه.

وعن أمِّ هانئ رضي الله عنها قالت: قَدِمَ رسول الله ﷺ مكّة وله أربع غدائر [1] [2]

وعلى هذا فمَنْ أراد أن يكون شعره على صفة شعر النبي ﷺ إذا طال فإلى منكبيه، وإن قصر فإلى شحمة أذنيه، فله ذلك، وإن طوَّله أكثر من ذلك فلا بأس، كما فعل بعض الصحابة رضي الله عنهم، فعثمان رضي الله عنه كانت له عقيصتان [3]، وأبو عبيدة رضي الله عنه كانت له عقيصتان.

ويستحبُّ فرْق الشعر لأنَّ النبي ﷺ فرق شعره، كما في حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وكذلك على المسلم أن يهتمَّ بشعره، فعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه: مَنْ كان له شعر فليكرمه[4]، لكن دون مبالغة أو إفراط لأنَّ النبي ﷺ نهى عن الترجِّل إلاّ غِبَّاً [5]، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: والصواب أنه لا تعارض بينهما - أي بين حديث (من كان له شعر فليكرمه)، وبين حديث النهي عن الترجل إلا غِبَّاً -، فإنَّ العبد مأمور بإكرام شعره، ومنهي عن المبالغة والزيادة في الرفاهية والتنعم، فيُكْرم شعره ولا يتخذ الرفاهية والتنعُّم ديدنه، بل يترجَّل غِبَّاً، هذا أولى ما حمل عليه الحديثان اهـ[6].

وأمّا حلق شعر الرأس بالموسى فمكروه، لأنَّ النبي ﷺ قال عن الخوارج: سيماهم التحليق[7].

وبالجملة فإنَّ تطويل شعر الرأس من سنن العادات وليس من السنن التعبّدية الشرعية، فمَنْ شاء أطال شعره وجعله إلى منكبيه، أو إلى شحمة أذنيه، أو جعله غدائر، أو قصَّ شعره بالمقص أو الماكنة الكهربائية، فلا يُثرَّب على أحد، لكن يُجتَنَب حلقه بالموسى، أو القَزَع، أو التشبّه بالكافرين.

---

(١) الغديرة: الذُّؤابة المضفورة من الشعر.
(٢) رواه الترمذي وأبو داود وابن ماجة، وحسّنه الحافظ ابن حجر في الفتح.
(٣) أي: ضفيرتان.
(٤) رواه أبو داود.
(٥) رواه أبو داود والترمذي، ومعنى غبّاً: يدهن يوماً، ويوماً لا يدهن.
(٦) حاشية سنن أبي داود: ١١/ ١٤٧.
(٧) متفق عليه.

٤- حكم الإسبال:

عن عبدالله بن عمر ﭬ عن النبي ﷺ قال: مَنْ جرَّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة، قال أبو بكر: يا رسول الله، إنَّ أحد شِقيْ إزاري يسترخي إلا أن أتعاهد ذلك منه، فقال النبي ﷺ: إنَّك لست تصنع ذلك خيلاء [١].

وعن جابر بن سليم أنَّ رسول الله ﷺ قال: وارفع إزارك إلى نصف الساق، فإن أبيت فإلى الكعبين، وإياك وإسبال الإزار فإنَّها من المَخيَلة، وإنَّ الله لا يحب المَخيَلة[٢].

وعن أبي هريرة ﭬ عن النبي ﷺ قال: ما أسفل من الكعبين من الإزار ففي النار[٣]

ذهب جمهور أهل العلم ومنهم الأئمة الأربعة أبو حنيفة ومالك والشافعي وأحمد والإمام ابن تيميّة رحمهم الله إلى أنَّ أحاديث النهي عن الإسبال مقيّدة بالخيلاء، فالنبي ﷺ جعل مناط التحريم هو الخيلاء، لأنَّ الإسبال قد يكون للخيلاء، وقد يكون لغيره، ولذلك يُحمل قوله ﵇ (فإنَّها من المخيلة) في حديث جابر بن سليم أنَّه خرج مخرج الغالب، فالوعيد إذن متوجّه إلى مَنْ فعل ذلك اختيالاً، فمن الناس مَنْ يُسبل إزاره مع عدم خطور الخيلاء بباله، وبهذا يحصل الجمع بين الأحاديث، وعدم إغفال قيد الخيلاء مصرّح به في الصحيحيْن، قال الإمام ابن تيميّة ﵀ في شرح العمدة: (وهذه نصوص صريحة في تحريم الإسبال على وجه المَخيَلة، والمطلق منها محمول على المقيد)، ثمَّ قال: (ولأنَّ الأحاديث أكثرها مقيّدة بالخيلاء فيُحمل المطلق عليه، وما سوى ذلك فهو باقٍ على الإباحة، وأحاديث النهي مبنيّة على الغالب والمظنّة)، ثمَّ قال: وبكل حال فالسنّة تقصير الثياب، وحدُّ ذلك ما بين نصف الساق إلى الكعب. اهـ.

(١) رواه البخاري.
(٢) (٤) رواه أبو داود.
(٣) رواه البخاري.

قلت: لا ريب أنَّ إسبال الثوب أصبح من عادة الناس اليوم، فالأغلبية الساحقة من المسلمين يسبلون، الغني والفقير، والكبير والصغير، فلم يعد الإسبال خاصاً بطائفة من الناس دون أخرى، ولا يخطر ببال أحد من المسلمين في زماننا الخيلاء بإسباله، والنصوص واضحة في عدم التحريم إلّا بقيد الخيلاء، وهذا مذهب الجمهور ومنهم الأئمة الأربعة والإمام ابن تيميّة - وناهيك بهم -.

وأمَّا القول بأنَّ كل إسبال يستلزم الخيلاء فلا ريب أنَّه مردود، فالمسلمون يسبلون مع عدم خطور الخيلاء ببال أحدهم.

فمَنْ قصَّر ثوبه وجعله فوق الكعب فقد أحسن، على أن لا يكون في الأمر مبالغة فيصبح لباس شهرة، ومَنْ أسبل ولم تكن نيّته المَخيَلة فلا يُثَرَّب عليه، وهذه مسألة الأمر فيها واسع، والخلاف فيها سائغ، فاحذر أن تغلو فيها فتتعامل معها كأنَّها أصل من الأصول، أو من مسائل الولاء والبراء.

ومعلوم أنَّ الذين تشدَّدوا في هذه المسائل وأمثالها كوضع اليدين على الصدر عند القيام في الصلاة، والتكتّف بعد الركوع، وتحريك السبّابة في التشهّد وغيرها، إنَّما أرادوا بذلك صرف المسلمين عن قضاياهم الكبرى كالتوحيد والجهاد والولاء والبراء، وهي أهداف خبيثة، فاحذر أن تقع في شباكهم وتبتلع طعمهم، فلا تخلط المسائل الفقهية بالمسائل العقدية، ولا تنكر على المخالف في المسائل التي يكون فيها الخلاف سائغاَ، ولا تتشدد في مسائل لا تستحق التشديد، حيث لم يتناولها السلف تناولاً متشنّجاً، ولا تُحمِّل المسائل أكثر ممّا تحتمل، فيكون السلف قد تناولوا المسألة بكلمتين أو سطرين فتخرجها أنت عن سياقها وتعطيها وزناً ومساحة وأولوية في خطاب الآخرين، وحذارِ من الاستدلال ببادي الرأي، ثمَّ الزعم بأنَّ ذلك هو اتباع السنّة، وتغفل عن طرائق الفقهاء ومسالكهم في الاستنباط، ولا تسوِّ بين النص وفهمك له، ثمَّ تجعل فهمك للنص هو النص، ثمَّ تهاجم المخالف وتنسبه إلى البدعة والزيغ.

كتابه ﷺ إلى قيصر

روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنَّ أبا سفيان بن حرب أخبره أنَّ هرقل أرسل إليه في ركب من قريش، وكانوا تجاراً بالشام في المدّة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء [1]، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثمَّ دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيّكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنّه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسباً، فقال: أدنوه منّي، وقرِّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثمَّ قال لترجمانه: قل لهم: إنّي سائل هذا عن هذا الرجل، فإنْ كَذَبَني فكَذِّبُوه، فوالله لولا الحياء من أنْ يؤثروا عليَّ كذباً لكذبت عنه، ثمَّ كان أول ما سألني عنه أنْ قال: كيف نَسَبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟، قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه مِنْ ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون، قال فهل يرتدُّ أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟، قلت: لا قال: فهل يغدر؟ قلت لا: ونحن منه في مدّة لا ندري ما هو فاعل فيها – قال: ولم تمكّني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة – قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منّا وننال منه، قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصدق، والعفاف، والصلة، فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنّه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل، تُبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أنْ لا، فقلتُ لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلتُ رجل يأتسي بقول قِيل قبله، وسألتك هل كان مِنْ آبائه من ملك، فذكرت أنْ لا، قلتُ: فلو كان من آبائه من

(١) بيت المقدس.

ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنّه لم يكن لِيَذَر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أنَّ ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنّهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه، فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالطُ بشاشتُه القلوب، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بِمَ يأمركم، فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنتُ أعلم أنَّه خارج، لم أكن أظنُّ أنّه منكم، فلو أنّي أعلم أنّي أخلص إليه لتجشمتُ لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلت عن قدمه، ثمَّ دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمّد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى أمّا بعد: فإنّي أدعوك بدعاية الإسلام، أَسْلم تَسْلَم يؤتك الله أجرك مرتين، فإنْ توليت فإنَّ عليك إثم الأريسيين، و)يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإنْ تولوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون) قال أبو سفيان: فلمّا قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأُخرجنا، فقلت لأصحابي حين أُخْرِجنا: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة [1] إنّه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقناً أنّه سيظهر حتى أدخل الله عليَّ الإسلام.

---

(١) أبو كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة النبي ﷺ، وقد نسب أبو سفيان النبي ﷺ له للانتقاص منه.

كتابه ﷺ إلى المقوقس ملك مصر والإسكندرية

بعث رسول الله ﷺ حاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس - صاحب مصر والإسكندرية - فمضى حاطب بكتاب رسول الله ﷺ إليه، فقبّل المقوقس الكتاب وأكرم حاطباً، وأحسن نزله، وسرّحه إلى النبي ﷺ، وأهدى له مع حاطب كسوة وبغلة بسرجها، وجاريتين، والجاريتان مارية وسيرين، والبغلة دُلْدل، بقيت إلى زمان معاوية، واتخذ النبي ﷺ مارية سرية له، وقد ولدت له إبراهيم، وأمّا سيرين فأعطاها لحسان بن ثابت رضي الله عنه[1]، ولم يسلم المقوقس.

كتابه ﷺ إلى ملك عمان

بعث رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عبد أولاد الجلندي، فتكلّم عمرو مع عبد أولاً، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خُلُقاً، ثمَّ دعاه ملك عمان جيفر فدخل عليه عمرو، يقول عمرو بن العاص رضي الله عنه: ثمَّ إنّه دعاني يوماً فدخلت عليه، فأخذ أعوانه بضَبْعَي[2]، فقال: دعوه، فأُرسلتُ، فذهبتُ لأجلس، فأبوا أن يدعوني أجلس، فنظرت إليه فقال: تكلّم بحاجتك، فدفعت إليه الكتاب مختوماً، ففضَّ خاتمه، وقرأ حتى انتهى إلى آخره، ثمَّ دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلّا أني رأيت أخاه أرقَّ منه، قال: أَلَا تخبرني عن قريش كيف صنعت؟ فقلت: تبعوه إمّا راغب في الدين، وإمّا مقهور بالسيف، قال: ومَنْ معه؟ قلت: الناس قد رغبوا في الإسلام واختاروه على غيره، وعرفوا بعقولهم مع هدى الله إياهم أنّهم كانوا في ضلال، فما أعلم أحداً بقي غيرك في هذه الخرجة، وأنت إن لم تسلم اليوم وتبعته توطئك الخيل وتبيد خضراءك، فأَسْلِم تَسْلَم، ويستعملك على قومك، ولا تُدْخِل عليك الخيل والرجال، قال: دعني يومي هذا وارجع إليَّ غداً، ثمَّ أسلم جيفر وأخوه

(١) زاد المعاد.

(٢) أي: عضديه.

عبد وصدّقا النبي ﷺ [1].

وبهذه الكتب كان النبي ﷺ قد أبلغ دعوته إلى أكثر ملوك الأرض، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، آمن اثنان منهم وهم: المنذر بن ساوى ملك البحرين وجيفر بن الجلندي ملك عمان وأخوه عبد، وكفر خمسة منهم وهم: كسرى وقيصر والمقوقس والحارث بن أبي شمر الغساني وهوذة بن علي، أمّا النجاشي فلا يُدرى هل أسلم أم لا، وقد أسلم باذان الفارسي ملك اليمن فدخلت اليمن في الإسلام.



الرقم	حاملُ الكتاب	الجهة	المُرْسَل إليه
١	عمرو بن أمية الضَّمري	الحبشة	النجاشي
٢	العلاء بن الحضرمي	البحرين	المنذر بن ساوَى
٣	عبد الله بن حذافة السهمي	طيسفون (المدائن)	كسرى الفرس
٤	دِحية الكلبي	القدس	هرقل قيصر الروم
٥	حاطب بن أبي بلتعة	الإسكندرية	المقوقس عظيم مصر
٦	عمرو بن العاص	عُمان	جَيْفَر وعبد ابني الجُلَنْدى
٧	سليط بن عمرو العامري	اليمامة	هوذة بن علي
٨	شجاع بن وهب الأسدي	غوطة دمشق	الحارث بن أبي شمر الغسّاني

(١) زاد المعاد.

غزوة ذي قَرَد (غزوة الغابة)

روى البخاري ومسلم عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: خرجت قبل أن يؤذَّن بالأولى[1] وكانت لقاح[2] رسول الله ﷺ ترعى بذي قَرَد، قال : فلقيني غلام لعبدالرحمن بن عوف فقال : أُخذت لقاح رسول الله ﷺ، فقلت : مَنْ أخذها؟ قال : غطفان ، قال : فصرختُ ثلاث صرخات: يا صباحاه[3] قال: فأسمعتُ ما بين لابتي المدينة[4]، ثمَّ اندفعتُ على وجهي حتى أدركتهم بذي قَرَد، وقد أخذوا يسقون من الماء، فجعلت أرميهم بنَبْلي وكنت رامياً وأقول:

أنا ابن الأكوع   واليوم يوم الرُضّع

فأرتجز، حتى استنقذتُ اللقاح منهم، واستلبت منهم ثلاثين بردة، قال : وجاء النبي ﷺ والناس فقلت: يا نبي الله!، إنّي قد حميت القوم الماء [5] وهم عطاش، فابعث إليهم الساعة، فقال: يا ابن الأكوع ملكتَ فأسْجِح [6] ، قال: ثمَّ رجعنا، ويردفني رسول الله ﷺ على ناقته حتى دخلنا المدينة.

---

(١) أي: صلاة الفجر.
(٢) واحدها لقحة، وهي الإبل ذات اللبن، قريبة العهد بالولادة.
(٣) كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة، لأنّهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح.
(٤) أي ما بين حرّتي المدينة، والحرّة: الأرض الملبسة بالحجارة السوداء.
(٥) أي: منعتهم.
(٦) فأسجح – بهمزة قطع وسين ساكنة وجيم مكسورة – معناه فأحسن وارفق، والمعنى: قدرتَ فاعفُ.

غزوة خيبر

كانت خيبر خليطاً من العرب واليهود قبل أن يفتحها المسلمون، ولم يُظهر يهود خيبر العداء للمسلمين قبل أن ينزل فيهم زعماء بني النضير الذين أجلاهم النبي ﷺ.

وخيبر منطقة زراعية تبعد حوالي ١٦٥ كيلاً شمال المدينة، وبعد ازدياد عدد اليهود فيها والذين تمَّ إجلاؤهم من المدينة بدأ الساكنون الجدد من اليهود بالتحريض ضد المسلمين ليجرُّوا معهم يهود خيبر إلى الصراع ضد المسلمين يدفعهم لذلك حقدهم على المسلمين وأملهم في أن يتمكّنوا من العودة إلى ديارهم، والقضاء على دولة النبي ﷺ.

لم يكن إجلاء يهود بني النضير من المدينة كافياً لكسر شوكتهم وخطرهم حيث غادروا المدينة بزهوٍ ما عرف العرب مثله، يضربون بالدفوف والمزامير، ومعهم نساؤهم وأبناؤهم وأموالهم.

وحين سكن بنو النضير بخيبر تزعّموها، وكان على رأسهم سلّام بن أبي الحقيق، وكنانة بن الربيع، وحُيي بن أخطب.

شهدت غزوة الأحزاب أوّل تحرك فعلي ليهود خيبر ضد المسلمين، حيث لعبت خيبر وعلى رأسها زعماء بني النضير دوراً رئيسياً في حشد الأحزاب ضد المسلمين، ودعموا الأحزاب بالمال، كما استطاعوا إقناع بني قريظة بالغدر بالمسلمين ونقض العهد مع النبي ﷺ.

ولمّا تفرَّق الأحزاب وبدأ رسول الله ﷺ بحملاته التأديبية ضد كل من شارك في الأحزاب، أولى عليه السلام اهتماماً كبيراً بخيبر، فأرسل من يغتال سلّام بن أبي الحقيق، لكنَّ هذا لم يكن كافياً لإنهاء الخطر الذي يشكّله يهود خيبر.

ومع انشغال النبي ﷺ بالحرب مع قريش، وتأديب القبائل التي شاركتها في الأحزاب لم يكن هناك بُدٌّ من تأجيل التعامل مع هذا الخطر إلى أن يحين الوقت المناسب.

وبعد أن تمَّ صلح الحديبية، وتمكَّن ﷺ من تحييد أكبر عدو للمسلمين، أصبحت الفرصة متاحة لاستئصال الخطر المتمثل في يهود خيبر خصوصاً بعد نزول سورة الفتح في طريق العودة من الحديبية، حيث ذهب كثير من المفسرين إلى أنَّ آيات سورة الفتح أشارت إلى وعد الله ﷻ للمسلمين بفتح خيبر واغتنام ما فيها، قال تعالى (لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا).

خروج المسلمين نحو خيبر

خرج رسول الله ﷺ إلى خيبر في المحرّم من السنة السابعة في ألف وأربعمائة من الصحابة، واستعمل على المدينة سباع بن عرفطة الغفاري، وحينها قَدِمَ أبو هريرة ﵁ مسلماً فزوَّده سباع بن عرفطة ولحق بالنبي ﷺ في خيبر.

١- عن سلمة بن الأكوع ﵁ قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، فَسِرْنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر [(١)]: يا عامر ألا تسمعنا من هنيهاتك، وكان عامر رجلاً شاعراً، فنزل يحدو بالقوم يقول:

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلّينا
فاغفر فداء لك ما أبقينا وثبت الأقدام إن لاقينا
وألقينْ سكينةً علينا إنّا إذا صيح بنا أبينا
وبالصياح عوّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟، قالوا: عامر بن الأكوع، قال: ي﵀، قال

(١) هو عامر بن الأكوع عمُّ سلمة بن الأكوع ﵄.

رجل من القوم: وجبت يا نبي الله، لولا أمتعتنا به [1]، وكانوا يعرفون أنَّ النبي ﷺ لا يستغفر لإنسان يخصّه إلا استشهد.

٢- عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: لمّا غزا رسول الله ﷺ خيبر أو قال: لمّا توجه رسول الله ﷺ أشرف الناس على وادٍ فرفعوا أصواتهم بالتكبير، الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ أربعوا على أنفسكم [2]، إنَّكم لا تَدْعون أصمّاً ولا غائباً، إنَّكم تدعون سميعاً قريباً وهو معكم، وأنا خلف دابة رسول الله ﷺ فسمعني وأنا أقول: لا حول ولا قوة إلا بالله، فقال لي: يا عبد الله بن قيس، قلت: لبيك يا رسول الله، قال: ألا أدلُّك على كلمة من كنز من كنوز الجنة، قلت: بلى يا رسول الله، فداك أبي وأمي، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله [3].

وقد وصل النبي ﷺ إلى الرجيع والتي تقع شمال شرق خيبر، ومنها انطلق لفتح خيبر حيث حاول رسول الله ﷺ عزل خيبر عن الشام وعن حلفائها من غطفان تحسباً لأي نصرة قد ترد خيبر منهم.

وبالفعل حاولت غطفان مساعدة يهود خيبر ونجدتهم، لكنَّهم تراجعوا عن ذلك وعادوا إلى ديارهم قبل أن يصلوا خيبر، خشية أن يهاجمهم المسلمون في ديارهم.

الجيش الإسلامي إلى أسوار خيبر

روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه: قال صبّحنا خيبر بكرة، فخرج أهلها بالمساحي [4]، فلمّا بصروا بالنبي ﷺ قالوا: محمّد والله، محمّد والخميس [5] فقال النبي ﷺ: الله أكبر، خَرِبَتْ خيْبر، إنّا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المُنْذَرين.

---

(١) متفق عليه.
(٢) أي: ارفقوا بها، ولا تبالغوا في الجهر.
(٣) رواه البخاري.
(٤) المجرفة من الحديد.
(٥) الخميس: الجيش.

ولمّا دنا رسول الله ﷺ من خيبر وأشرف عليها قال: قفوا، فوقف الجيش، فقال: اللهم رب السماوات السبع وما أظللن، ورب الأرضين السبع وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، فإنّا لنسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرِّ هذه القرية، وشرِّ أهلها، وشرِّ ما فيها، أقدموا بسم الله

بدء المعركة

كانت خيبر مقسّمة إلى قسمين، وفيها ثمانية حصون رئيسية منيعة، خمسة في القسم الأول، ثلاثة منها في منطقة يقال لها: النطاة، وهي: حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن قلعة الزبير، واثنان في منطقة يقال لها: الشق وهما: حصن أُبيْ، وحصن النزار.

وهذه الحصون الخمسة هي التي كان فيها القتال بين المسلمين واليهود.

وأمّا القسم الثاني من خيبر والذي كان يسمّى الكتيبة فكان فيه ثلاثة حصون، وهي: حصن القموص الذي كان حصن بني أبي الحقيق من بني النضير، وحصن الوطيح، وحصن السلالم.

ورغم أنَّ هذه الحصون الثلاثة حصون منيعة، وفيها كثير من المحاربين إلّا أنَّها سُلِّمت للمسلمين دون قتال.

وكان حصن ناعم يمثِّل خط الدفاع الأول لليهود، حيث يتميّز بمكانه الاستراتيجي، وفي هذا الحصن كان مرحب شجاع يهود، ورد عن سلمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: لمّا قدمنا خيبر خرج ملكهم مرحب يخطر بسيفه [1] ويقول:

قد علمت خيبر أنّي مرحب شاكي السلاح [2] بطلٌ مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهَّب

---

(١) أي يرفعه مرة ويضعه مرة.

(٢) أي تام السلاح.

قال: وبرز له عمّي عامر، فقال:

قد علمت خيبر أنّي عامر شاكي السلاح بطل مغامر

قال: فاختلفا ضربتين فوقع سيف مرحب في تُرس [(١)] عامر وذهب عامر يسفل له [(٢)]، فرجع سيفه على نفسه فقطع أكحله فكانت فيها نفسُه.

وفي الرواية المتفق عليها قال سلمة: رآني رسول الله ﷺ وهو آخذ بيدي قال: ما لك؟، قلت له: فداك أبي وأمي زعموا أن عامراً حبط عمله، قال النبي ﷺ: كذب من قاله، إنَّ له لأجرين - وجمع بين إصبعيه - إنه لجاهد مجاهد، قلَّ عربي مشى بها مثله.

قال سلمة: ثمَّ أرسلني إلى علي وهو أرمد [(٣)]، فقال: لأعطينَّ الراية رجلًا يحبُّ الله ورسوله و يحبُّه الله ورسوله قال: فأتيتُ علياً فجئتُ به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله ﷺ، فبسق في عينيه فبرأ وأعطاه الراية وخرج مرحب، فقال:

قد علمت خيبر أنّي مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

إذا الحروب أقبلت تلهَّب،

فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أنا الذي سمّتني أمّي حَيْدَرهْ [(٤)] كليثِ غاباتٍ كريهِ المنظره

أوفيهم بالصاع كيل السندرة [(٥)]

قال: فضرب رأس مرحب فقتله ثمَّ كان الفتح على يديه. [(٦)] [(٧)]

---

(١) صفحة من الفولاذ تُحمل لوقاية الوجه والرأس من الضربات.

(٢) أي يضربه من الأسفل.

(٣) الرَمَد: داء يُصيب العين.

(٤) اسم للأسد.

(٥) معناه أقتل الأعداء قتلًا واسعاً ذريعاً، والسندرة مكيال واسع، وقيل: هي العجلة، أي أقتلهم عاجلاً. شرح صحيح مسلم للنووي: كتاب الجهاد والسير / باب غزوة ذي قرد وغيرها.

(٦) رواه مسلم.

(٧) وقيل أنَّ الذي قتل مرحب اليهودي هو محمد بن مسلمة، وقيل أنَّ محمد بن مسلمة قطع رجلي مرحب فقال مرحب: أجهز عليّ، فقال: لا، حتى تذوق الموت كما ذاقه محمود بن

وقد سأل علي رضي الله عنه النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: قاتلهم حتى يشهدوا أنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمّداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك منعوا منك دماءهم وأموالهم إلّا بحقّها وحسابهم على الله. (١)

وفي رواية أنَّ النبي ﷺ لمّا أعطى الراية لعلي قال له علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟، فقال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثمَّ ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمُر النَّعم (٢).

ثمَّ خرج ياسر أخو مرحب وهو يقول: مَنْ يبارز؟ فبرز إليه الزبير، فقالت أمّه صفيّة عمّةُ رسول الله ﷺ:يا رسول الله يَقتُل ابني؟ قال: «بل ابنك يقتله»، فقتله الزبير.

قال ابن هشام: وتدنّى رسول الله ﷺ الأموال يأخذها مالاً مالاً، ويفتتحها حصناً حصناً، فكان أول حصونهم افتُتِح حصن ناعم، وعنده قُتِل محمود بن مسلمة، أُلقِيَت عليه منه رحا فقتلته، ثمَّ القموص، حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ منهم سبايا، منهنَّ صفية بنت حيي بن أخطب. اهـ

وهكذا بدأت حصون خيبر تسقط بيد المسلمين حصناً حصناً حيث سقطت حصون منطقة النطاة، فقوي موقف المسلمين كثيراً وأصاب بقية يهود خيبر الرعب لسقوط هذه المنطقة المحصّنة.

هاجم المسلمون منطقة الشق التي كانت تضمُّ عدة حصون أهمّها حصن أُبيْ وحصن النزار، ففتحوا حصن أُبيْ وسيطروا عليه، ثمَّ فتحوا حصن النزار، وفرَّ بقية أهل الشق إلى منطقة الكتيبة في القسم الثاني من خيبر، وتحصّنوا في حصونها، فحاصرهم المسلمون أربعة عشر يوماً ثمَّ طلبوا الصلح دون قتال بعد أن انهارت مقاومة يهود وأدرك مَنْ تبقى في حصون خيبر أنْ لا جدوى من المقاومة فسألوا

مسلمة، فمرّ به علي فقطع رأسه.

(١) شرح النووي على مسلم ١٥/ ١٧٧.

(٢) متفق عليه.

رسول الله ﷺ أن يسيّرهم ويَحقِن دماءهم ففعل.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: قال حماد بن سلمة أنبأنا عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر، أنَّ رسول الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلب على الزرع والنخل والأرض، فصالحوه على أن يُجلَوا منها، ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله ﷺ الصفراء والبيضاء [1]، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يُغيّبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمّة لهم ولا عهد [2].



يهود تنقض العهد

غيّب اليهود مَسْكاً [3] فيه مالٌ وحُليٌ لحيي بن أخطب كان احتمله معه إلى خيبر

(١) أي الذهب والفضة.

(٢) زاد المعاد.

(٣) جلداً.

حين أُجليت النضير، فقال رسول الله ﷺ لعمِّ حيي بن أخطب: ما فعل مَسْك حيي الذي جاء به من النضير؟ قال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسّه بعذاب، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال: قد رأيت حيياً يطوف به في خربة هاهنا، فذهبوا فطافوا فوجدوا المَسْك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابني أبي الحقيق، وأحدهما زوج صفية بنت حيي بن أخطب، وسبى رسول الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسّم أموالهم بالنّكث الذي نكثوا، وأراد أن يجلّيهم منها، فقالوا: يا محمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغون يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أنّ لهم الشطر [1] من كل زرع وكل ثمر ما بدا لرسول الله ﷺ أن يُقرّهم [2][3] وبإنهاء خطر خيبر انتهى دور اليهود العسكري والاقتصادي في الحجاز أيام النبي ﷺ ليتفرَّغ عليه الصلاة والسلام لإخضاع القبائل العربية وتوحيد الجزيرة تحت راية لا إله إلّا الله.

بقي اليهود في خيبر طيلة حياة النبي ﷺ ثمَّ في خلافة أبي بكر، فلمّا جاءت خلافة عمر رضي الله عنه غدروا بالمسلمين كعادتهم، وبدأوا بالممارسات الاستفزازية ففدعوا [4] يدي عبدالله بن عمر وهو نائم في سهمه من خيبر، فأخذ عمر رضي الله عنه ضياعهم وأجلاهم عنها.

قسمة الغنائم

كانت غنائم خيبر كثيرة جداً حتى قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما فيما يروي البخاري: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر، وكذلك قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: لمّا فُتِحَت خيبر

(١) أي: النصف.

(٢) أخرجه أبو داود والبيهقي.

(٣) انظر زاد المعاد.

(٤) الفدع: عوج في المفاصل، كأنّها قد فارقت مواضعها.

قلنا: الآن نشبع من التمر[١]، وقد قسّم رسول الله ﷺ أرض خيبر على ستة وثلاثين سهماً، وجمع كل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة سهم، فكان لرسول الله ﷺ والمسلمين النصف من ذلك وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ سهم كسهم أحد المسلمين، وعزل النصف الآخر وهو ألف وثمانمائة سهم، لنوائبه وما يتنزل به من أمور المسلمين.

وحين عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة ردَّ المهاجرون إلى الأنصار منائحهم التي كانوا منحوهم من ثمارهم حيث استغنوا عنها بالفتوح[٢].

وقد ثبت أنَّ النبي ﷺ أعطى أهل السفينة من مهاجرة الحبشة الذين عادوا منها إلى المدينة ووصلوا خيبر بعد الفتح من غنائم خيبر، وكانوا ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً بإمارة جعفر بن أبي طالب، ولم يقسم لأحد لم يشهد الفتح سواهم [٣]، كما أعطى أبا هريرة وبعض الدَوْسيين من الغنائم حيث قدموا عليه بعد فتح خيبر، ولم يشتركوا في القتال.

ومن أحداث غزوة خيبر

١- هذا من أهل النار:

عن سعيد بن المسيب أنَّ أبا هريرة رضي الله عنه قال: شهدنا خيبر فقال رسول الله ﷺ لرجل ممن معه يدّعي الإسلام: هذا من أهل النار، فلمّا حضر القتال قاتل الرجل أشدَّ القتال حتى كثرت به الجراحة فكاد بعض الناس يرتاب، فوجد الرجل ألم الجراحة فأهوى بيده إلى كنانته فاستخرج منها أسهما فنحر بها نفسه، فاشتد رجال من المسلمين فقالوا: يا رسول الله، صدّق الله حديثك، انتحر فلان فقتل نفسه، فقال:

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) صحيح البخاري / كتاب فرض الخمس، وصحيح مسلم / كتاب فضائل الصحابة.

قم يا فلان فأذّن أنّه لا يدخل الجنّة إلا مؤمن، إنَّ الله يؤيد الدين بالرجل الفاجر [١]

٢- شأن الأسود الراعي:

قال ابن هشام: وكان من حديث الأسود الراعي - فيما بلغني - أنه أتى رسول الله ﷺ وهو محاصِر لبعض حصون خيبر، ومعه غنم له، كان فيها أجيراً لرجل من يهود، فقال: يا رسول الله، اعرض عليَّ الإسلام، فعرضه عليه فأسلم - وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً أنْ يدعوه إلى الإسلام، ويعرضه عليه، فلمّا أسلم قال: يا رسول الله، إنّي كنت أجيراً لصاحب هذه الغنم وهي أمانة عندي، فكيف أصنع بها؟ قال: اضرب في وجوهها، فإنّها سترجع إلى ربها - أو كما قال - فأخذ حفنة من الحصى، فرمى بها في وجوهها، وقال: ارجعي إلى صاحبك، فوالله لا أصحبك أبداً، فخرجت مجتمعة، كأنَّ سائقاً يسوقها حتى دخلت الحصن، ثمَّ تقدم إلى ذلك الحصن ليقاتل مع المسلمين، فأصابه حجر فقتله، وما صلّى لله صلاة قط، فأُتي به رسول الله ﷺ، فوُضِع خلفه، وسُجّي بشملة كانت عليه، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه، ثمَّ أعرض عنه، فقالوا: يا رسول الله، لِمَ أعرضت عنه؟ قال: إنَّ معه الآن زوجتيه من الحور العين. اهـ.[٢]

٣- إنْ تصدق الله يصدقك:

قسم رسول الله ﷺ أثناء المعركة لأعرابي شهد خيبر حصّته من الغنيمة، فلمّا أعطوه ما قُسِم له جاء به إلى النبي ﷺ فقال: ما على هذا اتبعتك، ولكنّي اتبعتك على أن أُرمى ها هنا - وأشار إلى حلقه - بسهم فأدخل الجنة، قال: إنْ تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلاً ثمّ نهضوا في قتال العدو فأُتي به يُحمل قد أصابه سهم حيث أشار، فكفّنه النبي ﷺ بجبّته وصلّى عليه ودعا له، فكان ممّا قال: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في سبيلك، وقُتل شهيداً، وأنا عليه شهيد»[٣]

---

(١) متفق عليه.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٢٦٥.

(٣) مصنف عبد الرزاق.

٤- النهي عن المتعة وأكل لحوم الحمر الإنسية:

روى البخاري ومسلم عن علي بن أبي طالب ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر وعن أكل لحوم الحمر الإنسية.

٥- قسمه ﷺ لبني هاشم وبني المطلب دون بني نوفل وعبد شمس:

روى البخاري عن سعيد بن المسيب أنَّ جبير بن مطعم أخبره قال: مشيت أنا وعثمان بن عفان إلى النبي ﷺ فقلنا: أعطيتَ بني المطلب من خُمُس خيبر وتَرَكْتَنا، ونحن بمنزلة واحدة منك، فقال: إنّما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، قال جبير: ولم يقسم النبي ﷺ لبني عبد شمس وبني نوفل شيئاً.

٦- روى البخاري عن يزيد بن أبي عبيد قال: رأيت أثر ضربة في ساق سلمة فقلت: يا أبا مسلم ما هذه الضربة؟، فقال: هذه ضربة أصابتني يوم خيبر، فقال الناس: أصيب سلمة، فأتيت النبي ﷺ فنفث فيه ثلاث نفثات فما اشتكيتها حتى الساعة.

٧- أمر الشاة المسمومة:

عن أنس ﵁ أنَّ امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك فقالت: أردت لأقتلك، قال: ما كان الله ليسلّطك على ذلك - أو قال: عليّ - قالوا: ألا نقتلها؟، قال: لا، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ. رواه مسلم.

وأكل بشر بن البراء بن معرور ﵁ من الشاة فمات، فيقال أنَّ المرأة أسلمت، فتركها النبي ﷺ ولمّا مات بشر ﵁ قتلها قصاصاً له. (١)

٨- قدوم جعفر بن أبي طالب والأشعريين:

وفي هذه الغزوة قدم جعفر بن أبي طالب وأصحابه ومعهم الأشعريون، روى البخاري ومسلم عن أبي موسى ﵁ قال: بلغنا مخرج النبي ﷺ ونحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه أنا و أَخَوان لي أنا أصغرهم، أحدهما أبو بردة والآخر أبو

---

(١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني.

رهم، إمّا قال بضع وإمّا قال في ثلاثة وخمسين أو اثنين وخمسين رجلاً من قومي، فركبنا سفينة فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة، فوافقنا جعفر بن أبي طالب فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً، فوافقنا النبي ﷺ حين افتتح خيبر، وكان أناس من الناس يقولون لنا يعني لأهل السفينة: سبقناكم بالهجرة، ودخلت أسماء بنت عميس وهي ممّن قَدِم معنا على حفصة زوج النبي ﷺ زائرة، وقد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر، فدخل عمر على حفصة وأسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء: مَنْ هذه؟، قالت: أسماء بنت عميس، قال عمر: الحبشية هذه؟ البحرية هذه؟ قالت أسماء: نعم، قال: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحقُّ برسول الله ﷺ منكم، فغضبت وقالت: كلّا والله، كنتم مع رسول الله ﷺ يُطعِم جائعكم ويَعِظُ جاهلكم، وكنّا في دار - أو في أرض - البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله ﷺ، وأيّم الله لا أطعم طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله ﷺ، ونحن كنّا نُؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي ﷺ وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه، فلمّا جاء النبي ﷺ قالت: يا نبي الله إنَّ عمر قال كذا وكذا، قال: فما قلتِ له؟ قالت: قلت له كذا وكذا، قال: ليس بأحق بي منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان.

ولمّا قدم جعفر وأصحابه فرح رسول الله ﷺ فرحاً عظيماً، قال ابن هشام: وذكر سفيان بن عيينة عن الأجلح عن الشعبي أنَّ جعفر بن أبي طالب «رضي الله عنه» قدم على رسول الله ﷺ فقبّل رسول الله ﷺ بين عينيه، والتزمه وقال: والله ما أدري بأيهما أنا أُسرّ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر؟ [1].

٩- زواجه ﷺ من أمِّ المؤمنين صفيّة بنت حيي رضي الله عنها:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه في يوم خيبر قال: فجمع السبي فجاء دحية الكلبي رضي الله عنه فقال: يا نبي الله أعطني جارية من السبي، قال: اذهب فخذ جارية، فأخذ صفيّة بنت

(١) رواه الطبراني وابن أبي شيبة.

حيي، فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا نبي الله أعطيت دحية صفية بنت حيي سيدة قريظة والنضير، لا تصلح إلا لك، قال: ادعوه بها، فجاء بها، فلمّا نظر إليها النبي ﷺ قال: خذ جارية من السبي غيرها، قال: فأعتقها النبي ﷺ وتزوجها، فقال له ثابت: يا أبا حمزة ما أصدقها؟ قال: نفسها، أعتقها وتزوجها، حتى إذا كان بالطريق جهزتها له أم سليم فأهدتها له من الليل فأصبح النبي ﷺ عروساً فقال: مَنْ كان عنده شيء فليجيء به، وبسط نطَعاً فجعل الرجل يجيء بالتمر، وجعل الرجل يجيء بالسمن، قال: وأحسبه قد ذكر السويق، قال: فحاسوا [١] حيساً فكانت وليمة رسول الله ﷺ[٢].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ورأى - أي النبي ﷺ - بوجهها - أي أمِّ المؤمنين صفية رضي الله عنها - خضرة [٣]، فقال: ما هذا؟، قالت: يا رسول الله، أُريت قبل قدومك علينا كأنَّ القمر زال من مكانه فسقط في حجري، ولا والله ما أذكر من شأنك شيئاً، فقصصتها على زوجي، فلطم وجهي، وقال: تمنّين هذا المَلِك الذي بالمدينة؟. [٤]

شهداء خيبر

واستشهد من المسلمين في خيبر ستة عشر رجلاً، وقيل ثمانية عشر، منهم: عامر بن الأكوع ومحمود بن مسلمة وبشر بن البراء بن معرور - مات من الشاة المسمومة - والأسود الراعي رضي الله عنهم.

وأمّا قتلى اليهود فكانوا ثلاثة وتسعين قتيلاً.

(١) أي خلطوا.
(٢) متفق عليه.
(٣) أي داء أصابها في عينها.
(٤) زاد المعاد: ج٣ / ٢٩٠.

فـــدك

قال ابن إسحاق: فلمّا فرغ رسول الله ﷺ من خيبر قذف الله الرعب في قلوب أهل فدك حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من فدك، فقدمت عليه رسلهم بخيبر، أو بالطائف، أو بعد ما قدم المدينة، فقبل ذلك منهم، فكانت فدك لرسول الله ﷺ خالصة، لأنه لم يوجف[١] عليها بخيل ولا ركاب [٢].

شأن فـدك بعد وفاة النبي ﷺ

قال ابن كثير رحمه الله: كان سهم النبي ﷺ الذي أصاب مع المسلمين، ممّا قسّم بخيبر، وفدك بكمالها، وأموال بني النضير، ممّا لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فكانت هذه الأموال لرسول الله ﷺ خاصة، وكان يعزل منها نفقة أهله لسنة، ثمَّ يجعل ما بقي مجعل مال الله، يصرفه في الكراع والسلاح، ومصالح المسلمين، فلمّا مات ﷺ اعتقدت فاطمة وأزواج النبي ﷺ - أو أكثرهن - أنَّ هذه الأراضي تكون موروثة عنه، ولم يبلغهم ما ثبت عنه من قوله ﷺ: لا نُورث، ما تركناه صدقة.

ولمّا طلبت فاطمة وأزواج النبي ﷺ والعباس نصيبهم من ذلك، وسألوا أبا بكر الصديق أن يسلّمه إليهم، وذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «لا نورث ما تركنا صدقة»، وقال: أنا أعول من كان يعول رسول الله، والله لَقرابة رسول الله ﷺ أحبّ إليَّ أن أَصِلَ من قرابتي، وصدق رضي الله عنه وأرضاه فإنّه البار الراشد في ذلك التابع للحق.

وطلب العباس وعلي - على لسان فاطمة - إذ قد فاتهم الميراث، أن ينظرا في هذه الصدقة، وأن يصرفا ذلك في المصارف التي كان النبي ﷺ يصرفها فيها، فأبى عليهم الصديق ذلك، ورأى أنَّ حقاً عليه أن يقوم فيما كان يقوم فيه رسول الله ﷺ، وأن لا يخرج من مسلكه ولا عن سنّته، فتغضّبت فاطمة رضي الله عنها عليه في ذلك،

---

(١) لم يجمع.
(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٢٧٢.

ووجدت في نفسها بعض الموجدة، ولم يكن لها ذلك، والصدّيق من قد عَرَفَت هي والمسلمون، محله ومنزلته من رسول الله ﷺ وقيامه في نصرة النبي ﷺ في حياته وبعد وفاته، فجزاه الله عن نبيه وعن الإسلام وأهله خيراً.

وتوفيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر، ثمَّ جدَّد علي البيعة بعد ذلك، فلمّا كان أيام عمر بن الخطاب سألوه أن يفوّض أمر هذه الصدقة إلى علي والعباس، وثقلوا عليه بجماعة من سادات الصحابة، ففعل عمر رضي الله عنه ذلك، وذلك لكثرة أشغاله، واتساع دولته، وامتداد رعيته، فتغلب عليٌ على عمّه العباس فيها، ثمَّ تساوقا يختصمان إلى عمر، وقدّما بين أيديهما جماعة من الصحابة، وسألا منه أن يقسمها بينهما، فينظر كل منهما فيما لا ينظر فيه الآخر، فامتنع عمر من ذلك أشد الامتناع، وخشي أن تكون هذه القسمة تشبه قسمة المواريث، وقال: انظرا فيها، وأنتما جميع فإن عجزتما عنها، فادفعاها إليّ، والذي تقوم السماء والأرض بأمره لا أقضي فيها غير هذا، فاستمرا فيها، ومن بعدهما إلى ولدهما إلى أيام بني العباس، تُصْرَف في المصارف التي كان رسول الله ﷺ يصرفها فيها، أموال بني النضير، وفدك، وسهم رسول الله ﷺ من خيبر [(١)]

وادي القرى

بعد فراغ النبي ﷺ من خيبر توجّه نحو وادي القرى، وكان بها يهود ومعهم جماعة من العرب، فلمّا نزلها المسلمون رماهم اليهود - وكانوا على تعبئة - فقُتل عبد لرسول الله ﷺ يُدعى: مِدْعَم، فقال الناس: هنيئاً له الشهادة يا رسول الله، قال: رسول الله ﷺ: كلّا، والذي نفس محمد بيده إنَّ الشملة لتلتهب عليه ناراً أخذها من الغنائم يوم خيبر لم تصبها المقاسم، قال: ففزع الناس، فجاء رجل بشراك أو شراكين فقال: يا رسول الله، أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ:

(١) انظر البداية والنهاية.

شراك [١] من نار، أو شراكان من نار [٢]

ثمَّ صفَّ رسول الله ﷺ أصحابه، وجهّزهم للقتال، ودفع اللواء لسعد بن عبادة رضي الله عنه، وراية لسهل بن حنيف، وراية لعباد بن بشر، وراية للحباب بن المنذر، ثمَّ دعاهم إلى الإسلام فرفضوا، ثمَّ خرج رجلٌ منهم مبارزاً فخرج له الزبير بن العوام رضي الله عنه فقتله، فخرج آخرٌ فقتله، ثمَّ خرج ثالث فقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه حتى هلك منهم أحد عشر رجلاً، كلّما قُتِل رجل دعا مَنْ بقي إلى الإسلام.

وكان رسول الله ﷺ إذا حضرت الصلاة يُصلّي بأصحابه ثمَّ يعود فيدعو القوم إلى الإسلام فيأبون، فقاتلهم حتى فتحها عَنْوة، وغنم أموالهم، وقسّمها بين أصحابه وترك الأرض والنخل عند اليهود، وعاملهم كما عامل أهل خيبر، وأقام في وادي القرى أربعة أيام ثمَّ عاد ﷺ.

تيماء

لمّا بلغ يهود تيماء ما وطئ به رسول الله ﷺ خيبر وفدك ووادي القرى، صالحوا رسول الله ﷺ على الجزية، وأقاموا بأيديهم أموالهم.

شأن اليهود في عهد عمر رضي الله عنه

بلغ عمر «رضي الله عنه» أنَّ رسول الله ﷺ قال في وجعه الذي قبضه الله فيه: لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان [٣]، ففحص عمر ذلك، حتى بلغه الثبت، فأرسل إلى يهود، فقال: إنَّ الله عز وجل قد أذن في جلائكم، قد بلغني أنَّ رسول الله ﷺ قال: لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان، فمن كان عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليأتني به،

(١) سيْرُ النَّعْلِ على ظهر القدَم.
(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.
(٣) متفق عليه، عن سعيد بن جبير ابن عباس قال: وأمرهم بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة أو قالها فأُنسيتها.

أنفذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود، فليتجهز للجلاء، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم.

وعن عبد الله بن عمر قال: خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها، فلمّا قدمنا تفرقنا في أموالنا، قال: فعُدي عليَّ تحت الليل، وأنا نائم على فراشي، ففدعت يداي من مرفقي، فلمّا أصبحت استصرخ عليّ صاحباي، فأتياني فسألاني: من صنع هذا بك؟ فقلت: لا أدري، قال: فأصلحا من يدي، ثمَّ قدما بي على عمر رضي الله عنه، فقال: هذا عمل يهود، ثمَّ قام في الناس خطيباً فقال: أيها الناس، إنَّ رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنّا نخرجهم إذا شئنا، وقد عدوا على عبد الله بن عمر، ففدعوا يديه، كما قد بلغكم، مع عدوهم على الأنصاري قبله، لا نشكُّ أنهم أصحابه، ليس لنا هناك عدو غيرهم، فمَنْ كان له مال بخيبر فليلحق به، فإنّي مخرج يهود، فأخرج يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادي القرى، لأنَّهما داخلتان في أرض الشام، ويرى أن ما دون وادي القرى إلى المدينة حجاز، وما وراء ذلك من الشام [1].

العودة إلى المدينة

عن أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ حين قفل من غزوة خيبر سار ليله حتى إذا أدركه الكرى عرّس وقال لبلال: اكلأ لنا الليل، فصلّى بلال ما قُدِّر له، ونام رسول الله ﷺ وأصحابه، فلمّا تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله ﷺ ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله ﷺ أوّلهم استيقاظاً، ففزع رسول الله ﷺ فقال: أي بلال، فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ بأبي أنت وأمي يا رسول الله بنفسك، قال: اقتادوا، فاقتادوا رواحلهم شيئاً، ثمَّ توضأ رسول الله ﷺ وأمر بلالاً

(١) نقلًا عن ابن إسحاق والواقدي.

فأقام الصلاة فصلّى بهم الصبح، فلمّا قضى الصلاة قال: من نسي الصلاة فليصلها إذا ذكرها فإنَّ الله قال)أقم الصلاة لذكري) [1].

الأحكام الفقهية في غزوة خيبر

١- محاربة الكفّار ومقاتلتهم في الأشهر الحرم، فإنَّ رسول الله ﷺ رجع من الحديبية في ذي الحجة، فمكث بها أيّاماً، ثمَّ سار إلى خيبر في المحرم، ولا خلاف في جواز القتال في الشهر الحرام إذا بدأ العدو، إنّما الخلاف أن يقاتل فيه ابتداء، فالجمهور جوّزوه وقالوا: تحريم القتال فيه منسوخ، وهو مذهب الأئمة الأربعة رحمهم الله، والدليل حصار النبي ﷺ للطائف، فإنّه خرج إليها في أواخر شوال، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، فبعضها كان في ذي القعدة، فإنه فتح مكة لعشر بقين من رمضان، وأقام بها بعد الفتح تسع عشرة يقصر الصلاة، فخرج إلى هوازن، وقد بقي من شوال عشرون يوماً، ففتح الله عليه هوازن، وقسّم غنائمها، ثمَّ ذهب منها إلى الطائف فحاصرها بضعاً وعشرين ليلة، وهذا يقتضي أنَّ بعضها في ذي القعدة بلا شك.

٢- أنّه يجوز لآحاد الجيش إذا وجد طعاماً أن يأكله ولا يخمّسه، كما أخذ عبد الله بن المغفل جراب الشحم الذي دلي يوم خيبر، واختصَّ به بمحضر النبي ﷺ.

٣- أنّه إذا لحق مدد بالجيش بعد تقضي الحرب، فلا سهم له إلا بإذن الجيش ورضاهم، فإنَّ النبيَّ ﷺ كلَّم أصحابه في أهل السفينة حين قدموا عليه بخيبر - جعفر وأصحابه - أن يسهم لهم، فأسهم لهم

٤- تحريم لحوم الحُمُر الإنسية، صحَّ عنه تحريمها يوم خيبر، وصحَّ عنه تعليل التحريم بأنّها رجس.

٥- جواز التفاؤل، بل استحبابه بما يراه أو يسمعه ممّا هو من أسباب ظهور

(١) رواه مسلم.

الإسلام وإعلامه، كما تفاءل النبي ﷺ برؤية المساحي والفؤوس والمكاتل مع أهل خيبر، فإنَّ ذلك فأل في خرابها.

٦- جواز المساقاة والمزارعة بجزء مما يخرج من الأرض من ثمر أو زرع، كما عامل رسول الله ﷺ أهل خيبر على ذلك، وهو نظير المضاربة سواء، فمن أباح المضاربة وحرَّم ذلك فقد فرق بين متماثلين.

٧- أنَّ رسول الله ﷺ دفع إلى اليهود الأرض على أن يعملوها من أموالهم، ولم يدفع إليهم البذر، ولا كان يحمل إليهم البذر من المدينة قطعاً، فدلَّ على أنَّ هديَه عدم اشتراط كون البذر من رب الأرض، وأنّه يجوز أن يكون من العامل، وهذا كان هدي خلفائه الراشدين من بعده.

٨- جواز عقد المهادنة عقداً جائزاً، للإمام فسخه متى شاء.

٩- جواز تعليق عقد الصلح والأمان بالشرط، كما عقد لهم رسول الله ﷺ بشرط أن لا يغيّبوا ولا يكتموا

١٠- جواز تقرير أرباب التهم بالعقوبة، وأنَّ ذلك من الشريعة العادلة لا من السياسة الظالمة.

١١- الأخذ في الأحكام بالقرائن والأمارات، كما قال النبي ﷺ لكنانة: المال كثير والعهد قريب، فاستدلَّ بهذا على كذبه في قوله: أذهبته الحروب والنفقة.

١٢- أنَّ من كان القول قوله إذا قامت قرينة على كذبه، لم يلتفت إلى قوله، ونزل منزلة الخائن.

١٣- أنَّ أهل الذمة إذا خالفوا شيئاً ممّا شرط عليهم، لم يبق لهم ذمة، وحلَّت دماؤهم وأموالهم، لأنَّ رسول الله ﷺ عقد لهؤلاء الهدنة، وشرط عليهم أن لا يغيِّبوا ولا يكتموا، فإن فعلوا حلّت دماؤهم وأموالهم، فلمّا لم يفوا بالشرط استباح دماءهم وأموالهم، وبهذا اقتدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في الشروط التي اشترطها على أهل الذمة، فشرط عليهم أنّهم متى خالفوا شيئاً منها فقد حلَّ له منهم ما يحل من أهل الشقاق والعداوة.

١٤- أنَّ ما لا يؤكل لحمه لا يطهر بالذكاة، لا جلده ولا لحمه، وأن ذبيحته بمنزلة موته، وأنَّ الذكاة إنّما تعمل في مأكول اللحم.

١٥- أنَّ من أخذ من الغنيمة شيئاً قبل قسمتها لم يملكه، وإن كان دون حقه، وأنّه إنّما يملكه بالقسمة، ولهذا قال في صاحب الشملة [١] التي غلّها: إنّها تشتعل عليه ناراً، وقال لصاحب الشراك الذي غلَّه: شراك من نار.

١٦- أنَّ الإمام مخير في أرض العَنْوة بين قسمتها، وتركها، وقسم بعضها، وترك بعضها.

١٧- جواز إجلاء أهل الذمة من دار الإسلام إذا استغني عنهم، كما قال النبي ﷺ: (نقرّكم ما أقرّكم الله)، وقال لكبيرهم: (كيف بك إذا رقصت بك راحلتك نحو الشام يوماً ثمَّ يوماً)، وأجلاهم عمر بعد موته ﷺ، وهذا مذهب محمد بن جرير الطبري، وهو قول قوي يسوغ العمل به إذا رأى الإمام فيه المصلحة.

١٨- جواز عتق الرجل أَمَتِه وجعل عتقها صداقاً لها، ويجعلها زوجته بغير إذنها ولا شهود ولا ولي غيره، ولا لفظ إنكاح ولا تزويج، كما فعل ﷺ بصفية.

١٩- جواز بناء الرجل بامرأته في السفر وركوبها معه على دابة بين الجيش.

٢٠- جواز الأكل من ذبائح أهل الكتاب وحلّ طعامهم.

٢١- قبول هديّة الكافر.

٢٢- أنَّ من نام عن صلاة أو نسيها فوقتها حين يستيقظ أو يذكرها.

٢٣- أنَّ الفائتة يؤذَّن لها ويُقام، فإنَّ في بعض طرق قصة نوم بلال عن الصلاة أنَّ النبي ﷺ أمر بلالاً فنادى بالصلاة، وفي بعضها فأمر بلالاً فأذَّن وأقام، ذكره أبو داود.

٢٤- قضاء الصلاة الفائتة جماعة [٢].

---

(١) كِساء من صوف أو شعر يُتَغَطَّى به ويُتَلَفَّف به.

(٢) انظر: زاد المعاد: ج٣/ ٣٠١ - ٣١٧.

غزوة ذات الرقاع

وفي السنة السابعة من الهجرة [١] خرج رسول الله ﷺ في أربعمائة – وقيل سبعمائة – من أصحابه لمّا عَلِم باجتماع بني ثعلبة وبني محارب من غطفان لقتاله، فسار بعد أن استعمل على المدينة أبا ذر، وقيل: عثمان، فتوغَّل في بلادهم حتى وصل إلى منطقة يُقال لها: نخل، تبعد يومين عن المدينة، فلقي جمعاً من غطفان ولم يحدث بينهم قتال.

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، فكنّا نلف على أرجلنا الخرق، فسميت ذات الرقاع، لما كنا نعصب الخرق على أرجلنا [٢].

وصلّى رسول الله ﷺ بأصحابه يومئذ صلاة الخوف، فعن جابر قال: كنّا مع النبي ﷺ بذات الرقاع فإذا أتينا على شجرة ظليلة تركناها للنبي ﷺ فجاء رجل من المشركين وسيف النبي ﷺ مُعلّق بالشجرة فاخترطه فقال: تخافني؟ قال: لا، قال: فمن يمنعك منّي؟، قال: الله، فتهدده أصحاب النبي ﷺ، وأقيمت الصلاة فصلّى بطائفة ركعتين ثمَّ تأخروا وصلى بالطائفة الأخرى ركعتين وكان للنبي ﷺ أربع وللقوم ركعتان [٣].

(١) هذا هو الصحيح، أنَّ غزوة ذات الرقاع في السنة السابعة بدليل أنَّ أبا موسى الأشعري وأبا هريرة «رضي الله عنهما» قَدِما على النبي ﷺ بعد فتح خيبر، وقد اشتركا في هذه الغزوة.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه البخاري.

السرايا والبعوث

وفي السنة السابعة أرسل رسول الله ﷺ غالب بن عبدالله الليثي إلى بني الملوح بقديد، وأرسل عمر بن الخطاب إلى تُرَبَة من أرض هوازن، وأرسل سرية بقيادة بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مرة بناحية فدك، وكذلك أرسل رسول الله ﷺ عبدالله بن رواحة في سرية لقتل يُسير بن رزام اليهودي فقتلوه، وأرسل بشير بن سعد إلى يمن وجَبار، وأرسل أبا حدرد في سرية إلى الغابة لقتل رفاعة بن قيس (أو قيس بن رفاعة) فقتلوه، وأرسل أبا بكر رضي الله عنه إلى بني فزارة، وأرسل سرية أخرى مع غالب بن عبدالله إلى الحرقة من جهينة، وكان في السرية أسامة بن زيد، يقول أسامة رضي الله عنه: فصبّحنا القوم [1] فهزمناهم ولحقتُ أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم، فلمّا غشيناه قال: لا إله إلا الله قال فكفّ عنه الأنصاري فطعنته برمحي حتى قتلته، فلمّا قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟!، قلت: يا رسول الله إنّما كان متعوذاً، قال: أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله؟! فما زال يكررها عليّ حتى تمنّيت أنّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم [2].

قال الخطابي: لعلّ أسامة تأول قوله تعالى: ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا﴾ ولذلك عذره النبي ﷺ فلم يلزمه ديّة ولا غيرها [3].

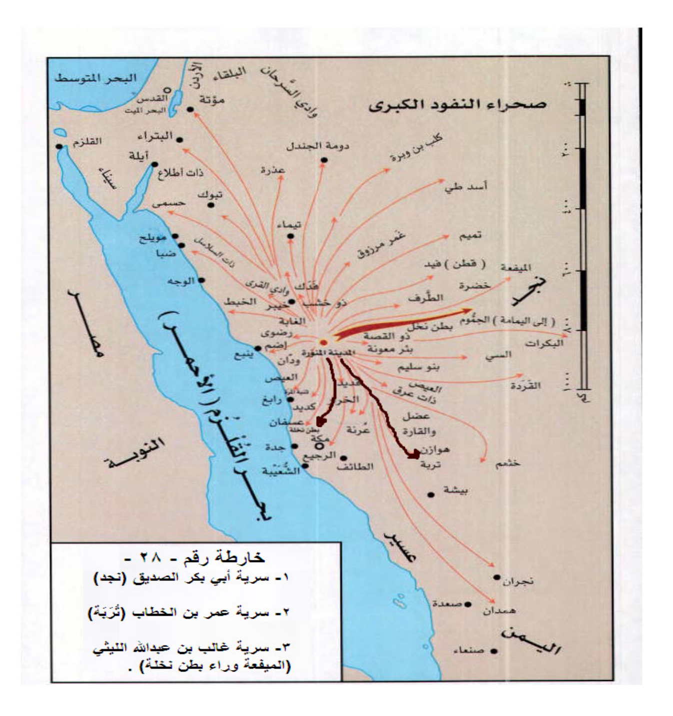
وقد وقعت كلمة النبي ﷺ من أسامة رضي الله عنه موقعاً عظيماً حتى إنّه ليقول: تمنّيت أنّي لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم!، ولمّا كانت الفتنة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه لم يشهد أسامة أيَّ حرب مع علي رضي الله عنه لأنّها كانت حروباً بين المسلمين، واعتذر إلى علي بكلمة رسول الله ﷺ: أقتلته بعد ما قال لا إله إلّا الله؟!.

---

(١) أي: هجمنا عليهم صباحاً.

(٢) متفق عليه.

(٣) انظر فتح الباري / كتاب الديات.



عمرة القضاء

ويقال: عمرة القصاص، أو عمرة القضيّة.

قال ابن إسحاق: وخرج معه – أي مع النبي ﷺ – المسلمون ممن كان صُدَّ معه في عمرته تلك، وهي سنة سبع، فلمّا سمع به أهل مكة خرجوا عنه، وتحدَّثت قريش بينها أنَّ محمداً وأصحابه في عسرة وجهد وشدّة .

دخل رسول الله ﷺ مكة من الثنية التي تطلعه على الحجون، وكان المشركون قد اصطفوا ينظرون إليه، فما زال يلبّي ويلبّي المسلمون، ثمَّ طاف وطاف المسلمون معه.

وكان عبدالله بن رواحة رضي الله عنه يرتجز بين يدي رسول الله ﷺ متوشحاً سيفه:

خلّوا بني الكفار عن سبيله ... خلّوا فكل الخير في رسوله
يا رب إنّي مؤمن بقيله ... أعرف حقَّ الله في قبوله
نحن قتلناكم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله

ضرباً يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

ورد في حديث أنس أنَّ عمر ﵁ قال: يا ابن رواحة بين يدي رسول الله ﷺ، وفي حرم الله تقول الشعر؟ فقال له النبي ﷺ: خلِّ عنه يا عمر، فلهو أسرع فيهم من نضح النبل[١] [٢]

ولمّا دخل رسول الله ﷺ مكة صفّ المشركون له عند دار الندوة لينظروا إليه وإلى أصحابه، فلمّا دخل رسول الله ﷺ المسجد اضطبع بردائه [٣]، ثمَّ قال: رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة، ثمَّ استلم الركن، وخرج يهرول ويهرول أصحابه معه[٤]، حتى إذا واراه البيت منهم، واستلم الركن اليماني، مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثمَّ هرول كذلك ثلاثة أطواف ومشى سائرها، وذلك أنَّ قريشاً قالت: إنَّه يقدم عليكم وفد وهنهم [٥] حمّى يثرب.

وأمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرملوا ليرى المشركون جَلَدَهم وقوتهم، فكان ابن عباس يقول: كان الناس يظنون أنَّها ليست عليهم، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ إنّما صنعها لهذا الحي من قريش للذي بلغه عنهم، حتى إذا حج حجة الوداع فلزمها، فمضت السُنّة بها.

شأن ابنة حمزة

روى البخاري في صحيحه عن البراء ﵁ قال: فخرج النبي ﷺ فتبعته ابنة حمزة تنادي: يا عم يا عم، فتناولها علي فأخذ بيدها وقال لفاطمة: دونك ابنة عمك حملتها، فاختصم فيها علي وزيد وجعفر، قال علي: أنا أخذتها وهي بنت عمي، وقال جعفر: ابنة عمي وخالتها تحتي، وقال زيد: ابنة أخي [٦]، فقضى بها النبي ﷺ

---

(١) رواه الترمذي.

(٢) انظر الكلام عن حكم الشِعر في الإسلام في أحداث السنة الأولى من الهجرة (بناء المسجد).

(٣) أي ادخل بعضه تحت عضده اليمنى وجعل طرفه على منكبه الأيسر وأخرج عضده اليمنى.

(٤) الهرولة: فوق المشي ودون الجري.

(٥) أي أضعفتهم.

(٦) قال الإمام ابن القيم ﵀: وقول زيد: ابنة أخي، يريد الإخاء الذي عقده رسول الله ﷺ بينه

لخالتها، وقال: الخالة بمنزلة الأم، وقال لعلي: أنت منِّي وأنا منك، وقال لجعفر: أشبهت خَلْقي وخُلُقي، وقال لزيد: أنت أخونا ومولانا، وقال علي: ألا تتزوج بنت حمزة؟، قال: إنّها ابنة أخي من الرضاعة.

زواج النبي ﷺ بأمِّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية

وتزوّج رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث في السنة السابعة وهي آخر مَنْ تزوَّج بها النبي ﷺ، قال ابن هشام: وكانت جعلت أمرها إلى أختها أمِّ الفضل، وكانت أمُّ الفضل تحت العباس، فجعلت أمُّ الفضل أمرها إلى العباس، فزوّجها رسولَ الله ﷺ بمكة، وأصدقها عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم.

قال ابن إسحاق: فأقام رسول الله ﷺ بمكّة ثلاثاً، فأتاه حويطب بن عبد العزى في نفر من قريش في اليوم الثالث، وكانت قريش قد وكّلته بإخراج رسول الله ﷺ من مكة، فقالوا له: إنّه قد انقضى أجلك، فاخرجْ عنّا، فقال النبي ﷺ: وما عليكم لو تركتموني فأعرست بين أظهركم، وصنعنا لكم طعاماً فحضرتموه، قالوا: لا حاجة لنا في طعامك فاخرج عنّا، فخرج رسول الله ﷺ. اهـ، وخلّف رسول الله ﷺ أبا رافع في مكة ليأتيه بميمونة فأتى بها وبنى بها رسول الله ﷺ بسرف.

إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة

في هذه السنة أسلم عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة رضي الله عنهم.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن أبي حبيب، عن راشد مولى حبيب بن أبي أوس الثقفي، عن حبيب بن أبي أوس الثقفي، قال: حدثني عمرو بن العاص مِنْ فيه، قال: لمّا انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعتُ رجالاً من قريش، كانوا يرون

وبين حمزة لمّا واخى بين المهاجرين، فإنَّه واخى بين أصحابه مرتين، فواخى بين المهاجرين بعضهم مع بعض قبل الهجرة على الحق والمواساة. زاد المعاد: ج٣/ ٣٣٣.

رأيي، ويسمعون منّي، فقلت لهم: تعلمون والله إنّي أرى أمر محمد يعلو الأمور علواً منكراً، وإنّي قد رأيت أمراً، فما ترون فيه؟ قالوا: وماذا رأيت؟ قال: رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده، فإنْ ظهر محمّد على قومنا كنّا عند النجاشي، فإنّا أنْ نكون تحت يديه أحبّ إلينا من أن نكون تحت يدي محمد، وإنْ ظهر قومنا فنحن مَنْ قد عرفوا، فلن يأتينا منهم إلّا خير، قالوا: إنَّ هذا الرأي، قلت: فاجمعوا لنا ما نهديه له، وكان أحبَّ ما يُهدى إليه من أرضنا الأدم (١) فجمعنا له أدماً كثيراً، ثمَّ خرجنا حتى قدمنا عليه.

فوالله إنّا لعنده إذ جاءه عمرو بن أميّة الضمري، وكان رسول الله ﷺ قد بعثه إليه في شأن جعفر وأصحابه، قال: فدخل عليه ثمَّ خرج من عنده، قال: فقلت لأصحابي: هذا عمرو بن أميّة الضمري، لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه، فضربت عنقه، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أني قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد، قال: فدخلت عليه فسجدت له كما كنتُ أصنع، فقال: مرحباً بصديقي، أهديتَ إليَّ من بلادك شيئاً؟ قال: قلت: نعم، أيها الملك، قد أهديت إليك أدماً كثيراً، قال: ثمَّ قربته إليه، فأعجبه واشتهاه، ثمَّ قلت له: أيها الملك، إنّي قد رأيت رجلاً خرج من عندك، وهو رسول رجل عدو لنا، فأعطنيه لأقتله، فإنّه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا، قال: فغضب، ثم مدّ يده فضرب بها أنفه ضربة ظننت أنّه قد كسره، فلو انشقّت لي الأرض لدخلت فيها فرقاً منه، ثمَّ قلت له: أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه، قال: أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله قال: قلت: أيها الملك، أكذاك هو؟ قال: ويحك يا عمرو أطعني واتبعه، فإنّه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده، قال: قلت: أفتبايعني له على الإسلام؟ قال: نعم، فبسط يده، فبايعته على الإسلام، ثمَّ خرجت إلى أصحابي وقد حال رأيي عمّا

(١) أي الجلد.

كان عليه، وكتمتُ أصحابي إسلامي.

ثمَّ خرجت عامداً إلى رسول الله ﷺ لأُسلم، فلقيت خالداً بن الوليد، وذلك قبيل الفتح، وهو مقبل من مكة، فقلت: أين يا أبا سليمان؟ قال: والله لقد استقام المنسم، وإنَّ الرجل لنبي، أذهب والله فأسلم، فحتى متى، قال: قلت: والله ما جئت إلا لأُسلم، قال: فقدمنا المدينة على رسول الله ﷺ، فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع، ثمَّ دنوت، فقلت: يا رسول الله، إنّي أبايعك على أن يُغفَر لي ما تقدم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخر، قال: فقال رسول الله ﷺ: يا عمرو، بايع، فإنَّ الإسلام يجبُّ ما كان قبله، وإنَّ الهجرة تجبُّ ما كان قبلها، قال: فبايعته، ثمَّ انصرفت.

روى مسلم في صحيحه أنَّ عمرو بن العاص «رضي الله عنه» قال في مرض موته: فلمّا جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي، قال: مالك يا عمرو؟ قال: قلت: أردت أن أشترط، قال: تشترط بماذا؟ قلت: أن يُغفر لي، قال: أَمَا علمتَ أنَّ الإسلام يهدم ما كان قبله؟، وأنَّ الهجرة تهدم ما كان قبلها؟، وأنَّ الحج يهدم ما كان قبله؟ وما كان أحد أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أطيق أن أملأ عيني منه إجلالاً له، ولو سُئِلت أنْ أصفه ما أطقت، لأنّي لم أكن أملأ عيني منه. اهـ.

ولم تُشِر كتب السيرة التي بين أيدينا إلى أنَّ قريشاً طالبت بخالد بن الوليد وعمرو بن العاص رضي الله عنهما بعد هجرتهما إلى المدينة بناءً على ما تمَّ الاتفاق عليه في الحديبية، ربما لأنَّ إسلامهما وهجرتهما كان بعد أن تنازلت قريش عن شرطها.

السنة الثامنة من الهجرة

غزوة مؤتة

ذكر الواقدي أنَّ سبب غزوة مؤتة هو أنَّ شرحبيل بن عمرو الغساني قتل الحارث بن عمير الأسدي رسولَ رسولِ الله ﷺ إلى ملك بصرى بكتابه، وكانت الرسل لا تُقْتَل، فغضب رسول الله ﷺ وجهّز جيشاً نحو مؤتة، لكنَّ الواقدي انفرد بها الخبر، والواقدي متروك الخبر إذا انفرد.

ولعلَّ من أسباب توجيه النبي ﷺ للجيش نحو مؤتة هو تفرّغ المسلمين بعد تحييدهم لأكبر أعدائهم قريش، ثمَّ تأديب القبائل العربية واليهودية في الجزيرة والتي تآمرت على النبي ﷺ، فكان الوقت مناسباً للقيام بحركات استباقية لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية وإخضاع بعض المناطق العربية الخاضعة لسيطرة الروم.

أرسل رسول الله ﷺ جيشاً قوامه ثلاثة آلاف بإمارة زيد بن حارثة رضي الله عنه إلى مؤتة، وقال: إنْ قُتل زيد فجعفر وإنْ قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة [(١)]، فتجهّز الناس للخروج.

وكانت هذه أوَّل مرّة يُعيّن فيها رسول الله ﷺ قائداً بديلاً في حال مقتل قائد السرية، ربّما لحجم قوة العدو هذه المرّة.

توديع الجيش الإسلامي

وحين تهيأ الجيش للخروج، وكانوا ثلاثة آلاف، فلمّا حضر خروجهم ودَّع الناس أمراء رسول الله ﷺ وسلّموا عليهم، فلمّا ودّع عبد الله بن رواحة مَنْ ودَّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى، فقالوا: ما يبكيك يا ابن رواحة؟ فقال: أَمَا والله ما بي

(١) رواه البخاري.

حبُّ الدنيا، ولا صبابة بكم [١]، ولكنّي سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب الله ﷻ يذكر فيها النار (وإنْ منكم إلّا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) فلست أدري كيف لي بالصدر بعد الورود، فقال المسلمون: صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين فقال عبد الله بن رواحة:

لكنَّني أسأل الرحمن مغفرةً ... وضربةً ذات فرع تقذف الزبدا

أو طعنةً بيدي حرّان مجهزة ... بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يُقال إذا مرُّوا على جَدثي ... أرشده الله من غازٍ، وقد رشدا

ثمَّ خرج القوم، وخرج رسول الله ﷺ، حتى ودّعهم.

تشجيع عبدالله بن رواحة للمسلمين

لمّا وصل جيش المسلمين إلى معان [٢] بلغه خبر نزول هرقل بأرض مآب في مائتي ألف، مائة ألف من الروم، ومائة ألف من نصارى العرب، فبدأ التشاور فرأى بعض الصحابة أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ ليخبروه بقوة العدو ويطلبوا منه مدداً، أو يأمرهم بما يراه، فقام عبدالله بن رواحة وقال:: يا قوم والله إنَّ التي تكرهون للّتي خرجتم تطلبون، الشهادة، وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ولا نقاتلهم إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلِقوا فإنّما هي إحدى الحسنيين.

قلت: ونحن لا نقاتل بكثرة عدد أو مال، ولا بتفوق سلاح، ولكنّنا نقاتل بالتوحيد، نقاتل بهذا الدين، ولأجل هذا الدين، فمتى وُجِدَ المجاهدون الموحّدون الذين يكفرون بالطاغوت، ويؤمنون بالله، يكفرون بطاغوت الديمقراطية، والدولة المدنية، والشعارات الكفرية، ويحكمون بشرع الله ﷻ، ثمَّ هم بعد ذلك لا يظلمون، ولا يغدرون، ولا يخونون، متى ما وُجِدَ هؤلاء، جاء نصر الله والفتح، هذه سنّة

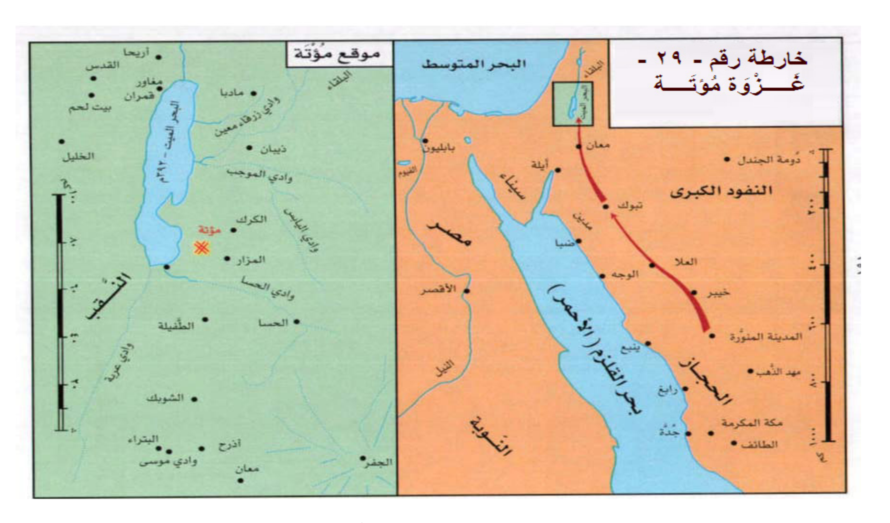
---

(١) شوق إليكم.

(٢) من مدن الأردن حالياً.

لا تتخلف، وحقيقة لا تتبدل (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ - إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ - وإنَّ جندنا لهم الغالبون) [الصافات: ١٧١ - ١٧٣].

ثمَّ تحرّك زيد بن حارثة رضي الله عنه بالجيش إلى مؤتة جنوب الكرك، حيث رأى أن يصطدم بالروم هناك، فالتقى الفريقان واقتتلوا قتالاً شديداً، فقاتل زيد قتال الأبطال، فلم يزل يقاتل حتى شاط في رماح القوم [١].



الراية إلى جعفر بن أبي طالب

لمّا قُتل زيد أخذ الراية جعفر فقاتل بها، حتى إذا ألحمه القتال [٢] اقتحم عن فرس له[٣] شقراء، فعقرها، فكان جعفر أول رجل من المسلمين عقر في الإسلام، فقاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ الراية بشماله فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى قتل رضي الله عنه وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، ووُجد في جسده خمسين بين طعنة وضربة ليس منها شيء في ظهره[٤]، وفي رواية أنّه وُجد في جسده بضع وتسعون من طعنة ورمية [٥].

(١) يقال: شاط الرجل، إذا سال دمه فهلك.
(٢) نشب فيه فلم يجد مخلصاً.
(٣) أي رمى بنفسه عنها.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه البخاري.

وبسبب شجاعة جعفر واستبساله في القتال وحمل راية رسول الله ﷺ وقطع يديه في سبيل أن لا تقع الراية على الأرض أثابه الله بجناحين في الجنة، وسُمّي جعفر الطيار، وجعفر ذو الجناحين، [وكان ابن عمر إذا سلّم على ابنه عبدالله قال: السلام عليك يا ابن ذي الجناحين] [1].

الراية إلى عبدالله بن رواحة

ولمّا قُتِل جعفر أخذ عبد الله بن رواحة الراية، ثمَّ تقدم بها، وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه، ويتردد بعض التردد، ثمَّ قال:

أقسمتُ يا نفس لتنزلنّه لتنزلنَّ أو لتكرهنّه

إن أجلب الناس وشدوا الرنّه مالي أراك تكرهين الجنّة

قد طال ما قد كنت مطمئنّة هل أنت إلا نطفة في شنّه

وقال أيضا:

يا نفس إلّا تقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صُليتِ

وما تمنيت فقد أعطيت إنْ تفعلي فِعلَهما هُديتِ

يريد صاحبيه: زيداً وجعفراً، ثمَّ نزل، فلمّا نزل أتاه ابن عم له بعرق من لحم فقال: شُدَّ بهذا صلبك، فإنّك قد لقيت في أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده ثمَّ انتهس منه نهسة، ثمَّ سمع الحطمة في ناحية الناس، فقال: وأنت في الدنيا؟! ثمَّ ألقاه من يده، وأخذ سيفه فتقدم وقاتل حتى قُتل.

الراية إلى خالد بن الوليد

بعد استشهاد الأمراء الثلاثة أخذ الراية ثابت بن أقرم أخو بني العجلان، فقال: يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم، قالوا: أنت، قال: ما أنا بفاعل،

(١) ما بين معقوفين رواه البخاري.

فاصطلح الناس على خالد بن الوليد، فلمّا أخذ خالد الراية قاتل قتالاً شديداً، فقد روى البخاري في صحيحه عن خالد بن الوليد قال: لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية [1].

وقد نعى النبي ﷺ زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس [2] قبل أن يأتيهم خبرهم فقال: أخذ الراية زيد فأصيب ثمَّ أخذ جعفر فأصيب ثمَّ أخذ ابن رواحة فأصيب - وعيناه تذرفان - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم [3]، ولعلَّ المراد بالفتح هنا الخسائر الفادحة التي أوقعها المسلمون في الروم رغم التفوق العددي الهائل للروم في مقابل خسارة بسيطة نسبياً للمسلمين، رغم أنَّه لم يُعرف عدد دقيق لقتلى الروم في المعارك، إلّا أن التفاصيل التي وردت في كتب السيرة تدل على كثرتهم، ولعلَّ المقصود بالفتح أيضاً الانسحاب الذكي والمنظّم لجيش المسلمين بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه.

نهاية المعركة وانسحاب الجيش الإسلامي

لمّا تسلّم خالد رضي الله عنه قيادة الجيش أدرك خطورة الموقف، وأنَّه أمام معركة غير متكافئة ففكّر بالانسحاب، لكنَّ الانسحاب أيضاً لم يكن أمراً سهلاً، فكان لا بُدَّ من خطة محكمة.

غيَّر خالد بن الوليد رضي الله عنه ترتيب الجيش، فقدَّم مَنْ في المؤخرة، وأخَّر مَنْ في المقدمة، وجعل ميمنة الجيش ميسرته، وميسرته ميمنته، فلمّا رآهم الروم رأوا وجوهاً جديدة، فظنّوا أنَّ المسلمين قد وصلهم مدد، ثمَّ انسحب خالد رضي الله عنه بالجيش نحو المدينة

---

(١) (١) الصفيحة: وجهُ كلِّ شيء عريض، كوَجْهِ السيف، أو اللوحِ، أَو الحجر.
(٢) أي أخبرهم بقتلهم.
(٣) رواه البخاري.

جيش الدولة الإسلامية يصل المدينة

لمّا وصل الجيش الإسلامي إلى المدينة صاح الناس في وجوههم - وهم يحثون وجوههم التراب -: يا فُرّار، فررتم في سبيل الله!، فقال رسول الله ﷺ: ليسوا بالفُرّار، ولكنهم الكُرّار إن شاء الله.

كانت غزوة مؤتة درساً كبيراً للمسلمين في قتال الروم، حيث اكتسبوا منها خبرة وتعرَّفوا على طرق قتال الروم وأساليبهم.

شهداء مؤتة

مع عِظَم هذه المعركة والقتال الشديد الذي حصل فيها إلّا أنَّ شهداء المسلمين كانوا اثني عشر رجلاً فقط! فيهم الأمراء الثلاثة، وقد بيّن النبي ﷺ مكانة هؤلاء الشهداء بقوله: «ما يسرُّني أو ما يسرُّهم أنّهم الآن عندنا» [١]، أي لما نالهم من عظيم التكريم.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ﴾ وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إنَّ الشهداء لمختارون، يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه - سبحانه -، فما هي رزية إذن ولا خسارة أنْ يستشهد في سبيل الله مَنْ يستشهد، إنّما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص، إنَّ هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة، ليستخلصهم لنفسه - سبحانه - ويخصّهم بقربه. [٢]

وحَزن رسول الله ﷺ لموت جعفر وأصحابه حزناً شديداً، تقول عائشة رضي الله عنها: لمّا قُتل زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة جلس رسول الله ﷺ يُعرف في وجهه الحزن

وجيء بأبناء جعفر إلى رسول الله ﷺ فداعبهم، وأمر بحلق رؤوسهم ودعا لهم،

---

(١) رواه البخاري.

(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة آل عمران.

فذكرت أسماء بنت عميس زوجة جعفر يُتْمَهُم لرسول الله ﷺ، فقال ﷺ: العَيْلَةَ تخافين وأنا وليهم في الدنيا والآخرة؟! [1]

أسماء بنت عميس ترثي زوجها

ورثت أسماء بنت عميس زوجها جعفر بقصيدة تقول فيها:

فآليت لا تنفكُّ نفسي حزينةً عليك ولا ينفكُّ جِلديَ أغبرا

فلله عينا مَنْ رأى مثله فتى أكرّ وأحمى في الهياج وأصبرا

ثمَّ لم تنشب أن انقضت عدّتها فخطبها أبو بكر الصديق رضي الله عنه فتزوجها، فأولم وجاء الناس للوليمة، فكان فيهم علي بن أبي طالب، فلمّا ذهب الناس استأذن علي أبا بكر رضي الله عنهما في أن يكلّم أسماء من وراء الستر، فأذن له، فلمّا اقترب من الستر نفحه ريح طيبها، فقال لها علي على وجه البسط: مَنْ القائلة في شعرها:

فآليت لا تنفكُّ نفسي حزينة عليك ولا ينفكُّ جلديَ أغبرا؟!

قالت: دعنا منك يا أبا الحسن فإنّك امرؤ فيك دعابة، فولدت للصديق محمد بن أبي بكر، ثمَّ لمّا توفي الصديق تزوّجها بعده علي بن أبي طالب، وولدت له أولاداً[2].

سرية ذات السلاسل

بعد أيامٍ من عودة جيش المسلمين من غزوة مؤتة إلى المدينة أرسل رسول الله ﷺ عمرو بن العاص رضي الله عنه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار إلى ذات السلاسل، لتأديب قضاعة التي شاركت مع الروم في معركة مؤتة، ثمَّ بدأت تتجهز للتوجه نحو المدينة بعد أن غرَّها انسحاب المسلمين من مؤتة، وأمر رسول الله ﷺ عمراً أن يستعين ببعض فروع قضاعة عليها، من بلي وعذرة وبلقين، وبنو بلي أخوال

(١) مسند الإمام أحمد بسند صحيح.
(٢) انظر البداية والنهاية / غزوة مؤتة.

العاص بن وائل، فلمّا صار إلى هناك خاف من كثرة عدوه، فبعث إلى رسول الله ﷺ يستمده، فندب رسول الله ﷺ المهاجرين الأولين، فانتدب أبو بكر وعمر في جماعة من سراة المهاجرين رضي الله عنهم أجمعين، وأمّر عليهم رسول الله ﷺ أبا عبيدة بن الجراح، قال موسى بن عقبة: فلمّا قَدِموا على عمرو قال: أنا أميركم، وأنا أرسلت إلى رسول الله ﷺ أستمدّه بكم، فقال المهاجرون: بل أنت أمير أصحابك، وأبو عبيدة أمير المهاجرين، فقال عمرو: إنما أنتم مدد أُمددته، فلمّا رأى ذلك أبو عبيدة وكان رجل حسن الخُلُق، لين الشيمة، سعى لأمر رسول الله ﷺ عليه وعهده، قال: تعلم يا عمرو أنَّ آخر ما عهد إليَّ رسول الله ﷺ أن قال: «إذا قدمت على صاحبك فتطاوعا» وإنّك إن عصيتني لأطيعنّك، فسلّم أبو عبيدة الإمارة لعمرو بن العاص.

قال الواقدي: حدثني ربيعة بن عثمان، عن يزيد بن رومان: أنَّ أبا عبيدة لما آب إلى عمرو بن العاص، فصاروا خمسمائة، فساروا الليل والنهار حتى وطئ بلاد بلي ودوخها، وكلّما انتهى إلى موضع بلغه أنَّه قد كان بهذا الموضع جمع، فلمّا سمعوا بك تفرّقوا حتى انتهى إلى أقصى بلاد بلي وعذرة وبلقين، ولقي في آخر ذلك جمعاً ليس بالكثير، فاقتتلوا ساعة، وتراموا بالنبل ساعة.

ورمي يومئذ عامر بن ربيعة وأصيب ذراعه، وحمل المسلمون عليهم فهزموا، وأعجزوا هرباً في البلاد، وتفرّقوا، ودوخ عمرو ما هنالك، وأقام أياماً لا يُسمع لهم بجمع ولا مكان صاروا فيه، وكان يبعث أصحاب الخيل فيأتون بالشاء والنعم، فكانوا ينحرون ويذبحون، ولم يكن في ذلك أكثر من ذلك، ولم تكن لهم غنائم تقسم[١].

روى أبو داود عن عمرو بن العاص قال: احتلمت في ليلة باردة في غزوة ذات السلاسل فأشفقت أن أغتسل فأهلك، فتيممت، ثمَّ صلّيت بأصحابي الصبح، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: يا عمرو صليت بأصحابك وأنت جنب؟ فأخبرته بالذي منعني

(١) البداية والنهاية.

من الاغتسال وقلت: إنّي سمعت الله يقول: (ولا تقتلوا أنفسكم إنَّ الله كان بكم رحيماً)، فضحك رسول الله ﷺ ولم يقل شيئاً [١].

وروى البخاري ومسلم عن أبي عثمان أنَّ رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص على جيش ذات السلاسل، قال [٢]: فأتيته فقلت: أيّ الناس أحبّ إليك؟ قال: عائشة، قلت: من الرجال، قال: أبوها، قلت: ثمَّ من؟ قال: عمر، فعدَّ رجالاً، فسكتُّ مخافة أن يجعلني في آخرهم.

أعادت سرية ذات السلاسل هيبة المسلمين التي تزعزعت في المنطقة بعد انسحابهم من مؤتة.

غزوة فتح مكّة

كان من بنود صلح الحديبية ألّا تعين قريش حلفاءها ضد النبي ﷺ أو حلفائه، لكنَّ قريشاً لم تلتزم بهذا البند حين أعانت حلفاءها من بني بكر بالخيل والسلاح والرجال ليهاجموا خزاعة حلفاء النبي ﷺ.

هاجم بنو بكر خزاعة على ماء بأرض خزاعة يُسمّى: الوتير، وأوقعوا بها خسائر، فاستنجدت خزاعة بالنبي ﷺ، وقدم عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة يستنجد بالنبي ﷺ ويستنصره على بني بكر وحلفائهم من قريش، فأنشد أبياتاً من الشعر أمام النبي ﷺ فقال:

يا رب إنّي ناشد محمّدا ... حلْف أبيه وأبينا الأتلدا
قد كنتم وِلْداً وكنّا والدا ... ثمّت أسلمنا [٣] فلم ننزع يدا
فانصر رسول الله نصراً أعتدا ... وادعُ عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرَّدا ... أبيض مثل البدر يسمو صعدا

(١) حديث صحيح.
(٢) أي عمرو بن العاص رضي الله عنه.
(٣) مأخوذة من السلم.

إنْ سيم خسفاً وجهه تربَّدا في فيلق كالبحر يجري مزبدا
إنَّ قريشاً أخلفوك الموعدا ونقضوا ميثاقك المؤكّدا
وجعلوا لي في كداء رَصَدا وزعموا أن لست أدعو أحدا
فهم أذلُّ وأقلُّ عددا هم بيّتونا بالوتير هجدا
وقتلونا ركعاً وسجدا

فقال رسول الله ﷺ: نُصِرتَ يا عمرو بن سالم، ثمَّ عرضت له سحابة من السماء، فقال ﷺ: إنَّ هذه السحابة لتستهلُّ بنصر بني كعب [1]، ثمَّ خرج بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فأخبروه بما أصيب منهم، وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثمَّ انصرفوا راجعين إلى مكة.

أبو سفيان يحاول استدراك الخطأ الفادح

أدركت قريش أنَّ ما فعله بنو بكر يمثّل نقضاً صريحاً لصلح الحديبية وأنّه يعني نهاية الهدنة بينها وبين رسول الله ﷺ، فخرج أبو سفيان حتى قدم على رسول الله ﷺ المدينة، فدخل على ابنته أمِّ المؤمنين أمِّ حبيبة بنت أبي سفيان، فلمّا ذهب ليجلس على فراش رسول الله ﷺ طوته عنه، فقال: يا بُنيّة؟ ما أدري أَرغبتِ بي عن هذا الفراش أم رَغِبتِ به عنّي؟ قالت: بل هو فراش رسول الله ﷺ وأنت رجل مشرك نجس، ولم أحب أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ، قال: والله لقد أصابك يا بُنيّة بعدي شر [2].

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: وهكذا تتقطع أواصر الدم والنسب، إذا انقطعت آصرة القلب والعقيدة، وتبطل ولاية القرابة في الأسرة إذا بطلت ولاية القرابة في الله، فلله الولاية الأولى، وفيها ترتبط البشرية جميعاً، فإذا لم تكن فلا ولاية بعد ذلك، والحبل مقطوع والعروة منقوضة.

(١) البداية والنهاية.
(٢) انظر: سيرة ابن هشام.

﴿ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون﴾

و الظالمون هنا تعني المشركين، فولاية الأهل والقوم - إن استحبوا الكفر على الإيمان - شرك لا يتفق مع الإيمان.

ولا يكتفي السياق بتقرير المبدأ، بل يأخذ في استعراض ألوان الوشائج والمطامع واللذائذ ليضعها كلها في كفة، ويضع العقيدة ومقتضياتها في الكفّة الأخرى: الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة (وشيجة الدم والنسب والقرابة والزواج) والأموال والتجارة (مطمع الفطرة ورغبتها) والمساكن المريحة (متاع الحياة ولذتها)، وفي الكفّة الأخرى: حبُّ الله ورسوله وحبُّ الجهاد في سبيله، الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشقاته، الجهاد وما يتبعه من تعب ونَصَب، وما يتبعه من تضييق وحرمان، وما يتبعه من ألم وتضحية، وما يتبعه من جراح واستشهاد، وهو - بعد هذا كله - «الجهاد في سبيل الله» مجرداً من الصيت والذِكْرِ والظهور، مجرداً من المباهاة والفخر والخيلاء، مجرداً من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم بصاحبه، وإلّا فلا أجر عليه ولا ثواب.

﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾

ألا إنّها لشاقّة، ألا وإنّها لكبيرة، ولكنّها هي ذاك، وإلّا: فتربصوا حتى يأتي الله بأمره. [١]

قال ابن اسحاق: ثمَّ خرج أبو سفيان حتى أتى رسول الله ﷺ فكلّمه، فلم يردّ عليه شيئا، ثمَّ ذهب إلى أبي بكر، فكلّمَهُ أنْ يُكلِّمَ له رسول الله ﷺ، فقال: ما أنا بفاعل، ثمَّ أتى عمر بن الخطاب فكلّمه، فقال: أأنا أشفع لكم إلى رسول الله ﷺ؟ فوالله لو لم أجد إلّا الذر [٢] لجاهدتكم به، ثمَّ خرج فدخل على علي بن أبي طالب رضوان

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.

(٢) صغار النمل.

الله عليه، وعنده فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وعندها حسن بن علي، غلام يدبُّ بين يديها، فقال: يا عليّ إنك أمسُّ القوم بي رحماً، وإنّي قد جئت في حاجة، فلا أرجعنَّ كما جئت خائباً، فاشفع لي إلى رسول الله ﷺ، فقال: ويحك يا أبا سفيان، والله لقد عزم رسول الله ﷺ على أمر ما نستطيع أن نكلّمه فيه، فالتفت إلى فاطمة فقال: يا ابنة محمد؟ هل لك أن تأمري بُنَيَّكِ هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر؟ قالت: والله ما بلغ بُنيّ ذاك، أن يجير بين الناس، وما يجير أحد على رسول الله ﷺ قال: يا أبا الحسن، إنّي أرى الأمور قد اشتدت عليّ، فانصحني، قال: والله ما أعلم لك شيئاً يغني عنك شيئاً، ولكنّك سيد بني كنانة، فقم فأجر بين الناس، ثمَّ الحق بأرضك، قال: أَوَ ترى ذلك مغنياً عنّي شيئاً؟ قال: لا والله، ما أظنّه، ولكنّي لا أجد لك غير ذلك، فقام أبو سفيان في المسجد، فقال: أيها الناس، إنّي قد أجرت بين الناس، ثمَّ ركب بعيره فانطلق، فلمّا قدم على قريش، قالوا: ما وراءك؟ قال: جئت محمداً فكلمته، فوالله ما ردَّ علي شيئاً، ثمَّ جئت ابن أبي قحافة، فلم أجد فيه خيراً، ثمَّ جئت ابن الخطاب، فوجدته أعدى العدو، ثمَّ جئت علياً فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليَّ بشيء صنعته، فوالله ما أدري هل يغني ذلك شيئاً أم لا؟ قالوا: وبِمَ أمرك؟ قال: أمرني أنْ أجير بين الناس، ففعلت، قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: لا، قالوا: ويلك والله إن زاد الرجل على أن لعب بك، فما يغني عنك ما قلت، قال: لا والله، ما وجدت غير ذلك. اهـ.

أمر رسول الله ﷺ الناس بالتجهز للغزو، لكنَّه لم يُبيّن وجهته، وحرص على إخفاء الأمر حتى لا يبلغ قريشاً، ثمَّ استنفر القبائل التي حول المدينة، فوافاه بعضهم في المدينة قبل خروجه، ولحقه بعضهم في الطريق إلى مكّة، وأوعب مع رسول الله ﷺ المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه أحد، حتى بلغ عدد جيش المسلمين الذي توجّه نحو مكّة عشرة آلاف مقاتل، ولا ريب أنَّ هذا العدد الكبير يدل على حجم تعاظم قوة المسلمين ما بين صلح الحديبية وفتح مكّة.

شأن حاطب بن أبي بلتعة

وفي هذا الوقت أرسل حاطب بن أبي بلتعة ﵁ كتاباً إلى قريش يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ، عن عبيد الله بن أبي رافع قال: سمعت علياً ﵁ يقول: بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنَّ بها ظعينة معها كتاب فخذوا منها، قال: فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، قلنا لها: أخرجي الكتاب، قالت: ما معي كتاب، فقلنا: لتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لنُلقِيَنَّ الثياب، قال: فأَخْرَجَتْهُ من عقاصها، فأتينا به رسول الله ﷺ فإذا فيه: من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة من المشركين يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: يا حاطب ما هذا؟ قال: يا رسول الله لا تعجل عليّ، إنّي كنت امرأ ملصقاً في قريش - يقول كنت حليفاً - ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضاً بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ أما إنّه قد صَدَقَكم، فقال عمر: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال: إنّه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم، فأنزل الله السورة {يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق..... إلى قوله فقد ضل سواء السبيل}[(١)]

وقبل أن يصل رسول الله ﷺ إلى مكّة قَدم بعض زعماء قريش معلنين إسلامهم، ففي الأبواء قدم أبو سفيان بن الحارث ابن عم النبي ﷺ وأخوه من الرضاعة، وعبدالله بن أبي أميّة بن المغيرة، فأسلما، ثمَّ في الجحفة قدم العباس بن عبدالمطلب مهاجراً، وقد اختلفت الروايات في موعد إسلام العباس، والراجح أنَّه أسلم قبل فتح خيبر [(٢)]،

(١) متفق عليه.

(٢) مصنف عبدالرزاق ومسند أحمد، وقال ابن كثير في البداية والنهاية: هذا الإسناد على شرط

ثمَّ قدم مهاجراً قبيل فتح مكّة، وأدرك النبيَ ﷺ وهو في الطريق إلى مكّة، أمّا الروايات التي تتحدث عن إسلام العباس قبل بدر أو قبل الهجرة إلى المدينة فضعيفة ويردّها أنَّ النبي ﷺ أخذ منه الفداء حين أُسِر في بدر، وكون العبّاس «رضي الله عنه» كان يوافي النبي ﷺ بأخبار قريش، وأنَّه كان ملاذاً للمستضعفين من المسلمين في مكّة لا يعد دليلاً على إسلامه.

وفي الطريق إلى مكّة أفطر النبي ﷺ والمسلمون معه، روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن عباس قال: صام رسول الله ﷺ حتى إذا بلغ الكديد [1] أفطر فلم يزل مفطراً حتى انسلخ الشهر.

أبو سفيان يتحسس الأخبار

بعد أن نزل المسلمون في مرِّ الظهران، خرج العباس رضي الله عنه يلتمس مَنْ يُخبر قريشاً ليستأمنوا عند رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكّة، وكان الله تعالى قد عمى الأخبار عن قريش، فكانوا يترقبون بوَجَلٍ وخوف أخبار رسول الله ﷺ، فخرج أبو سفيان مع حكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء يتحسسون أخبار النبي ﷺ وجيش المسلمين، قال العباس: والله إنّي لأسير عليها – أي على بغلة رسول الله ﷺ – إذا سمعت كلام أبي سفيان وبديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً، قال: يقول بديل: هذه والله خزاعة، خمشتها الحرب، فيقول أبو سفيان: خزاعة أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها، قال العباس: فعرفت صوته، فقلت: أبا حنظلة؟ فعرف صوتي، فقال: أبا الفضل؟، قلت: نعم، قال: ما لك؟ فداك أبي وأمي، قلت: هذا رسول الله ﷺ في الناس، واصباح قريش والله، قال: فما الحيلة؟ فداك أبي وأمي، قلت: والله لئن ظفر بك ليضربنَّ عُنُقَك، فاركب

الشيخين ولم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة سوى النسائي.

(١) عين جارية تبعد ٨٦ كيلًا عن مكّة، وبينها وبين المدينة ٣٠ كيل.

في عجز هذه البغلة، حتى آتي بك رسول الله ﷺ فأستأمنه لك، فركب خلفي، ورجع صاحباه، قال: فجئت به، فكلما مررت به على نار من نيران المسلمين، قالوا: مَنْ هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ وأنا عليها قالوا: عمُّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، فقال: من هذا؟ وقام إليّ، فلمّا رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال: أبو سفيان، عدو الله؟ الحمد لله الذي أمكن منك بغير عقد ولا عهد، ثمَّ خرج يشتد نحو رسول الله ﷺ، وركضت البغلة فسبقت، فاقتحمت عن البغلة، فدخلت على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عمر، فقال: يا رسول الله، هذا أبو سفيان فدعني أضرب عنقه، قال: قلت: يا رسول الله، إنّي قد أجرته، ثمَّ جلست إلى رسول الله ﷺ فأخذت برأسه، فقلت: والله لا يناجيه الليلة أحد دوني، فلمّا أكثر عمر في شأنه قلت: مهلاً يا عمر، فو الله لو كان من رجال بني عدي بن كعب ما قلتَ مثل هذا، قال: مهلاً يا عباس، فو الله لإسلامك كان أحبّ إلي من إسلام الخطاب لو أسلم، وما بي إلا أنّي قد عرفت أنَّ إسلامك كان أحبّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فأتني به، فذهبت، فلمّا أصبحت غدوت به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنْ لك أن تعلم أنْ لا إله إلا الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنّي شيئاً بعد، قال: ويحك يا أبا سفيان، ألم يأن لك أن تعلم أنّي رسول الله؟ قال: بأبي أنت وأمي، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك، أمّا هذه فإنَّ في النفس حتى الآن منها شيئاً، فقال له العباس: ويحك أسلم، وأشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، قبل أن تُضرَب عُنُقُك، فأسلمَ وشهدَ شهادة الحق، قال العباس: يا رسول الله، إنَّ أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً، قال: نعم، مَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد الحرام فهو آمن [١].

---

(١) سيرة ابن هشام ج٢: ٣٠٩ - ٣١٠.

تحرُّك المسلمين من مرِّ الظهران إلى مكّة

فلمّا ذهب أبو سفيان لينصرف قال رسول الله ﷺ: يا عباس، احبسه بمضيق الوادي عند خطم الجبل، حتى تمرَّ به جنود الله فيراها، قال العباس: فخرجت حتى حبسته بمضيق الوادي، حيث أمرني رسول الله ﷺ أنْ أحْبِسَه، قال: ومرّت القبائل على راياتها، كلمّا مرّت قبيلة قال: يا عباس، مَنْ هذه؟ فأقول: سُليَم، فيقول: مالي ولسُليَم، ثمَّ تمرُّ القبيلة فيقول: يا عباس، مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزينة، فيقول: مالي ولمُزينة، حتى نفدت القبائل، ما تمرُّ به قبيلة إلا يسألني عنها، فإذا أخبرته بهم، قال: مالي ولبني فلان، حتى مرَّ رسول الله ﷺ في كتيبته الخضراء [١] فيها المهاجرون والأنصار "رضي الله عنهم" لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد، فقال: سبحان الله: يا عباس، مَنْ هؤلاء؟ قال: قلت: هذا رسول الله ﷺ في المهاجرين والأنصار قال: ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة، والله يا أبا الفضل، لقد أصبح مُلْكُ ابن أخيك الغداة عظيماً، قال: قلت: يا أبا سفيان، إنّها النبوة، قال: فنعم إذن.

قال: قلت: النجاء إلى قومك، حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش، هذا محمّد قد جاءكم فيما لا قِبَل لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقامت إليه هند بنت عتبة، فأخذت بشاربه، فقالت: اقتلوا الحميت الدسم الأحمس[٢]، قُبِّحَ مِنْ طليعة قوم قال: ويلكم لا تغرنَّكم هذه من أنفسكم فإنّه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، فمَنْ دخل دار أبي سفيان فهو آمن، قالوا: قاتلك الله وما تغني عنّا دارك، قال: ومَنْ أغلق عليه بابه فهو آمن، ومَنْ دخل المسجد فهو آمن، فتفرَّق الناس إلى دورهم وإلى المسجد [٣] .

---

(١) قال ابن هشام: وإنّما قيل لها الخضراء لكثرة الحديد وظهوره فيها.

(٢) الحميت: الزق، نسبته إلى الضخم والسمن، والأحمس أيضا الذي لا خير عنده من قولهم عام أحمس إذا لم يكن فيه مطر.

(٣) سيرة ابن هشام ج٢: ٣١٠ - ٣١١.

جيش الدولة الإسلامية في مكة

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﵁ قال: أقبل رسول الله ﷺ حتى قَدِم مكة، فبعث الزبير على إحدى المجنبتين، وبعث خالداً على المجنبة الأخرى، وبعث أبا عبيدة على الحُسَّر، فأخذوا بطن الوادي، ورسول الله ﷺ في كتيبة، قال: فنظر فرآني فقال: أبو هريرة، قلت: لبيك يا رسول الله، فقال: لا يأتيني إلا أنصاري، قال: فأطافوا به، ووبّشت قريش أوباشاً لها وأتباعاً فقالوا: نقدّم هؤلاء فإنْ كان لهم شيء كنّا معهم، وإنْ أصيبوا أعطينا الذي سُئلنا، فقال رسول الله ﷺ: ترون إلى أوباش قريش وأتباعهم، ثمَّ قال بيديه إحداهما على الأخرى، ثمَّ قال: احصدوهم حصداً حتى توافوني بالصفا، قال: فانطلقنا فما شاء أحد منّا أن يقتل أحداً إلّا قتله، وما أحد منهم يوجه إلينا شيئاً، قال: فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، ثمَّ قال: من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، فقالت الأنصار بعضهم لبعض: أمّا الرجل فأدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة: وجاء الوحي، وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلمّا انقضى الوحي قال رسول الله ﷺ: يا معشر الأنصار، قالوا: لبيك يا رسول الله، قال: قلتم: أمّا الرجل فأدركته رغبة في قريته، قالوا: قد كان ذاك، قال: كلّا إنّي عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، والمَحْيا محْياكُم، والممات مماتكم، فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضن بالله وبرسوله، فقال رسول الله ﷺ: إنَّ الله ورسوله يُصدّقانِكم ويَعْذُرانِكم. اهـ من صحيح مسلم.

وكان لواء رسول الله ﷺ يوم الفتح أبيضاً، ورايته سوداء، وتسمّى العقاب.

ودخل رسول الله ﷺ مكّة وذقنه على رحله متخشعاً [1]، وروى ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر «﵁» قال: وإنَّ رسول الله ﷺ ليضع رأسه تواضعاً لله، حين رأى

(١) رواه البيهقي.

ما أكرمه الله به من الفتح، حتى إنَّ عثنونه [١] ليكاد يمس واسطة الرحل [٢]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: وهناك لطيفة أخرى للاستغفار لحظة الانتصار، ففيه إيحاء للنفس وإشعار في لحظة الزهو والفخر بأنّها في موقف التقصير والعجز، فأولى أن تطامن من كبريائها، وتطلب العفو من ربها، وهذا يصدُّ قوى الشعور بالزهو والغرور.

ثمَّ إنَّ ذلك الشعور بالنقص والعجز والتقصير والاتجاه إلى الله طلباً للعفو والسماحة والمغفرة يضمن كذلك عدم الطغيان على المقهورين المغلوبين، ليرقب المنتصرُ اللهَ فيهم، فهو الذي سلّطه عليهم، وهو العاجز القاصر المقصّر، وإنّها سلطة الله عليهم تحقيقاً لأمر يريده هو، والنصر نصرُه، والفتح فتحُه، والدين دينُه، وإلى الله تصير الأمور...... وهذا هو الأدب الذي اتسمت به النبوة دائماً، يريد الله أن ترتفع البشرية إلى آفاقه، أو تتطلع إلى هذه الآفاق دائماً.

كان هذا هو أدب يوسف عليه السلام في اللحظة التي تمَّ له فيها كل شيء، وتحققت رؤياه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَا أَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ الْبَدْوِ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، وفي هذه اللحظة نزع يوسف - عليه السلام - نفسه من الصفاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر، كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]، وهنا يتوارى الجاه والسلطان، وتتوارى فرحة اللقاء وتجمّع الأهل ولمّة الإخوان، ويبدو المشهد الأخير مشهد إنسان فرد

---

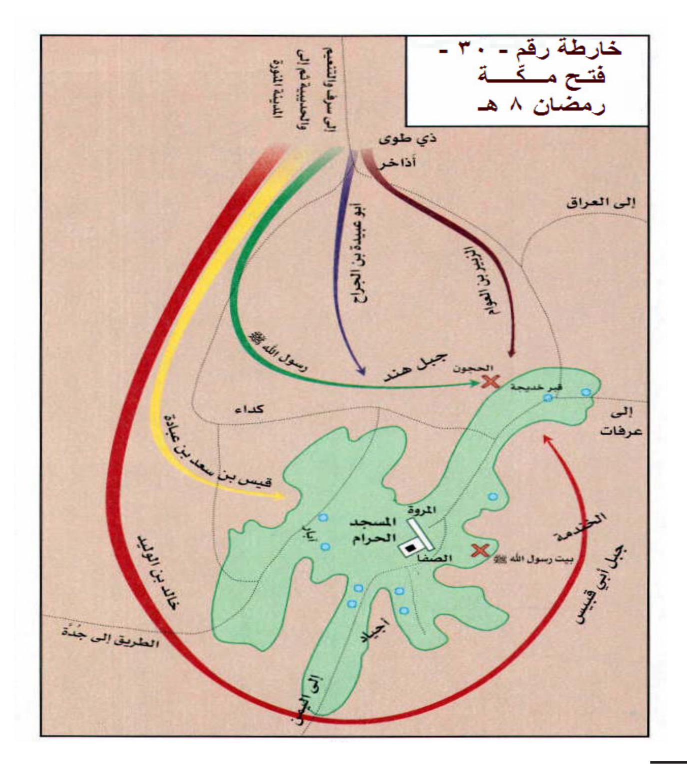
(١) لحيته.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٣١١.

يبتهل إلى ربه أن يحفظ له إسلامه حتى يتوفاه إليه، وأن يلحقه بالصالحين عنده، من فضله ومنّه وكرمه.

وكان هذا هو أدب سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضراً بين يديه قبل أن يرتد إليه طرفه: (فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) [النمل: ٤٠]

وهذا كان أدب محمد ﷺ في حياته كلها، وفي موقف النصر والفتح الذي جعله ربه علامة له، انحنى لله شاكراً على ظهر دابته ودخل مكة في هذه الصورة، مكة التي آذته وأخرجته وحاربته ووقفت في طريق الدعوة تلك الوقفة العنيدة، فلمّا أن جاءه نصر الله والفتح، نسي فرحة النصر وانحنى انحناءة الشكر، وسبَّحَ وحَمَدَ واستغفر كما لقنه ربه، وجعل يُكثِر من التسبيح والحمد والاستغفار كما وردت بذلك الآثار، وكانت هذه سنّته في أصحابه من بعده، رضي الله عنهم أجمعين.[1]



---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة النصر.

شأن حماس بن خالد

جمع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو ناساً بالخندمة ليقاتلوا، وقد كان حماس بن قيس بن خالد، أخو بني بكر، يُعدُّ سلاحاً قبل دخول رسول الله ﷺ، ويُصلحُ منه، فقالت له امرأته: لماذا تُعدُّ ما أرى؟ قال: لمحمد وأصحابه، قالت: والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء، قال: والله إنّي لأرجو أنْ أُخْدِمَك بعضهم، ثمَّ قال:

إنْ يُقْبِلوا اليوم فما لي علّه ... هذا سلاح كامل وأله [١]

وذو غرارين [٢] سريع السَلّه

ثمَّ شهد الخندمة مع صفوان وسهيل وعكرمة، فلمّا لقيهم المسلمون من أصحاب خالد بن الوليد، ناوشوهم شيئاً من قتال، وأصيب من المشركين ناس قريب من اثني عشر رجلاً أو ثلاثة عشر رجلاً، ثمَّ انهزموا، فخرج حماس منهزماً حتى دخل بيته، ثمَّ قال لامرأته: أغلقي عليَّ بابي، قالت: فأين ما كنت تقول؟ فقال:

إنّك لو شهدت يوم الخندمة ... إذ فرَّ صفوان وفرَّ عكرمة

وأبو يزيد قائم كالمؤتمة ... واستقبلتهم بالسيوف المسلمة

يقطعن كل ساعد وجمجمة ... ضرباً فلا يسمع إلا غمغمة

لهم نهيت خلفنا وهمهمة ... لم تنطقي في اللوم أدنى كلمة [٣]

النبي ﷺ يُطهّر المسجد الحرام من الأصنام

ولمّا دخل النبي ﷺ مكة وجد حول الكعبة ثلاث مائة وستين نصباً، فجعل يطعنها بعود كان بيده ويقول: جاء الحق وزهق الباطل إنَّ الباطل كان زهوقاً، جاء

---

(١) الحربة لها سنان طويل.

(٢) سيف ذو حدّين.

(٣) أبو يزيد هو سهيل بن عمرو، والمؤتمة: المرأة إذا مات زوجها وترك لها أيتاماً، والغمغمة أصوات غير مفهومة لاختلاطها، والنهيت والهمهمة: صوت في الصدر.

الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد [(١)].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ لمّا قدم مكة أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأُخرجت، فأخرج صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما من الأزلام، فقال النبي ﷺ: قاتلهم الله، لقد علموا ما استقسما بها قط، ثمَّ دخل البيت فكبَّر في نواحي البيت وخرج ولم يصلِّ فيه. [(٢)]

ولمّا خرج رسول الله ﷺ من البيت كانت قريش تترقب ماذا سيصنع بها، قال ابن القيم: وقريش قد ملأت المسجد صفوفاً ينتظرون ماذا يصنع، فأخذ بعضادتي الباب وهم تحته، فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، صَدَقَ وعده، ونَصَرَ عبدَه، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو مال أو دم، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتل الخطأ شبه العمد السوط والعصا، ففيه الدية مغلظة، مائة من الإبل أربعون منها في بطونها أولادها، يا معشر قريش إنَّ الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم وآدم من تراب، ثم تلا هذه الآية: يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إنَّ أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير. [الحجرات: ١٣].

وإنّك لعلى خُلُقٍ عظيم

ثمَّ قال عليه السلام: يا معشر قريش ما ترون أنّي فاعل بكم؟، قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم، قال: فإنّي أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

أَذِن رسول الله ﷺ لخزاعة أن تنال ثأرها من بني بكر في اليوم الأول من فتح مكّة إلى العصر، فلمّا كان العصر نهى رسول الله ﷺ عن أي قتال في مكّة وبيّن حرمتها، حتى أنَّ خزاعة لمّا قتلت رجلاً تطلبه ثأراً دفع النبي ﷺ ديّته، وبيّن أنَّ مَنْ

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

قُتل بعد ذلك قتيلاً فأهل القتيل بالخيار بين القصاص والديّة. [1]

ولم يتعامل رسول الله ﷺ مع مكّة وأهلها كما تعامل مع المناطق الأخرى التي فُتحت عنوة لقدسيّتها ومكانتها، فعفا عن عامّة أهل مكّة رغم ما فعلوه بالمسلمين، فحفظوا أنفسهم من القتل والسبي، وبقيت أموالهم المنقولة والأراضي بأيديهم، ولهذا ذهب جمهور العلماء إلى أنَّه لا يجوز بيع أراضي مكّة ولا إجارة بيوتها، وذهب آخرون إلى جواز بيع أراضي مكّة وإجارة بيوتها، وأدلتهم قويّة، في حين أنَّ أدلة المانعين مرسلة وموقوفة [2]

وضُربت لرسول الله ﷺ قبّة في الحجون، وأجابَ أسامةَ بن زيد عندما سأله إن كان سينزل في بيته أو لا: (وهل ترك لنا عقيل من رباع أو دور؟)، وكان عقيل قد ورث أبا طالب هو وطالب أخوه وباع الدور كلّها، وأمّا علي وجعفر فلم يرثاه لأنّهما مسلمين وأبو طالب مات كافراً. [3]

ثمَّ بيّن رسول الله ﷺ حرمة مكّة، كما بيّن مكانة قريش وأنَّه لا يُقتل قرشي صبراً بعد الفتح إلى يوم القيامة [4]

وخطب رسول الله ﷺ بمكّة عدة خطب بيّن فيها بعض الأحكام الشرعية، وممّا جاء فيها قوله عليه الصلاة والسلام: (لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونيّة)، والهجرة المقصودة هنا الهجرة إلى المدينة من مكّة، أمّا الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام فحكم وجوبها باقٍ إلى قيام الساعة، وكذلك الجهاد، فبايع رسول الله ﷺ المسلمين بعد الفتح على الإسلام والإيمان والجهاد، ولم يبايعهم على الهجرة.

وفي فتح مكة نزل قوله تعالى: ﴿إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً فسبّح بحمد ربك واستغفره إنّه كان تواباً﴾ [النصر: ١ - ٣]،

---

(١) مسند الإمام أحمد بإسناد حسن.

(٢) زاد المعاد.

(٣) فتح الباري.

(٤) صحيح مسلم، ومسند الإمام أحمد بإسناد صحيح.

حيث كان الفتح نهاية الصراع بين المسلمين وقريش، فأقبلت القبائل العربية بعد الفتح بجموعها معلنة إسلامها.

يوم بر ووفاء

ثمَّ جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي رضي الله عنه ومفتاح الكعبة في يده فقال: يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلّى الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: أين عثمان بن طلحة؟، فُدعي له فقال له: هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يوم بر ووفاء. (١)

بلال يؤذّن على الكعبة

وأمر رسولُ الله ﷺ بلالاً أن يصعد فيؤذِّن على الكعبة، وأبو سفيان بن حرب، وعتاب بن أسيد، والحارث بن هشام جلوس بفناء الكعبة، فقال عتاب: لقد أكرم الله أُسيداً ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، فقال الحارث: أما والله لو أعلم أنّه حقٌ لاتبعته، فقال أبو سفيان: أَمَا والله لا أقول شيئاً، لو تكلّمت لأخبرت عنّي هذه الحصباء، فخرج عليهم النبيّ ﷺ فقال لهم: قد علمت الذي قلتم، ثمَّ ذكر ذلك لهم، فقال الحارث وعتاب: نشهد أنّك رسول الله، والله ما اطلع على هذا أحد كان معنا فنقول: أخبرك.

شأن صفوان بن أمية

بعد فتح مكة فرّ صفوان بن أميّة إلى اليمن فاستأمن له عُمَيْر بن وهب الجمحي رسول الله ﷺ فأمّنه، فلحقه عُمَيْر وهو يريد أن يركب البحر في طريقه إلى اليمن

(١) زاد المعاد: ج٣ / ٣٥٨ - ٣٥٩.

فردّه، فقال لرسول الله ﷺ: اجعلني بالخيار شهرين، قال: أنت بالخيار أربعة أشهر، ثمَّ أسلم صفوان، وكانت امرأته قد أسلمت قبله، فأقرّهما رسول الله ﷺ على النكاح الأول.

قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ

روى البخاري ومسلم عن أم هانئ بنت أبي طالب قالت: ذهبت إلى رسول الله ﷺ عام الفتح فوجدته يغتسل وفاطمة ابنته تستره، فسلّمت عليه فقال: من هذه؟، فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: مرحباً بأمِّ هانئ، فلمّا فرغ من غسله قام فصلّى ثماني ركعات ملتحفاً في ثوب واحد، فلمّا انصرف قلت: يا رسول الله زعم ابن أمي [1] أنّه قاتلٌ رجلًا قد أجرتُه فلان بن هبيرة، فقال رسول الله ﷺ: قد أجرنا من أجرت يا أمَّ هانئ.

إسلام أبي قحافة

قال ابن اسحاق: حدثني يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جدته أسماء بنت أبي بكر قالت: فلمّا دخل رسول الله ﷺ مكّة ودخل المسجد، أتى أبو بكر بأبيه يقوده فلمّا رآه رسول الله ﷺ قال: هلّا تركت الشيخ في بيته حتى أكون أنا آتيه فيه؟ قال أبو بكر: يا رسول الله هو أحقُّ أن يمشي إليك من أن تمشي إليه أنت، قالت: فأجلسه بين يديه، ثمَّ مسح صدره، ثم قال له: أسلم، فأسلم، قالت: فدخل به أبو بكر وكأن رأسه ثغامة [2]، فقال رسول الله ﷺ: غيّروا هذا من شعره، وفي الصحيح: غيّروا هذا بشيء واجتنبوا السواد.

قلت: يُستحب خضاب الشيب بغير السواد، والدليل قوله عليه الصلاة والسلام هنا (غيّروا هذا

---

(١) تعني علي بن أبي طالب رضي الله عنه.
(٢) هو نبت أبيض الزهر والثمر، شَبَّه بياض الشيب به.

بشيء واجتنبوا السواد)، وقوله في حديث أبي هريرة ﷺ: (إنَّ اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم) [1] وقد كان أبو بكر وعمر ﷺ يخضبان، وكذا المهاجرون ﷺ، قال الإمام أحمد ﷺ: إنّي لأرى الشيخ المخضوب فأفرح به.

ولا يجوز صبغ الشعر باللون الأسود للحديث السابق، ولقوله ﷺ في الحديث الذي يرويه أبو داود بإسناده عن عبدالله بن عبّاس مرفوعاً: (يكون قوم في آخر الزمان يخضبون بالسواد كحواصل الحمام، لا يريحون رائحة الجنة) [2].

اقتلوهم ولو وجدتموهم تحت أستار الكعبة

قال الإمام ابن القيم ﷺ: ولمّا استقر الفتح أمّن رسول الله ﷺ الناس كلهم إلا تسعة نفر، فإنّه أمر بقتلهم وإن وُجِدوا تحت أستار الكعبة، وهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعكرمة بن أبي جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل بن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبار بن الأسود، وقيّنتان لابن خطل، كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ وسارة مولاة لبعض بني عبد المطلب.

فأمّا ابن أبي سرح فأسلم، جاء به عثمان بن عفان [3] فاستأمن له رسول الله ﷺ فقَبِلَ منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك وهاجر ثمَّ ارتد ورجع إلى مكة.

و أمّا عكرمة بن أبي جهل، فاستأمنت له امرأته بعد أن فرَّ، فأمّنه النبي ﷺ فقَدِمَ وأسلم وحسن إسلامه، وردّها إليه دون عقد.

وأمّا ابن خطل [4]، والحارث، ومقيس، وإحدى القيّنتين فقتلوا، وكان مقيس قد أسلم ثمَّ ارتد، وقتل ولحق بالمشركين، وأمّا هبار بن الأسود، فهو الذي عرض

(١) متفق عليه.
(٢) رواه أبو داود، وصححه ابن حبان، وقال الحافظ في الفتح: إسناده قوي.
(٣) وهو أخوه لأمّه.
(٤) قتل ابن خطل وهو متعلق بأستار الكعبة. رواه البخاري.

لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة وأسقطت جنينها، ففرَّ ثمَّ أسلم وحسن إسلامه، واستُؤمِن رسول الله ﷺ لسارة ولإحدى القيّنتين فأمّنهما فأسلمتا [1].

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وأمّا قتل ابن خطل، فقد تقدّم أنّه كان في وقت الحل، والنبي ﷺ قطع الإلحاق، ونصَّ على أن ذلك من خصائصه، وقوله ﷺ: (وإنّما أحلِّت لي ساعة من نهار) صريح في أنَّه إنّما أحلُّ له سفك دم حلال في غير الحرم في تلك الساعة خاصة، إذ لو كان حلالاً في كل وقت لم يختص بتلك الساعة، وهذا صريح في أنَّ الدم الحلال في غيرها حرام فيها، فيما عدا تلك الساعة [2].

خطبة النبي ﷺ عام الفتح

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة: لا هجرة ولكن جهاد ونيّة، وإذا استنفرتم فانفروا، وقال يوم فتح مكة: إنَّ هذا البلد حرَّمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنّه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يُعضَد شوكه، ولا ينفّر صيده، ولا يُلتَقط لقطته إلا من عرّفها، ولا يُختلى خلاه، فقال العباس: يا رسول الله، إلا الإذخر فإنّه لقينهم ولبيوتهم، قال: إلا الإذخر [3].

أَخْذ البيعة

قال ابن كثير: قال الإمام أحمد: قال: فلمّا فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، وفيهن هند بنت عتبة متنقّبة متنكرة لحدثها، لِما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف

(١) زاد المعاد: ج٣ / ٣٦٢.
(٢) زاد المعاد: ج٣/ ٣٩٢.
(٣) متفق عليه.

أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك، فلمّا دَنَيْنَ من رسول الله ﷺ ليبايعهن قال: بايعنني على أن لا تشركن بالله شيئاً»، فقالت هند: والله إنّك لتأخذ علينا ما لا تأخذه من الرجال ولا تسرقن، فقالت: والله إنّي كنت أصبت من مال أبي سفيان الهنة بعد الهنة، وما كنت أدري أكان ذلك علينا حلالاً أم لا؟، فقال أبو سفيان - وكان شاهداً لما تقول -: أمّا ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حل، فقال رسول الله ﷺ: وإنّك لهند بنت عتبة؟»، قالت: نعم، فاعفُ عمّا سلف، عفا الله عنك، ثمَّ قال: «ولا يزنين»، فقالت: يا رسول الله، وهل تزني الحرة؟ ثمَّ قال: «ولا تقتلن أولادكن»، قالت: قد ربيناهم صغاراً حتى قتلتهم أنت وأصحابك ببدر كباراً، فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرق، ثمَّ قال: «ولا يأتينَ ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن»، فقالت: والله إنَّ إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل، ثمَّ قال: «ولا يعصينني»، فقالت: في معروف، فقال رسول الله ﷺ لعمر: «بايعهن واستغفر لهنَّ الله إنَّ الله غفور رحيم»، فبايعهن عمر.

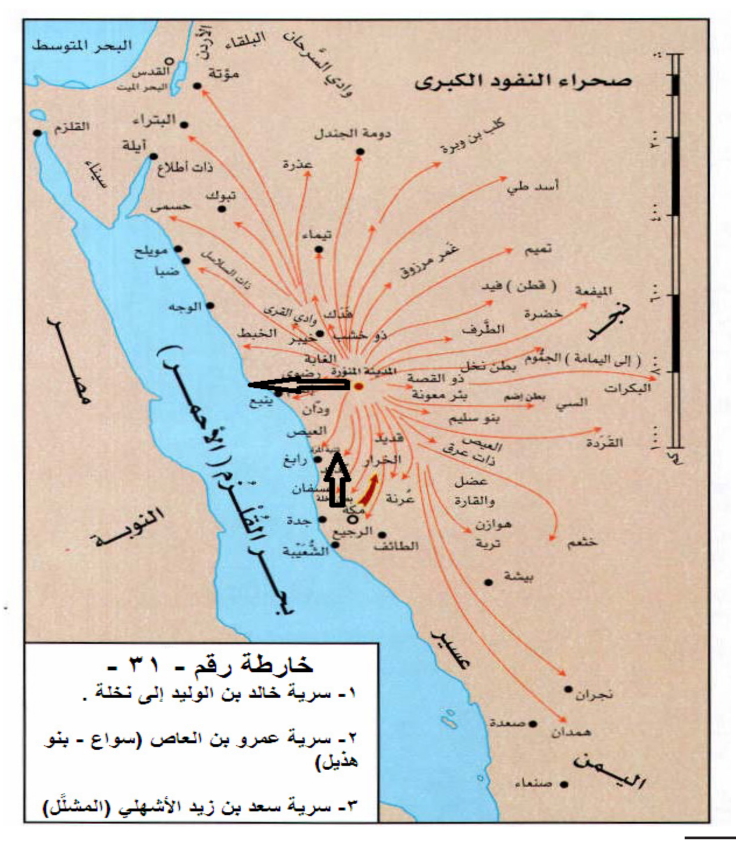
أَمْرُ النبي ﷺ بكسر الأوثان

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: فبعث خالد بن الوليد إلى العزى لخمس ليال بقين من شهر رمضان ليهدمها، فخرج إليها في ثلاثين فارساً من أصحابه حتى انتهوا إليها فهدمها، ثمَّ رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: هل رأيت شيئاً؟، قال: لا، قال: " فإنّك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها، فرجع خالد وهو متغيظ فجرّد سيفه فخرجت إليه امرأة عجوز عريانة سوداء ناشرة الرأس، فجعل السادن يصيح بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين ورجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فقال: نعم، تلك العزى وقد أيست أن تعبد في بلادكم أبداً، وكانت بنخلة وكانت لقريش وجميع بني كنانة، وكانت أعظم أصنامهم، وكان سدنتها بني شيبان.

ثمَّ بعث عمرو بن العاص إلى سواع وهو صنم لهذيل ليهدمه، قال عمرو:

فانتهيت إليه وعنده السادن فقال: ما تريد؟ قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه، فقال: لا تقدر على ذلك، قلت: لِمَ؟ قال: تُمنع، قلت: حتى الآن أنت على الباطل، ويحك فهل يسمع أو يُبصر؟ قال: فدنوت منه فكسرته وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم نجد فيه شيئاً ثمَّ قلت للسادن: كيف رأيت؟ قال: أسلمت لله

ثمَّ بعث سعد بن زيد الأشهلي إلى مناة، وكانت بالمشلل عند قديد للأوس والخزرج وغسان وغيرهم، فخرج في عشرين فارساً حتى انتهى إليها وعندها سادن، فقال السادن: ما تريد؟ قلت: هدم مناة، قال: أنت وذاك، فأقبل سعد يمشي إليها، وتخرج إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب صدرها، فقال لها السادن: مناة دونك بعض عصاتك، فضربها سعد فقتلها، وأقبل إلى الصنم ومعه أصحابه فهدمه وكسروه، ولم يجدوا في خزانته شيئاً [1].



(١) زاد المعاد: ج٣/ ٣٦٤ - ٣٦٥.

بعث الرسول ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة

روى البخاري في صحيحه عن سالم عن أبيه عبدالله بن عمر قال: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منّا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منّا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره، حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه، فرفع النبي ﷺ يده فقال: اللهم إنّي أبرأ إليك ممّا صنع خالد مرتين. اهـ.

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: وكان بين خالد وعبدالرحمن بن عوف كلام وشرٌّ في ذلك، فبلغ النبي ﷺ فقال: مهلاً يا خالد، دع عنك أصحابي، فوالله لو كان لك أحد ذهباً، ثمَّ أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي ولا روحته [(١)].

قلت: تأمّل - وفقك الله - صنيع النبي ﷺ وكيف أنَّه لم يساوِ بين عبدالرحمن بن عوف وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، لأنَّ عبدالرحمن بن عوف كان من أوائل من أسلم في مكّة في بداية الدعوة، بينما لم يسلم خالد بن الوليد إلّا قُبيل فتح مكّة، وقد قال الله جل جلاله: (لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) [الحديد: ١٠].

وقد حفظ النبي ﷺ للسابقين من المهاجرين والأنصار منزلتهم، فعفا عن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه قبيل فتح مكّة رغم أنَّ ما قام به حاطب لم يكن أمراً سهلاً، حيث قال عمر رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: إنَّه قد شهد بدراً، وما يدريك لعلَّ الله اطّلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم [(٢)].

فتعلّم من رسول الله ﷺ واحفظ للسابقين منزلتهم، وتجاوز عن هفواتهم، فقد قال عليه الصلاة والسلام: أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم، إلّا الحدود [(٣)].

---

(١) وفي رواية مسلم: لا تسبّوا أحداً من أصحابي، فإنَّ أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدَّ أحدهم ولا نصيفه.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي والبيهقي، والحديث حسن بمجموع طرقه.



فصـــل
الأحكام الفقهية في فتح مكّة

١- أنَّ أهل العهد إذا حاربوا مَنْ هم في ذمة الإمام وجواره وعهده صاروا حرباً له بذلك، ولم يبقَ بينهم وبينه عهد، فله أن يُبَيّتهم في ديارهم، ولا يحتاج أنْ يعلمهم على سواء، وإنّما يكون الإعلام إذا خاف منهم الخيانة، فإذا تحققها صاروا نابذين لعهده.

٢- انتقاض عهد جميعهم بذلك، ردئهم ومباشريهم، إذا رضوا بذلك، وأقرّوا عليه ولم ينكروه، فإنَّ الذين أعانوا بني بكر من قريش بعضهم، لم يقاتلوا كلهم معهم، ومع هذا فغزاهم رسول الله ﷺ كلّهم، وطَرْدُ هذا جريان هذا الحكم على ناقضي العهد من أهل الذمّة، إذا رضي جماعتهم به، وإن لم يباشر كل واحد منهم ما ينقض عهده، كما أجلى عمر يهود خيبر لمّا عدا بعضهم على ابنه، ورموه من ظهر دار ففدعوا يده، بل قد قتل رسول الله ﷺ جميع مقاتلة بني قريظة، ولم يسأل عن

كل رجل منهم هل نقض العهد أم لا؟ وكذلك أجلى بني النضير كلّهم، وإنّما كان الذي همَّ بالقتل رَجلان، وكذلك فعل ببني قينقاع حتى استوهبهم منه عبد الله بن أُبيْ، فهذه سيرته وهديه الذي لا شك فيه، وقد أجمع المسلمون على أنَّ حكم الردء حكم المباشر في الجهاد، ولا يشترط في قسمة الغنيمة ولا في الثواب مباشرة كل واحد القتال.

وهذا حكم قطاع الطريق، حكم ردئهم حكم مباشرهم ؛ لأنَّ المباشر إنّما باشر الإفساد بقوة الباقين، ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه، وهذا هو الصواب الذي لا شك فيه، وهو مذهب أحمد ومالك وأبي حنيفة وغيرهم.

٣- جواز صلح أهل الحرب على وضع القتال عشر سنين، وهل يجوز فوق ذلك؟ الصواب أنّه يجوز للحاجة والمصلحة الراجحة، كما إذا كان بالمسلمين ضعف وعدوهم أقوى منهم، وفي العقد لِما زاد عن العشر مصلحة للإسلام.

٤- جواز تجريد المرأة كلها وتكشيفها للحاجة والمصلحة العامة، فإنَّ عليّاً والمقداد قالا للظعينة: لتخرجنَّ الكتاب أو لنكشفنّك.

٥- أنَّ الكبيرة العظيمة مما دون الشرك قد تُكفَّر بالحسنة الكبيرة الماحية، كما وقع الجسُّ من حاطب مكفَّراً بشهوده بدراً.

٦- جواز بل استحباب كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيئتهم لرسل العدو، إذا جاءوا إلى الإمام، كما يفعل ملوك الإسلام، كما أمر النبي ﷺ بإيقاد النيران ليلة الدخول إلى مكة، وأمر العباس أن يحبس أبا سفيان عند خطم الجبل، وهو ما تضايق منه، حتى عُرِضَت عليه عساكر الإسلام وعصابة التوحيد وجند الله، وعرضت عليه خاصكية [1] رسول الله ﷺ وهم في السلاح لا يُرى منهم إلا الحدق، ثمَّ أرسله فأخبر قريشاً بما رأى.

٧- البيان الصريح بأنَّ مكّة فُتحت عَنْوة كما ذهب إليه جمهور أهل العلم.....

---

(١) هم الجند الخاص بحراسة الأمير.

قالوا: وأمّا قولكم: إنّها لو فتحت عنوة لقسمت بين الغانمين، فهذا مبني على أنَّ الأرض داخلة في الغنائم التي قسمها الله سبحانه بين الغانمين بعد تخميسها، وجمهور الصحابة والأئمة بعدهم على خلاف ذلك، وأنَّ الأرض ليست داخلة في الغنائم التي تجب قسمتها، وهذه كانت سيرة الخلفاء الراشدين، فإنَّ بلالاً وأصحابه لمّا طلبوا من عمر بن الخطاب ﵁ أن يقسم بينهم الأرض التي افتتحوها عنوة، وهي الشام وما حولها، وقالوا له خذ خمسها واقسمها، فقال عمر: هذا غير المال، ولكن أحبسه فيئاً يجري عليكم وعلى المسلمين، فقال بلال وأصحابه ﵃: اقسمها بيننا، فقال عمر: اللهم اكفني بلالاً وذويه، فما حال الحول ومنهم عين تطرف، ثمَّ وافق سائر الصحابة ﵃ عمر ﵁ على ذلك، وكذلك جرى في فتوح مصر والعراق وأرض فارس وسائر البلاد التي فتحت عنوة لم يقسم منها الخلفاء الراشدون قرية واحدة.

٨- ومَنْ أتى حدّاً أو قصاصاً خارج الحرم يوجب القتل، ثمَّ لجأ إليه، لم يجز إقامته عليه فيه، وذكر الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب ﵁ أنَّه قال: لو وجدت فيه قاتل الخطاب ما مسسته حتى يخرج منه، وذكر عن عبد الله بن عمر أنَّه قال: لو لقيتُ فيه قاتل عمر ما ندهته، وعن ابن عباس أنَّه قال: لو لقيتُ قاتل أبي في الحرم ما هجته حتى يخرج منه، وهذا قول جمهور التابعين ومن بعدهم، بل لا يحفظ عن تابعي ولا صحابي خلافه، وإليه ذهب أبو حنيفة ومن وافقه من أهل العراق، والإمام أحمد ومن وافقه من أهل الحديث.

٩- وقوله ﷺ: (ولا يختلى خلاها)، لا خلاف أنَّ المراد من ذلك ما ينبت بنفسه دون ما أنبته الآدميون، ولا يدخل اليابس في الحديث، بل هو للرطب خاصة، فإن الخلا بالقصر الحشيش الرطب ما دام رطباً، فإذا يبس فهو حشيش، وأخلت الأرض كثر خلاها، واختلاء الخلى: قَطْعُه، ومنه الحديث (كان ابن عمر يختلي لفرسه)، أي: يقطع لها الخلى، ومنه سميت المخلاة، وهي وعاء الخلى، والإذخر مستثنى بالنص، وفي تخصيصه بالاستثناء دليل على إرادة العموم فيما سواه.

١٠- وقوله ﷺ (ولا يُنَفَّر صيدُها) صريح في تحريم التسبب إلى قتل الصيد واصطياده بكل سبب، حتى إنّه لا ينفره عن مكانه.

١١- ودخل رسول الله ﷺ مكة، وعليه عمامة سوداء، ففيه دليل على جواز لبس السواد أحياناً، ومن ثمَّ جعل خلفاء بني العباس لبس السواد شعاراً لهم، ولولاتهم، وقضاتهم، وخطبائهم، والنبي ﷺ لم يلبسه لباساً راتباً، ولا كان شعاره في الأعياد والجُمَع والمجامع العظام البتة، وإنما اتفق له لبس العمامة السوداء يوم الفتح دون سائر الصحابة، ولم يكن سائر لباسه يومئذ السواد، بل كان لواؤه أبيض.

١٢- وفي قصة الفتح من الفقه جواز إجارة المرأة وأمانها للرجل والرجلين، كما أجاز النبي ﷺ أمان أمِّ هانئ لحَمَوَيْها.

١٣- وفيها من الفقه جواز قتل المرتد الذي تغلظت ردته من غير استتابة، فإنَّ عبد الله بن سعد بن أبي سرح كان قد أسلم وهاجر، وكان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ ثمَّ ارتد ولحق بمكة، فلمّا كان يوم الفتح أتى به عثمان بن عفان رسول الله ﷺ ليبايعه فأمسك عنه طويلاً، ثمَّ بايعه وقال: إنّما أمسكت عنه ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه، فقال له رجل: هلّا أومأت إليَّ يا رسول الله؟ فقال: (ما ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) فهذا كان قد تغلَّظَ كفره بردَّته بعد إيمانه وهجرته وكتابة الوحي ثمَّ ارتد ولحق بالمشركين يطعن على الإسلام ويعيبه [١].

غزوة حُنين (أوطاس)

لمّا تمَّ فتح مكّة وانتهت زعامة مشركي قريش على مشركي العرب، حملت هوازن راية المشركين في الجزيرة، وبدأت بحشد قوّتها لمواجهة النبي ﷺ.

وهوازن قبيلة عربية مضرية عدنانية، تفرَّعت منها فروع كثيرة أبرزها ثقيف التي استقرَّت في مدينة الطائف، في حين توَّزعت بطون هوازن الأخرى على ساحل

(١) زاد المعاد: ج٣/ ٣٧٠ - ٤٠٧.

البحر الأحمر في تهامة من حدود بلاد الشام الجنوبية إلى حدود اليمن الشمالية.

وقد كان لثقيف وهوازن مصالح مشتركة عديدة مع قريش بحُكم قرب الطائف من مكّة، حيث لا تتجاوز المسافة بينهما ٩٠ كيلاً، وكان القرشيون يصطافون في الطائف، وكان لهم فيها بساتين ودور، حتى سمّيت الطائف ببستان قريش (١).

كما وطّدت العلاقةَ بين قريش وهوازن المصاهراتُ المتجددة بين الطرفين، خصوصاً وأنَّهما من مضر الذي هو الجد السادس لهوازن والسابع لقريش (٢).

كما أنَّ أبرز أسواق العرب في الجاهلية كان يُقام في ديار ثقيف كسوق عكاظ الشهير، وسوق ذي المجاز، وسوق مَجَنَّة، وغيرها، وكانت هذه الأسواق تدرُّ أرباحاً اقتصاديةً كبيرة لثقيف، حيث كانوا يبيعون إنتاجهم الزراعي في هذه الأسواق، كما يقومون بالوساطة في التجارة الخارجية بين الشام واليمن من ناحية، وسكان البوادي من ناحية أخرى.

ولذلك كان من الطبيعي أن تصطفَّ هوازن وثقيف مع قريش في صراعها ضد النبي ﷺ والمسلمين منذ بداية الدعوة، وبرز هذا حين لجأ رسول الله ﷺ إلى الطائف يدعو ثقيفاً إلى الإسلام فلم يكتفوا برفض الدعوة بل أصرُّوا على إظهار العداء الصريح للإسلام، وسلَّطوا غلمانهم وسفهاءهم يرشقون النبي ﷺ بالحجارة، وفي الحديبية كان أحد رسل قريش إلى المسلمين من ثقيف وهو عروة بن مسعود الثقفي، فكانت قريش وهوازن وثقيف يعتبرون أنفسهم كياناً واحداً في وجه خصومهم وأعدائهم.

وكان رسول الله ﷺ يسعى لدعوة ثقيف إلى الإسلام، لأنَّه يُدرك أهمية ومكانة ثقيف العسكرية والاقتصادية، وعلاقتها الوطيدة بقريش، فحتى بعد أن ردّوا عليه أسوأ ردٍ في رحلته إلى الطائف سنة ١٠ من البعثة سعى إلى دعوة زعمائها إلى

(١) اشتهر في السيرة بستان عتبة وشيبة ابني ربيعة القرشيين، وهو الذي لجأ إليه النبي صلى الله عليه وسلّم حين سلَّط عليه أهل الطائف غلمانهم وسفهاءهم، والتقى فيه بعدّاس.

(٢) قريش (فهر) بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر.

الإسلام فالتقى بالعقبة بابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبه إلى الإسلام ممّا أهمّه حتى انطلق بعيداً عن مكّة لا يتعرف في طريقه إلى داره لفرط الهم.

ورغم العلاقة الوطيدة بين قريش وهوازن إلّا أنَّ هوازن لم تتدخل بشكل مباشر في المعارك بين المسلمين والنبي ﷺ بعد الهجرة، ربّما لأنَّها ظنَّت أنَّ أمر المسلمين أقلّ من أن تحتاج قريش إلى دعمهم ومساندتهم، فبقيت تُراقب في بدر وأحد والخندق دون أن تتدخل، بل إنَّ الأخنس بن شريق الثقفي حليف بني زهرة أقنع بني زهرة بالرجوع عن المشاركة في بدر بعد أن نجت تجارتهم، كما أنَّ عروة بن مسعود الثقفي طالب قريشاً بقبول عرض النبي ﷺ في الحديبية، لكنَّ موقف الأخنس بن شريق وموقف عروة بن مسعود لا يعدوان كونهما موقفين فرديين من رجلين حكيمين لا يُمثّلان موقف ثقيف ولا هوازن.

ورغم إدراك ثقيف وهوازن لخطر تعاظم قوّة المسلمين بعد صلح الحديبية واعتراف قريش بهم ككيان مستقل، كما أنَّهم أدركوا تراجع قوّة قريش وضعف موقفها أمام المسلمين، إلّا أنَّنا نرى أنَّ هوازن وثقيف لم تتحركا لنجدة قريش حين توجّه رسول الله ﷺ لفتح مكّة، ولعلَّ ذلك يعود إلى سببين:

الأول: أنَّ النبي ﷺ كتم وجهته حين خرج من المدينة فلم تكن هوازن تعرف إن كان سيتوجه نحو مكّة أم نحوها، حيث ذكر الواقدي أنَّ هوازن أرسلوا عيناً لهم لمعرفة وجهة المسلمين، بل إنَّهم استعدوا للدفاع عن مناطقهم مذ سمعوا بخروج المسلمين، ولعلَّ السبب الثاني هو الحالة المعنوية المنهارة لقريش وقناعتها بعدم قدرتها على الصمود في وجه المسلمين، وحالة الاستسلام التي أظهرها أبرز زعماء قريش أبو سفيان أدَّى إلى زعزعة معنويات حلفاء قريش.

ولمّا تمَّ فتح مكّة تسلّمت هوازن راية المشركين كما ذكرنا، وبدأت بالتحشيد لمواجهة النبي ﷺ خاصة أنَّ النشاط العسكري للمسلمين قد استمر بعد فتح مكّة، حيث أرسل عليه السلام خالداً بن الوليد رضي الله عنه لهدم العزّى، وأرسل عَمْراً بن العاص لهدم

سواع، وأرسل سعداً بن زيد الأشهلي لهدم مناة، ثمَّ بعث خالداً بن الوليد إلى بني جذيمة، كما مرَّ معنا سابقاً، وكانت اثنتين من هذه السرايا في ديار هوازن وثقيف، ولم يكن هذا الأمر يخفى على هوازن التي بدأت تحشد قواها في حُنين بعد فتح مكة مباشرة لمواجهة المسلمين.

كان فتح المسلمين لمكة ضربة قوية خاطفة فاجأت القبائل العربية المجاورة بأمر واقع جديد، ولم تمتنع عن الاستسلام لهذا الواقع إلّا بعض القبائل القوية المتغطرسة وفي مقدمتها هوازن وثقيف التي اجتمعت معها بعض القبائل الأخرى من غطفان وغيرها لقتال المسلمين وأمّروا عليهم مالكاً بن عوف النصري، وتخلّف من هوازن كعب وكلاب.

دريد بن الصمّة يعترض على خطة مالك بن عوف

خرج مالك بن عوف وجيشُه حتى نزلوا بأوطاس، وكان مالك قد ساق مع الجيش النساء والصبيان ليكون ذلك أدعى للرجال على الصمود وعدم الفرار، وقدّر الواقدي عدد جيش هوازن بعشرين ألفاً، واجتمعت مع مالك بعض القبائل، وكان فيهم دريد بن الصمّة، وكان رجلاً كبيراً في السنِّ ليس له إلّا رأيه ومشورته وشجاعته ومعرفته في الحرب، فقال دريد بن الصمّة: يا مالك، إنّك قد أصبحت رئيس قومك، وإنّ هذا يوم كائن له ما بعده من الأيام، مالي أسمع رغاء البعير، ونهاق الحمير، وبكاء الصغير، ويعار الشاء؟ [(١)]، قال: سُقْتُ مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم، قال: ولِمَ ذاك؟ قال: أردتُ أن أجعل خلف كل رجل منهم أهله وماله، ليقاتل عنهم، قال: فأنقض به ثمَّ قال: راعي ضأن والله، وهل يردُّ المنهزم شيء؟ إنّها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك، يا مالك، إنّك لم تصنع بتقديم البيضة، بيضة هوازن [(٢)] إلى نحور الخيل شيئاً، ارفعهم إلى ممتنع بلادهم وعَلْيا قومهم، ثم الق الصُبّاء [(٣)] على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَنْ وراءك، وإن كانت عليك ألفاك ذلك قد أحرزت أهلك ومالك، قال: والله لا أفعل ذلك، إنّك قد كبرت وكبر عقلك، والله لتطيعنني يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهري، وكره أن يكون لدريد بن الصمّة فيها ذكر أو رأي، فقالوا: أطعناك، فقال دريد: هذا يوم لم أشهده، ولم يفتني.

ابن أبي حدرد يستكشف العدو

قال ابن إسحاق: ولمّا سمع بهم نبي الله ﷺ بعث إليهم عبد الله بن أبي حدرد

---

(١) أي صوتها.

(٢) أي جماعتهم.

(٣) جمع صابئ: يعني المسلمين

الأسلمي، وأَمَرَه أن يدخل في الناس، فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم، ثمَّ يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبي حدرد، فدخل فيهم، فأقام فيهم، حتى سمع وعلم ما قد أجمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسمع من مالك وأمر هوازن ما هم عليه، ثمَّ أقبل حتى أتى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر.

استعارة أدرع صفوان

ولمّا أجمع رسول الله ﷺ السير إلى هوازن ليلقاهم، ذُكر له أنَّ عند صفوان بن أميّة أدراعاً له وسلاحاً، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال: يا أبا أميّة، أعرنا سلاحك هذا نلقَ فيه عدونا غداً، فقال صفوان: أغصباً يا محمد؟ قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك، قال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح، فزعموا أنَّ رسول الله ﷺ سأله أن يكفيهم حملها، ففعل [١].

الخروج إلى حُنين

كان جيش المسلمين الذي توجّه لفتح مكّة بكامل قوّته وطاقته حيث لم يلقَ قتالاً سوى المناوشات اليسيرة التي كانت من بعض فرسان قريش في الخندمة، وبعد أن أمضى رسول الله ﷺ والمسلمون خمس عشرة ليلة بعد الفتح في مكّة تحرّكوا في الخامس من شوّال نحو حُنين ووصلوها في مساء العاشر من شوال، وكان رسول الله ﷺ قد استعمل عتّاب بن أُسيد على مكّة.

وكان جيش النبي ﷺ في حُنين أكبر جيش للمسلمين إذا ما قورن بالغزوات السابقة، وفي هذا قال تعالى: ﴿ويوم حُنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾، حيث كان عدد المسلمين يزيد على اثني عشر ألفاً، عشرة آلاف هم جيش فتح مكّة، وألفان من مَسْلَمَةِ الفتح الذين سمّوا بالطلقاء.

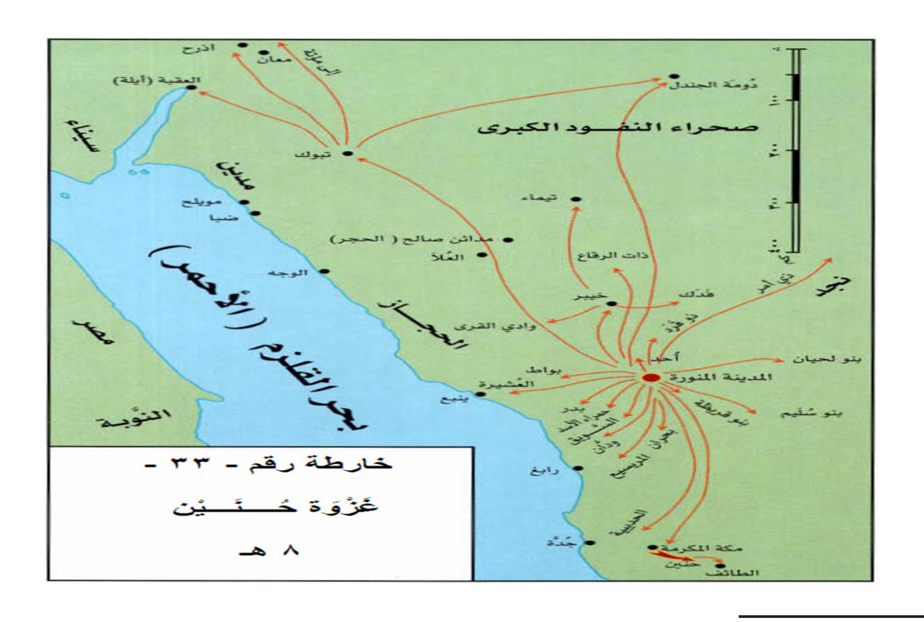
---

(١) انظر: سيرة ابن هشام.

الطريق إلى حُنين

عن أبي واقد الليثي، أنَّ الحارث بن مالك، قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن حديثو عهد بالجاهلية، قال: فَسِرنا معه إلى حنين، قال: وكان كفّار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء، يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة، فيعلّقون أسلحتهم عليها، ويذبحون عندها، ويعكفون عليها يوماً، قال: فرأينا ونحن نسير مع رسول الله ﷺ سدرة خضراء عظيمة، قال: فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، قال رسول الله ﷺ: الله أكبر، قلتم والذي نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، قال إنّكم قوم تجهلون، إنّها السنن، لتركبنَّ سنن من كان قبلكم. اهـ [١].

عن أنس بن مالك قال: قال غلام منّا من الأنصار يوم حنين: لم نغلب اليوم من قلة، فما هو إلاّ أن لقينا عدونا فانهزم القوم [٢].



---

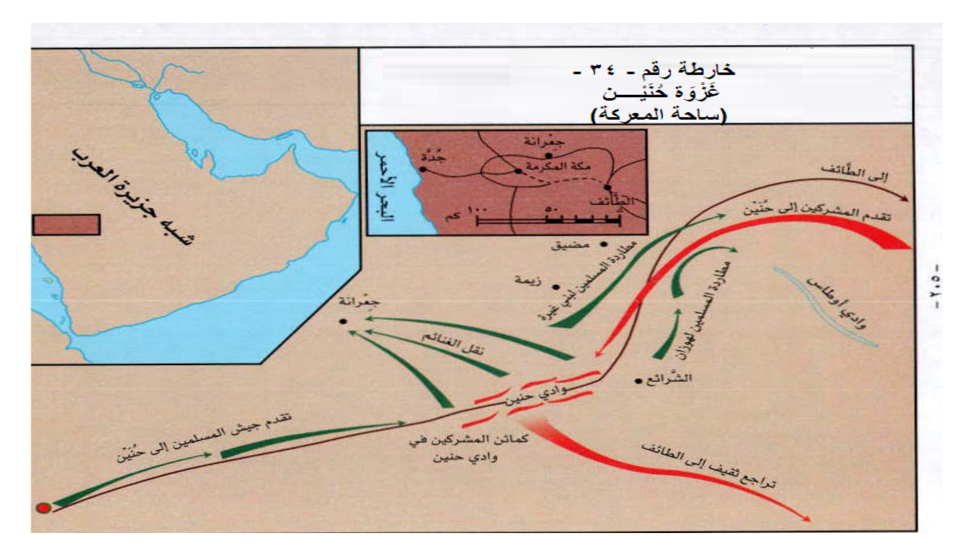
(١) رواه الإمام احمد والترمذي وقال: حسن صحيح.

(٢) كشف الأستار عن زوائد البزار للهيثمي: ٣٤٦/٢ - ٣٤٧.

بدء المعركة

وصلت هوازن إلى وادي حُنين قبل المسلمين فثبَّتوا الكتائب في الشعاب والمنعطفات وبين الأشجار، واختاروا مواقعهم، ووضعوا خطّة محكمة لمباغتة المسلمين بمجرد تقدمهم في وادي حُنين المنحدر، ووصل المسلمون إلى الوادي قبل الفجر يتقدّمهم خالد بن الوليد والخيّالة معه وفي طليعتها بنو سُليم، ثمَّ باقي الجيش الذي كان يسير بشكل صفوف منتظمة.

روى ابن إسحاق بسنده عن جابر قال: لمّا استقبلنا وادي حنين انحدرنا في واد من أودية تهامة أجوف حطوط [١]، إنّما ننحدر فيه انحداراً، قال: وفي عماية الصبح [٢] وكان القوم قد سبقونا إلى الوادي، فكمنوا لنا في شعابه وأحنائه [٣] ومضايقه، وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا، فوالله ما راعنا ونحن منحطّون إلا الكتائب قد شدّوا علينا شدّة رجل واحد، وانشمر الناس [٤] راجعين، لا يلوي أحد على أحد. اهـ.



(١) أجوف: متسع، حطوط: منحدر.
(٢) ظلامه قبل أن يتبيّن.
(٣) الشعاب هنا: الطرق الخفية، وأحناؤه: جوانبه.
(٤) انشمر الناس: انفضوا وانهزموا

ثبات النبي ﷺ

بدأت هوازن بتنفيذ الخطّة المحكمة حيث انسحبت طلائع هوازن أمام المسلمين تاركين بعض الغنائم، فظنَّ المسلمون أنَّ هوازن هُزِمَت، وأقبل بعض الجند يجمعون الغنائم، ففاجأهم رماة جيش هوازن بوابل من السهام الكثيفة التي انهالت على جيش المسلمين من جنبات وادي حُنين، فانكشفت خيّالة المسلمين، ثمَّ المشاة، وفرَّ مَسْلَمةُ الفتح والأعراب، ثمَّ بقية الجيش، حتى لم يصمد مع رسول الله ﷺ سوى فئةٍ قليلةٍ من الصحابة صمدت بصمود رسول الله ﷺ.

وقد ساهم تعجّل بعض المسلمين بالخروج دون استكمال عدّة القتال حتى كان بعضهم حاسري الرؤوس، بالإضافة إلى بعض الجنود الذين لم يحملوا السلاح الكافي، ولم يحسبوا للأمر حسابه، ومع دقة رماة هوازن، وهول المفاجأة، كل ذلك ساهم في انهيار جيش المسلمين.

قال جابر رضي الله عنه: وانحاز رسول الله ﷺ ذات اليمين، ثمَّ قال: أين أيها الناس؟ هلمّوا إلي، أنا رسول الله، أنا محمد بن عبد الله، قال: فلا شيء، حملت الإبل بعضها على بعض، فانطلق الناس، إلّا أنّه قد بقي مع رسول الله ﷺ نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

ولم يثبت مع النبي ﷺ سوى عشرة أو اثني عشر من الصحابة منهم أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان بن الحارث، وابنه، والفضل بن العباس، وربيعة بن الحارث، وأسامة بن زيد وأيمن بن عبيد [١].

روى البخاري ومسلم عن أبي إسحق قال: سمعت البراء وسأله رجل من قيس: أفررتم عن رسول الله ﷺ يوم حُنين؟، فقال البراء: ولكنَّ رسول الله ﷺ لم يفر، وكانت هوازن يومئذ رماة، وإنّا لمّا حملنا عليهم انكشفوا، فأكببنا على الغنائم

(١) هو ابن أمِّ أيمن الحبشية.

فاستقبلونا بالسهام، ولقد رأيت رسول الله ﷺ على بغلته البيضاء وإنَّ أبا سفيان بن الحارث آخذ بلجامها وهو يقول:

أنا النبي لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

فلمّا انهزم الناس، ورأى من كان مع رسول الله ﷺ من جفاة أهل مكة الهزيمة، تكلّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن فقال: ألا بطل السحر اليوم، فقال له صفوان: اسكت فضّ الله فاك، فوالله لئن يربّني رجل من قريش أحبّ إليَّ أن يربّني رجل من هوازن [١]

المدد الإلهي في حُنين

قال ابن إسحاق: وحدثني أبي إسحاق بن يسار، أنّه حُدِّث عن جبير بن مطعم، قال: لقد رأيت قبل هزيمة القوم والناس يقتتلون مثل البجاد الأسود، أقبل من السماء حتى سقط بيننا وبين القوم، فنظرت، فإذا نمل أسود مبثوث قد ملأ الوادي، لم أشك أنّها الملائكة، ثمَّ لم يكن إلّا هزيمة القوم [٢].

رجوع المسلمين واحتدام المعركة

وروى مسلم في صحيحه عن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب رسول الله ﷺ فلم نفارقه، ورسول الله ﷺ على بغلة له بيضاء أهداها له فروة بن نفاثة الجذامي، فلمّا التقى المسلمون والكفار ولّى المسلمون مدبرين، فطفق رسول الله ﷺ يُركض بغلته قِبَل الكفار، قال عباس: وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله ﷺ أكفّها

(١) يرُبَّني أي: يكون رباً لي، أي: مالكاً عليّ.

(٢) كان سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض قد أرسلوها إلى ظهورهم، ويوم حُنين عمائم حمر، ولم تقاتل الملائكة في يوم إلّا يوم بدر، إنما كانوا يكونون عدداً ومدداً لا يضربون. مجمع الزوائد للهيثمي.

إرادة أن لا تسرع، وأبو سفيان[1] آخذ بركاب رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: أي عباس نادِ أصحاب السَمرة[2]، فقال عباس وكان رجلًا صيّتاً: [3] فقلت بأعلى صوتي: أين أصحاب السمرة؟، قال: فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتي عطفة البقر على أولادها، فقالوا: يا لبيك، يا لبيك، قال: فاقتتلوا والكفارَ، والدعوة في الأنصار يقولون: يا معشر الأنصار، يا معشر الأنصار، قال: ثمَّ قصرت الدعوة على بني الحارث بن الخزرج، فقالوا: يا بني الحارث بن الخزرج، يا بني الحارث بن الخزرج، فنظر رسول الله ﷺ وهو على بغلته كالمتطاول عليها إلى قتالهم، فقال رسول الله ﷺ: الآن حمي الوطيس [4]، قال: ثمَّ أخذ رسول الله ﷺ حصيات فرمى بهنَّ وجوه الكفار، ثمَّ قال: انهزموا وربِّ محمد، قال: فذهبتُ أنظر فإذا القتال على هيئته فيما أرى، قال: فوالله ما هو إلّا أنْ رماهم بحصياته فما زلت أرى حدّهم كليلاً[5] وأمرهم مدبراً

وفي رواية أخرى لمسلم: أنَّه ﷺ قبض قبضة من تراب من الأرض ثمَّ استقبل بها وجوههم فقال: شاهت الوجوه، فما خلق الله منهم إنساناً إلّا ملأ عينيه تراباً من تلك القبضة.

قال ابن إسحاق: والتفت رسول الله ﷺ إلى أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وكان ممّن صبر يومئذ مع رسول الله ﷺ وكان حَسَن الإسلام حين أسلم، وهو آخذ بثفر بغلته، فقال: مَنْ هذا؟ قال: أنا ابن أمّك يا رسول الله.

يقول الشهيد سيد قطب ﷺ: إنَّ معركة حُنين التي يذكرها السياق هنا ليعرض

---

(١) أي أبو سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب.

(٢) هي الشجرة التي بايعوا تحتها بيعة الرضوان، ومعناه: ناد أهل بيعة الرضوان يوم الحديبية، شرح صحيح مسلم للنووي.

(٣) أي أنَّ صوته كان عالياً.

(٤) هو مثل يُضرب عندما تشتد الحرب، قال النووي في شرح صحيح مسلم: قالوا: وهذه اللفظة من فصيح الكلام وبديعه، الذي لم يُسمَع من أحد قبل النبي ﷺ.

(٥) أي ما زلت أرى قوّتهم ضعيفة.

نتائج الانشغال عن الله، والاعتماد على قوّة غير قوّته، لتكشف لنا عن حقيقة أخرى ضمنية، حقيقة القوى التي تعتمد عليها كل عقيدة، إنَّ الكثرة العددية ليست بشيء، إنّما هي القلة العارفة المتصلة الثابتة المتجردة للعقيدة، وإنَّ الكثرة لتكون أحياناً سبباً في الهزيمة، لأنَّ بعض الداخلين فيها، التائهين في غمارها، ممّن لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، تتزلزل أقدامهم وترتجف في ساعة الشدّة، فيشيعون الاضطراب والهزيمة في الصفوف فوق ما تخدع الكثرة أصحابها فتجعلهم يتهاونون في توثيق صلتهم بالله، انشغالاً بهذه الكثرة الظاهرة عن اليقظة لسرِّ النصر في الحياة.

لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة، لا بالزبد الذي يذهب جفاء، ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح!. [١]

مطاردة المشركين

لم يتمكّن جيش هوازن من الانسحاب بشكلٍ منظّم من ساحة المعركة، فتركوا بعض شراذمهم التي قضى عليها المسلمون، فكانت خسائرهم في الأرواح خلال الانسحاب والهزيمة المنكرة التي تلقّوها أعظم من خسائرهم خلال المعركة، وأمر رسول الله ﷺ بتعقّب الفارّين وقتلهم لإضعاف شوكة هؤلاء حتى لا يجتمعوا مرّة أخرى لحرب المسلمين، وأباح سَلَب المشركين لمَنْ يقتله.

وقد نهى رسول الله ﷺ عن قتل النساء والذراري، وقال حين رأى امرأة مقتولة: ما كانت هذه تقاتل

وانهزم المشركون، وأتوا الطائف، ومعهم مالك بن عوف، وعَسْكَر بعضهم بأوطاس، وتوجَّه بعضهم نحو نخلة، وتبعت خيلُ رسول الله ﷺ مَنْ سلك في نخلة من الناس، ولم تتبع من سلك الثنايا [٢]، روى مسلم عن أبي بردة عن أبيه، قال: لمّا فرغ

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.

(٢) سيرة ابن هشام.

النبي ﷺ من حُنين بعث أبا عامر على جيش إلى أوطاس، فلقي دريد بن الصمة، فقتل دريد، وهزم الله أصحابه قال أبو موسى: وبعثني مع أبي عامر، قال: فرُمي أبو عامر في ركبته، فقال: يا ابن أخي، انطلق إلى رسول الله ﷺ فأقْرِئه منّي السلام وقل له، يقول لك أبو عامر: استغفر لي، قال: واستعملني أبو عامر على الناس، ومكث يسيراً، ثمَّ إنّه مات، فلمّا رجعت إلى النبي ﷺ، دخلت عليه وهو في بيت على سرير مرمل وعليه فراش، وقد أثر رمال السرير بظهر رسول الله ﷺ وجنبيه، فأخبرته بخبرنا وخبر أبي عامر، وقلت له: قال: قل له يستغفر لي، فدعا رسول الله ﷺ بماء، فتوضأ منه ثمَّ رفع يديه، ثمَّ قال: اللهم اغفر لعبيد أبي عامر، حتى رأيت بياض إبطيه، ثمَّ قال: اللهم اجعله يوم القيامة فوق كثير من خلقك أو من الناس، فقلت: ولي يا رسول الله فاستغفر، فقال النبي ﷺ: اللهم اغفر لعبد الله بن قيس ذنبه، وأدخله يوم القيامة مدخلاً كريماً. اهـ.

فلمّا انهزمت هوازن استحرَّ القتل من ثقيف في بني مالك، فقُتل منهم سبعون رجلاً تحت رايتهم.

قال ابن إسحاق: وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة، فوقف في فوارس من قومه، على ثنية من الطريق [(١)]، وقال لأصحابه: قفوا حتى تمضي ضعفاؤكم، وتلحق أخراكم، فوقف هناك حتى مضى مَنْ كان لحق بهم من منهزمة الناس.

قال ابن هشام: وبلغني أنَّ خيلاً طلعت ومالك وأصحابه على الثنية، فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ فقالوا: نرى قوماً واضعي رماحهم بين آذان خيلهم طويلة بوادهم [(٢)]، فقال: هؤلاء بنو سُليم، ولا بأس عليكم منهم، فلمّا أقبلوا سلكوا بطن الوادي، ثمَّ طلعت خيل أخرى تتبعها، فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى قوماً عارضي رماحهم [(٣)]، أغفالًا على خيلهم [(٤)]، فقال: هؤلاء الأوس والخزرج، ولا

(١) الثنية: موضع مرتفع بين جبلين.
(٢) البواد: جمع الباد وهو باطن الفخذ.
(٣) أي واضعيها بالعرض، وهو كناية عن عدم مبالاتهم لأعدائهم.
(٤) أغفالًا: جمع غفل، وهو الذي لا علامة له، يريدون أنهم لم يعلّموا أنفسهم بشيء يُعرفون به.

بأس عليكم منهم، فلمّا انتهوا إلى أصل الثنية سلكوا طريق بني سُليم، ثمَّ طلع فارس، فقال لأصحابه: ماذا ترون؟ قالوا: نرى فارساً طويل الباد، واضعاً رمحه على عاتقه، عاصباً رأسه بملاءة [١] حمراء فقال: هذا الزبير بن العوام وأحلف باللات ليخالطنكم، فاثبتوا له، فلمّا انتهى الزبير إلى أصل الثنية أبصر القوم، فصمد لهم [٢]، فلم يزل يطاعنهم حتى أزاحهم عنها.

وكان من دعاء رسول الله ﷺ يوم حنين: (اللهم إنْ تشأ لا تُعبد في الأرض بعد اليوم) [٣].

وممّن استشهد يوم حنين أيمن ابن أم أيمن مولى رسول الله ﷺ وأبو عامر الأشعري.

تعرّض جيش المشركين لخسائر فادحة في حُنين، حيث ذكر ابن إسحاق أنَّ عدد قتلى بني مالك من ثقيف وحدهم خلال المعركة بلغ اثنين وسبعين كما ذكرنا، وقتيلين من الأحلاف من ثقيف الذين سارعوا إلى مغادرة ميدان المعركة بعد انكشاف جيش المشركين، كما بلغ عدد القتلى من بني مالك من ثقيف فقط خلال الهزيمة ثلاثمائة قتيل، قتلهم جيش المسلمين بقيادة الزبير بن العوّام في أوطاس، حيث قتل أبو طلحة وحده عشرين رجلاً منهم وأخذ أسلابهم، واستحرَّ القتل في هوازن فقُتِل المئات من بني نصر بن معاوية وبني رئاب الذين يُعتبرون من أهم فروع هوازن.

وغَنِم المسلمون غنائم كثيرة حيث غنموا أربعة آلاف أوقية فضة، وأربعة وعشرين ألفاً من الإبل، وأكثر من أربعين ألف شاة، بالإضافة إلى الخيل والبقر والحمير، كما سبى المسلمون ستة آلاف، حيث وصف الزهري كثرة السبي بقوله: (مُلئت عرش مكّة منهم)، في حين لم يُقدِّم المسلمون سوى أربعة شهداء، كما

(١) الملاءة: الملحفة صغيرة كانت أو كبيرة

(٢) أي قصدهم.

(٣) قال ابن كثير: إسناده ثلاثي على شرط الشيخين.

أُصِيبَ بعض الصحابة منهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد ﷺ.

طارد جيشُ المسلمين المنهزمين من حُنين إلى مسافاتٍ بعيدة، ثمَّ توجهّوا إلى حصار الطائف مباشرة دون راحة، ممّا يدل على أنَّ جيش المسلمين لم يتعرّض لخسائر كبيرة في المعركة.

وكانت العرب والأعراب يراقبون المعركة ويترقّبون نتيجتها، ليتخذوا موقفاً أخيراً من الإسلام، فلمّا هُزم جيش هوازن أقبلت وفود العرب تُعلن الدخول في دين الله أفواجاً.

شأن الشيماء

قال ابن إسحاق: وحدثني بعض بني سعد بن بكر: أنَّ رسول الله ﷺ قال يومئذ: إن قدرتم على بجاد - رجل من بني سعد بن بكر -، فلا يفلتنكم، وكان قد أَحْدَث حَدَثاً، فلمّا ظفر به المسلمون ساقوه وأهله، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ﷺ من الرضاعة فعنفوا عليها في السياق، فقالت للمسلمين: تعلمون والله أنّي لأخت صاحبكم من الرضاعة، فلم يصدّقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ﷺ، فلمّا انتُهيَ بها إلى رسول الله ﷺ قالت: يا رسول الله، إنّي أختك من الرضاعة ؛ قال: وما علامة ذلك؟ قالت: عضّة عضضتنيها في ظهري وأنا متوركتك، قال: فعرف رسول الله ﷺ العلامة، فبسط لها رداءه، فأجلسها عليه وخيّرها، وقال: إنْ أحببتِ فعندي محبة مكرمة، وإنْ أحببت أنْ أمتعك وترجعي إلى قومك فعلت، فقالت: بل تمتعني وتردّني إلى قومي، فمتعّها رسول الله ﷺ، وردّها إلى قومها.

غزوة الطائف

تُعدُّ غزوة الطائف امتداداً لغزوة حُنين، حيث انسحب ما تبقّى من جموع جيش هوازن إلى الطائف التي تحصّنت فيها ثقيف وقائد هوازن مالك بن عوف النصري.

كانت الطائف تتميّز بموقعها الجبلي وأسوارها القويّة، وليس لها أيُّ منافذ سوى الأبواب، وكانت ثقيف قد هيأت وسائل الحرب، واستعدت لصمود طويل داخل الطائف حيث أغلقت الأبواب بعد أن أدخلت من الأقوات ما يكفيها لسنة كاملة.

بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين

ولمّا أراد رسول الله ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفين، صنم عمرو بن حممة الدوسي يَهْدِمه، وأَمَرَه أن يستمدَّ قومه ويوافيه بالطائف، فخرج سريعاً إلى قومه، فهدم ذا الكفين، وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعاً، فوافوا النبي ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بدبابة ومنجنيق [1].

حصار الطائف

وسار رسول الله ﷺ فنزل قريباً من حصن الطائف، وعسكر هناك، فرموا المسلمين بالنبل رمياً شديداً، كأنه رجل جراد، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة، وقُتِل منهم اثنا عشر رجلاً، وكان مع رسول الله ﷺ من نسائه أم سلمة وزينب، فضرب لهما قبتين، وكان يصلّي بين القبتين مُدَّة حصار الطائف، فحاصرهم ونَصَبَ عليهم المنجنيق، وهو أول ما رُمِي به في الإسلام.

وذكر ابن سعد أنَّ النبي ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يوماً.

(١) الدبابة: آلة من آلات الحرب تُصنع من الخشب وتغشى بالجلود ويدخل فيها الرجال فيدبون بها إلى الأسوار لينقبوها، والمنجنيق: هي لفظة معرّبة وهي آلة تُرمى بها الحجارة الثقيلة ونحوها لدكّ الحصون.

وكانت غزوة الطائف أول غزوة يستخدم فيها جيش المسلمين آلات لضرب الحصون فضربوا حصون الطائف بالمنجنيق، وقد اختلفت الروايات حول الكيفية التي حصل فيها المسلمون على هذه الآلات، فذكرت بعض الروايات أنَّ خالد بن سعيد بن العاص جاءه بمنجنيق ودبابتين من جرش في الأردن، في حين تفيد رواية أخرى أنَّ سلمان الفارسي هو من صنع المنجنيق للمسلمين.

ورغم استخدام المسلمين لبعض الآلات إلّا أنَّه لم تكن تتوفر لديهم آلات كافية لاقتحام الأسوار.

دخل نفر من أصحاب رسول الله ﷺ تحت دبّابة، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنبل، فقتلوا منهم رجالاً، فأمر رسول الله ﷺ بقطع أعناب ثقيف، فوقع الناس فيها يقطعون. [١]

وسأل أهل الطائف رسول الله ﷺ أن يدع أعنابهم لله وللرحم، فقال رسول الله ﷺ فإنّي أدعها لله وللرحم [٢].

عتقاء الله

ونادى منادي رسول الله ﷺ: أيّما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج منهم ثلاثة وعشرون رجلاً [٣]، منهم أبو بكرة، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه، فشقَّ ذلك على أهل الطائف مشقّة شديدة.اهـ.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا أتهم، عن عبد الله بن مكدم، عن رجال من

---

(١) زاد المعاد: ج٣/ ٤٣٥.

(٢) انظر: طبقات ابن سعد.

(٣) هذا هو الصحيح، أنَّ عدد العبيد الذين نزلوا كان ثلاثة وعشرين لِما رواه البخاري عن عاصم قال: وأمّا الآخر - يعني أبا بكرة - فنزل إلى النبي ﷺ ثالث ثلاثة وعشرين من الطائف.

ثقيف، قالوا: لمّا أسلم أهل الطائف تكلّم نفر منهم في أولئك العبيد، فقال رسول الله ﷺ: لا، أولئك عتقاء الله.

إنهاء الحصار

وبعد أربعين يوماً من حصار الطائف أنهى رسول الله ﷺ الحصار، وكان قد استشار نوفل بن معاوية الديلي فقال: ما ترى؟، فقال نوفل: يا رسول الله، ثعلب في جُحْر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك، فقال عليه السلام: إنّا قافلون إن شاء الله، قال أصحابه: نرجع ولم نفتتحه؟! فقال لهم رسول الله ﷺ: اغدوا على القتال، فغدوا عليه فأصابهم جراح، فقال لهم رسول الله ﷺ: إنا قافلون غداً، قال: فأعجبهم ذلك، فضحك رسول الله ﷺ [١].

ولمّا ارتحلوا واستقلوا قال رسول الله ﷺ قولوا: آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون، وقيل له: يا رسول الله، أحرقتنا نبال ثقيف فادع الله عليهم فقال: اللهم اهدِ ثقيفاً. [٢]

وممّن توفي في حصار الطائف عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنه، وكانت تحته عاتكة بنت زيد [٣]، فلمّا توفي عبدالله تزوّجها زيد بن الخطاب رضي الله عنه - وقيل إنَّه لم يتزوّجها - فلمّا استشهد في اليمامة سنة ١١ هـ تزوّجها عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلمّا قُتل عمر سنة ٢٣ هـ تزوّجها الزبير بن العوّام رضي الله عنه فلمّا قُتل الزبير بعد معركة الجمل سنة ٣٦ هـ خطبها علي بن أبي طالب رضي الله عنه فرفضت وقالت: يا أمير المؤمنين، أنت بقية الناس وسيد المسلمين، وإنّي أنفس بك عن الموت، فلم يتزوجها [٤].

(١) متفق عليه.
(٢) سنن الترمذي وقال: حسن صحيح غريب.
(٣) هي أخت سعيد بن زيد رضي الله عنه أحد العشرة المبشّرين بالجنّة.
(٤) أُسد الغابة: ج٧/ ١٨١.

أمر أموال هوازن وسباياها

أتى وفد هوازن إلى رسول الله ﷺ وقد أسلموا، فقالوا: يا رسول الله إنّا أصل وعشيرة، وقد أصابنا من البلاء ما لم يخفَ عليك، فامنُنْ علينا، منَّ الله عليك، فقال رسول الله ﷺ: أبناؤكم ونساؤكم أحبّ إليكم أم أموالكم؟ فقالوا: يا رسول الله، خيَّرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردُّ إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحبُّ إلينا، فقال لهم: أمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صلّيت الظهر بالناس، فقوموا فقولوا: إنّا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك، وأسأل لكم، فلمّا صلّى رسول الله ﷺ بالناس الظهر، قاموا فتكلّموا بالذي أَمَرَهم به، فقال رسول الله ﷺ: وأمّا ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، فقال المهاجرون: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، وقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال الأقرع بن حابس: أمّا أنا وبنو تميم فلا، وقال عيينة بن حصن: أمّا أنا وبنو فزارة فلا، وقال عباس بن مرداس: أمّا أنا وبنو سليم فلا، فقالت بنو سليم: بلى، ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، قال: يقول عباس بن مرداس لبني سليم: وهنتموني [1]، فقال رسول الله ﷺ: أمّا من تمسك منكم بحقِّه من هذا السبي فله بكل إنسان ست فرائض، من أول سبي أصيبه، فردّوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم.

شأن مالك بن عوف

وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف ما فعل؟ فقالوا: هو بالطائف مع ثقيف، فقال رسول الله ﷺ: أخبروا مالكاً أنّه إن أتاني مسلماً رددت عليه أهله وماله، وأعطيته مائة من الإبل، فأتى مالك بذلك، فخرج إليه من الطائف، وقد كان مالك خاف ثقيفاً على نفسه أن يعلموا أنَّ رسول الله ﷺ قال له ما قال،

(١) أي: أضعفتموني.

فيحبسوه، فأمر براحلته فهيئت له، وأمر بفرس له، فأتي به إلى الطائف، فخرج ليلاً، فجلس على فرسه، فركضه حتى أتى راحلته حيث أمر بها أن تحبس، فركبها، فلحق برسول الله ﷺ، فأدركه بالجعرانة أو بمكّة، فردّ عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل، وأسلم فحسن إسلامه، و استعمله رسول الله ﷺ على مَنْ أسلم من قومه، وتلك القبائل: ثمالة، وسلمة، وفهم، فكان يقاتل بهم ثقيفاً، لا يخرج لهم سرح إلّا أغار عليه، حتى ضيّق عليهم.(١)

الغنائم

قال ابن هشام: وذكر زيد بن أسلم، عن أبيه: أنَّ عقيل بن أبي طالب دخل يوم حنين على امرأته فاطمة بنت شيبة بن ربيعة، وسيفه متلطخ دماً، فقالت: إنّي قد عرفت أنّك قد قاتلت، فماذا أصبت من غنائم المشركين؟ فقال: دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك، فدفعها إليها، فسمع منادي رسول الله ﷺ يقول: من أخذ شيئا فليردّه، حتى الخياط والمخيط، فرجع عقيل، فقال: ما أرى إبرتك إلّا قد ذهبت، فأخذها، فألقاها في الغنائم.

المؤلفة قلوبهم

وأعطى رسول الله ﷺ المؤلفة قلوبهم، وكانوا أشرافاً من أشراف الناس، يتألفهم ويتألف بهم قومهم، فأعطى أبا سفيان بن حرب مائة بعير، وأعطى ابنه معاوية مائة بعير، وأعطى حكيم بن حزام مائة بعير، وأعطى الحارث بن الحارث بن كلدة مائة بعير، وأعطى الحارث بن هشام مائة بعير، وأعطى سهيل بن عمرو مائة بعير، وأعطى حويطب بن عبد العزى بن أبي قيس مائة بعير، وأعطى العلاء بن جارية الثقفي، مائة بعير، وأعطى عيينة بن حصن مائة بعير، وأعطى الأقرع بن حابس التميمي مائة بعير،

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢/ ٣٧٦ - ٣٧٨.

وأعطى مالك بن عوف النصري مائة بعير، وأعطى صفوان بن أمية مائة بعير، وأعطى رجالاً من قريش دون المائة. (١)

وأعطى النبي ﷺ عطاءً كبيراً حتى قال بعض المؤلفة قلوبهم (٢): لقد أعطاني النبي ﷺ ما أعطاني وإنّه لأبغض الناس إليّ فما برح يعطيني حتى إنّه لأحب الناس إليَّ. (٣)

موقف الأنصار من قسمة الغنائم

ولمّا أعطى رسول الله ﷺ قريشاً وقبائل العرب ولم يعطِ الأنصار، وَجَدَ الأنصارُ في أنفسهم من ذلك، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال ناس من الأنصار حين أفاء الله على رسوله ﷺ ما أفاء من أموال هوازن، فطَفِقَ النبي ﷺ يعطي رجالاً المائة من الإبل فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، قال أنس: فحُدِّثَ رسول الله ﷺ بمقالتهم، فأرسل إلى الأنصار فَجَمَعَهُم في قُبَّة من أُدُم ولم يدعُ معهم غيرهم، فلمّا اجتمعوا قام النبي ﷺ فقال: ما حديث بلغني عنكم؟، فقال فقهاء الأنصار: أمّا رؤساؤنا يا رسول الله فلم يقولوا شيئاً، وأمّا ناس منّا حديثة أسنانهم فقالوا: يغفر الله لرسول الله ﷺ يعطي قريشاً ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم، فقال النبي ﷺ فإنّي أعطي رجالاً حديثي عهد بكفر أتألفهم، أما ترضون أن يذهب الناس بالأموال وتذهبون بالنبي ﷺ إلى رحالكم؟، فوالله لَمَا تنقلبون به خير مما ينقلبون به، قالوا: يا رسول الله قد رضينا، فقال لهم النبي ﷺ ستجدون أثرة شديدة فاصبروا حتى تلقوا الله ورسوله ﷺ فإنّي على الحوض (٤).

وفي رواية ابن هشام عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: لمّا أعطى رسول الله ﷺ

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢/ ٣٧٩.
(٢) وهو صفوان بن أمية.
(٣) رواه مسلم.
(٤) متفق عليه.

ما أعطى من تلك العطايا، في قريش وفي قبائل العرب، ولم يكن في الأنصار منها شيء، وجد هذا الحي من الأنصار في أنفسهم، حتى كثرت منهم القالة حتى قال قائلهم: لقد لَقِي والله رسول الله قومه، فدخل عليه سعد بن عبادة، فقال: يا رسول الله، إنَّ هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لِمَا صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسّمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يكُ في هذا الحي من الأنصار منها شيء، قال: فأين أنت من ذلك يا سعد؟ قال: يا رسول الله، ما أنا إلا امرؤ من قومي، قال: فاجمعْ لي قومك في هذه الحظيرة، قال: فخرج سعد، فجمع الأنصار في تلك الحظيرة، قال: فجاء رجال من المهاجرين فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردّهم، فلمّا اجتمعوا له أتاه سعد، فقال: قد اجتمع لك هذا الحي من الأنصار، فأتاهم رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمَّ قال: يا معشر الأنصار: ما قالة بلغتني عنكم، وَجْدَة وجدتموها عليَّ في أنفسكم؟ ألم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله، وعالةً فأغناكم الله، وأعداءً فألف الله بين قلوبكم؟ قالوا: بلى، الله ورسوله أمنُّ وأفضل، ثمَّ قال: أَلَا تجيبونني يا معشر الأنصار؟ قالوا: بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المنُّ والفضل، قال ﷺ: أَمَا والله لو شئتم لقلتم، فلصَدقْتم ولصُدِّقْتم: أتيتنا مكذَّباً فصدقناك، ومخذولاً فنصرناك، وطريداً فآويناك، وعائلاً فآسيناك، أَوَجدتُم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم، ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً وسلكت الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار، قال: فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسماً وحظاً، ثمَّ انصرف رسول الله ﷺ، وتفرّقوا.

اعتراض ذي الخويصرة التميمي

وبينما رسول الله ﷺ يقسّم الغنائم أتاه ذو الخويصرة وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله، اعدلْ، فقال: ويلك ومَنْ يعدل إذا لم أعدل؟ قد خبتُ وخسرتُ إن لم أكن أعدل، فقال عمر: يا رسول الله ائذن لي فيه فأضرب عنقه، فقال: دعه فإنَّ له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، ينظر إلى نصله فلا يوجد فيه شيء، ثمَّ ينظر إلى رصافه فما يوجد فيه شيء، ثمَّ ينظر إلى نضيه وهو قدحه فلا يوجد فيه شيء، ثمَّ ينظر إلى قذذه فلا يوجد فيه شيء، قد سبق الفرث والدم، آيتهم رجل أسود إحدى عضديه مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر، ويخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد: فأشهد أنّي سمعت هذا الحديث من رسول الله ﷺ، وأشهد أنَّ علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه فأمر بذلك الرجل فالتُمِس، فأُتي به حتى نظرت إليه على نعت النبي ﷺ الذي نَعَتَه [(١)]

وفي رواية البخاري أنَّه لمّا قال للنبي ﷺ اعدل، قال ﷺ: (شقيت إنْ لم أعدل) وأنَّه لمّا طلب عمر أن يأذن له بقتله قال ﷺ: (معاذ الله أن يتحدث الناس أنَّ محمداً يقتل أصحابه) [(٢)]

ويظهر ممّا ذكره الحافظ ابن حجر في فتح الباري أنَّ ذي الخويصرة اعترض على قسمة الغنائم مرّتين، مرّة في حُنين، ومرّة ثانية في قسم ذهب أرسله علي من اليمن في أثر حنين.

ولم يكن غريباً ما حدث من بعض الأعراب الذين ازدحموا على رسول الله ﷺ وهو يُقسِّم غنائم حُنين، حتى علق رداؤه بغصن شجرة فقال: أعطوني ردائي، فلو كان عدد هذه العضاة [(٣)] نَعَماً لقسمته بينكم، ثمَّ لا تجدوني بخيلًا ولا كذوباً ولا جباناً [(٤)]،

---

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البخاري.

(٣) شجر الشوك، وكان يملأ المكان.

(٤) رواه البخاري.

ثمَّ أخذ وبرة من سنام بعير وقال: والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلّا الخمس، والخمس مردود عليكم، ثمَّ بيّن رسول الله ﷺ تحريم الغلول من الغنيمة، فجاء أحد الأنصار بخيوط شعر مكببة كان قد أخذها من الغنائم فألقاها.

وورد في البخاري أنَّه لمّا مات كركرة مولى رسول الله ﷺ قال: هو في النار، ففتشوا متاعه فوجدوا عباءة قد غلّها.

إسلام كعب بن زهير [١]

كان كعب بن زهير أحد الذين أهدر النبي ﷺ دمهم يوم الفتح، فلمّا رجع النبي ﷺ من الطائف أرسل إليه أخوه بُجير أنّه إن كانت لك في نفسك حاجة فطِرْ إلى رسول الله ﷺ فإنه لا يقتل أحداً جاءه تائباً، وإن أنت لم تفعل فانجُ إلى نجائك [٢] من الأرض، ثم إنَّ كعباً أتى المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة، من جهينة، فغدا به إلى رسول الله ﷺ حين صلّى الصبح، فصلّى مع رسول الله ﷺ، ثمَّ أشار له إلى رسول الله ﷺ، فقال: هذا رسول الله، فقمْ إليه فاستأمِنْه، فقام إلى رسول الله ﷺ، حتى جلس إليه، فوضع يده في يده، وكان رسول الله ﷺ لا يعرفه، فقال: يا رسول الله، إنَّ كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلماً، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به؟ قال رسول الله ﷺ: نعم، قال: أنا يا رسول الله كعب بن زهير، فوثب عليه رجل من الأنصار، فقال: يا رسول الله، دعني وعدو الله أضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: دعه عنك فإنّه قد جاء تائباً، نازعاً عمّا كان عليه، فغضب كعب على هذا الحي من الأنصار، لِمَا صنع به صاحبهم، وذلك أنَّه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلاّ بخير فقال في قصيدته التي قال حين قدم على رسول الله ﷺ:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبولُ ... متيّم إثرها لم يُفدَ مكبولُ

(١) وهو ابن الشاعر الجاهلي المعروف زهير بن أبي سلمى صاحب المعلّقة.
(٢) أي إلى محل ينجيك منه.

وما سعاد غداة البين إذ رحلوا ... إلّا أغنّ غضيضُ الطرفِ مكحولُ

هيفاءُ مقبلة عجزاء مدبرة ... لا يُشتكى قِصَرٌ منها ولا طولُ

تجلو عوارض ذي ظلم إذا ابتسمت ... كأنّه منهلٌ بالراح معلولُ

فيا لها خُلّة لو أنّها صدَقَت ... بوعدها أو لو أنَّ النح مقبولُ

لكنّها خلة قد سيط من دمها ... فجعٌ وولعٌ وإخلافٌ وتبديلُ

فما تدوم على حال تكون بها ... كما تلوّن في أثوابها الغولُ

وما تمسّك بالعهد الذي زعمت ... إلّا كما تُمسِك الماءَ الغرابيلُ

فلا يغرنْكَ ما منّت وما وعدت ... إنَّ الأماني والأحلام تضليلُ

كانت مواعيد عرقوب لها مثلاً ... وما مواعيدها إلّا الأباطيلُ

أرجو وآمل أن تدنو مودتها ... وما إخال لدينا منك تنويلُ

أمست سعاد بأرض لا يبلّغها ... إلا العتاقُ النجيباتُ المراسيلُ

تسعى الغواة جنابيها وقولهم ... إنّك يا ابن أبي سُلمى لمقتولُ

وقال كلُّ صديق كنت آمله ... لا ألهينك إنّي عنك مشغولُ

فقلت خلّوا سبيلي لا أباً لكم ... فكل ما قدَّر الرحمن مفعولُ

كلُ ابن أنثى وإنْ طالت سلامته ... يوماً على آلة حدباء محمولُ

نُبئت أنَّ رسول الله أوعدني ... والعفو عند رسول الله مأمولُ

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ ... قرآن فيها مواعيظ وتفصيلُ

لا تأخذنّي بأقوال الوشاة ولم ... أُذنب ولو كثرت فيَّ الأقاويلُ

حتى وضعت يميني ما أنازعه ... في كف ذي نقمات قيله القيلُ

فلهو أخوف عندي إذ أكلِّمُه ... وقيل: إنّك منسوب ومسؤولُ

من ضيغم بضراء الأرض مخدرهُ ... في بطن عيثر غيل دونه غيلُ

إنَّ الرسول لنور يستضاء به ... مهندٌ من سيوف الله مسلول

في عصبة من قريش قال قائلهم ... ببطن مكّة لمّا أسلموا زولوا

زالــوافمــازال أنكــاس ولاكشــف ... عــنـد الــلـقـاء ولا مـيـل مـعـازيــلُ
شـــمٌّ الـعـرانـيـن أبــطالٌ لـبـوســهـم ... من نـسـج داود فـي الـهـيجـا سـرابيـلُ
بــيض سـوابـغ قــد شــكـت لـهـا حلق ... كـأنّــهـا حـلـق الـقـفـعـاء مـجـدولُ
لا يــفـرحـون إذا نــالـت رمـاحــهـم ... قـومـاً ولـيـسوا مـجـازيـعـاً إذا نيـلوا
يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهـم ... ضـرب إذا عـــرَّد الـسـود الـتــنابـيـلُ
لا يـقـع الطـعـن إلا فـي نـحـورهـم ... وما لـهم عن حـياض الموت تـهـليـلُ

ولمّا خصَّ كعب المهاجرين من قريش من أصحاب رسول الله ﷺ بالمدح، غضبت عليه الأنصار، فقال شعراً بعد أن أسلم يمدح فيه الأنصار، ويذكر بلاءهم مع رسول الله ﷺ [(١)].

قال ابن كثير: ورد في بعض الروايات أنَّ رسول الله ﷺ أعطاه بردته حين أنشده القصيدة، وهكذا ذكر ذلك الحافظ أبو الحسن بن الأثير في (الغابة)، قال: وهي البردة التي عند الخلفاء، قلت (ابن كثير): وهذا من الأمور المشهورة جداً، ولكن لم أرَ ذلك في شيء من هذه الكتب المشهورة بإسناد أرتضيه، فالله أعلم. اهـ. [(٢)]

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام: ج٢ / ٣٨٥ - ٣٩٣.
(٢) البداية والنهاية.

السنة التاسعة من الهجرة

أقام رسول الله ﷺ بعد رجوعه من فتح مكّة يستقبل الوفود في المدينة، ويبعث عمّاله ودعاته إلى الأمصار، ويرسل السرايا لِمَنْ حمله الاستكبار على عدم الدخول في الإسلام والخضوع لسلطان الدولة الإسلامية.

رسول الله ﷺ يُرسل المصدّقين

بعث النبي ﷺ في المحرّم من سنة ٩ هـ المصدقين إلى القبائل يجمعون الصدقات، وقد بعث منهم ستة عشر صحابياً إلى بني تميم وأسلم وغفار وسُليم ومزينة وجهينة وبني فزارة وبني كلاب وبني كعب وبني ذبيان وحضرموت وطيء وبني أسد وبني حنظلة وبني سعد والبحرين، وكان من المصّدقين الذين أرسلهم النبي ﷺ المهاجر بن أبي أمية، أرسله إلى صنعاء فخرج عليه الأسود العنسي وهو بها، وعلي بن أبي طالب أرسله إلى نجران لجمع الصدقة والجزية.

ولم يرسل النبي ﷺ عمّاله كلهم في المحرم سنة ٩ هـ، بل تأخرّ إرسال بعضهم، لكنَّ إرسالهم بهذا العدد الكبير يدلل على انتشار الإسلام في الجزيرة العربية.

السـرايـا

استأنف رسول الله ﷺ بعث السرايا في السنة التاسعة من الهجرة، وهذه السرايا هي:

١- **سريّة عيينة بن حصن الفزاري**: في خمسين فارساً ليس فيهم مهاجري ولا أنصاري إلى بني تميم ليغزوهم، وكانوا قد أغروا القبائل ومنعوهم عن دفع الجزية، فكان يسير الليل ويكمن النهار، فهجم عليهم في صحراء وقد سرحوا مواشيهم، فلمّا رأوا الجمع ولّوا، فأخذ منهم أحد عشر رجلاً وإحدى وعشرين امرأة وثلاثين صبياً وساقهم إلى المدينة [١]

(١) زاد المعاد: ج٣/ ٤٤٥ - ٤٤٦.

٢- **سريّة قطبة بن عامر**: إلى حي من خثعم بناحية تبالة، حيث أرسله رسول الله ﷺ في عشرين رجلاً في صفر سنة ٩ هـ، فشنَّ الغارة عليهم وقتل مَنْ قتل منهم، وساق النساء والنَّعم إلى المدينة.

٣- **سريّة الضحّاك بن سفيان الكلابي**: في ربيع الأول سنة ٩ هـ إلى بني كلاب لدعوتهم إلى الإسلام فأبوا وقاتلوا، فهزمهم المسلمون.

٤- **سريّة علقمة بن مجزز**: إلى سواحل جدّة، حيث أرسله رسول الله ﷺ في ثلاثمائة، في ربيع الآخر سنة ٩ هـ إلى رجال من الحبشة اجتمعوا بالقرب من سواحل جدّة للقيام بأعمال قرصنة ضد المسلمين بمكّة، فخاض علقمة البحر حتى وصل إلى جزيرة، ولمّا سمع القوم بمسير المسلمين هربوا.

وهذه هي السرية التي ورد فيها الحديث عن علي بن أبي طالب قال: بعث رسول الله ﷺ سرية واستعمل عليهم رجلاً من الأنصار وأمرهم أن يسمعوا له ويطيعوا، فأغضبوه فقال: اجمعوا لي حطباً، فجمعوا فقال: أوقدوا ناراً، ثمَّ قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن تسمعوا لي؟ قالوا: بلى، قال: فادخلوها، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: إنّما فررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك حتى سكن غضبه وطفئت النار، فلمّا رجعوا ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فقال: لو دخلوها ما خرجوا منها أبداً، وقال: لا طاعة في معصية الله، إنّما الطاعة في المعروف.

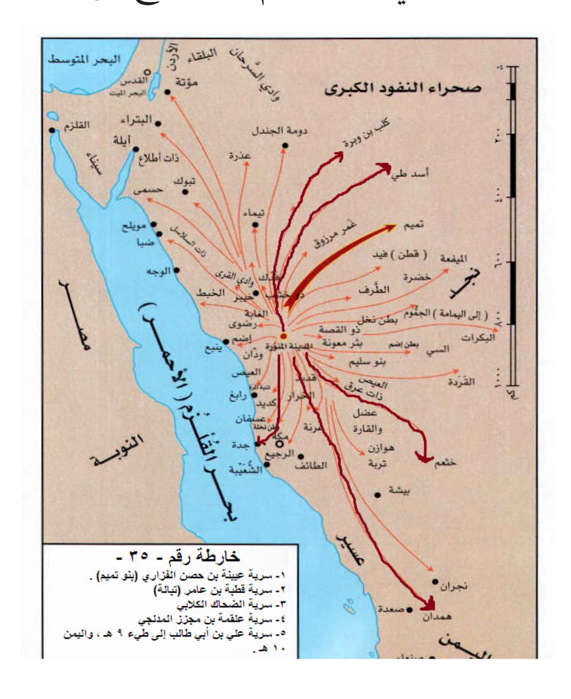
٥- **سريّة علي بن أبي طالب** رضي الله عنه: وأرسل رسول الله ﷺ علياً رضي الله عنه في مائة وخمسين رجلاً من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً، ومعه راية سوداء ولواء أبيض إلى القلس [1]، فشنّوا الغارة على محلة آل حاتم فهدموا الصنم، وسبوا النساء، وأخذوا النعم والشاء، وكان في السبي أخت عدي بن حاتم الذي هرب إلى الشام، وقسّم علي رضي الله عنه الغنائم في الطريق وعزل الصفي لرسول الله ﷺ ولم يقسم على آل حاتم حتى قَدِمَ بهم المدينة، ثمَّ أطلق رسول الله ﷺ أخت عدي بن حاتم، وقَدِم عدي إلى النبي ﷺ فكلّمه وعرض عليه الإسلام فأسلم رضي الله عنه.

---

(١) صنم لطيء.

وفي رواية لأحمد أنَّ النبي ﷺ قال: يا عدي أَسْلِم تَسْلم، فقلت: إنّي من أهل دين، قال: أنا أعلم بدينك منك، فقلت: أنت أعلم بديني منّي؟ قال: نعم، ألست من الركوسية، وأنت تأكل مرباع قومك؟ فقلت: بلى، قال: فإنَّ هذا لا يحلُّ لك في دينك، قال: فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعت لها.

وروى البخاري عن عدي قال: بينا أنا عند النبي ﷺ إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة [1]، ثمَّ أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: يا عدي، هل رأيت الحيرة؟ فإنْ طالت بك حياة فلترينَّ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة، لا تخاف أحداً إلّا الله، ولئن طالت بك حياة لتفتحنّ كنوز كسرى، ولئن طالت بك حياة لترينّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة ويطلب من يقبله، فلا يجد أحداً يقبله منه.... الحديث، وفي آخره: قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلّا الله، وكنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة لتروُن ما قال النبي أبو القاسم ﷺ يخرج ملء كفه.



(١) الفقر والحاجة.

النبي ﷺ يعتزل نساءه

روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أميّة بن زيد وهم من عوالي المدينة، وكنّا نتناوب النزول على النبي ﷺ، فينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئته بما حدث من خبر ذلك اليوم من الوحي أو غيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك، وكنّا معشر قريش نغلب النساء، فلمّا قدمنا على الأنصار إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب نساء الأنصار، فصخبت على امرأتي فراجعتني فأنكرت أن تراجعني، قالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك، فوالله إنَّ أزواج النبي ﷺ ليراجعنه، وإنَّ إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل، فأفزعني ذلك، وقلت لها: قد خاب من فعل ذلك منهن، ثمَّ جمعت عليَّ ثيابي فنزلت فدخلت على حفصة فقلت لها: أي حفصة أتغاضب إحداكنّ النبي ﷺ اليوم حتى الليل؟ قالت: نعم، فقلت: قد خبتِ وخسرتِ، أفتأمنين أنْ يغضب الله لغضب رسوله ﷺ فتهلكي؟ لا تستكثري النبي ﷺ ولا تراجعيه في شيء ولا تهجريه، وسليني ما بدا لك، ولا يغرنَّك أن كانت جارتك أوضأ منك، وأحبّ إلى النبي ﷺ - يريد عائشة - قال عمر: وكنّا قد تحدثنا أنَّ غسان تنعل الخيل لغزونا، فنزل صاحبي الأنصاري يوم نوبته فرجع إلينا عشاءً فضرب بابي ضرباً شديداً وقال: أَثَمَّ هو؟، ففزعتُ، فخرجت إليه، فقال: قد حدث اليوم أمرٌ عظيم، قلت: ما هو؟ أجاء غسان؟ قال: لا بل أعظم من ذلك وأهول، طلّق النبي ﷺ نساءه، وقال عبيد بن حنين سمع ابن عباس عن عمر فقال: اعتزل النبي ﷺ أزواجه، فقلت: خابت حفصة وخسرت، قد كنت أظنّ هذا يوشك أن يكون، فجمعت عليّ ثيابي فصليت صلاة الفجر مع النبي ﷺ، فدخل النبي ﷺ مشربة له، فاعتزل فيها، ودخلت على حفصة فإذا هي تبكي، فقلت: ما يبكيك؟ ألم أكن حذرتك هذا؟ أطلقكنّ النبي ﷺ؟ قالت: لا أدري، ها هو ذا معتزل في المشربة، فخرجت فجئت إلى المنبر فإذا حوله رهط يبكي بعضهم، فجلست معهم قليلاً ثمَّ غلبني ما أجد، فجئت المشربة التي فيها النبي

ﷺ فقلت لغلام له أسود: استأذن لعمر، فدخل الغلام فكلّم النبي ﷺ ثمَّ رجع فقال: كلّمت النبي ﷺ وذكرتك له فصمت، فانصرفتُ حتى جلست مع الرهط الذين عند المنبر ثمّ غلبني ما أجد فجئت فقلت للغلام: استأذن لعمر، فدخل ثمَّ رجع فقال: قد ذكرتك له فصمت، فرجعتُ فجلست مع الرهط الذين عند المنبر ثمَّ غلبني ما أجد فجئت الغلام فقلت: استأذن لعمر، فدخل ثمَّ رجع إليّ فقال: قد ذكرتك له فصمت، فلمّا وليتُ منصرفاً إذا الغلام يدعوني فقال: قد أذن لك النبي ﷺ، فدخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجع على رمال حصير ليس بينه وبينه فراش، قد أثّر الرمال بجنبه متكئاً على وسادة من أُدم، حشوها ليف، فسلّمت عليه، ثمّ قلت وأنا قائم: يا رسول الله، أَطَلّقتَ نساءك؟ فرفع إليّ بصره فقال: لا، فقلت: الله أكبر، ثمَّ قلت وأنا قائم: استأنس يا رسول الله، لو رأيتني وكنّا معشر قريش نغلب النساء فلمّا قدمنا المدينة إذا قوم تغلبهم نساؤهم، فتبسَّم النبي ﷺ، ثمَّ قلت: يا رسول الله، لو رأيتني ودخلت على حفصة فقلت لها: لا يغرنّك أن كانت جارتك أوضأ منك، وأحبّ إلى النبي ﷺ - يريد عائشة - فتبسَّم النبي ﷺ تبسمة أخرى، فجلست حين رأيته تبسّم فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت في بيته شيئاً يردَّ البصر غير أهبة ثلاثة، فقلت: يا رسول الله، ادعُ الله فليوسع على أمتك، فإنَّ فارس والروم قد وُسِّع عليهم وأُعطوا الدنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النبي ﷺ وكان متكئاً فقال: أوفي هذا أنت يا ابن الخطاب؟ إنَّ أولئك قوم عجلوا طيباتهم في الحياة الدنيا، فقلت: يا رسول الله، استغفر لي، فاعتزل النبي ﷺ نساءه من أجل ذلك الحديث حين أفشته حفصة إلى عائشة تسعاً وعشرين ليلة، وكان قال: ما أنا بداخل عليهن شهراً من شدّة موجدته عليهن حين عاتبه الله، فلمّا مضت تسع وعشرون ليلة دخل على عائشة فبدأ بها فقالت له عائشة: يا رسول الله إنّك كنت قد أقسمت أن لا تدخل علينا شهراً، وإنّما أصبحت من تسع وعشرين ليلة أعدّها عداً، فقال: الشهر تسع وعشرون ليلة، فكان ذلك الشهر تسعاً وعشرين ليلة، قالت عائشة: ثمّ أنزل الله تعالى آية التخيير فبدأ

بي أول امرأة من نسائه فاخترته، ثمَّ خير نساءه كلهن فقلن مثل ما قالت عـائـشـة.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا أُمِرَ رسول الله ﷺ بتخيير أزواجه بدأ بي فقال: إنيّ ذاكر لكِ أمراً، فلا عليكِ أنْ لا تعجلي حتى تستأمري أبويك، - قالت: قد علم أنَّ أبوَيْ لم يكونا ليأمراني بفراقه - قالت: ثمَّ قال: إنَّ الله جلَّ وعلا قال: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إنْ كُنْتُنَّ تُرِدْن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتّعكنَّ وأسرحكنَّ سراحاً جميلاً وإنْ كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدَّ للمحسنات منكن أجراً عظيماً﴾ قالت: فقلت: في أيِّ هذا أستأمر أبوَيْ؟ فإنّي أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: ثمَّ فعل أزواج رسول الله ﷺ مثل ما فعلت.

وروى الترمذي أنَّ عائشة رضي الله عنها قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، لا تخبر أزواجك أنّي اخترتك، فقال النبي ﷺ: إنّما بعثني الله مبلّغاً، ولم يبعثني متعنّتاً. [1]

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: ونقف كذلك أمام تلك العاطفة البشرية الحلوة في قلب رسول الله ﷺ وهو يحبُّ عائشة حباً ظاهراً، ويحبُّ لها أن ترتفع إلى مستوى القيم التي يريدها الله له ولأهل بيته، فيبدأ بها في التخيير، ويريد أن يساعدها على الارتفاع والتجرد، فيطلب إليها ألّا تعجل في الأمر حتى تستشير أبويها - وقد علم أنَّهما لم يكونا يأمرانها بفراقه كما قالت - وهذه العاطفة الحلوة في قلب النبي ﷺ لا تخطئ عائشة رضي الله عنها من جانبها في إدراكها، فتسرُّها وتحفل بتسجيلها في حديثها، ومن خلال هذا الحديث يبدو النبي ﷺ إنساناً يحب زوجه الصغيرة، فيحبُّ لها أن ترتفع إلى أفقه الذي يعيش فيه، وتبقى معه على هذا الأفق، تشاركه الشعور بالقيم الأصيلة في حسّه، والتي يريدها له ربه ولأهل بيته، كذلك تبدو عائشة "رضي الله عنها" إنسانة يسرُّها أن تكون مكينة في قلب زوجها، فتسجّل بفرح حرصه عليها، وحبّه له، ورغبته في أن تستعين بأبويها على اختيار الأفق الأعلى فتبقى معه على هذا الأفق الوضيء، ثمَّ نلمح مشاعرها الأنثوية كذلك، وهي تطلب إليه ألّا يُخبر أزواجه الأخريات أنّها

---

(١) قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب.

اختارته حين يخيرهن، وما في هذا الطلب من رغبة في أن يظهر تفردها في هذا الاختيار، وميزتها على بقية نسائه، أو على بعضهن في هذا المقام!، وهنا نلمح عظمة النبوة من جانب آخر في ردِّ رسول الله ﷺ وهو يقول لها: (إنَّ الله تعالى لم يبعثني معنّفاً، ولكن بعثني معلّماً ميّسراً، لا تسألني واحدة منهن عمّا اخترتِ إلا أخبرتها) فهو لا يودُّ أن يحجب عن إحدى نسائه ما قد يعينها على الخير، ولا يمتحنها امتحان التعمية والتعسير، بل يقدّم العون لكل من تريد العون، كي ترتفع على نفسها، وتتخلص من جواذب الأرض ومغريات المتاع!

هذه الملامح البشرية العزيزة ينبغي لنا - ونحن نعرض السيرة - ألّا نطمسها، وألّا نهملها، وألّا نقلل من قيمتها، فإدراكها على حقيقتها هو الذي يربط بيننا وبين شخصية الرسول ﷺ وشخصيات أصحابه رضي الله عنهم برباط حي، فيه من التعاطف والتجاوب ما يستجيش القلب إلى التأسي العملي والاقتداء الواقعي [(١)].

غزوة تبوك (غزوة العسرة)

كانت غزوة تبوك في رجب سنة ٩ هـ، وذكر المؤرخون عدة أسباب لهذه الغزوة، فذكر ابن سعد أنَّ هرقل جمع جموعاً من الروم وقبائل العرب الموالية لها، وأنَّ المسلمين علموا بخبرهم فخرجوا إلى تبوك، وذكر اليعقوبي أنَّ سبب الغزوة هو الثأر لجعفر بن ابي طالب رضي الله عنه، لكنَّ الراجح والله أعلم أنَّه لم يكن هناك سبب مباشر لهذه الغزوة، إلّا أنَّها تأتي ضمن استمرار فريضة الجهاد ودعوة الناس إلى الإسلام، قال ابن كثير: فعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنّهم أقرب الناس إليه، وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام وأهله، وقد قال تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أنَّ الله مع المتقين﴾ [سورة التوبة: ١٢٣] [(٢)].

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة الأحزاب.

(٢) البداية والنهاية.

وقد تميّزت غزوة تبوك كما غزوة مؤتة التي سبقتها بأنَّها كانت ضد الروم ونصارى العرب، في حين كانت غزوات النبي ﷺ وسراياه الأخرى ضد المشركين من العرب واليهود.

كانت تبوك تبعد عن المدينة ٧٧٨ كيلاً شمال الحجاز، وكانت خاضعة لسلطان الروم، وسمّيت هذه الغزوة بغزوة العسرة لِما أصاب المسلمين من ضيق مادي وقتها، قال تعالى ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة﴾ [التوبة: ١١٧]، ولعلَّ هذا الضيق الاقتصادي بسبب توقيت الحملة، قبل جني ثمار التمر وبيعه، أو لعلّه يرجع إلى عوامل أخرى غيرها.

التهيؤ للغزوة

أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالتهيؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عسرة الناس، وشدّة من الحر، وجَدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمار، وكان رسول الله ﷺ قلّما يخرج في غزوة إلا كنَّى عنها، وأخبر أنّه يريد غير الوجه الذي يصمد له، إلّا ما كان من غزوة تبوك، فإنّه بيّنها للناس، لبعد الشقّة [١]، وشدّة الزمان، وكثرة العدو الذي يصمد له، ليتأهب الناس لذلك أُهبَته، فأمر الناس بالجهاز، وأخبرهم أنّه يريد الروم.

وحضَّ رسول الله ﷺ على النفقة والحملان في سبيل الله، ووعد المنفقين بعظيم الأجر عند الله، فسارع رجال من أغنياء الصحابة وفقرائهم إلى تقديم الأموال، فجاء أبو بكر وعمر وعبدالرحمن بن عوف وطلحة وسعد بن عبادة والعباس ومحمد بن مسلمة، كلهم جاؤوا بمال، وأنفق عثمان بن عفان نفقة عظيمة، لم ينفق أحد مثلها، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ جهّز جيش العسرة فله الجنّة» فجهزهم عثمان [٢]، حيث جاء بألف دينار فصبّها في حجر النبي ﷺ، والنبي ﷺ يقول: ما ضرّ عثمان ما فعل

(١) أي السفر البعيد.

(٢) رواه البخاري.

بعد اليوم، يكررها مراراً [1]، وتتابع الناس بصدقاتهم قليلها وكثيرها.

أمّا الفقراء من المسلمين فلم يجدوا إلّا اليسير الذي يملكونه، فجاؤوا به على استحياء يُقدّمونه لرسول الله ﷺ فلمزهم المنافقون وسخروا منهم، حيث ورد في البخاري أنَّ أبا خيثمة الأنصاري «رضي الله عنه» جاء بصاعٍ من تمر، فلمزه المنافقون، كما صحَّ أنَّ أبا عقيل جاء بنصف صاعٍ من تمر، وجاء آخر بأكثر منه، فقال المنافقون: إنَّ الله لغنيٌ عن صدقة هذا!! وما فعل هذا الآخر إلّا رياء، فنزل قوله تعالى: ﴿الذين يلمزون المطّوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلّا جهدهم﴾ [التوبة: ٧٩]. [2]

موقف المنافقين

شنَّ المنافقون حملة دعائية كبيرة ضد إعلان النفير لغزوة تبوك، فبدأوا بتثبيط الناس، وسعوا لإشاعة روح التخاذل، مستغلين الحرَّ الشديد في ذلك الوقت، وقالوا: ﴿لا تنفروا في الحر﴾، كما تخلَّف معظمهم عن الغزوة، وخرج بعضهم من الجيش يقتنص الفرص لتخذيل المسلمين وتثبيطهم.

شأن البكّائين

وأتى رجال من المسلمين رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم فاستحملوا رسول الله ﷺ [3]، وكانوا أهل حاجة، فقال: لا أجد ما أحملكم عليه، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله عن البكّائين: بمثل هذه الروح انتصر الإسلام،

(١) مسند أحمد ٥/ ٥٣، وسنن الترمذي وقال: هذا حديث حسن غريب، وصححه الحاكم في المستدرك وقال: حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي

(٢) متفق عليه.

(٣) أي: طلبوا منه ما يحملهم عليه.

وبمثل هذه الروح عزّت كلمته، فلننظر أين نحن من هؤلاء، ولننظر أين روحنا من تلك العصبة، ثمَّ لنطلب النصر والعزّة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر، وإلّا فلنسدد ولنقارب والله المستعان. [١]

وأرسل أبو موسى الأشعري أصحابه إلى رسول الله ﷺ ليحملهم، فوافاه غضبان فقال: والله لا أحملكم ولا أجد ما أحملكم عليه، ثمَّ أتاه إبل، فأرسل إليهم ثمَّ قال: ما أنا حملتكم، ولكنَّ الله حملكم، وإنّي والله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلّا كفَّرت عن يميني وأتيتُ الذي هو خير.

شأن المتصدّق

وقام عُلبة بن زيد فصلّى من الليل وبكى وقال: اللهم إنّك قد أمرت بالجهاد ورغّبت فيه، ثمَّ لم تجعل عندي ما أتقوى به مع رسولك، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه، وإنّي أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عرض، ثمَّ أصبح مع الناس فقال النبي ﷺ أين المتصدق هذه الليلة؟ فلم يقم إليه أحد، ثمَّ قال: أين المتصدق فليقم، فقام إليه فأخبره، فقال النبي ﷺ: أبشر فوالذي نفس محمد بيده لقد كُتِبَت في الزكاة المتقبلة.

وجاء المعذّرون من الأعراب فاعتذروا إليه فلم يعذرهم الله ﷻ.

ثمَّ استتب برسول الله ﷺ سفره، وأجمع السير، وتخلّف عنه جماعة من غير شك ولا ارتياب فيهم كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية وأبو خيثمة وأبو ذر الغفاري «رضي الله عنهم»، ثمّ إنَّ أبا خيثمة وأبا ذر لحقا بالنبي ﷺ، وتخلّف الباقون.

وقد قال النبي ﷺ في المتخلّفين المعذورين: إنَّ بالمدينة أقواماً ما سِرتُم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم، قالوا: يا رسول الله، وهم بالمدينة؟!، قال: وهم بالمدينة، حبسهم العذر.

---

(١) (٣) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.

ثمَّ خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، واستعمل محمد بن مسلمة على المدينة، وقيل: استعمل سباع بن عرفطة، وخرج معه ثلاثون ألفاً من المسلمين.



في الطريق إلى تبوك

١- لمّا خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك خلّف علياً بن أبي طالب رضي الله عنه على أهله، فأرجف به المنافقون، فخرج علي رضي الله عنه ولحق بالنبي ﷺ وقال: يا رسول الله تخلّفني في النساء والصبيان!، فقال: أَمَا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي؟. [١]

٢- كن أبا خيثمة: قال أبو خيثمة الأنصاري: تخلّفت عن رسول الله ﷺ، فدخلتُ حائطاً، فرأيت عريشاً قد رُشَّ بالماء، ورأيت زوجتَيّ فقلت: ما هذا بإنصاف، رسول الله ﷺ في السموم والحرور وأنا في الظلِّ والنعيم، فقمتُ إلى ناضح لي وتمرات

(١) متفق عليه.

فخرجتُ، فلمّا طلعت على العسكر فرآني الناس، قال النبي ﷺ: كن أبا خيثمة، فجئتُ، فدعا لي.

٣- وأصبح الناس ولا ماء معهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسول الله ﷺ، فأرسل الله سبحانه سحابة فأمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء.

٤- ولمّا قرب من تبوك قال: إنّكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك، وإنّكم لم تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتى آتي، قال معاذ: فجئنا وقد سبق إليها رجلان، والعين تبض بشيء من مائها، فسألهما رسول الله ﷺ: هل مسستما من مائها شيئاً؟ قالا: نعم، وقال لهما ما شاء الله أن يقول، ثمَّ غرف من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع الوشل، ثمَّ غسل رسول الله ﷺ فيه وجهه ويده، ثمَّ أعاده فيها فَجَرَت العين بماء كثير فاستقى الناس، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: يوشك يا معاذ إنْ طالت بك حياة أن ترى ما ههنا قد مُلئ جناناً.

٥- وضلّت ناقة رسول الله ﷺ فقال زيد بن اللصيت: أليس محمد يزعم أنّه نبي، ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: إنَّ رجلاً قال: هذا محمد يخبركم أنّه نبيّ، ويزعم أنَّه يخبركم بأمر السماء وهو لا يدري أين ناقته، وإنَّي والله ما أعلم إلّا ما علمني الله، وقد دلَّني الله عليها، وهي في هذا الوادي، في شعب كذا وكذا، قد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها، فذهبوا، فجاءوا بها.

٦- وفي طريق الجيش إلى تبوك قال رسول الله ﷺ تهبُّ عليكم الليلة ريح شديدة، فلا يقم أحد منكم، فمَنْ كان له بعير فليشدَّ عقاله، فهبّت ريح شديدة، فقام رجل فحملته الريح حتى ألقته بجَبَلَيْ طيء، وذكرت بعض الروايات أنَّ هذا كان حين بلغ المسلمون تبوك.

لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم

قال ابن إسحاق: وقد كان رهط من المنافقين، منهم وديعة بن ثابت، أخو بني عمرو بن عوف، ومنهم رجل من أشجع، حليف لبني سلمة، يقال له: مخشن بن حمير يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك، فقال بعضهم لبعض: أتحسبون جِلادَ بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟، والله لكأنّا بكم غداً مُقرّنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين، فقال مخشن بن حمير: والله لوددت أنّي أقاضي على أن يضرب كل رجل منّا مئة جلدة، وإنّا ننفلت أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ - فيما بلغني - لعمّار بن ياسر: أدرك القوم، فإنّهم قد احترقوا، فسلهم عّما قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار فقال ذلك لهم: فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت، ورسول الله ﷺ واقف على ناقته، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب، فأنزل الله ﷻ: (ولئن سألتهم ليقولنَّ إنّما كنّا نخوض ونلعب) وقال مخشن بن حمير: يا رسول الله، قعد بي اسمي واسم أبي، وكأنّ الذي عفي عنه في هذه الآية مخشن بن حمير، فتسمّى عبد الرحمن، وسأل الله تعالى أن يقتله شهيداً لا يُعلمُ بمكانه، فقتل يوم اليمامة، فلم يوجد له أثر .

وذكر ابن كثير في تفسيره عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأيت مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المسجد: كذبت، ولكنّك منافق، لأخبرنَّ رسول الله ﷺ فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن، قال عبد الله بن عمر: وأنا رأيته متعلقاً بحقب ناقة رسول الله ﷺ تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) [1].

(١) تفسير القرآن العظيم / تفسير سورة التوبة.

وهاهنا مسألتان:

الأولى: أنَّ الاستهزاء بالله ﷻ، أو برسوله ﷺ أو بالإسلام، أو بالقرآن العظيم، وجعل الدين مادّة للضحك والسخرية والاستهزاء ناقضٌ من نواقض الإسلام، وكفرٌ مخرج من الملّة، فمن استهزأ بالإسلام أو بشيء من تعاليمه، أو تنقَّص منه بدعوى السخرية والضحك فقد ارتدَّ عن دين الله ﷻ، وخلع ربقة الإسلام من عنقه، وعليه التوبة والنطق بالشهادة من جديد.

الثانية: هذه الآية حجّة على كل مَنْ يزعم أنَّ كلَّ من نطق بالشهادتين يكون مسلماً ولا شيء يخرجه من الإسلام إلّا أن يصرّح بالردّة ويكفر بالله ورسوله، فهؤلاء الذين كفّرهم القرآن في هذه الآيات كانوا يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمّداً رسول الله، ويصلّون ويصومون ويؤدّون سائر الفرائض، بل وخرجوا للجهاد مع رسول الله ﷺ وصحابته فكفَّرهم الله ﷻ لاستهزائهم بالله وآياته ورسوله.

ومثل ذلك تكفير الصحابة ﵃ للممتنعين عن دفع الزكاة بعد وفاة رسول الله ﷺ رغم أنَّهم يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمّداً رسول الله ويصلّون ويصومون، كذلك تكفير العلماء للعبيديين الذين حكموا من سنة ٢٩٧ هـ إلى سنة ٥٦٧ هـ، رغم أنَّهم كانوا يشهدون أن لا إله إلّا الله وأنَّ محمّداً رسول الله ويدّعون الإسلام ويصلّون الجمعة والجماعة، وهناك أمثلة أخرى على تكفير من وقع في ناقض من نواقض لا إله إلّا الله أو أكثر وإن نطق بالشهادتين وصلّى وصام وأدّى سائر الفرائض[(١)].

يقول القاضي عياض: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال لا إله إلّا الله تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأنَّ المراد بذلك مشركو العرب وأهل الأوثان ومن لا يوحّد، وهم كانوا أول من دعي إلى الإسلام وقوتل عليه، فأمّا غيرهم ممّن يقرُّ بالتوحيد فلا يكتفى في عصمته بقوله: لا إله إلّا الله، إذ كان يقولها في كفره وهي من اعتقاده[(٢)].

---

(١) انظر كتاب كشف الشبهات للشيخ محمد بن عبدالوهاب.
(٢) شرح صحيح مسلم للنووي: ١/ ١٨٤.

وفي تبوك أعطى النبي ﷺ اللواء لأبي بكر الصديق، والراية للزبير، وأعطى لواء الخزرج لأبي دجانة وقيل إلى الحباب بن المنذر، وراية الأوس لأسيد بن حضير.

الوصول إلى تبوك

وصل جيش المسلمين إلى تبوك، وعَسْكَر مستعداً للقاء العدو، وخطب رسول الله ﷺ في الناس، وحضَّهم، وبشّرهم، وحذّرهم، وأنذرهم، فارتفعت معنويات الجنود، وأصبحوا جاهزين للمعركة.

أمّا الروم وحلفاءهم فقد أخذهم الرعب لمّا سمعوا بقدوم رسول الله ﷺ فتفرّقوا في البلاد، ولم يتجرؤوا على التقدّم ولقاء المسلمين، فحقق المسلمون انتصاراً معنوياً كبيراً، وحصلوا على مكاسب ما كانوا ليحصلوا عليها ربما لو وقع صدام بين الجيشين، حيث أيقنت القبائل التي كانت موالية للروم أنَّ الوضع قد تغيّر، وأنَّ دولة الروم لم تعد قادرة على حمايتهم من المسلمين، فقدّمت الولاء لرسول الله ﷺ، وتوسّعت حدود الدولة الإسلامية حتى لاقت حدود الرومان، وجاء صاحب أيلة يحنة بن رؤبة فصالح رسول الله ﷺ وكتب له رسول الله ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، هذه أَمَنَة من الله ومحمد النبي رسول الله ليحنة بن رؤبة وأهل أيلة، سفنهم وسياراتهم [1] في البر والبحر، لهم ذمّة الله وذمّة محمد النبي، ومن كان معه من أهل الشام وأهل البحر، فمن أحدث منهم حدثاً، فإنّه لا يحول ماله دون نفسه، وإنّه طيب لمن أخذه من الناس، وأنّه لا يحلُّ أن يمنعوا ماء يَرِدونه، ولا طريقاً يريدونه من بر أو بحر.

كما جاء أهل جرباء وأهل أذرح إلى رسول الله ﷺ فأعطوا الجزية وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً، ثمَّ بعث رسول الله ﷺ خالداً بن الوليد رضي الله عنه في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر دومة الجندل وقال له: إنّك ستجده يصيد البقر، فأتاه

---

(١) أي قوافلهم.

خالد، فلمّا كان من حصنه بمنظر العين، خرجت بقرة، تحك بقرونها باب القصر، فخرج أكيدر لصيدها - وكانت ليلة مقمرة - فتلقاه خالد في خلية، فأخذه وجاء به إلى رسول الله ﷺ، فحقن دمه، وصالحه على ألفي بعير، وثمانمائة رأس، وأربعمائة درع، وأربعمائة رمح، وأقرَّ بإعطاء الجزية، فقاضاه مع يحنة على قضية دومة وتبوك وأيلة وتيماء.

شأن ذي البجادين

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قمت من جوف الليل، وأنا مع رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، قال: فرأيت شعلة من نار في ناحية العسكر، قال: فاتبعتها أنظر إليها، فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر، وإذا عبد الله ذو البجادين المُزَني قد مات، وإذا هم قد حفروا له، ورسول الله ﷺ في حفرته، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه، وهو يقول: أدنيا إليَّ أخاكما، فدلياه إليه، فلمّا هيّأه لشقه قال: اللهم إنّي أمسيت راضياً عنه فارض عنه، يقول عبد الله بن مسعود: يا ليتني كنتُ صاحب الحفرة.

الرجوع إلى المدينة

أقام رسول الله ﷺ بتبوك عشرين يوماً ثمَّ انصرف قافلاً إلى المدينة، ورجع جيش المسلمين من تبوك ظافراً منتصراً، وكفي الله المؤمنين القتال، ومرَّ رسول الله ﷺ بالحِجْر - أرض ثمود - فاستقى الناس من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ أنْ يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة، وقال: لا تدخلوا على هؤلاء القوم المعذَّبين إلا أنَّ تكونوا باكين فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم أن يُصيبَكم مثلُ ما أصابهم. [1]

وفي طريق العودة اشتكى المسلمون إلى النبي ﷺ ما أصاب الإبل من الجهد

(١) هما حديثان عند الشيخين.

والتعب، فدعا رسول الله ﷺ ربّه فقال: ﴿اللهم احمل عليها في سبيلك، إنّك تحمل على القوي والضعيف، وعلى الرطب واليابس، في البر والبحر﴾ فنشطت الإبل حتى أبلغتهم المدينة، ولم يشتكوها [١].

وفي الطريق أيضاً حاول بعض المنافقين وهم ملثَّمون تنفير دابة رسول الله ﷺ لتطرحه، ففطن لهم وأمر بإبعادهم.

ولمّا أشرف رسول الله ﷺ على المدينة قال: هذه طابة، وهذا أحد وهو جبل يحبّنا ونحبّه، ثمَّ قال: إنَّ خير دور الأنصار دار بني النجار، ثمَّ دار بني عبد الأشهل، ثمَّ دار بني عبد الحارث بن الخزرج، ثمَّ دار بني ساعدة، وفي كل دور الأنصار خير، فأدرك سعد بن عبادة رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله خيَّرت دور الأنصار فجعلتنا آخراً، فقال: أَوَ ليس بحسبكم أن تكونوا من الخيار [٢].

وتسامع الناس بقدوم الجيش الإسلامي فخرج النساء والصبيان والولائد يقابلن الجيش بحفاوة بالغة ويقلن:

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا لله داع

تُعْتَبَر غزوة تبوك تمهيداً لفتح بلاد الشام، حيث حققت أهدافها بتوطيد سلطان المسلمين شمال شبه الجزيرة العربية، وكان رسول الله ﷺ قد جهّز جيش أسامة قبيل وفاته ليرسله إلى الشام، لكنَّ الجيش لم يتحرك إلى خلافة الصدّيق.

مسجد الضرار

كان المنافقون قد بنوا مسجداً زعموا أنّهم بنوه لذي العلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية، وإنّما كان قصدهم أن يفرّقوا اجتماع المسلمين في مسجد

(١) مسند الإمام أحمد بإسناد حسن.
(٢) متفق عليه.

النبي ﷺ بالمدينة بصرف بعضهم للصلاة فيه، فأتوا النبي ﷺ قُبيل تبوك فقالوا: يا رسول الله، إنَّا قد بنينا مسجداً، وإنّا نحب أنْ تأتينا، فتصلّي لنا فيه، فقال: إنّي على جناح سفر، وحال شغل، أو كما قال ﷺ، ولو قد قدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلّينا لكم فيه، فلمّا عاد من تبوك نهاه الله ﷻ عن الصلاة فيه، قال الله تعالى: ﴿والذين اتخذوا مسجدا ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليلحفنَّ إنْ أردنا إلّا الحسنى والله يشهد إنّهم لكاذبون﴾، فأرسل النبي ﷺ رجالاً فأحرقوا هذا المسجد.

وما أكثر مساجد الضرار في زماننا، والتي حوّلها دعاة الضلال من علماء الطواغيت وشيوخ الأحزاب التي تُسمّى «إسلامية» إلى أماكن للصد عن سبيل الله وتفريغ الإسلام من مضمونه، فقد استغلَّ علماء الطواغيت مساجدهم لشرعنة حكم الطواغيت وتثبيت أركانهم وحثِّ النّاس على موالاتهم ومحاربة كل مَنْ يُحاربهم!، بينما جعلت الأحزاب «الإسلامية» هذه المساجد مقرّات حزبية تابعة لها وأماكن لاصطياد الأتباع، ونشر مناهجها الفاسدة وبثِّ سمومها بين المسلمين، وحوّلوا هذه المساجد إلى منصّات يدعون فيها النّاس إلى الكفر! عبر دعوتهم إلى الديمقراطية والانتخابات ومحاربة المجاهدين من خلال زرع دعاتهم في هذه المساجد، بينما حوّل مشايخ الصوفية وأتباعهم مساجد المسلمين إلى تكايا وزوايا لإقامة حفلات الرقص والغناء لما يسمونه هم بالذكر ولنشر البدع والخرافات بين المسلمين وإبعاد النّاس عن سنّة رسول الله ﷺ وهديه في عبادته وذكره وسائر شؤونه.

وتقود هذه المساجد وتغذيها وتوجهها في الخفاء والعلن مؤسسات الضرار من الهيئات «الشرعية» والاتحادات العلمية والمجامع الفقهية والأحزاب «الإسلامية» والمدارس «الدينية» والكليات والجامعات «الإسلامية»، حيث يؤدّي هؤلاء دور أبي عامر الفاسق ومَنْ معه من المنافقين مرتدين نفس العباءة التي ارتداها أولئك المنافقون وهي عباءة الإسلام، بل والدعوة إليه!.

ولا بُدَّ للجماعة المسلمة أن تتعامل مع مساجد الضرار هذه كما تعامل رسول الله ﷺ مع مسجد الضرار.

ولا يُفهم من كلامنا أنَّنا ندعو إلى هدم المساجد أو استهدافها - معاذ الله - ولكنَّنا ندعو إلى إنزال دعاة الطواغيت وشيوخ الضلال ولحى الفتنة عن منبر النبي ﷺ وطرد أتباع الأحزاب «الإسلامية» منها وتطهير تلك المساجد من أتباع أبي عامر الفاسق وإعادتها مساجد محمّدية تدعو إلى التوحيد، ويجتمع فيها المسلمون ليعبدوا ربهم ويتقربوا إليه، أمّا مؤسسات الضرار التي ذكرناها من هيئات «شرعية» واتحادات علمية ومجامع فقهية وأحزاب «إسلامية» ومدارس «دينية» وكليات وجامعات «إسلامية»، فلن تقوم للأمّة قائمة ما داموا ينفثون سمومهم بين المسلمين ويخرجون النّاس من النور إلى الظلمات ويدعونهم إلى سبيل الشيطان، ولعمري ما فعل أبو عامر الفاسق ومَنْ معه من المنافقين معشار ما فعله ويفعله هؤلاء بالأمّة!.

يقول الشهيد سيد قطب رحمه الله: هذا المسجد ما يزال يُتخذ في صور شتى تلائم ارتقاء الوسائل الخبيثة التي يتخذها أعداء هذا الدين، تتخذ في صورة نشاط ظاهره للإسلام وباطنه لسحق الإسلام أو تشويهه وتمويهه وتمييعه! وتُتخذ في صورة أوضاع ترفع لافتة الدين عليها لتتترس وراءها وهي ترمي هذا الدين! وتُتخذ في صورة تشكيلات وتنظيمات وكتب وبحوث تتحدث عن الإسلام لتخدر القلقين الذين يرون الإسلام يذبح ويمحق، فتخدرهم هذه التشكيلات وتلك الكتب إلى أنَّ الإسلام بخير لا خوف عليه ولا قلق!... وتتخذ في صور شتى كثيرة.

ومن أجل مساجد الضرار الكثيرة هذه يتحتم كشفها وإنزال اللافتات الخادعة عنها وبيان حقيقتها للناس وما تخفيه وراءها، ولنا أسوة في كشف مسجد الضرار على عهد رسول الله ﷺ بذلك البيان القوي الصريح [١].

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.

أمر الثلاثة الذين خلّفوا وأمر المعذّرين في تبوك

حين خرج رسول الله ﷺ إلى تبوك، كان قد تخلّف عنه رهط من المنافقين، وتخلف ثلاثة من المسلمين من غير شك ولا نفاق وهم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، فلمّا عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة قال لأصحابه: لا تُكَلِمُنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة، وأتاه من تخلّف عنه من المنافقين فجعلوا يحلفون له ويعتذرون بأنواع شتّى من الأعذار، فصفح عنهم رسول الله ﷺ، ولم يعذرهم الله ولا رسوله، واعتزل المسلمون كلام أولئك النفر الثلاثة.

قال كعب بن مالك رضي الله عنه: لم أتخلّف عن رسول الله ﷺ في غزوة غزاها إلّا في غزوة تبوك، غير أنّي كنت تخلفت في غزوة بدر، ولم يعاتب أحداً تخلّف عنها، إنّما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام وما أحبّ أنَّ لي بها مشهد بدر، وإنْ كانت بدر أذكر في الناس منها، كان من خبري أنيّ لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه في تلك الغزاة، والله ما اجتمعتْ عندي قَبْلَهُ راحلتان قط حتى جمعتهما في تلك الغزوة، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورّى بغيرها حتى كانت تلك الغزوة، غزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً وعدواً كثيراً، فجلّى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم، فأخبرهم بوجهه الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فما رجل يريد أن يتغيّب إلا ظنَّ أن سيخفى له ما لم ينزل فيه وحي الله، وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، وتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فطفقتُ أغدو لكي أتجهز معهم فأرجع ولم أقضِ شيئاً، فأقول في نفسي أنا قادر عليه، فلم يزل يتمادى بي حتى اشتدَّ بالناس الجدّ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ولم أقضِ من جهازي

شيئاً، فقلت: أتجهز بعده بيوم أو يومين ثمَّ ألحقهم، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز، فرجعت ولم أقضِ شيئاً، ثمَّ غدوت، ثمَّ رجعت ولم أقض شيئاً، فلم يزل بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو، وهممت أن أرتحل فأدركهم وليتني فعلت فلم يقدّر لي ذلك، فكنت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزنني أنّي لا أرى إلّا رجلاً مغموصاً عليه النفاق أو رجلاً ممّن عذر الله من الضعفاء، ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: ما فعل كعب؟ فقال رجل من بني سلمة: يا رسول الله، حبسه برداه ونظره في عطفه [1]، فقال معاذ بن جبل: بئس ما قلت، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلّا خيراً، فسكت رسول الله ﷺ فلمّا بلغني أنّه توجه قافلاً حضرني همّي وطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً، واستعنت على ذلك بكل ذي رأي من أهلي، فلمّا قيل: إنّ رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنّي الباطل، وعرفت أنّي لن أخرج منه أبداً بشيء فيه كذب، فأجمعت صِدْقَه، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين، ثمَّ جلس للناس، فلمّا فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له وكانوا بضعة وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبايعهم واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله، فجئته فلمّا سلّمتُ عليه تبسَّمَ تبسُّمَ المُغضِب، ثمَّ قال: تعال، فجئت أمشي حتى جلست بين يديه، فقال لي: ما خلّفك؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك؟ فقلت: بلى، إنّي والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنْ سأخرجُ من سخطه بعذر، ولقد أعطيتُ جدلاً، ولكنّي والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنّي ليوشكنَّ الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه، إنّي لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منّي حين تخلّفت عنك، فقال رسول الله ﷺ: أمّا هذا فقد صدق، فقم حتى يقضي الله فيك، فقمت، وثار رجال

(١) كناية عن إعجابه بنفسه ولباسه.

من بني سلمة فاتبعوني فقالوا لي: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك، فوالله ما زالوا يؤنبوني حتى أردت أن أرجع فأكذّب نفسي، ثمَّ قلت لهم: هل لقي هذا معي أحد؟ قالوا: نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك، فقلت: مَنْ هما؟ قالوا: مرارة بن الربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، فذكروا لي رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أُسوة، فمضيت حين ذكروهما لي، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين مَنْ تخلَّف عنه، فاجْتَنَبَنا الناس وتغيّروا لنا حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأمّا صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأمّا أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأُسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرّك شفتيه بردّ السلام عليّ أم لا؟ ثمَّ أصلّي قريباً منه فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إليّ، وإذا التفتُّ نحوه أعرض عنّي، حتى إذا طال عليَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسوَّرت [1] جدار حائط أبي قتادة وهو ابن عمي وأحبّ الناس إليّ، فسلّمتُ عليه، فوالله ما رد عليَّ السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أُنشدُك بالله، هل تعلمني أحبُّ الله ورسوله؟، فسكت، فعدت له فنشدته فسكت، فعدت له فنشدته فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي وتوليت حتى تسوّرت الجدار، فبينا أنا أمشي بسوق المدينة إذا نبطي من أنباط أهل الشام ممن قَدِم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول: مَنْ يدلُّ على كعب بن مالك؟ فطفق الناس يشيرون له، حتى إذا جاءني دفع إليَّ كتاباً من ملك غسان فإذا فيه: ﴿أمّا بعد فإنّه قد بلغني أنَّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسك﴾ فقلت لمّا قرأتها: وهذا أيضاً من

(١) تسلّقت.

البلاء، فتيممت بها التنّور فسجرته بها، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتيني فقال: إنَّ رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك، فقلت: أطلّقها أم ماذا أفعل؟ قال: لا، بل اعتزلها ولا تقربها، وأرسل إلى صاحبيّ مثل ذلك، فقلت لامرأتي: الحقي بأهلك فتكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر، قال كعب: فجاءت امرأة هلال بن أميّة رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله، إنَّ هلال بن أميّة شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه؟ قال: لا، ولكن لا يقربك، قالت: إنّه والله ما به حركة إلى شيء، والله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا، فقال لي بعض أهلي: لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه، فقلت: والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يدريني ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب، فلبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلمّا صلّيت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله، قد ضاقت عليّ نفسي، وضاقت عليّ الأرض بما رحبت، سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشر، قال: فخررت ساجداً، وعرفت أن قد جاء فرج، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا، وذهب قِبَل صاحبيّ مبشرون، وركض إليَّ رجل فرساً، وسعى ساع من أسلم فأوفى على الجبل، وكان الصوت أسرع من الفرس، فلمّا جاءني الذي سمعت صوته يبشرني، نزعت له ثوبَيْ فكسوته إياهما ببشراه، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبين فلبستهما وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقاني الناس فوجاً فوجاً يهنوني بالتوبة يقولون: لِتَهْنِكَ توبة الله عليك [1]، قال كعب: حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس، فقام إليّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنأني، والله ما قام إليّ

(١) أي: هنيئاً لك بتوبة الله عليك.

رجل من المهاجرين غيره، ولا أنساها لطلحة، قال كعب: فلمّا سلّمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور: أبشر بخير يوم مرَّ عليك منذ ولدتك أمك، قلت: أَمِنْ عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ قال: لا، بل من عند الله، وكان رسول الله ﷺ إذا سُرّ استنار وجهه حتى كأنَّه قطعة قمر، وكنّا نعرف ذلك منه، فلمّا جلست بين يديه قلت: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسول الله، قال رسول الله ﷺ: أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك، قلت: فإنّي أمسك سهمي الذي بخيبر، فقلت: يا رسول الله، إنَّ الله إنّما نجّاني بالصدق، وإنَّ من توبتي أن لا أُحَدِّثَ إلّا صدقاً ما بقيت، فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله في صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني، ما تعمّدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا كذباً، وإنّي لأرجو أن يحفظني الله فيما بقيت، وأنزل الله على رسوله ﷺ: ﴿لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار﴾ إلى قوله ﴿وكونوا مع الصادقين﴾ فوالله ما أنعم الله عليّ من نعمة قط بعد أن هداني للإسلام أعظم في نفسي من صدقي لرسول الله ﷺ أن لا أكون كَذَبْتُه فأهلك كما هلك الذين كذبوا، فإنَّ الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد، فقال تبارك وتعالى: ﴿سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم﴾ إلى قوله ﴿فإنَّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ قال كعب: وكنّا تخلفنا أيها الثلاثة عن أمر أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله: ﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا﴾ وليس الذي ذكر الله ممّا خلفنا عن الغزو، إنّما هو تخليفه إيانا وإرجاؤه أمرنا عمّن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[(١) (٢)].

وقد علّق الشهيد سيد قطب ؒ على التزام الصحابة بأمر النبي ﷺ حين نهاهم

(١) متفق عليه.

(٢) انظر تفاصيل غزوة تبوك: سيرة ابن هشام: ج٢/ ٣٩٤ - ٤١١، وزاد المعاد: ج٣/ ٤٦٠ - ٤٨٨.

عن كلام الثلاثة كعب وصاحبيه ﭬ، فقال: هكذا كان الضبط، وهكذا كانت الطاعة في الجماعة المسلمة على الرغم من كل ما وقع من خلخلة بعد الفتح ومن بلبلة في ساعة العسرة، (نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة) فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة، ولا مخلوق يلقى كعباً بأُنس، ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطي، حتى ابن عمه وأحبّ الناس إليه، وقد تسوّر عليه داره، لا يردَّ ﭺ، ولا يجيبه عن سؤال، فإذا أجاب بعد الإلحاح لم يُطَمْئِن لَهْفَته، ولم يُسَكِّنْ قلقه، إنّما قال: «الله ورسوله أعلم»[(١)]

ونزلت سورة براءة وفيها آيات كثيرة تتحدث عن تبوك، واشتملت على ذكر ظروف الغزوة، وفضح المنافقين، وفضل المجاهدين المخلصين، وقبول التوبة من المؤمنين الصادقين، إلى غير ذلك من الأمور.

وكانت براءة في زمن النبي ﷺ وبعده تسمّى المبعثرة لِمَا كشفت من سرائر الناس، وكانت تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ[(٢)].

وقد علَّق الشهيد سيد قطب ﭼ في كتابه القيّم في ظلال القرآن على سورة التوبة، وممّا جاء في تعليقاته على بعض الآيات:

إنَّ الدخول في الإسلام صفقة بين متبايعين، الله - سبحانه - فيها هو المشتري والمؤمن فيها هو البائع، فهي بيعة مع الله لا يبقى بعدها للمؤمن شيء في نفسه ولا في ماله يحتجزه دون الله - سبحانه - ودون الجهاد في سبيله لتكون كلمة الله هي العليا، وليكون الدين كلّه لله، فقد باع المؤمن لله في تلك الصفقة نفسه وماله مقابل ثمن محدد معلوم، هو الجنة، وهو ثمن لا تعدله السلعة، ولكنّه فضل الله ومنّه: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. [التوبة: ١١١].

---

(١) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.

(٢) سيرة ابن هشام ج٢: ٤٢٣.

والذين باعوا هذه البيعة، وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة، ذات صفات مميزة، منها ما يختص بذوات أنفسهم في تعاملها المباشر مع الله في الشعور والشعائر، ومنها ما يختص بتكاليف هذه البيعة في أعناقهم من العمل خارج ذواتهم لتحقيق دين الله في الأرض من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقيام على حدود الله في أنفسهم وفي سواهم: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

والآيات التالية في السياق تقطع ما بين المؤمنين الذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة، وبين كل من لم يدخلوا معهم فيها - ولو كانوا أولي قربى - فقد اختلفت الوجهتان، واختلف المصيران، فالذين عقدوا هذه الصفقة هم أصحاب الجنة، والذين لم يعقدوها هم أصحاب الجحيم، ولا لقاء في دنيا ولا في آخرة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم، وقربى الدم والنسب إذن لا تنشئ رابطة، ولا تصلح وشيجة بين أصحاب الجنة وأصحاب الجحيم: (مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ). [التوبة: ١١٣ - ١١٤]

وولاء المؤمن يجب أن يتمحض لله الذي عقد معه تلك الصفقة، وعلى أساس هذا الولاء الموحد تقوم كل رابطة وكل وشيجة - وهذا بيان من الله للمؤمنين يحسم كل شبهة ويعصم من كل ضلالة - وحسب المؤمنين ولاية الله لهم ونصرته، فهم بها في غنى عن كل ما عداه، وهو مالك الملك ولا قدرة لأحد سواه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۚ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾. [التوبة: ١١٥ - ١١٦]

ولمّا كانت هذه طبيعة تلك البيعة، فقد كان التردد والتخلف عن الغزوة في

سبيل الله أمراً عظيماً، تجاوز الله عنه لمن علم من نواياهم الصدق والعزم بعد التردد والتخلف، فتاب عليهم رحمة منه وفضلاً: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٧ - ١١٨].

ومن ثمَّ بيان محدد لتكاليف البيعة في أعناق أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب، أولئك القريبون من رسول الله ﷺ الذين يؤلفون القاعدة الإسلامية، ومركز الانطلاق الإسلامي، واستنكار لما وقع منهم من تخلف مع بيان ثمن الصفقة في كل خطوة وكل حركة في تكاليف البيعة:

﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا عَن رَّسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٢٠ - ١٢١]

ومع هذا التحضيض العميق على النفرة للجهاد بيان لحدود التكليف بالنفير العام، وقد اتسعت الرقعة وكثر العدد، وأصبح في الإمكان أن ينفر البعض ليقاتل ويتفقه في الدين، ويبقى البعض للقيام بحاجات المجتمع كله من توفير للأزواد ومن عمارة للأرض، ثم تتلاقى الجهود في نهاية المطاف: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

وفي الآية التالية تحديد لطريق الحركة الجهادية - بعدما أصبحت الجزيرة العربية بجملتها قاعدة للإسلام ونقطة لانطلاقه - وأصبح الخط يتجه إلى قتال

المشركين كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وقتال أهل الكتاب كافة كذلك حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ١٢٣].

وعقب هذا البيان المفصل لبيان طبيعة البيعة ومقتضياتها وتكاليفها وخطها الحركي، يعرض السياق مشهداً من صفحتين تصوران موقف المنافقين وموقف المؤمنين من هذا القرآن وهو يتنزل بموجبات الإيمان القلبية، وبالتكاليف والواجبات العملية، ويندد بالمنافقين الذين لا تهديهم التوجيهات والآيات، ولا تعظهم النذر والابتلاءات: ﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِ إِيمَانًا ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤ - ١٢٧].

ويختم الدرس وتختم معه السورة بآيتين تصوران طبيعة رسول الله ﷺ وحرصه على المؤمنين ورأفته بهم ورحمته، مع توجيهه ﷺ إلى الاعتماد على الله وحده، والاستغناء عن المعرضين الذين لا يهتدون: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ۖ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [التوبة: ١٢٨ - ١٢٩].

ولعلّه من خلال هذا العرض الإجمالي لمحتويات هذا المقطع الأخير في السورة يتجلى مدى التركيز على الجهاد، وعلى المفاصلة الكاملة على أساس العقيدة، وعلى الانطلاق بهذا الدين في الأرض - وفقاً للبيعة على النفس والمال بالجنة للقتل والقتال - لتقرير حدود الله والمحافظة عليها، أي: لتقرير حاكمية الله للعباد، ومطاردة كل حاكمية مغتصبة معتدية.

ولعلّه من خلال هذا العرض الإجمالي لهذه الحقيقة كذلك يتجلى مدى

التهافت والهزيمة التي تسيطر على شراح آيات الله وشريعة الله في هذا الزمان، وهم يحاولون جاهدين أن يحصروا الجهاد الإسلامي في حدود الدفاع الإقليمي عن «أرض الإسلام»، بينما كلمات الله - سبحانه - تعلن في غير مواربة عن الزحف المستمر على من يلون «أرض الإسلام» هذه من الكفار دون ذكر لأنهم معتدون، فالاعتداء الأساسي متمثل في اعتدائهم على ألوهية الله - سبحانه - بتعبيد أنفسهم وتعبيد العباد لغير الله، وهذا الاعتداء هو الذي يقتضي جهادهم ما استطاع المسلمون الجهاد!

﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ ۚ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

هذا النص الذي تلوته من قبل وسمعته ما لا أستطيع عدّه من المرات، في أثناء حفظي للقرآن، وفي أثناء تلاوته، وفي أثناء دراسته بعد ذلك في أكثر من ربع قرن من الزمان، هذا النص حين واجهته في الظلال أحسست أنّني أدرك منه ما لم أدركه من قبل في المرات التي لا أملك عدّها على مدى ذلك الزمـان.

إنّه نص رهيب، إنّه يكشف عن حقيقة العلاقة التي تربط المؤمنين بالله، وعن حقيقة البيعة التي أعطوها - بإسلامهم - طوال الحياة، فمن بايع هذه البيعة ووفى بها فهو المؤمن الحق الذي ينطبق عليه وصف (المؤمن) وتتمثل فيه حقيقة الإيمان، وإلا فهي دعوى تحتاج إلى التصديق والتحقيق!

حقيقة هذه البيعة - أو هذه المبايعة كما سماها الله كرماً منه وفضلاً وسماحة - أنَّ الله "سبحانه" قد استخلص لنفسه أنفس المؤمنين وأموالهم، فلم يعد لهم منها شيء، لم يعد لهم أن يَسْتَبْقوا منها بقية لا ينفقونها في سبيله، لم يعد لهم خيار في أن

يبذلوا أو يمسكوا، كلّا، إنّها صفقة مشتراة، لشاريها أن يتصرف بها كما يشاء، وفق ما يفرض ووفق ما يحدد، وليس للبائع فيها من شيء سوى أن يمضي في الطريق المرسوم، لا يتلفت ولا يتخير، ولا يناقش ولا يجادل، ولا يقول إلّا الطاعة والعمل والاستسلام، والثمن هو الجنة، والطريق هو الجهاد والقتل والقتال، والنهاية هي النصر أو الاستشهاد ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ۚ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾

مَنْ بايع على هذا، مَنْ أمضى عقد الصفقة، مَنْ ارتضى الثمن ووفى، فهو المؤمن، فالمؤمنون هم الذين اشترى الله منهم فباعوا، ومن رحمة الله أن جعل للصفقة ثمناً، وإلّا فهو واهب الأنفس والأموال، وهو مالك الأنفس والأموال، ولكنّه كرَّم هذا الإنسان فجعله مريداً، وكرّمه فجعل له أن يعقد العقود ويمضيها - حتى مع الله -، وكرّمه فقيده بعقوده وعهوده، وجعل وفاءه بها مقياس إنسانيته الكريمة، ونقضه لها هو مقياس ارتكاسه إلى عالم البهيمة، شر البهيمة، ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ عَاهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٥٥ - ٥٦]، كما جعل مناط الحساب والجزاء هو النقض أو الوفاء.

وإنّها لبيعة رهيبة - بلا شك - ولكنّها في عنق كل مؤمن - قادر عليها - لا تسقط عنه إلا بسقوط إيمانه، ومن هنا تلك الرهبة التي أستشعرها اللحظة وأنا أخط هذه الكلمات: (إنَّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فيَقتلون ويُقتلون)

عونك اللهم، فإنَّ العقد رهيب، وهؤلاء الذين يزعمون أنفسهم «مسلمين» في مشارق الأرض ومغاربها قاعدون لا يجاهدون لتقرير ألوهية الله في الأرض، وطرد الطواغيت الغاصبة لحقوق الربوبية وخصائصها في حياة العباد، ولا يَقْتُلون، ولا يُقْتَلون، ولا يجاهدون جهاداً ما دون القتل والقتال!

ولقد كانت هذه الكلمات تطرق قلوب مستمعيها الأولين - على عهد رسول

الله ﷺ فتتحول من فورها في القلوب المؤمنة إلى واقع من واقع حياتهم، ولم تكن مجرد معانٍ يتملونها بأذهانهم، أو يحسونها مجردة في مشاعرهم، كانوا يتلقونها للعمل المباشر بها، لتحويلها إلى حركة منظورة، لا إلى صورة متأملة، هكذا أدركها عبد الله بن رواحة - رضي الله عنه - في بيعة العقبة الثانية، قال محمد بن كعب القرظي وغيره: قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه لرسول الله ﷺ (يعني ليلة العقبة): اشترط لربك ولنفسك ما شئت، فقال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم، قال: فما لنا إذا نحن فعلنا ذلك؟ قال: الجنة، قالوا: ربح البيع، ولا نقيل ولا نستقيل.

هكذا «ربح البيع ولا نقيل ولا نستقيل»، لقد أخذوها صفقة ماضية نافذة بين متبايعين، انتهى أمرها، وأمضى عقدها، ولم يعد إلى مردٍّ من سبيل: "لا نقيل ولا نستقيل" فالصفقة ماضية لا رجعة فيها ولا خيار، والجنة ثمن مقبوض لا موعود، أليس الوعد من الله؟ أليس الله هو المشتري؟ أليس هو الذي وعد الثمن، وعداً قديماً في كل كتبه: ﴿وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن﴾ ﴿ومن أوفى بعهده من الله﴾، أجل ومن أوفى بعهده من الله؟.

إنَّ الجهاد في سبيل الله بيعة معقودة بعنق كل مؤمن، كل مؤمن على الإطلاق منذ كانت الرسل، ومنذ كان دين الله، إنّها السنة الجارية التي لا تستقيم هذه الحياة بدونها ولا تصلح الحياة بتركها:

وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ..... وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا

إنَّ الحق لا بُدَّ أن ينطلق في طريقه، ولا بُدَّ أن يقف له الباطل في الطريق، بل لا بُدَّ أن يأخذ عليه الطريق، إنَّ دين الله لا بد أن ينطلق لتحرير البشر من العبودية للعباد وردهم إلى العبودية لله وحده، ولا بُدَّ أن يقف له الطاغوت في الطريق، بل لا بُدَّ أن يقطع عليه الطريق، ولا بُدَّ لدين الله أن ينطلق في الأرض كلها لتحرير الإنسان

كله، ولا بُد للحق أن يمضي في طريقه ولا ينثني عنه ليدع للباطل طريقا، وما دام في الأرض كفر، وما دام في الأرض باطل، وما دامت في الأرض عبودية لغير الله تذل كرامة الإنسان فالجهاد في سبيل الله ماض، والبيعة في عنق كل مؤمن تطالبه بالوفاء، وإلّا فليس بالإيمان: و «من مات ولم يغز، ولم يحدث نفسه بغزو، مات على شعبة من النفاق». [1]

ويقول في تفسير قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار﴾: فقد سارت عليها الفتوح الإسلامية، تواجه من يلون «دار الإسلام» ويجاورونها، مرحلة فمرحلة، فلمّا أسلمت الجزيرة العربية - أو كادت، ولم تبقَ إلّا فلول منعزلة لا تؤلف قوة يخشى منها على دار الإسلام بعد فتح مكة -كانت غزوة تبوك على أطراف بلاد الروم، ثمَّ كان انسياح الجيوش الإسلامية في بلاد الروم وفي بلاد فارس، فلم يتركوا وراءهم جيوباً، ووحدت الرقعة الإسلامية، ووصلت حدودها، فإذا هي كتلة ضخمة شاسعة الأرجاء، متماسكة الأطراف، ثمَّ لم يأتها الوهن فيما بعد إلا من تمزُّقِها، وإقامة الحدود المصطنعة فيما بينها على أساس ملك البيوت، أو على أساس القوميات، وهي خطّة عمل أعداء هذا الدين على التمكين لها جهد طاقتهم وما يزالون يعملون، وستظلُّ هذه الشعوب التي جعل منها الإسلام «أمة واحدة» في «دار الإسلام» المتصلة الحدود - وراء فواصل الأجناس واللغات والأنساب والألوان - ستظل ضعيفة مهيضة إلّا أن تثوب إلى دينها، وإلى رايته الواحدة، وإلا أن تتبع خطى رسول الله ﷺ وتدرك أسرار القيادة الربانية التي كفلت لها النصر والعز والتمكين. [2]

---

(١) رواه الإمام أحمد، وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائي.

(٢) في ظلال القرآن / تفسير سورة التوبة.

قدوم وفود العرب على النبي ﷺ

بدأت القبائل العربية تُرسل وفودها إلى رسول الله ﷺ من مختلف أنحاء الجزيرة معلنة إسلامها منذ رجوع النبي ﷺ من الجعرانة أواخر سنة ثمان، وسمّي العام التاسع بعام الوفود، قال ابن إسحاق: وإنّما كانت العرب تربّص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأَمْر رسول الله ﷺ، وذلك أنَّ قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نَصَبَت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه، فلما افتُتِحت مكّة، ودانت له قريش، ودوخها الإسلام، وعرفت العرب أنّه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل، أفواجاً، يضربون إليه من كل وجه. [١]

وجاءت وفود بني عامر وبني سعد بن بكر وبني حنيفة وطيء وزبيد وكندة ووفد الأزد وبني تميم وآخرون ذكرهم أهل المغازي، وعددهم يزيد على الستين وفداً وهم وإن كان وفود عامتهم بعد الفتح، إلا أنَّ هناك قبائل وفدت قبله وسنذكر هنا أهم الوفود:

١- وفد بني تميم

قَدِمَ وفد بني تميم في جمع من رؤسائهم، فدخلوا المسجد، ونادوا رسول الله ﷺ أن اخرج إلينا يا محمد، فآذى ذلك رسول الله ﷺ من صياحهم فخرج إليهم فقالوا: جئنا لنفاخرك فأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا، قال: نعم قد أذنت لخطيبكم فليَقُمْ، فقام عطارد بن حاجب فخطب وفاخر ثم جلس، فقال رسول الله ﷺ لثابت بن قيس: قُمْ فأجبه، فقام ثابت، فحمد الله وأثنى عليه وأثنى على رسوله ﷺ وامتدح المهاجرين والأنصار، وممّا جاء في خطبته: فنحن أنصار الله ووزراء رسول الله ﷺ نقاتل الناس حتى يؤمنوا، فمن آمن بالله ورسوله منع ماله ودمه، ومن نكث جاهدناه

---

(١) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٤٢٨.

في الله أبداً، وكان قتله علينا يسيراً، ثمَّ قام الزبرقان شاعر بني تميم فأنشد قصيدة يفاخر فيها ببني تميم، فأجابه حسان بن ثابت «رضي الله عنه» بقصيدة أخرى، فقال الأقرع بن حابس: إنَّ هذا الرجل لَمُؤتَّى له[1]، لَخطيبه أخطب من خطيبنا، ولَشاعره أشعر من شاعرنا، ولَأصواتهم أعلى من أصواتنا، ثمَّ أسلموا، فجوّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[2].

٢- وفد بني حنيفة

قَدِمَ وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة الكذاب على عهد النبي ﷺ المدينة، فجعل مسيلمة يقول: إنْ جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته، فأقبل إليه النبي ﷺ، ومعه ثابت بن قيس بن شمّاس، وفي يد النبي ﷺ قطعة جريدة، حتى وقف على مسيلمة في أصحابه، قال: لو سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها، ولن أتعدى أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنَّك الله[3]، وإنّي لأراك الذي أُريت فيك ما أُريت، وهذا ثابت يجيبك عنّي، ثمَّ انصرف عنه، فقال ابن عباس: فسألت عن قول النبي ﷺ: إنَّك أرى الذي أريت فيك ما أريت، فأخبرني أبو هريرة، أنَّ النبي ﷺ، قال: بينا أنا نائم رأيت في يدي سوارين من ذهب، فأهمّني شأنُهما، فأوحي إليَّ في المنام أنْ انفخهما، فنفختهما فطارا، فأولتهما كذابين يخرجان من بعدي، فكان أحدهما العنسي صاحب صنعاء، والآخر مسيلمة صاحب اليمامة.[4]

قال ابن كثير رحمه الله: وذكر السهيلي وغيره: أن الرَّجَّال بن عنفوة - واسمه نهار بن عنفوة - وكان قد أسلم وتعلم شيئاً من القرآن، وصحب رسول الله ﷺ مدّة، وقد مرَّ عليه رسول الله ﷺ وهو جالس مع أبي هريرة وفرات بن حيان فقال لهم: (أحدكم ضرسه في النار مثل أحد)، فلم يزالا خائفين حتى ارتد الرَّجَّال مع مسيلمة، وشهد

---

(١) أي موفق.
(٢) زاد المعاد: ج٣/ ٤٤٦ - ٤٤٩، والسيرة النبوية لابن هشام: ج٢/ ٤٢٨ - ٤٣٢.
(٣) أي ولئن خرجت عن الطاعة، وفارقت الجماعة ليهلكنَّك الله.
(٤) متفق عليه.

له زوراً أنَّ رسول الله ﷺ أشركه في الأمر معه، وألقى إليه شيئاً مما كان يحفظه يوم اليمامة من القرآن فادعاه مسيلمة لنفسه، فحصل بذلك فتنة عظيمة لبني حنيفة، وقد قتله زيد بن الخطاب رضي الله عنه يوم اليمامة. (١)

٣- وفد الأشعريين وأهل اليمن

قَدِمَ الأشعريون إلى المدينة فجعلوا يرتجزون:

غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه (٢)

وقال عليه السلام حين قدموا: أتاكم أهل اليمن هم ألين قلوباً وأرق أفئدةً، الإيمان يمان والحكمة يمانية. (٣)

٤- وفد ثقيف

بعد عودة النبي ﷺ من الطائف تبعه عروة بن مسعود الثقفي قبل أن يصل المدينة، فأسلم عروة، وذهب إلى قومه ودعاهم إلى الإسلام فأبوا عليه وقتلوه، ثمَّ أقاموا بعد قتله أشهراً، ثمَّ إنَّهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنّه لا طاقة لهم بحرب المسلمين، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ﷺ رجلاً كما أرسلوا عروة، فكلموا عبد ياليل بن عمرو بن عمير، فأبى أن يفعل إلّا أن يُرسلوا معه رجالاً لأنَّه خشي أن يُصنَع به كما صُنِع بعروة، فأرسلوا معه ستة رجال فيهم عثمان بن أبي العاص، فلمّا قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبّة في ناحية مسجده، ودعاهم إلى الإسلام، فسألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم اللات لا يهدمها ثلاث سنين، فأبى رسول الله ﷺ عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة ويأبى عليهم، حتى سألوه شهراً واحداً بعد قدومهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمّى، وسألوه أن يعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم، فقال رسول الله ﷺ: أمّا كسر أوثانكم بأيديكم فسنعفيكم منه، وأمّا الصلاة فلا خير في دين لا صلاة فيه، فأسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً، وأمَّر عليهم عثمان بن

(١) البداية والنهاية: ج٢/ ٩٣٢.
(٢) رواه النسائي وأحمد وابن حبان، وإسناده صحيح.
(٣) متفق عليه.

أبي العاص لأنَّه كان أحرصهم على تعلّم الدين.

فلمّا فرغوا من أمرهم، وتوجهّوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم اللات، فخرجا مع القوم وهدما الطاغية، وعادا بحُليّها وأموالها إلى النبي ﷺ.

٥- وفد بني سعد بن بكر

بعثت بنو سعد بن بكر ضمامَ بن ثعلبة وافداً إلى رسول الله ﷺ، فقدم عليه، وأناخ بعيره على باب المسجد ثمَّ عقله، ثمَّ دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس في أصحابه، وكان ضمام رجلاً جلداً أشعر ذا غديرتين، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ في أصحابه، فقال: أيُّكم ابن عبد المطلب؟ قال: فقال رسول الله ﷺ: أنا ابن عبد المطلب، قال: أمحمّد؟ قال: نعم، قال: يا ابن عبد المطلب، إنّي سائلك ومغلظ عليك في المسألة، فلا تجدنَّ في نفسك، قال: لا أجد في نفسي، فسَلْ عمّا بدا لك، قال: أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله بعثك إلينا رسولاً؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئاً، وأن نخلع هذه الأنداد التي كان آباؤنا يعبدون معه؟ قال: اللهم نعم، قال: فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك، وإله من هو كائن بعدك، آلله أمرك أنْ نصلّي هذه الصلوات الخمس؟ قال: اللهم نعم، قال: ثمَّ جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة، حتى إذا فرغ قال: فإنِّي أشهد أنْ لا إله إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسول الله، وسأؤدي هذه الفرائض، وأجتنب ما نهيتني عنه، ثمَّ لا أزيد ولا أنقص، ثمَّ انصرف إلى بعيره راجعاً، قال: فقال رسول الله ﷺ: إنْ صدق ذو العقيصتين دخل الجنة. (١)

٦- وفد طيء

قدم هذا الوفد وفيهم زيد الخيل، فلمّا كلّموا النبيّ ﷺ، وعرض عليهم الإسلام

(١) أصل الحديث عند الشيخين.

أسلموا وحسن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ عن زيد: ما ذُكِر لي رجل من العرب بفضل، ثمَّ جاءني إلا رأيتـه دون مـا يُـقـال فيه، إلّا زيد الخيل فإنَّه لم يبلغ كل ما فيه، وسمّاه زيد الخير.

٧- وفد نجران

قدم وفد نجران إلى رسول الله ﷺ سنة ٩ هـ، وكانوا ستين رجلاً، منهم أربعة وعشرون من أشراف نجران، فلقيهم رسول الله ﷺ في المدينة، وسألوه وسألهم، ودعاهم إلى الإسلام فامتنعوا، ثمَّ سألوا رسول الله ﷺ عمّا يقول في عيسى «عليه السلام» فمكث رسول الله ﷺ ينتظر الوحي، فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ قالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ ما جاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعالَوْا نَدْعُ أَبْناءَنا وَأَبْناءَكُمْ وَنِساءَنا وَنِساءَكُمْ وَأَنْفُسَنا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكاذِبِينَ﴾، فلمّا أصبح رسول الله ﷺ أخبرهم بما نزل عليه، وتركهم ذلك اليوم يُفكّرون في أمرهم فامتنعوا عن الإقرار بما قال رسول الله ﷺ في عيسى، وأبوا أن يُسلموا، فدعاهم رسول الله ﷺ إلى المباهلة، وأقبل مشتملاً على الحسن والحسين وفاطمة تمشي عند ظهره، فلمّا رأى وفد نجران ذلك قال بعضهم لبعض: لا تفعلوا، فوالله لئن كان نبياً فلاعننا لا نُفلح نحن ولا عقبنا من بعدنا، فلا يبقى على وجه الأرض منّا شعرة ولا ظفر إلّا هلك، ثمَّ قرروا تحكيم رسول الله ﷺ في أمرهم فجاؤوا وقالوا: إنّا نعطيك ما سألتنا، فقَبِل رسول الله ﷺ منهم الجزية، وطلبوا منه أنْ يبعث معهم رجلاً أميناً، فقال عليه الصلاة والسلام: لأبعثنَّ معكم رجلاً أميناً حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول الله ﷺ فقال: قم يا أبا عبيدة بن الجراح، فلمّا قام، قال رسول الله «صلى الله عليه سلم»: هذا أمين هذه الأمّة.

٨- وفد بني الحارث بن كعب

بعث رسول الله ﷺ خالداً بن الوليد، في شهر ربيع الآخر أو جمادى الأولى في

سنة عشر، إلى بني الحارث بن كعب بنجران وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، فإن استجابوا فاقبلْ منهم، وإن لم يفعلوا فقاتلهم، فخرج خالد حتى قدم عليهم، فبعث الركبان يضربون في كل وجه، ويدعون إلى الإسلام، ويقولون: أيها الناس، أسلموا تسلموا، فأسلم الناس، ودخلوا فيما دعوا إليه، فأقام فيهم خالد يعلّمهم الإسلام وكتاب الله وسنّة نبيه ﷺ، وبذلك كان أمره رسول الله ﷺ إن هم أسلموا ولم يقاتلوا، فكتب خالد إلى النبي ﷺ يستشيره بالبقاء بنجران أو العودة إلى المدينة، فأرسل إليه رسول الله ﷺ أن أَقْبِل وليقبل معك وفدهم، فأقبل خالد إلى رسول الله ﷺ، وأقبل معه وفد بني الحارث بن كعب، فكلّمهم رسول الله ﷺ ثمَّ عادوا، وأرسل إليهم رسول الله ﷺ عمرو بن حزم ليفقههم في الدين ويعلّمهم السنّة ويأخذ منهم صدقاتهم.[1]

٩- كان فروة بن عمرو الجذامي قائداً عربياً من قادة الرومان، وكان منزله في معان وما حولها من أرض الشام، وكان عاملاً للرومان على مَنْ يليه من العرب.

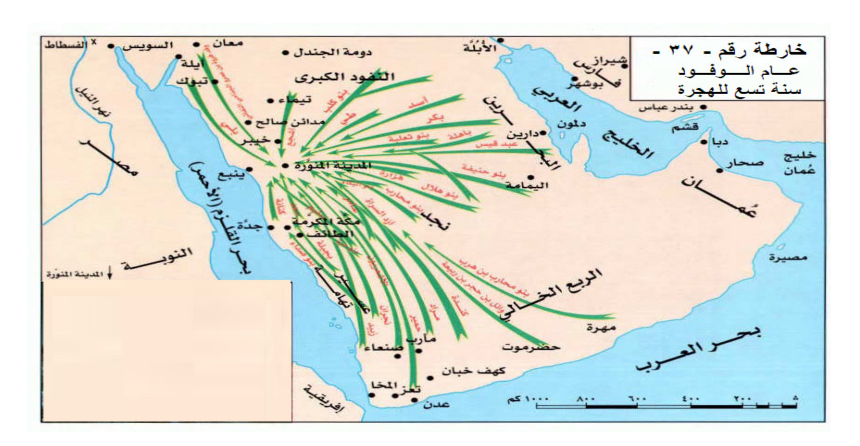
أرسل فروة إلى رسول الله ﷺ معلناً إسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء، ولمّا علم الروم بذلك حبسوه، وخيّروه بين الردة والموت فاختار الموت فصلبوه بفلسطين وضربوا عُنقَه.

وبالجملة فقد شهد العام التاسع للهجرة سيادة الإسلام على الجزيرة العربية، وتوحداً سياسياً هو الأول من نوعه تحت راية الإسلام، ورغم أنَّ الجزيرة قد عرفت سابقاً نشوء دويلات قبل الإسلام كمعين وسبأ، وحِمْيَر، والمناذرة، والغساسنة، وغيرهم إلّا أنَّ هذه الدويلات لم تستطع توحيد الجزيرة تحت رايتها، بل إنَّ البداوة طغت على مراكز تلك الدويلات، واندثرت حضارتها قبل الإسلام.

تمكَّن رسول الله ﷺ من إقامة أركان الدولة الإسلامية وتوحيد الجزيرة العربية تحت سلطان الإسلام في عشر سنوات فقط، رغم البيئة الصعبة في الجزيرة التي

(١) سيرة ابن هشام: ج٢ / ٤٥٣ - ٤٥٥.

كانت تسودها العصبية القبلية، والنزعات الجاهلية، حيث استطاع رسول الله ﷺ إقامة وحدة حقيقية بين هذه القبائل، وبين الأفراد، تقوم على أساس واحد وهو العقيدة، بعيداً عن القبيلة أو الجنس أو العرق أو اللون.



حج أبي بكر الصديق بالناس

اعتمر رسول الله ﷺ عام الفتح وعاد إلى المدينة دون أن يحج، وفي السنة التاسعة أرسل أبا بكر الصدّيق «رضي الله عنه» وأمرَّه على الحج، فخرج أبو بكر «رضي الله عنه» إلى مكّة في ذي الحجّة، وأرسل أبا هريرة في رهط فأذّن في الناس أنْ لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوفنَّ بالبيت عريان [1]، ولمّا نزلت براءة على رسول الله ﷺ قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال: «لا يؤدّي عنّي إلّا رجل من أهل بيتي»، ثمَّ دعا علي بن أبي طالب فقال: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى أَلَا إنّه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدّته، فخرج علي بن أبي طالب على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر الصديق، فلمّا رآه أبو بكر قال: أمير أو مأمور؟، فقال: بل مأمور، ثمَّ مضيا فأقام أبو بكر للناس الحج، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج التي كانوا

(١) رواه البخاري.

عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذَّن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ.[1]

وقد تضمّنت بداية سورة التوبة المفاصلة الكاملة مع المشركين، وأعلنت نهاية وجود الشرك في مكّة، كما أعلنت الحرب على المشركين بعد أن منعتهم من الحج بعد السنة التاسعة، لكنّها أمهلت المعاهدين من المشركين إلى انتهاء مدّتهم، كما أمهلت من له عهد إلى أجل غير محدود أو محدود ونقضه أربعة أشهر، كما أمهلت من لا عهد له من المشركين إلى نهاية الأشهر الحرم، فإذا انتهت هذه المُهَل صاروا جميعاً في عداد المحاربين مستباحة دماءهم وأموالهم، ﴿بَرَاءَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ - فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ - وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [التوبة: ١ - ٣].

---

(١) البداية والنهاية ج٢ / ٩٢٤، وسيرة ابن هشام ج٢ / ٤١٧.

ومن أحداث السنة التاسعة

١- توفيت في هذه السنة أمُّ كلثوم بنت رسول الله ﷺ وزوجة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

٢- وتوفي في هذه السنة أيضاً رأس المنافقين عبدالله بن أُبْي، عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما قال: لمّا توفي عبد الله بن أُبيْ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله ﷺ فسأله أن يعطيه قميصه يكفِّن فيه أباه، فأعطاه، ثمَّ سأله أن يصلّي عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله تصلّي عليه وقد نهاك ربك أن تصلّي عليه، فقال رسول الله ﷺ: إنّما خيّرني الله فقال: استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة، وسأزيده على السبعين، قال: إنّه منافق قال: فصلّى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره﴾ (١)

٣- وفي هذه السنة توفي النجاشي أصحمة ملك الحبشة، فصلّى عليه النبي ﷺ وقال: مات اليوم رجل صالح فصلّوا على أخيكم أصحمة (٢).

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

السنة العاشرة من البعثة

بعث الأمراء إلى أهل اليمن

أرسل النبي ﷺ معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما إلى اليمن، فأرسل أبا موسى رضي الله عنه على أحد مخلافيها، ومعاذاً رضي الله عنه إلى الآخر، وقال لهما: يسِّرا ولا تعسّرا وبشِّرا ولا تنفِّرا (١)، وقال لمعاذ: إنّك تأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتَهم فادعهم إلى أنْ لا إله إلّا الله وأنَّ محمداً رسول الله، فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة، فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتردّ على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوا لك بذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم فإنّه ليس بينها وبين الله حجاب (٢).

ولمّا خرج معاذ متوجهاً إلى اليمن خرج رسول الله ﷺ معه يوصيه، ومعاذ راكب ورسول الله ﷺ يمشي تحت راحلته، فلمّا فرغ قال: يا معاذ إنّك عسى ألّا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلّك أن تمرّ بمسجدي هذا وقبري، فبكى معاذ جشعاً (٣) لفراق رسول الله ﷺ (٤)

ثمّ إنَّ رسول الله ﷺ أرسل خالداً بن الوليد رضي الله عنه إلى اليمن، ثمَّ أرسل مكانه علياً بن أبي طالب رضي الله عنه فأسلم على يديه خلقٌ كثيرٌ من قبيلة همدان، ثمَّ رجع رضي الله عنه وحجّ مع النبي ﷺ.

ذكر الكذّابَيْن مسيلمة الحنفي والأسود العنسي

تكلّم في عهد رسول الله ﷺ الكذّابان مسيلمة بن حبيب باليمامة في بني حنيفة،

(١) رواه البخاري.
(٢) رواه البخاري.
(٣) جزعاً.
(٤) رواه الإمام أحمد.

والأسود بن كعب العنسي بصنعاء، وادّعوا النبوة، فقال رسول الله ﷺ: بينا أنا نائم إذ أوتيت خزائن الأرض، فوضع في يدي سواران من ذهب، فكبرا عليَّ وأهمّاني، فأوحي إليَّ أنْ انفخهما فنفختهما فطارا، فأوّلتهما الكذابَيْن اللذين أنا بينهما: صاحب صنعاء وصاحب اليمامة. (١)

وأرسل مسيلمة إلى النبي ﷺ: (من مسيلمة رسول الله، إلى محمد رسول الله: سلام عليك، أمّا بعد، فإني قد أُشِركت في الأمر معك، وإنَّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكنَّ قريشاً قوم يعتدون)، فقدم رسولان من مسيلمة بهذا الكتاب، فقال النبي ﷺ لهما: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال: أَمَا والله لولا أنَّ الرسل لا تُقْتَل لضربت أعناقكما، ثمَّ كتب إلى مسيلمة: (بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: السلام على من اتبع الهدى، أمّا بعد، فإنَّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين) وكان ذلك آخر سنة عشر. (٢)

فأمّا الأسود العنسي فسيطر على اليمن وقتل واليها شهر بن باذان وتزوج بزوجته واسمها زاذ، فأمر رسول الله ﷺ المسلمين الذين باليمن بمصاولته، فقتله فيروز الديلمي بالتعاون مع ابنة عمه زاذ، ووصل خبر مقتله إلى أبي بكر الصديق بعد إنفاذ جيش أسامة في أواخر ربيع الأول سنة ١١ هـ، فكانت أول بشارة للصديق في خلافته.

وأمّا مسيلمة الكذاب فقد سيطر على اليمامة وتبعه بنو حنيفة وشهد له الرّجال بن عنفوة بالنبوة، فأرسل إليه أبو بكر رضي الله عنه خالداً بن الوليد في جمع من المهاجرين والأنصار فاقتتلوا مع بني حنيفة قتالاً شديداً حتى سُمّيت الحديقة التي كانت فيها المعركة «حديقة الموت»، وقَتَلَ زيد بن الخطاب الرّجال بن عنفوة، ثمَّ قُتل مسيلمة،

(١) متفق عليه.
(٢) انظر سيرة ابن هشام: ج٢ / ٤٥٨ - ٤٥٩.

قتله وحشي ورجل من الأنصار، وكانت بداية معركة اليمامة في أواخر سنة ١١ هـ ونهايتها في أوائل سنة ١٢ هـ [١]

حجَّة الوداع

مكث رسول الله ﷺ تسع سنين لم يحج فيها، ثمَّ أذّن في الناس في العاشرة أنَّ رسول الله ﷺ حاج، فقدم المدينة بشرٌ كثير كلهم يلتمس أن يأتمَّ برسول الله ﷺ ويعمل مثل عمله، ثمَّ تهيأ رسول الله ﷺ للخروج إلى مكّة لخمس ليالٍ بقين من ذي القعدة، فترجّل وادهن ولبس إزاره ورداءه وقلّد بدنه، واستعمل على المدينة أبا دجانة الساعدي، وقيل: سباع بن عرفطة.

وقد اهتمَّ العلماء اهتماماً كبيراً بحجّة الوداع، حيث استنبطوا منها الكثير من الأحكام الشرعية في المناسك والوصايا وغيرها من الأحكام العامّة، لا سيما الأحكام التي وردت في خطبة عرفة، وقد قال رسول الله ﷺ للنّاس: لتأخذوا مناسككم، فإنّي لا أدري لعلّي لا أحج بعد حجّتي هذه [٢]، وفي رواية أنَّه قال: ﴿خذوا عنّي مناسككم﴾ [٣] فتعلَّم المسلمون مناسك الحج منه ﷺ في هذه الحجّة.

انطلق رسول الله ﷺ بعد الظهر حتى بلغ ذا الحليفة فولدت أسماء بنت عميس محمّداً بن أبي بكر فأرْسَلَتْ إلى رسول الله ﷺ كيف أصنع قال: اغتسلي واستثفري بثوب وأحرمي، وصلّى رسول الله ﷺ العصر ركعتين بذي الحليفة، وبات هناك حتى أصبح، فلمّا أصبح قال لأصحابه: أتاني الليلة آتٍ من ربي فقال: صلِّ في هذا الوادي المبارك، وقل: عمرة في حجّة [٤]، وقبل أنْ يصلي الظهر اغتسل لإحرامه، ثمَّ طيبته عائشة بيدها بذريرة وطيب فيه مسك، في بدنه ورأسه، حتى كان وبيص الطيب

---

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه البيهقي في السنن الكبرى.
(٤) رواه البخاري.

يرى في مفارقه ولحيته، ثم استدامه ولم يغسله، ثمَّ سار وقد ساق معه الهدي وأمر الناس أن يُحلّوا بعمرة إلّا من ساق الهدي.

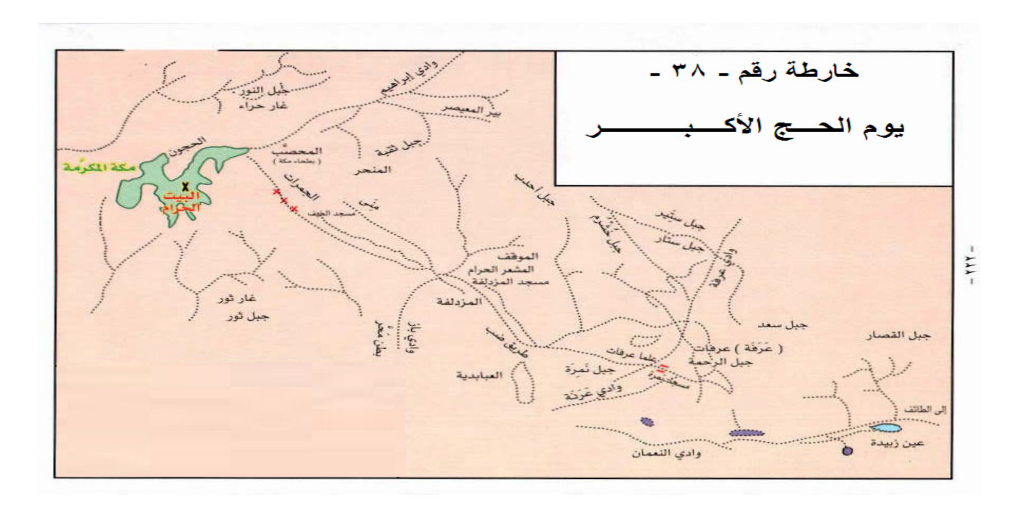
ولمّا كان رسول الله ﷺ بسرف حاضت عائشة رضي الله عنها فدخل عليها النبي ﷺ وهي تبكي فقال: ما يبكيك؟ قالت: لا أصلّي، قال: فلا يضرك، فكوني في حجك فعسى الله أن يرزقكيها، وإنّما أنت من بنات آدم كتب الله عليك ما كتب عليهن، تقول عائشة رضي الله عنها: فخرجتُ في حجتي حتى نزلنا مِنى فتطهرت ثمَّ طفنا بالبيت ونزل رسول الله ﷺ المحصب فدعا عبد الرحمن بن أبي بكر فقال: اخرج بأختك من الحرم فلتهل بعمرة ثمَّ لتطف بالبيت، فإنّي أنتظركما ها هنا، فخرجنا فأهللتُ ثمَّ طفتُ بالبيت وبالصفا والمروة [(١)]

ثمَّ أتى رسول الله ﷺ البيت ومعه أصحابه فاستلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً، ثمَّ نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام فقرأ: ﴿واتخذوا من مقام إبراهيم مصلّى﴾ فجعل المقام بينه وبين البيت، كان يقرأ في الركعتين: ﴿قل هو الله أحد﴾ و﴿قل يا أيها الكافرون﴾ ثمَّ رجع إلى الركن فاستلمه، ثمَّ خرج من الباب إلى الصفا، فلمّا دنا من الصفا قرأ ﴿إنَّ الصفا والمروة من شعائر الله﴾ أبدأ بما بدأ الله به، فبدأ بالصفا فرقي عليه حتى رأى البيت، فاستقبل القبلة فوحّد الله وكبّره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثمَّ دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثمَّ نزل إلى المروة حتى إذا انصبّت قدماه في بطن الوادي سعى حتى إذا صعدتا مشى، حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا، حتى إذا كان آخر طوافه على المروة فقال: لو أنّي استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي وجعلتها عمرة، فمَنْ كان منكم ليس معه هدي فليحل وليجعلها عمرة، فقام سراقة بن مالك فقال: يا رسول الله أَلِـعامنا هذا أم لأبد؟ فشبك رسول الله ﷺ أصابعه

---

(١) متفق عليه.

واحدة في الأخرى وقال: دخلت العمرة في الحج، مرتين، لا بل لأبد أبد.[1]



قدوم علي من اليمن

وقَدِم علي بن أبي طالب «رضي الله عنه» من اليمن ببدن النبي ﷺ فوجد فاطمة رضي الله عنها ممّن حلَّ ولبست ثياباً صبيغاً واكتحلت، فأنكر ذلك عليها فقالت: إنَّ أبي أمرني بهذا، فكان علي رضي الله عنه يقول بالعراق: فذهبت إلى رسول الله ﷺ محرّشاً على فاطمة للّذي صَنَعَت، مستفتياً لرسول الله ﷺ فيما ذَكَرَت عنه، فأخبرته أنّي أنكرت ذلك عليها، فقال: صَدَقَت، صَدَقَت، ماذا قلت حين فرضت الحج؟ قال: قلت: اللهم إنّي أهلُّ بما أهلَّ به رسولك، قال: فإنَّ معي الهدي، فلا تحل، قال: فكان جماعة الهدي الذي قَدِم به علي من اليمن والذي أتى به النبي ﷺ مائة، قال: فحلَّ الناس كلهم وقصروا إلّا النبي ﷺ ومن كان معه هدي.[2]

ولمّا كان يوم التروية توجهّوا إلى منى فأهلّوا بالحج وركب رسول الله ﷺ فصلّى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر، ثمَّ مكث قليلاً حتى طلعت الشمس، وأمر بقبّة من شعر تُضرَب له بنمرة، فسار رسول الله ﷺ ولا تشكُّ قريش

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.

إلّا أنّه واقف عند المشعر الحرام كما كانت قريش تصنع في الجاهلية، فأجاز رسول الله ﷺ حتى أتى عرفة فوجد القبة قد ضُربَت له بنمرة فنزل بها.[١]

ثمَّ أذّن ثمَّ أقام فصلّى الظهر، ثمَّ أقام فصلّى العصر ولم يصلِّ بينهما شيئاً، ثمَّ ركب رسول الله ﷺ حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات، وجعل حبل المشاة بين يديه واستقبل القبلة، فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حتى غاب القرص، وأردف أسامة خلفه، ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إنَّ رأسها ليصيب مورك رحله، ويقول بيده اليمنى: أيها الناس السكينة، السكينة، كلمّا أتى حبلاً من الحبال أرخى لها قليلاً حتى تصعد، حتى أتى المزدلفة فصلّى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ولم يُسبِّح بينهما شيئاً، ثمَّ اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر وصلّى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة، ثمَّ ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة فدعاه وكبّره وهللّه ووحَّده فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً.[٢]

فدفع[٣] قبل أنْ تطلع الشمس وأردف الفضل بن عباس،حتى أتى بطن محسر، فحرّك قليلاً، ثمَّ سلك الطريق الوسطى التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى الجمرة التي عند الشجرة فرماها بسبع حصيات يكبّر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف[٤]، رمى من بطن الوادي ثمَّ انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده، ثمَّ أعطى علياً فنحر ما غبر وأشركه في هديه، ثمَّ أمر من كل بدنة ببضعة فجُعِلَت في قدر فطُبِخَت فأكلا من لحمها وشربا من مرقها، ثمَّ ركب رسول الله ﷺ فأفاض إلى البيت، فصلّى بمكة الظهر فأتى بني عبد المطلب يسقون على زمزم فقال: انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم فناولوه دلواً فشرب منه.[٥]

---

(١) رواه مسلم.
(٢) رواه مسلم.
(٣) أي من المزدلفة إلى منى.
(٤) هي الحصى الصغيرة.
(٥) رواه مسلم.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح: أنَّ رسول الله ﷺ حين وقف بعرفة قال: هذا الموقف، للجبل الذي هو عليه، وكل عرفة موقف، وقال حين وقف على قُزَح [(١)] صبيحة المزدلفة: هذا الموقف، وكل المزدلفة موقف، ثمَّ لمّا نحر بالمنحر بمنى قال: هذا المنحر، وكل منى منحر، فقضى رسول الله ﷺالحج وقد أراهم مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم: من الموقف، ورمي الجمار، وطواف بالبيت، وما أحلّ لهم من حجهم، وما حرّم عليهم، فكانت حجّة البلاغ، وحجّة الوداع، وذلك أنَّ رسول الله ﷺ لم يحج بعدها. [(٢)]

وقد قال رسول الله ﷺ في حجّة الوداع: لتأخذوا مناسككم، فإنّي لا أدري لعلّي لا أحجُّ بعد حجتي هذه. [(٣)]

خطبة عرفة

خطب رسول الله ﷺ الناس في عرفة في أوسط أيام التشريق، فقال: إنَّ دماءكم وأموالكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، أَلَا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإنَّ أوّل دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأوّل ربا أضع ربانا، ربا عباس بن عبد المطلب فإنّه موضوع كلّه، فاتقوا الله في النساء فإنّكم أخذتموهن بأمان الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أنْ لا يوطِئنَ فرشكم أحداً تكرهونه، فإنْ فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهنَّ عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف، وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به، كتاب الله، وأنتم تُسألون عنّي فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنّك قد بلغت وأدّيت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء

(١) هو جبل بالمزدلفة.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٤٦٣ - ٤٦٤.

(٣) رواه مسلم.

وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد، ثلاث مرات [1]، وبعد أن فرغ النبي ﷺ من خطبته نزل قوله تعالى ﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً﴾ [المائدة: ٣]، وعندما سمعها عمر «رضي الله عنه» بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: إنّه ليس بعد الكمال إلّا النقصان. [2]

وقد خطب النبي ﷺ خطباً أخرى في منى.

غدير خُم

حين رجع علي رضي الله عنه من اليمن شكاه بعض الجند إلى النبي ﷺ، وأنَّه اشتدَّ عليهم، حيث كان علي رضي الله عنه قد استعاد منهم حُلَلاً كان نائبه قد وزَّعها عليهم، وحين عاد النبي ﷺ من حجّة الوداع ولمّا كان في غدير خُم قريباً من الجحفة، خطب عليه الصلاة والسلام في الناس، وأمسك بيد علي رضي الله عنه وقال: مَنْ كنتُ مولاه فعليٌ مولاه [3]، وكان هذا في الثامن عشر من ذي الحجة.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه البخاري.

(٣) قال ابن كثير عن الحديث أنَّ إسناده جيد قوي، وذكره ابن كثير بعدّة أسانيد صحح الذهبي إحداها.

السنة الحادية عشرة من الهجرة

بَعْثُ أسامة بن زيد إلى أرض فلسطين

لمّا قفل رسول الله ﷺ من حجّة الوداع أقام بالمدينة بقيّة ذي الحجة والمحرم وصفر، ثمَّ إنّه بعث أسامة بن زيد بن حارثة إلى الشام، وكان عمرة ثمانية عشر سنة، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء وفلسطين، فتجّهز الناس وأوعب مع أسامة المهاجرون الأوّلون [1]، وكان فيهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه [2]، فلهذا كان عمر رضي الله عنه لا يلقى أسامة بعد ذلك إلّا قال له: السلام عليك أيها الأمير[3]، وكان بَعْثُ أسامة آخر بَعْثٍ بَعَثَه رسول الله ﷺ.[4]

وقد عقد ابن القيّم رحمه الله فصلاً في غزواته وبعوثه وسراياه ﷺ فقال: غزواته كلها وبعوثه وسراياه كانت بعد الهجرة في مدّة عشر سنين، فالغزوات سبع وعشرون، وقيل: خمس وعشرون، وقيل: تسع وعشرون، وقيل غير ذلك، قاتل منها في تسع: بدر، وأحد، والخندق، وقريظة، والمصطلق، وخيبر، والفتح، وحنين، والطائف، وقيل: قاتل في بني النضير، والغابة، ووادي القرى من أعمال خيبر.

وأمّا سراياه وبعوثه، فقريب من ستين، والغزوات الكبار الأمهات سبع: بدر، وأحد، والخندق، وخيبر، والفتح، وحنين، وتبوك، وفي شأن هذه الغزوات نزل القرآن، فسورة الأنفال سورة بدر، وفي أحد آخر سورة آل عمران من قوله:﴿وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى قبيل آخرها بيسير، وفي قصة الخندق، وقريظة، وخيبر صدر سورة الأحزاب، وسورة الحشر في بني النضير، وفي قصة الحديبية وخيبر سورة الفتح وأشير فيها إلى الفتح، وذكر

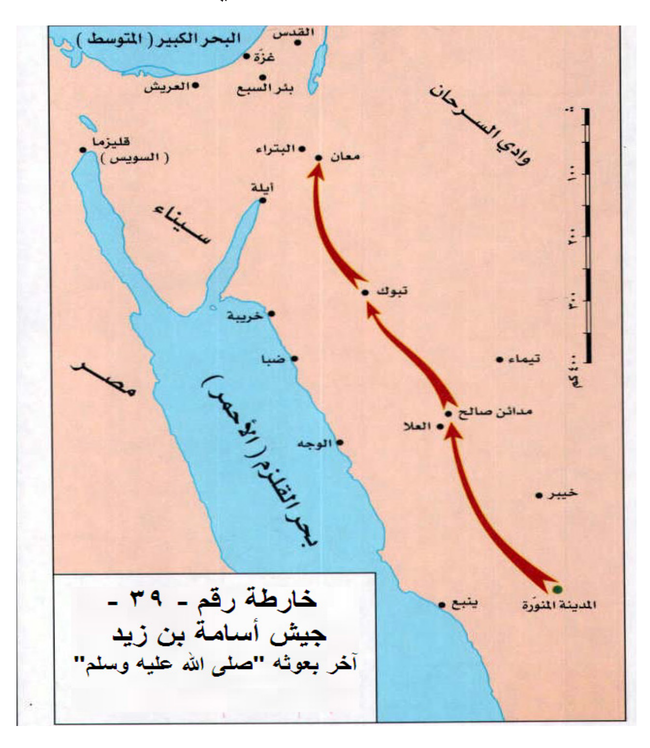
---

(١) أوعب القوم: أي خرجوا كلهم.
(٢) انظر سيرة ابن هشام: ج٢/ ٤٩١.
(٣) انظر: البداية والنهاية.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٤٩١.

الفتح صريحاً في سورة النصر.

وجُرِح منها ﷺ في غزوة واحدة وهي أحد، وقاتلت معه الملائكة منها في بدر وحنين، ونزلت الملائكة يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم، ورمى فيها الحصباء في وجوه المشركين فهربوا، وكان الفتح في غزوتين: بدر، وحنين.

وقاتل بالمنجنيق منها في غزوة واحدة، وهي الطائف، وتحصّن في الخندق في واحدة، وهي الأحزاب، أشار به عليه سلمان الفارسي رضي الله عنه.[١]



ابتداء شكوى النبي ﷺ

روى ابن إسحاق بسنده عن أبي مويهبة، مولى رسول الله ﷺ، قال: بعثني رسول الله ﷺ من جوف الليل، فقال: يا أبا مويهبة، إنّي قد أُمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع، فانطلق معي، فانطلقت معه، فلمّا وقف بين أظهرهم، قال: السلام عليكم يا أهل المقابر، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل

(١) زاد المعاد: ج١/ ١٢٥.

المظلم، يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى، ثمَّ أقبل عليَّ، فقال: يا أبا مويهبة، إنّي قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثمَّ الجنّة، فخُيّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنّة، قال: فقلت: بأبي أنت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثمَّ الجنة؟ قال: لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنّة، ثمَّ أستغفر لأهل البقيع، ثمَّ انصرف فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه [(١)]، ولمّا رجع رسول الله ﷺ من البقيع وجد عائشة رضي الله عنها وهي تجد في رأسها صداعاً وهي تقول: وارأساه، فقال: بل أنا والله يا عائشة وارأساه [(٢)] ثمَّ قال: وما ضرّك لو متِّ قبلي، فقمت عليك وكفّنتك، وصلّيتُ عليك ودفنتك؟ قالت: والله لكأنّي بك، لو قد فعلت ذلك، لقد رجعت إلى بيتي، فأعرست فيه ببعض نسائك، فتبسَّم رسول الله ﷺ، وتتامَّ به وجعه، وهو يدور على نسائه، حتى استعزَّ به، وهو في بيت ميمونة، فدعا نساءه، فاستأذنهن في أن يمرض في بيت عائشة، فأذّنَّ له [(٣)]، وقد استمر مرضه ﷺ عشرة أيام أو ثلاثة عشر يوماً.

تمريض رسول الله ﷺ في بيت عائشة

روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا ثَقُلَ النبي ﷺ واشتدَّ به وَجَعُه استأذن أزواجه في أنْ يُمرَّض في بيتي فأَذِنَّ له، فخرج النبي ﷺ بين رجلين تخطّ رجلاه في الأرض، بين عباس ورجل آخر [(٤)] وكانت عائشة رضي الله عنها تُحدِّث أنَّ النبي ﷺ قال بعدما دخل بيته واشتد وجعه: هريقوا علي من سبع قرب لم تُحللْ أوكيتهن لَعلّي أعهد إلى الناس، وأُجلس في مخضب لحفصة زوج النبي ﷺ، ثمَّ طفقنا نصبُّ عليه تلك حتى طفق يشير إلينا أنْ قد فَعَلْتُن، ثمَّ خرج إلى الناس. [(٥)]

(١) رواه الدارمي وأخرجه الحاكم في المستدرك، وأخرجه الإمام أحمد
(٢) رواه البخاري.
(٣) انظر سيرة ابن هشام: ج٢/ ٤٩٢

(٤) هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه. صحيح البخاري.
(٥) متفق عليه.

وجلس رسول الله ﷺ على المنبر فقال: إنَّ عبداً خيّره الله بين أنْ يؤتيَه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده، فبكى أبو بكر، وقال: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فقال الناس: انظروا إلى هذا الشيخ، يُخبِر رسول الله ﷺ عن عبد خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا وبين ما عنده وهو يقول: فديناك بآبائنا وأمهاتنا، فكان رسول الله ﷺ هو المُخَيَّر، وقال رسول الله ﷺ: إنَّ مِنْ أَمَنِّ الناس عليَّ في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً من أمّتي لاتَّخذت أبا بكر، إلا خلّة الإسلام، لا يبقين في المسجد خوخة إلّا خوخة أبي بكر. (١)

وروى البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلتُ بخيبر. (٢)

وعن عروة بن الزبير أنَّ عائشة رضي الله عنها أخبرته أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات، ومسح عنه بيده، فلمّا اشتكى وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث على نفسه بالمعوذات التي كان ينفث وأمسح بيد النبي ﷺ عنه. (٣)

أَمْرُ النبي ﷺ بإنفاذ بعث أسامة

واستبطأ رسول الله ﷺ الناس في بعث أسامة بن زيد، وهو في وَجَعِه، فخرج عاصباً رأسه حتى جلس على المنبر، وقد كان الناس طعنوا في إمارة أسامة، قالوا: أمَّرَ غلاماً حَدَثاً على جُلّة المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل، ثمَّ قال: إن تطعنوا في إمارته فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله، وأيّم الله إنْ كان لخليقاً للإمرة، وإنْ كان لَمِنْ أحبِّ الناس إليّ، وإنَّ هذا لَمِنْ أحبِّ الناس إليّ بعده. (٤)

(١) رواه البخاري.
(٢) يعني الشاة المسمومة التي أهدتها له المرأة اليهودية يوم خيبر.
(٣) متفق عليه.
(٤) متفق عليه.

ثمَّ نزل رسول الله ﷺ، وانكمش الناس في جهازهم، واستعزَّ برسول الله ﷺ وَجَعُه، فخرج أسامة، وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف من المدينة على فرسخ، فضرب به عسكره، وتتامَّ إليه الناس، وثقل رسول الله ﷺ، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاضٍ في رسول الله ﷺ (١)

وصية الرسول ﷺ بالأنصار

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: مرَّ أبو بكر والعباس بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي ﷺ منّا، فدخل على النبي ﷺ فأخبره بذلك، فخرج النبي ﷺ وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه ثمَّ قال: أوصيكم بالأنصار فإنّهم كرشي وعيبتي (٢)، وقد قضوا الذي عليهم، وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم. (٣)

صلاة أبي بكر بالناس

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: لمّا ثَقُل رسول الله ﷺ جاء بلال يُؤْذِنُه بالصلاة، فقال: مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس، قالت: فقلت: يا رسول الله، إنَّ أبا بكر رجل أسيف، وإنّه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقال: مُرُوا أبا بكر فليصلِّ بالناس، قالت: فقلت لحفصة: قولي له إنَّ أبا بكر رجل أسيف، وإنّه متى يقم مقامك لا يسمع الناس، فلو أمرت عمر، فقالت له، فقال رسول الله ﷺ: إنّكن لأنتنَّ صواحب يوسف، مروا أبا بكر فليصلَّ بالناس، قالت: فأمروا أبا بكر

(١) انظر سيرة ابن هشام ج٢: ٤٩٨.
(٢) أي بطانتي وخاصتي.
(٣) متفق عليه واللفظ للبخاري.

يصلي بالناس، فلمّا دخل في الصلاة وجد رسول الله ﷺ من نفسه خِفّة فقام يهادى بين رجلين، ورجلاه تخطان في الأرض، فلمّا دخل المسجد سمع أبو بكر حسّه، ذهب يتأخر، فأومأ إليه رسول الله ﷺ قم مكانك، فجاء رسول الله ﷺ حتى جلس عن يسار أبي بكر، قالت: فكان رسول الله ﷺ يصلّي بالناس جالساً وأبو بكر قائماً، يقتدي أبو بكر بصلاة النبي ﷺ ويقتدي الناس بصلاة أبي بكر.

شأن عليّ والعباس

وخرج علي «رضي الله عنه» من عند رسول الله ﷺ في وجعه الذي توفي فيه، فقال الناس: يا أبا حسن، كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارئاً، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت والله بعد ثلاث عبد العصا، وإنّي والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يُتوفى من وجعه هذا، إنّي لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر، إنْ كان فينا علمنا ذلك، وإنْ كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال علي: إنّا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإنّي والله لا أسألها رسول الله ﷺ.[1]

شأن فاطمة رضي الله عنها

عن عائشة رضي الله عنها قالت: دعا النبي ﷺ فاطمة في شكواه الذي قبض فيه، فسارّها بشيء فبكت، ثمَّ دعاها فسارّها بشيء فضحكت، فسألنا عن ذلك فقالت: سارّني النبي ﷺ أنّه يقبض في وجعه الذي توفي فيه فبكيت، ثمَّ سارّني فأخبرني أنّي أول أهله يتبعه فضحكت.[2]

وروى البخاري عن أنس «رضي الله عنه» قال: لمّا ثقل النبي ﷺ جعل يتغشاه، فقالت

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.

فاطمة: واكرب أباه، فقال لها: ليس على أبيك كرب بعد اليوم.

اليوم الذي قَبَضَ الله فيه نبيَّه

عن أنس بن مالك ﵁ أنَّ المسلمين بينا هم في صلاة الفجر من يوم الاثنين، وأبو بكر يصلّي لهم، لم يفجأهم إلّا رسول الله ﷺ قد كشف ستر حجرة عائشة، فنظر إليهم وهم في صفوف الصلاة ثمَّ تبسّم يضحك، فنكص أبو بكر على عقبيه ليصل الصف، وظنَّ أنَّ رسول الله ﷺ يريد أن يخرج إلى الصلاة، فقال أنس: وهمَّ المسلمون أن يفتتنوا في صلاتهم فرحاً برسول الله ﷺ فأشار إليهم بيده رسول الله ﷺ أنْ أتمّوا صلاتكم، ثمَّ دخل الحجرة وأرخى الستر.[١]

إلى الرفيق الأعلى

وعن عائشة ﵂ قالت: دخل عبد الرحمن بن أبي بكر على النبي ﷺ وأنا مسندته إلى صدري، ومع عبد الرحمن سواك رطب يستنُّ به، فأبّده رسول الله ﷺ بصره، فأخذت السواك فقصمته ونفضته وطيبته ثمَّ دفعته إلى النبي ﷺ فاستنَّ به، فما رأيت رسول الله ﷺ استنَّ استناناً قط أحسن منه، فما عدا أن فرغ رسول الله ﷺ رفع يده أو إصبعه ثمَّ قال: في الرفيق الأعلى، ثلاثاً، ثمَّ قضى.[٢]

وعن عائشة﵂ قالت: مات النبي ﷺ وإنّه لبين حاقنتي وذاقنتي[٣]، فلا أكره شدّة الموت لأحد أبداً بعد النبي ﷺ.[٤]

مات رسول الله ﷺ يوم الاثنين ١٢ ربيع الأول سنة ١١ هـ، ورأسه في حجر عائشة ﵂ حين اشتدّ الضحى، وقيل عند زوال الشمس، وقد تمّ له ثلاث وستون سنة.

---

(١) متفق عليه واللفظ للبخاري.

(٢) متفق عليه.

(٣) الحاقنة: ما سفل من الذقن، والذاقنة: ما علا منه

(٤) متفق عليه.

ولمّا مات رسول الله ﷺ قالت فاطمة:

يا أبتاه أجـاب ربـــــاً دعــاه

يا أبتاه مَنْ جنَّة الفردوس مأواه

يا أبتاه إلى جـبـريل نـنـعــاه [1]

وأقبل أبو بكر رضي الله عنه على فرس من مسكنه بالسُنح حتى نزل فدخل المسجد، فلم يكلّم الناس حتى دخل على عائشة، فتيمم رسول الله ﷺ وهو مغشى بثوب حَبِرة، فكشف عن وجهه، ثمَّ أكبّ عليه، فقبّله وبكى، ثمَّ قال: بأبي أنت وأمي، والله لا يجمع الله عليك موتتين، أمّا الموتة التي كُتِبَت عليك فقد متّها. [2]

وصيّة النبي ﷺ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا حضر رسول الله ﷺ وفي البيت رجال، فقال النبي ﷺ: هلمّوا أكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، فقال بعضهم: إنَّ رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف أهل البيت واختصموا، فمنهم مَنْ يقول: قرِّبوا يكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده، ومنهم مَنْ يقول غير ذلك، فلمّا أكثروا اللغو والاختلاف، قال رسول الله ﷺ: قوموا، فكان ابن عباس يقول: إنَّ الرزية كلّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولَغَطِهِم. [3]

وأوصى رسول الله ﷺ بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، وسكت عن الثالثة أو قال [4]: فنسيتها. [5]

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه البخاري.

(٣) متفق عليه.

(٤) أي ابن عبّاس راوي الحديث.

(٥) متفق عليه.

وعن عائشة﵂ قالت: لمّا نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتمَّ كشفها عن وجهه وهو كذلك يقول: لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذّر ما صنعوا، قالت عائشة: لولا ذلك لأُبرز قبره، خُشي أن يتخذ مسجداً. [١]

وروى أبو داود بسنده عن علي بن أبي طالب ﵁ قال: كان آخر كلام رسول الله ﷺ الصلاة الصلاة، اتقوا الله في ما ملكت أيمانُكم.

موقف عمر بعد وفاة النبي ﷺ

روى ابن إسحاق بسنده عن أبي هريرة «﵁» قال: لمّا توفي رسول الله ﷺ قام عمر بن الخطاب، فقال: إنَّ رجالاً من المنافقين يَزْعُمون أنَّ رسول الله ﷺ قد توفي، وإنَّ رسول الله ﷺ ما مات، ولكنَّه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثمَّ رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعنّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعنَّ أيدي رجال وأرجلهم زعموا أنَّ رسول الله ﷺ مات. [٢]

موقف أبي بكر بعد وفاة النبي ﷺ

خرج أبو بكر ﵁ وعمر يُكلّم الناس فقال: اجلس يا عمر، فأبى عمر أن يجلس، فأقبل الناس إليه وتركوا عمر، فقال أبو بكر: أمّا بعد فمَنْ كان منكم يعبد محمداً ﷺ فإنَّ محمّداً قد مات، ومَنْ كان منكم يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت، قال الله: ﴿وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل﴾ إلى قوله ﴿الشاكرين﴾ وقال: والله لكأنَّ الناس لم يعلموا أنَّ الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقّاها منه الناس كلّهم،

(١) متفق عليه.

(٢) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٠٢

فما أسمع بشراً من الناس إلّا يتلوها، فقال عمر: والله ما هو إلّا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرْت [1] حتى ما تقلّني رجلاي، وحتى أهويتُ إلى الأرض، حين سمعته تلاها علمت أنَّ النبي ﷺ قد مات.[2]

شأن سقيفة بني ساعدة

روى ابن إسحاق بسنده عن عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» أنَّه قال: إنّه كان من خبرنا حين توفى الله نبيه ﷺ أنَّ الأنصار خالفونا، فاجتمعوا بأشرافهم في سقيفة بني ساعدة، وتخلّف عنّا علي بن أبي طالب والزبير بن العوام ومَنْ معهما، واجتمع المهاجرون إلى أبي بكر، فقلت لأبي بكر: انطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار، فانطلقنا نؤمهم [3] حتى لَقِيَنا منهم رجلان صالحان، فذكرا لنا ما تمالأ عليه القوم، وقال: أين تريدون يا معشر المهاجرين؟ قلنا: نريد إخواننا هؤلاء من الأنصار، قالا: فلا عليكم أن لا تقربوهم يا معشر المهاجرين، اقضوا أمركم، قلت: والله لنأتيهم، فانطلقنا حتى أتيناهم في سقيفة بني ساعدة، فإذا بين ظهرانيهم رجل مُزمّل، فقلت: من هذا؟ فقالوا: سعد بن عبادة، فقلت: ما له؟ فقالوا: وجع، فلمّا جلسنا تشهّد خطيبهم، فأثنى على الله بما هو له أهل، ثمَّ قال: أمّا بعد، فنحن أنصار الله وكتيبة الإسلام، وأنتم يا معشر المهاجرين رهط منّا، وقد دفت دافة من قومكم، قال: وإذا هم يريدون أن يحتازونا من أصلنا، ويغصبونا الأمر، فلمّا سكتَ أردت أن أتكلم، وقد زوّرت في نفسي مقالة قد أعجبتني، أريد أن أقدّمها بين يدي أبي بكر، وكنت أداري منه بعض الحد، فقال أبو بكر: على رسلك يا عمر، فكرهت أن أغضبه، فتكلّم، وهو كان أعلمَ منّي وأوقر، فوالله ما ترك من كلمة أعجبتني من تزويري إلا قالها في بديهته،

(١) بضم العين وكسر القاف أي هلكت، وفي رواية بفتح العين أي دهشت وتحيرت، ويقال: سقطت. فتح الباري / كتاب المغازي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أي نقصدهم.

أو مثلها أو أفضل، حتى سكت، قال: أمّا ما ذكرتم فيكم من خير، فأنتم له أهل، ولن تعرف العرب هذا الأمر إلّا لهذا الحي من قريش، هم أوسط العرب نسباً وداراً، وقد رَضِيتُ لكم أحد هذين الرجلين، فبايعوا أيّهما شئتم، وأخذ بيدي وبيد أبي عبيدة بن الجراح، وهو جالس بيننا، ولم أكره شيئاً ممّا قاله غيرها، كان والله أن أُقَدَّم فتُضربَ عنقي لا يقرِّبني ذلك إلى إثم، أحبُّ إلي من أن أتأمرَّ على قوم فيهم أبو بكر، فقال قائل من الأنصار: أَنا جُذيلها المُحَكَّك (١) وعُذَيقُها المُرَجَّب (٢)، منّا أمير ومنكم أمير يا معشر قريش، قال: فكثر اللغط، وارتفعت الأصوات، حتى تخوّفت الاختلاف، فقلت: ابسط يدك يا أبا بكر، فبسط يده، فبايعته، ثمَّ بايعه المهاجرون، ثمَّ بايعه الأنصار. (٣)

خُطبَة أبي بكر

روى ابن إسحاق بسنده عن أنس بن مالك «رضي الله عنه» قال:.... فتكلّم أبو بكر، فحمد الله، وأثنى عليه بالذي هو أهله، ثمَّ قال: أمّا بعد أيها الناس، فإنّي قد وُلِّيت عليكم ولستُ بخيركم، فإنْ أحسنت فأعينوني ؛ وإن أسأت فقوّموني ؛ الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله. (٤)

(١) مثل يُضرب للرجل يُستشفى برأيه، أي أنا أشفي داءكم.
(٢) مثل يُضرب في الرجل الشريف الذي يعظّمه قومه، أي أنا كريم الأصل فيكم.
(٣) سيرة ابن هشام: ج/ ٥٠٤ - ٥٠٥.
(٤) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٠٦

جهازُ رسول الله ﷺ ودَفْنُه

ولمّا بويع أبو بكر رضي الله عنه، أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ، فتولى غسله علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وولديه الفضل وقثم، وأسامة بن زيد وشُقران مولاه، ولمّا أرادوا غسل رسول الله ﷺ اختلفوا فيه، فقالوا: والله ما ندري، أنجرّد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرّد موتانا، أو نغسله وعليه ثيابه؟ فلمّا اختلفوا ألقى الله عليهم النوم، حتى ما منهم رجل إلا ذقنه في صدره، ثمَّ كلّمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو: أنْ اغسلوا النبيَّ وعليه ثيابه، فقاموا إلى رسول الله ﷺ، فغسّلوه وعليه قميصه، يصبّون الماء فوق القميص، ويدلكونه والقميص دون أيديهم، ولم يُر من رسول الله ﷺ شيئاً مما يُرى من الميت، ثمَّ كُفِّن رسول الله ﷺ في ثلاثة أثواب بيض ليس فيها قميص ولا عمامة أدرجوه فيها إدراجاً.

واختلف المسلمون في دفن رسول الله ﷺ فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: ما قُبِضَ نبيٌّ إلا دُفِنَ حيث يقبض، فرُفع فراش رسول الله ﷺ الذي توفي عليه، فحُفر له تحته، ثمَّ دخل الناس على رسول الله ﷺ يصلّون عليه أرسالاً [(١)]، دخل الرجال، حتى إذا فرغوا أدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان،ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد، ثمَّ دُفِنَ رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء، وكان الذين نزلوا في قبره علي بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وقثم بن عباس، وشقران مولى رسول الله ﷺ.

وقد قال أوس بن خولي لعلي بن أبي طالب: يا علي، أنشدك الله، وحظّنا من رسول الله ﷺ، فقال له: انزل، فنزل مع القوم، وقد كان مولاه شقران حين وضع رسول الله ﷺ في حفرته وبُنِيَ عليه قد أخذ قطيفة [(٢)] وقد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها، فدفنها في القبر، وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً، فدُفِنَت مع رسول الله ﷺ [(٣)].

---

(١) أي جماعة بعد جماعة.

(٢) نسيجٌ من الحرير أو القطن يُتّخذُ منه ثياب وفُرُش.

(٣) سيرة ابن هشام: ج٢/ ٥٠٧ - ٥٠٩.

مُلحق ١

البيت النبوي

١- أولاده ﷺ

وُلِدَ له ﷺ ثلاث بنين، وأربع بنات، أكبرهم القاسم وأصغرهم إبراهيم، وكلّهم من خديجةرضي الله عنها إلّا إبراهيم فهو من مارية القبطية، وقد توفوا جميعهم في حياته ﷺ إلّا فاطمة فقد توفيت بعده بستة أشهر.

١- القاسم: وبه كان يُكنى ، مات طفلاً، وقيل عاش إلى أن ركب الدابة. [(١)]

٢- زينبرضي الله عنها، تزوجت من ابن خالتها أبي العاص فولدت له أُمامة التي تزوجها علي بن أبي طالب بعد وفاة فاطمة، وولدت أيضاً علي الذي مات صبياً.

أسلمت زينب قبل زوجها وهاجرت قبله، وقد أُسر أبو العاص في معركة بدر فأرسلت زينب بقلادة لها من أمها خديجة في فداء زوجها، فلمّا رآها النبي ﷺ عرفها ورقَّ لها، وقال: (إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها فعلتم؟) قالوا: نعم، فأخذ عليه العهد أن يخلّي سبيلها إليه، ففعل.

هاجرت زينب إلى المدينة ثمَّ أسلم أبو العاص وجاء مهاجراً في السنة السابعة فردَّ عليه النبي ﷺ زينب بنكاحه الأول.

توفيت في أوّل سنة ثمان،رضي الله عنها وأرضاها.

٣- رقيّةرضي الله عنها، تزوّجت من عتبة بن أبي لهب قبل النبوة، فلمّا نزلت (تبّت يدا أبي لهب) طلّقها عتبة، ثمَّ تزوّجها عثمان رضي الله عنه فولدت له عبدالله وبه كان يُكنّى، فلمّا بلغ ست سنين نقره الديك في وجهه فمات.

هاجرت مع عثمان مرتين إلى الحبشة، فقال عليه السلام: (إنّهما لأَوّل من هاجر إلى الله بعد لوط)، ثمَّ هاجرت إلى المدينة فمرضت قُبيل بدر فخلّف النبي ﷺ عليها عثمان

(١) زاد المعاد: ج١/ ١٠٠.

فتوفيت والمسلمون ببدر، رضي الله عنها وأرضاها.

٤- أمُّ كلثوم رضي الله عنها، تزوَّجت من عتيبة بن أبي لهب ثمَّ طلقها، فأسلمت وهاجرت بعد النبي ﷺ فلمّا توفيت أختها رقية تزوّجها عثمان رضي الله عنه وهي بِكْر في ربيع الأول من السنة الثالثة فلم تلد له، وتوفيت في شعبان من السنة التاسعة، رضي الله عنها وأرضاها.

٥- فاطمة رضي الله عنها، سيّدة نساء العالمين في زمانها، وأفضل بنات النبي ﷺ، وُلِدَت قبل البعثة بقليل، تزوّجها علي رضي الله عنه في السنة الثانية بعد وقعة بدر، فولدت له الحسن والحسين ومحسن وأمَّ كلثوم وزينب.

كان عليه السلام يحبُّها ويُكرِمُها ويسرُّ إليها، وكانت رضي الله عنها صابرة دّينةً خيّرة قانعة شاكرة لله، وقد غضب لها النبي ﷺ لما بلغه أنَّ علي رضي الله عنه همَّ بما رآه سائغاً من خطبة ابنة أبي جهل فقال: والله لا تجتمع بنت نبيّ الله مع بنت عدو الله، وإنّما فاطمة بضعة منّي، يريبني ما رابها، ويؤذيني ما آذاها [1]، فترك عليٌّ الخِطبة رعايةً لها، فما تزوَّج عليها حتى ماتت، وهي سيدة نساء أهل الجنّة كما قال عليه السلام: فاطمة سيدة نساء أهل الجنّة، إلّا ما كان من مريم بنت عمران. [2]

روى مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مرط مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثمَّ جاء الحسين فدخل معه، ثمَّ جاءت فاطمة فأدخلها، ثمَّ جاء علي فأدخله، ثمَّ قال: ﴿إنّما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣]

ولما توفي عليه السلام تعلّقت فاطمة بميراث أبيها وجاءت تطلب ذلك من ابي بكر فحدّثها انَّه سمع رسول الله ﷺ يقول:(لا نورث، ما تركنا صدقة) [3]، فوجدت عليه، ثمَّ ترضّاها أبو بكر فرضيت.

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

وقد انقطع نسب النبي ﷺ إلّا من فاطمة، وتوفيت بعد النبي ﷺ بستة أشهر ولها من العمر سبعة وعشرون سنةرضي الله عنها وأرضاها.

٦- عبدالله: اختُلِف في مولده، قبل النبوة أم بعدها والصحيح أنَّه ولد بعد النبوة، والطيب والطاهر لقبان له على الصحيح.

٧- إبراهيم: وأمَّه مارية القبطية، جارية للنبيﷺ، وُلِدَ في السنة الثامنة للهجرة ومات طفلاً قبل الفطام.

٢- زوجاته صلّى الله عليه وسلّم

١- أمُّ المؤمنين خديجة بنت خويلد القرشية الأسدية، تزوّجها النبي ﷺ قبل النبوة حين كان عمره خمساً وعشرين سنة وكان عُمر خديجة أربعين سنة، وهي أوّل من أسلم بإجماع العلماء، وكانت عاقلة جليلة ديّنة مصونة كريمة، وكان عليه السلام يُثني عليها ويفضّلها على سائر أمهات المؤمنين لدرجة أنَّ عائشة رضي الله عنها كانت تقول: (ما غرت على امرأة للنبي ﷺ ما غرت على خديجة، هلكت قبل أنْ يتزوجني، لِمَا كنت أسمعه يذكرها، وأمره الله أن يبشِّرها ببيت من قصب، إنْ كان لَيذبح الشاة فيهدى في خلائلها منها ما يسعهن) [1]، ولم يتزوج عليها النبي ﷺ حتى ماتت إكراماً لها، وقد ولدت له أولاده كلهم إلاّ إبراهيم فهو ابن مارية القبطية، وهي التي واسته بمالها ونفسها، وأرسل الله ﷻ إليها السلام مع جبريل وهذه خاصة لا تُعرف لامرأة سواها، وماتت في السنة العاشرة من البعثة،رضي الله عنها وأرضاها.

٢- أمُّ المؤمنين سودة بنت زمعة القرشية، أول امرأة تزوّجها النبي ﷺ بعد خديجة، تزوّجها هي و عائشة رضي الله عنها في آن واحد، فانفردت بالنبي ﷺ نحو ثلاث سنين حتى دخل بعائشة، وكانت سيدةً جليلةً نبيلةً ضخمةً، وهي التي وهبت يومها لعائشة رعايةً لقلب النبي ﷺ، روى البخاري في صحيحه عن عائشة قالت: ما رأيت

(١) متفق عليه.

امرأة أحب إلي أن أكون في مسلاخها [١] من سودة بنت زمعة من امرأة فيها حدّة، قالت: فلمّا كبرت جعلت يومها من رسول الله ﷺ لعائشة، قالت: يا رسول الله، قد جعلت يومي منك لعائشة فكان رسول الله ﷺ يَقسِم لعائشة يومين، يومها ويوم سودة، وقد توفيت رضي الله عنها في آخر خلافة عمر.

٣- أمُّ المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق التيميّة القرشية، الحبيبة بنت الحبيب، نزل عذرها من السماء، وبرّأها الله تعالى مما افتراه عليها أصحاب الإفك من فوق سبع سماوات، واتفقت الأمّة على كفر قاذفها، وهي أحبُّ الخلق إلى النبي ﷺ، وكان عليه السلام يتظاهر بحبّه لها ولأبيها، روى البخاري عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنّه سأل النبي ﷺ: أيُ الناس أحبُ إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة، قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها.

وقد كان الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة تقرباً إلى مرضاته عليه السلام، روى الإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان الناس يتحرّون بهداياهم يوم عائشة، قالت: فاجتمعن صواحبي إلى أمِّ سلمة فقلن لها: إنَّ الناس يتحرون بهداياهم يوم عائشة، وإنّا نريد الخير كما تريده عائشة، فقولي لرسول الله ﷺ يأمر الناس أن يُهدوا له أينما كان، فذكرت أمُّ سلمة له ذلك، فسكت فلم يردَّ عليها، فعادت الثانية فلم يردَّ عليها، فلمّا كانت الثالثة قال: يا أمَّ سلمة لا تؤذيني في عائشة، فإنّه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكنَّ غيرها.

وقد ذكر عليه السلام فضلها على سائر النساء فقال: (فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) [٢]

تزوَّجها عليه السلام في شوال وهي ابنة ست ودخل بها في شوال من السنة الأولى من الهجرة وهي ابنة تسع، ولم يتزوج بِكْراً غيرها، روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ أُريتك في المنام ثلاث ليال، جاء بك المَلَك في سرقة من حرير

(١) المسلاخ: الجلد، ومعناه أن أكون أنا هي. شرح صحيح مسلم للنووي
(٢) متفق عليه.

فيقول: هذه امرأتك، فأكشف عن وجهك فإذا أنت فيه، فأقول: إنْ يك هذا من عند الله يُمضِه.

وهي أفقه نساء الأمّة على الإطلاق، وكان أصحاب النبي ﷺ الأكابر يسألونها عن الفرائض لِسعةِ عِلمِها وفقهها، وقد كان ﷺ يتحرّى يومها في مرضه الذي تُوفي فيه فعرفت نساؤه أنَّه يريد عائشة، فأذنَّ له البقاء عندها حتى توفي، وقد قُبض ﷺ بين سَحَرها ونَحرها، ودُفن في بيتها.

توفيت سنة سبع وخمسين، ودُفنت بالبقيع وعمرها ثلاث وستون سنة وأشهر، رضي الله عنها وأرضاها.

٤- أمُّ المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب، وُلِدت قبل المبعث بخمس سنين، وتزوَّجها النبي ﷺ في السنة الثالثة من الهجرة بعد انقضاء عدتها من خنيس بن حذافة السهمي، وعمرها عشرون سنة، وكان أبوها قد عرضها على أبي بكر فلم يجبه بشيء، وعرضها على عثمان فقال: بدا لي ألّا أتزوَّج اليوم، فوجد عليهما وانكسر، فشكا حاله للنبي ﷺ فقال: (يتزوج حفصة مَنْ هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة) ثمَّ خطبها فزوَّجه عمر. (١)

ولما أن زوّجها عمر لقيه أبو بكر فاعتذر، وقال: لا تجد عليَّ، فإنَّ رسول الله ﷺ كان قد ذكر حفصة، فلم أكن لأُفشي سره، ولو تركها لتزوجتها.

وقد طلّق النبي ﷺ حفصة تطليقة واحدة ثمَّ راجعها بأمر من جبريل وقال: إنّها صوّامة، قوّامة، وهي زوجتك في الجنة. (٢)

توفيت سنة إحدى وأربعين، رضي الله عنها وأرضاها.

٥- أمُّ المؤمنين زينب بنت خزيمة الهلالية، أخت أمِّ المؤمنين ميمونة رضي الله عنها لأمّها، يُقال لها أمُّ المساكين لكثرة معروفها، قُتل زوجها يوم أحد فتزوّجها النبي صلى الله عليه وسلّ ولم تمكث عنده إلّا شهرين أو أكثر وتوفيت، رضي الله عنها وأرضاها.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة.

٦- أمُّ المؤمنين أم سلمة هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، وهي ابنة عم خالد بن الوليد وأبي جهل بن هشام، كانت زوجة لأبي سلمة أخو النبي ﷺ من الرضاعة، ولها أولاد صحابيون (عمر، سلمة، زينب) وهي تُعدُّ من فقهاء الصحابيات، ومن أحسن النساء وأشرفهن نسباً، تزوّجها النبي ﷺ في السنة الرابعة من الهجرة وتوفيت سنة اثنتين وستين، وكانت آخر من مات من أمهات المؤمنين، رضي الله عنها وأرضاها.

٧- أمُّ المؤمنين زينب بنت جحش، وأمّها أميمة بنت عبد المطلب عمّة النبي ﷺ، وهي من سادة النساء ديناً وورعاً وجوداً، كانت عند زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ فطلقها، فنزل قوله تعالى ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب) فتزوجها النبي ﷺ بنص الكتاب بلا ولي ولا شاهد في ذي القعدة سنة خمس ولها خمس وعشرون سنة فكانت تفتخر بذلك على أمهات المؤمنين وتقول: زوّجكنَّ أهاليكن، وزوّجني الله من فوق عرشه) وفي رواية «إنَّ الله أنكحني في السماء» (١)

تقول عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ: أسرعكنَّ لحاقاً بي أطولكنَّ يداً، قالت: فكُنَّ يتطاولن أيتهن أطول يداً، قالت: فكانت أطولنا يداً زينب، لأنّها كانت تعمل بيدها وتَصَدَّق. (٢)

وروى البخاري ومسلم عن عبيد بن عمير أنَّه كان يُخبر أنّه سمع عائشة رضي الله عنها تُخبر أنَّ النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش فيشرب عندها عسلاً، قالت: فتواطيت أنا وحفصة أنَّ أيّتنا ما دخل عليها النبي ﷺ فلتقل: إنّي أجد منك ريح مغافير (٣)، أكلت مغافير؟، فدخل على إحداهما فقالت ذلك له فقال: بل شربت

(١) رواه البخاري.

(٢) رواه مسلم.

(٣) صمغ حلو له رائحة كريهة.

عسلاً عند زينب بنت جحش، ولن أعود له، فنزل ﴿لِمَ تحرّم ما أحل الله لك﴾ إلى قوله ﴿إن تتوبا﴾ لعائشة وحفصة، ﴿وإذ أسرَّ النبي إلى بعض أزواجه حديثاً﴾ لقوله: بل شربت عسلاً.

توفيت سنة عشرين وصلّى عليها عمر، رضي الله عنها وأرضاها.

٨- أمُّ المؤمنين جويرية بنت الحارث المصطلقية، كان اسمها برّة فغيره النبي ﷺ، وكان أبوها سيداً مطاعاً، سُبيت في غزوة المريسيع، فوقعت في سهم ثابت بن قيس أو ابن عمّه، فكاتبته على نفسها، وجاءت إلى النبي ﷺ تطلب منه العون على كتابها، فطلب منها النبي ﷺ أن يعتقها ويتزوجها فوافقت، فأعتقها وتزوّجها، وكان عمرها عشرين سنة، وأعتق لها مائة بيت من بني المصطلق فلا يُعلم امرأة كانت أعظم بركة على قومها منها، وقيل أنَّ النبي ﷺ خطبها فزوّجه أبوها.

توفيت في سنة خمسين، وقيل سنة ست وخمسين، رضي الله عنها وأرضاها.

٩- أمُّ المؤمنين أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان القرشية، وهي من بنات عم الرسول ﷺ، ليس في أزواجه مَنْ هي أقرب نسباً إليه منها، ولا في نسائه مَنْ هي أكثر صداقاً منها، ولا مَنْ تزوج بها وهي نائية الدار أبعد منها، تزوّجها النبي ﷺ في الحبشة، زوّجها إياه النجاشي ومهرها أربعة آلآف درهم، وبعث بها إلى النبي ﷺ مع شرحبيل بن حسنة وجهازها كله من عند النجاشي، توفيت سنة أربع وأربعين، وقيل اثنين وأربعين، وقبرها بالمدينة، رضي الله عنها وأرضاها.

١٠ - أمُّ المؤمنين صفية بنت حيي بن أخطب، من ذرية رسول الله هارون «عليه السلام»، سُبيت يوم خيبر فأعتقها النبي ﷺ وتزوّجها وجعل عتقها صداقها، وكانت امرأة شريفة عاقلة ذات حسب ودين وحلم ووقار.

روى الترمذي عن أنس رضي الله عنه قال: بلغ صفّية أنَّ حفصة قالت: بنتُ يهودي فبكت، فدخل عليها النبي صلى الله عليه وسلّم وهي تبكي، فقال: ما يبكيك؟ فقالت: قالت لي حفصة: إنّي بنتُ يهودي فقال النبي ﷺ: إنّك لابنة نبيّ، وإنَّ عمّك لنبيّ، وإنّك

لتحت نبيّ، ففيمَ تفخرُ عليك؟ ثمَّ قال: اتقِ الله يا حفصة.

توفيت سنة ست وثلاثين، وقيل سنة خمسين، وقبرها بالبقيع، رضي الله عنها وأرضاها.

١١- أمُّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث الهلالية، كان اسمها برّة فغيّره النبي ﷺ، وهي أخت أمِّ الفضل زوجة العباس، وخالة خالد بن الوليد، وابن عباس، كانت من سادات النساء، تزوّجها النبي ﷺ في ذي القعدة من السنة السابعة للهجرة، بعد فراغه من عمرة القضاء، وبنى بها في سرف وكان حلالاً [١] على الصحيح، وهي آخر نساء النبي ﷺ، فلم يتزوّج بعدها.

توفيت سنة إحدى وخمسين للهجرة، وقبرها بسَرَف، رضي الله عنها وأرضاها.

فهؤلاء نساؤه المعروفات اللاتي دخل بهن، وأمّا مَنْ خطبها ولم يتزوجها ومن وهبت نفسها له ولم يتزوجها فنحو أربع أو خمس، فقد بعث إلى الجونية ليتزوّجها، فدخل عليها ليخطبها فاستعاذت منه، فأعاذها ولم يتزوّجها، وكذلك الكلبية، وكذلك التي رأى بكشحها بياضاً فلم يدخل بها، والتي وهبت نفسها له فزوّجها غيره على سور من القرآن، هذا هو المحفوظ، والله أعلم.

ولا خلاف أنّه ﷺ توفي عن تسع، وكان يقسم منهنَّ لثمان: عائشة، وحفصة، وزينب بنت جحش، وأمُّ سلمة، وصفية، وأمُّ حبيبة، وميمونة، وسودة، وجويرية، وماتت في حياته اثنتان: خديجة بنت خويلد، وزينب بنت خزيمة رضي الله عنهما.

وأول نسائه لحوقاً به بعد وفاته ﷺ زينب بنت جحش سنة عشرين، وآخرهنَّ موتاً أمُّ سلمة سنة اثنتين وستين في خلافة يزيد، والله أعلم. [٢]

وقد تسرَّى النبي ﷺ باثنتين، مارية القبطية، وريحانة بنت زيد النضرية أو القُرظية، أمّا مارية فقد أهداها له المقوقس، وقد ولدت له إبراهيم، وأمّا ريحانة فقد كانت من سبايا بني قريظة.

---

(١) أي أنَّه لم يكن محرماً.

(٢) زاد المعاد: ج١/ ١١٠.

أعمامه وعمّاته ﷺ

وأعمامه صلى الله عليه وسلّم تسعة: أبو طالب [1]، وأبو لهب [2]، وحمزة رضي الله عنه، والعباس رضي الله عنه، والزبير، وعبد الكعبة، والمقوّم، والحارث، وضرار، والغيداق [3]

ولم يُدرك الإسلام منهم إلّا أربعة وهم: أبو طالب وأبو لهب، وحمزة والعباس، أسلم منهم اثنان وهما حمزة والعباس رضي الله عنهما، وكفر أبو طالب وأبو لهب، وهؤلاء الأربعة أمّهاتهم مختلفة وليسوا بأشقاء.

وأمّا عمّاته ﷺ فهنَّ ستة: صفيّة، وأمُّ حكيم (البيضاء)، وعاتكة، وأميمة، وأروى، وبرَّة.

ولم يسلم منهُنَّ إلّا صفّية وأختُلفَ في إسلام عاتكة وأروى وصحَّح بعض أهل العلم إسلام أروى.

---

(١) واسمه: عبد مناف.

(٢) واسمه عبد العزى.

(٣) واسمه حجل.

مُـلحق ٢
النبي ﷺ يحرّض أمته على الجهاد في سبيل الله

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: انتدب الله لمَنْ خرج في سبيله لا يُخرجه إلا إيمانٌ بي، وتصديقٌ برسلي أنْ أرجعه بما نال من أجرٍ أو غنيمةٍ أو أُدخِله الجنّة، ولولا أن أشقَّ على أمّتي ما قعدت خلف سريّة، ولوددتُ أنّي أُقتل في سبيل الله، ثمَّ أحيا، ثمَّ أُقتل، ثمَّ أحيا، ثمَّ أُقتل. (١)

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: تَعِسَ عبدُ الدينار، وعبد الدرهم، وعبد الخميصة (٢)، إنْ أُعطي رضي، وإنْ لم يُعطَ سَخِط، تعسَ وانتكس، وإذا شِيكَ فلا انتقش (٣)، طوبى لعبدٍ آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعثٌ رأسه، مغبرّةٌ قدماه، إنْ كان في الحراسة كان في الحراسة، وإنْ كان في الساقة كان في الساقة، إنْ استأذَن لم يُؤذَن له، وإنْ شَفَعَ لم يُشفَّع.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل للنبي ﷺ: ما يعدل الجهاد في سبيل الله عز وجل؟ قال: لا تستطيعونه، قال: فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثاً، كلُّ ذلك يقول: لا تستطيعونه، وقال في الثالثة: مَثُل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صيام ولا صلاة حتى يرجع المجاهد في سبيل الله تعالى. (٤)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لَغدوة في سبيل الله أو رَوْحة خير من الدنيا وما فيها. (٥)

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: جاهدوا في سبيل الله، فإنَّ

(١) متفق عليه.
(٢) (٥) ثوب من صوف أو خز، والخز: ما نُسِج من حرير أو من صوف وحرير.
(٣) والمعنى إذا أصابته الشوكة فلا وجد من يخرجها منه بالمنقاش. فتح الباري
(٤) متفق عليه.
(٥) متفق عليه.

الجهاد في سبيل الله تبارك وتعالى بابٌ من أبواب الجنّة، يُنجّي الله تبارك وتعالى به من الهمِّ والغم. [(١)]

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: مَنْ قاتل في سبيل الله فواق ناقة [(٢)] فقد وجبت له الجنة. [(٣)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إنَّ في الجنّة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنّه أوسط الجنة وأعلى الجنّة، أراه فوقه عرش الرحمن ومنه تفجر أنهار الجنة. [(٤)]

وعن أبي سعيد الخدري «رضي الله عنه» أنَّ رسول الله ﷺ قال: يا أبا سعيد: مَنْ رضي بالله ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد نبياً، وجبت له الجنّة، فعجب لها أبو سعيد، فقال: أَعِدْها عليَّ يا رسول الله، ففعل، ثمَّ قال: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنّة، ما بين كلِّ درجتين كما بين السماء والأرض، قال: وما هي يا رسول الله؟، قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله. [(٥)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: مَنْ أنفق زوجين من شيء من الأشياء في سبيل الله، دُعي من أبواب - يعني الجنّة - يا عبد الله هذا خير، فمَنْ كان من أهل الصلاة دُعي من باب الصلاة، ومن كان من أهل الجهاد دُعي من باب الجهاد، ومن كان من أهل الصدقة دُعي من باب الصدقة، ومن كان من أهل الصيام دُعي من باب الصيام وباب الريان، فقال أبو بكر: ما على هذا الذي يُدعى من تلك الأبواب من ضرورة، وقال: هل يُدعى منها كلُّها أحد يا رسول الله؟ قال: نعم،

---

(١) رواه الإمام أحمد، والحديث حسن بمجموع طرقه.
(٢) (٤) مقدار ما بين الحلبتين.
(٣) أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة والإمام أحمد، وإسناده صحيح.
(٤) رواه البخاري.
(٥) رواه مسلم.

وأرجو أن تكون منهم يا أبا بكر. [١]

وعن أبي عبس بن عبدالرحمن قال: سمعت النبي ﷺ يقول: من اغبرَّت قدماه في سبيل الله حرّمه الله على النار. [٢]

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنّة خير من الدنيا وما عليها، والرَوْحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها. [٣]

وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإنْ مات جرى عليه عمله الذي كان يعمله، وأجري عليه رزقه، وأَمِنَ الفتّان. [٤]

وعن فضالة بن عبيد رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: كلُّ الميت يختم على عمله إلّا المرابط، فإنّه ينمو له عمله إلى يوم القيامة، ويؤمن من فتان القبر. [٥]

وعن عثمان بن عفّان رضي الله عنه أنّه سمع رسول الله ﷺ، يقول: حرس ليلة في سبيل الله تعالى، أفضل من ألف ليلة يقام ليلها، ويصام نهارها. [٦]

وعن سهل بن الحنظلية رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال لأنس بن أبي مرثد الغنوي، وقد حرس المسلمين ليلة في سفرهم من أوّلها إلى الصباح على ظهر فرسه لم ينزل إلّا لصلاة أو قضاء حاجة، قال له: قد أوجبت، فلا عليك أن لا تعمل بعدها. [٧]

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنَّ الله جل وعلا يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنّة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به،

(١) متفق عليه.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه مسلم.
(٥) أخرجه أبو داود والترمذي والإمام أحمد وابن حبان، وإسناده صحيح.
(٦) رواه الإمام أحمد، والحديث حسن.
(٧) رواه أبو داود، وإسناده صحيح.

ومنبله، وارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحبّ إلي من أن تركبوا، ليس من اللهو إلا ثلاث تأديب الرجل فرسه، وملاعبته أهله، ورميه بقوسه ونبله، ومن ترك الرمي بعد ما علمه رغبة عنه فإنّها نعمة تركها، أو قال: كفرها. (١)

وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: مَنْ مات ولم يغزُ، ولم يحدِّث به نفسه مات على شعبة من نفاق. (٢)

وعن عبدالله بن عمر ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلّط الله عليكم ذُلاً لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم. (٣)

وقد فسَّر أبو أيوب الأنصاري ﵁ الإلقاء باليد إلى التهلكة في قوله تعالى ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥] بترك الجهاد. (٤)

وعن عبدالله بن أبي أوفى ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: واعلموا أنَّ الجنة تحت ظلال السيوف. (٥)

وعن أبي موسى الأشعري ﵁ قال: قال أعرابي للنبي ﷺ: الرجل يُقاتِل للمغنم، والرجل يُقاتِل ليُذكر، ويُقاتِل ليُرى مكانه، مَنْ في سبيل الله؟، فقال: مَنْ قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله. (٦)

وعن أبي هريرة ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ، يقول: إنَّ أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟، قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنّك قاتلت لأن يُقال جريء، فقد قيل، ثمَّ أُمِر به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه

---

(١) أخرجه أبو داود والإمام أحمد وابن ماجة، وهو حديث حسن بمجموع طرقه
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه الإمام أحمد وأبو داود.
(٤) رواه أبو داود والترمذي، وإسناده صحيح.
(٥) متفق عليه.
(٦) متفق عليه.

وقرأ القرآن، فأتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟، قال: تعلّمت العلم وعلّمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنّك تعلمت العلم ليُقال عالم، وقرأت القرآن ليُقال هو قارئ، فقد قيل، ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرَّفه نِعَمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟، قال: ما تركت من سبيل تحبُّ أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنّك فعلت ليُقال هو جواد، فقد قيل، ثمَّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه ثمَّ ألقي في النار. (١)

فضل الشهادة في سبيل الله

عن أبي هريرةﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: والذي نفس محمّدٍ بيده ما من كَلْمٍ يُكْلَم في سبيل الله إلّا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِم، لونه لون دم، وريحه مسك. (٢)

وعن أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ قال: ما من عبد يموت له عند الله خير يسرّه أن يرجع إلى الدنيا، وأنَّ له الدنيا وما فيها إلّا الشهيد، لِمَا يرى من فضل الشهادة، فإنّه يسره أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل مرة أخرى. (٣)

وسُئل عبدالله بن مسعود ﷺ عن قوله تعالى (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون) فقال: أَما إنّا قد سألنا عن ذلك فقال: أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح من الجنّة حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديل، فاطّلع إليهم ربهم اطّلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلمّا رأوا أنّهم لن يُتركوا من أن يسألوا قالوا: يا رب، نريد أن تُرد أرواحنا في أجسادنا

(١) رواه مسلم.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.

حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلمّا رأى أنْ ليس لهم حاجة تُرِكوا. [١]

وعن المقدام بن معد يكرب قال: قال رسول الله ﷺ: للشهيد عند الله ست خصال، يُغفَر له في أول دفعة، ويُرى مقعده من الجنّة، ويُجار من عذاب القبر ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويُزوَّج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويُشفَّع في سبعين من أقاربه. [٢]

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: لمّا قُتل عبد الله بن عمرو بن حرام يوم أحد، قال رسول الله ﷺ: يا جابر، ألا أخبرك ما قال الله جل وعلا لأبيك؟ قلت: بلى، قال: ما كلَّم الله أحداً إلا من وراء حجاب وكلَّم أباك كفاحاً، فقال: يا عبدي تمنَّ عليَّ أُعْطِك، قال: يا رب تحييني فأُقتل فيك ثانية، قال: إنّه سبق مني أنّهم إليها لا يرجعون، قال: يا رب فأبلغ من ورائي، فأنزل الله جل وعلا هذه الآية (ولا تحسبنَّ الذين قُتلوا في سبيل الله أمواتاً). [٣]

وعن عبدالله بن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لمّا أُصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طيرٍ خضرٍ ترد أنهار الجنّة، تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلّقة في ظلِّ العرش، فلمّا وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: مَنْ يبلغ إخواننا عنّا أنّا أحياء في الجنّة نُرزق لئلا يزهدوا في الجهاد، ولا ينكلوا عند الحرب، فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم، قال: فأنزل الله (ولا تحسبنَّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً) [٤]

وعن أبي هريرة «رضي الله عنه» أنَّ رسول الله ﷺ قال: الشهيد لا يجد مسَّ القتل إلا كما يجد أحدكم القرصة يُقرَصها. [٥]

وعن نعيم بن همار أنَّ رجلا سأل النبي ﷺ: أي الشهداء أفضل؟ قال: الذين

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه الترمذي وصححه.

(٣) رواه الترمذي والإمام أحمد، وسنده حسن.

(٤) رواه أبو داود والإمام أحمد، وسنده حسن.

(٥) رواه النسائي.

إنْ يلقوا في الصف يلفتون وجوههم حتى يُقتلوا، أولئك ينطلقون في الغرف العلى من الجنة، ويضحك إليهم ربهم، وإذا ضحك ربك إلى عبد في الدنيا، فلا حساب عليه. (١)

وعن أبي هريرة ﵁ أن رسول الله ﷺ قال: لا يجتمع كافر وقاتله في النار أبداً.(٢)

في هديه ﷺ في الجهاد

قال الإمام ابن القيم ﵀: وكان النبي ﷺ يُبايع أصحابَه في الحرب على ألّا يفرّوا، وربما بايعهم على الموت، وبايعهم على الجهاد كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهجرة قبل الفتح، وبايعهم على التوحيد، والتزام طاعة الله ورسوله، وبايع نفراً من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئاً، وكان السوط يسقط من يد أحدهم، فينزل عن دابته، فيأخذه، ولا يقول لأحد: ناولني إياه. (٣)

وكان يشاور أصحابه في أمر الجهاد، وأمر العدو، وتخيّر المنازل، وفي «المستدرك» عن أبي هريرة: ما رأيت أحداً أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله ﷺ(٤)...... وكان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها (٥)، فيقول مثلًا إذا أراد غزوة حُنين: كيف طريق نجد ومياهها ومَنْ بها من العدو ونحو ذلك.

وكان يقول: الحرب خُدْعَةٌ (٦).....

---

(١) رواه الإمام أحمد، وإسناده قوي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) (٢) رواه مسلم.

(٤) رواه الإمام أحمد والترمذي، وإسناده صحيح.

(٥) متفق عليه.

(٦) متفق عليه، من حديث أبي هريرة ﵁، وقوله: «خدعة»، يُروى هذا الحرف على ثلاثة أوجه أصوبها «خَدْعة» بفتح الخاء وسكون الدال، ومعناه: أنَّه مرة واحدة، أي إذا خدع المقاتل مرة، لم يكن لها إقالة، ويُقال: أي ينقضي أمرها بخدعة واحدة، ويُروى «خُدْعة» بضم الخاء وسكون الدال، وهي الاسم من الخداع، كما يُقال: هذه لعبة، ويُقال: «خُدْعة» ومعناه: أنَّها تخدع الرجال وتمنّيهم، ثمَّ لا تفي لهم، وفي الحديث التحريض على أخذ الحذر في

وكان إذا لقي عدوه، وقف ودعا، واستنصر الله، وأكثر هو وأصحابه من ذكر الله، وخفضوا أصواتهم، وكان يرتِّبُ الجيش والمقاتلة، ويجعل في كل جنبة كُفْئاً لها، وكان يبارَز بين يديه بأمره، وكان يلبس للحرب عدّته، وربما ظاهر بين درعين(١)، وكان له الألوية والرايات، وكان إذا ظهر على قوم، أقام بعرصتهم ثلاثاً، ثمَّ قفل(٢) وكان يحبُّ الخروج يوم الخميس بكرة النهار، وكان العسكر إذا نزل انضمَّ بعضه إلى بعض حتى لو بسط عليهم كساء لعمّهم (٣)

وكان يرتّب الصفوف ويعبّئهم عند القتال بيده، ويقول: تقدم يا فلان، تأخر يا فلان، وكان يستحب للرجل منهم أن يقاتل تحت راية قومه، وكان إذا لقي العدو، قال: اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم، وانصرنا عليهم(٤) وربما قال: سيُهزم الجمع ويولون الدبر بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر(٥)

وكان يجعل لأصحابه شعاراً في الحرب يُعرَفون به إذا تكلّموا، وكان شعارهم مرة: أَمِتْ أَمِتْ، ومرّة: يا منصور، ومرّة: حم لا ينصرون...... وقاتل مرّة بالمنجنيق نَصَبَه على أهل الطائف، وكان ينهى عن قتل النساء والولدان (٦) وكان ينظر في المقاتلة، فمن رآه أنبت قتله، ومن لم ينبت استحياه، وكان إذا بعث سرية يوصيهم بتقوى الله، ويقول: سيروا بسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله، ولا تمثِّلوا،

الحرب، والندب إلى خداع العدو، وأنَّ من لم يتيقظ لذلك لم يأمن أن ينعكس الأمر عليه، وفيه الإشارة إلى استعمال الرأي في الحرب، بل الاحتياج إليه آكد من الشجاعة كما قال الشاعر:

الرأي قبل شجاعة الشجعانِ *** هو أولٌ وهي المحل الثاني

(١) أخرجه أبو داود وابن ماجة والترمذي.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أخرجه الإمام أحمد وأبو داود.

(٤) متفق عليه.

(٥) رواه البخاري.

(٦) متفق عليه.

ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً [١]

وكان إذا ظفر بعدوه، أمر منادياً، فجمع الغنائم كلها، فبدأ بالأسلاب فأعطاها لأهلها، ثمَّ أخرج خمس الباقي، فوضعه حيث أراه الله، وأمره به من مصالح الإسلام، ثمَّ يرضخ [٢] من الباقي لمَنْ لا سهم له من النساء والصبيان والعبيد، ثم قسم الباقي بالسوية بين الجيش، للفارس ثلاثة أسهم: سهم له، وسهمان لفرسه، وللراجل سهم[٣]، هذا هو الصحيح الثابت عنه.

وكان ينفل من صلب الغنيمة بحسب ما يراه من المصلحة، وقيل: بل كان النفل من الخمس..... وجمع لسلمة بن الأكوع في بعض مغازيه بين سهم الراجل والفارس فأعطاه أربعة أسهم لعظم غنائه في تلك الغزوة [٤]، وكان يسوّي الضعيف والقوي في القسمة ما عدا النفل.

وكان يسهم لمن غاب عن الوقعة لمصلحة المسلمين، كما أسهم لعثمان سهمه من بدر، ولم يحضرها لمكان تمريضه لامرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ فقال: إنَّ عثمان انطلق في حاجة الله وحاجة رسوله فضرب له سهمه وأَجْره. [٥]

وكانوا يشترون معه في الغزو ويبيعون، وهو يراهم ولا ينهاهم، وأخبره رجل أنه ربح ربحا لم يربح أحد مثله، فقال: ما هو؟ قال: ما زلت أبيع وأبتاع حتى ربحت ثلاثمائة أوقية، فقال: أنا أنبّئك بخير رجل ربح قال: ما هو يا رسول الله؟ قال: ركعتين بعد الصلاة. [٦]

وكانوا يستأجرون الأجراء للغزو على نوعين: أحدهما: أن يخرج الرجل ويستأجر من يخدمه في سفره، والثاني: أن يستأجر من ماله من يخرج في الجهاد،

(١) رواه مسلم.
(٢) الرضخ: العطية القليلة.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم، وكان هذا في غزوة ذي قرد.
(٥) أخرجه أبو داود، ورجاله ثقات.
(٦) أخرجه أبو داود.

ويسمون ذلك الجعائل، وفيها قال: النبي ﷺ: للغازي أجره، وللجاعل أجره وأجر الغازي [١]

وكانوا يتشاركون في الغنيمة على نوعين أيضا. أحدهما: شركة الأبدان، والثاني: أن يدفع الرجل بعيره إلى الرجل أو فرسه يغزو عليه على النصف مما يغنم حتى ربما اقتسما السهم، فأصاب أحدهما قدحه، والآخر نصله وريشه.

وقال ابن مسعود: اشتركت أنا وعمّار وسعد فيما نصيب يوم بدر، فجاء سعد بأسيرين، ولم أجئ أنا وعمّار بشيء. [٢]

وكان المسلمون يصيبون معه في مغازيهم العسل والعنب والطعام فيأكلونه، ولا يرفعونه في المغانم.... وانفرد عبد الله بن المغفل يوم خيبر بجراب شحم، وقال: لا أعطي اليوم أحداً من هذا شيئاً، فسمعه رسول الله ﷺ، فتبسَّم ولم يقل له شيئاً [٣]....... وذكر أبو داود عن رجل من الأنصار قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فأصاب الناس حاجة شديدة وجهد، وأصابوا غنماً، فانتهبوها وإن قدورنا لتغلي إذ جاء رسول الله ﷺ يمشي على قوسه، فأكفأ قدورنا بقوسه، ثم جعل يرمل اللحم بالتراب، ثم قال: إنَّ النهبة ليست بأحلّ من الميتة، أو إنَّ الميتة ليست بأحلّ من النهبة. [٤]

ولمّا أصيب غلامه مدعم قالوا: هنيئاً له الجنّة قال: كلّا، والذي نفسي بيده إنَّ الشملة التي أخذها يوم خيبر من الغنائم لم تُصِبْها المقاسم لتشتعل عليه ناراً، فجاء رجل بشراك أو شراكين لما سمع ذلك، فقال: شراك أو شراكان من نار.

وقال أبو هريرة: قام فينا رسول الله ﷺ فذكر الغلول وعظمه، وعظم أمره، فقال:

---

(١) أخرجه أبو داود.
(٢) أخرجه أبو داود.
(٣) متفق عليه.
(٤) أخرجه أبو داود.

لا ألفينَّ أحدكم يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء [١]، على رقبته فرس له حمحمة[٢] يقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك، على رقبته صامت [٣]، فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً، قد أبلغتك، على رقبته رقاع تخفق [٤] فيقول: يا رسول الله أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئاً قد أبلغتك. [٥].....

وقالوا في بعض غزواتهم: فلان شهيد، وفلان شهيد، حتى مرّوا على رجل، فقالوا: وفلان شهيد، فقال: كلّا إنّي رأيته في النّار في بردة غلّها أو عباءة، ثمَّ قال رسول الله ﷺ: اذهب يا ابن الخطاب، اذهب فنادِ في الناس: إنّه لا يدخل الجنّة إلّا المؤمنون. [٦].......

كان يمنَّ على بعضهم (أي الأسرى)، ويقتل بعضهم، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضهم بأسرى المسلمين، وقد فعل ذلك كله بحسب المصلحة، ففادى أسارى بدر بمال، وقال: لو كان المطعم بن عدي حياً، ثمَّ كلمني في هؤلاء النتنى، لتركتهم له [٧]، وهبط عليه في صلح الحديبية ثمانون متسلحون يريدون غرّته، فأسرهم ثمَّ منَّ عليهم [٨]، وأسر ثمامة بن أثال سيد بني حنيفة، فربطه بسارية المسجد، ثمَّ أطلقه فأسلم. [٩].......

واستأذنه الأنصار أن يتركوا للعبّاس عمّه فداءه فقال: لا تَدَعوا منه درهماً. ......[١٠]

---

(١) صوت الشاة.

(٢) صوت الفرس عند العلف، وهو دون الصهيل.

(٣) الذهب والفضة.

(٤) تتقعقع وتضطرب، والمراد به الثياب التي غلّها

(٥) متفق عليه.

(٦) أخرجه مسلم.

(٧) أخرجه البخاري.

(٨) أخرجه مسلم.

(٩) متفق عليه.

(١٠) أخرجه البخاري.

ولمّا قسم سبايا بني المصطلق، وقعت جويرية بنت الحارث في السبي لثابت بن قيس بن شماس، فكاتبته على نفسها، فقضى رسول الله ﷺ كتابتها وتزوجها، فأعتق بتزوجه إياها مائة من أهل بيت بني المصطلق إكراماً لصهر رسول الله ﷺ، وهي من صريح العرب، ولم يكونوا يتوقفون في وطء سبايا العرب على الإسلام، بل كانوا يطؤونهن بعد الاستبراء، وأباح الله لهم ذلك، ولم يشترط الإسلام، بل قال تعالى: المحصنات من النساء إلا ما ملكت أيمانكم [النساء: ٢٤]، فأباح وطء ملك اليمين، وإن كانت محصنة إذا انقضت عدتها بالاستبراء، وقال له سلمة بن الأكوع، لما استوهبه الجارية الفزارية من السبي: والله يا رسول الله، لقد أعجبتني، وما كشفت لها ثوباً، ولو كان وطؤها حراماً قبل الإسلام عندهم، لم يكن لهذا القول معنى، ولم تكن قد أسلمت، لأنه قد فدى بها ناساً من المسلمين بمكة، والمسلم لا يفادى به، وبالجملة فلا نعرف في أثر واحد قط اشتراط الإسلام منهم قولاً أو فعلاً في وطء المسبية، فالصواب الذي كان عليه هديه وهدي أصحابه استرقاق العرب، ووطء إمائهنَّ المسبيات بملك اليمين من غير اشتراط الإسلام.

وكان ﷺ يمنع التفريق في السبي بين الوالدة وولدها، ويقول: من فرَّق بين والدة وولدها، فرق الله بينه وبين أحبته يوم القيامة. [1] اهـ [2]

في هديه ﷺ في الأمان، والصلح، ومعاملة رسل الكفار، وأخذ الجزية، ومعاملة أهل الكتاب، والمنافقين، وإجارة مَنْ جاءه من الكفار حتى يسمع كلام الله، ورده إلى مأمنه، ووفائه بالعهد، وبراءته من الغدر

قال الإمام ابن القيم رحمه الله: ثبت عنه أنَّه قال: المسلمون تتكافأ دماؤهم، وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، لا يُقتَل مؤمنٌ بكافر، ولا ذو عهد في عهده، مَنْ أَحْدَث حَدَثاً فعلى نفسه، ومن أَحْدث حَدَثاً أو آوى محدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. [3]

(١) أخرجه الإمام أحمد والترمذي من حديث أبي أيوب الأنصاري «رضي الله عنه»
(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد: ج٣/ ٨٦ - ١٠٤.
(٣) أخرجه أبو داود.

وثبت عنه أنَّه قال: مَنْ كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلنَّ عقدة ولا يشدها حتى يمضي أمده، أو ينبذ إليهم على سواء [1]

وقال: مَنْ أمَّن رجلاً على نفسه فقتله، فأنا بريء من القاتل، وفي لفظ: أُعطي لواء غدرة [2]، وقال: لكل غادر لواء عند استه يوم القيامة يعرف به يقال: هذه غدرة فلان بن فلان. [3]

ويذكر عنه أنّه قال: ما نقض قوم العهد إلا أُديلَ عليهم العدو. [4]

ولمّا قدم النبي ﷺ المدينة، صار الكفّار معه ثلاثة أقسام: قسم صالحهم ووادعهم على ألّا يحاربوه، ولا يظاهروا عليه، ولا يوالوا عليه عدوه، وهم على كفرهم آمنون على دمائهم وأموالهم، وقسم: حاربوه ونصبوا له العداوة، وقسم: تاركوه، فلم يصالحوه، ولم يحاربوه، بل انتظروا ما يؤول إليه أمره، وأمر أعدائه، ثمَّ من هؤلاء من كان يحبُّ ظهوره، وانتصاره في الباطن، ومنهم: من كان يحبُّ ظهور عدوه عليه وانتصارهم، ومنهم: مَنْ دخل معه في الظاهر، وهو مع عدوه في الباطن، ليأمن الفريقين، وهؤلاء هم المنافقون، فعامل كل طائفة من هذه الطوائف بما أمره به ربه تبارك وتعالى.......

وكان هديه ﷺ أنّه إذا صالح قوماً فنقض بعضهم عهده، وصلحه، وأقرهم الباقون، ورضوا به، غزا الجميع، وجعلهم كلهم ناقضين، كما فعل بقريظة، والنضير، وبني قينقاع، وكما فعل في أهل مكة، فهذه سُنَّته في أهل العهد، وعلى هذا ينبغي أن يجري الحكم في أهل الذمّة كما صرح به الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم.......

وبهذا القول أفتينا ولي الأمر لمّا أحرقت النصارى أموال المسلمين بالشام ودورهم، وراموا إحراق جامعهم الأعظم حتى أحرقوا منارته، وكاد - لولا دفع الله - أن يحترق كله، وعلم بذلك من علم من النصارى، وواطئوا عليه وأقروه ورضوا

(١) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٢) أخرجه الإمام أحمد.

(٣) متفق عليه.

(٤) أخرجه الحاكم وصحَّحه، ووافقه الذهبي.

به، ولم يعلموا ولي الأمر، فاستفتى فيهم ولي الأمر من حضره من الفقهاء، فأفتيناه بانتقاض عهد من فعل ذلك، وأعان عليه بوجه من الوجوه، أو رضي به، وأقر عليه، وأن حدّه القتل حتماً، لا تخيير للإمام فيه كالأسير بل صار القتل له حدّاً، والإسلام لا يسقط القتل إذا كان حدّاً ممن هو تحت الذمة، ملتزماً لأحكام الله بخلاف الحربي إذا أسلم، فإن الإسلام يعصم دمه وماله، ولا يقتل بما فعله قبل الإسلام، فهذا له حكم، والذمي الناقض للعهد إذا أسلم له حكم آخر، وهذا الذي ذكرناه هو الذي تقتضيه نصوص الإمام أحمد وأصوله، ونصَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية "رحمه الله"، وأفتى به في غير موضع.

وكان هديه وسُنَّته إذا صالح قوماً وعاهدهم، فانضاف إليهم عدو له سواهم، فدخلوا معهم في عقدهم، وانضاف إليه قوم آخرون، فدخلوا معه في عقده، صار حكم مَنْ حارب من دخل معه في عقده من الكفار حكم من حاربه، وبهذا السبب غزا أهل مكة، فإنّه لمّا صالحهم على وضع الحرب بينهم وبينه عشر سنين، تواثبت بنو بكر بن وائل، فدخلت في عهد قريش وعقدها، وتواثبت خزاعة فدخلت في عهد رسول الله ﷺ وعقده، ثمَّ عَدَت بنو بكر على خزاعة فبيتتهم، وقتلت منهم، وأعانتهم قريش في الباطن بالسلاح، فعدَّ رسول الله ﷺ قريشا ناقضين للعهد بذلك، واستجاز غزو بني بكر بن وائل لتعديهم على حلفائه.

وبهذا أفتى شيخ الإسلام ابن تيمية بغزو نصارى المشرق لمّا أعانوا عدو المسلمين على قتالهم، فأمدّوهم بالمال والسلاح، وإن كانوا لم يغزونا ولم يحاربونا، ورآهم بذلك ناقضين للعهد، كما نقضت قريش عهد النبي ﷺ بإعانتهم بني بكر بن وائل على حرب حلفائه، فكيف إذا أعان أهل الذمة المشركين على حرب المسلمين. والله أعلم.

وكانت تَقدُمُ عليه رسل أعدائه، وهم على عداوته، فلا يهيجهم، ولا يقتلهم، ولمّا قدم عليه رسولا مسيلمة الكذّاب وهما عبد الله بن النواحة وابن أثال، قال

لهما: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال، فقال رسول الله ﷺ: لولا أنَّ الرسل لا تُقتَل لضربت أعناقكما [١]، فجرت سنّته ألاّ يُقتَل رسول، وكان هديه أيضا ألاّ يحبس الرسول عنده إذا اختار دينه فلا يمنعه من اللحاق بقومه بل يردُّه إليهم كما قال أبو رافع: بعثتني قريش إلى النبي ﷺ فلمّا أتيته، وقع في قلبي الإسلام، فقلت: يا رسول الله! لا أرجع إليهم. فقال: إنّي لا أخيس بالعهد، ولا أحبس البُرُد، ارجع إليهم، فإن كان في قلبك الذي فيه الآن، فارجع [٢].....

وكان من هديه، أنَّ أعداءه إذا عاهدوا واحداً من أصحابه على عهد لا يضرُّ بالمسلمين من غير رضاه، أمضاه لهم، كما عاهدوا حذيفة وأباه الحسيل أن لا يقاتلاهم معه ﷺ، فأمضى لهم ذلك وقال لهما: انصرفا نفي لهم بعهدهم، ونستعين الله عليهم [٣]

وصالح قريشاً على وضع الحرب بينه وبينهم عشر سنين، على أنَّ مَنْ جاءه منهم مسلماً ردَّه إليهم، ومَنْ جاءهم من عنده لا يردونه إليه [٤]، وكان اللفظ عاماً في الرجال والنساء، فنسخ الله ذلك في حق النساء، وأبقاه في حق الرجال، وأمر الله نبيه والمؤمنين أن يمتحنوا مَنْ جاءهم من النساء، فإن علموها مؤمنة لم يردوها إلى الكفّار، وأمرهم بردِّ مهرها إليهم لِمَا فات على زوجها من منفعة بضعها، وأمر المسلمين أن يردوا على من ارتدَّت امرأته إليهم مهرها إذا عاقبوا، بأن يجب عليهم ردّ مهر المهاجرة، فيردونه إلى من ارتدّت امرأته، ولا يردّونها إلى زوجها المشرك، فهذا هو العقاب، وليس من العذاب في شيء، وكان في هذا دليل على أنَّ خروج البضع من ملك الزوج متقوّم، وأنّه متقوّم بالمسمّى الذي هو ما أنفق الزوج لا

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) أخرجه أبو داود والإمام أحمد، من حديث أبي رافع «ﷺ»، وإسناده صحيح، وقوله (لا أخيس العهد) معناه: لا أنقض العهد ولا أفسده، من قولك: خاس الشيء في الوعاء، إذا فسد، ولا أحبس البُرُد معناه: لا أحبس من يأتيني بالبريد من أعدائي.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه البخاري ومسلم.

بمهر المثل، وأنَّ أنكحة الكفار لها حكم الصحة، لا يحكم عليها بالبطلان، وأنّه لا يجوز ردّ المسلمة المهاجرة إلى الكفار ولو شرط ذلك، وأنَّ المسلمة لا يحل لها نكاح الكافر، وأنَّ المسلم له أن يتزوج المرأة المهاجرة إذا انقضت عدتها، وآتاها مهرها، وفي هذا أبين دلالة على خروج بضعها من ملك الزوج، وانفساخ نكاحها منه بالهجرة والإسلام، وفيه دليل على تحريم نكاح المشركة على المسلم، كما حرم نكاح المسلمة على الكافر.

ولم يقتضِ عقد الصلح الأمان على النفوس والأموال إلا عمّن هو تحت قهره، وفي قبضته، كما ضمن لبني جذيمة ما أتلفه عليهم خالد من نفوسهم وأموالهم وأنكره، وتبرأ منه [1]........

ولم يقتضِ عهد الصلح أن ينصرهم على من حاربهم ممن ليس في قبضة النبي ﷺ وتحت قهره، فكان في هذا دليل على أن المعاهدين إذا غزاهم قوم ليسوا تحت قهر الإمام وفي يده، وإن كانوا من المسلمين أنَّه لا يجب على الإمام ردُّهم عنهم، ولا منعهم من ذلك، ولا ضمان ما أتلفوه عليهم.

وأخذ الأحكام المتعلقة بالحرب، ومصالح الإسلام وأهله وأمره وأمور السياسات الشرعية من سيره ومغازيه أولى من أخذها من آراء الرجال، فهذا لون،

---

(١) أخرجه البخاري والنسائي وأحمد عن ابن عمر «رضي الله عنهما» قال: بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، فدعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا فجعلوا يقولون: صبأنا صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منّا أسيره، حتى إذا كان يوم أمر خالد أن يقتل كل رجل منّا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري، ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قدمنا على النبي ﷺ فذكرناه فرفع النبي ﷺ يده فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد، مرتين، وأخرج ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق: فحدثني حكيم بن حكيم، عن أبي جعفر محمد بن علي قال: ثمَّ دعا رسول الله ﷺ علياً بن أبي طالب رضوان الله عليه ، فقال: يا علي، اخرج إلى هؤلاء القوم، فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك، فخرج علي حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله ﷺ فودى لهم الدماء، وما أصيب لهم من الأموال، حتى إنّه ليدي لهم ميلغة الكلب، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلّا وداه.

وتلك لون، وبالله التوفيق. اهـ.[١]

وعلّق الإمام ابن القيّم رحمه الله على صلح النبي ﷺ لأهل خيبر لمّا ظهر عليهم فقال: وفي القصة دليل على جواز عقد الهدنة مطلقاً من غير توقيت، بل ما شاء الإمام، ولم يجئ بعد ذلك ما ينسخ هذا الحكم البتة، فالصواب جوازه وصحته، وقد نصَّ عليه الشافعي في رواية المُزني، ونصَّ عليه غيره من الأئمة ولكن لا ينهض إليهم ويحاربهم حتى يعلمهم على سواء ليستووا هم وهو في العلم بنقض العهد، وفيها دليل على جواز تعزير المتهم بالعقوبة، وأنَّ ذلك من السياسات الشرعية، فإنَّ الله سبحانه كان قادراً على أن يدل رسول الله ﷺ على موضع الكنز بطريق الوحي، ولكن أراد أن يسنَّ للأمة عقوبة المتهمين، ويوسع لهم طرق الأحكام رحمة بهم، وتيسيراً لهم.

وفيها دليل على الأخذ بالقرائن في الاستدلال على صحة الدعوى وفسادها، لقوله ﷺ لسعية لمّا ادعى نفاد المال: العهد قريب، والمال أكثر من ذلك.....

وأمّا هديه في عقد الذمة وأخذ الجزية، فإنّه لم يأخذ من أحد من الكفار جزية إلا بعد نزول سورة براءة في السنة الثامنة من الهجرة، فلمّا نزلت آية الجزية، أخذها من المجوس [٢]، وأخذها من أهل الكتاب، وأخذها من النصارى، وبعث معاذاً رضي الله عنه إلى اليمن، فعقد لِمَنْ لم يُسلِم من يهودها الذمّة، وضرب عليهم الجزية ولم يأخذها من يهود خيبر، فظنَّ بعض الغالطين المخطئين أنَّ هذا حكم مختص بأهل خيبر، وأنَّه لا يؤخذ منهم جزية، وإنْ أُخذت من سائر أهل الكتاب، وهذا من عدم فقهه في السير والمغازي، فإنَّ رسول الله ﷺ قاتلهم وصالحهم على أن يقرّهم في الأرض ما شاء ولم تكن الجزية نزلت بعد، فسبق عقد صلحهم وإقرارهم في أرض خيبر نزول الجزية، ثمَّ أمره الله سبحانه وتعالى أن يقاتل أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية فلم يدخل في هذا يهود خيبر إذ ذاك، لأنَّ العقد كان قديماً بينه وبينهم على إقرارهم، وأنْ يكونوا عمّالاً

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد / ج٣: ١١٢ - ١٢٩.
(٢) رواه البخاري.

في الأرض بالشطر، فلم يطالبهم بشيء غير ذلك وطالب سواهم من أهل الكتاب ممّن لم يكن بينه وبينهم عقد كعقدهم بالجزية، كنصارى نجران، ويهود اليمن، وغيرهم، فلمّا أجلاهم عمر إلى الشام، تغيّر ذلك العقد الذي تضمن إقرارهم في أرض خيبر، وصار لهم حكم غيرهم من أهل الكتاب.......

فلمّا نزلت آية الجزية، أخذها ﷺ من ثلاث طوائف: من المجوس، واليهود، والنصارى، ولم يأخذها من عُبّاد الأصنام، فقيل: لا يجوز أخذها من كافر غير هؤلاء، ومَنْ دان بدينهم، اقتداء بأخذه وتركه، وقيل بل تؤخذ من أهل الكتاب وغيرهم من الكفار كعَبَدَة الأصنام من العجم دون العرب، والأول قول الشافعي رحمه الله وأحمد في إحدى روايتيه، والثاني: قول أبي حنيفة، وأحمد رحمهما الله في الرواية الأخرى....... ولا فرق بين عبّاد النار، وعبّاد الأصنام بل أهل الأوثان أقرب حالاً من عباد النار، وكان فيهم من التمسك بدين إبراهيم ما لم يكن في عباد النار، بل عبّاد النار أعداء إبراهيم الخليل، فإذا أخذت منهم الجزية فأخذها من عباد الأصنام أولى، وعلى ذلك تدل سنّة رسول الله ﷺ، كما ثبت عنه في صحيح مسلم أنّه قال: إذا لقيت عدوك من المشركين، فادعهم إلى إحدى خلال ثلاث، فأيّتهن أجابوك إليها، فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم، ثمَّ أمره أن يدعوهم إلى الإسلام، أو الجزية، أو يقاتلهم، وقال المغيرة لعامل كسرى: أمرنا نبينا أن نقاتلكم حتى تعبدوا الله، أو تؤدوا الجزية [1]، وقال رسول الله ﷺ لقريش: هل لكم في كلمة تدين لكم بها العرب، وتؤدي العجم إليكم بها الجزية، قالوا: ما هي؟ قال «لا إله إلا الله» [2].....

وصالح أهل نجران من النصارى على ألفي حلّة، النصف في صفر، والبقية في رجب.....

ولمّا وجَّه معاذاً إلى اليمن، أمره أن يأخذ من كل محتلم ديناراً أو قيمته من المعافري، وهي ثياب تكون باليمن، وفي هذا دليل على أنَّ الجزية غير مقدَّرة

(١) (١) أخرجه البخاري.
(٢) (٢) أخرجه الإمام أحمد.

الجنس، ولا القدر، بل يجوز أن تكون ثياباً وذهباً وحُللاً،، وتزيد وتنقص بحسب حاجة المسلمين، واحتمال مَنْ تؤخذ منه، وحاله في الميسرة، وما عنده من المال.

ولم يفرّق رسول الله ﷺ، ولا خلفاؤه في الجزية بين العرب والعجم، بل أخذها رسول الله ﷺ من نصارى العرب، وأخذها من مجوس هجر، وكانوا عرباً، فإنَّ العرب أمّة ليس لها في الأصل كتاب، وكانت كل طائفة منهم تدين بدين من جاورها من الأمم، فكانت عرب البحرين مجوساً لمجاورتها فارس، وتنوخ، وبهرة، وبنو تغلب نصارى لمجاورتهم للروم، وكانت قبائل من اليمن يهود لمجاورتهم ليهود اليمن..... وفي قوله لمعاذ (خُذْ من كل حالم ديناراً) دليل على أنَّها لا تؤخذ من صبي ولا امرأة.

وأكثر من أخذ منهم النبي ﷺ الجزية العرب من النصارى، واليهود، والمجوس، ولم يكشف عن أحد منهم متى دخل في دينه، وكان يعتبرهم بأديانهم لا بآبائهم. اهـ.[1]

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: ج٣/ ١٣٢ - ١٤٣.

الخـاتمة

هذه هي سيرة رسول الله ﷺ، نقلناها إليك كما هي، لم نجتزئها بالطريقة التي تخدم مصالحنا وأهواءنا كما فعلت الأغلبية الساحقة من المعاصرين ممّن يُنسبون إلى العلم، وعلى وجه الخصوص منهم الذين كتبوا في سيرة رسول الله ﷺ.

إنَّ محمّداً ﷺ حين دعا الناس إلى حسن الخلق، وبرِّ الوالدين، وصلة الأرحام، والإحسان إلى الجار، وإتقان العمل، و

الصدق، والأمانة، وسائر الفضائل، ونهاهم عن سوء الخُلُق، وعقوق الوالدين، وقطع الأرحام، والإساءة إلى الجار، والغش، والكذب، والخيانة، والغدر، وسائر الرذائل، لم يجعل الأمر بهذه الفضائل والنهي عن تلك الرذائل الأساس الذي قامت عليه دعوته، وإنَّما كانت مكملات لأصل الدعوة وروحها وأساسها الذي قامت عليه، وجاهد رسول الله ﷺ وأصحابه من أجله، وهو التوحيد.

التوحيد هو الذي من أجله بعث الله ﷻ الأنبياء والمرسلين، وبسببه حدث الصدام العنيف بين الرسل وأقوامهم، حتى سالت دماء الرسل أنفسهم صلوات الله وسلامه عليهم.

من أجل التوحيد رُمي إبراهيم الخليل في النار، ونُشر زكريا بالمنشار، وذُبِح يحيى، وشوِّهت سمعة رسول الله ﷺ وعُذِّب صحابته.

نعم، التوحيد هو الذي من أجله خاض رسول الله ﷺ وصحابته ﭫ وتابعوهم بإحسان آلاف المعارك، وسفكوا في سبيله دماء عشرات الملايين من البشر، وقدَّم المسلمون من أجله الملايين من الشهداء والأسرى والجرحى، من أجل التوحيد ثُكِلَت أمّهات المسلمين، ويُتِّمَ أبناؤهم، ورُمِّلَت نساؤهم، وهُدِّمَت بيوتهم، وصودرت أموالهم، وغصَّت السجون بالملايين منهم عبر التاريخ.

فشجرة الإسلام العظيمة جذع وأغصان، جذعها هو التوحيد، وأغصانها هي

الأعمال الصالحة، وأعداء الله ﷻ لا ترعبهم الأغصان في شجرة الإسلام العظيمة، فهم لا يسوؤهم أن ندعوَ الناس إلى الفضائل وترك الرذائل، لأنَّهم يعلمون أنَّهم لن يحتاجوا لهدم ما بنيناه في عشرات السنوات إلّا إلى بضعة أيام أو شهور، وأنَّ دعوتنا للناس للتمسّك بأغصان الشجرة دون جذعها لا تعدو أن تكون عبث أطفال، وأفعال سفهاء، لن تُهدِّد عروشهم وكياناتهم، بل إنَّهم يهدمون في نفس الوقت الذي نبني فيه، وهدمهم يفوق بنياننا بكثير، ففي اليوم الذي نسير فيه بالناس خطوة إلى الأمام، يعودون هم بهم ألف خطوة إلى الوراء، وفي نفس الوقت الذي ننجح فيه بهداية المئات من البشر حول العالم، يكونون هم قد أضلّوا الملايين وأسقطوهم في مستنقع الشرك والكفر والرذيلة، ثمَّ هم بعد ذلك لا يتركوننا وشأننا ندعو الناس إلى الله ﷻ وإلى دينه، بل يسلّطون علينا كلَّ وسائل بطشهم وقمعهم، كيف وهم مَنْ بيده السلطان والمال والإعلام، فيقتلون منّا مَنْ يقتلون، ويأسرون مَنْ يأسرون، ويشرِّدون مَنْ يشرِّدون، مع تشويه سمعتنا، ونسبتنا إلى كل منقصة ورذيلة.

إنَّ الذي يرعب أعداء الله ﷻ هو الجذع، هو التوحيد، فهو الذي يُهدِّد عروشهم، ويزلزل كياناتهم، وحياة الأغصان إنَّما هي تحصيل حاصل لحياة الجذع وقوّته.

والملأ من قريش ما كانوا ليصطدموا برسول الله ﷺ ذلك الصدام العنيف، ويعلنوها حرباً لا هوادة فيها عليه وعلى أتباعه، لو أنَّه دعاهم إلى إصلاح اجتماعي من خلال الأمر بالفضائل والنهي عن الرذائل، نعم، ما كان ذلك ليسوء أبا جهل، وأبا لهب، وعتبة، وشيبة، والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل السهمي أو غيرهم من سادات قريش وملئها، كيف وقد وجدناهم يكبرون من يفعل ذلك أو بعضه من الناس، ألم يقبلوا من أبي لهب دفاعه عن رسول الله ﷺ بعد وفاة أبي طالب حتى أنَّهم قالوا له: لقد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم؟!.

ولذلك كان نشر التوحيد في العالم من خلال القضاء على الأنظمة الحاكمة، وإزاحتها بالقوة، ومنعها من أن تقف حائلاً بين الناس ووصول دعوة التوحيد إليهم

هو الأساس الذي قامت عليه دعوة رسول الله ﷺ.

إنَّ التوحيد هو أصل شجرة الإسلام وجذعها، والأمر بالفضائل والنهي عن الرذائل أغصان في هذه الشجرة، فإذا ما انبتَّ الجذع وقُطِع لم يعد للأغصان قيمة لأنَّها ستذبل وتموت، قال تعالى: ﴿وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً﴾ [الفرقان: ٢٣]، ولذلك لم تنفع الأعمال الصالحة عمرو بن لحي ولا عبدالله بن جدعان ولا غيرهما ممّن كان الناس يعدّونهم من أهل الخير والصلاح، لم ينفعهم إطعام الطعام، وصلة الأرحام، وبذل المعروف، وحسن الخُلُق، وكان مصيرهم إلى النار، كما كانت النار مصير أبي طالب عمِّ رسول الله ﷺ والمدافع عنه، رغم أنَّه كان من خيار الناس وأبرِّهم وأوصلهم رحماً، ورغم ما قدَّمه من تضحيات عظيمة من أجل رسول الله ﷺ، صلة لرَحِمه، وبرّاً بابن أخيه، لكن لما انبتَّ الجذع عنده لم تنفعه الأغصان، فكان في ضحضاح من نار.

ألم يقل رسول الله ﷺ لعائشة رضي الله عنها حين سألته عن عبدالله بن جدعان وهل ستنفعه أعماله الصالحة التي كان يقوم بها: لا ينفعه، إنَّه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين؟.

وبالجملة فشجرة الإسلام العظيمة كلٌّ لا تتجزأ، جذع وأغصان، توحيد وعمل بالفضائل وترك للرذائل، فهذا هو إسلام محمد ﷺ، الجذع هو الأصل، ولا قيمة للأغصان بلا جذع، ومع ذلك فحذارِ أنْ لا تلتفت إلى الأغصان وتقول: عندي الجذع فلا حاجة لي بالأغصان.

وأخيراً فقد محضناك النصيحة، وبذلناها لك، راجين ما عند الله سبحانه وتعالى، وقد قال رسول الله ﷺ لعلي رضي الله عنه: لئن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْر النَّعم.

وصلِّ اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم

والحمد لله رب العالمين

١ / ذي القعدة / ١٤٤٠ هـ

الفهرس



